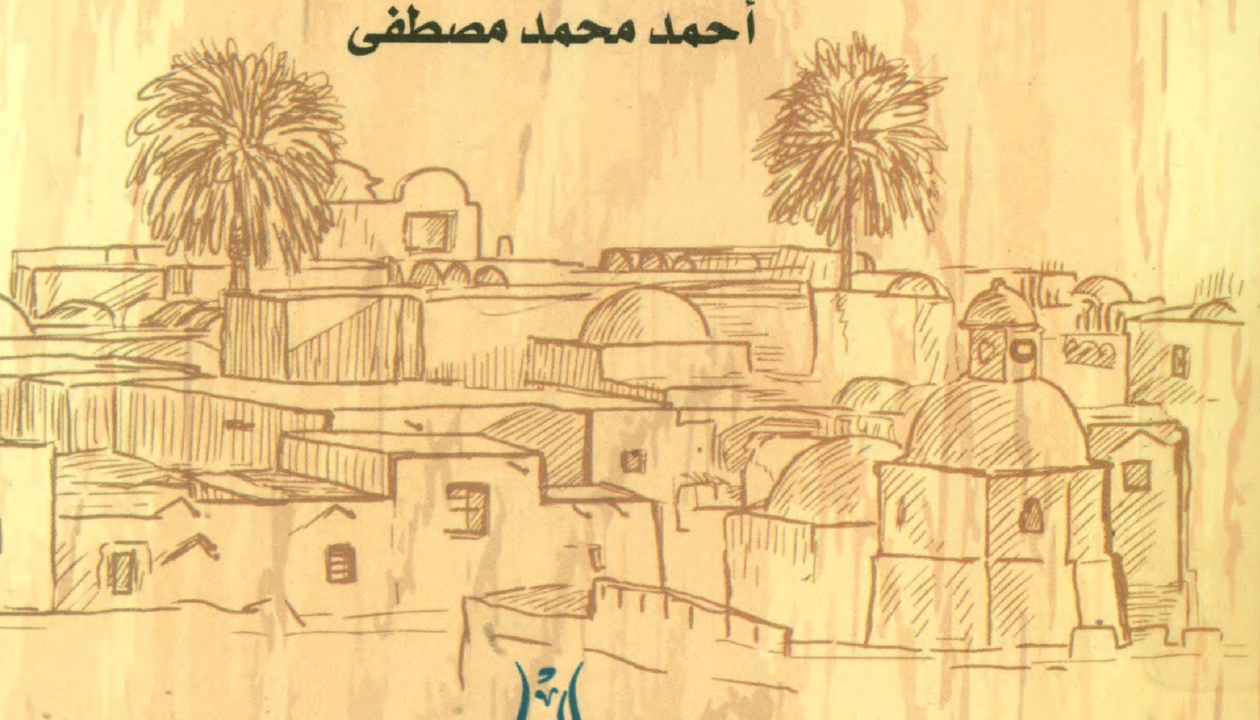
تاريخ العرب قبل الإسلام

الجزء الثاني

الأستاذ
أحمد محمد مصطفى



للنشر والتوزيع


للنشر والتوزيع



تاريخ العرب قبل الإسلام

الجزء الثاني

تاريخ العرب قبل الإسلام

الجزء الثاني

تاليف

الأستاذ

أحمد محمد مصطفى

الطبعة الأولى

2016م - 1437هـ



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2014/8/4122)

956.01

أحمد، أحمد محمد

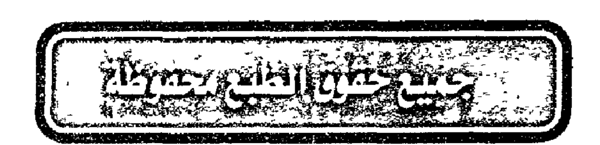
تاريخ العرب قبل الإسلام / أحمد محمد أحمد. -عمان: دار الاعصار العلمي للنشر والتوزيع، 2014

ج2 (   ) ص

ر.إ.: 2014/8/4122

الواصفات: / التاريخ العربي//العصر الجاهلي//الإسلام/

- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى



الطبعة العربية الأولى

2016م-1437هـ



الأردن - عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري

هاتف: 96264646208+ فاكس: 96264646470+

الأردن - عمان - مرج الحمام - شارع الكنيسة - مقابل كلية القدس

هاتف: 96265713906+ فاكس: 96265713907+

جوال: 797896091 - 00962

info@al-esar.com - www.al-esar.com

 دار الاعصار العلمي

ISBN 978-9957-98-043-6 (ردمك)

الإهداء

لمدرسي مادة التاريخ في الوطن العربي

الفهرس

المحتويات	الصفحة

الفصل الاول
شعائر الدين

الفصل الثاني
الحج و العمرة

الفصل الثالث
بيوت العبادة

الفصل الرابع
الكعبة

الفصل الخامس
الحنفاء

الفصل السادس
اليهودية بين العرب

الفصل السابع
النصرانية بين الجاهليين

الفصل الثامن

المجوس والصابئة

الفصل التاسع

العالم الخفي

المحتويات	الصفحة

الفصل الأول

شعائر الدين



الفصل الأول
شعائر الدين

ولكل دين شعائر تكون له سمة وعلامة تميزه عن غيره من الأديان. ولمّا كنا قد ذكرنا أن الجاهلين كانوا شعوباً وقبائل، لم تجمع بينهم وحدة فكر ولم تضمهم دولة واحدة، بعقيدة مشتركة، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن شعائر واحدة لجميع عرب الجاهلية.

وما سأذكره عن ديانات أهل الجاهلية، مستمد إما من نصوص جاهلية، وذلك فيما يخص العربية الغربية والعربية الجنوبية في الغالب، وإما من موارد إسلامية، وهو ما يتناول أهل الحجاز، قبل ظهور الإسلام، وبعض أنحاء نجد. وهو مما جاء عنهم في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي وفي كتب التفسير والسير والأخبار مما له صلة بأيام الجاهلية المتصلة بالإسلام، وبظهور الإسلام.

وفي مقدمة شعائر الدين عند أهل الجاهلية: الأصنام وبيوتها والتقرب إليها بالصلاة وبالسجود. وبالطواف حولها، وبالنذور. وبالحبوس وبالقسم بها، وذلك لتمنّ على عبدها الإنسان فتمنحه ما يرجوه. في هذه الحياة من صحة وعافية ومال ونسل وذكور وتكاد تنحصر الكتابات الجاهلية[1] التي عثر عليها حتى الآن بهذه الأمور، اذ لا نكاد نجد فيها شيئاً له علاقة بالآلهة يخرج عن حدود ما ذكرت. ويكاد يقتصر ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ديانة أهل الجاهلية بهذه الأمور ايضاً، فلا تتجاوز ما ذكرته من تقرب إلى صنم أو توسل إليه وطواف به، لنيل شيء منه يتمناه ويرجوه في هذه الحياة الدنيا.

أما الصلاة إلى الآلهة على نحو ما يفهم من الصلاة في الإسلام فلا نجد لها ذكراً في النصوص الجاهلية، ولا نكاد نجد لها صورة واضحة صحيحة في روايات أهل الأخبار، اللهم إلا فيما يخص صلوات اليهود والنصارى والعرب فقد

---

(1) Grohmann, S. 89, Jaussen-Savignac, Mission, II, 397, 401, 452.

كان هؤلاء يصلون في كنائسهم في أوقات معينة، وقف بعض أهل الجاهلية عليها، فأشاروا إليها في أشعارهم وفي حديثهم عن أهل الكتاب.

وقدْ ذكر أن عبدة (الشمس) كانوا قد «اتخذوا لها صنماً بيده جوهرعلى لون النار، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلّون فيه لها ثلاث مرات في اليوم، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به. وهم اذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها، واذا غربت واذا توسطت الفلك. ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة، لتقع عبادتهم وسجودهم له. ولهذا نهى النبي، صلى الله عليه وسلم، عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعاً لمشابهة الكفار ظاهراً، وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام»[1]. وذكر (اليعقوبي) أن العرب كانت «اذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلوّا عنده ثم تلبوا»[2]. وفي هذين الخبرين دلالة على وجود الصلاة عند الجاهليين، ولا سيما في خبر عبدة الشمس، حيث كانوا يصلّون ثلاث مرات لها في اليوم.

وذكر أن (التسبيح) بمعنى الصلاة والذكر، روي أن (عمر) جلد رجلين سبّحا بعد العصر، أي صلّيا. وإن قول الأعشى:

وسبحّ على حين العشيّات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

يعني الصلاة بالصباح والمساء. وعليه فسر قوله: فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، يأمرهم بالصلاة في هذيْن الوقتيْن[3].

---

(1) بلوغ الأرب (2/ 215 وما بعدها).

(2) اليعقوبي (1/ 225).

(3) اللسان (2/ 473)، (سبح).

وذكر انهم كانوا يصلون على موتاهم، وكانت صلاتهم ان يحمل الميت على سرير، ثم يقوم وليه، فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه. ثم يقول: عليك رحمة الله. ثم يدفن[1].

وقد أشير إلى سجود الناس للشمس والقمر في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (38)﴾[2]. «يقول تعالى ذكره: فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر، فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك ولا يتعظمون عنه»[3]. كما أشير إلى سجود أهل (سبأ) إلى (الشمس) في الآية: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22). إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[4]. وفي هذه الآية وصف لتعبد أهل سبأ للشمس وسجودهم لها. وقد ذكر المفسرون أن ملكة سبأ «كانت لها كوة مستقبلة الشمس، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها، فتسجد لها»[5]. فسجودهم للشمس، هو عبادة لها وتعظيماً لشأنها.

---

(1) المحبر (320 وما بعدها).

(2) سورة فصلت، الرقم 41، الآية 37 وما بعدها.

(3) تفسير الطبري (24/ 77).

(4) النمل، الرقم 27، الآية 24.

(5) تفسير الطبري (19/ 94 وما بعدها)، تفسير القرطبي (13/ 190 وما بعدها).

الصوم:

وأما (الصوم)، فنحن لا نجد له ذكراً في الكتابات الجاهلية بالمعنى المفهوم منه عند أهل الكتاب أو المسلمين. وهو في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له. وقيل للصائم صائم لامساكه عن المطعم والمشرب والمنكح، وقيل للصائم صائم، لامساكه عن الكلام. وقوله عزّ وجل: (إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا) . قيل:

معناه صمتاً، ويقويه قوله تعالى: (فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا)[1]. والصوم: الصبر كذلك.

وقد ذكر (الصوم) في السور المدنية، أما في السور المكية، فقد ذكر مرة واحدة، في (سورة مريم): (فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا)[2]. وقد حددت السور المدنية أصول الصيام في الإسلام.

والصوم المعروف عند اليهود والنصارى معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب. فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود، بسبب وجودهم بينهم. وكان عرب العراق وبلاد الشأم على علم بصوم النصارى، بسبب وجود قبائل عربية متنصرة بينهم. وكان أهل مكة، ولاسيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب. وبصيام الرهبان، المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة، للتفكير في ملكوت السماوات والأرض. ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم، وسلك مسلكهم. فكان يصوم، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والانزواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة.

ويذكر أهل الأخبار أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء. وفي هذا اليوم كانوا يحتفلون، ويعيدّون، ويكسون الكعبة، وعللوا ذلك بأن قريشاً أذنبت ذنباً في

---

(1) اللسان، (صوم).

(2) سورة مريم، رقم 19، الآية 26.

الجاهلية، فعظم في صدورهم، وأرادوا التكفير عن ذنبهم، فقرروا صيام يوم عاشوراء، فصاموه شكراً لله على رفعه الذنب عنهم[1]. وذكر أن رسول الله كان يصوم عاشوراء في الجاهلية، ولما قدم المدينة واظب عليه وأمر الناس بصيامه حتى نزل الأمر بصيام رمضان. وقد ذكر العلماء أنه يحتمل أن قريشاً اقتدت بصيامه في الجاهلية، بشرع سالف ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه[2]. وذكر بعضهم: كان يوم عاشوراء، يوماً تصومه قريش في الجاهلية، اقتداءً بشرع سابق، وكان النبي يصومه في الجاهلية، فلما قدم المدينة صامه على عادته وأمر أصحابه بصيامه في أول السنة الثانية، فلما نزل رمضان، كان من شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لا يصومه. وعلوا سبب صيام (قريش) هذا اليوم، إنه كان أصابهم قحط ثم رفع عنهم، فصاموه شكراً[3]. وورد «إن قريشاً كانت تعظم هذا اليوم، وكانوا يكسون الكعبة فيه، وصومه من تمام تعظيمه». وذكر أن رسول الله، كان يتحرى صوم يوم عاشوراء على سائر الأيام، وكان يصومه قبل فرض رمضان. فلما فرض رمضان، قال: من شاء صامه، ومن شاء تركه. وبقي هو يصومه تطوعاً، فقيل له: «يا رسول الله أنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال، صلى الله عليه وسلم: اذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله»[4].

وذكر أيضاً أن قريشاً كانوا اذا أصابهم قحط ثم رفع عنهم صاموا شكراً لله وحمداً له على إجابة دعوتهم[5].

---

(1) بلوغ الأرب (2/ 288).

(2) إرشاد الساري (3/ 421)، (باب حكم صيام عاشوراء).

(3) إرشاد الساري (6/ 174)، «باب أيام الجاهلية».

(4) زاد المعاد (1/ 164 وما بعدها).

(5) إرشاد الساري (6/ 174).

وقد أشار أهل الحديث إلى صيام (يوم عاشوراء)، فجعله بعضهم الصيام الذي كان في الإسلام قبل فرض صيام شهر رمضان، وذكر بعضهم إنه كان مفروضاً إلى السنة الثانية من الهجرة، ثم نسخ بصوم رمضان[1].

وقد أشير إلى الصيام في السور المكية من القرآن الكريم كما أشير إليه في السور المدنية، ويدل نزول الوحي به في مكة وفي المدينة أنه كان من الشعائر الدينية القديمة، وأن قريشاً كان لها علم به. ويظهر من بعض الآيات أن المراد من الصوم لم يكن الامتناع من الأكل والشرب حَسْبُ، بل كان يعني في أول عهد النبوة الامتناع عن الكلام كذلك[2].

ورواية أن قريشاً كانت تصوم في يوم (عاشوراء)، لا تتفق مع الروايات الأخرى في كيفية فرض صيام شهر رمضان. ففي هذه الروايات أن النبي «حين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء، فسألهم: فأخبروه أنه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون، ونجّى موسى ومن معه منهم. فقال: نحن أحق بموسى منهم، فصام، وأمر الناس بصومه. فلما فرض صوم شهر رمضان، لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء، ولم ينههم عنه»[3]. وورد أن يهود خيبر والمدينة كانوا يعظمون صيام عاشوراء ويتخذونه عيداً[4].

ويقصدون بصوم اليهود يوم عاشوراء، ما يقال له (يوم الكفارة)، وهو يوم صوم وانقطاع، ويقع قبل عيد المظال بخمسة أيام، أي في يوم (10 تشرى) وهو يوم (الكبور Kipur) ويكون الصوم فيه من غروب الشمس إلى غروبها في اليوم التالي،

---

(1) رجع كتب الحديث: باب الصوم.

(2) سورة مريم، الآية 26. وهي سورة مكية، رقمها 58 حسب نزول السور بمكة.

(3) الطبري (2/ 265)، «ذكر بقية ما كان في السنة الثانية من الهجرة»، إرشاد الساري (3/ 421).

(4) إرشاد الساري (3/ 423).

وله حرمة كحرمة السبت، وفيه يدخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس لأداء الفروض الدينية المفروضة في ذلك اليوم[1].

ومما يلاحظ أن علماء التفسير والحديث، قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في موضوع الصيام قبل نزول الأمر به وفرضه. فقال بعضهم كان المسلمون يصنعون كما تصنع من صيامهم خمسين يوماً (حتى كان من أمر أبي قيس بن صرمة وعمر بن الخطاب ما كان، فأحل لهم الأكل والشرب والجماع إلى طلوع الفجر)[2]. وقال بعض آخر، كان صيام الناس قبل فرض رمضان صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وذكر أن ذلك كان تطوعاً لا فرضاً، ولم يأتِ خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الإسلام غير صوم شهر رمضان[3]. ولم أتمكن من العثور علي خبر قاطع يفيد بأن المسلمين كانوا يصومون بمكة قبل الهجرة إلى المدينة.

ولا صلة لقصة (أبي قيس بن صرمة الأنصاري) (أبو صرمة الأنصاري) و(عمر بن الخطاب) بصيام عاشوراء ولا بعدد أيام الصوم. وكل ما ورد فيها أن المسلمين كانوا في أول ما فرض عليهم في رمضان اذ أفطروا وكان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يرقدوا، فإذا رقدوا حرم عليهم ذلك إلى مثلها من القابلة، فلم يزل المسلمون على ذلك، حتى نام (أبو قيس بن صرمة) بعد إفطاره وكان يعمل في حيطان المدينة بالأجر، فلما أفاق أبى أن يأكل شيئاً وأصبح صائماً، وكان (عمر) قد وقع على جارية له، فنزل الوحي بنسخ ذلك عنهم في آية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾[4]. فلا صلة لقصتيهما بموضوع الصوم.

---

(1) قاموس الكتاب المقدس (2/ 260).

(2) تفسير الطبري (2/ 75 ما بعدها).

(3) تفسير الطبري (2/ 76 وما بعدها).

(4) البقرة، الآية 187، تفسير الطبري (2/ 94 وما بعدها).

ويظهر أنه خبر صيام قريش يوم (عاشوراء) هو خبر متأخر ولا يوجد له سند يؤيده. ولا يعقل صيام قريش فيه، وهم قوم مشركون، وصوم (عاشوراء)، هو من صيام يهود. وهو صيام كفارة واستغفار عندهم، فَلِمَ يستغفر قريش ويصومون هذا اليوم؟ وماذا فعلوا من ذنب، ليطلبوا من آلهتهم العفو والغفران؟ وإذا كان هناك صوم عند الجاهليين، فقد كان بالأحرى أن يصومه الأحناف، ولم يرد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد صيامهم في (عاشوراء) ولا في غير عاشوراء. ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار، يذكرون أن الرسول صام (عاشوراء) مقدمه المدينة على نحو ما ذكرت قبل قليل، وأنه بقي عليه حتى نزل الأمر بفرض رمضان. ويظهر أن الرواة أقحموا اسم قريش في صيام (عاشوراء)، لإثبات أنه كان من السنن العربية القديمة، التي ترجع إلى ما قبل الإسلام وأن قريشاً، كانت تصوم قبل الإسلام[1].

ويظهر من روايات أهل الأخبار، أن صوم أهل الجاهلية: صوم امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء. وهو صوم الإسلام، وصوم امتناع عن الكلام وحبس للسان، إما لأمد معين قصير، مثل يوم أو أسبوع، وإما لأمد طويل. وقد أشير في القرآن الكريم إن هذا الصوم في قوله تعالى: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[2]. وروي أن رجالاً من زهاد أهل الجاهلية كانوا يصومون هذا الصوم.

وقد اتخذ الصوم نذراً، روي أن (أبا بكر) دخل على امرأة من (أحمس) يُقال لها (زينب)، فرآها لا تتكلم، فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجت مُصمتة، قال لها: تكلمي. فإن هذا لا يحل. هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت فقالت له: من أنت: قال امرؤ من المهاجرين. قالت: أي المهاجرين؟ قال لها: من قريش. قالت له: من أي قريش أنت؟ قال: إنك لسؤول. أنا أبو بكر. قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم.

---

(1) Sprenger, Leben, III, S. 54.

(2) سورة مريم، الرقم 19، الآية 26، تفسير الطبري (16/ 56)، روح المعاني (16/ 79).

قالت: وما الأئمة قال لها: كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى. قال: فهم أولئك على الناس[1].

فالتصميت، وهو الصوم عن الكلام، من فعل أهل الجاهلية. وهو معروف عندهم، ولعله وقع لهم بتأثرهم بأهل الكتاب.

التحنث:

ومن طرق عبادة أهل الجاهلية: التحنث، أي التعبد والتقرب الى الآلهة، ومن ذلك حديث (حكيم بن حزام): «أرأيت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة، أي أتقرب إلى الله تعالى بأفعال في الجاهلية»[2]. وكان رسول الله «يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان مما تحنّث به قريش في الجاهلية. والتحنث: التبرر». «فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به . اذا انصرف من جواره . الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً»، ثم يرجع إلى بيته. وذكر أن ذلك الشهر هو شهر رمضان[3].

الاختتان:

ومن شعائر الدين عند الجاهلين الاختتان. وهو من الشعائر الفاشية بينهم، حتى انهم كانوا يعيرون (الأغرل)، وهو الشخص الذي لم يختتن. وكان منهم ولا سيما أهل مكة من يختن البنات أيضاً، بقطع (بظورهن). وتقوم بذلك

---

(1) إرشاد الساري (6/ 175 وما بعدها)، (إنها مصمتة، إنها نذرت أنْ لا تتكلم. فقال: تكلمي إنما هذا من فعل الجاهلية)، الإصابة (4/ 315 وما بعدها)، (رقم 513، 515)، اللسان (2/ 55).

(2) تاج العروس (1/ 616)، (حنث).

(3) الطبري (2/ 300).

(الختانة) (الخاتنة). وقد كانوا يعيرون من تكون أمه (ختانة) نساء، فإذا أرادوا ذم أحد قالوا له: يا ابن مقطعة البظور، وإن لم تكن أم من يقال له: خاتنة[1].

وأما الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى، فمن السنن التي أقرت في الإسلام، وقد أشير إلى غسل الميت في شعر للأفوه الأوديّ. وأشير إلى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشعار منسوبة إلى الأعشى وإلى بعض الجاهليين[2]. وورد أن قريشاً كانت تغسل موتاها وتحنطهم، ولكننا لا نستطيع تعميم هذه الأمور على كل العرب، ولا الإدعاء بأنها كانت من شعائر الدين عندهم، لما ذكرته مراراً من اختلاف العرب بأمور دينهم، وعدم خضوعهم لدين واحد. بل ورد أن المشركين لم يكونوا يغتسلون من الجنابة، وقد ذهب المفسرون إلى أن لفظة (نجس) الواردة في الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾[3]. فانما قصد بها أجناب، «سمّاهم بذلك لأنهم يجنبون فلا يغتسلون. فقال: هم نجس ولا يقربوا المسجد الحرام، لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد»[4]. ولما نزل الأمر بمنع المشركين من دخول مكة، «شق ذلك على أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقالوا: من يأتينا بطعامنا ومن يأتينا بالمتاع؟ فنزلت»وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء». و«كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام ويتجرون فيه. فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون من أين لنا طعام؟ فأنزل الله وإن خفتم عيلة، فسوف يغنيكم الله من فضله»[5].

والقرابين والنذور وزيارات المعابد والحج، هي من أبرز الشعائر الدينية عند سواد الناس. وتكاد تكوّن مفهوم الدين عندهم، وذلك لما فيها من تماس مباشر بأمور حياتهم ومصالحهم. فهم يفعلون ذلك لغايات استرضاء الآلهة والتوسل

---

(1) تاج العروس (3/ 52)، (بظر)، نهاية الأرب (17/ 100).

(2) المحبر (319 وما بعدها).

(3) سورة التوبة، الآية 28.

(4) تفسير الطبري (10/ 74).

(5) تفسير الطبري (10/ 75).

إليها بأن تعطيها غلة وافرة ومالاً، فكانوا اذا تقربوا إلى صنم أو دعوا ربهم أو أدوا مناسك حجهم (فلا يسألون ربهم) إلاّ متاع الدنيا (فمن الناس من يقول: ربنا آتنا في الدنيا. هب لنا غنماً، هب لنا إبلاً). (وكانوا يعني في الجاهلية يقفون يعني بعد قضاء مناسكهم، فيقولون: اللهم ارزقنا إبلاً، اللهم ارزقنا غنماً)، وفي هؤلاء نزلت الآية: (فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)[1].

والفقر هو الذي حمل هؤلاء على أن يتقربوا إلى آلهتهم، بالنذور والقرابين وبالحج على فقرهم وجوعهم، على أمل أن تعطف الآلهة عليهم، فتمن عليهم بالمال واليسر والبركة والصحة، تماماً كما يفعل شراء أوراق (النصيب) أو أوراق سباق الخيل من الفقراء والمحتاجين على أمل الربح والكسب.

وهذه النظرة المادية الساذجة، هي التي حملت عوامهم على تهديد آلهتهم وإخبارها أنهم سيمتنعون عن تقديم أي نذر أو أداء أية زيارة لها، إنْ لم تمنّ عليهم وتستجيب لأدعيتهم، فتنفذ طلباتهم وما طلبوه منها. وهي التي تحملهم بعد ذلك على التراجع عن تهديداتهم هذه، وعلى الاستغفار وإظهار الندم لها، لما بدر منهم من سوء أدب، على أمل استرضاؤها من جديد، بعد أن فشلت وسائل التهديد من تخويف تلك الآلهة.

الحلال والحرام:

يقول (ابن عساكر) في رواية تنسب إلى رجل من خثعم: «كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحلّ حراماً. وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون إليها»[2]. ومعنى هذا إنهم كانوا يحلون ويحرمون. وأن أمر الحلال والحرام إلى رجال الدين منهم، وهم سدنة الأوثان.

---

(1) البقرة، الآية 200، تفسير الطبري (2/ 174 وما بعدها).

(2) التأريخ الكبير، لابن عساكر (1/ 317).

وقد تعرض (اليعقوبي) لموضوع (أديان العرب) وشعائرها، فقال:

«وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل، والانتقال إلى البلدان، والانتجاعات. فكانت قريش وعامة ولد (معد) بن عدنان على بعض دين إبراهيم، يحجون البيت ويقيمون المناسك، ويقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم، ويعاقبون على الجرائم»[1]. فأدخل في الدين أموراً نعدها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك، وجعلها من سنة إبراهيم، أي دين العرب القديم قبل إفساده بالتعبد للأصنام.

وذكر (السكري)، أن العرب كانت «دون من سواها من الأمم. تصنع عشرة أشياء منها: في الرأس خمسة. وهي المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقص الشارب. وفي الجسد خمسة. هي: الختانه وحلق العانة ونتف الأبطين، وتقليم الأظفار والاستنجاء. خصت بهذا العرب، دون الأمم»[2]. فهذه الأمور العشرة هي من شعائر العرب في نظر (السكري). وهي شعائر، لا يمكن أن نجاريه في رأيه، فنقول إنها كانت في جميع العرب، وإنها كانت فيهم خاصة، دون غيرهم من الأمم وفي كلام (السكري) أمور كثيرة لا يمكن التسليم بصحتها بل نجده هو يناقض نفسه في مواضع أخرى من كتابه، من ذلك قوله: «وكانوا يؤمنون بالحساب»[3] «ولا يأكلون الميتة»[4]، فعمم رأيه، وجعله شاملاً كل العرب، بينما هو رأي طائفة من الجاهليين، وليس جميع أهل الجاهلية. وللقرآن الكريم دليل ذلك، فقد حمل عليهم لنكرانهم البعث والحساب، وحرم على المسلمين أكل لحم الميتة. (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ)[5]. وكانوا يأكلونها في الجاهلية.

---

(1) اليعقوبي (1/ 224). (أديان العرب).

(2) المحبر (329).

(3) المحبر (322).

(4) المحبر (329).

(5) المائدة، الآية رقم 3، تفسير الطبري (6/ 44)، روح المعاني (6/ 51).

وورد أن ممن حرم أكل الميتة على نفسه (حارثة بن أوس) الكلبي، وهو جاهلي، يقول:

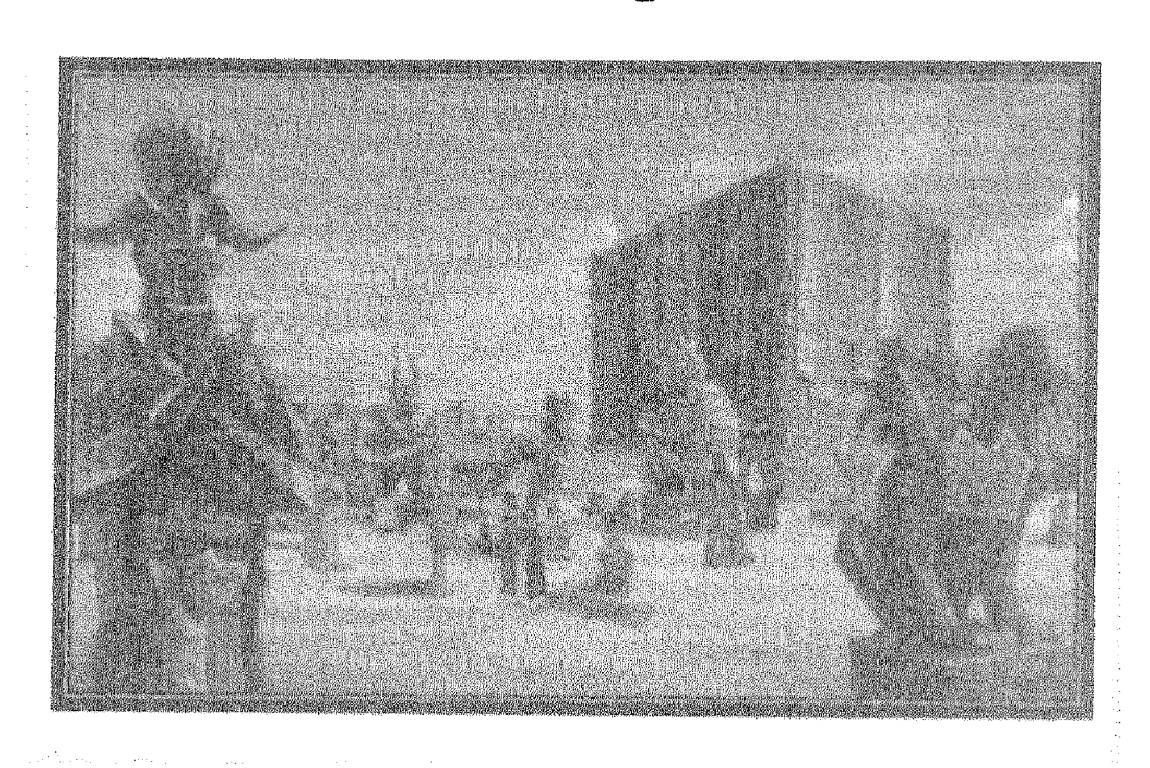
لا آكل الميتة ما عمرت نفسي وإن ابرح إملاقي

والعقد لا أنقض منه القوى حتى يواري القبر أطباقي[1]

(1) المحبر (329).

الفصل الثاني

الحج والعمرة



الفصل الثاني

الحج والعمرة

والحج الذهاب إلى الأماكن المقدسة في أزمنة موقوتة، للتقرب إلى الآلهة، والى صاحب ذلك الموضع المقدس. وتقابل هذه الكلمة Pilgrimage في الإنكليزية[1]. والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين.

وكلمة (حجّ) من الكلمات السامية الأصيلة العتيقة، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب المنسوبة إلى بني سام[2]. كما وردت في مواضع من أسفار التوراة[3]. وهي تعني قصد مكان مقدس وزيارته.

وفي روع الشعوب السامية القديمة وغيرها أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها، قيل لها في الأزمنة القديمة (بيوت الآلهة). ولذلك يرى المتعبدون والمتقون شدّ الرحال إليها، للتبرك بها وللتهرب إليها، وذلك في أوقات تحدد وتثبت، وفي أيام تعين تكون أياماً حرماً لكونها أياماً دينية ينصرف فيها الإنسان إلى آلهته، ولذلك تعدّ أعياداً، يعمد فيها الناس، بعد إقامتهم الشعائر الدينية المفروضة وبعد أدائهم القواعد المرسومة، إلى الفرح والسرور والرقص، ليدخلوا السرور إلى قلوب الأرباب. ففي الحج إذن مناسك وشعائر دينية وعبادة تؤدى، واجتماع وسرور وحبور.

ويكون الحج بأدعية وبمخاطبة إلى الآلهة وبتوسلات لتتقبل حج ذلك الشخص الذي قصدها تقرباً إليها. وهذا هو الشائع والمعروف عن الحج، غير أن من

(1) تفسير الطبري (2/ 44)، (البابي)، اللسان (2/ 226)، الإقناع (1/ 334)، الكشاف، للزمخشري (1/ 389 وما بعدها)، Ency. Brita., Vol., 17, p. 925, Ency. Religi., Vol., 10, p. 10.

(2) تاج العروس (2/ 16 وما بعدها)، اللسان (3/ 48 وما بعدها)، Ency. Religi., 10, p. 23.

(3) Shorter Ency. of Islam, p. 123.

الجاهليين من كان يحج حجاً مصمتاً، أي دون كلام، فلا يتكلم الحاج طيلة أيام حجه. وقد كان ذلك من عمل الجاهلية[1].

وقد ميزّ الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ (شهر ذي الحجة) وبـ (شهر الحج). وذلك لوقوع الحج فيه. وهذه التسمية المعروفة حتى الآن في التقويم الهجري، هي تسمية قديمة، كانت معروفة في الجاهلية، وردت في نصوص الجاهلية. فبين أسماء الأشهر الواردة في نصوص المسند اسم شهر يعرف بـ (ذ حجتن) أي (ذي الحجة)، ويدل ذلك على أنه الشهر الذي يحج فيه. وقد وردت كلمة (حج) في نصوص المسند كذلك[2].

وقد ذكر (أفيفانيوس) Epiphanius أن من أسماء الأشهر عند العرب شهراً اسمه Aggathalbaeith (حج البيت)[3] أراد به شهر (ذي الحجة). والعرب الذين قصدهم هذا الكاتب هم عرب (الكورة العربية)، ومعنى هذا أن العرب الشماليين كان لهم شهر يسمى بـ (ذي الحجة) كذلك[4].

ولفظة Aggathalbaeith، هي لفظة عربية النجار حرفت على لسان (أفيفانيوس) وقومه، لتناسب منطقهم، فصارت على هذا النحو، وهي من كلمتين عربيتين في الأصل، هما (حجة البيت)، أو (حج البيت). ويكون نص (أفيفانوس) هذا من النصوص المهمة بالنسبة لنا، التي ساعدنا في الرجوع بتأريخ استعمال هذا المصطلح إلى أيامه، ولا بدّ وأن يكون ذلك المصطلح قد استعمل قبل أيام ذلك الكاتب ولا شك.

ويقع شهر الحج (ذي الحجة) . على رواية (أفيفانيوس) . في (تشرين الثاني)[5]، وأشار (بروكوبيوس) إلى أن العرب كانوا قد جعلوا شهرين من السنة

(1) إرشاد الساري (6/ 175).

(2) D. Nielsen, Mondreligion, S. 86, Glaser, 1054, Wiener Mus., No. 7.

(3) Shorter Ency. of Islam, p. 124.

(4) Reste, S. 85, Ency. Religi., 10, p. 10.

(5) Reste, S. 100, Epiphanius, Haer., 51, 24.

حرماً لآلهتهم لا يغزون فيهما ولا يهاجم بعضهم بعضاً[1]، كما أشار (فوتيوس) إلى الأشهر الحرم عند العرب[2]. والشهران اللذان أشار اليهما (بروكوبيوس)، هما شهرا ذو القعدة وذو الحجة في نظر (ونكلر)، وهما يمثلان –في رأيه– (جولاي) و(أغسطس) أي تموز وآب[3].

إننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقول إن شهر (ذ حجتن) المذكور في المسند، أو Aggathalbaeith الذي ذكره (افيفانيوس)، هو شهر (ذو الحجة) الشهر المعروف الذي كان من شهور أهل مكة. فمن الجائز أن يكون حج العرب الشماليين أو حج العرب الجنوبين في وقت آخر يختلف عن وقت حج أهل مكة، فيكون شهرهم المذكور شهر آخر يقع في موسم آخر من السنة، ولا ينطبق مع شهر (ذي الحجة).

ويرى (ونكلر) أن ما ذكره (فوتيوس) من احتفال العرب مرتين في السنة بالحج إلى معبدهم المقدس: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور، وذلك لمدة شهر واحد، ومرة أخرى في الصيف وذلك لمدة شهرين، إنما يراد بذلك شهر رمضان لاقتران الشمس فيه ببرج الثور. وأما الشهران الآخران فهما ذو القعدة وذو الحجة[4].

ويظهر من غربلة ما أورده أهل الأخبار من روايات عن موسم الحج في الجاهلية، أن الحج إلى مكة كان في موسم ثابت، هو الربيع على رأي كثير من المستشرقين، أو الخريف على رأي (ولهوزن)[5]. وذلك بسبب ما ذكر عن النسيء ومن رغبة قريش وغيرها من أن يكون في وقت واحد، كما تحدثت عن ذلك في باب النسيء. وقد ذهب (ولهوزن) إلى أن (الشهر الحرام) المذكور في القرآن الكريم، هو

---

(1) Procoplus, II, 16.

(2) Reste, 101.

(3) Winkler AIF., II, Reihe, Ibd., S. 336.

(4) Winkler AIF., II, Reihe, Ibd., S. 336.

(5) Shorter, p. 124.

(شهر الحج)، وهو الشهر الأول من السنة أي شهر محرم، بينما يرى المفسرون أنه رجب، أو ذو القعدة أو ذو الحجة[1]. والأصح إنه في شهر من الأشهر الحرم.

وقد ورد في القرآن الكريم: (ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ)[2]. وقد قال (الطبري): «اختلف أهل التأويل في قوله: الحج أشهر معلومات. فقال بعضهم: يعني بالأشهر المعلومات: شوالاً وذو القعدة، وعشراً من ذي الحجة»، «جعلهن الله سبحانه للحج، وسائر الشهور للعمرة، فلا يصلح أن يحرم أحد بالحج إلا في أشهر الحج. والعمرة يحرم بها في كل شهر»[3]، وذكر أن الله لم يسمّ أشهر الحج في كتابه، لأنها كانت معلومة عندهم[4]، وأن المراد بذلك أنه لا يحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج، فإن من سنّة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج[5]. وبناءً على ذلك، فلا يكون المراد من الآية أن الحج يقع في كل وقت من أوقات هذه الأشهر، وانما هو في وقت معين، ولكن الإحرام للحج، أي العزم عليه يكون في أي وقت من هذه الأشهر المذكورة، وليس في الأشهر الأخرى. وذكر (المسعودي) أن أشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة[6].

ومعنى ما تقدم أن الجاهليين كانوا يتهيأون للحج من دخول شهر شوال، فيصلحون أمورهم، ويحضرون ما يحتاجون إليه من لوازم السفر، فإذا أراد أحدهم تجارة وكسباً ذهب إلى الأسواق، حتى يهل شهر ذو الحجة، وإنْ لم يرد تجارة، ذهب في أي وقت يراه مناسباً له. فبدء موسم الحج إذن والتهيؤ له يكون من شهر شوال.

---

(1) Shorter, p. 409.

(2) البقرة، الآية 197.

(3) تفسير الطبري (2/ 105).

(4) القرطبي، الجامع (2/ 405).

(5) تفسير الطبرسي (الجزء الثاني) (ص 292 وما بعدها)، تفسير ابن كثير (1/ 235).

(6) مروج (2/ 189)، (الكشاف (1/ 254).

ويظهر من شعر نسب الى (عوف بن الأحوص) أنه سمى شهر (ذي الحجه) (شهر بني أميّة). إذ يقول:

وإني والذي حجت قريش	محارمه وما جمعت حراء
وشهر بني أميّة والهدايا	إذا حبست مضرجها الدماء[1]

وقد ذهب (ولهوزن) وجماعة آخرون من المستشرقين إلى تعدد بيوت الأرباب التي كان يحج إليها الجاهليون في شهر (ذي الحجة) وإلى عدم حصر الحج عند الجاهلين بموضع واحد[2]. ومعنى هذا أن حج أهل الجاهلية لم يكن إلى (مكة) وحدها، بل كان الى جهات عديدة أخرى. بحيث حج كل قوم إلى (البيت) الذي قدسوه وكانوا يتقربون إليه ووضعوا أصنامهم فيه. ويتفق هذا الرأي مع ما يراه أهل الأخبار من وجود بيوت للأصنام، وكان الناس يزورونها ويتقربون إليها ويذبحون عند أصنامها ويطوفون حولها ويلبّون تلبية الصنم الذي يطوفون حوله.

والحج إلى مكة والى البيوت المقدسة الأخرى، مثل بيت اللات في الطائف وبيت العُزى على مقربة من عرفات وبيت مناة وبيت ذي الخلصة وبيت نجران وبقية البيوت الجاهلية المعظمة، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بتلك الأيام وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفس آلهتهم بحسب اعتقادهم وتقترن هذه الاحتفالات بذبح الحيوانات، كل يذبح على قدر طاقته ومكانته، فيأكل منها في ذلك اليوم من لم يتمكن من الحصول على اللحم في أثناء السنة لفقره، فهي أيام يجد فيها الفقراء لذة ومتعة وعبادة.

ويذكر أهل الأخبار أن الحج إلى مكة كان في الجاهلية كذلك، وأن الجاهليين كانوا يحجون إلى البيت منذ يوم تأسيسه، وأنهم كانوا يقصدون مكة أفواجاً من كل مكان. وأن ملوكهم كانوا يتقربون إلى (بيت الله) بالهدايا

---

(1) شرح ديوان لبيد (21).

(2) Reste, S. 84.

والنذور، وان منهم من حج اليه. وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوس جميع الجاهليين.

غير أننا نجد في روايات بعض أهل الأخبار ما ينافي تعظيم كل العرب للبيت وحجّهم اليه واحترامهم للحرم وللأشهر الحرم. فقد ورد أن من العرب من (كان لا يرعى للحرم ولا للأشهر الحرام حرمه)، ومنهم (خثعم) و(طيء)[1]، وأحياء من قضاعة ويشكر والحارث بن كعب[2]. وورد أن ذؤبان العرب وصعاليكها وأصحاب التطاول، كانوا لا يؤمنون على الحرم، ولا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدراً. وقد كانوا خطراً يهدد البيت وأهله لذلك، ألف (هاشم) بن قريش وسادات القبائل ألفة ليحمي بهم البيت. قال (الجاحظ) في تفسيره للإيلاف: «وقد فسره قوم بغير ذلك. قالوا: إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة. فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب التطاول كانوا لا يؤمنون على الحرم، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً، مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب»[3]. ورؤوس القبائل الذين جعل هاشم عليهم ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة، هم رؤساء مكة بلا شك، ومن كانت له مصلحة تجارية مباشرة بمكة، فكان يأخذ من هؤلاء ما يأخذه ثم يجمعه ويعطيه إلى (المؤلفة قلوبهم) من سادات القبائل النازلين حول مكة وعلى مقربة منها، كما ألف بين مكة وبين سادات القبائل الذين تمر قوافل مكة بأرضهم في طريقها الى الشأم أو العراق أواليمن، بروابط (الإيلاف)، أي العقود التي عقدها معهم، باعطائهم جعلاً معيناً، أو حقوقاً تبين وتكتب، أو ربحاً يدفع مع رؤوس المال عن البضائع التي تدفع لقريش، لتقوم قوافلها ببيعها في الأسواق. وبذلك أمنت مكة وسلمت تجارتها، ودانت بعض القبائل بدين قريش في الأشهر الحرم، لما فيها من فائدة ومنفعة مادية

---

(1) تاج العروس (8/ 241)، (حرم).

(2) الجاحظ، الحيوان (7/ 216 وما بعدها)، النجيرمي، أيمان العرب (12)، المحبر (319).

(3) رسائل الجاحظ (70)، Kister, p. 119. 143.، طبقات الشعراء، لابن سلام (61)، الثعالبي، المضاف والمنسوب (89)، النقائض (2/ 671)، ابن هشام (1/ 603)، الأزمنة والأمكنة، للمرزوقي (2/ 166)، الأغاني (21/ 42).

بينة ظاهرة: فاحترمتها، وبهذا أمن الحج واستراح التجار من قريش ومن غيرهم في ذهابهم بحرية وبأمان في هذه الشهور إلى الأسواق.

وليست لدينا ويا للاسف أخبار مدوّنة عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة إلينا، ما خلا الحج إلى (بيت الله الحرام) بمكة، حيث حفظت الموارد الإسلامية لنا شيئاً من ذلك، بسبب فرض الحج في الإسلام، وإقرار الإسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه ولولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن الحج إلى مكة عند الجاهليين. ولهذا فسأقتصر في كلامي هنا على الحج إلى مكة فقط. إلاّ إذا وجدت خبراً أو نصاً عن حج غير أهل مكة من الجاهليين إلى مكة أو إلى بيوت أخرى فسأتكلم عنه حينئذ.

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن (حج البيت)، أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج، بل كانت تختلف باختلاف القبائل. فقد انفردت (قريش) بأمور من أمور الحج، واعتبرتها من مناسك حجها، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها (قريش) موجبة لها، ولم تعمل بها ووقفت قريش في مواقف، اعتبرتها مواقف خاصة بها. وأوجبت على من يفد إلى مكة للحج، مناسك معينة سنتحدث عنها. فلما ظهر الإسلام وحّد مناسك الحج وثبتها. وأوجب على كل مسلم اتباعها.

ويبدأ الحج في الإسلام بلبس (الاحرام) حين بلوغه (الميقات) المخصص للجهة التي جاء منها. و(ميقات) الحج موضع إحرامهم[1]. وقد عين الرسول أكثر (المواقيت) وثبتها، فجعل (ذا الحليفة) ميقاتاً لأهل (يثرب)، و(الجحفة)، ميقاتاً لأهل الشأم، و(يلملم) ميقاتاً لأهل اليمن، و(قرن المنازل) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز. وأما (ذات عرق)، فميقات أهل العراق، قيل إن الرسول ثبته،

---

(1) تاج العروس (1/ 594)، (وقت).

وقيل إنه ثبت بعد فتح العراق. أما أهل مكة، فكانوا يحرمون من بيوتهم[1]. ويجوز أن تكون هذه المواقيت من مواقيت أهل الجاهلية كذلك، وقد ثبتها الإسلام.

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم (سوق عكاظ). فإذا انتهت أيام السوق، وأراد منهم من أراد الحج، ذهب إلى (مجنة)، فأقام بها إلى هلال ذي الحجة، ثم ارتحل عنها إلى (ذي المجاز)، ومنه إلى (عرفة)، فإذا كان يوم التروية، تزودوا بالماء وارتفعوا إلى عرفة. هذا بالنسبة إلى التجار، الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة. أما بالنسبة إلى غيرهم، فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت شاءوا، ثم يذهبون إلى (عرفة) للوقوف موقف عرفة، يقصدها (الحلة)، أما (الحمس) فيقفون بـ (نمرة)، ثم يلتقون جميعاً بمزدلفة للإفاضة[2].

ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال. فكانوا يهلّون عند أصنامهم، ويلبون إليها، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة، فكان الأنصار مثلاً يهلون لمناة في معبده، أي إنهم كانوا يغادرون (يثرب) إلى معبد الصنم، فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة، فإذا أهلّوا لبوّا، ثم يسير من يسير منهم إلى مكة، لحج البيت[3].

والطواف بالبيوت وبالأصنام، ركن من أركان الحج، ومنسك من مناسكه. وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام، فإذا دخل أحدهم الحرم، وإذا سافر أو عاد من سفر، فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت. وقد فعل غيرهم فعل قريش ببيوت أصنامهم، إذ كانوا يطوفون حولها، كالذي كان يفعله أهل يثرب من طوافهم بـ (مناة)[4].

---

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (5/ 190 وما بعدها)، (حاشية على إرشاد الساري)، إرشارد الساري (3/ 97 وما بعدها).

(2) الأزرقي، أخبار مكة (1/ 121 وما بعدها).

(3) صحيح مسلم (4/ 68 وما بعدها).

(4) شرح صحيح مسلم، للنووي (8/ 21 وما بعدها).

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجمات، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة، ويقال لها الرجمة[1]. وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك. وذكر (نيلوس) Nilus أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للآلهة[2]. وكانوا يطوفون حول القبور أيضاً: قبور السادات والأشراف من الناس.

وطافوا حول (الأنصاب)، ويسمون طوافهم بها (الدوار). فكَانوا يطوفون حول حجر ينصبونه طوافهم بالبيت، وسموّا تلك الأحجار الأنصاب[3].

وللطواف كلمة أخرى هي (الدوار) من (دار) حول موضع من المواضع، وطاف حوله الشيء، واذا عاد إلى الموضع الذي ابتدأ منه. ونجد هذا المعنى في شعر الشاعرين الجاهليين: امرئ القيس، وعنترة بن شدّاد العَبْسي[4]. وقد ذكر علماء اللغة أن (الدوار) صنم كانت العرب تنصبه، يجعلون موضعاً حوله يدورون به، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار. ومنه قول امرئ القيس:

فَعَنّ لنا سِربٌ كأن نعاجه عذارى دوار في مُلاءٍ مذيل[5]

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة. وقيل حجارة كانوا يطوفون حولها تشبهاً بالكعبة[6].

وتلعب عبادة الحجر دوراً بارزاً في (الدوار). فقد كان قوم من أهل الجاهلية يقيمون الأحجار، ثم يطوفون حولها، يتخذون الدوار عبادة لهم. وقد تكون الأحجار أصناماً، وقد تكون حجارة تنتقى فيطاف حولها، و«عن أبي رجاء

---

(1) تاج العروس (3/ 422 وما بعدها)، «عمر» اللسان (6/ 282).

(2) Reste, S. 108.

(3) الأصنام (33، 42).

(4) اللسان (4/ 296 وما بعدها)، Shorter Ency. of Islam, p. 585.

(5) اللسان (4/ 297 وما بعدها).

(6) تاج العروس (3/ 216)، (دار).

العطاردي، قال: لما بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب، فلحقنا بالنار، وكنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه، ألقينا ذلك وأخذناه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب. ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به. وكنا اذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأسنة، فلا ندع سهماً فيه حديدة، ولا حديدة في رمح إلا نزعناها وألقيناها»[1].

ويلاحظ أن الجاهليين كانوا يقيمون وزناً للحليب في أمور العبادة، فقد كانوا يسكبونه على الأصنام، كما رأينا في باب الأصنام، وفي القصة المتقدمة. ويلاحظ أن الرواية قد خصصت حليب الغنم، ولم تشر إلى حليب الإبل، أو حليب أية ماشية أخرى، مما قد يدل على وجود رابطة بين هذا الحليب وبين (الدوار) وأن له علاقة بالأساطير، وذلك في حالة صدق الخبر بالطبع.

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب إلى الآلهة. يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة، وليس له وقت معلوم. ولا يخص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه صنم، أو كعبة أو ضريح، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضاً: كما يطوفون حول الذبائح المقدمة الى الآلهة. فالطواف، إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين.

وكانوا يطوفون بالبيت في نعالهم، لا يطأون أرض المسجد تعظيماً له[2]. إلاّ أن يكون الحاج فقيراً حافياً، فقد كان منهم من لا يملك نعالاً ولا خفاً ولا سائر ما يلبس بالرجل لفقره. وذكر أن رسول الله قال: «من لم يجد نعلين، فليلبس خفين»[3]. وقد ذكر (السكري)، أن (الحمس) كانوا «لا يطوفون بالبيت

---

(1) زاد المعاد (3/ 32) (فصل في قدوم وفد بني حنيفة)، إرشاد الساري (6/ 435)، (باب وفد بني حنيفة).

(2) اليعقوبي (226/1)، (أديان العرب).

(3) صحيح مسلم (4/ 2 وما بعدها)، (كتاب الحج)، إرشاد الساري (3/ 313 وما بعدها)، (باب لبس الخفين للمحرم إذا لم يجد النعلين).

إلاّ في حذائهم وثيابهم، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيماً لبقعته»[1]. وذكر أن (الحلة) كانوا على العكس منهم. «فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد. ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم»[2].

وكانوا يدخلون جوف الكعبة بنعالهم، لا يتأثمون من ذلك. وذكر أن (الوليد بن المغيرة) كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة، تعظيماً لها، فخلع الناس نعالهم[3].

وعدّة الطواف حول الكعبة عند الجاهليين سبعة أشواط، ولا أستبعد أن يكون هذا العدد. ثابتاً بالنسبة إلى الطواف حول البيوت الأخرى أو حول الرجمات والأنصاب والقبور أيضاً. فقد كان الطواف سبعة أشواط مقرراً عند غير العرب أيضاً، وقد ذكر في (التوراة)، إذ كان العبرانيون يمارسونه[4]. والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة. ولهذا أرى أن غير قريش من العرب كانوا يطوفون هذا الطواف أيضاً حول محجّاتهم في ذالك الوقت.

وقد ورد أن من الجاهليين من كان يطوف ويده مربوطة بيد إنسان آخر، بحبل أو بسير، أو بزمام أو منديل، أو خيط أو أي شيء آخر، يفعلونه نذراً، أو حتى لا يفترقا. وقد نهى عن ذلك في الإسلام. فقد روي أن الرسول رأى أحدهما وقد فعل ذلك، فقطع بيده ذلك الرباط[5].

---

(1) المحبر (180).

(2) المحبر (180 وما بعدها).

(3) ابن رستة، الأعلاق (191).

(4) Shorter Ency. of Islam, p. 585.

(5) صحيح البخاري (2/ 179)، إرشاد الساري (3/ 173 وما بعدها)، (باب الكلام في الطواف).

الحمس والطلس والحلة:

والأخباريون يذكرون أن الطائفين بالبيت كانوا على صنفين: صنف يطوف عرياناً، وصنف يطوف في ثيابه. ويعرف من يطوف بالبيت عرياناً بـ (الحلة). أما الذين يطوف بثيابهم، فيعرفون بـ (الحمس)[1]. وأضاف بعض أهل الأخبار إلى هذين الصنفين، صنفاً ثالثاً قالوا له: (الطلس)[2].

وقبائل الحلة من العرب: تميم بن مرّ كلّها غير يربوع، ومازن، وضبة، وحميس، وظاعنة، والغوث بن مر، وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفاً وعدوان، وعامر بن صعصعة، وربيعة بن نزار كلها. وقضاعة كلها ما خلا علافاً وجناباً. والأنصار وخثعم، وبجيلة، وبكر بن عبد مناة بن كنانة، وهذيل بن مدركة، وأسد وطيء، وبارق. وقد ذكر هذه الأسماء (محمد بن حبيب)[3]. وذكرها (اليعقوبي) على هذا النحو: تميم وضبة ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد[4].

وهم يذكرون أن (الحلِة) هم ما عدا الحمس وأنهم كانوا يطوفون عراةً إن لم يجدوا ثياب أحمس، وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها[5]. ويذكَرون أنهم كانوا يقولون: «لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب»، «ولا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها»، «ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها»، وذكر أنهم «كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب

---

(1) تفسير الطبري (2/ 170)، البخاري، (كتاب الحج، الباب 91)، (كتاب التفسير، الباب 35)، البلدان (4/ 620 وما بعدها)، الأزرقي (1/ 113)، اليعقوبي (1/ 226)، (النجف 1964م)، المحبر (178)، ابن هشام (1/ 212)، الكشاف (1/ 256)، شرح حماسة أبي تمام للتبريزي (1/ 7)، شرح المفضليات، للأنباري (259)، ابن رشيق، العمدة (188/2)، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان (18).

(2) المحبر (178 وما بعدها).

(3) المحبر (179).

(4) اليعقوبي (1/ 226)، (النجف 1964م).

(5) الروض الأنف (1/ 133).

عصينا الله فيها، فيلقونها عنهم، ويسمون ذلك الثوب اللقي»[1]. وفي رواية أن من يطوف من (الحلة) بثيابه يضرب وتنتزع منه ثيابه[2]. فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة محتم عليهم، لايجوز مخالفته، وإلاّ تعرض المخالف للعقاب.

وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً اذا كَنّ من الحلة، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة[3]. وقيل تضع إحداهن ثيابها كلها إلاّ درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه[4]. وقبل كانت تقف على باب المسجد، فتقول: من يعير مصوناً؟ من يعير ثوباً؟ من يعيرني تطوافاً؟ فإن أعارها أحد ثوباً أو كراه لها طافت به، وإلاّ طافت عريانة كما يطوف الرجال على حد زعم الروايات. لا يستر عورتها لباس أو قماش، بل كانت تضع إحدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو. وهم يروون في ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جميلة، قيل هي: ضباعة بنت عامر بن صعصعة، طافت بالبيت عريانة وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله[5]

وشاعت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس، فذكرت أن بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها تستتر بها[6]، وذكرت روايات أخرى أنهن كن يطفن ليلاً، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال، لأن طواف الرجال في النهار[7].

---

(1) الأزرقي (1/ 117)، اللسان (20/ 122)، الكشاف (2/ 60).

(2) الكشاف (2/ 60)، الأزرقي (1/ 112 وما بعدها).

(3) صحيح مسلم (18/ 162).

(4) سيرة ابن هشام (1/ 133) «حاشية على الروض».

(5) الأزرقي (1/ 115، 117)، اللسان (11/ 129)، «طوف» الروض (1/ 133)، صحيح مسلم (18/ 162)، تفسير الطبري (8/ 118)، تفسير القرطبي، الجامع (7/ 189).

(6) الأزرقي (1/ 117).

(7) الأزرقي (1/ 117)، الطبرسي (3/ 414).

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت: «يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعاً، استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس، فيأخذها فيلبسها ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً»[1]. هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الإسلام على رواية أهل الأخبار.

وجاء في بعض الروايات: «كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلاّ الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عراة، إلاّ أن تعطيهم الحمس ثياباً، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء»، «فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً ولا يسارٌ يستأجر به، كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عرياناً، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه، فلم يمسه أحد. وكان ذلك الثوب يسمّى اللقى»[2]. وجاء أيضاً أن (الحمس) كانوا «يقولون نحن أهل الحرم، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلاّ في ثيابنا، ولا يأكل اذا دخل أرضنا إلاّ من طعامنا»[3].

وورد أنهم «كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون»[4].

ويذكر بعض أهل الأخبار أن طواف الطائف عرياناً إنما يكون للمرة الأولى، فإذا عاد فطاف بعد ذلك: لبس ملابسه، وطاف بملابسه كالحمس لا يلقيها خارج حدود الحرم.

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العري، هو رغبة الطائف حول البيت أن يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران. واعتقاده ان طوافه بملابسه طواف غير صحيح، لأن ملابسه شاركته في آثامه، فهي ملوثة نجسة،

---

(1) الأزرقي (1/ 114).

(2) تفسير القرطبي (7/ 189).

(3) المصدر نفسه.

(4) تفسير النيسابوري (9/ 157)، «حاشية على تفسير الطبري»، تفسير الطبري (9/ 157 وما بعدها).

ولذلك هاب من لبسها، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها، ولبس ملابس أخرى جديدة[1].

ويذكر الأخباريون أن تلك الملابس التي يلقيها المحرم تبقى في مكانها، لا يمسها أحد، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح. ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف (اللقي). وقد أشير إليها في شعر لـ(ورقة بن نوفل)[2]. ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها، فتركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبث بها إلى أن تتمزق وتهرى[3].

ولكننا نجد الأخباريين يعودون فيروون روايات تناقض ما ذكروه من (اللقي). إذ يقولون: كان الحلة اذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة، خرجوا إلى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد، فلبسوها، فإذا أرادوا الطواف مرة أخرى طافوا بملابسهم[4]. فهم يقرون في هذه الرواية طواف العرى، ولكنهم ينكرون ترك (اللقى) على الأرض لتدوس عليها الأقدام ولتلعب بها الرياح وتعبث بها الأهوية والأتربة، ويجعلون أصحابها يعودون إليها فيلبسونها تارة أخرى.

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر أن أحداً من الحلة اذا لم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها، غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقى يطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها منتفع حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار[5].

---

(1) الأزرقي (1/ 117)، اللسان (20/ 122)، الكشاف (2/ 60).

(2) كفى حزناً كرّي عليه، كأنه   لقي بين أيدي الطائفين حريم

الأزرقي (1/ 112، 114)، اللسان (20/ 122)، النهاية في غريب الحديث (4/ 29)، تفسير القرطبي، الجامع (7/ 189).

(3) Robertson Smith, p. 751.

(4) الأزرقي (1/ 114).

(5) الأزرقي (1/ 114).

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أن (الحلة) كانوا اذا دخلوا مكة «تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد. ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم. فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراةً. وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه. فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً. وانما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلاّ اللحم. وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حرمي عياض بن حمار المجاشعي: كان اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله»[1].

فالذي يطوف بالبيت عرياناً، هو ضعيف (الحلة)، ممن لا قبل له على استكراء ثياب له من أحمسي، وممن لا صاحب له من الحمس، يعطيه ثياباً ليلبسها. أما المتمكن من (الحلة)، ومن له صديق من الحمس، فلا يطوف عرياناً وانما يطوف بثياب أحمسي.

ويرى (روبرتسن سمث) أن الذي أوحى إلى الجاهليين وجوب طرح ملابس الحلة اذا أحرم فيها، اعتقادهم بتقدس تلك الملابس في أثناء الإحرام مما يجعلها في حكم الـ (تابو) Tabu عند الأقوام البدائية، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى، وهم انفسهم قوم غير مقدسين[2].

وقد منع الإسلام طواف (العريّ) في أي وقت كان، وحتم على الجميع قريش وغيرهم لبس (الإحرام)[3]. وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَاءَابَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَـأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4]. إن هذه الآية نزلت في حق المتعرين

---

(1) المحبر (ص 180 وما بعدها).

(2) R. Smith, p. 751.

(3) الأزرقي، أخبار مكة (1/ 111).

(4) الأعراف، الرقم 27، الآية 28.

الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة، ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا ﴾، «فنحن نفعل مثلَ ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم ونستن بسنتهم. والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه»[1]. فنحن إذن أمام سنة جاهلية قديمة، ترجع طواف العري إلى أمر سابق وشريعة سابقة.

وأما (الحمس)، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم، ثم يحتفظون بها فلا يلقونها، فلهم من هذه الناحية ميزة امتازوا بها على الحلة. ولهم على الحلة ميزة أخرى، هي إنهم كانوا يقفون الموقف في طرف الحرم من (نمرة): يقفون به عشية عرفة، ويظللون به يوم عرفة في الأراك من نمرة، ويفيضون منه إلى المزدلفة[2]. ولا يقفون موقف غيرهم بعرفة، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل. وحجتهم أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه مثل سائر الناس. ويقولون: «نحن أهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف»[3].

وتفسير كلمة (الحمس) في رأي علماء اللغة التشدد في الدين، سُمّوا حمساً، لأنهم كانوا يتشددون في دينهم، فكانوا اذا زوّجوا امرأة منهم لغريب عنهم، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه أن كل من ولدت له، فهو أحمسي على دينهم. وكانوا اذا أحرموا لا يأتقطون الاقط، ولا يأكلون السمن ولا يسلؤونه ولا يمخضون اللبن، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه، وانما يستظلون بالأدم، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم. وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم. وكانوا اذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الإسلام، فإنْ كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر

---

(1) تفسير الطبري (8/ 114)، تفسير القرطبي، الجامع (7/ 187).

(2) الأزرقي (1/ 116 وما بعدها) (2/ 158 وما بعدها)، النهاية (1/ 233)، شرح النووي، (8/ 180 وما بعدها)، Ency., II, p. 335.

(3) ابن هشام (1/ 132) «هامش على الروض».

بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه. وكانوا يقولون: لا تعظموا شيئاً من الحل، ولا تجاوزوا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة: يقفون به عشية عرفة، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة، ويفيضون منه إلى المزدلفة. فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا. وكانوا يقولون: نحن أهل الحرم، لا نخرج من الحرم، ونحن الحمس. وكانوا اذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم، تسوّروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح، ثم ينزلون في حجرتهم، ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب[1]. فهم يحرمون إذن اشياء لم تكن العرب تحرمها[2].

والحمس: قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس على رواية[3]. تضاف إليهم خزاعة والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة وأزد شنوءة وجذم زبيد وبنوا ذكوان من بني سُليم وعمرو اللات وثقيف وغطفان والغوث وعدوان وعلاف وقضاعة على رواية للأزرقي[4]. وهم: قريش وكنانة وجديلة قيس، وفهم، وعدوان، وثقيف، وعامر بن صعصعة على رواية أخرى[5]. وقد ذكر (ابن سعد)، أن الحمس هم: قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب. أو حليف قريش. وذكر بعض الرواة أنهم قريش وعامر بن صعصة، والحارث بن كعب[6]. وذكرهم بعض آخر على هذا النحو: قريش، وكنانة،

---

(1) الأزرقي (1/ 116 وما بعدها)، النهاية (1/ 233، 293)، الاشتقاق (153)، ابن هشام (211/1)، الكامل، لابن الأثير (1/ 391)، الطبرسي (3/ 411).

Caetani, Annali, I, S. 121, Ency., II, p. 335, Snouk Hurgrounie, Het Mekkaanische Feest, p. 21, 77m 111, 130.

(2) المعاني (998/2).

(3) النهاية في غريب الحديث (1/ 293)، تاج العروس (4/ 132 وما بعدها)، (حمس)، اللسان (7/ 257 وما بعدها)، (حمس)، إرشاد الساري (3/ 200)، البلخي، البدء والتأريخ (4/ 32 وما بعدها).

(4) البلدان، (مكة)، Kister, p. 138.

(5) الطبقات (1/ 72)، (صادر).

(6) ابن هشام (1/ 212)، ابن قتيبة، المعارف (269)، المعاني (989)، المرزوقي، شرح الحماسة (31)، Kister, p. 132.

وخزاعة، وثقيف، خثعم، وعامر بن صعصعة، ونصر بن معاوية. وأضاف (القرطبي) جشماً إليهم[1]. وورد أن «الحمس لقب قريش ومن ولدت قريش، وكنانة وجديلة قيس. وهم: فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان، وبنو عامر بن صعصعة، ومن تابعهم في الجاهلية. هؤلاء الحمس. وإنما سمّوا لتحمسهم في دينهم أي تشددهم فيه، وكذا في الشجاعة فلا يطاقون، أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة»[2].

وأورد (ابن حبيب) أسماء من العرب، فقال: «قبائل الحمس من العرب: قريش كلها. وخزاعة لنزولها مكة، ومجاورتها قريشاً. وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب.

فمن ولدت قريش: كلاب، وكعب، وعامر، وكلاب بنو ربية بن عامر بن صعصعة. وأمهم مجد بنت تيم بن غالب بن فهر. وإياها عنى لبيد بن ربيعة بقوله:

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال

والحارث بن عبد مناة بن كنانة. ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة، بنزولهم حول مكة. وعامر بن عبد مناة بن كنانة. ومالك، وملكان، ابنا كنانة، وثقيف، وعدوان، ويربوع بن حنظلة. ومازن بن مالك بن عمرو بن تميم. وأمهما جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر. ويقال: إن بني عامر كلهم حمس لتحمس إخوتهم من بني ربيعة بن عامر. وعلاف، وهو ريّان بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وجناب بن هبل بن عبد الله من كلب. وأمه آمنة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة. وأمها مجد بنت تيم الأدرم بن غالب ابن فهر»[3].

ويتبين مما تقدم أن (الحمس)، لم يكونوا قريشاً وحدهم وسكان الحرم، وأنهم لم يكونوا جماعة قامت وظهرت على رابطة الدم والنسب، كما هو الحال

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (2/ 345)، أبو حيان، البحر المحيط (2/ 63)، Kister, p. 132.

(2) تاج العروس (4/ 132)، (حمس).

(3) المحبر (178 وما بعدها)، ابن دريد، الاشتقاق (540)، ابن عبد البر، أنباء (87)، المفضليات، شرح الأنباري (259).

بالنسبة إلى القبيلة. بل هم قريش وكل من نزل الحرم وسكن مكة، وطوائف من العرب شاركت قريشاً في مناسك حجها، وسارت على نهجها في الحج، وشاطرتها الرأي في دينها. وقد ذكر (الجاحظ) أن (عامر بن صعصعة)، و(خزاعة) و(ثقيفاً)، والحارث بن كعب، كانوا ديّانين، أي على رأي ودين[1]. وكانوا على دين قريش. وقال غيره: «وصارت بنو عامر من الحمس وليسوا من ساكني الحرم لأن أمهم قرشية. وهي مجد بنت تيم بن مرة. وخزاعة إنما سميت خزاعة، لأنهم كانوا من سكان الحرم فخزعوا عنه، أي خرجوا. ويقال إنهم من قريش انتقلوا ببنيهم إلى اليمن. وهم من الحمس»[2].

وقد ميزّ بعض العلماء بين (الحمس) وهم نزلاء الحرم، وبين المتحمسين الذين دخلوا في الحمس، لأن أمهاتهم من قريش، بأن أطلقوا عليهم لفظة (الأحامس). فقالوا: «والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش»[3].

وجاء في بعض الأخبار أن (غطفان)، لما اتخذت لها بيتاً أرادت به مضاهاة الكعبة، وجعلت له حرماً كحرم مكة. أغار (زهير بن جناب الكلبي) عليه وهدمه[4]. وكان زهير من الحمس.

وقد وصف (ابن سعد) (التحمس) بقوله: «والتحمس أشياء أحدثوها في دينهم تحمسوا فيها، أي شددوا على أنفسهم فيها، فكانوا لا يخرجون من الحرم اذا حجّوا، فقصروا عن بلوغ الحق، والذي شرع الله، تبارك وتعالى، لإبراهيم وهو موقف عرفة، وهو من الحل، وكانوا لا يسلؤون السمن ولا ينسجون مظال الشعر، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم، وشرعوا لمن قدم من الحاج أن يطوف بالبيت وعليه

---

(1) Kister, p. 136.

(2) تاج العروس (4/ 132)، (حمس).

(3) تاج العروس (4/ 133)، (حمس).

(4) الأغاني (12/ 121)، (21/ 63).

ثيابه ما لم يذهبوا إلى عرفة، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلاّ عراة أو في ثوب أحمسيّ، وإن طاف في ثوبه لم يحلّ له أن يلبسهما»[1].

وللجاحظ ملاحظات قيمة عن قريش لها صلة بالتحمس، وقد تفسر لنا معنى التحميس بسبب شموله أناساً هم من غير قريش.

ذكر أن الإسلام لما ظهر، لم تكن هنالك أية امرأة قرشية، كانت مسبية عند غير قريش. ولم تكن هنالك أية امرأة مسبيّة في أي سبي القبائل وأمها من قريش. ويذكر أيضاً أن قريشاً لم تكن تزوج بناتها من أبناء أشراف القبائل حتى تشترط عليهم أن من تلد منهن، فيكون من يلدن من الحمس. أما هم، فكانوا اذا تزوجوا من بنات قبائل أخرى، فإنهم لم يشترطوا على انفسهم أي شرط، وكان من هذه القبائل عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة والحارث بن كعب، (وكانوا ديّانين). وكانوا على دين قريش في أمورها. وكانت قريش كريمة، ولم ترضَ بالغارات والغزو ولا بالظلم ولم تقبل بالوأد ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء. وكان من فضائلهم إن منّ الله عليهم بالإيلاف. فأغناهم وجعلهم (لقاحاً). فلم يخضعوا لمالك ولم يستعبدهم سلطان أجنبي[2]. ولم يدفعوا أي شيء عنهم لملك من الملوك. بل كانت الملوك تأتي إلى مكة وتعظم البيت وتحترم سكانه. وهم قريش الحمس[3].

ويظهر من ملاحظات الجاحظ المذكورة، أن من أهم مبادىء الحمس، نبذ الغارات، أي الغزو، حتى جعلته قريش ركناً من أركان دينها. كما تمسكت بركن آخر، هو عدم الدخول بمن يقع في أيديهم من النساء السبايا في حالة ما اذا أغارت قبيلة عليهم، واعتدت عليهم، فانتصرت قريش عليها، وأخذت منها سبايا. اما الحمس الآخرون، مثل عامر بن صعصعة وثقيف والحارث بن كعب، وأمثالهم

---

(1) ابن سعد، الطبقات (1/ 72)، (صادر).

(2) أخذت هذه الملاحظات من (كستر) (Kister)، لعدم وجود مخطوط الجاحظ التي نقل منها عندي. وهي: مختارات فصول الجاحظ، الموجودة في المتحف البريطاني برقم 3183.

(3) ابن الفقيه، كتاب البلدان (18).

ممن تحمسوا، فلم يتمسكوا بهذه الأصول. وذكر (ابن الفقيه) أن القبائل المذكورة لم تكن في الأصل حمساً على دين قريش، وانما تحمست وصارت من الحمس بتأثير قريش عليها[1]. وقريش تمسكوا وحدهم بالحمس، (وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[2]. وقد عرفت مكة بـ (دار الحمس)، كما جاء ذلك في شعر ينسب إلى (الكاهن اللهبي)[3]. وعرفت قريش بـ (أهل الله)[4].

ونجد بين (الحمس) والحرم صلة متينة، تشير إلى الأصل الديني للحمس وإلى ارتباطهم بالكعبة. فذهب (الزمخشري) إلى أن (حمس) من (حرم)[5]. ومن دلائل هذه الصلة أيضاً مما ورد في كتب أهل الأخبار من أن الكعبة كانت قد عرفت بـ (الحمساء). سميت بذلك (لأن حجرها أبيض إلى السواد)[6]. ومن أن (الحمس) هم نزلاء الحرم[7]. فبين الحمس والحرم، صلة متينة إذن. حتى قيل إن المنسوب الى الحرم من الناس (حرمي)[8]. و«ان عياض بن حمار المجاشعي، كان حرمي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان اذا حج طاف في ثيابه. وكان أشراف العرب الذين يتحمسون على دينهم، أي يتشددون اذا حج أحدهم لم يأكل إلاّ طعام رجل من الحرم: ولم يطف إلاّ في ثيابه.

فكان لكل رجل من أشرافهم رجل من قريش. فيكون كل واحد منهما حرمي صاحبه»[9]. ويفسر لنا هذا المعنى أيضاً قولهم: «رجل حرام: داخل في الحرم»، و«الحرم بالكسر الرجل المحرم. يُقال: أنت حل وأنت حرم»[10]. وقد أنجب الزواج المشروط بين قريش وبين من يتزوج منها حمساً جداً، انتقل الحمس اليهم

---

(1) Kister, p. 137.

(2) الثعالبي، ثمار القلوب (8)، (أهل الله)، Kister, p. 137.

(3) الروض الأنف (1/ 118)، ابن دريد، الاشتقاق (491)، Wellhausen, Reste, S. 134, Kister, p. 138.

(4) Kister, p. 139.

(5) الزمخشري، الفائق، (حمس)، Kister, p. 138.

(6) تاج العروس (4/ 132)، (حمس).

(7) تاج العروس (4/ 132)، (حمس).

(8) بالكسر.

(9) تاج العروس (8/ 243)، (حرم).

(10) تاج العروس (8/ 243)، (حرم).

عن طريق (شرط عقد الزواج) من جهة الأمهات. أمها نسل هؤلاء الحمس الجدد، الذين هم في الواقع أنصاف أحماس، فقد صار حمساً مثل قريش، لأنهم ولدوا من والد حسب من الحمس ومن والدة أحمسية. وبذلك لم يعد الحمس أهل مكة وحدهم، بل شمل أهل مكة ومن تزوج مكّيات فأنجبن ولداً، عدّوا حمساً بشرط العقد.

وتذكر بعض الروايات أن عقيدة (الحمس) لم تكن قديمة، بل ظهرت قبيل الإسلام. قال ابن اسحاق: كانت قريش لا أدري قبل الفيل أو بعده، ابتدعت أمر الحمس رأياً. فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج، إلاّ إنهم قالوا: نحن أهل الحرم، ونحن الحمس. والحمس أهل الحرم. قالوا: ولا ينبغي للحمس أن يتأقطوا الأقط ولا يسلؤوا السمن، وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلاّ في بيوت الأدم ما كانوا حرماً، ثم قالوا: لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عمّاراً، ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس»[1]. ولم تذكر هذه الرواية سبب ظهورها، ولا من أوجدها من رجال قريش.

ويتبين من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن الحمس، أن الحمس هم أهل مكة الأحرار في الأصل، ثم من دان بدينهم. وجدوا أنفسهم في ضنك شديد، في وادٍ غير ذي زرع، لا شيء عندهم غير (البيت)، فتحمسوا في دينهم وتشددوا وتعاونوا فيما بينهم على العمل معاً، وعلى الدعوة إلى عبادة رب البيت واقراء الضيف والامتناع عن غزو غيرهم، وعن التحرش بأحد، إلاّ اذا تحرش بهم، وعلى إغاثة الملهوف ومساعدة من يأت البيت حاجاً أو معتمراً أو قاصداً تجارة، وتقديم الرفادة له. ونصرة الغريب. وحافظوا على الحرمات: حرمة البيت وحرمة الحج وحرمة الأشهر الحرم، ووضعوا لأنفسهم قواعد صارمة في آداب السلوك في موسم الحج وفي

---

(1) إرشاد الساري (3/ 200).

غيره، تشعر أنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم كانهم (جنس)، فضله الله على بقية أجناس العرب، لهم مناسكهم، ولبقية العرب مناسكهم، ولهم قباب خاصة يضربونها لأنفسهم في سوق عكاظ وفي المواضع الأخرى تميزهم عن سائر من يفد إلى هذه المواضع، وترفّعوا عن مصاهرة سائر الناس إلاّ اذا وجدوا أنهم أكفاء لهم، والكفاءة: القوة والمال. وأقاموا مجتمعهم الخاص هذا على قواعد دينية تعاونية. اقتصادية (صاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[1]. شعارهم إنهم (أهل الله)[2]، دينهم «التحمس والتشدد في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال، فلما زهدوا في الغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة: فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم، والنجاشي بالحبشة، والمقوقس بمصر، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء»[3]. وكان أن تفردوا بالإيلاف، وللإيلاف ارتباط بالحمس، وتوجهوا إلى التجارة والاتجار، وجمعوا بين الدين والمال، وأفسحوا المجال لمن به نشاط وهمة أن يجمع مالاً وأن يكون غنياً على أن يساهم بنصيبه في تحمّل أعباء مجتمعهم، للدفاع عن (بيت الله) ولكسب المتحالفين معهم وتوزيع العدل فيما بينهم، توزيعاً يخفف من حدة التفاوت فيما بين الغني والفقير، حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع، يحمل الفقراء على انتزاع المال من الأغنياء كرهاً وقسراً. وجعلوا ذلك واجباً من واجباتهم، فحثوا على رفع الظلم، واتخذوا السقاية والرفادة، وعقدوا (حلف الفضول) للدفاع عن المحتاج، وجعلوا (الإيلاف) الذي سأتكلم عنه في الجزء الخاص بالحياة الاقتصادية، سبباً من أسباب إشاعة الرحمة ومساعدة الفقراء وتخفيف وطأة الفقر في هذه القرية: (أم القرى)، وفي ذلك يقول (مطرود بن كعب الخزاعي) في رثائه عبد المطلب:

يا أيها الرجل المحول رحله	ألا نزلت بآل عبد منافِ
هبلتك أمك لو نزلت عليهم	ضمنوك من جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف

---

(1) الثعالبي، ثمار القلوب (18)، (أهل الله)، (ص 11)، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).

(2) ثمار (10).

(3) ثمار (10 وما بعدها)، سيرة ابن دحلان (1/ 140)، (حاشية على السيرة الحلبية).

والمطعمــون إذا الريــاح تناوحــت	ورجــال مكــة مســنتون عجــاف
والمفضــلون اذا المحــول ترادفــت	والقــائلون هلــمّ للأضيــاف
والخــالطون غنــيهم بفقيــرهم	حتــى يكــون فقيــرهم كالكــافي
كانــت قــريش بيضــة فتفلقــت	فــالمحّ خــالصة لعبــد منــافِ[1]

قام رجال من رجال مكة بالانفاق على المحتاجين، فعدّوا ذلك ديناً ومروءة وشهامة. فكان (نعيم بن عبد الله) العدوي، ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم[2]. وكان (حكيم بن حزام) ينفق من أرباحه على المحتاجن من آله وذويه[3]. وكان صديق النبي قبل المبعث[4]، وتذكر كتب السير والتراجم أسماء رجال آخرين عرفوا بتصدقهم على الفقراء والمحتاجن، اعتبروها منقبة وقربة لهم في الجاهلية، وقد أقرهم الرسول عليها.

فالحمس (أهل الله)، وأمته، تجمعهم عبادة الله والأصنام، والمناسك والشعائر التي وضعوها لهم، والتجارة التي جعلوها مثل شعائر دينهم، ينفقون من أرباحهم منها في سبيل (الله). أي بيت الله وأهله المستضعفون، حتى جعلوا الصدقة وإطعام المحتاج من أمور الدين. فمجتمعهم مجتمع جمع بين الدين والتجارة، وبين الدين والمال. حثهم على التعاون بخلط رؤوس أموالهم والاتجار معاً يقوافل، وفيه ربح كبير مضمون، وحثهم على إنصاف من ليس له شيء حتى يصير مكتفياً غير محتاج، لا يوجه عينه نحو غيره حسداً وحقداً. شعار هذا المجتمع الله

---

(1) أخذت هذه الأبيات من أمالي المرتضى (2/ 268)، وتختلف بعض الاختلاف عن أمالي القالي (1/ 241 وما بعدها)، التي فيها:

منهم علي والنبي محمد القائلان هلم للأضياف

وعن سيرة ابن هشام (1/ 117)، (حاشية على الروض الأنف)، وعن معجم الشعراء (375)، وشرح ابن أبي الحديد (3/ 453)، والعيني (4/ 140)، البكري، سمط (547 وما بعدها)، وعن تفسير الطبرسي (ج30 ص 545)، (طبعة طهران)، تفسير سورة لإيلاف قريش، عن ابن العربي، محاضرات الأبرار (2/ 119).

(2) الإصابة (2/ 527)، (رقم 8778).

(3) نسب قريش (1/ 367)، (رقم 644)، Kister, p. 125.

(4) الإصابة (1/ 348 وما بعدها)، (رقم 1800).

والأصنام والحج والتجارة، مجتمع لم يكن يخلو بالطبع من أحامس بخلاء، شذوا عن الطريق، واغتصبوا أموال الفقراء، كما هو الحال في كل مجتمع بشري.

وقد اقتصرت (قريش)، وهم من الحمس، على استعمال القباب المصنوعة من الأدم لا يضربها غيرها بـ (منى)[1]. لأنهم (كانوا لا ينسجون مظال الشعر، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم)[2]. وقد استعمل الرسول في حجه هذا النوع من القباب[3]. ولا بدّ أن يكون لاقتصار قريش على استعمال هذا النوع من القباب دون غيرها في هذا الموضع، سبب ما، الأرجح إنه عامل ديني واجتماعي[4]. ويلاحظ أنه كان للقباب الحمر ذكر خطير، وجاه عظيم في نظر الجاهليين، فكان أصحابها يفتخرون على غيرهم بأنهم (أهل القباب الحمر)[5]، وقد كان الملوك والسادة يضربون لأنفسهم القباب الحمر. فهي من إمارات الجاه والمكانة والنفوذ.

ويظهر من بعض الأسماء أو الجمل التي وردت فيها كلمة (حمس) و(حمس) أن هذه الكلمة هي نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين في الأصل، ثم تغير معناها بعد ذلك فصارت على النحو الذي ذكره علماء اللغة نقلاً عن الروايات التي ترجع ذلك المعنى الى الجاهلية المتصلة بالإسلام. ففي الأسماء الواردة إلينا: (أحمس الله)، و(بنو أحمس)، و(أبو أحمس)، و(الأحامس)[6]؛ ما يفيد أن الأصل بعيد جداً عن المعنى الذي فهمه وذهب إليه أهل الأخبار، وأن للكلمة معنى دينياً خاصاً قديماً، هو التشدد في الدين والتمسك به، وبعبادة الصنم، والمحافظة على سنّة الآباء والأجداد مع تصلب وتقشف.

---

(1) (كانت قباب قريش من الأدم، لا يضربها غيرهم بمنى)، المشرق، السنة السابعة والثلاثون، كانون الثاني - آذار، 1939 (ص 95).

(2) ابن سعد، الطبقات (1/ 41).

(3) ابن سعد، الطبقات (2/ 88)، أسد الغابة (1/ 251).

(4) المشرق، السنة السابعة الثلاثون، كانون الثاني - آذار، 1939 (ص 95).

(5) أهل القباب الحمر والنعم المؤبل والمدامة

ديوان عبيد الأبرص (29)، (طبعة لايل).

(6) الأغاني (2/ 46)، الاشتقاق (153)، تاج العروس (4/ 132 وما بعدها)، (حمس).

والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش[1]، صاروا من الحمس بسبب أمهاتهم.

هذا وقد نزل الوحي بتنظيم الحج وفق مبادىء الإسلام، فأباح للحجاج ما كانت الحمس حرمته على نفسها من طعام الحج إلاّ طعام أحمسي، على نحو ما ذكرت قبل قليل. وما ذكر من أن قوماً كانوا قد حرّموا على أنفسهم ما يخرج من الشاة لبنها وسمنها ولحمها، اذا حجوا أو اعتمروا[2]. كما نزل بوجوب ستر العورة ولبس الإحرام في الحج، وذلك بالنسبة إلى المحلّين، وأغلبهم من الأعراب ومن الفقراء، حيث كانوا يطوفون عراة، وفي ضمنهم النساء[3]. فنزل الوحي بـ: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين)[4]. ونهوا عن ذلك[5]. وذكر عن أبي هريرة أنه قال: «بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر، لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»[6].

كما نزل الوحي بجواز دخول الحجاج بيوتهم وخيامهم وما يأوون إليه من بيوتها، من أبوابها، لا كما كان يفعل بعضهم في الجاهلية وفي أول الإسلام، من أنه اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلماً فيصعد فيه، وإنْ كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من إحرامه ويرون ذلك ذماً، إلاّ أن يكون من الحمس. وهم: قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة، وبنو النضر

---

(1) تاج العروس (4/ 133)، (حمس).

(2) تفسير الطبري (8/ 121).

(3) تفسير الطبري (8/ 118).

(4) الأعراف، الآية 31.

(5) تفسير الطبري (8/ 118 وما بعدها)، أسباب النزول (168 وما بعدها).

(6) صحيح مسلم (4/ 107)، (باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان الحج الأكبر).

بن معاوية. نزل الوحي بذلك في الآية: (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1].

وقد ذهب بعض أهل الأخبار والسير إلى أن الآية المذكورة، نزلت في أمر الحمس، «لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها، فإن احتاج أحدهم الى حاجة في داره تسنم البيت من ظهره، ولم يدخل من الباب»[2]. وذهب المفسرون إلى أنها نزلت في الأنصار، فقد كانوا اذا حجّوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل فدخل من قبل بابه، فكأنه عير بذلك، فنزلت هذه الآية. وورد: «كانت قريش تدعى الحمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في بستان، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله: إن قطبة بن عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب! فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: فإنّ ديني دينك! فأنزل الله: (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[3]. وقد أغفلت بعض الروايات اسم من كان لا يدخل البيوت من أبوابها، بأن قالت: «كان أهل الجاهلية يأتون البيوت من ظهورها ويرونه براً»، أو «كانوا في الجاهلية اذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها، ولم يأتوا من أبوابها»، أو «إن ناساً كانوا اذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها أو بيتاً»، أو «كان ناس من أهل الحجاز، اذا أحرموا لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ودخلوها من ظهورها»[4]، وذكر أن من كان يفعل ذلك، فانما يفعله، لأنهم كانوا يتحرجون من أن يكون بينهم وبين السماء حائل[5].

---

1) البقرة، الآية 189.

2) الروض الأنف (1/ 134 وما بعدها).

3) أسباب النزول (ص35 وما بعدها).

4) تفسير الطبري (2/ 108 وما بعدها).

5) المصدر نفسه.

وقد جعل (اليعقوبي) العرب في الجاهلية على دينين: دين الحمس ودين الحلة. وذلك بالنسبة للمشركين. وذكر أن منهم من دخل في دين اليهودية وفي النصرانية، ومنهم من تزندق وقال بالثنوية، وبهذه الفرق حصر (اليعقوبي) أديان أهل الجاهلية. إذ قال: «فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليهما. ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود، وفارقوا هذا الدين. ودخل آخرون في النصرانية، وتزندق منهم قوم، فقالوا بالثنوية»[1].

والتعميم الذي يطلقه (اليعقوبي) وبقية المؤرخين والأخباريين في قولهم «وكانت العرب في أديانهم»، لا يمكن التسليم به، إلاّ بالنسبة لأهل مكة ولمن كان يقصدهم من العرب. أما بالنسبة لجميع العرب، فهذا ما لا يمكن التسليم به.

وأما (الطلس)، فقد وصفهم (محمد بن حبيب) بقوله إنهم: «بين الحلة والحمس: يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس. وكانوا لا يتعرون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثياباً، ويدخلون البيت من أبوابها، وكانوا لا يئدون بناتهم، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون»[2]. وهم سائر أهل اليمن، وأهل حضرموت، وعك وعجيب، وإياد بن نزار[3].

وذكر أن من الحجاج من كان يحج بغير زاد، وأن منهم من كان اذا أحرم رمى بما معه من الزاد، واستأنف غيره من الأزودة، وأن «قبائل من العرب يحرمون الزاد اذا خرجوا حجاجاً وعمّاراً»، فنزل الوحي: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[4]، فأمر من لم يكن يتزود منهم بالتزود لسفره، ومن كان منهم ذا زاد ان

---

(1) اليعقوبي (1/ 226).

(2) المحبر (ص 181).

(3) المحبر (ص 179)، الروض (1/ 133).

(4) البقرة، الآية 197.

يتحفظ بزاده فلا يرمي به[1]. وقد عرف هؤلاء بـ (المتوكلة)، لتوكلهم على (رب البيت) في إطعام أنفسهم، واعتمادهم في ذلك على السؤال.

وقد ذكر علماء التفسير أن الآية: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ نزلت «في طائفة من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد، ويقول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا، فكانوا يبقون عالة على الناس، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالزاد. وكان للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيره راحلة عليها زاد، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مزينة، فلما أرادوا أن ينصرفوا قال: يا عمر زوّد القوم..... كما روى البخاري عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس»[2].

ويظهر مما تقدم أن (المتوكلة) لم يكونوا جميعاً من الفقراء المحتاجين، بل كان منهم قوم أغنياء فضل الله عليهم، بدليل أنهم كانوا اذا حجّوا رموا زادهم، أو أعطوه للمحتاج اليه، يفعلون ذلك ديانة وتقرباً الى الله، كما فعل (المتوكلة) من بعدهم في الإسلام. فهم إذن طائفة من الطوائف الجاهلية المتدينة، ترى ان التقشف في الحج، يزيد في ثوابه، ويقرب أصحابه الى رب البيت.

ويريد أهل الأخبار بالثياب (الإحرام) على ما يظهر. وهو قديم وقد عرف عند غير العرب أيضاً. وهو محاكاة لملابس رجال الدين الذين يخدمون المعابد، ويتقربون إلى الآلهة. وهو يتكون من قطعتين من: إزار ومن وشاح. ويكون أبيض اللون. واللون الأبيض من الألوان التي تعبر عن معان دينية. فقد كان رجال الدين والكهنة يلبسون الثياب البيض. كما أنه شعار الحزن عند بعض الشعوب، وفي جملتهم عرب الحجاز[3]. ويظهر أن أهل مكة وهم قريش، كانوا يلبسون الإحرام، أو يكرهونه لغيرهم من العرب أو يعيرونه لهم إن كانوا من حلفائهم،

---

(1) تفسير الطبري (2/ 162)، (إن قوماً كانوا يرمون بأزوادهم ويتسمون بالمتوكلة، فقيل لهم تزودوا من الطعام، لا تلقوا كلكم على الناس)، تفسير الطبرسي (1/ 294).

(2) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن (2/ 411)، تفسير ابن كثير (1/ 239).

(3) Shorter Ency. of Islam, p. 160.

فيحرمون كإحرام قريش. أما من لم يتمكن من الحصول على الإحرام، فقد كان يضطر بحكم الضرورة إلى الطواف عرياناً على نحو ما يقصه علينا أهل الأخبار.

أما بالنسبة إلى أهل العربية الجنوبية من معينيين وسبئيين وقتبانيين وحضرميين، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن سنة الطواف حول المعابد عندهم، لعدم ورود شيء عن ذلك في النصوص الواصلة إلينا. ولكني لا أستبعد احتمال طوافهم حول بيوت أصنامهم على نحو ما كان يفعله أهل الحجاز، لأن الطواف حول بيوت الأصنام أو حول الصنم من السنن الشائعة بين العرب وعند جماعات من بني إرم والنبط.

التلبية:

وذكر (محمد بن حبيب) أن طواف أهل الجاهلية بالبيت أسبوعاً، وذكر أنهم كانوا يمسحون الحجر الأسود، ويسعون بين الصفا والمروة. وكانوا يلبّون. وذكر أن نسك قريش كان لإساف، وأن تلبيتهم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، لا شريك لك إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك»[1]. وأن تلبية من نسك للعزى: «لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، ما أحبنا اليك». وأن تلبية من نسك للات: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، كفى ببيتنا بنية، ليس بمهجور ولا بلية، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحي البرية». وكانت تلبية من نسك لجهار: «لبيك، اللهم لبيك. لبيك، اجعل ذنوبنا جبار، واهدنا لأوضح المنار، ومتعنا وملنا بجهار». وكانت تلبية من نسك لشمس: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، ما نهارنا نجره، ادلاجه وحره وقره، لا نتقي شيئاً ولا نضره، حجاً لرب مستقيم بره»، وكانت تلبية من نسك لمحرّق: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك حجاً حقاً، تعبداً ورقاً»، وكانت تلبية من نسك لودّ: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، معذرة إليك». وكانت تلبية من نسك ذا الخلصة: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، بما هو أحب إليك». وكانت تلبية من نسك لمنطبق: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك». وتلبية

---

(1) المحبر (313).

عك، أنهم كانوا اذا بلغوا مكة، يبعثون غلامين أسودين أمامهم، يسيران على جمل مملوكين، قد جردا، فهما عريانان، فلا يزيدان على أن يقولا: «نحن غرابا عك». واذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عك: «عك إليك عانية، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية، على الشداد الناجية».

وكانت تلبية من نسك مناة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، لولا أن بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك، ما زال حج عثج يأتونك، إنا على عدوائهم من دونك»، وتلبية من نسك لسعيدة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لبيك، لم نأتك للمياحة، ولا طلباً للرقاحة، ولكن جئناك، للنصاحة». وكانت تلبية من نسك ليعوق: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، بغض إلينا الشر، وحبب إلينا الخير، ولا تبطرنا فنأشر، ولا تفدحنا بعثار». وكانت تلبية من نسك ليغوث:

«لبيك، اللهم لبيك، لبيك، أحبنا بما لديك، فنحن عبادك، قد صرنا إليك». وكانت تلبية من نسك لنسر: «اللهم لبيك، اللهم لبيك، لبيك، إننا عبيد، وكلنا ميسرة عتيد، وأنت ربنا الحميد، اردد إلينا مُلكنا والصيد». وكانت تلبية من نسك ذا اللبا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، رب فاصرفن عنّا مضر، وسلّمن لنا هذا السفر، إن عما فيهم لمزدجر، واكفنا اللهم أرباب هجر». وكانت تلبية من نسك لمرحب: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، إننا لديك. لبيك، حببنا إليك». وكانت تلبية من نسك لذريح: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، كلنا كنود، وكلنا لنعمة جحود، فاكفنا كل حية رصود». وكانت تلبية من نسك ذا الكفين: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، إن جرهماً عبادك، الناس طُرف وهم تلادك، ونحن أولى منهم بولائك». وتلبية من نسك هبل: «لبيك اللهم لبيك، إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح»[1].

وقد تعرض (اليعقوبي) لموضوع التلبية، فقال: «فكانت العرب، اذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنده، ثم تلبوا حتى

---

(1) المحبر (311 . 315).

يقدموا مكة، فكانت تلبياتهم مختلفة. وكانت تلبية قريش: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، تملكه وما ملك. وكانت تلبية كنانة: لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف. وكانت تلبية بني أسد: لبيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسد، أهل التواني والوفاء والجلد إليك. وكانت تلبية بني تميم: لبيك اللهم لبيك، لبيك عن تميم، قد تراها قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها، وأخلصت لربها دعاءها. وكانت تليية قيس عيلان: لبيك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمان، أتتك قيس عيلان، راجلها والركبان. وكانت تلبية ثقيف: لبيك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك، وأخلفوا المال وقد رجوك. وكانت تلبية هذيل: لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل، في إبل وخيل. وكانت تلبية ربيعة: لبيك ربنا لبيك، لبيك إن قصدنا اليك. وبعضهم يقول: لبيك عن ربيعة، سامعة لربها مطيعة. وكانت حمير وهمدان يقولون: لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد والهان. وكانت تلبية الأزد: لبيك رب الأرباب، تعلم فصل الخطاب، لملك كل مثاب. وكانت تلبية مذحج: لبيك رب الشعرى، ورب اللات والعزى. وكانت تلبية كندة وحضرموت: لبيك لا شريك لك، تملكه، أو تهلكه، أنت حكيم فاتركه. وكانت تلبية غسان: لبيك رب غسان، راجلها والفرسان. وكانت تلبية بجيلة: لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة، وكانت تلبية قضاعة: لبيك من قضاعة، لربها دفاعة، سمعاً وطاعة. وكانت تلبية جذام: لبيك من جذام، ذوي النهي والأحلام، وكانت تلبية عك والأشعريين:

نحج للرحمان بيتاً عجبا ... مستتراً مضبباً محجبا[1]

و(التلبية) إجابة المنادي، أي إجابة الملبي ربه. وقولهم: لبيك اللهم لبيك، معناه إجابتي لك يا رب، واخلاصي لك[2]. وقد كان الجاهليون يلبون لأصنامهم تلبيات مختلفة. وقد ذكر (أبو العلاء المعري)، أن تلبيات العرب جاءت على ثلاثة أنواع: مسجوع لا وزن له، ومنهوك، ومشطور. فالمسجوع كقولهم:

(1) اليعقوبي (1/ 225 وما بعدها).

(2) اللسان (1/ 732)، (لبب).

لبيك ربنا لبيك   والخير كله بيديك

والمنهوك على نوعيْن: أحدهما من الرجز، والآخر من المنسرح. فالذي من الرجز كقولهم:

لبيك إنّ الحمد لك   والملك لا شريك لك
إلاّ شريك هو لك   تملكه وما ملك
أبو بنات بفدك

وكقولهم:

لبيك يا معطي الأمر   لبيك عن بني النمر
جئناك في العام الزمر   نأمل غيثاً ينهمر
يطرقُ بالسيل الخَمر

والذي من المنسرح جنسان: أحدها في آخره ساكنان كقولهم:

لبيك رب همدان   من شاحط ومن دان
جئناك نبغي الإحسان   بكل حرف مذعان
نطوي اليك الغيطان   نأمل فضل الغفران

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

لبيك عن بجيله   الفخمة الرجيله
ونعمت القبيله   جاءتك بالوسيله
تؤمل الفضيله

وربما جاءوا على قوافٍ مختلفه، من ذلك تلبية بكر بن وائل:

لبيك حقاً حقا تعبداً ورقا

جئناك للنصاحة لم نأت للرقاحه

وروي في تلبية (تميم) قولها:

لبيك لولا أن بكراً دونكا يشكرك الناس ويكفرونكا

ما زال منا عثج يأتونكا

ورووا أن من تلبيات همدان:

لبيك مع كل قبيل لبيك همدان أبناء الملوك تدعوك

قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاءً في جميع الأملوك

ومن تلبياتهم قولهم:

لبيك عن سعد وعن بنيها وعن نساء خلفها تعنيها

سارت إلى الرحمة تجتنيها

وختم (أبو العلاء المعريّ) رأيه عن التلبية بقوله: «والموزون من التلبية، يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب، ولم تأت التلبية بالقصيد. ولعلهم قد لبّوا به ولم تنقله الرواة»[1].

والتلبية هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام، غير أنه غيّر صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد. فصارت على هذا النحو: «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك

(1) رسالة الغفران (ص 535 . 537). (بنت الشاطئ).

لك»[1]. كما جعلها جزءاً من حج مكة، بعد أن كانت تتم خارج مكة، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها، وتصلي عنده ثم تلبي، قبل أن تقدم مكة[2]. وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة. فأبطل ذلك الإسلام، وألغى ما كان من ذلك من حج أهل الجاهلية. وقد رأينا صيغ التلبيات، وكيف كانت تلبيات القبائل خاصة بها، تلبى كل قبيلة لصنمها، وتوجه نداءها إليه.

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهلين أن في رفع الصوت إفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبى داعيه، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته. وقد أشار بعض الكتاب (الكلاسيكيين) إلى الصخب والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلبية.

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت الحرام، كانت مقدسة وداخلة في شعائر الحج، منها عرفة ومنى والمزدلفة والصفا والمروة، ومواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقدسيتها أو لوجود صنم بها، ثم حرمها الإسلام، فنسيت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين.

وتقف الحمس في حجها على أنصاب الحرم من نمرة على نحو ما ذكرت أما الحلة والطلس، أي غير الحمس من بقية العرب فيقفون على الموقف من عرفة، عشية يوم (عرفة). فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً. وكانوا يدفعون من عرفة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم دفعوا من مزدلفة، وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير[3].

---

(1) البخاري، كتاب الحج، الحديث 31 وما بعده، عمدة القارئ (9/ 172 وما بعدها)، بلوغ الأرب (2/ 288)، إرشاد الساري (3/ 197)، (باب التلبية والتكبير إذا غدا من منى إلى عرفة).

(2) اليعقوبي (1/ 225)، (أديان العرب).

(3) الأزرقي (2/ 226)، مسند ابن حنبل (1/ 39، 42، 50، 52)، الأم للشافعي (2/ 180).

ومن مناسك الحج الطواف بالصفا والمروة، وعليها صنمان: اساف ونائلة: وكان الجاهليون يمسحونهما[1]. وكان طوافهم بهما قدر طوافهم بالبيت، أي سبعة أشواط. تقوم بذلك قريش، أما غيرهم فلا يطوفون بهما، وذلك على أغلب الروايات. ويظهر أن الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة أهل مكة. ففي حج أهل مكة طوافان: طواف بالبيت، وطواف بالصفا والمروة.

بين الصفا والمروة يكون (السعي) في الإسلام، ولذلك يقال للمسافة بين المكانين (المسعى). وكان إساف بالصفا، وأما نائلة فكان بالمروة[2]. ولا بد ان يكون لاقتران الاسمين دائماً سبب، و(المسعى) هو الرابط المقدس بين هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين.

وكان أهل مكة يتبركون بلمس الحجر الأسود، ثم يسعون بين الصفا والمروة. ويطوفون بإساف أولاً ويلمسونه، كل شوط من الطواف ثم ينتهون بنائلة. ويلبّون لهما: وكانت تلبيتهم لهما: «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك»[3]. وذكر أن (الأنصار)، لما قدموا مع النبي في الحج، كرهوا الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية، وأرادوا تركه في الإسلام. وذكر أن قوماً من المسلمين قالوا: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة، فإنه شرك كنّا نصنعه في الجاهلية. فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بين الصفا والمروة مسحوا الوثنيين، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين، فأنزل الله: (إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللَّهِ)[4]. ويتبين من غربلة الأخبار أن الذين كانوا يطوفون بالصنمين المذكورين ويسعون بينهما. هم من عبّاد الصنمين وهم قريش خاصة، وليس كل من كان يحج إلى مكة من العرب، ولذلك كرهوا الطواف في الإسلام

(1) البلدان (5/ 365)، (8/ 38)، إرشاد الساري (3/ 187).

(2) Reste, S. 77.

(3) المحبر (311)، الأزرقي (1/ 112).

(4) البقرة، الآية 158، أسباب النزول (30 وما بعدها)، تفسير الطبري (2/ 43)، (طبعة البابي 1954م).

بالصفا والمروة. وقد استبدل الإسلام بالطواف السعي، لهدم الصنمين اللذين كان الناس يطوفون حولهما واكتفى بالسعي بين الموضعين.

وذكر بعض العلماء أن العرب عامة كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينهما فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[1]، أي لا تستحلون ترك ذلك[2]. وذكر أن الأنصار كانوا يهلون لمناة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام قالوا: يا نبي الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما، فأنزل الله الآية المذكورة. وكان أهل (تهامة) ممن لا يطوفون أيضاً بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام ونزل الأمر بالطواف بالبيت، ولم ينزل بالطواف بين الصفا والمروة، قيل للنبي: إنا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وإن الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من جناح أن لا نطوف بهما. فنزل الوحي: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، فصار الطواف بين الصفا والمروة لجميع الحجاج، لا كما كان في عهد الجاهلية. من اقتصاره على قريش وبعض العرب المتأثرين بهم. فكانوا يطوفون بهما ويمسحون بالوثنين إساف ونائلة، فلما جاء الإسلام تحرج بعض الناس وفيهم قوم من قريش من الطواف بينهما لأنهما من شعائر الجاهلية، فنزل الأمر به[3].

وذكر أهل الأخبار أن السعي بين الصفا والمروة، شعار قديم من عهد هاجر أم إسماعيل. وأما رمل الطواف، فهو الذي أمر به النبي، أصحابه في عمرة القضاء ليُري المشركين قوتهم، حيث قالوا: وهنتهم حمى يثرب[4].

---

(1) البقرة، الآية 158.

(2) تاج العروس (3/ 304)، (شعر)، روح المعاني (2/ 41)، تفسير القرطبي، الجامع (2/ 114)، الأزرقي (74)، تفسير ابن كثير (1/ 198)، صحيح البخاري (1/ 414)، الموطأ (1/ 373)، إرشاد الساري (3/ 187).

(3) تفسير الطبري (2/ 27 وما بعدها)، الطبرسي (2/ 45)، ابن كثير (1/ 188، 200)، البخاري (1/ 404)، (باب 79)، الموطأ (1/ 653)، (1/ 371)، (باب 40).

(4) اللسان (11/ 295 وما بعدها)، (رمل).

وورد في خبر عن (عائشة) إنها قالت: «إن الأنصار كانوا يهلّون في الجاهلية لصنمين على شط البحر، يقال لهما: إساف ونائلة، ثم يجيئون، فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام، كرهوا أن يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: إن الصفا والمروة من شعائر الله إلى آخرها. قالت: فطافوا». وهو خبر يناقض أخباراً أخرى يتصل سندها بـ (عائشة)، تجمع على أنها قالت: إن الأنصار أو الأنصار وغسان كانوا قبل أن يسلموا يصلّون لمناة، فلا يحل لهم أن يطوّفوا بن الصفا والمروة، وكان ذلك سنّة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة[1]، ولم أجد في خبر آخر شيئاً يفيد أن إسافاً ونائلة كانا على ساحل البحر.

و(السعي) في الإسلام سبعة أشواط، تبدأ بالصفا، وتختتم بالمروة. وعندما يصل الحاج حد (السعي) يسعى ويهرول، فإذا جاز الحد مشى. وكان الجاهليون يبدأون بـ (الصفا) وينتهون بـ(المروة) كذلك[2].

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ (عرفة)، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجة ويسمى (يوم عرفة). ومن (عرفة) تكون (الإجازة) للإفاضة إلى (المزدلفة). ومن (المزدلفة) إلى (منى). وقد كان الجاهليون من غير قريش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس، وأما في المزدلفة فعند شروقها. وكان الذي يتولى الإجازة رجلاً من تميم يقال له (صوفة)، ثم انتقلت إلى (صفوان) من تميم كذلك[3]. ولم يكن (الحمس) يحضرون عرفة، وإنما يقفون بالمزدلفة، وكان سائر الناس يقف بعرفة. ولما رأى أحد الصحابة رسول الله واقفاً بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى لأنه من الحمس، وما كان يظن انه يخالف قومه في ذلك، فيساوي نفسه بسائر الناس[4]. فأنزل الله: (ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ

---

(1) صحيح مسلم (4/ 68)، (باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلاّ به).

(2) راجع باب الحج في كتب الحديث والفقه.

(3) ابن هشام (77/ 82)، اللسان (7/ 191)، تاج العروس (6/ 193)، الروض الأنف (1/ 86)، الصحاح (3/ 1099)، البلدان (4/ 104).

(4) إرشاد الساري (3/ 200)، تفسير الطبرسي (2/ 296)، تفسير ابن كثير (1/ 242 وما بعدها)، أسباب النزول (42).

وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[1]، فشمل ذلك الحمس وغيرهم. فأخذوا يقفون كلهم موقف عرفة، ووضع عن قريش ما فعلوه من تمييز أنفسهم عن الناس[2].

وورد في روايات أخرى، أن قريشاً وكل حليف لهم وبني أخت لهم، لا يفيضون من عرفات، إنما يفيضون من المغمس، وورد أن قريشاً وكل ابن أخت وحليف لهم، لا يفيضون مع الناس من عرفات، يقفون في الحرم ولا يخرجون منه. يقولون: إنما نحن أهل حرم الله، فلا نخرج من حرمه، وأنهم قالوا «نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت، وقاطنوا مكة وساكنوها، فليس، لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلنا، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الحل، كما تعظمون الحرم. فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها»[3].

وذكر أن قريشاً ومن دان بدينها تفيض من (جمع) من المشعر الحرام[4]. و(جمع) المزدلفة[5].

و(عرفة) أو (عرفات) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة[6]. لا بدّ وأن يكون من المواضع التي كان يقدسها أهل الجاهلية، وان يكون له ارتباط بصنم من الأصنام، وإلاّ لما صار جزءاً من أجزاء مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. ويقف الحجاج موقف عرفة من الظهر إلى وقت الغروب. وقد يكون لموقف

---

(1) البقرة، الآية 199.

(2) تفسير الطبري (2/ 166 وما بعدها).

(3) تفسير الطبري (2/ 170).

(4) أسباب النزول (42).

(5) قال أبو ذؤيب:

فبات بجمع ثم تم إلى منى   فأصبح راداً يبتغي المزج بالسحل

تاج العروس (5/ 305)، (جمع).

(6) (وعرفات، موقف الحاج ذلك اليوم على اثني عشر ميلاً من مكة)، تاج العروس (6/ 193)، تفسير الطبري (4/ 114 وما بعدها)، أخبار مكة (1/ 115 وما بعدها).

الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس. فإذا غربت الشمس اتجه الحجاج إلى (المزدلفة).

الإفاضة:

ومن (عرفة) تكون الإفاضة إلى (المزدلفة). و(المزدَلفة)، موضع يكاد يكون على منتصف الطريق بين (عرفة) و(منى). وفيه يمضي الحجاج ليلتهم، ليلة العاشر من (ذي الحجة). ومنه تكون الإفاضة عند الشروق إلى (منى). وقد نعت بـ (المشعر الحرام) في القرآن الكريم[1]. ويذكر أهل الأخبار أن (قصي بن كلاب)، كان قد أوقد ناراً على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة، وأن العرب سارت على سنته هذه. وبقيت توقدها حتى في الإسلام[2]. ولا بد وأن يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك، التي كان لها صلة بالأصنام. وقد ذكر علماء اللغة اسم جبل بالمزدلفة دعوه (قزحاً)، قالوا إنه (هو القرن الذي يقف عنده الإمام)[3]، وذكروا أن (قزح) اسم شيطان[4]. ونحن نعرف اسم صنم يقال له (قزاح)، قد تكون له صلة بهذا الموضع.

ويفيض الحجاج في الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذي الحجة من (المزدلفة) إلى (منى)، لرمي الجمرات ولنحر الأضحية. و(منى) موضع لا يبعد كثيراً عن مكة. ولعلماء اللغة آراء في سبب التسمية، من جملتها إنها عرفت بذلك لما يمنى بها من الدماء[5]. وذكر بعض أهل الأخبار أن (عمرو بن لحي) نصب بمنى سبعة أصنام، نصب على (القرين) القرن الذي بين مسجد منى والجمرة الأولى صنماً، ونصب على الجمرة الأولى صنماً، وعلى الجمرة الوسطى

---

(1) سورة البقرة، الآية 198، تفسير الطبري (2/ 164)، روح المعاني (2/ 74)، تفسير ابن كثير (1/ 242).

(2) نهاية الأرب (1/ 109)، (ذكر نيران العرب)، صبح الأعشى (1/ 409)، الأزرقي (36، 130، 411، 415)، (وستنفلد)، ابن هشام (77)، ابن سعد (1/ 72)، (صادر)، اللسان (9/ 138)، البلدان (4/ 519)، تاج العروس (6/ 131).

(3) تاج العروس (2/ 207)، (قزح).

(4) تاج العروس (2/ 207)، (قزح).

(5) تاج العروس (10/ 348)، (منى).

صنماً، وعلى شفير الوادي صنماً[1]. ولا بد أن يكون لهذا الموضوع صلة بالأصنام، نظراً لما له من علاقة متينة بمناسك الحج. وقد يكون لرمي الجمرات ولنحر الذبائح صلة بتلك الأصنام.

وقد ذكر العلماء «أن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير»[2]، وأن النبي خالفهم، «فأفاض حين أسفر قبل طلوع الشمس»[3]. وفي فعل المشركين ذلك، ووقوفهم انتظاراً للإفاضة عند طلوع الشمس، دلالة على عبادة الشمس عندهم، ولهذا غيَّر الرسول هذا الوقت.

و(رمي الجمرات) بمنى من مناسك الحج وشعائره. وهو من شعائر الحج كذلك المعروفة في المحجات الأخرى من جزيرة العرب. كما كان معروفاً عند غير العرب أيضاً. وقد أشير اليه في التوراة[4]. وهو معروف عند (بني إرم)[5]. وكلمة وكلمة (رجم) من الكلمات السامية القديمة. وقد وردت في حديث (عبد الله بن مغفل): لا ترجموا قبري، أي لا تجعلوا عليه الرجم، وهي الحجارة، على طريقة أهل الجاهلية، ولا تجعلوه مسنّماً مرتفعاً[6]. وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم. فكان أحدهم إذا مرّ بقبر، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجاماً عليه.

(والجمرات)، أي مواضع (رمي الجمرات) عديدة عند الجاهليين، يطاف حولها، ويحج إليها[7] منها مواضع أصنام، وأماكن مقدسة، ومنها قبور أجداد.

---

(1) الأزرقي (142/2).

(2) إرشاد الساري (3/ 210).

(3) المصدر نفسه.

(4) التكوين، الإصحاح الحادي والثلاثون، (وقال لابان ليعقوب: هوذا هذه الرجمة، وهو ذا النصب الذي وضعت بيني وبينك)، الآية 51.

(5) Shorter Ency., p. 464, Reste, S. 112.

(6) النهاية (2/ 74)، اللسان (15/ 117 وما بعدها)، تاج العروس (8/ 304 وما بعدها)، (رجم).

(7) المشرق: السنة التاسعة والثلاثون، تموز - أيلول 1941م، (246)، Reste, S. 111.

وقد ورد قسم بها في بيت ينسب إلى شاعر جاهلي[1] وترمى الجمرات على مكان عرف بـ (جمرة العقبة) وبـ (الجمار) وبـ (موضع الجمار) وهو بـ (منى)، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى. وهي جمرات ثلاث: الجمرة الأولى، والجمرة الوسطى، وجمرة العقبة[2].

ويرجع أهل الأخبار مبدأ رمي الجمرات إلى (عمرو بن لحي). يذكرون أنه جاء بسبعة أصنام فنصبها بـ (منى)، عند مواضع الحجرات، وعلى شفير الوادي، ومواضع أخرى، وقسم عليها حصى الجمار، إحدى وعشرين حصاة، يرمي كل منها بثلاث جمرات، ويقال للوثن حين يرمى: أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمى قبله[3].

وكانت إفاضة الجاهليين على هذا النحو: كان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة تناويت هذا العمل أباً عن جد. وقد اشتهر منهم رجل عرف بـ (عميلة بن خالد العدواني)، واشتهر بين الناس بـ(أبي سيارة). كان يجيز الناس من المزدلفة إلى منى أربعين سنة. يركب حماراً أسود، وينظر الى أعالي جبل (ثبير)، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى: أشرق ثبير، كيما نغير! ثم يجيز لهم بالإفاضة وفيه يقول الشاعر:

خلّوا الطريق عن أبي سيّاره ... وعن مواليه بني فزاره
حتى يجيز سالماً حماره ... مستقبل القبلة يدعو جاره
فقد أجار الله من أجاره[4]

---

(1) فأقسم بالذي قد كان ربي ... وأنصاب لدى الجمرات معر
ابن هشام (534)، المشرق، الجزء المذكور. قال حنيفة بن أنس الهذلي:
لادركهم شعث النوامي كأنهم ... سواشق حجاج نوافى المجمر
(2) تاج العروس (3/ 107)، (حجر)، (10/ 348)، (منى).
(3) الأزرقي، أخبار (ص 402)، (لايبزك).
(4) اللسان (7/ 191)، الروض الأنف (1/ 86)، الميداني (1/ 421 وما بعدها)، البلدان (6/3)، (ثبير)، البكري (1/ 335)، (طبعة السقا)، (وأبو سيارة: عميلة بن أعزل)، الحيوان (7/ 215)، (عبد السلام محمد هارون)، إرشاد الساري (3/ 210).

وضرب به المثل، فقيل: أصح من عير أبي سيّارة[1].

وذكر (الجاحظ) أن اسم (أبي سيّارة) (عميلة بن أعزل)، دفع بأهل الموسم أربعين عاماً، ولم يكن عيره عيراً وإنما كان أتاناً، ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش وعمّر أطول من عير (أبي سيارة)[2].

وورد أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجاج، وهي الإفاضة، هم (صوفة). وهم حيّ من مضر من نسل (الغوث بن مرّ بن اد بن طابخة بن إلياس بن مضر)، وقد سمّوا (صوفة) و(آل صوفة)، لأن (الغوث) أبوهم جعلت أمه في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها. وكانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج، أي يفيضون بهم، فيكونون أول من يدفع. وكان أحدهم يقوم فيقول: أجيزي صوفة، فإذا أجازت، قال: أجيزي خندف، فإذا آجازت أذن للناس كلهم في الإجازة. وكانت الاجازة بالحج اليهم في الجاهلية. وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حى تدفع بها صوفة، وكذلك لا ينفرون من (منى) حتى تنفر (صوفة)، فإذا أبطأت بهم، قالوا: أجيزي صوفة. وورد أن (صوفة) قوم من (بني سعد بن زيد مناة) من تميم[3].

ويفهم من رواية أن كلمة (صوفة) لم تكن اسم علم، وإنما هي لفظة أطلقت على من كان يتولى البيت أو قام بشي، من خدمته، أو بشئ من أمر المناسك[4]. فهم من رجال الدين، تخصصوا بالإجازة بالناس في مواسم الحج. ولعلهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيأة عمامة أو عصابة، أو عطر، لتكون علامة على أنهم من أهل بيت دين وشرف. فعرفوا بـ (صوفة) وبـ (آل صوفة) وبـ (صوفان). وفي ذلك قال (مرة بن خليف الفهمي)، وهو شاعر جاهلي قديم:

(1) تاج العروس (3/ 287)، (سير)، نهاية الأب (16/ 36 وما بعدها).

(2) الحيوان (1/ 139).

(3) تاج العروس (6/ 169)، (صوف)، معجم الشعراء (382)، ابن هشام (1/ 77، 82).

(4) الروض الأنف (1/ 85).

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى ولاح قتار فوقه سفع الدم[1]

و(يظهر) من الروايات الواردة عن (ثبير)، أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين، أو أن على قمته صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون إليه لزيارته وللتبرك به[2].

ومن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح، وهي الأضحية في الإسلام و(العتائر) في الجاهلية. ولذلك عرف هذا العيد: عيد الحج بـ (عيد الأضحى). وعرف اليوم الذي تضحى به الأضحية بـ (يوم النحر) وبـ (الأضحى) وبـ (يوم الأضحى). وكانوا ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد. وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا (يصد عنها إنسان ولا سبع)[3]. وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة.

وكان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة، أو بنعلين، يعلقان على رقبتي الهدي، إشعاراً للناس بأن الحيوان هو هدي، فلا يجوز الاعتداء عليه، كما كانوا يشعرونه. والإشعار الإعلام. وهو أن يشق جلد البدنة أو يطعن في اسنمها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه، وقيل في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدي. والشعيرة البدنة المهداة[4].

وكان بعض أهل الجاهلية، يسلخون جلود الهدي، ليأخذوها معهم. ويتفق هذا مع لفظة (تشريق) التي تعني تقديد اللحم. ومنه سميت أيام التشريق، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها، أي تشرّر في

---

(1) معجم الشعراء (382).

(2) المشرق، السنة التاسعة والثلاثون (1941م)، (ص 259).

(3) ابن هشام (100)، المشرق: السنة السابعة والثلاثون، كانون الثاني . آذار 1939م. (92).

(4) نقتلهم جيلاً فجيلا تراهم شعائر قربان بها يتقرب

تاج العروس (3/ 303 وما بعدها)، (شعر).

الشمس[1]. وقيل سمي التشريق تشريقاً، لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس[2]. ويظهر أن الجاهليين كانوا ينحرون قبيل شروق الشمس وعند شروقها، بدليل ما ورد في الحديث من النهي عن ذلك. ومن حديث: من ذبح قبل التشريق فليعد. أي قبل أن يصلي صلاة العيد، وهو من شروق الشمس واشراقها، لأن ذلك من وقتها[3].

ولا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم، وإلاّ بطل حجتهم. ويلاحظ أن غير العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر في مثل هذه المناسبات الدينية أيضاً، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس الدينية عندهم، ولا سيما اللحية لما لها من علاقة بالدين. ولهذا نجد رجال الدين والزهاد والأتقياء الورعين يحافظون عليها ويعتبرونها مظهراً من مظاهر التدين[4].

وقد كانت القبائل لا تحلق شعورها في مواسم حجها إلاّ عند أصنامها، فكان الأوس إذا حجوا وقفوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا صنمهم مناة فحلقوا رؤوسهم عنده، وأقاموا لا يرون لحجّهم تماماً إلا بذلك[5]. وكانت قضاعة ولخم وجذام تحج للأقيصر وتحلق عنده[6].

وكان من عادة بعض القبائل، مثل بعض قبائل اليمن، القاء قرة من دقيق مع الشعر[7]. وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق، ويجعلون ذلك الدقيق صدقة، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر

---

(1) تاج العروس (6/ 393)، (شرق).

(2) المصدر نفسه.

(3) تاج العروس (6/ 393)، (شرق).

(4) Smith, p. 323.

(5) الأصنام (ص 14)، البلدان (8/ 169)، الأزرقي (1/ 73).

(6) الأصنام (ص 48)، البلدان (1/ 314)، Reste, S. 62.

(7) الأصنام (ص 48)، البدان (1/ 314 وما بعدها)، Reste, S. 62, ff.

بدقيقه، فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق. وفي ذلك يقول معاوية بن أبي معاوية الجرمي:

ألم ترَ جرماً أنجدت وأبوكم ... مع الشعر في قص الملبد شارع
إذا قرة جاءت تقول أصب بها ... سوى القمل إني من هوازن ضارع[1]

وكان من يقصد العزى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون، وكان من يقصد مناة يهدي لها كما كان غيرهم يهدي للكعبة ويطوفون بها ثم ينحرون عندها، وكان عبدة ذي الخلصة في أسفل مكة يذبحون عنده كذلك[2]. وكذلك كانت بقية القبائل تطوف في أعيادها. حول أصنامها، وتهدى إليها، ثم تنحر عندها عند اكمالها هذه الشعائر دلالة على اكمالها شعائر الحج الى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه.

وتميز الحيوانات التي يهيئها أصحابها أو مشتروها للذبح في الحج بعلامات، بأن توضع عليها قلائد تجعلها معروفة، أو أن يحدث لها جرح يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة إنها هدي. ويقال لذلك إشعار، ومنه إشعار البدن، وهو أن يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدي[3]. وقد كان من أهل مكة من يتخذ من لحاء شجر الحرم قلادة يضعها في عنق البدن، لتكون دلالة على إنها هدي، فلا يعترضها أحد[4].

ويجوز للحجاج مغادرة (منى) في اليوم العاشر من ذي الحجة، أي في اليوم الأول من العيد، ففي هذا اليوم يكمل الحجاج حجهم، ولكن منهم من يمكث في هذا الموضع حتى اليوم الثالث عشر، وذلك ابتهاجاً بأيام العيد، ومشاركة

---

(1) تاج العروس (3/ 486)، (قرر).

(2) بلوغ الأرب (1/ 344 وما بعدها).

(3) النهاية (2/ 442).

(4) اللسان (4/ 369)، (6/ 81 وما بعدها)، الموطأ (1/ 249)، مسند ابن حنبل (1/ 216، 254، 280، 249، 334، 334، 339)، (6/ 35، 82، 87).

لإخوانه فيه. ويقال لذلك (التشريق). وأيام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر[1].

وكان أهل الجاهلية اذا قضوا مناسكهم وفرغوا من الحج، وذبحوا نسائكهم، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فيقول بعضهم لبعض: كان أبي يطعم الطعام، ويقول بعضهم: كان أبي يضرب بالسيف، ويقول بعضهم: كان أبي جزّ نواصي بني فلان. يقولون ذلك عند (الجمرة)، أو عند البيت، فيخطب خطيبهم ويحدث محدثهم. أو إنهم كانوا اذا قضوا مناسكهم وأقاموا بمنى قعدوا حلقاً، فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالهم به، يقوم الرجل، فيقول: اللهم ان أبي كان عظيم الجفنة عظيم القبّة كثير المال، وما شاكل ذلك، فنزل الوحي: (فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا)[2].

وكانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج، تقلد قلادة من لحاء السمر، دلالة على ذهابهم إلى الحج، في أمن حتى يأتي أهله. وذكر أنه كان يقلد نفسه وناقته، فإذا أراد العودة عادوا مقلدين بلحاء السمر. وروي أنهم إذا أرادوا الحج مقبلين إلى مكة يتقلدون من لحاء السمر، وإذا خرجوا منها إلى منازلهم منصرفين منها، تقلدوا قلادة شعر فلا يعرض لهم أحد بسوء. بقي ذلك شأنهم حتى نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة وبوجوب قتلهم حيث وجدوا[3].

التجارة في الحج:

قال علماء التفسير: كان متجر الناس في الجاهلية: عكاظ وذو المجاز، فكانوا إذا أحرموا لم يتبايعوا حتى يقضوا حجهم. ويقولون أيام الحج أيام ذكر. وقالوا: «كان هذا الحي من العرب لا يعرجون على كسير ولا ضالة ليلة النفر. وكانوا يسمّونها ليلة الصدر، ولا يطلبون فيها تجارة ولا بيعاً». وقالوا: «كان

---

(1) تاج العروس (6/ 393)، (شرق).

(2) البقرة، الآية 200، تفسير الطبري (2/ 172 وما بعدها)، تفسير الطبرسي (2/ 296 وما بعدها).

(3) تفسير الطبري (6/ 37 ما بعدها)، اللسان (3/ 367)، (قلد).

بعض الحاج يسمّون الداج. فكانوا ينزلون في الشق الأيسر من منى. وكان الحاج ينزلون عند مسجد منى، فكانوا لا يتجرون حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبغوا فضلاً من ربكم. هي التجارة. قال: اتجروا في الموسم»[1]. والصدر الإفاضة. ومنه طواف الصدر. وهو طواف الإفاضة[2].

والداج: الأجراء والمكارون والأعوان ونحوهم الذين مع الحاج[3]. وذكر ان قوماً جاءوا إلى (عبد الله بن عمر)، فقالوا: «انا قوم نكرى، فيزعمون أنه ليس لنا حج. قال: ألستم تحرمون كما يحرمون، وتطوفون كما يطوفون، وترمون كما يرمون؟» قالوا بلى. قال فأنتم حاج[4]، ومن يكرى لخدمة الحاج، فهو من الداج.

العمرة:

و(العمرة) هي بمثابة (الحج الأصغر) في الإسلام، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر (رجب). وللعمرة في الإسلام شعائر ومناسك، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة. ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك. وهي في الإسلام فردية اختيارية، وهي تختلف بذلك عن الحج الذي هو فرض عين على كل مسلم مستطيع، وجماعي، أي إن المشتركين فيه يؤدونه جماعة[5]. أما بالنسبة إلى الجاهليين، فيظهر من ذكر العمرة في القرآن الكريم أنهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج، ولوقوعها في شهر رجب، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه، لعلنا لا نخطىء اذا قلنا إنهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمرة، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولها، أما في الإسلام، فالعمرة دون الحج. وإذ كانت في شهر رجب في الجاهلية، كانت حجّاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة. حرص الجاهليون

---

(1) تفسير الطبري (2/ 164 وما بعدها).
(2) تاج العروس (3/ 328)، (صدر).
(3) تاج العروس (2/ 39)، (دج).
(4) تفسير الطبري (2/ 164 وما بعدها).
(5)Shorter Ency. of Islam, p. 604, ff.

على ألاّ يوافق موعدها موعد مواسم الحج، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج[1].

وورد أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن العمرة من أشهر الحج: شوال وذي القعدة وتسع من الحجة وليلةّ النحر، أو عشر أو ذي الحجة من الفجور في الأرض، أي من الذنوب[2]، ولكن بعضاً آخر كان يعتمر في كل شهر، ولا سيما في رجب، حيث كانوا يحلقون رؤوسهم ويجيئون إلى محجاتهم للعمرة. وورد أن أهل الجاهلية «كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر. ويقولون: اذا برأ الدبر، وعفا الأثر، وانسلخ صفر، حلت العمرة لمن اعتمر»[3].

وذكر أن الأشهر الحرم ثلاثة سرداً وواحداً فرداً، وهو رجب. أما الثلاثة، فليأمن من الحجاج واردين إلى مكة وصادرين عنها، شهراً قبل شهر الحج، وشهراً بعده، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب، ثم يرجع. وأما رجب، فللعمّار يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف الشهر للإقبال ونصفه للإياب، إذ لا تكون العمرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحج. وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً[4].

ويلبس المعتمر (الاحرام) أيضاً. وقد كان الجاهليون يكتفون في عمرتهم بالطواف بالبيت، أما (السعي) بين الصفا والمروة، فأغلب الظن أن العرب لم يكونوا يقومون به. بدليل ما ورد في القرآن الكريم من قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[5]. ففي هذا النص دلالة على أن الجاهليين من غير قريش لم يكونوا يدخلون السعي بينهما في شعائر الحج أو العمرة، وأن الله أمر بإدخاله فيهما. أما موقف الجاهليين بالنسبة لطواف العمرة، فهو نفس موقفهم

(1) المشرق، الجزء 39 (1941)، (ص 250)، .Reste, S. 84
(2) إرشاد الساري (6/ 174).
(3) الروض الأنف (1/ 351).
(4) الروض الأنف (2/ 60).
(5) البقرة، الآية 158.

بالنسبة للطواف بالبيت في أثناء الحج، والفرق بين الحج والعمرة، إن الحج هو الإحرام ثم الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروه وقضاء مناسك عرفة والمزدلفة والوقوف بالمواضع التي أمر بالوقوف بها، بينما العمرة الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة[1]، فلا يكون موقف عرفة من العمرة. وكان الجاهليون يحلقون رؤوسهم للعمرة، ويكون حلق الرأس علامة لها. فاذا وجدوا رجلاً وقد حلق رأسه علموا أنه من (العمار)، فلا يمسونه بسوء، إلاّ اذا مس أحداً بسوء احتراماً للعمرة ولشعائر الدين[2].

والفرق بين العمرة والحج في الإسلام، إن العمرة تكون للإنسان في السنة كلها، والحج في وقت واحد في السنة. وتمام العمرة أنْ يُطاف بالبيت، ويسعى بين الصفا والمروة، والحج لا يكون إلاّ مع الوقوف بعرفة يوم عرفة وإجراء بقية المناسك[3].

وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين. كان في روعهم أن هذا التقبيل مما يقربهم إلى الآلهة، ويوصلهم إليها، فتقربوا إليها ونصبوها في مواضع ظاهرة، ومسحوا أجسامهم بها تبركاً. وكلمة (تمسَّح) من الكَلمات التي لها معاني عند الجاهليين، وكذلك كلمة (استلم) و(استلام) عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجر الأسود. وطريقتهم أن يمر الإنسان يده على الحجر المقدس أو أن يمسسه بها إن صعب استلامه كله. وقد يعوض عن ذلك بعصا

---

(1) تفسير الطبري (2/ 120 وما بعدها).

(2) «وقد كان حلق رأسه، فلما رأوه آمنوا، وقالوا: عمار فلا بأس علينا منهم»، تفسير الطبري (2/ 202).

(3) اللسان (6/ 282)، تاج العروس (3/ 422 وما بعدها)، اللسان (4/ 604)، (صادر)، البلدان (4/ 154)، الإقناع (1/ 334، 397 وما بعدها).

يمدها الإنسان إلى الحجر حتى تلمسه، وإذا تعذر الوصول اليه بسبب ما، فيجوز أن يفعل ذلك راكباً على جمل[1].

ومن هذا القبيل ايضاً طرق مطارق أبواب البيوت المقدسة طرقات خفيفة، وإمرار بعض الأشياء مثل الملابس على الأصنام والصخور والمواضع المقدسة لاكتساب البركة، والتمسح بجدران البيت أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة. وتلطيخ الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها، أو بتلطيخها وتلويثها كلها أو جزء منها بدم الضحية، توكيداً بإراقة دم الضحية في نفس من ضحيت الضحية من أجله[2].

وقيل إن من شعائر الجاهليين في الحج إن الرجل منهم كان إذا أحرم، تقلد قلادة من شعر، فلا يتعرض له أحد. فإذا حجّ وقضى حجّه، تقلد قلادة من (إذْخِر)، والإذخر نبات زكي الرائحة، وأن الرجل منهم يقلد بعيره أو نفسه قلاعة من لحاء شجر الحرم، فلا يخاف من أحد، ولا يتعرض له أحد بسوء[3]. وتذكرنا هذه العادة بما يلبسه بعض الحجاج عند إتمامهم حجّهم وعودتهم إلى بلادهم من لباس (كوفية) خاصة بأهل مكة ومن عقال حجازي وذلك بالنسبة للرجال، وخمار أبيض بالنسبة للنساء، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى من احتفالهم بالعودة من الحج.

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها في حج (عرفة) وعمرة (رجب) حسب، بل كانوا يقصدونها في أوقات مختلفة وفي المناسبات، للطواف حول الأصنام، واستلام الحجر الأسود، والتقرب إلى الآلهة المحلية. وقد ساعد ذكاء سادة قريش الذي تجلى في جمعهم أكثر ما أمكنهم

---

(1) وفي الحديث أن الرسول طاف وسعى بين الصفا والمروة، وهو على ظهر جمل، البخاري (1/ 66، 211)، السنن (2/ 37، 39)، مسلم (1/486، 488)، الأغاني (13/ 166)، المشرق، السنة السابعة والثلاثون، كانون الثاني . آذار 1939م (ص 87 وما بعدها).

(2)Reste, S. 109.

(3) بلوغ الأرب (2/ 289).

جمعه من أصنام القبائل في (البيت الحرام)، على اجتذاب القبائل إليها، وبذلك نشطوا في استغلال مواسم الحج والعمرة بالاستفادة من القادمين بالاتجار معهم، وببيع ما يحتاجون اليه من طعام وزاد، فحصلوا على مال، حسدهم عليه الآخرون فكان الفضل في ذلك للبيت.. والى ذلك أشير في القرآن، في سورة(قريش): (فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ (٣) ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ)[1].

هذا ما عرفناه عن شعائر الحج إلى مكة وعن مناسكه في الجاهلية المتصلة بالإسلام. أما عن الحج إلى البيوت الأخرى وعن شعائره ومناسكه، فلا نكاد نعرف من أمرهما شيئاً يذكر. ولكننا نستطيع أن نقول إن من أهم أركان الحج عند جميع الجاهليين، وجوب مراعاة النظافة، نظافة الجسم ونظافة الثياب. ولذلك، كانوا اذا حجّوا لبسوا ملابس خاصة بالحج هي (الاحرام) أو ملابس جديدة، أو ملابس مستعملة نظيفة مغسولة، وذلك لحرمة هذه المواضع وقدسيتها، فلا يجوز دخولها بملابس وسخة دنسة، واذا كانوا يلبسون أحسن ما عندهم عند ذهابهم إلى مقابلة عظيم أو سيد قبيلة أو رجل محترم، احتراماً له واجلالاً لشأنه، أفلا يجب إذن لبس خير ما عند الإنسان من ثياب لدخول بيوت الآلهة، ولا سيما في مواسم الحج؟ وكان منهم من يوجب على نفسه الغسل وتنظيف جسده حين دخوله المعبد أو اعتزامه الحج.

وتقبيل الأصنام والأحجار واستلامها في أثناء الطواف، والتمسح لها، من الشعائر الدينية اللازمة في الحج وفي غير مواسم الحج عند الزيارات. كان في روعهم إن هذا التقبيل مما يقربهم إلى الآلهة، ويوصلهم إليها، فتجعلها ترضى عنهم وتشفيهم مما هم فيه من سقم وأمراض، فتقربوا إليها ومسحوا أجسامهم بها تبركاً وتقرباً. و(التمسح) بالصنم أو الحجر المقدس، التبرك به لفضله وعبادته، كأنه يتقرب إلى الآلهة بالدنو منه ولمسه[2]. وقد كان رجال الدين يمسحون بأيديهم أجسام المرضى وثيابهم، لإزالة السوء عنهم. وقد ذكر أهل

---

(1) سورة قريش، الرقم 106، رقم الآية 3 وما بعدها، تفسير الطبري (30/ 197)، روح المعاني (30/ 241).

(2) تاج العروس (2/ 226)، (مسح).

الأخبار إن الجاهليين كانوا يتمسحون بأصنامهم، ويمسحون ظهورهم بها، لاعتقادهم أنها تشفيهم من كل ألم وسوء.

واستلام الصنم أو الحجر المقدس، هو نوع من أنواع التقدير والتعظيم والتقرب. ويراد بذلك تقبيل الحجر ولمسه وتناوله باليد ومسحه بالكف. وإذا صعب الوصول إليه لشدة الازدحام، فقد يمدّ أحدهم قصبة أو عوداً أو عصاً إليه لمسه، فيكون لمس هذه الأشياء له، كأنه لمس حقيقي، يجلب لصاحبه ما تمناه وطلبه ورجاه من ذلك الصنم أو الحجر[1]ض.

وقد أشار بعض (الكلاسيكين) إلى وجود غابة من النخيل في ركن من البحر الأحمر، كان يؤمّها النبط للتبرك بها، إذ كانت في نظرهم أرضاً مقدسة، عليها معبد من الحجر عليه كتابة، وصفوها بأنها كتابة لا يستطيع اليوناني قراءتها، وبه كهّان وكاهنات يقضون عمرهم في خدمة ذلك المعبد. قالوا: وفي كل خمس سنين يحج الناس إليه، ويتجمعون عنده، ويحضر معهم من في جوار المعبد من ناس، فيذبحون، ويتقربون إلى آلهتهم. فإذا عادوا أخذوا معهم ماءً من ذلك المكان، للتبرك به، لاعتقادهم أنه يمنحهم الصحة والعافية. وذكر بعض آخر أن الحج إلى هذا البيت كان مرتين في السنة: الحج الأول في مطلع السنة، ويستغرق شهراً واحداً. اما الحج الثاني فيكون في نهاية الصيف، ويستغرق شهرين. وتكون هذه الأشهر الثلاثة أشهراً حرماً لا يحل فيها قتال، يعمّها سلم أوجبته الآلهة على الإنسان والحيوان[2].

ونرى في هذه الشعائر مشابهة كبيرة لشعائر الحج في مكة. ولولا تعيين هؤلاء الكتبة المكان، ونصهم على أنه على البحر الأحمر، وأنه غابة نخيل، لأنصرف الذهن إلى مكة، إذ نجد أن شعائر الحج فيها تشبه هذه الشعائر، واستقاؤهم من ماء (زمزم) للتبرك به، يشبه استقاء هؤلاء من بئر معبدهم هذا، وقد أهمل

---

(1) اللسان (12/ 379)، (سلم).

(2)Die Araber in der Alten Welt, I, S. 32. f.

أولئك الكتبة أسماء الأشهر الحرم الثلاثة، فأضاعوا علينا فرصة ثمينة كانت تساعدنا كثيراً في الوقوف على تثبيت الأشهر عند الجاهليين.

ويلاحظ أن النبط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشهر الحرم سوقاً، تذكرنا بسوق عكاظ التي كان يعقدها أهل الحجاز. ولا شك أن موسم الحج في المعبد المذكور، الذي يتحول إلى سوق للبيع والشراء، يشبه موسم الحج في مكة حيث ينقلب أيضاً إلى سوق.

الأعياد:

والأعياد من جملة مظاهر الأديان وشعائرها. والحج في حد ذاته عيد من أعياد الجاهلين. وقد كانت للجاهليين أعياد لها صلة بأديانهم، غير أننا لا نستطيع ان نتحدث بالطبع عن وجود أعياد عامة يعيّد فيها جميع الجاهليين عبدة الأصنام، لأن الأعياد العامة تستدعي وجود ديانة واحدة وعبادة إله أو آلهة مشتركة يعبدها جميع القوم، واذ كانت العرب لا تعبد إلهاً واحداً أو آلهة مشتركة يقدسها أهل الوبر وأهل المدر منهم جميعاً، فلا يمكن ان نتصور وجود أعياد عامة لجميع العرب، في عهود ما قبل الإسلام.

ولفظة العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد على رأي علماء اللغة[1]. وهو بالمعنى المعروف الذي يخص الاحتفالات الدينية من الألفاظ المعربة المأخوذة عن لغة بني إرم على رأي المستشرقين. فـ (عيدا) في الإرمية هي (العيد) في العربية[2].

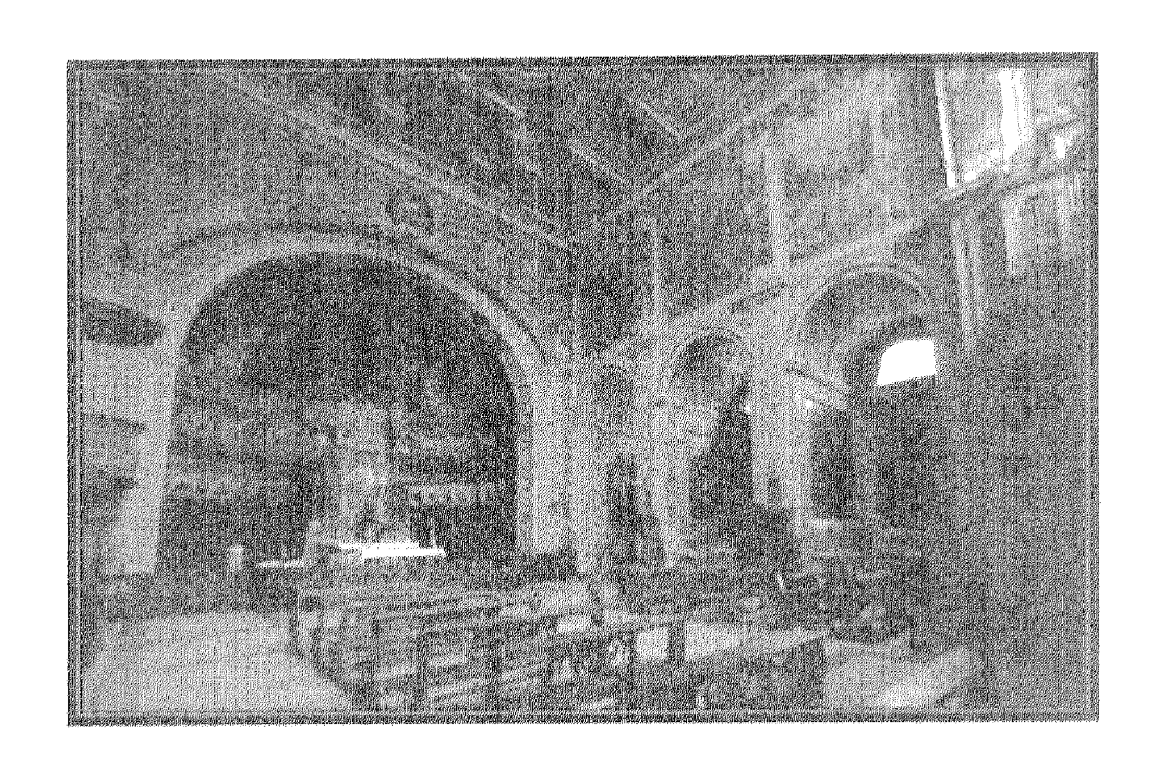
---

(1) تاج العروس (2/ 438)، اللسان (4/ 313)، بلوغ الأرب (1/ 344).

(2)Ency., II, p. 444.

الفصل الثالث

بيوت العبادة



الفصل الثالث

بيوت العبادة

والمعبد هو الموضع المخصص للعبادة. وقد وردت في النصوص الجاهلية وفي عربية القرآن الكريم ألفاظ تؤدي هذا المعنى، فقد كان الجاهليون قد اتخذوا معابد ثابتة ومعابد متنقلة مثل بيوت الوبر، تعبدوا بها إلى معبوداتهم قبل الإسلام وقبل الميلاد.

فقد كانت القبائل في حركة دائمة، بحثاً عن الغزو والكلأ والماء. وكانت آلهتها في حركة دائمة أيضاً، ترحل مع المتعبدين لها، وتستقر عند استقرارهم بمكان ما. وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في قبتها، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر. وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة، وللموضيع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه، وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز[1]. ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبد، واتخاذ معبد ثابت، لخروج ذلك على سنن الآباء والأجداد. ولذلك لم يرضَ العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان الى مكان. ثم إن أهل الوبر قوم رحل، ولا يمكن لمن هذا حاله اتخاذ معبد ثابت له، لما كان عليه من وجوب نقل أصنامه معه حيث يذهب.

---

(1) Die Araber, III, S. 132.

ولبيوت الأصنام سدنة، يحفظون الأصنام بها، ويرعونها، وينقلونها معهم حيث ترحل القبيلة، فإذا نزلت نزلوا بها، ليقيموا لها الواجبات الدينية المفروضة في الخيمة المقدسة. حيث فرضت طبيعة البداوة على أصحابها هذا النوع من أنواع البيوت المقدسة، وهذه الطقوس الدينية التي تلائم حياة الأعراب.

وبيوت العبادة عند الجاهليين ثلاثة أنواع: بيوت عبادة خاصة بالمشركين عبدة الأصنام، وهم الكثرة الغالبة، وبيوت عبادة خاصة باليهود، وبيوت عبادة خاصة بالنصارى. أما بيوت عبادة المجوس، فقد عرفت في العربية الشرقية وفي العربية الجنوبية، ولكن عبّادها هم من المجوس، أي العجم، فالمجوسية لم تنتشر بين العرب، ولم تدخل بينهم إلاّ بين عدد قليل من الناس.

وما ذكرته عن بيوت العبادة، خاص بالمعابد العامة، وهناك مواضع عبادة خاصة، جعلت في البيوت، وضع أصحابها أصنامهم في ركن من أركانها، وتقربوا إليها. روي أن العباس، كان قد أقام الصنمين أسافاً ونائلة في ركن داره، وكانا حجرين عظيمين[1]. واحتفظ غيرة بأصنام في بيوتهم للتبرك بها، ولحماية البيت، وكانوا اذا سافروا حملوا أصنامهم الصغيرة معهم للاحتماء بها، وأخذ بعض شباب المدينة ما وجدوه من أصنام في البيوت، تعبد لها آباؤهم فحطمها، ومنهم من رماها في مواضع العذرة والقاذورات.

وقد استطعنا اليوم بفضل جهود السياح والمنقبين والباحثين من الحصول على بعض المعلومات عن معابد جاهلية كانت عامرة يوماً ما. وذلك بعثور المذكورين على ألواح مكتوبة وجدت في خرائب تلك المعابد. ولكن ما عثر عليه، لا صلة له بالدين في الغالب، فليس فيه أدعية أو صلوات أو كتابات تفصح عن عقائد القوم وعن أمور دينهم. ولهذا فإن علمنا بديانات الجاهليين لا يزال ضحلاً، لم يتقدم تقدماً مرضياً، وأملنا الوحيد في زيادته هو في المستقبل، فلعله يخرج من صناديق سره المكتومة ما يفصح عن عقائد القوم.

---

(1) الأزرقي (1/ 112)، (2/ 188).

وقد اتخذ بعض العرب، وهم المتمكنون، بيوتاً وكعبات لعبادة أصنامهم، وضعوا أصنامهم في أجوافها، ومنهم من اتخذ صنماً، فلم يبن عليه بناءً، لعدم استطاعته ذلك. ومن لم يقدر عليه، ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم، وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسمّوها الأنصاب[1].

وذكر أن (وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي)، كان قد اتخذ له صرحاً بالحزورة، سوق كانت بمكة، يرتقيه بسلالم يتعبد فيه، فعرف بصاحب الصرح[2].

والبيت، مأوى الإنسان ومسكنه في الأصل، ثم تجوز الناس فأطلقوا اللفظة على المعبد، باعتبار أنه بيت الآلهة أو الإلهَ، لاعتقادهم أن الآلهة تحل به[3]. وقد كانوا يضعون الصنم أو الأصنام فيه. ويقال للبيت عندئذ (بيت الله) أو (بيت ريام) وهو بيت يذكر (ابن الكلبي) أنه كان لحمير بصنعاء، وأن الناس كانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح[4]، أو (بيت الربة) وما شاكل ذلك، بحسب اختصاص البيت بالصنم.

كذلك أطلقت كلمة (بيت) بمعنى معبد في نصوص المسند، فورد: (وقدسو بيت مرب)، أي (وقدسوا بيت مأرب) أو (وبيت مأرب المقدس)[5]. فلفظة بيت هي اللفظة التي استعملت لمواضع العبادة، أي المعبد، أطلقت قبل اسم الإلـه أو الموضع لتدل على التخصيص. وهي ترد في لغات سامية أخرى في هذا المعنى نفسه.

وأما (الكعبة) فالبيت المربع، وكل بيت مربع كعبة عند العرب. وقد خصصت في الإسلام بالبيت الحرام بمكة. والكعبة الغرفة أيضاً. وقد كان لربيعة بيت يطوفون به، يسمونه الكعبات، وقيل: ذو الكعبات، وقد ذكره الأسود ابن يعفر في شعره، فقال:

---

(1) الأصنام (21) «روزا».

(2) تاج العروس (139/2)، (صرح).

(3) المفردات (64).

(4) الأصنام (7) «روزا».

(5) CIH 541, Le Muséon, 1936, LXVII, p. 103.

والبيتِ ذي الكعبات من سنداد[1]

والمسجد كل موضع يتعبد فيه[2]. وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى أيضاً.

وقد وردت اللفظة في نصوص بني إرم وفي النصوص النبطية والصفوية. ورد على هذه الصورة (مسجدا) في نصوص بني إرم. وورد على هذه الصورة في النصوص الصفوية أيضاً، وقد عنت به معبداً[3].

وقد عبر عن المعبد بلفظة (مكربن)، أي (المكرب) أو (المكراب) في بعض نصوص المسند؛ إذ ورد (مكربن يعق)، بمعنى (معبد يعوق)[4]. ومن هذا الأصل أخذت كلمة (مكراب) في الحبشية، ومعناها (معبد)[5]. ولهذا ذهب (كلاسر) وغيره الى أن (مكربة) Mocoraba المدينة المذكورة في (جغرافيا) (بطلميوس) هي (مكة)، لأنها (مقربة) الى الأصنام، فهي بمعنى (البيت) و(الكعبة) في لهجتنا[6].

وتقابل كلمة (المعبد) كلمة Templum اللاتينية التي تعني موضعاً مربعاً، فهي بمعنى (الكعبة)، و(كعبة) في اللغة العربية. ويلاحظ توافق تام بين معنى الكلمتيْن في هاتيْن اللغتيْن[7]. ولا بد أن يكون لاتخاذ هذا الشكل للمعبد سبب، إذ لا يعقل أن يكون قد جاء ذلك عفواً، ولا سيما أننا نلاحظ ان الكلمتيْن: اللاتينية والعربية، قد جاءتا من شكل البناء ونوعه وطرازه.

وذكر علماء اللغة أن في جملة الألفاظ التي تطلق على بيوت الأصنام والعبادة والتصاوير، لفظة (البد). وهي تؤدي معنى (صنم) كذلك. وذكروا أنها

1) اللسان (1/ 718)، المفردات (446).

2) اللسان (3/ 204 وما بعدها)، تاج العروس (2/ 371)، (سجد).

3) العرب في سورية قبل الإسلام (119).

4) Shorter Ency. of Islam, p. 330, Cooke, North Semitic Inscriptions, p. 238.

5) Le Muséon, 1954, LXVII, p. 100.

6) Ency., II, p. 586.

7) Ency. Religi., Vol., 12, p. 236.

من الألفاظ المعربة عن الفارسية، عربت من (بت)[1]، وأنها تعني البيت اذا كان فيه أصنام وتصاوير[2].

وذكروا أن في جملة الألفاظ التي أطلقت على بيوت الأصنام لفظة (الطاغوت) والجمع (الطواغيت). ورد أن العرب «كانت قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي إليها، كما تهدي إلى الكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر، عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده»[3]. وورد أن (الطاغوت). الصنم، وكل معبود من دون الله، ولما تقدم سُمي الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتاً[4]. واللفظة تعني في لغة (بني إرم): رئيس عقيدة ضلال، وشيطان وصنم[5].

و(الهيكل) من الألفاظ الدالة على موضع العبادة، استعملت لبيوت الأصنام مجازاً، ولمعابد النصارى[6]. والظاهر أن استعمالها كان عند العرب الشماليين، في الغالب. مثل عرب العراق وعرب بلاد الشأم، ولا سيما عند النصارى منهم. أخذوها من الآراميين، إذ هي بمعنى بيت الصنم، أي معبد الوثنيين عندهم[7]. وقد وردت في لغة (المسند) كذلك، وردت بمعنى (قصر)[8]، ومعبد في أيام دخول النصرانية إلى اليمن.

وقد أطلق (الديدانيون) على بيت (بعل سمن)، لفظة: (احرم) بمعنى (الحرم) تعظيماً وتمجيداً له. فهو ذلك الإلَه[9]. وترد لفظة (محرم) . التي لا زالت

1) تاج العروس (2/ 295)، (بدد).
2) شمس العلوم (ج1، ق1، ص 119)، غرائب اللغة (218).
3) ابن هشام (1/ 86 ما بعدها)، هامش على الروض الأنف (1/ 64).
4) المفردات، للأصفهاني (307)، الأصنام (6)، تاج العروس (10/ 225)، (طغا)، غرائب اللغة (194).
5) غرائب اللغة (194)، Hughes, Dictionary of Islam, p. 625.
6) تاج العروس (8/ 170)، (هيكل).
7) غرائب اللغة (209).
8) Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 433.
9) Histoire, IV, p. 312, Préislamiques, p. 20.

زالت حية معروفة يطلقها أهل اليمن على محرم (بلقيس) . في لغة المسند، بمعنى المعبد، والمسجد الحرام. وقد وردت في عدد من النصوص[1].

وبيوت العبادة أنواع. بيوت عبادة كبيرة، يحج إليها في أوقات معينة، ومواسم محددة، من مواضع قريبة أو بعيدة، هي محجات يحج إليها في وقت معين ثابت، يتقرب بها المتعبدون الى رب المحجة أو أربابها بأداء واجب الخضوع والطاعة. وتكون محجة واحدة في الغالب، اختارها الإله أو الآلهة من بين سائر أماكن الأرض لتكون موضعاً مقدساً وحرماً آمناً، فهي أقدس بقعة وأعز مكان في نظر المتعبدين لها على وجه هذه الدنيا. فلا تدانيها المعابد الأخرى ولا تبلغ منزلتها في الحرمة والمكانة.

وهناك بيوت عبادة أخرى تكون دون المحجات في الأهمية والدرجة، لأن الآلهة لم تخترها لنفسها ولم تنص على اسمها، وإنما هي دور عبادة أقامها الناس تقرباً إلى تلك الآلهة. وهي متفاوتة في الدرجة أيضاً، فيها المعابد الكبيرة التي صرف على إقامتها مال كثير، وفيها معابد بسيطة، يقيمها الناس تقرباً إلى أربابهم.

والناس في ذلك العهد، كالناس في أيامنا هذه، لا يكتفون بتشييد معبد واحد في المدينة، بل نجدهم يقيمون جملة بيوت للعبادة، وقد خُصص بعضها بعبادة جملة آلهة، وخصص بعضها بعبادة إلَه واحد معين، يذكر اسمه على باب المعبد. وقد تبنى في الموضع الواحد جملة معابد لإله واحد، لأن المعابد من الأعمال الخيرية التى يقوم بها المؤمنون تقرباً إلى الآلهة، لذلك يصادف قيام جملة أسر ببناء معابد لذلك الإلهَ، تسميها باسمه وتنقش اسم الأسرة أو المتبرع بالبناء على موضع بارز من المعبد. وبفضل هذه الطريقة القديمة، التي لا تزال البشريه تتبعها، تمكنا من الحصول على معلومات عن تلك المعابد وعن الآلهة التي خصصت لها وعن أسماء المؤمنين الذين أقاموها.

---

1) Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 440.

وقد اتخذ الإنسان من الكهوف بيوتاً للعبادة، كما اتخذ من الجبال والمواضع المرتفعة أماكن بنى عليها معابده، ليكون في رأيه ونظره أقرب إلى السماء، حيث تقيم الالهة، فتسمع دعاءه، وتصل إليها كلمته، وتستجيب له، أكثر من استجابتها له لو كان على سطح الأرض. وبنى الحضري معبده في المواطن التي يقيم فيها، وحاول جهده الإنفاق عليها، والتفنن في بنائها وزخرفتها، لتكون بيوتاً تليق بسكنى الأرباب. أما البدو، فكانت معابدهم في الخيام، تحفظ فيها أصنامها، فتنتقل معها، وتضرب في الموضع الذي تحل القبيلة فيه. ينظرون إليها نظرة تقديس وإجلال، لأنها حرم الآلهة وأماكنها وبيوتها المقدسة، فلا يجوز تدنيسها ولا انتهاك حرمتها. لهذا لم يكن يسمح لأحد بالدخول إليها إلا اذا كان من رجال الدين.

ولهذه الخيام المقدسة سدنة، يضعون الصنم أو الأصنام في جوفها، ويسهرون على خدمتها، وينقلونها معهم حيث تنتقل القبيلة. وهم يتوارثون خدمتها. وإذا استقرت القبيلة وتحضرت، تحضر معبد صنمها بتحضرها كذلك. ووجد الصنم عندئذ له مستقراً دائماً ومقاماً ثابتاً، ويصير عندئذ في عداد الأصنام الثابتة. ويكون للصنم عندئذ معبد تتناسب قيمته وأهميته ودرجة عمرانه، مع مكانة القبيلة وعدد رجالها وغناها وما عندها من مال.

وللعين أهمية كبيرة في تقييم المعبد وفي نشر العبادة وفي تكوين شخصية الإلَه رب المعبد فيما بين الناس. فكما أن قيمة الإنسان بملبسه وبأناقته وبحسن مظهره، كذلك تكون قيمة المعبد بضخامته وبما يزين به من نقوش وزخارف وبما يعلق على الموضع المقدس منه من ذهب وفضة وأحجار كريمة. فالمعبد الضخم، يدل على قوة الإلَه وقدرته في نظر من ينظر بعينه لا بعقله إلى قيم الأمور، أي في نظر السواد، وهم الكثرة الغالبة، ولذلك يجلبهم اليه، وتلقى ضخامته في نفوسهم تأثيراً كبيراً يجعلهم يشعرون أنهم أمام بيت إلَه حقاً، لما فيه من روعة ولما تفوح في داخله من روائح البخور والطيب، لذا حرص رجال الدين على جعل معابدهم ضخمة فخمة، لتجلب لها أكبر عدد ممكن من المتعبدين.

ومن أشهر المواضع المرتفعة التي حج إليها المتعبدون للتبتل والتعبد، والتي ورد ذكرها في قصص أهل الأخبار: حِراء، وأبو قبيس، وثبير.

أما (حراء) فقد ورد في بيت منسوب إلى شاعر جاهلي:

فإني والذي حجت قريش محارمه، وما جمعت حراء[1]

وجعل أحد الأجبل الخمسة التي بُني من حجارتها البيت[2]. وإليه كان يلجأ كبار قريش لدعوة آلهتهم في الملمات، وإليه أيضاً كان يأتي بعض المتحنثين النّساك الزاهدين في عبادة الأوثان للتفكير والتأمل. وفيه غار تحنث فيه النبي، ويعرف بـ (جبل النور)[3]. وورد أن أبا طالب أرسل عقيلاً ليأتي بالرسول إليه، فذهب إلى (كبس)، وأخرجه منه. والكبس الغار[4]. ويظهر أنه أراد به غار حراء.

وأما (أبو قبيس)، فيظهر من غربلة أخبار الأخباريين أنه كان من المواضع المقدسة الداخلة في شعائر الحج، يرتقي. الحجاج ظهره، ليتموا بذلك مناسك حجهم، وليدعوا آلهتهم بما يطلبون ويرغبون. وكان مقصوداً عند نزول الشدة والبلاء. فالمظلوم يجد محله فوق هذا الجبل للدعاء عند انحباس المطر، لنزول الغيث[5].

وقد زعم بعض أهل الأخبار، أنه سمّي (أبا قبيس) برجل من مذحج حدّاد، لأنه أول من بنى فيه، أو بقبيس بن شالخ، رجل من جرهم، كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنة عمه (مية)، فنذرت أن لا تكلمه، وكان شديد الكلف بها فحلف ليقتلن قبيساً، فهرب منه في الجبل المعروف به، وانقطع خبره. فإما مات وإما تردّى منه، فسمي الجبل أبا قبيس. «وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير

1) البكري (2/ 432)، (حراء)، هو «عوف بن الأعوص» العامري، شرح ديوان لبيد (21).
2) الأزرقي، أخبار مكة (1/ 26)، (ما ذكر من بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة).
3) تاج العروس (10/ 87)، (جرو).
4) تاج العروس (4/ 239)، (كبس).
5) المشرق: السنة التاسعة والثلاثون، تموز . أيلول 1941، (ص 252 وما بعدها).

هذا الكتاب. وكان أبو قبيس الجبل هذا يسمى الأمين، لأن الركن، أي الحجر الأسود، كان مستودعاً فيه»[1]. «وكان الله عز وجل استودع للركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح»، فلما أقام (إبراهيم) قواعد البيت، (جاءه جبريل بالحجر الأسود)[2]. والظاهر أن بيتاً للعبادة كان عليه، وأنه كانت له صلة بالبيت، فتجسمت هذه الصلة في الذي ذكروه عن الحجر الأسود ووجوده فيه.

وأما (ثبير)، فقد كانوا يفيضون منه في الحج على نحو يذكر في شعائر الحج.

ويلاحظ أن أهل العربية الجنوبية وأهل السراة قدسوا قمم الجبال، فجعلوا فيها معابد لعبادة الآلهة، مثل معبد (اوم) (أوّام) في (الو). وقد أزيلت معالم تلك المعابد في الإسلام، ولكن بعضها أخذ طابعاً إسلامياً فصير مثلاً قبراً من قبور الأنبياء مثل: (حضور نبي شعيب)، الذي يقع على قمة جبل تعد من أعلا قمم جبال العربية الجنوبية، و(نبي ايوب) و(مقلى) على محر (مبلقة)[3].

وترجع قدسية المواضع المقدسة وحرمتها إلى الاعتقاد بنزول الآلهة في هذه المواضع، والى وجود قوى خارقة فيها، أو إلى وجود مقدسين فيها قبروا في باطنها، فقدست تلك المواضع لهذه الأسباب. وتعرف هذه المواضع المقدسة بأسماء من تقدست بهم، وبأسماء المواضع التي تقع فيها.

وإنا لنرى كثيراً من الأماكن المقدسة قد أقيمت في جزيرة العرب عند الينابيع والآبار المقدسة حيث تروى الأرض بالماء فتنمو به المزروعات ويستقي منها الناس. وقد صوّر هذا الخصب لسكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان ولهذه الأرض[4].

---

1) تاج العروس (4/ 212)، (قبس).

2) الأزرقي (1/ 27)، (ما ذكر من بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة).

3) تاج العروس (3/ 148)، (حضر)، Beiträge, S. 85, Ency., II, p. 222.

4) Ency. Relgili., 6, p. 753, Roberson, p. 115.

وقدست بعض المواضع وأقيمت المعابد بها، بسبب وجود أشجار مقدسة بها، ونجد في أخبار أهل الأخبار أن بعض المعابد مثل معبد العزى، كان المتعبدون يتقربون بها إلى سمرات، أي شجرات ثلاثة، أو إلى شجرة واحدة، فكانوا يعلقون عليها الحلي ويزينونها، ومثل معبد (ذات أنواط)، وهي شجرة كانت تعبد في الجاهلية، وهي سمرة كان المتعبدون لها ينوطون بها سلاحهم ويعكفون حولها[1].

وقدست مواضع أخرى لوجود أحجار مقدسة بها، كانوا يطوفون، حولها من هذه المواضع: (عكاظ). فكان الناس يأتون الموضع في الموسم، فينصبون فيه خيامهم، ويقيمون سوقهم، ويطوفون بأحجار عكاظ، يقيمون على ذلك أيام الموسم. فهي أيام عبادة وتجارة وفرح.

ولهذه القدسية والحرمة، لم يسمح للسواد الأعظم من الناس بدخول الغرف المقدسة المخصصة بالآلهة، لأنها بيوت الآلهة، وعوض لهم عن هذا التحريم بالطواف حولها أو بلمس جدرانها، وللسبب نفسه، حتم على القاصدين لها غسل أجسامهم وتنظيفها ولبس ملابس طاهرة نظيفة، كان سدنة بعض تلك المعابد، أو أهل المواضع التي تقع فيها المعابد يؤجرونها للناس، بأجر معين مرسوم، إن كانت تلك المعابد من المعابد الكبيرة وفي مواسم الحج. كذلك لم يكن يسمح لأحد بالدخول إلى المعابد والأحذية في أرجلهم فلا بد من خلعها والدخول بغير أحذية احتراماً لقدسية المكان وخشية التدنيس[2]. وقد حتم الجاهليون على من يريد دخول الكعبة من المتمكنين خلع نعليه، احتراماً للبيت. ذكر أهل الأخبار أن أول من خلع نعليه لدخول الكعبة (الوليد بن المغيرة)، فخلع الناس نعالهم في الإسلام[3].

وقد عثر على كتابات جاهلية تبين منها، أن الجاهليين كانوا يعدّون طهارة الملابس وطهارة الجسم من الأمور الملازمة لمن يريد دخول المعبد، فإذا دخل

---

1) تاج العروس (5/ 236)، (نوط).

2) Ency. Religi., 6, p. 53.

3) ابن رسته، الأعلاق (191)، صبح الأعشى (1/ 428).

إنسان معبداً وهو نجس عدّ آثماً، وقد ورد أن رجلاً اتصل بامرأة، ثم دخل المعبد بملابسه التي كان يلبسها حين اتصل بها، فعدّ آثماً، ودفع فدية عن إثمه إرضاءً للآلهة[1]. وورد أن رجلاً دخل معبد الإله (رب السماء) (ذ سموى) بمعطف نجس، فدفع فدية عن ذلك، جزاء ما ارتكبه من إثم[2]. فدخول المعابد بملابس نجسة، نجاسة: مادية أو معنوية، إثم، تعاقب الآلهة عليه، لهذا اشترطت ديانتهم عليهم عدم دخول بيوت الآلهة، إلاّ بملابس طاهرة نظيفة حرمة وتقديراً لهذه البيوت.

وللسبب المذكور اشترط سدنة الصنم (الجلسد) على من يريد من عبّاده تقديم قربان إليه، أو تكليمه كراء ثياب مسدنة، للبسها بدلاً من ملابسهم، لأنها ملابس نظيفة طاهرة، لم تمسها أدارن مادية أو معنوية[3]. وهو شرط نجده عند غير العرب أيضاً كالعبرانيين[4]. وقد كانت المعابد تدخر ملابس تكريها لمن يريد أداء شعائر زيارة بيوت الأصنام.

وورد في كتب أهل الأخبار، أن الجاهليين حتموا على المرأة الحائض ألاّ تمس الصنم ولا تتمسح به، وألاّ تدخل بيته لنجاسة الحيض[5]. وورد أن (فاختة) أم (حكيم بن حزام بن خويلد)، كانت دخلت الكعبة وهي حامل متمّ بحكيم ابن حزام فأجاءها المخاض، فلم تستطع الخروج من الكعبة، فوضعته فيها فلفت في الأنطاع هي وجنينها وطرح مثبرها وثيابها التي كانت عليها، فجعلت لقى لا تقرب[6]. فيظهر من هذا الخبر أن أهل مكة كانوا يعتبرون دم المخاض والولادة نجساً، ولهذا اعتبرت الأنطاع التي وضعت (فاختة) جنينها عليها، بل اعتبرت هي نجسة أيضاً، فلفت بالأنطاع، وألقيت، وجعلت لقى لا يمسها أحد.

---

1) Glaser 1050, Hofmus 6, CIH 523, Grohmann, S. 251, f.

2) Rep. Epigr., 3956, Grohmann, S. 252.

3) البلدان (3/ 122).

4) «ثم قال الله ليعقوب: قمْ فأصعد إلى بيت إيل، وأقمْ هناك، واصنعْ هناك مذبحاً لله الذي ظهر لكَ عند هربك من وجه عيسو أخيك، فقال يعقوب لأخيه وسائر من معه: أزيلوا هذه الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم. وهلموا نصعد إلى بيت إيل»، التكوين (35)، الآية 1 وما بعدها.

5) الأصنام (33)، خزانة الأدب (3/ 245).

6) الروض الأنف (1/ 134)، الإصابة (1/ 348)، (رقم 1800)، كتاب نسب قريش (231).

وعثر المنقبون على أحواض داخل المعابد في العربية الغربية، يظهر أنها كانت للوضوء، لتطهير الجسم قبل الدخول إلى المسجد، موضع الصنم. وذلك بغسل الوجه واليدين والقدمين وربما الأبدان كذلك، قبل الدخول إلى بيت الصنم. ولكون هذا الوضوء تطهيراً للجسم، عرفت (الميضأة) بالمطهرة، لأنها تطهر من الأدران[1]. ولهذا السبب، حفرت الآبار في المعابد، لتموين هذه الأحواض بالماء، وللتبرك أيضاً بالماء المقدس، ولاستعماله في أغراض أخرى، منها تنظيف الجسم من الأدران بعد قضاء الحاجة.

ولهم آداب اتبعوها حين دخولهم بيت الصنم، وحين خروجهم منه. من ذلك إن القبائل كانت تتجنب أن تجعل ظهورها على مناة إعظاماً للصنم. فكانت تنحرف في سيرها، حتى لا يكون الصنم إلى ظهرها. وفي ذلك قال الكميت بن زيد، أحد بني أسد بن خزيمة بن مدركة:

وقد آلت في قبائل لا تولي مناة ظهورها مُتَحرّفينا[2]

وقد تطورت أشكال المعابد وهندستها بتطور الحضارة، وبشكل طبيعة الأرض التي يقام المعبد عليها. وهي تتناسب مع درجة تطور الشعوب ودرجة رقيها وطراز تفكيرها واختلاطها. بالأمم المجاورة. ولذلك نجد معابد (تدمر) مثلاً قد تأثرت بطراز البناء الإغريقي، لتغلغل الثقافة اليونانية فيها، ولتأثر سكان المدينة باليونان. كذلك نجد هذا الأثر والأثر الروماني في معابد بلاد الشأم وفلسطين، فالمعبد أذن هو نموذج معبر عن نفسية الناس وعن حضارتهم ودرجة تفكيرهم وعن هندستهم، ومدى تأثر فن البناء عندهم بالمؤثرات الداخلية الأصيلة أو المؤثرات الدخيلة في الزمن الذي قام فيه البناء.

---

1) تاج العروس (1/ 134)، (وضوء).

2) ابن هشام (1/ 90)، المشرق، السنة 1938م، (الجزء الأول)، (ص 11)، ابن هشام (1/ 65)، (حاشية على الروض الأنف)، (قصة عمرو بن لحي وذكر أصنام العرب).

ومن هنا نجد معابد اليمن، اتخذت لها الحجارة الضخمة المتقطعة من الصخور في بناء الجدر والأرض وفي الأعمدة، ونجد المعمار قد تفنن في تزويق الجدر والأعمدة والسقوف وفي زخرفتها، فصارت المعابد ضخمة جميلة، لا تضاهيها المعابد التي أقيمت في مواضع سهلة من جزيرة العرب، لعدم وجود المواد الصالحة للبناء فيها، ولأن الطبيعة لم تهب للمعمار فيها ما يدفعه إلى بناء أبنية ضخمة فيها تضاهي معابد أهل اليمن.

الاستفسار عن المغيبات:

ولم تكن المعابد مواضع عبادة وتقرب إلى الأصنام حسب، بل كانت مواضع استفسار عن المغيبات كذلك، يقصدها أهل الحاجات لسؤال الآلهة عمّا عندهم من مشكلات، أو عما سيخبئه لهم المستقبل من أمور، أو عن أعمال يريدون القيام بها، أو عن سرقة، وما شابه ذلك من طلبات. ومن هذه البيوت بيت رئام، وقد كانوا يكلمون منه وينحرون عنده[1]. وبيت العزى، وكانوا يسمعون فيه الصوت[2]. والمنطبق وكان صنماً من نحاس يكلمون من جوفه، فيأتيهم الجواب[3]. وبيت (الجلسد)، صنم كندة وأهل حضرموت[4]. وقد ذكر (الجاحظ): «أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشرر حتى احترق عامة فخذه، حتى عاده النبي، صلى الله عليه وسلم». وهو ممن يشكون في صدور مثل هذه الأمور إذ يقول: «وهذه فتنة لم يكن الله ليمتحن بها الأعراب وأشباه الأعراب من العوام. وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب»[5].

---

1) الأصنام (ص 12)، الطبري (2/ 97).
2) الأصنام (ص 18).
3) المجد (ص 318).
4) البلدان (3/ 122 وما بعدها).
5) الحيوان (6/ 201).

تكليم الأصنام:

ويقوم الكهان بتكليم الصنم، وهم الذين يفسرون للسائلين الهمهمة أو الأصوات الصادرة من تلك الأصنام ويتكلمون على ألسنتها بما يلائم السائل مقابل نذر وهدايا وألطاف يقدمونها إلى السدنة. وهذا النوع من التنبؤ، معروف عند اليونان والرومان، مشهور ومعروف عند غيرهم من الأمم كالبابليين والآشوريين والعبرانيين. بل هو يؤلف جزءاً مهماً من أركان الديانات القديمة، ويطلق عليه Oracle في الإنكليزية من Oraculum اللاتينية، ومعناها التكلم. ولهذا النوع من التنبؤ صلة كبيرة بالسحر Magic وبالكهانة في الديانات القديمة والديانات البدائية عند بعض الشعوب الافريقية والاسترالية في الزمن الحاضر. وقد اكتسبت بعض معابد اليونان شهرة كبيرة في هذا النوع من التنبؤ بالغيب، وأشهرها معبد (دلفي) Delphi الذي كسب شهرة عظيمة في هذا الباب[1].

وقد ورد في بعض النصوص، أن قوماً كلموا آلهتهم في شهر (ذ اجبى ذ عثتر) و(ذ فرعم ذ عثتر)، فأجابهم الإله (عثتر) على ما سألوا عليه. وورد أن جماعة من المؤمنين بـ (عم)، كلموه، فأجابهم على ما سألوا عنه. وكانوا إذا كلموا الآلهة، فوجدوا أن الأجوبة غير منسجمة مع الأسئلة، أعادوا الأسئلة عليها وقدموا قرابين جديدة لها، أو وزادوا في الحلوان، يفعلون ذلك حتى يسمعوا الجواب المناسب لأسئلتهم[2].

ولم أسمع بوجود تكليم في مكة. فلم يذكر أحد من أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يأتون الكعبة لسماع أجوبة الأصنام عن أسئلة يوجهونها إليها، ولا عن وجود سدنة كانوا يقومون بأي نوع من التكليم. وإنما ذكروا أنهم كانوا يسألون الأصنام النصح والارشاد، والأمر والنهي بفعل فعل أو تركه، ويكون ذلك

1) Ency. Brita., Vol., 16, p. 830, T. D. Dempsey, The Delphic Aracle, 1918, L. R., Famell, Cults of the Greek Sates, Vol., IV, p. 179.

2) Grohmann, S. 251.

بالاستقسام بالأزلام. وقد خصص الصنم (هبل) بهذا النوع من الإرشاد. وكانت عنده سبعة قداح، كل قدح منها فيه كتاب: قدح فيه العقل، اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم، ضربوا بالقداح السبعة عليهم، فإن خرج العقل، فعلى من خرج حمله. وقدح فيه (نعم) للأمر، إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج قدح فيه نعم، عملوا به. وقدح فيه (لا)، فإذا أرادوا الأمر ضربوا به في القداح، فإذا خرج ذلك القدح، لم يفعلوا ذلك الأمر. وقدح فيه (منكم)، وقدح فيه (ملصق)، وقدح فيه (من غيركم)، وقدح فيه (المياه)، فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح، وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج به، عملوا به. وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هبل وبمئة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا فلان، أردنا به كذا. وكذا، فأخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح: إضرب، فإن خرج عليه (منكم) كان منهم وسيطاً، وإن خرج عليه من (غيركم) كان حليفاً، وإن خرج عليه (ملصق)، كان ملصقاً على منزلته فيهم لا نسب له ولا حليف، وإن خرج شيء مما سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك، حتى يأتوا به مرة أخرى، ينتهون في أمرهم ذلك إلى ما خرجت به القداح[1].

وهكذا كانت قريش والقبائل التي تحج إلى مكة تأتي إلى هبل لاستشارته في قضايا تهمها، فما يخرج في القدح مما هو مكتوب، يكون الجواب. غير أن بعض الأجوبة قد يأتي على خلاف رغبة السائلين، ولذلك كانوا يغرون الضارب على القداح بالضرب إلى أن يخرج القدح الذي فيه يريدون ويشتهون وقد يؤخرون ذلك بعض الوقت. وهم يفسرون النتيجة التي تظهر أنها رغبة الصنم وأرادته بوحيها، فتظهر بالقداح.

---

1) الأزرقي (1/ 68 وما بعدها)، الطبري (2/ 172 وما بعدها).

وذو الخلصة من الأصنام التي كان يستقسم عندها كذلك. وإلى هذا الصنم ينسب قول أحد الشعراء لهذه الأبيات:

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العُداة زورا

وهي أبيات ينسبها بعض الرواة إلى امرىء القيس. وكان أبوه قتل، فأراد الطلب بثأره. فأتى ذا الخلصة، فاستقسم عنده بالأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال هذه الأبيات التي تتحدث عن غضب الشاعر على هذا الصنم، لنهيه إياه عن الأخذ بالثأر، ولو كانت النتيجة كما يشتهي، لما قال الشاعر هذه الأبيات بالطبع، وتجاسر على الصنم[1].

ولما كانت الحروب والغزوات من القضايا المهمة، كانت استشارة الأصنام والاستقسام بشأنها من الأمور المألوفة، فكان أهل مكة اذا أرادوا الحرب أو عقد هدنة أو إبرام أمر خطير أتوا (هُبل) يستقسمون عنده ليعطيهم الرأي المصيب في هذا الموضوع.

والغالب أن يكون الاستقسام أمام الصنم، ليقع في روع طالب الاستقسام أن ما يجري إنما هو بعلم الصنم وبوحيه، فيكون ذلك أوكد في نفسه وأعمق تأثيراً.

أشكال المعابد:

هذا ولا بد لي أن أشير إلى أننا لا نملك حتى الآن رأياً واضحاً قاطعاً في شكل المعابد عند الجاهليين. ولا يمكن تكوين رأي واضح عن هذا النحو إلاّ بعد قيام علماء الآثار المتخصصين بدراسة آثار المعابد والكشف عنها ورسم مخططات صحيحة لقواعدها وأسسها. ولذلك، لا بد من مرور زمن، حتى يتمكن العلماء

---

1) الأصنام (35، 47).

من تكوين رأي في أصول المعابد، وكيفية إقامتها من الوجهة الدينية الأصولية عند العرب قبل الإسلام.

وإذا كان في استطاعتنا تحديد شكل (بيت الله) بمكة، و(كعبة نجران) و(كعبة سنداد)، أو (كعبات سنداد)، كما يسميها البعض، فإن من الصعب علينا تحديد هيأة بيوت الأصنام في المعابد الأخرى، لعدم ورود نص يعين صفة تلك البيوت في أخبار أهل الأخبار. فلا ندري أكانت مكعبات، أم على أشكال أخر.

ولما كانت المعابد بيوت الأرباب، صارت لها حرمة خاصة وقدسية في كل دين، فلا يجوز انتهاك حرمتها، ولا القيام بأعمال شائنة دنسة فيها، خاصة بالقياس إلى الأماكن المقدسة جداً التي تعدّ محجة للناس. وقد اتخذت حول البيوت مواضع عدّت جزءاً من المعبد حددت بحدود، فما كان داخلاً عد حرماً آمناً، وما كان خارج الحد كان خارجاً عن المعبد، فليست له تلك الحرمة التي عيّنتها شريعة القوم للمعابد.

وأقدس مكان في المعبد هو (البيت)، أي الغرفة التي تضم الصنم أو الأصنام. فقد كان البيت، وهو المسمى الكعبة في مكة، أقدم موضع عند قريش وعند غيرهم من عبدة الأصنام الذين كانوا يقدسون (البيت الحرام)، وذلك بسبب وجود الأصنام فيه.

ويعبر في العربية الجنوبية عن البيت الذي توضع فيه الأصنام، بـ (مختن)[1] فهو إذن بمثابة الكعبة بمكة.

ويقال للأرض الحرام المقدسة التي تحيط بـ (البيت)، (الحرم). قيل سمي (الحرم) حرماً لتحريم الناس فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره من المواضع[2]. وقد وردت اللفظة في الكتابات النبطية. فوردت في كتابة نبطية عثر عليها في

---

1) Grohmann, S. 249.

2) المفردات (113).

(بطرا) علماً لحرم الإلَه ذي الشرى، قصد به الأرض المقدسة المحيطة ببيت ذلك الصنم، والمعبد كله، لأنه محرم ومقدس: (حرم ذي الشرى الإلَه ربنا)[1].

ولا يجوز لأحد انتهاك حرمة الحرم والاعتداء عليه. وإذا دخل إنسان الحرم صار آمناً مطمئناً، لا يجوز أن يعتدى عليه، ولا أن يمس بسوء، وإن كان قاتلاً. وحدود الحرم أنصابه، وهي علاماته، فمن اجتازها وصار في داخلها، دخل في حرمة الحرم.

وما كان خارج الحرم، هو من الحل، أي من المنطقة الخارجة عن حرمة المعبد. فلا تشملها الأحكام المفروضة على الحرم.

وكان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً ولجأ إلى الكعبة، لم يهج، فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم، قيل له: هو صرورة ولا تهجه[2].

ولمكانة الحرم في نفوس الجاهليين ولأنه موطن آمن من دخل فيه صار آمناً، كان لا بد من تحديده ووضع معالم تشير إلى نهايته، إما بوضع أنصاب على أطرافه من تجاوزها إلى داخله صار آمناً فلا يخاف على نفسه، وإما ببناء حائل كجدار أو سياج أو أمثال ذلك ليكون اشارة إلى حرمة ما وراءه في الداخل. وقد جعل أهل مكة حدود حرم البيت أنصاباً من تجاوزها إلى الداخل صار في حرمة الحرم وفي حماية رب البيت.

وكانت أرض المعابد، أي حرمها، واسعة في الأصل، ذات ماء وأشجار وحمى، ثم تقلصت وضيقت وحددت بحدود، يسكن الناس حولها، وبتقربهم من المعبد، وبزيادة عدد عبّاده. فعندما يتألق نجم معبد، ويكثر المؤمنون بصاحبه، يكثر زوّاره، ويتسابق الناس إلى السكن بجواره والتقرب منه جهد امكانه، إذ يكون ذلك شرفاً لهم. شرف مجاورة البيت، كما يكون مكسباً وموردا طيباً للمال، لرغبة الزوار في

1) Lidzbarski, Nord Semi. Epigra., S. 280, CIS., II, p. 350, G. A. Cooke, North Semi. Inscriptions, Oxford, 1903, p. 79, Ency. Religi., 6, p. 753.

2) تاج العروس (3/ 331)، (صرر).

مجاورة المعبد، فيدفع هذا الطمع، أصحاب النفوذ والجاه على اختلاس الأرض والتجاوز على حدود الحروم فتضيق. كالذي حدث بمكة، إذ كان الحرم واسعاً كبيراً، يشمل الوادي كله، فلما هبط (قصي) به وابتنى البيوت، اعتدى من جاء بعده على الحرم حتى صغر، مما دفع الخلفاء على شراء البيوت المجاورة وهدمها لإعادة أرضها إلى الحرم ليتسع صدره للناس.

وتلحق بالمعابد أرضون، يقال لها (حمى) لأنها في حماية الأرباب والأصنام ورعايتها، فلا يعتدى عليها، ولا يقطع شجرها ولا يرعى فيها ولا يسمح بصيد الحيوان فيها والاعتداء عليه في أرض الحمى[1]. فكان في الطائف (حمى)، وهو (حمى اللات)، وقد خصص به، وكان حمى في جرش[2]. بل كان وادي مكة الذي أقيم البيت به (حمى) لرب البيت، ولم يكن يسمح لأحد قبل (قصي) بقطع شجره، ولا التجاوز على ما فيه من نبت. وقد كان (قُصي) كما يقول أهل الأخبار أول من اقتطع شجره، وأقام البيوت لسكناه وسكنى قريش في ذلك الوادي.

ويفهم من كلام (نيلوس) Nilus أن العرب لم يكونوا يحيطون مواضعهم المقدسة التي فيها أصنامهم بأسوار، وإنما كانوا يجعلون لحرمها حجارة تكون حداً وعلامة للحرم. ويتبين من كلام هذا المؤرخ الذي أسر العرب ابنه وأرادوا تقديمه إلى الزهرة قرباناً على حدّ قوله، أنه قصد بالعرب الأعراب، ولا سيما أعراب طور سيناء، وقد كانوا أشداء غلاظاً يلقون الرعب في النفوس، وكانوا يتاجرون بالرقيق يقبضون على من يقع في أيديهم ويبيعونه في أسواق الرقيق. وجماعة هذا شأنها لا تستقر في مكان، لا يمكن بالطبع أن يكون لها معبد ثابت، وإنما يكون معبدها الموضع الذي يوضع صنم القبيلة فيه، ولتعيين الأرض الحرام توضع تلك الحجارة.

إلا أن هذا لا يعني أن معابد أهل المدر كانت مسورة أو ذات حائل دائماً، فقد ذكرت أن حرم بيت الله بمكة لم يكن مسوراً، بل كان معلماً بأنصاب. ومكة

---

1) اللسان (14/ 199)، العرب في سوريا قبل الإسلام (111).

2) Ency. Religi., 6, p. 753.

موضع حضر. أما حرم معبد (المقه) بمأرب وكذلك أكثر معابد أهل اليمن، فقد كانت مسوّرة بأسوار عالية قوية، لها أبواب يدخل المتعبدون منها، تفتح وتغلق كما نفعل هذا اليوم في دور العبادة عندنا.

ومن المعابد الشهيرة: (البيت الحرام)، اي (الكعبة) بمكة، وسأتكلم عليه في موضع خاص. ومعبد (ذو الشرى) Dushare بمدينة (بطرا)، و(كعبة سنداد)، و(كعبة نجران)، ومعابد عديدة في مواضع أخرى من جزيرة العرب، ولا سيما اليمن.

والفضل في ظفرنا ببعض المعارف عن (بيت الرب) بمدينة (بطرا)، يعود إلى الكتابات النبطية، وإلى ما كتبه بعض الكتبة اليونان والسريان عنه. وقد خصص هذا البيت بعبادة الإله (ذي الشرى)، الذي هو (رب البيت)[1] التي أطلقها النبط على إلههم، تذكرنا بجملة أخرى معروفة في الجاهلية عند أهل مكة، كما هي معروفة عند المسلمين حتى اليوم، هي جملة: (رب البيت)، التي تعني إله البيت، وهو الكعبة، وقد أقرها وثبّتها الإسلام. وقد نعت (رب البيت)، (رب بيت ذي الشرى) بـ (الذي يفرق الليل عن النهار)[2] وهو نعت له أهمية كبيرة في تكوين فكرة عن وجهة نظر عبّاده اليه.

وقد نصب في هذا المعبد الصنم (ذو الشرى) على قاعدة مكسوة بالذهب، في بيت موشى بالذهب وبالصور التي تمثل مشاهد تقديم القرابين إليه. وهو في موضع مرتفع على صخرة عالية، يحج إليه الناس من مواضع بعيدة، للتقرب إلى ذلك الإله الذي يقابل الإله (باخوس) و(ديونسيوس) (Dionysos-Bacchus) في رأي الكتبة اليونان واللاتين[3].

---

1) CIS, II, 235, RES, 1088.

2) RES, 1102, Ency. Religi., p. 122.

3) Ency. Religi., 9, p. 122, Epiphanius, Hoer., LI, 22.

وكان لهذا المعبد حج يقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام، فيفد إليه الناس من أماكن بعيدة للتقرب إلى (رب البيت)، فينحرون ويقضون الأيام المعينة، ثم يعودون إلى ديارهم. والظاهر أن هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل (العربية النبطية)، إنما كانت محجة لغيرهم من العرب، كما يتبين ذلك من تصريحات بعض الكتبة (الكلاسيكيين) عنها.

وقد عرفت بعض معابد الجاهليين بـ (الكعبات). ويدل ذلك على أن بناءها كان على هيأة مكعب كشكل بناء الكعبة، وعلى أن العرب كانوا يبنون بيوت الأصنام الكبرى على هذا النحو. من هذه كعبة (سنداد) على ما يذكره الأخباريون، وهي قصر كانت العرب تحج إليه. فيطوفون حوله، وقد عرف بـ (الكعبات) جمع كعبة وهو البيت المربع والمرتفع، وبـ (ذات الكعبات). و(ذي الكعبات). وكان مركز حج قبائل بكر بن وائل وإياد[1]. ولكن الأخباريين لم يتحدثوا بشيء من التفصيل عن هذا المعبد وعن كيفيته وشكله وعن الأصنام التي كانت فيه. وقد ذكر (ابن الكلبي) أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة، إنما كان منزلاً شريفاً[2].

وذكر أن (ذات الكعبات) بيت كان لبكر وتغلب ابني وائل وإياد، وذكر أنه بيت كان لربيعة، كانوا يطوفون به. وذكر أنه كان لإياد، وكان كعبة بسنداد بين الحيرة والابلة[3]. وهو من منازل إياد أسفل سواد الكوفة، وكان عليه قصر تحج العرب اليه[4].

وكان بنجران بيت عبادة عرف بـ (كعبة نجران). وهو بناء بُني على هيأة الكعبة. وفي رواية تنسب لابن الكلبي انها كانت قُبة من أدم من ثلاث مئة جلد،

---

1) البلدان (5/ 150)، «سنداد»، (7/ 255)، اللسان (1/ 718)، (كعب)، تاج العروس (1/ 456 وما بعدها)، Ency., II, p. 590.

2) الأصنام (ص 45)، «وكان لربيعة بيت يطوفون به، يسمونه الكعبات، وقيل ذا الكعبات، وقد ذكره الأسود بن يعفى في شعره، فقال: والبيت ذي الشرفات من سنداد»، اللسان (1/ 718)، (كعب).

3) تاج العروس (1/ 457)، (كعب)، الأصنام (45)، البلدان (5/ 149).

4) تاج العروس (2/ 383)، (سند).

كان اذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت، أو مسترفداً رفد[1]. ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها ومن كونهم أساقفة انها كانت بيعة أسسها النصارى في مركز النصرانية في اليمن، وهو موضع نجران، وأنه لا علاقة له بالوثنية. ويذكر الأخباريون أن بني عبد المدان بن الديّان الحارثي أقاموها هناك، مضاهاةً للكعبة[2]. وقد ذكر (ابن الكلبي) أن كعبة نجران لم تكن كعبة عبادة، وانما كانت غرفة يعظمها القوم من بني الحارث بن كعب[3]. وبنو الحارث بن كعب هم رؤساء نصارى نجران.

وذكر بعض أهل الأخبار أن كعبة نجران وكانت لمذحج وبني الحارث بن كعب، عرفت بـ(الربة)[4].

وقد ذكر (ابن الكلبي) أن رجلاً من جهينة يقال له عبد الدار بن حُديب آراد بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء ليضاهي به الكعبة حتى يستميل به العرب، فأعظم قومه ذلك، وأبوا عليه[5]. ونجد في كتاب (الأصنام) لابن الكلبي، وفي كتب أهل الأخبار أسماء مواضع ذكر أنها كانت بيوت عبادة حج إليها العرب حجهم لمكة. وذكر ان قريشاً بَنَتْ للعزى بيتاً بوادي حراض بإزاء الغمير، وحمت له شِعباً من وادي حراض يقال له سقام، يضاهون به الكعبة، وقد حجت إليه، وكانت تنحر عنده، ويتقربون إلى العزى بالذبائح[6].

---

1) البلدان (8/ 262 وما بعدها)، تاج العروس (3/ 556)، (نجر).

2) البلدان (8/ 262).

3) الأصنام (ص 45).

4) تاج العروس (1/ 262)، (ربب)، قال الأعشى:

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها

يزور يزيد وبعد المسيح وقيسا هم خير أربابها

تاج العروس (3/ 556)، (نجر).

5) الأصنام (45).

6) الأصنام (ص 16، 18 وما بعدها).

وقد ذكر الأخباريون أنه كان بعكاظ صخور يطوف الجاهليون بها ويحجون إليها[1]. وإذا تذكرنا (دومة الجندل) ومعبدها الكبير، فلا يستبعد أن تكون الأسواق الأخرى مواضع مقدسة قديمة كانت محجة للناس عامرة تفد إليها القبائل في مواسم الحج، ثم فقدت خطورتها قبيل الإسلام، ولم يبقَ عليها إلا طابع الأسواق التجارية.

وتكون في المعابد مواضع يلقي فيها العباد وأصحاب النذور هداياهم ونذورهم التي يتقربون بها إلى آلهة المعبد. وقد أشار أهل الأخبار الى وجودها في الكعبة وفي المعابد الجاهلية الأخرى. ويظهر من وصفهم لها أنها كانت على شكل حفر، تلقى فيها تلك الهدايا والنذور. فذكر الأخباريون أنه كان على يمين الداخل إلى البيت (جب)، اتخذ خزانة للبيت يلقى فيه ما يهدى الى الكعبة، وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي (هُبَل) وهو صنم كانت قريش تعبده. وقد عرف علماء اللغة الجب بأنه البئر[2]، ووصفها (الأزرقي)، فقال: إنها كانت في جوف الكعبة على يمين من يدخلها، وكان عمقها ثلاث أذرع، وأن اسمها (الأخسف)، وكانت العرب تسميها (الأخشف)[3].

السقاية:

وفي المعابد سقايا، يستقى منها الماء للشرب وللتطهر، كأن تغسل الأوجه والأيدي والأرجل بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية. ويعد الماء ماءً مقدساً، لأنه من أرض مقدسة، ولذلك يتبرك به أيضاً، ويستشفى بالشرب منه. وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم، وعند أدائهم الشعائر الدينية. وبئر زمزم، هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية.

1) البلدان (6/ 203)، المشرق السنة 37، نيسان - حزيران، 1939م (ص 220).

2) اللسان (1/ 250) «صادر».

3) أخبار مكة (1/ 27، 68)، البلدان (7/ 258 وما بعدها).

وقد كانت سقاية الحاج من المآثر الكبيرة عند أهل مكة، وهي تسقية الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء. وكان يليها في أيام الرسول العباس بن عبد المطلب[1]. وكان بعضهم يسقي الحاج اللبن بالعسل.

المذابح:

وتلحق بالمعابد مذابح تذبح عليها القرابين التي يقرب بها المؤمنون الى آلهتهم، ويقال للواحد منها، (مذبح) و(نصب) و(مصب) و(غبغب). وقد وردت لفظة (مذبح) و(مذبحت)، أي (المذبحة)، في طائفة من الكتابات. وهي مواضع الذبح، حيث يكون تقريب القرابين إلى الآلهة.

وقد ذهب علماء اللغة مذاهب في تحديد معنى (النصب)، فرأى بعضهم أن النصب كل ما عُبد من دون الله، وذهب بعض آخر الى أن النصب صنم أو حجر كانت الجاهلية تنصبه، وتذبح عنده، فيحمرّ للدم، وذهب آخرون إلى أن الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب، ويذبح عليها لغير الله تعالى[2]. وعرفها بعض بقوله: «النصب الأوثان من الحجارة، جماعة أنصاب كانت تجمع في الموضع من الأرض، فكان المشركون يقربون لها وليست بأصنام»، «قال ابن جريج: النصب ليست بأصنام. الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب ثلثمائة وستون حجراً. منهم من يقول ثلثمائة منها بخزاعة. فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة. فقال المسلمون: يا رسول الله! كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق أن نعظمه»[3]. ولو أخذنا برواية (ابن جريج)، خلصنا إلى أن هذه الأنصاب، كانت بعدد أصنام الكعبة، أي إنهم كانوا قد خصصوا بكل صنم، نصباً، يذبحون عليه ما يتقربون به إليه من عتائر. فقد كان عدد أصنام الكعبة ثلثمائة وستون حجراً عام الفتح على ما

1) اللسان (14/ 392)، (سقى)، الإصابة (2/ 263)، (رقم 4507).
2) اللسان (1/ 760) «صادر»، (2/ 259)، «بولاق»، القاموس (1/ 132)، تاج العروس (1/ 486)، الأصنام (97)، تفسير الطبري (6/ 44)، الأصنام (33)، (المطبعة الأميرية 1964).
3) تفسير الطبري (6/ 48).

يذكره أهل الأخبار، إلاّ اذا اعتبرنا ما ذكروه عن عدد الأصنام وهماً، وأخذنا برواية (ابن جريج) التي هي دون الرواية الأخرى في الشهرة والذكر.

وأشير إلى (النصب) في شعر ينسب إلى (الأعشى)، يقال إنه قاله في مدح الرسول هو:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعاقبة والله ربك فاعبدا[1]

وعلى كل، فنحن لو أخذنا بالروايتيْن، أو برواية واحدة منهما، فإن العدد (360) يلفت النظر حقاً. فلمَ خصص رواة الخبرين عدد الأصنام أو الأنصاب بهذا الرقم، وهل يمثل ذلك شيئاً له صلة بالفلك، أو بأسطورة دينية قديمة كانت عند أهل مكة؟

وقد وردت كلمة (النصب) في آية اللحوم المحرمات التي لا يجوز أكلها في القرآن الكريم: (حرمت عليكم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبعُ، إلاّ ما ذكيتم، وما ذبح على النصب)[2]. فجعلت، الذبائح التي تذبح على النصب للأصنام في جملة التي لا يحل للمسلم أكلها، فيفهم من هذه الآية أن النصب مواضع تذبح عليها القرابين. كما وردت في موضع آخر من سورة المائدة: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّـذِينَ ءَامَنُـوٓاْ إِنَّمَـا ٱلْخَمْـرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[3]. وقد ذكر علماء التفسير، أن الأنصاب التي يذبحون عندها[4].

وقد ذكر علماء التفسير، أن أهل الجاهلية كانوا قد وضعوا حول الكعبة أنصاباً، أي حجارة كانوا يذبحون عليها، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم: وجعلوه على الحجارة. وكانوا يبدلونها إذا شاؤوا

1) تاج العروس (486/1)، (نصب).
2) المائدة، الآية 3.
3) المائدة، الرقم (5)، الآية 90.
4) تفسير الطبري (7/ 21).

بحجر هو أحب إليهم منها[1]. كما كانوا قد وضعوا الأنصاب في بيوت الأصنام الأخرى، يذبحون عليها ذبائحهم لها. وقد أشير إلى (المائرات)، أي الدماء: دماء الذبائح لـ(رشيد بن رميض العنزي):

حلفت بمائرات حول عوض وأنصار تركن لدى السعير[2]

و(عوض) صنم لبكر بن وائل، و(السُعير) صنم لعنزة خاصة.

و(نصب) هي (نصب) و(مصب) في اللهجات العربية الجنوبية، و(نصب) و(مصبت) في الفينيقية، و(مصبه) Masseba في العبرانية. ويراد بها مذبح، تذبح عليها القرابين والضحايا التي يقدمها المتعبدون إلى معبودهم Deity . ويعرف بـ Altar أي مذبح في الإنكليزية. وهو من حجر واحد في الأصل، قد يذبح عليه، فيسيل الدم فوقه ويتلطخ به، وقد يكون في نظرهم بمثابة المعبود الذي تقدم الضحية إليه. وقد يذبح عليه، فيسيل الدم من فتحة تكون فيه إلى بئر تتجمع فيها دماء الذبائح، تكون عند قاعدة النصب.

وقد تخصص المذابح بحرق لحم الذبيحة كله أو بعضه عليها، تقرباً إلى الأصنام، كالذي كان يفعله العبرانيون[3].

وقد عثر المنقبون على أحجار عديدة اتخذت أنصاباً لذبح القرابين عليها أو عندها، عثر عليها في العربية الجنوبية بصورة خاصة. وفي بعضها فتحة على هيأة ثقب تسيل منه دماء القرابين إلى موضع تتجمع فيه. وفي بعض آخر مسايلُ جانبية، تسيل الدماء منها إلى الخارج. وهذه الأنصاب هي (مذابح) ويقال للواحد منها (مذبحم) في العربيات الجنوبية أي (مذبح). ولذبح القرابين (ذبحن) و(ذبحم)، أي (الذبح) و(ذبح).

---

1) تفسير الطبري (6/ 48 وما بعدها)، «وهي أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها الأصنام»، إرشاد الساري (6/ 172).

2) تاج العروس (3/ 268)، (سعر)، (3/ 550)، (مور).

3) Hastings, p. 23.

فالنصب اذن، الأحجار التي تذبح عليها القرابين وما يهل للأصنام. والعادة أن تكون أمام الصنم، وعلى مقربة منه. فإذا ذبح القربان سال دمه على النصب إلى ثقب يؤدي الى حفرة يتجمع فيها الدم. هي (الغبغب). و(النصب) هو (مصبه) Massebah في العبرانية، حيث كانوا يذبحون عليها القرابين. ولكثرة ما كان يذبح عليها صارت تبدوا حمراء من لون الدم، وقد أشير إلى الحمرة في حديث إسلام (أبي ذر الغفاري)، إذ ذكر أنه وصف تعذيب قريش له بقوله: «فرماني الناس حتى كأني نصب أحمر»[1].

وليس لأهل الأخبار رأي واحد في (الغبغب)، وإنما ذهب بعضهم إلى أن الغبغب هو المنحر، وذهب بعض آخر إلى أنه خزانة المعبد، يلقي الناذرون فيها ما عندهم من نذور وقربات، وذهب فريق آخر الى أنه بيت كان الناس يحجون إليه، كما يحج إلى البيت بمكة[2]. وقيل إنه كان لمعتب بن قيس بيت يقال له غبغب، كانوا يحجون اليه[3].

والذي عليه أكثر أهل الأخبار أن (الغبغب) المنحر. وقد صرح بذلك (ابن الكلبي) في كتاب (الأصنام): وهو يتحدث عن (العزى)، فقال: «ولها منحر ينحرون فيه هداياها، يقال له الغبغب»[4]. كما صرح بذلك علماء اللغة إذ عرفوا الغبغب بأنه المنحر، أو نصب كان يذبح عليه في الجاهلية، أو كل مذبح بمنى. وقد خصصه بعضهم بمذبح منى[5]. أو هو حجر ينصب بين يدي صنم، وكان لمناف مستقبل ركن الحجر الأسود غبغب، وقيل كانا اثنين ويظهر من شرح علماء

---

1) الإصابة (93/4)، (الرقم 384)، «فخررت مغشياً علي، ثم ارتفعت كأني نصب أحمر»، الأصنام (111).
2) مراصد الإطلاع (2/ 983)، البلدان (185/4)، اللسان (1/ 637)، تاج العروس (1/ 403)، البلدان (6/ 112)، الأصنام (111)، ابن هشام (1/ 55).
3) ابن هشام (1/ 55)، البلدان (6/ 112).
4) الأصنام (13)، «روزا».
5) اللسان (637/1).

اللغة للمثل: (رب رمية من غير رامٍ)، ينسب قوله إلى الحكم بن عبد غوث أن الغبغب هو المذبح، أي المنحر الذي ينحر عليه[1].

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن (بيوت) الآلهة أنه كان لكل (بيت) (غبغب)، تذبح فيه هداياها، أي ما يهدى إلى تلك البيوت من قرابين. وقيل: الغبغب: المنحر، وهو جبيل بمنى، فخصص. وقيل كل منحر بمنى غبغب. قال الشاعر:

والراقصات الى منى فالغبغب[2]

ويذكر علماء اللغة أن (الغبغب) (العبعب) كذلك[3]. وأن العبعب موضع الصنم. وصنم لقضاعة ومن داناهم[4]. وبيت كان لمتعب بن قيس، كانوا يحجون إليه كما يحجون إلى البيت[5]. ويظهر من هذا الشرح أن (الغبغب) و(العبعب)، كلمة واحدة، لشيء واحد.

و(الغبغب) (الجب) كذلك. وهو حفرة يجمع فيها دم البدن، والجمع (الجباجب). قال «الزبير بن بكّار: الجباجب جبال مكة حرسها الله تعالى، أو أسواقها أو منحر، وقال البرقي، حُفرٌ بمنى كان يلقى به الكروش، أي كروش الأضاحي في أيام الحج، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا، والعرب تعظمها وتفخر بها»[6].

ويفهم أحياناً أن (الغبغب)، حفرة أو بئر، كان المتعبدون للأصنام يرمون بها نذورهم وهداياهم وما يتقربون به إلى أصنام كل: نذور نفيسة، من ذهب أو

---

1) اللسان (1/ 637) «صادر»، (2/ 128 وما بعدها)، «بولاق»، تاج العروس (1/ 406)، (غب)، البلدان (6/ 265)، (الغبغب).

2) تاج العروس (1/ 404)، (غب).

3) تاج العروس (1/ 403)، (غب).

4) تاج العروس (1/ 363)، (غب)، البلدان (6/ 112)، الأصنام (111).

5) البلدان (4/ 185).

6) تاج العروس (1/ 174)، (جبب).

فضة أو حجارة كريمة. فكانت تحت صخرة (اللات) حفرة عُرفت بـ (الغبغب) حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم إلى الصنم. فلما هدم الصنم أخذت من الغبغب تلك الأموال[1]. ويرادف الغبغب (الجب)، الذي يُقال له (الأخسف) و(الأخشف)، وهو بئر في جوف الكعبة نصب (هبل) عليه. كان الناس يرمون فيها نذورهم وهداياهم. وتقع على يمين من يدخل البيت، وكان عمقها ثلاث أذرع[2].

و(الغريّ) مذبح على ما يظهر من تفسير علماء اللغة لهذه اللفظة. يظهر أنه كان صخرة تذبح عندها الذبائح وتطلى بدمها، أو نصب تذبح للقرابين عليه[3].

ويعبر عن المذبح الذي تذبح عليه الحيوانات الكبيرة، مثل البقر بلفظة (حردن)[4].

(حردن)[4].

ومن الألفاظ التي تطلق على المذبح، (منطف) و(منطفت)، أي (المنطفة)، وهي المذبحة[5]. والمذبح، هو (مذبحت) في نصوص المسند، أي موضع الذبح.

المحارق:

وتلحق بالمعبد محارق، تحرق فيها القرابين، يقال لها (مصرب)[6]. وقد كان العبرانيون يحرقون قرابينهم، في محارق تلحق بالمعبد، وتكون جزءاً منه. أما العرب، فإننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا يحرقون قرابينهم في كل جزيرة العرب، لأننا لا نملك أدلّة آثارية على ذلك، إلاّ معابد اليمن وأعالي الحجاز،

---

1) الطبري (3/ 99 وما بعدها).

2) أخبار مكة، للأزرقي (1/ 66 وما بعدها).

3) اللسان (15/ 122)، (غرا)، تاج العروس (10/ 264).

4) Grohmann, Arabien, S. 247.

5) Grohmann, Arabien, S. 249.

6) Grohmann, Arabien, S. 247.

حيث عثر على آثار المحارق في معابدها، مما يدل على أنهم كانوا يحرقون القرابين.

و(المصرب)، المحرقة، الموضع الذي يحرق به الخشب ذي الرائحة الطيبة أو البخور، وهو مبخرة، تكون في المعابد، يحرق بها، لتفوح منها روائح طيبة، أثناء العبادة. وقد أشير إليها في نصوص المسند.

البخور والمباخر:

وللتبخير شأن كبير في أداء الفروض في المعابد، إذ لا بد من حرق البخور فيها، فيبخر بها المذبح والأصنام كما يبخر القائمون بأداء تلك الفروض. وتسمى المبخرة بـ (مسلم)، وبـ (مقطر) وذلك في لغة بعض الجاهليين[1].

و(المجمرة) والمجمر، الموضع الذي يوضع فيه الجمر بالدخنة للتجمير[2].

وقد أشير إلى المجمرات والمباخر في كتابات المسند. وعثر المنقبون على نماذج منها، قدمها الناذرون نذوراً إلى آلهتهم، وقد وضعوها في معابدها، وهي في جملة الهدايا المرموقة التي تقدم إلى المعابد بعضها من أحجار وبعضها من معدن بذل جهداً في صنعته وفي زخرفته حيث يكون هدية قيّمة تكون خليقة بوضعها في المعابد.

وقد كان الناس يأتون بالمجامر ليجّمروا بها، الكعبة تقرباً بعملهم هذا إلى الأصنام، وذكر أن حريقاً أصاب الكعبة، بسبب تطاير شرر من جمرة امرأة جمرت البيت، فأصاب ستار الكعبة، فاحترق. والتجمير، هو من شعائر التقدير والتعظيم. وهو مما يدخل في الطقوس، وقد صرفت المعابد القديمة أموالاً على شراء (العود) وغيره لإحراقه في المجامر، لتطييب المذبح والمعبد به. وَكان البخور

---

1) Grohmann, Arabien, S. 247.

2) تاج العروس (3/ 108)، (جمر).

مما يبخر به في المعابد أيضاً. وقد استعمله الجاهليون في بيوتهم المعظمة كذلك.

وتلحق بالمعابد مواضع يخزن فيها ما يقدم إلى المعبد من هدايا ونذور، وما يرد إليه من غلات أوقافه. وإذا كانت النذور والهدايا ماشية، فقد تحفظ في مواضع بعيدة عن المعبد، أو توضع في أحماء المعابد لترعى بها. ولا يجوز التعرض لها بسوء. وتعلم بعلامات تشير إلى أنها مما حبس على الأصنام. وكانت لهبل خزانة للقرابين. وكان قربانه مئة بعير، وله حاجب يقوم بخدمته[1]. وفي جملة ما أهداه الناس إلى أصنامهم السيوف والملابس، وكانوا يعلقونها أحياناً على الأصنام[2].

سدنة الآلهة:

ولبيوت العبادة سدَنة وحجبة وخدم، يقومون كلهم بخدمة البيت وما فيه من أصنام. ويعبر في عربيتنا عن الذي يتولى أمر الصنم بـ (السادن) و(سادن الصنم).

وهو المسؤول عن الصنم أو الأصنام، ومتولي أمرها. وهو المرجع الأعلى في سلسلة الرتب بالنسبة إلى المعابد. ويعبر عنه بلفظة (شوع) في المعينية[3]، وبلفظة أخرى هي (رشو). وأما إذا كان السادن امرأة، فيقال لها (رشوت) (رشوة) عندئذ[4].

---

1) الأزرقي، أخبار مكة (1/ 68 وما بعدها).

2) نهاية لأرب (16/ 19).

3) راجع النص رقم 4 و5 من كتاب: نقوش خربة معين.

4) Grohmann, Arabien, S. 248.

ويقال لسادن الآلهة (افكل) (أفكل) في اللحيانية. جاء (افكل لت) (أفكل لات) أي (سادن اللات)[1]. وتقابل هذه اللفظة لفظة (ابكلو) Apkallu في اللغة الأكادية[2].

وتعد السدانة من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة عند الجاهليين. وبيد السادن في العادة مفتاح بيت الصنم أو الأصنام. وتكون وراثية في الأغلب تتنقل في أفراد العائلة من الأب الى ابنه الأكبر أو إلى غيره من البارزين في الأسرة. وهي منزلة شرف، تكسب صاحبها جاهاً، كما تكسبه مالاً، لما تأتي به إليه من حبوس ونذور وقرابين. لذلك صارت سبباً لوقوع خصومات بين الأسر، من أجل الاستحواذ عليها، كالذي حدث مراراً في مكة من أجل الحصول على مفاتيح البيت.

وسدنة الأصنام في الجاهلية قومتها وحجابها، وكانت السدانة واللواء بمكة لبني عبد الدار في الجاهلية، فأقرها النبي لهم في الإسلام. فكان إليهم أمر مفتاح البيت[3].

ومن قدماء من كانت إليهم ولاية أمر البيت الحرام أي سدانته، رجل زعموا أنه ولي أمر البيت بعد جرهم، ودعوه (وكيع بن سلمة بن زهير (زهر) الإيادي). جعلوه سادناً، وجعلوه كاهناً، فنسبوا اليه سجعاً من نوع سجع الكهان. ذكر أنه جمع إياداً قبيل وفاته فنصحها وأوصاها. وزُعم أنه بنى صرحاً بمكة، وجعل فيه سلماً كان يرقاه ليناجي الله. وكان الجاهليون يرون أنه صدّيق من الصّديقين، وأنه ينطق بالخبر اليقين مع السماء. وذكر أنه صاحب الصرح المعروف بحزورة مكة، وأنه هو القائل: «اسمعوا وصيتي: الكلام كلمتان، والأمر بعد

---

1) Grohmann, Arabien, S. 82, Jaussen-Savignac, Mission, II, 506.

2) Grohmann, Arabien, S. 248.

3) تاج العروس (9/ 233)، (سدن).

البيان. من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكل شاة معلقة برجلها». فكان أول من قال هذه الكلمة، فذهبت مثلاً[1].

ويذكر أهل الأخبار أنه لما مات وكيع، نعي على الجبال. وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادي:

ونحن إياد عباد الإلَه ورهط مناجيه في سلم

ونحن ولاة الحجاب العتيق زمان النخاع على جرهم

ويفسرون زمان النخاع بأنه داء يقال له النخاع، سلّط على جرهم، فأفنى منهم ثمانين كهلاً في ليلة واحدة، سوى الشباب. وفي هذا الداء قال بعض العرب:

هلكت جرهم الكرام فعالاً وولاة البنية الحجاب

نخعوا ليلة ثمانين كهلاً وشباباً كفى بهم من شباب[2]

ويظهر أن داءً كان قد تفشى في عهد غير بعيد عن الإسلام بين جرهم، فبقيت ذكراه في النفوس. ولا بد أن يكون (وكيع بن سلمة) ممن عاشوا قبيل الإسلام أيضاً، فبقيت ذكراه في أهل مكة، وإلاّ لما حفظت الذاكرة اسمه.

وقد ذكر أهل الأخبار أحياناً أسماء الأسر التي تولت سدانة البيوت المعظمة والمحجات، كما ذكروا أسماء السدنة، ولا سيما السدنة الذين كانت إليهم سدانة تلك البيوت عند ظهور الإسلام. وهم من أسر عريقة، توارثت هذا المنصب من عهد بعيد، وحافظت عليه، وصارت بذلك من أشراف القوم.

---

1) المحبر (ص 136)، الأمثال، للميداني (2/ 81)، البيان والتبيين (2/ 109)، بلوغ الأرب (2/ 260).

2) بلوغ الأرب (2/ 260 وما بعدها.

حرمة المعابد:

ومع الحرمة التي كانت للمعابد، انتهك المستهترون وذوو الحاجة حرمتها، فسرقوا ما تمكنوا عليه من خزائنها. فقد سرقت خزانة الكعبة مراراً. ذكر أهل الأخبار أن سارقاً سرق من مالها في زمن جرهم، وأنه دخل البئر التي فيها كنزها، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها وانتزع المال منه. وسرقت قبيل بنيانها في أيام الرسول، سرقها فتيان من فتيان قريش وأودعوا المال عند (دويك) مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة. فقطعت قريش يده[1].

1) الروض الأنف (1/ 130).

الفصل الرابع

الكعبة



الفصل الرابع

الكعبة

وكعبة مكة، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم، من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية. فقد اندثر أثر الكعبات الأخرى وزالت معالمها، ولم يبقَ لها مكان. والى الإسلام يعود ولا شك فضل بقاء (البيت الحرام). وبفضل الإسلام أيضاً جمع العلماء ما تمكنوا من جمعه من تأريخ المدينة القديم والمعالم المتصلة بها، ومن أخبار قريش، لما لهذا التأريخ من صلة بظهور الإسلام[1].

ويذكر أهل الأخبار أن الكعبة كانت معروفة عند العرب خارج الحجاز كذلك، وأنهم كانوا يحجون إليها ويقدسونها ويقسمون بها. وأن من أقسم بها وذكر البيت في شعره (زهير)[2]و(النابغة)[3]. وقد عرفت بـ (البيت العتيق)، وبـ (البيت المعمور)[4]. ورووا أن (عدي بن زيد العبادي) قصدها بقوله:

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت ... فيكم وقابل قبر الماجد الزارا

---

1) آل عمران، الآية 96، تفسير الطبري (4/ 6 وما بعدها)، (دار المعارف)، الطبرسي (2/ 476)، سورة الحج، الرقم 22، الآية 26، تفسير الطبري (3/ 47 وما بعدها، 66 وما بعدها)، تفسير الطبرسي (7/ 78 وما بعدها)، سورة إبراهيم، الرقم 14، الآية37، تفسير الطبري (13/ 125)، روح المعاني (13/ 212)، تفسير الطبرسي (6/ 317 وما بعدها)، البقرة، الآية 127، تفسير الطبري (1/ 546)، تفسير الطبرسي (1/ 206)، البقرة، الآية 158، تفسير الطبري (2/ 43)، تفسير الطبرسي (1/ 238 وما بعدها)، سورة المائدة، الآية 97، تفسير الطبري (7/ 76 وما بعدها)، تفسير الطبرسي (3/ 246 وما بعدها)، سورة الأنفال، الآية 34، تفسير الطبري (3/ 238)، تفسير الطبرسي (3/ 539)، سورة الإيلاف، الآية 3، تفسير الطبرسي (30/ 307 وما بعدها)، تفسير الطبرسي (10/ 543).

2) فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

ديوان زهير (15)، الثعالبي، ثمار القلوب (16).

3) فلا وربّ الذي قد زرته حججا ... وما هريق على الأنصاب من جسد

(فلا لعمر الذي مسحت كعبته) في رواية أخرى، ديوانه (25)، الثعالبي، ثمار (17).

4) البلدان (1/ 521)، (بيروت (1955).

دعاها (ذات الودع) لأنه كان يعلق الودع في ستورها[1].

وقد أقسم بها شاعر جاهلي آخر، هو (عوف بن الأحوص) إذ قال:

وإني والذي حجت قريش ... محارمه وما جمعت حراء

وشاعر عامري آخر، إذ قال:

فاقسم بالذي حجت قريش ... وموقف ذي الحجيج إلى إلال[2]

يريد بذلك مكة. وبمكة بيت الله.

ومعارفنا عن (البيت الحرام) ضئيلة، وفي الذي يذكره أهل الأخبار عنه ما لا يمكن قبوله ولا الأخذ به، لأنه لا يدخل في حدود التأريخ، ولغلبة الطابع القصصي عليه. ثم إن بعضه يناقض بعضاً، وفي بعضه تحيز وتعصب لبيت قرشي على بيت آخر. وحتى القسم الذي يتناول الأيام القريبة من الإسلام، لا يخلو من اضطراب ومن تناقض، وفيه شعر نحل على أناس، أقحمت أسماؤهم في قصص مكة، لتثبيته على طريقتهم في تثبيت الأخبار برواية شعر يتعلق بها.

ولم يعثر حتى الآن على كتابة جاهلية تكشف القناع عن تأريخ (البيت الحرام). ولذلك انحصر علمنا بتأريخه بما ورد في الموارد الإسلامية عنه.

وقد نص في القرآن الكريم، على أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من البيت (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ

---

1) تاج العروس (5/ 534)، (ودع).

2) المحبر (319)، شرح ديوان لبيد (21).

الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [1]. وقد كان تأسيس البيت في أيام العرب الأولى، في أيام جرهم، على روايات أهل الأخبار، وفيهم تزوج وفي عهده ظهر ماء زمزم[2].

ويذكر أهل الأخبار ان مكة حرم آمن، لا يحلّ فيه قتال، ولم يكن أهله يقاتلون فيه، وأن أول بغي وقع فيه، كان حرب وقعت بين (بني السباق بن عبد الدار) وبين (بني على بن سعد بن تميم)، حتى تفانوا. ولحقت طائفة من (بني السباق) بعك، فهم فيهم. وقيل أول بغي كان في قريش: بغي(الأقايش)، وهم (بنو أقيش) من بني سهم، بغى بعضهم على بعض، فلما كثر بغيهم على الناس، أرسل الله عليهم فأرة تحل فتيلة، فأحرقت الدار التي كانت فيها مساكنهم فلم يبق لهم عقب[3].

وقد بقي البيت معبوداً مقدساً عند أهل مكة وعند غيرهم، غير أن المشركين حوّلوه إلى بيت لعبادة الأصنام والأوثان والشرك حتى عام الفتح، حيث أزال الرسول عنه آثار الجاهلية، وأمر بطمس معالم الوثنية. وصار حرماً آمناً خاصاً بالإسلام لا يدخله مشرك ولا تطأ أرضه أقدام غير مسلم مؤمن بالله وبرسوله.

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يعظمون البيت، وأن من سنن تعظيمهم له، أن من علا الكعبة من العبيد، فهو حرّ لا يرون الملك من علاها، ولا يجمعون بين عزّ علوّها وبين الرق[4].

---

1) البقرة، السورة رقم 2، الآية 126 وما بعدها.

2) الطبري (1/ 275)، قصص الأنبياء، (69)،

Shorter Ency. of Islam, p. 178, ff., Grünbaum Neue Beiträge zu Sem. Sogenkunde, S. 102, Goldziher, Die Richtungen der Islamischen Koranauslegung, S. 79, J. Harovitz, Koranische untersuchungen, S. 91.

3) الروض الأنف (28/1).

4) الثعالبي، ثمار (18).

وإنهم لم يكونوا يبنون بنياناً مربعاً بمكة تعظيماً للكعبة[1]. وإن أوّل من بنى بها بيتاً مربعاً، (بديل بن ورقاء) الخزاعي، وهو أول من أتخذ بمكة روشناً، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربيع في البناء كيلا يشبه بناء الكعبة[2] وأن أول من سقف بمكة سقفاً (قصي بن كلاب)، وكان الناس قبل ذلك إنما ينزلون في العريش وأن أول من بوب بمكة باباً (حاطب بن بلتعة)[3].

و(بديل بن ورقاء)، هو (بديل بن ورقاء بن عبد العزى)، شريف كتب إليه النبي يدعوه إلى الإسلام، وكان له قدر في الجاهلية بمكة[4]. فلو أخذنا برواية من قال إنه كان أول من بنى بيتاً مربعاً بمكة، وأول من اتخذ بها روشناً، وجب جعل حدوث ذلك في أيام النبي، أو بسنين قليلة قبل المبعث، فهل يعقل ذلك؟ والروشن الرف، و(الرشن) الكوة، من الألفاظ المعربة عن الفارسية[5].

وأما (حاطب بن أبي بلتعة) فهو (حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي)، حليف بني أسد بن عبد العزى، من الصحابة وممن شهد بدراً، كان حليفاً للزبير، وكان قد كتب كتاباً إلى قريش يخبرهم بتجهيز رسول الله إليهم، فضبط الكتاب قبل وصوله مكة، واعتذر. فهو من الصحابة[6]، وذكر أن الرسول أرسله إلى (المقوقس) صاحب الاسكندرية[7]. فهل يعقل أن يكون أول من بوّب باباً بمكة، وقد كانت البيوت قبله بمكة منذ وجدت، فكيف كان يدخل الناس إليها، وقد رأينا قصصاً لأهل الأخبار يروونه عن امتناع (الحمس) عن دخول البيوت من أبوابها، والحمس هم قريش وأهل مكة قبل دخول (حاطب) إليها!

1) الثعالبي، ثمار القلوب (16).
2) صبح الأعشى (1/ 426).
3) صبح الأعشى (1/ 426).
4) الاشتقاق (280).
5) تاج العروس (9/ 216)، (رشن).
6) الإصابة (1/ 300)، (1538)، المحبر (72).
7) المحبر (76).

ويذكر أهل الأخبار أن البيت قد تهدم مراراً، وأن السيول قوضت قواعده عدة مرّات، لذلك لم يتمكن (بيت إبراهيم وإسماعيل) من البقاء، ولكن الجاهليين حرصوا على المحافظة على أسسه وشكله وموضعه. وإنهم كانوا بعد كل هدم أو تصدع يصيبه يحاولون إرجاعه إلى ما كان عليه في أيام آبائهم وأجدادهم جهد امكانهم، لا يحدثون فيه تغييراً ولا يدخلون على صورة بنائه تبديلاً.

و(البيت الحرام) بناء مكعب، ولذلك قيل له (الكعبة). وصفه أهل الأخبار، فقالوا كانت الكعبة قبل الإسلام بخمسة أعوام صنماً، أي حجارة وضعت بعضها على بعض من غير ملاط، فوق القامة، وقيل كانت تسع أذرع من عهد إسماعيل، ولم يكن لها سقف، وكان لها باب ملتصقة بالأرض. وكان أول من عمل لها غلقاً هو تبع[1]. ثم صنع (عبد المطلب)، لها باباً من حديد، حلاها بالذهب من ذهب الغزالين. وهو اول ذهب حليت به الكعبة[2].

ووصف أهل الأخبار لها على النحو المذكور، يجعلنا نتصورها وكأنها خربة بدائية بسيطة، هي ساحة تكاد تكون مربعة أحيطت بجدار من أحجار رضمت بعضها فوق بعض من غير مادة بناء تمسك بينها، تحط في فنائها الطيور وسباع السماء، ولا يحول بين أرضها وبين أشعة الشمس المحرقة والأمطار التي تنزل على مكة أحياناً على شكل مياه خارجة من أفواه قرب، أي حائل. إنها في الواقع حائط من أحجار لا يزيد ارتفاعه على قامة إنسان.

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من بنى جدار الكعبة، (عامر) الجادر من الأزد. فقيل له: (الجادر)[3]. وكان أول من جدر الكعبة بعد إسماعيل[4].

---

1) الروض الأنف (1/ 127)، الطبري (2/ 283 وما بعدها).
2) الروض الأنف (1/ 101).
3) ابن سعد، طبقات (64/1)، (صادر).
4) الاشتقاق (25).

وأول تسقيف لها كان. كما يذكر أهل الأخبار. في التعمير الذي أجري عليها في النصف الأول من القرن السابع للميلاد، وذلك قبل الإسلام بخمس سنين، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة. وسبب ذلك حريق أصابها. كما يزعمون . فقرروا إعادة بنائها، واجتمعوا وعملوا رأيهم فكان قرارهم تسقيفها بخشب، وقد أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب، وزعت في صفين. وزادا فيها تسع أذرع، فصارت ثماني عشرة ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد إليها إلا في درج أو سلّم. ورفعوا من جدرانها التي بنوها بساف من حجر وساف من خشب، حتى زادت على ما كانت عليه في الأصل[1]. وورد في الأخبار أن رسول الله لما دخل الكعبة عام الفتح، قام عند سارية فدعا، وفيها ست سوارٍ[2].

وذكر أهل الأخبار، أن سبب بنيان الكعبة، هو أنها كانت رضمة فوق القامة، وأنها كانت قد تصدعت حتى تداعت جدرانها وتساقطت أحجارها، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك إن نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة، فأجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها[3].

ولم يكن هذا البناء الجديد بناءً فخماً، كما يظهر من الوصف الوارد في كتب أهل الأخبار. كل ما فيه أنه غرفة سقفت الآن بخشب، أقيم سقفها على صفين من أعمدة، كل صف ذي ثلاثة أعمدة. وأما حيطانها، فقد زيد ارتفاعها فصار ثماني عشرة ذراعاً، بعد أن كانت تسع أذرع، أو ارتفاع قامة أو أعلى من ذلك بقليل. وقد بنيت هذه المرة من مادة بناء قوية، جعلت مدماكاً من حجارة ومدماكاً من خشب، فكان الخشب خمسة عشر مدماكاً، والحجارة ستة عشر مدماكاً. وجعلوا سقفها مسطحاً له ميزاب، يسيل منه ماء المطر. وهو على الجملة لا يقاس بشيء بمعابد العربية الجنوبية مثل معبد (المقه) بمدينة مأرب أو

---

1) الروض الأنف (127/1 وما بعدها)، الطبري (2/ 283 وما بعدها)، «دار المعارف»، البلدان (7/ 259)، (الكعبة)، مروج الذهب (169/1)، (محمد محيي الدين عبد الحميد).

2) صحيح مسلم (4/ 97)، (باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة فيها والدعاء في نواحيها كله).

3) الطبري (2/ 293).

المعابد الأخرى التي تمكن الباحثون من الوقوف على أسسها ومعالمها، من حيث مساحة البناء أو الفن أو الروعة والعظمة.

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل من تجار الروم رمى البحر بسفينته إلى الساحل إلى (الشعيبة)، وهو مرفأ السفن من ساحل الحجاز، وكان مرفأ مكة، ومرسى سفنها قبل (جدة). فجاؤوا بالخشب إلى مكة، وكان بها نجار (قبطي)، استعين به في تسقيف البيت بذلك الخشب. وذكر أن الذي سقف البيت علج كان في السفينة، يحسن النجارة اسمه (باقوم)، فجئ به مع الخشب، وسقف الكعبة. وقد سألهم عن كيفية تسقيفها هل يجعل السقف قبة أو مسطحاً، فأمروه أن يكون مسطحاً، فعمله على ما أمروه به[1]. ويذكرون أن قريشاً حين أرادوا بناء الكعبة أتى (عبد الله بن هبل بن أبي سالم)، ومعه مال، فقال: دعوني أشرككم في بنائها، فأذنوا له فبنى الجانب الأيمن، فـ (لبني كلب يد بيضاء في نصرتهم لقريش حين بنوا الكعبة)[2]، وصاحب هذا الخبر هو (ابن الكلبي)، ولا أستبعد أن يكون خبره هذا من وحي العاطفة في قومه الكلبيين.

وذكر أن (باقوم) الرومي، كان يتجر إلى (المندب)، فانكسرت سفينته بالشعيبة، فخرجت إليه قريش فأخذوا خشبها، وقالوا له ابنها على بنيان الكنائس، وقال لقريش: هل لكم أن تجروا عيري في عيركم، يعني التجارة، وأن أمدكم بما شئتم من خشب ونجار، فتبنوا به بيت إبراهيم[3].

ويذكر الأخباريون أنه كان في بطن البيت قرنا كبش معلقان في الجدار تلقاء من دخلها يخلّقان ويطيّبان اذا طيب البيت، وقد علق عليهما معاليق من

1) الأزرقي (1/ 104)، ابن هشام (1/ 130 وما بعدها)، (حاشية على الروض الأنف)، الروض الأنف (1/ 130).
2) تاج العروس (4/ 109)، (بس).
3) الإصابة (1/ 140 وما بعدها)، (رقم 583).

حليّ كانت تهدى الى الكعبة. ويرمز القرنان إلى قرني الكبش الذي ذبحه إبراهيم الخليل[1]. وقد بقيا في الكعبة إلى أيام (عبد الله بن الزبير) فاحترقا مع الكعبة[2].

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق، زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلت «في دعامائها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة، فكان فيها صورة إبراهيم الخليل الرحمان، شيخ يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى بن مريم وأمه، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين. فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، البيت، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم، ثم أمر بثوب فبلّ بالماء، وأمر بطمس تلك الصور فطمست. ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما اسلام وقال:

أمح جميع الصور، إلاّ ما تحت يدي، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه ونظر إلى صورة إبراهيم، فقال: قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام، ما لإبراهيم والأزلام»[3]. وقد بقيت صورة عيسى بن مريم وأمه، إلى أيام عبد الله بن الزبير، فلما تهدم البيت، تهدمت الصورة معه[4].

وأعاد الجاهليون - كما يذكر أهل الأخبار - الصنم هبل إلى مكانه، نصبوه أمام (الغبغب)، وأعادوا معه بقية الأصنام، التي كانت تتعبد لها بعض القبائل. ووضعوا حول الكعبة أصناماً أخرى، يجب أن تكون من الدرجة الثانية في المنزلة أي أصنام قبائل ضعيفة، لذلك وضعت خارج البقعة المقدسة. وقد أوصلت الروايات عدة أصنام الكعبة عام الفتح إلى (360) صنماً، كان بعضها منحوتاً من الحجارة، وبعضها معمولاً من النحاس، وبعضها قوارير، وكان صنم خزاعة قوارير صفر. ولما دخل الرسول مكة، أمر بها فأزيلت وحطمت، فلم يبقَ من يومئذ بها

---

1) الأزرقي (1/ 100).

2) القاسمي، شفاء الغرام (19).

3) الأزرقي (1/ 104 وما بعدها)، السيرة الحلبية (3/ 87)، ابن الأثير (2/ 105)، نهاية الأرب (17/ 313).

4) الأزرقي (1/ 104).

صنم[1]. وذكر أن النبي دخل مكة «وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً. فجعل يطعنها بعود كان بيده. ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»[2].

وذكر في بعض الروايات أن رسول الله بعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته دخل الكعبة فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها[3]. وأنه لما طاف بالبيت وجد حولها أصناماً مشدودة بالرصاص، فحطمت، وأعظمها (هبل) صنم قريش[4].

ويتبين من الروايات الواردة عن بناء الكعبة وعن اختلاف أهل مكة وتشاحنهم وتنافسهم فيما بينهم. على شرف وضع (الحجر الأسود) في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم، وأنه كان أقدس شيء عندهم. وإلا لما اختلفوا هذا الاختلاف على وضعه، حتى ليمكن أن يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة منزلة، بدليل عدم ورود لشارة ما إلى وقوع اختلاف بشأن إعادة صنم من تلك الأصنام إلى مواضعها. ولو كانت الأصنام أقدس منه، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع. وهذا التقديس الزائد يحملنا على التفكير في أسبابه وفي الميزة النبي ميزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله. لقد ذهب (ولهوزن) إلى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه، بل كانت بسبب هذا الحجر. لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته، وهو الذي جلب القدسية للبيت، فصار البيت نفسه مقدساً،

---

1) السيرة الحلبية (144/1)، ابن الأثير (2/ 105).

2) صحيح مسلم (5/ 173)، «باب إزالة الأصنام من حول الكعبة»، إرشاد الساري (7/ 210)، «باب وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

3) الروض الأنف (2/ 274)، نهاية الأرب (17/ 312).

4) الروص الأنف (2/ 276)، نهاية الأرب (17/ 314).

مقدساً في حد ذاته، بحجره هذا الذي هو فيه، ولعله شهاب (نيزك)، أو جزء من معبود مقدس قديم[1].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش، لأنه بمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد[2].

ويلاحظ أن التقرب إلى الأحجار في بيوت العبادة كانت شائعة بين الجاهليين. وقد ذكر أن في (غيمان) موضع عبادة وفيه (حجر قحمم) (حجر قاحمم) (حجر قاحم)، وهو يشبه الحجر الأسود الذي كان يتقرب اليه الجاهليون في مكة. والحجر الذي كان في كعبة نجران وفي (تسلال)، وفي مواضع أخرى عديدة ذشرها (الهمداني). وقد عثر على مقابر جاهلية عديدة تبين للذين نقبوا فيها ان لها صلة بعبادة الأحجار، وأن تلك المقابر أقيمت عند موضع مقدس لوجود حجر مقدس فيه[3].

وقد كان الجاهليون يلمسون الحجر الأسود للتبرك به، وهو مبني في جدار الكعبة، فيكون اللمس بالطبع للجانب البارز منه. وبين موضع (الحجر الأسود) وباب البيت يكون (الملتزم)، وفي الناحية الشمالية الغربية (الحجر) أو (الحطيم).

وكانت الجاهلية تتحالف وتحلف عنده[4]. ويقال للجهة التي فيها (الحجر الأسود) (الركن). وذكر أن العرب في الجاهلية كانت تطرح بموضع

---

1) Reste, S. 74.

2) المشرق: (1941)، تموز . أيلول، (ص 247).

3) Beiträge, S. 84.

4) تاج العروس (3/ 125)، (8/ 251)، اللسان (4/ 166)، (15/ 29)، البلدان (2/ 223 وما بعدها)، (5/ 190)، أخبار مكة، للأزرقي (246)، تاج العروس (9/ 59).

الحطيم ما طافت به من الثياب، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان، فسمي الموضع حطيماً[1].

وقد كانت الجاهلية تتحالف عند (الملتزم) بالأيمان، وتدعو على الظالم، وتعقد الحلف[2].

وذكر (اليعقوبي) أن الجاهليين كانوا قد وضعوا (إسافاً) و(نائلة)، داخل المسجد الحرام. وضعوا كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف اذا طاف بدأ، بإساف فقبله وختم به. وذكر أنهم نصبوا على الصفا صنماً، يقال له (مجاور الريح)، وعلى المروة صنماً يقال له (مطعم الطير)[3].

وفي روايات أهل الأخبار عن تزويق الكعبة بالصور لبس وغموض وهي روايات عديدة، يفهم من بعضها أن هذه الصور كانت بالزيت، رسمت على دعائم السقف. ويفهم من بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متنقلة، وأنها كانت معلقة على جدران البيت. ويفهم من بعض الروايات أن الرسول أمر فطمست معالم جميع الصور، ويفهم من بعض آخر، أنه استثنى منها صورة مريم وابنها عيسى، وأنها بقيت كما ذكرت إلى أيام عبد الله بن الزبير. فلما تهدم البيت: تهدمت الصورة معه. أما رسم شجر او صور ملائكة أو أشباه ذلك في الكعبة، فأمر لا اعتراض عليه، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبد وثني، يضم الأصنام. ولكن ما للوثنية والأنبياء، وما شأن للشرك بمريم وبابنها وببقية الرسل حتى ترسم صورهم على جدران أو أعمدة البيت؟ ثم هل كانت الكعبة مزوّقة قبل هذا التزويق بالرسوم والصور؟ وهل كانت هذه الصور من بقايا صور قديمة؟ أم هي صور حديثة رسمت بعد أن أعادت قريش بناء البيت؟ ورأيي أن هذه الصور هي

---

1) اللسان (12/ 139)، (حطم)، تاج العروس (8/ 251).

2) البلدان (8/ 146)، «الملتزم».

3) اليعقوبي (1/ 224).

من عمل عمّال نصارى أراهم للروم الذين جلبهم أهل مكة مع (باقوم) بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للاتجار معهم ولبناء الكعبة.

و(باقوم) كما يقول الأخباريون. هو الذي أشرف على إقامة البناء وهندسته. وهو الذي سقف البيت وأقامه على عمد. ولا أستبعد أن يكون هو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم. وقد كان هؤلاء نصارى، فرسموا على جدران البيت أو أعمدته صور قصص كتابي، ومنه صور الأنبياء، للزينة والزخرف. لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الأصنام. ومن يدري، فلعله رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها، فلم يعترضوا لذلك عليه. أما طمس الإسلام لتلك الصور، فللعلماء في ذلك كلام. وقد أشير إليه في كتب الحديث، وأكثرهم على أن الرسول لم يستثنِ من ذلك الطمس صورة[1].

وفي الحرم بئر (زمزم)، وهناك مقام إبراهيم، وبين زمزم ومقام إبراهيم كان موضع الذبح، ذبح القرابين. ويرى (ولهوزن) احتمال كون موضع المقام هو المكان الذي كان الجاهليون يذبحون فيه[2].

ويرجع الأخباريون تأريخ بئر (زمزم) إلى يوم بناء الكعبة وعهد إسماعيل. ويقال لها (بئر إسماعيل) أيضاً. وهي في الحرم في جهة الجنوب الشرقي من الكعبة في الجهة المقابلة للركن. ولا نعرف من أمرها شيئاً يذكر. ويظهر من روايات أهل الأخبار عنها أنها دفنت في أيام جرهم، وأن أهل مكة صاروا يستقون الماء من آبار أخرى احتفروها، ويستوردونه من الخارج إليها، حتى اذا كانت أيام عبد المطلب، ألقى في قلبه أن يحتفرها، فحفرها واستخرج منها كنزاً، وظهر الماء بها منذ ذلك اليوم[3]. ولأهل الأخبار تفاسير عديدة للفظة (زمزم)، تدل على أنهم لم

---

1) الأزرقي (1/ 104)، «تعليقات السيد رشدي الصالح ملحس على الأزرقي».

2) Reste, S. 76.

3) الطبري (2/ 251)، «دار المعارف»، الروض الأنف (1/ 80، 98 وما بعدها)، الأزرقي (1/ 24، 280 وما بعدها)، البلدان (2/ 643)، Shorter Ency. of Islam, p. 657.

يكونوا على علم بأصل التسمية، مما جاء فيها أن الملك (سابور) لما حج للبيت أشرف عليها وزمزم فيها، فقيل لها (زمزم)[1]. وهكذا جعلوا (سابور) من المؤمنين الحجاج للبيت الحرام، المتبركين بماء زمزم!

وكان حرم (الكعبة) كما يظهر من روايات أهل الاخبار واسعاً شاسعاً ذا نبت وشجر. ولم يجرؤ أحد على احتطاب شجره أو قطعه لحرمة المكان ولحرمة ما فيه، فبقيت أشجاره على ما هي عليه، حتى إذا ما كانت أيام (قصي)، ضاقت مكة بمن وفد عليها من قريش، ممن جاء بهم (قصي) إليها، وقطعها (قصي) رباعاً، وأرادوا البنيان، ولكنهم هابوا قطع شجر الحرم للبنيان، وتذكر رواية أنهم قالوا لقصي: كيف نصنع من شجر الحرم؟ فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك. فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله[2]. وتذكر روايات أخرى العكس. تذكر أن قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم، فقطعها قصي بيده، وأعانوه[3]. وبذلك تقلصت أرض الحرم وقلت أشجاره بالتدريج.

وتذكر رواية أن أهل مكة كانوا يهابون حتى في الإسلام قطع شجر الحرم. وقطع كل شجرة دخلت من أرض الحرم في دور أهل مكة. وأن (عمر) لما قطع (دوحة) كانت في دار (أسد بن عبد العزى)، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين. بالكعبة، وذلك قبل أن يوسع المسجد، ودّاها بقرة. وتذكر أيضاً أن (عبد الله بن الزبير) حين ابتنى دوراً بـ (قعيقعان) ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان، وجعل دية كل شجرة بقرة. وذكر أن (أبا حنيفة)، قال إن كانت الشجرة التي في الحرم مما يغرسها الناس ويستنبتونها فلا فدية على من قطع شيئاً منها، وإن كان من غيرها ففيه القيمة بالغاً ما بلغت[4].

1) البلدان (3/ 147)، الصحاح (5/ 1945)، اللسان (12/ 275)، البكري، معجم (2/ 700)، عمدة القارئ (9/ 277)، البلدان (2/ 940 وما بعدها).
2) الروض الأنف (1/ 87 وما بعدها).
3) الطبري (2/ 258) «دار المعارف».
4) الروض الأنف (1/ 87 وما بعدها).

وفي الحديث أن الله حرم مكة، وحرم شجر الحرم في جملة ما حرمه على الناس[1].

ويظهر أن أرض مكة كانت كلها في الأصل قبل ايام (قصي) حمى للكعبة، على عادة الجاهلين. في تخصيص (حمى) لأربابهم تكون حول بيوتها، ولهذا كانت أشجار هذا الحمى أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها، سوى أخذ بعض أغصانها أو لحائها لعمل قلائد منها للاحتماء منها، فلما استباح أهل مكة لأنفسهم التطاول على الحرم، أي على هذا الحمى، بقطع شجره وتحويل أرضه إلى بناء، أو بإبقاء بعض أشجاره في داخل الدور، بقوا ينظرون إلى ذلك الشجر الباقي في البيوت نظرة هيبة وتقدير، باعتبار انه من بقايا الحرم القديم. وبذلك صغرت مساحة الحرم، وقلت مساحته، حتى اضطر الخليفة (عمر) إلى توسيعه بشراء البيوت التي اقامها الناس عليه وادخالها في الحرم من جديد، وذلك حين ضيق الناس على الكعبة والصقوا دورهم بها، فقال: «إن الكعبة بيت الله، ولا بدّ للبيت من فناء، وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم»، فاشترى بعض الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها، ثم اشترى عثمان دوراً أخرى وأغلى في ثمنها[2] ثم زاد في المسجد من جاء بعدهما حتى وصل الى النحو الذي هو عليه الآن.

ولم يكن للحرم في الجاهلية سور، إنما كانت تحدد معالمه وحدوده أنصاب نصبت على أطرافه. لتكون علامة على ابتدائه وانتهائه. أما ما نراه في الوقت الحاضر من وجود سور مرتفع له، أي حائط به غرف، فإنه مما حدث في الإسلام. وذكر أهل الأخبار أن الحرم قد ضرب على حدوده بالمنار القديمة التي بيّن إبراهيم مشاعرها، وكانت قريش تعرفها في الجاهلية والإسلام، لأنهم كانوا سكان الحرم، ويعلمون أن ما دون المنار إلى مكة من الحرم، وما وراءها ليس من الحرم. فما كان

---

1) الروض الأنف (1/ 128).

2) الروض الأنف (1/ 129 وما بعدها).

دون المنار، فهو حرم لا يحل صيده ولا يقطع شجره، وما كان وراء المنار، فهو من الحل يحل صيده، إذا لم يكن صائده محرماً[1].

الكسوة:

وكسوة البيت عادة قديمة، كان يقوم بها الجاهليون. ينسبها الأخباريون إلى (تبع أسعد الحميري)، فيذكرون أنه كساها بالأنطاع، ثم كساها بثياب جدة من عصب اليمن، أغلى ثياب معروفة في تلك الأوقات[2]. ولا يستبعد أن يكون الإكساء من بقايا المنشأ القديم للبيت، حيث كان خيمة في الأصل. وقد ورد في الأخبار أنه كان في موضع البيت خيمة قبل ان تكون الكعبة[3]. وكذلك كان معبد بني إسرائيل خيمة في الأصل قبل أن يبنى الهيكل.

ويذكرون أن التبع الذي كسا البيت، هو التبع الذي أتى به (مالك بن عجلان) إلى يثرب لطرد اليهود عنها. وذكروا أن ذلك التبع هو (أسعد ابو كرب الحميري)[4]. وقد كساها الوصايل، ثياب حبرة من عصب اليمن. وكانت الكعبة تكسى بالحبرة والبرود وغيرها من عصب اليمن، تكسى بها ويوضع ما يفضل منها في خزانة الكعبة. فإذا تمزقت الكسوة، تستبدل بكسوة أخرى تؤخذ من الخزانة. تكسى من الداخل والخارج، وتطيب بالخلوق وتبخر بالمجامر[5].

وقد سبق لي أن تحدثت عن (التبع أسعد)، وذكرت ما قاله رواة الأخبار عنه، وما جاء عنه في نصوص المسند. وكان قد علق في ذاكرة أهل الأخبار أشياء عنه وعن بعض من جاء بعده، زوقت ونمقت على طريقتهم في رواية أكثر أخبار اليمن. ولعل ما ذكروه عن إكسائه البيت، هو من مصنوعاتهم التي وضعوها في

---

1) تاح العروس (8/ 239)، (حرم)، اللساں (12/ 122)، (حرم).
2) الأزرقي (1/ 165)، الروض الأنف (1/ 24).
3) الأزرقي (1/ 6)، «ىكر هبوط آىم إلى الأرض».
4) البلدان (4/ 463).
5) أخبار مكة، للأزقي (1/ 173 وما بعدها).

الإسلام ليجعلوا لأهل اليمن فضلاً على الكعبة، فضل يسبق فضل العدنانيين عليها، وقد رأينا أنهم أوجدوا لهم جملة أنبياء نسبوهم إلى قحطان، ووضعوا أشياء أخرى كثيرة، في اظهار فضل للقحطانيين على الإسماعيليين المتعربين يوم فات الحكم من قحطان وصار في أهل مكة في الإسلام. فكان النزاع القحطاني العدناني المعروف.

ولو جارينا أهل الأخبار، واخذنا برواياتهم في أن التبع (لسعد ابو كرب الحميري)، كان أول من كسا الكعبة، نكون قد رجعنا بمبدا تأريخ إكساء الكعبة إلى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد. وقد سبق أن تحدثت عن هذا الملك في الجزء الثاني من هذا الكتاب[1].

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحدة، ولا من نسيج واحد، بل كانت انطاعاً، أي أبسطة من أدم، وحبرة وبروداً، وغيرها من عصب اليمن. وهي برود يمنية يعصب غزلها ثم يصبغ وينسج، فيأتي موشىً، وقيل هي برود مخططة[2]. وذكر أن النبي كساها الثياب اليمانية، وأن عمر وعثمان كسواها بالقباطي[3].

وذكر أن أول من كسا البيت الحرير (نتيلة بنت جناب بن كليب) وهي من (بني عامر) المعروف بالضحيان، وكان من ملوك ربيعة. وكان العباس بن عبد المطلب ابنها، قد ضاع وهو صغير، فنذرت أمه إن وجدته ان تكسو البيت الحرير، فكسته، فهي أول من كساه ذلك[4]. وقيل أول من كسا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب. أخذ لطيمة من البر وأخذ فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة[5].

---

1) (ص 569 فما بعدها).
2) اللسان (1/ 604)، (عصب).
3) الأزرقي، أخبار مكة (1/ 173 وما بعدها).
4) الإصابة (2/ 263)، (رقم 4507)، كتاب نسب قريش (18)، الروض الأنف (1/ 77).
5) الروض الأنف (1/ 77).

وروي أنهم كانوا يكسون الكعبة يوم (عاشوراء)، وذكر أن (بني هاشم) كانوا يكسونها يوم التروية بالديباج، لتظهر في أحسن حال، ويراها الناس على ذلك. أما اذا حلّ يوم عاشوراء، فإنهم يعلقون الإزار عليها. وورد أنهم كانوا يكسون الكعبة بالديباج يوم التروية، فيعلق عليها القميص ولا يخاط، حتى اذا ما انصرف الناس من (منى) خيط وترك الأزار، ثم تكسى بالقباطي يوم عاشوراء، ويعلق عليها الإزار، ويوصل بالديباج[1].

ولا نستبعد احتمال كون يوم (عاشوراء) من الأيام التي كانت لها حرمة وقدسية عند أهل الجاهلية، وإن كنا نجهل كل شيء عنه وعن سبب احتفال أهل مكة به، وصومهم فيه. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى احتمال تأثر قريش بعاشوراء اليهود، كأن يكون أحد سادة مكة قد أخذ ذلك اليوم عنهم فعظمه، فأخذه أهل مكة عنه وجعلوه سنّةً لهم. غير أن من الجائز ألا يكون لهذا اليوم صلة بعاشوراء اليهود، وانما كان من تقاليد أهل مكة القديمة المعروفة عند غيرهم أيضاً، ولا صلة له بيوم يهود[2].

ويظهر أنهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة، فلايرفعونها عنها، فكانت تتراكم بعضها فوق بعض، فلما جاء الإسلام، استمروا على ذلك أمداً، ثم رأى (شيبة بن عثمان) سادن البيت، تجريدها من أكسية الجاهلية، لأنها رجس من عمل الجاهليين فأزيلت. ثم رأى الخليفة المهدي، أن الأكسية قد أثقلت الكعبة، فأمر بتجريدها، تخفيفاً عنها، واكتفى بثلاث كسيّ من القباطي والخزّ والديباج[3].

---

1) الأرزقي، أخبار مكة (1/ 173 وما بعدها).

2) Shorter Ency., p. 47.

3) الأرزقي، أخبار مكة (1/ 173 وما بعدها)، الإصابة (2/ 157)، (شيبة بن عثمان).

وذكر أهل الأخبار أن اول من حلّل البيت (عبد المطلب)، جدّ النبي، لما حفر (بئر زمزم)، وأصاب فيه من دفن جرهم غزالين من ذهب، فضربهما في باب الكعبة[1].

المال الحلال:

وقد تجنب أهل الجاهلية. بناء معابدهم بمال حرام، فلما أرادت قريش بنيان الكعبة نادى مناديهم: لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلاّ طيباً. لا تدخلوا فيه مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس[2]. هذا ما يذكره أهل الأخبار ويروونه عن بناء البيت الحرام.

بقية محجات العرب:

ومن محجّات العرب وبيوتها المعظمة: بيت عُرف بـ (بس) لغطفان، كانت تعبده. بناه (ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف)، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة، فذرع البيت، وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة، فرجع إلى قومه، فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين، فقال: هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحج، فأغار (زهير بن جناب الكلبي)، فقتل ظالماً وهدم بناءه. وورد في رواية أخرى أن (العزى) سمرة عبدتها غطفان. أول من اتخذها (ظالم بن أسعد)، فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال، بنى عليها بيتاً وسمّاه بسّاً، وأقام لها سدنة، فبعث إليها رسول الله (خالدَ بن الوليد)، فهدم البيت وأحرق السمرة[3].

وفي أخبار أهل الأخبار عن بيت (العزى)، أوهام وتناقض. فتراهم يجعلون (العزى) صنماً مرة ويجعلونها (سمرة) أو (شجرة) أو ثلاث سمرات مرة أخرى، ثم تراهم يخلطون بين البيت وبين الحرم الذي كان حوله، كما بينت ذلك في أثناء

1) البلدان (4/ 463 وما بعدها).

2) الروض الأنف (1/ 130 وما بعدها).

3) تاج العروس (4/ 109)، (بس)، مراصد الاطلاع (937).

حديثي عن (العزى)[1]. والذي أراه، أنه كان للعزى بيت هو (بس)، فيه صنم العزى، وكان حوله حرم، كحرم مكة، به، (سمرة) أو ثلاث سمرات، كان الناس يقدسونها أيضاً ويتقربون إليها بالنذور. وهي جزء متمم لبيت العزى. فلما أمر الرسول خالد بن الوليد، بهدم العزى، هدم البيت وحطّم الصنم، فرجع، فلما سأله الرسول عنه، واستفسر منه عن السمرة أو السمرات الثلاث، وعلم منه أنه لم يقطعها، أمره بالعودة إليها وقطعها اجتثاثاً لكل علامة من علائم عبادة هذا الصنم. فقطعها. فقطع عن عبّادها كل صلة لهم كانت تربطهم بذلك الصنم.

ومن محجّات الجاهليين، بيت الصنم (ذو الخلصة)، ذكر أنه كان بتبالة، وكان يسمى بـ(الكعبة اليمانية)، تمييزاً له عن الكعبة التي عرفت بـ(الكعبة الشامية). وذكر أنه نفسه عرف بـ(الكعبة الشامية)، كما دُعي بـ(كعبة اليمامة)، وقد تحدثت عنه في أثناء كلامي على هذا الصنم. ولما هدم البيت والصنم بأمر الرسول، صار مكانه موضع عتبة باب مسجد تبالة. وذكر أن البيت هو (ذو الخلصة)، والصنم (الخلصة)، وقيل (ذو الخلصة: الصنم نفسه)[2] وقد عرف البيت بـ(الكعبة) كذلك، لأنه كان بناءً مكعباً. وكان بيتاً في خثعم باليمن، وكانت بجيلة تعظمه كذلك. به صنم، هو (ذو الخلصة) ونصب يذبحون عليه[3]، ويظهر أنه كان من البيوت المعظمة الكبيرة بدليل، ما ذكره العلماء من أن الرسول قال لجرير بن عبد الله البجلي: «ألا تريحني من ذي الخلصة»؟ فذهب إليه وأحرق البيت وهدم الصنم وكسر النصب. وذكر أن موضع (ذي الخلصة)، صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها: العبلات من أرض خثعم[4].

---

1) البلدان (1/ 412)، (بساء).
2) تاج العروس (4م 389)، (خلص).
3) إرشاد الساري (6/ 424 وما بعدها).
4) إرشاد الساري (6/ 423 وما بعدها).

وقد ذكر (أبو العلاء المعري) أن فدك كانت في الجاهلية ذات أصنام. وكانوا يقصدونها للحج، وذكر تلبيتهم لها[1].

وكان بيت (اللات) من البيوت المعظمة عند ثقيف. كانوا اذا عاد أحدهم من سفر، فأول ما يفعله أن يأتي (الربة)، وهي اللاّت ليتبرك بها. وهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف. ولما أسلم (عروة بن مسعود الثقفي)، وعاد إلى قومه دخل منزله، فأنكر قومه عليه دخوله قبل أن يأتي الربة، يعني اللات. وفي حديث وفد ثقيف: كان لهم بيت يسمونه الربة. يضاهون بيت الله[2]. وكانت ثقيف تضاهي أهل مكة، وتنافسهم على الزعامة. وكان لبيت اللات أستار وسدنة وحوله فناء معظم، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب[3].

ولأهل اليمن بيوت تعبدوا لها، وبقيت معظمة عندهم إلى الإسلام. من ذلك بيت عرف بـ(بيت رئام). ذكر (ابن إسحاق) أن أهل اليمن كانوا يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون. وكانوا يعتقدون أن رئاماً كان فيه شيطان، وكانوا يملأون له حياضاً من دماء القربان، فيخرج فيصيب منها، ويكلمهم، وكانوا يعبدونه[4]. وبيت غمدان، وقد ذكروا أن الضحاك بناه باليمن على اسم الزهرة[5]، فجعلوه بيتاً، أي موضع عمادة، بينما هو دار حكم وبيت الملوك بصنعاء، كما سبق أن تحدثت عنه.

وذكَر بعض أهل الأخبار أن (ريام) بيت بصنعاء كان لحمير، وكان به كلب أسود. وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت[6].

---

1) رسالة الغفران (535)، (بنت الشاطئ).

2) تاج العروس (1/ 262)، (ببب).

3) تفسير ابن كثير (4/ 253).

4) الروض الأنف (1/ 28).

5) نهاية الأرب (62/1).

6) تفسير ابن كثير (254/4).

وكان (ذو الكعبات) لبكر ولتغلب ابني وائل وإياد بسنداد، وله يقول الأعشى:

بين الخورنق والسدير وبارق   والبيت ذو الكعبات من سنداد[1]

وذكر أنه بيت كان لربيعة، كانوا يطوفون به، وقد ذكره الأسود بن يعفر في شعره، فقال:

والبيت ذي الكعبات من سنداد[2]

فالبيت للأسود لا للأعشى على هذه الرواية.

وقد تعرض (ابن كثير) لموضوع بيوت الأصنام: اللات والعزى ومناة، فقال: «وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة، غير أن هذه الثلاثة التي تنص عليها في كتابه العزيز... قال ابن اسحاق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها»[3]. وما فات من أسماء المحجات في العربية الجنوبية والشرقية وفي نجد، قد يزيد عدده على ما ذكرنا. فات عنا، لأن أهل الأخبار لم يذكروا شيئاً عنها، لانصراف اهتمامهم إلى الحجاز وما كان له صلة بالإسلام، من أرضين، فحرمنا بذلك من الوقوف على أخبار المحجات في المواضيع الأخرى من جزيرة العرب.

ويحجّ الناس إلى هذه البيوت في أشهر معينة من السنة، هي الأشهر الحرم، وهي أشهر مقدسة لا يحلّ فيها قتال ولا اعتداء على أحد، فهي أشهر هدنة وسلام، أشهر خصصت بالآلهة، فلا يجوز انتهاك حرمتها. وفي شهر الحج الذي يحج فيه

---

1) تفسير ابن كثير (4/ 254).

2) تاج العروس (457/1)، (كعب)، اللسان (1/ 718)، (كعب).

3) تفسير ابن كثير (4/ 253 وما بعدها).

الناس إلى أصنامهم، يجتمع، الناس في المعبد لأداء الفروض المكتوبة المعينة، فيكون الاجتماع اجتماعاً دينياً وسياسياً وتجارياً يتعامل فيه الناس. ويتبادلون به السلع، ويعود على أهل الموضع الذي فيه المعبد بأرباح كبيرة ولا شك. وقد ذكرت أن هذه الحرمة لم تكن عامة، فقد كان من العرب من لا يراعيها ولا يحترمها، ثم إننا لا ندري إذا كان أهل العربية الجنوبية أو العربية الشرقية كانوا يعرفونها أم لا!

وليست كل المعابد محجة للناس، يقصدونها في الأيام أو في المواسم. فقد كان في الموضع الواحد جملة معابد في بعض الأحيان، ولا يحج إليها، بل كانت المعابد التي يحج إليها معدودة معينة. لا بد أن تكون لها ميزة شرفتها على سائر دور العبادة الأخرى. ولهذه الميزة قصدت في المواسم من أماكن بعيدة. واذا استثنينا ما ورد عن مكة، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المعابد الكبيرة الأخرى. ثم إن في أكثر ما ذكره أهل الأخبار عن مكة غموض ومجال واسع للنقد، لأنه منقول عن أفواه رجال يظهر أنهم نقلوا ما قيل لهم دون تحفظ أو تمحيص.

المزارات:

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون يها ويتبركون بها، وقد بلغ من بعضهم أن جعلها حمى وملاذاً من دخل إليها أمن، ومن لجأ إليها وكان محتاجاً أغيث، ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث، حتى صارت في منزلة المعابد. ومنها أضرحة السدنة والكهان وسادات القبائل، فقد كان قبر (تميم) جدّ قبيلة (تميم) مزاراً معظماً عند أبناء القبيلة من احتمى به من (بني تميم) ومن غيرهم صار آمناً.

ولم أجد في أخبار أهل الأخبار مما يفيد بوجود أضرحة في مكة. اتخذت مزاراً وموضعاً يتبرك به. يعظمونه ويتقربون اليه بالنذور والذبائح. فقد كان قبر قصي معروفاً عند أهل مكة، ولكنهم لم يتخذوه مزاراً ومصلى على ما يتبين من روايات الأخباريين.

الفصل الخامس

الحنفاء



الفصل الخامس

الحنفاء

وقد أشار القرآن الكريم إلى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام، فلم تكن من اليهود ولا النصارى، وإنما اعتقدت بوجود إلَه واحد عبدته[1]. وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء، غير أن ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم، ولا يوضح رأيهم في الدين، فلم يذكروا عقيدتهم في التوحيد، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون.

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف، ونعتوا بأنهم كانوا على دين إبراهيم، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى، ولم يشركوا بربهم أحداً. سفهوا عبادة الأصنام، وسفهوا رأي القائلين بها[2].

وقد أشير إلى (الحنيفية) و(الحنفاء) في كتب الحديث[3]. وقد بحث عنها شرّاح هذه الكتب. ومما نسب اليه حديث: «لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة»[4]. وحديث: «بعثتُ بالحنيفية السمحة السهلة»[5]. وحديث «أحب الأديان إلى الله تعالى الحنيفية السمحة»[6].

---

1) ﴿وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا. قلْ: بل ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين﴾، البقرة، رقم 2، الآية 125، تفسير الطبري (1/ 404)، روح المعانى (1/ 352)، تفسير المنار (1/ 279 وما بعدها)، بلوغ الأرب (2/ 196)، اللسان (10/ 402 وما بعدها)، النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (265/1)، الطبرسي، مجمع البيان (1/ 467)، (1/ 215 وما بعدها)، (طبعة طهران)، تفسير القرطبي، الجامع (2/ 128)، الطبري، جامع البيان (11/ 177)، (21/ 40)، البيضاوي (1/ 159، 215)، تفسير القرطبي (10/ 198)، الكشاف، للزمخشري (236/1)، اللسان (9/ 56)، «صادر»، تأريخ الخميس، للدياربكري (2/ 177)، الكامل، لابن الأثير (1/ 244)، تفسير القرطبي (10/ 198)، (حنيفاً)، سورة النحل، رقم 16، الآية 120.

2) النهاية (1/ 299).

3) راجع ونسنك: المعجم المفهرست لألفاظ الحديث النبوي، حيث نجد الإشارة إلى تلك الأحاديث.

4) مسند أحمد بن حنبل (116/4)، (6/ 33).

5) اللسان (9/ 56 وما بعدها).

6) مجمع البيان، للطبرسي (1/ 215 وما بعدها)، «أحب الدين إلى الحنيفية السمحة»، الإصابة (51/1)، (رقم 114).

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعيّ على دين إبراهيم. كانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده، لا يشركون به ولا ينتقصونه. فما جاء عمرو بن لحيّ، أفسد العرب، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام، بما تعلمه من وثنيي بلاد الشأم حين زارهم، وحل بينهم، فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلهم الأول. وهو على رأيهم موزع الأصنام بين القبائل، ومقسمها عليها. فكان من دعوته تلك عبادة الاوثان، إلى أن جاء الإسلام فأعاد العرب إلى سواء السبيل، إلى دين إبراهيم حنيفاً، وما كان إبراهيم من المشركين[1].

ولقد فشت دعوة عمرو بن لحي وانتشرت، حتى دخل فيها أكثرهم، والضلال سريع الانتشار، وقلّ عدد من حافظ على دين إبراهيم والمراعي لأحكام دين التوحيد الحنيف: من اعتقاد بوجود إله واحد أحد، وطواف بالبيت، وحج إليه، وعمرة، ووقوف على عرفة وهدي للبدن، واهلال بالحج والعمرة، وغير ذلك. فلم يبقَ منهم إلاّ عدد محدود في كل عصر إلى زمن البعثة المحمدية[2].

ولسنا نملك ويا للاسف شيئاً من الجاهلية يعيننا في الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم، فليس في كتابات المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى، بل ولا في كتب اليونان واللاتنين شيء عن عقيدتهم وعن آرائهم، لذلك اقتصر علمنا بأحوالهم على ما جاء في المؤلفات الإسلامية وحدها، والفضل في حفظ أخبارهم للقرآن الكريم، فلولا إشارته إليهم وذكره لهم، لما اهتم المفسرون وأصحاب الأخبار بجمع ما كان عالقاً في ذهن الناس عنهم. وللحديث وكتب السير والأدب فضل في جمع أخبارهم يجب ألا ينهى كذلك.

وللعلماء الإسلاميين آراء وتفسيرات في أصل لفظة (حنيف) وحنفاء وأحناف وفي معانيها. فهم يقولون إن الأصل (حنف)، وحنف بمعنى مال. وحنف القسمين ميل كل واحدة منهما نحو الأخرى. والحَنَفُ هو ميل عن الضلال إلى

1) اللسان (10/ 403)، بلوغ الأرب (2/ 195).

2) بلوغ الأرب (2/ 196).

الاستقامة، والحنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال. والحنيف هو المائل. ومن هذا المعنى أخذ الحنف. وأما الحنيف، فالشيء يميل الى الحق، وقيل الذي يستقبل. البيت الحرام، أو الحاج أو من يختتن، والحنيف من أسلم في أمر الله فلم يلتوِ في شيء، والحنيف المستقيم الذي لا يلتوِ في شيء[1].

وقد وردت لفظة (حنيفاً) في عشر مواضع من القرآن الكريم[2]. ووردت لفظة (حنفاء) في موضعيْن منه[3]. وبعض الآيات التي وردت فيها آيات مكية، وبعضها آيات مدنية. وقد نص في بعض منها على إبراهيم، وهو على الحنيفية، ولم ينص في مواضع منها على اسمه. وقد وردت لفظة (حنفاء) في سورتين فقط، هما: سورة الحج وسورة البينة، وهما من السور المدنية.

وذكر بعض أهل الأخبار أن الحنيف عند أهل الجاهلية من اختتن وحج البيت فكل من اختتن وحج البيت هو حنيف[4]. وقد رأى الطبري أن ذلك لا يكفي، بل لا بدّ من الاستقامة على ملة إبراهيم واتباعه عليها[5]. والذين يذكرون أن الحنيف هو من اختتن وحج البيت، يذكرون أن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشي من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت، ولهذا فكل من اختتن وحج البيت، قيل له حنيف. وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والإغتسال من الجنابة إلى ما ذكرت، وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن

---

1) المفردات، للأصفهاني (ص 133)، اللسان (10/ 44)، (9/ 56 وما بعدها)، «صادر»، تاج العروس (6/ 77 وما بعدها)، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (10/ 265)، تفسير الطبري (1/ 258 وما بعدها)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي (3/ 130)، تفسير الطبري (1/ 563)، «1954» (3/ 105)، «دار المعارف»، الملل والنحل، (2/ 52)، الأغاني (3/ 113 وما بعدها)، «دار الثقافة بيروت 1955م»، روح المعاني للألوسي (3/ 173 وما بعدها)، تفسير الخازن (1/ 98).

2) البقرة، رقم 2 الآية 135، آل عمران، 3 الآية 67، 95، النساء، الرقم 4، الآية 125، الأنعام 6، الآية 79، 161، يونس، الرقم 10، الآية 105، النحل 16، الآية 120، الروم، الآية 30.

3) الحج، الآية 31، البينة، الآية 5.

4) اللسان (10/ 402 وما بعدها)، الكشاف (1/ 178، 236، 407)، الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن (1/ 467 وما بعدها)، (3/ 109 وما بعدها)، تفسير الفخر الرازي (13/ 57 وما بعدها)، (14/ 10 وما بعدها)، (17/ 171 وما بعدها)، تفسير الطبري (3/ 104 وما بعدها).

5) تفسير الطبري (105/3 وما بعدها)، (3/ 306)، (5/ 297)، (7/ 251)، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (2/ 128).

المشركين[1]، لأن الحنفية على حد قولهم لو كانت حج البيت والاختتان لوجب أن يكون الذين كانوا يحجون ويختتنون في الجاهلية من أهل الشرك حنفاء، وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله: (ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)[2].

وينسب أهل الأخبار إلى الأحناف بالإضافة إلى ما ذكرت، امتناعهم عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهلّ إلى غير الله. فقد ذكروا عن كل واحد من الأحناف أنه كان قد امتنع عن أكل الذبائح التي تذبح للأوثان والأصنام، لأنها ذبحت لغير الله. كما نسبوا إليهم تحريم الخمر على أنفسهم، والنظر والتأمل في خلق الله، ونسبوا اليهم أداء شعائر الحج وغبر ذلك.

وقد لخص (الفخر الرازي) و(الطبرسي)، آراء العلماء في (الحنيفية) واجملاها في تفسيرهما للآية: (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً، وما كنت من المشركين). فقالا: «وفي الحنيفية أربعة أقوال: أحدها إنها حج البيت، عن ابن عباس والحسن ومجاهد. وثانيها إنها اتباع الحق، عن مجاهد، وثالثها إنها اتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان وغير، ذلك من شرائع الإسلام[3]، والرابع إنها الإخلاص لله وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية»[4].

ترى مما تقدم، وسترى فيما بعد أن أهل الأخبار لم يكونوا على بينة تامة وعلم واضح بأحوال الحنيفية وبآرائها وقواعد أحكامها وأصولها، وأنهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهبنة، ولا سيما رهبنة النصرانية. فأدخلوا فيها من يجب إخراجهم عنها، لأنهم كانوا نصارى على ما يذكره نفس أهل الأخبار

1) اللسان (9/ 56)، «صادر»، القاموس (3/ 130)، تاج العروس (6/ 77 وما بعدها)، (حنف).

2) الطبري، جامع البيان (1/ 564 وما بعدها).

3) الأصنام (6)، «1914م»، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (4/ 109)، «1937م» «مطبعة دار الكتب المصرية»، ابن خلدون (القسم الأول من المجلد الثاني) (ص 707 وما بعدها)، «بيروت 1956م»، الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل (1/ 238 وما بعدها، 251)، تفسير الرازي (8/ 150 وما بعدها).

4) مجمع البيان (1/ 215 وما بعدها)، التفسير الكبير، للفخر الرازي (4/ 89 وما بعدها).

في أثناء تحدثهم عنهم، ومن هؤلاء: قيس بن ساعدة الأيادي وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، فقد نصوا نصاً صريحاً على أنهم كانوا من العرب المتنصرة، ثم نجدهم مع ذلك يدخلونهم في جملة الأحناف.

وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الإسلام. ومنهم من يرى أن اللفظة من أصل إرمي، وقد كانت معروفة عند النصارى، وأخذها الجاهليون منهم، وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب، على أولئك الذين ظهروا في اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمان. وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية، غير أن أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وأنما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين[1].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن اللفظة من أصل عبراني، هو: (تحينوت) tchinoth، أو من (حنف) Hnêt، ومعناه التحنث في العربية، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزّهاد[2]. وقال (نولدكه) إنها من أصل عربي هو (تحنف)، على وزن تبرر، وهي من الكلمات التي لها معانٍ دينية. ويلاحظ أن السريان يطلقون لفظة (حنفه) Hanfa على الصابئة[3]. وقد وردت لفظة (حنف) في النصوص العربية الجنوبية، وردت بمعنى (صبأ)، أي مال وتأثر بشيء ما[4].

أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة. فاللفظة إذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنوبيين.

---

1) Ency., II, p. 259.

2) Abraham I. Katsh., Judaism in Islam, New York, 1954, p. 108, f., J.A. Montgomery, Ascetic Strains in early Judaism, in JBL., Vol., LI, (1932), pp. 183, Tar Andrae, Der Ursprung der Islam und das Christentum, Uppala, 1926, p. 40, Chrales, Lyall, The Ward Hanif and Muslim, in JRAS, 1903, p. 772, Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 45. ff.

3) Ency., II, 259, Barhebraeus, Chronic., p. 176.

4) Rhodokanakis, Stud., II, S. 40.

عندي أن لفظة (حنيف)، هي في الأصل بمعنى (صابئ) أي خارج عن ملة قوم، تارك لعبادتهم. ويؤيد رأيي هذا ما ذهب إليه علماء اللغة، من أنها من الميل عن الشيء وتركه، ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية الجنوبية. وبمعنى (الملحد)، و(المنافق)، و(الكافر) في لغة بني إرم، ومن اطلاق (المسعودي) و(ابن العبري) لهذه اللفظة على (الصابئة). ومن ذهاب (المسعودي) إلى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة. وقد اطلقت على (المنشقين) على عبادة قومهم الخارجين عليها، كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى أتباعه (الصابئ) و(الصباة)، فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه، وخرج على الأصنام. ولهذا نجد الإسلام يطلقها في بادئ الأمر على نابذي عبادة الأصنام، وهم الذين دعاهم بأنهم على (دين إبراهيم). ولما كان التنكر للأصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت مدحاً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً[1].

وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية. فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله، وكيفية تصورهم وعبادتهم له، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسيرون عليها. نعم، إن نفراً منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها، وما أسماؤها. وهل هي التوراة والانجيل؟ ولكن أي توراة وإنجيل؟ التوراة والانجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاء كانوا يرون تحريفاً في الكتابين، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بأيدي الناس، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية إلى دين إبراهيم الحنيف، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة إبراهيم. ولكن ما هي كتب إبراهيم وما هي عبادته؟

---

1) راجع أيضاً: Ency., II, p. 259.

وليس في امكاننا في الوقت الحاضر وضع حد صريح واضح لمفهوم الأحناف و(الدين الحنيف) عند الجاهليين، لما ذكرته من عدم وجود موارد واضحة صريحة عن الأحناف، ولعدم ورود أي شيء عنهم في نصوص جاهلية، ولأن في الكثير من الذي يذكره المفسرون وأهل الأخبار عنهم غموض وإبهام أو صنعة وتكلف، لذلك فليس أمامنا سوى الانصراف إلى البحث عن جمع كل ما ورد عن الحنيفية في الشعر وفي النثر وتنقيته وغربلته لاستخراج المادة الصافية منه التي تفيدنا في الوقوف على تلك الحركة الدينية التي كانت بارزة عند المذكورين قبيل ظهور الإسلام. والوقوف عليها يفيدنا كثيراً ولا شك في فهم الإسلام الذي أثنى على الحنيفية وأرجعها إلى ديانة إبراهيم، وفي فهم اتجاهات الأحناف ودعوتهم التي وجهوها إلى قومهم في نبذ عبادة الأصنام والأحجار والمعبودات المادية الأخرى، والالتجاء إلى عبادة إلهَ أعلى لا يشبه المادة، هو إله واحد لطيف خبير.

والحنفاء، كما يفهم من روايات أهل الأخبار، كانوا طرازاً من النسّاك، نسكوا في الحياة الدنيا، وانصرفوا إلى التعبد للإلهَ الواحد الأحد إلَه إبراهيم وإسماعيل، ساحوا في البلاد على نحو ما يفعله الحجاج الزهاد بحثاً عن الدين الصحيح دين إبراهيم، فوصل زيد بن عمرو بن نفيل إلى الشأم والبلقاء ووقف على اليهودية والنصرانية، فلم يرَ في الديانتيْن ما يريد[1]. ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحثّهم على ترك عبادة الأصنام، لذلك لاقوا منهم غشاً ونصباً شديداً. ومنهم من كان يتأمل في هذا الكون، لذلك تجنب الناس واعتزلهم، والتجأ إلى الكهوف والمغاور البعيدة ابتعاداً عن الناس للتأمل والتفكر، وقد تجنبوا الخمرة والأعمال المنكرة، وقول الفحش، وساروا على مثل الإسلام، وان عاشوا قبل الإسلام، لأن الإسلام دين إبراهيم.

والذي يفهم من القرآن الكريم، هو أن الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام، فلم يكونوا من المشركين، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى، و(مَا كَانَ

1) بلوغ الأرب (2/ 247 وما بعدها)، الطبرسي، مجمع البيان (3/ 110)، (7/ 252)، (11/ 107)، (14/ 137).

إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)[1]، وإن قدوتهم في ذلك إبراهيم. ويلاحظ أن لفظة (مسلم) استعملت في مرادف ومعنى لفظة (الحنيف)، وإن إبراهيم هو أبو وأول المسلمين. وقد وصف الإسلام بأنه دين الله الحنيف، والدين الحنيف، وإن الشريعة الإسلامية، هي الحنيفية السمحة السهلة، وذلك تميزاً لها عن الرهبانية المتعصبة[2].

وقد عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية، وعدّوهم نصارى عرباً زهاداً كيّفوا النصرانية بعض التكييف بهم وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها. وقد استدلوا على ذلك بما ورد من تنصر بعضهم وبما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم ان المراد بهم شيعة من شيع النصرانية[3]. غير أن القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وأنهم ينتمون في عقيدتهم إلى إبراهيم. ثم إن الأخباريين وإن أدخلوا في الأحناف أناساً نصوا على أنهم كانوا نصارى، إلاّ إنهم نصوا في الوقت نفسه نصاً صريحاً على أن البقية الباقية، كانت واقفة، لم تدخل في يهودية ولا نصرانية، إذ وجدت في كل ديانة من الديانتيْن أموراً جعلتها تتريث، فلم تدخل في إحداهما، وبقيت مخلصة لسنّة إبراهيم، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلصاً، أو شيعة من الشيع النصرانية.

وقد كان من الحنفاء نفر من النصارى، أخلصوا نصرانيتهم وماتوا عليها. فهؤلاء هم نصارى من غير شك، ويجب اخراجهم من طائفة الحنفاء، وإدخالهم في النصارى، مثل (بحيرا) الراهب، وأمثاله ممن سأتحدث عنهم فيما بعد.

---

1) آل عمران، الآية 67 وما بعدها، البقرة، الآية 35، آل عمران، الآية 95، النساء، الآية 124، الأنعام، الآية 79، يونس 105.

2) اس سعد (1/ 128)، قال عبد الله بن أنيس:

فقلت له حذها بصرية ماجد   حنيف على دين النبي محمد

3) Reste, S. 238, J.A. Montgomry, Asetic Strains in Early Judaism, JBL., Vol., LI, 1932, Abraham J. Katsch, Judaism n Islam, p. 108.

ويلاحظ أن جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفية، كانوا من القارئين الكاتبين. وكانوا يشترون الكتب ويراجعونها ويتسقطون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات. ولبعض منهم -كما يروي أهل الأخبار- علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية، كما كان لهم علم ووقوف على تيارات الفكر في ذلك الوقت. وقد أضافوا إلى علمهم الذي أخذوه من الكتب، علماً حصلوا عليه من أسفارهم إلى الخارج مثل العراق وبلاد الشأم. ومن اتصالهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهود. فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة من الجاهلين نادت بالإصلاح وبرفع مستوى العقل وبنبذ الأساطير والخرافات وبتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد فيه، وذلك بالدراسات والتأمل وبقراءة الكتب وبالرجوع إلى دين الفطرة، الذي لا يقر عبادة الشرك ولا عبادة الناس.

لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً من النوع الذي نطلق عليهم كلمة (مصلحين) في الوقت الحاضر. من هذا الطراز الذي يريد إصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل. فهم جماعة ضد الأوضاع الاجتماعية السائدة في أيامهم. لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن إدراك الواقع. وقد رأت أن العقل لا يقرّ التقرب إلى أحجار والى التبرك بها والذبح لها، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إمكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها. ومنهم من آمن بدين كالنصرانية، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه، لأن عقله لا يقر التقرب إلى المادة مثل الصليب والصور والتماثيل، ومنهم من أبعدته مثل هذه العبادة عن النصرانية، فصيرته حائراً في أمره من الديانات، يعتقد بإله، ولكنه لم يستقر على دين. عائب على قومه من المشركين ما هم عليه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب إليها.

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر ذكروا أنهم كرهوا عبادة الأوثان وسخفوا أحلام المتعبدين لها، إذ وجدوا أن من الحمق التقرب إلى حجر لا يضر ولا ينفع، وهو جماد، فلما سمع بعضهم بالإسلام أسلموا. ولكنهم لم يدخلوهم في

عداد الأحناف. وقد رأينا أن من أهل الأخبار من جعل (مسيلمة) يدعو إلى عبادة (الرحمن) قبل مبعث النبي. وقد ذكروا ان «عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد» السلمي، كان قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية، رأى أنها باطلة، وأن الناس في ضلال إذ يعبدون الحجارة، والحجارة لا تضر ولا تنفع، فكان حائراً، حتى اهتدى إلى الإسلام[1].

وليس في أيدينا اليوم مورد يفيد بوجود تكتل وتنظيم لمن أطلق الأخباريون عليهم لفظة: (الحنفاء)، تكتل وتنظيم مع مظاهر خارجية وداخلية يميزهم عن غيرهم من أهل الأديان. لذلك، فنحن لا نستطيع أن نقول إن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين، كدين اليهودية أو النصرانية، لها أحكام وشريعة تستمد أحكامها من كتب مُنزلة مقدسة ومن وحي نزل من السماء، على نحو ما نفهمه من الأديان السماوية. لذلك، فانا لا أستطيع إقرار رأي من ذهب إلى أنهم كانوا جماعة دينية منظمة، كرأي المستشرق (شبرنكر)، الذي ذهب إلى هذا المذهب[2].

وجلّ هؤلاء الأحناف، هم من أسر معروفة، وبيوت يظهر أنها كانت مرفهة أو فوق مستوى الوسط بالنسبة إلى تلك الأيام، ولهذا صار في امكانهم الحصول على ثقافة وعلى شراء الكتب، وقد كانت غالية الثمن إذ ذاك، لنيل العلم منها. كما صار في امكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتصاص المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة إلى تلك الأوقات، مثل العراق وبلاد الشأم. وقد اتصلوا كما يزعم أهل الأخبار فعلاً برجال العلم والدين فيها، وتحادثوا معهم وأخذوا الرأي منهم. ومن يدري فلعلهم قرأوا عليهم الكتب وفي جملتها كتب اليونان، أو ترجمات كتبهم بالسريانية، فحصلوا نتيجة لذلك على علم بمقالات اليونان وبآرائهم في الفلسفة والدين والحياة. وقد تكون بعض الآراء المنسوبة إليهم، والتي

---

1) الإصابة (3/ 5 وما بعدها)، رقم (5905)، الاستيعاب (2/ 491 وما بعدها)، حاشية على الإصابة.

2) Sprenger, Das Leben, Bd., I,S. 4, Ency., II, S. 259.

ترجع إلى أصل يوناني، قد قالوها من أخذهم لها من تلك الكتب ومن دراستهم على من اتصلوا بهم من العلماء في أثناء وجودهم في العراق وفي بلاد الشأم.

ونجد في الأخبار أن الرسول كان يعدّ الرهبانية مخالفة للحنيفية، إذ ورد أن أبا عامر بن صيفي -المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح. قدم المدينة ورأى الرسول، وسأله: ما هذا الذي جئت به؟. فقال الرسول: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها، فقال الرسول: لست عليها، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها. وقد سماه الرسول الفاسق. فذهب مغاضباً للرسول كما تقول الروايات، متوجهاً إلى قيصر، ليحمله على توجيه جيش إلى المدينة للقضاء على الإسلام، غير أنه مات وهو في بلاد الشأم[1].

وقد خرج (أبو عامر) واسمه (عيد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان ابن أمة)[2] الراهب أحد (بني ضبيعة) إلى مكة مباعداً لرسول الله، معه خمسون غلاماً من الأوس، منهم (عثمان بن حنيف). «فكان يعد قريشاً أن لو قد لقي محرماً لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما كان يوم أُحد، كان أول من لقي أهل المدينة أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى يا معشرَ الأوس، أنا ابو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية (الراهب) فسمّاه رسول الله الفاسق، فلما سمع ردهم عليه، قاتلهم ثم راضخهم بالحجارة». ثم رجع مع قريش إلى مكة وخرج إلى الروم يوم فتحت مكة فمات بها سنة تسع، ويقال سنة عشر. وأعطى (هرقل) ميراثه لكنانة بن عبد ياليل الثقفي[3]، وكان قد اختصم مع علقمة بن علاثة في ميراثه، فدفع هرقل ميراثه لكنانة قائلاً لعلقمة: هما من أهل المدر وأنت من أهل الوبر.

1) مجمع البيان (9/ 64 وما بعدها)، (3/ 500)، (طبعة طهران).

2) تأريخ الطبري (2/ 512)، (معركة أحد)، المحبر (470)، سيرة ابن هشام (2/ 129)، (حاشية على الروض)، أبو عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، الأوسي، الإصابة (1/ 360)، (رقم 1863)، مروج الذهب (1/ 88)، (دار الأندلس).

3) الإصابة (1/ 360)، (رقم 1863).

وكان له ولد اسمه (حنظلة) أسلم، واستأذن رسول الله ﷺ في قتل أبيه، فنهاه عن ذلك. فلما كان يوم أحد شهده، وألتقى هو وأبو سفيان، فلما استعلى حنظلة رآه (شداد بن شعوب) فعلاه بالسيف حتى قتله، وقد كاد يقتل أبا سفيان. فقال النبي: «إن صاحبكم تغسله الملائكة»[1]، فعرف بـ(غسيل الملائكة)[2]. فكان الابن مع المسلمين في هذا اليوم، وكان الأب مع المشركين.

وروي أنه كان يتزهد في الجاهلية، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشأم وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار، واتى قيصر فاستنجده على النبي[3] وروي أنه هو الذي حزب الأحزاب لقتال الرسول: فلما خذل لحق بالروم يطلب النصر منهم، وقال لأناس من الأنصار ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، وكان قد خرج معه كنانة بن عبد ياليل الثقفي وعلقمة بن علاثة. فأما علقمة وابن ياليل (ابن بالين)، فرجعا فبايعا النبي وأسلما، وأما (أبو عامر) فتنصر وأقام[4].

ويظهر أن (أبا عامر الراهب)، كان قد وضع مع جماعة من الأنصار الحاقدين على الرسول وعلى المهاجرين الذين صاروا يزاحمونهم في أعمالهم، واستحوذوا على التجارة واستغلوا أرض يثرب فقام قوم منهم بزراعتها، خطة لعمل مكيدة يخرجون بها الرسول من المدينة، يساعدهم في ذلك الروم. غير أنها لم تنجح، وهدم المسجد، الذي تواعدوا على أن يكون موضع التآمر وملتقى الحاقدين على الرسول، وقضي على المؤامرة، وبقي (أبو عامر) عند الروم. فلما مات عاد (كنانة بن عبد يا ليل) الثقفي، وكان رئيس ثقيف في زمانه، وكان يقول: «لا يرثني رجل من قريش»، مما يدل على أنه كان من الكارهين لقريش المتحاملين عليها وعلى الإسلام، ففر إلى (نجران) ثم توجه إلى الروم. فلما مات (أبو عامر)

---

1) الاستيعاب (279/1 وما بعدها)، (حاشية على الإصابة).
2) الإصابة (1/ 360)، (رقم 1863)، الاستيعاب (1/ 279 وما بعدها)، (حاشية على الإصابة).
3) تفسير النيسابوري (9/ 76)، (حاشية على تفسير الطبري)، روح المعاني (9/ 111).
4) تفسير الطبري (11/ 17 وما بعدها)، تفسير القرطبي (7/ 320)، (8/ 253 وما بعدها).

عاد فأسلم[1]. وعاد (علقمة) أيضاً. وهناك روايات أخرى، تذكر أنه ارتد في أيام (عمر)، والتحق بالروم، ثم عاد إلى الإسلام[2].

ولاشتهار أبي عامر بالراهب، ولما ورد في بعض الأخبار من أنه كان حنيفاً، ذهب (ولهوزن) إلى أن الأحناف هم من النصارى، وأن حركتهم حركة نصرانية، وأنهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والإسلام[3]. غير أن ما لدينا من معارف عن الأحناف، لا يكفي لإبداء رأي كهذا الرأي، وللتسليم بمثل هذا القول ينبغي لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً ومقارنة ما لدينا بما نعرفه من النصرانية لنتمكن من التوصل إلى رأي علمي في هذا الشأن.

وفي بيت منسوب إلى أمية إشارة إلى الحنيفية، ذكر فيه أن كل دين زور عند الله إلاّ دين الحنيفية. وقد رأينا أن أهل الأخبار يدخلون أمية في جملة الحنفاء، ويقولون: إنه لبس المسوح تعبداً، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل وحرم الخمر[4]. ويلاحظ أن الأخباريين ينسبون إلى عدد من هؤلاء الأحناف لبس المسوح، مما يشير إلى أنهم كانوا قد تأثروا بالرهبان المتقشفين وبالزهاد النصارى الناسكين، فأخذوا عنهم هذه، الطريقة التي أشير إليها في القرآن الكريم وفي الحديث، والتي عدّت من البدع الممقوتة في الإسلام.

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا أن الأحناف قالوه، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السجع، أوردوه بنصه على ما ذكروه. غير أن من الصعب تصور صدور ذلك الكلام المنمق من أناس عاشوا قبل الإسلام، ومحافظة الناس عليه محافظة تامة إلى ما بعد الإسلام. ويظهر على كل حال من دراسة روايات أهل الأخبار عن الكهان والأحناف أن كلام رجال الدين قبل الإسلام كان على

1) الإصابة (3/ 305)، (رقم 7532).
2) الإصابة (2/ 496)، (5677).

3) Wellhausen, Reste, S. 239, f.

4) كل دين يو القيامة عند اللـ ـه إلاّ دين الحنيفة زور
الأغاني (4/ 122)، «طبعة دار الكتب المصرية».

هذا النمط من السجع، ومن جمل مكررة معادة عامة. وقد ظل السجع الطريقة المحببة في الكتابة إلى أيامنا هذه عند بعض الكتّاب.

ويفهم من كلام الرواة أن بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل، أي على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة إبراهيم[1]. والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر، فخلطوا في بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد.

ولدينا أمثلة أخرى على هذا الوهم. وسنرى من تراجم عدد من الاحناف أن منهم من يجب إدخاله في عداد النصارى، لا الأحناف. وقد نص أهل الاخبار أنفسهم على تنصرهم، غير أنهم أدخلوهم مع ذلك في جملة الأحناف حين تكلموا عنهم. فكأنهم عنوا بالأحناف من كان على حياة الرهبنة والتقشف.

وقد أدخل (المسعودي) بعض الاحناف في جماعة أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد، ومن أهل التوحيد، من يقر بالبعث ثم قال: «وقد اختلف الناس فيهم، فمن الناس من رأى أنهم أنبياء، ومنهم من رأى غير ذلك»[2].

وقد ذكر من بينهم (حنظلة بن صفوان)، و(خالد بن سنان العبسى)، و(رئاب الشنى)، و(أسعد أبو كرب الحميري)، و(قس بن ساعدة الإيادي)، و(أمية بن أبي السلط الثقفي)، و(ورقة بن نوفل)، و(عداس) مولى (عتيبة بن ربيعة الثقفي)، و(أبو قيس) (صرمة بن أبي أنس) الأنصاري، و(أبو عامر الأوسي)، و(عبد الله بن جحش الأسدي)، و(بحيرا الراهب)[3]. ومن هؤلاء من كان على النصرانية، وقد نص (المسعودي) نفسه على ذلك.

---

1) بلوغ الأرب (2/ 270).
2) مروج (1/ 78)، (دار الأندلس).
3) مروج (1/ 78 وما بعدها).

والـذين ذكـر الـرواة أسمـاءهم مـن الحنفـاء هـم أنـاس عاشـوا في الجاهليـة المتصلة بالإسـلام، ومـنهم مـن أدرك الرسـول، ولا عـبرة بـالطبع لما زعمـه الأخبـاريون من طول عمر أولئك الأشخاص وبلوغ بعضهم مئين عدة من السنين، وإدخالهم في المعمـرين[1]، فـإن مـن عـادة الأخبـاريين إطالـة عمـر هـؤلاء وأمثـالهم مـن الرجـال البـارزين الظـاهرين، ليكون ذلك مناسباً لما يجـيء في أخبـارهم مـن الحكـم المنسـوبة إليهم، وهي فكرة عامة نجدها عنـد غير العـرب أيضاً، ولـذلك نجـد صـور الحكمـاء والفلاسفة الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورأس جلله الشيب أو قضى على شعره الزمن والتفكير، فصَلِع، لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير.

وعندي أن الحنفاء جماعة سخرت مـن عبـادة الأصـنام، وثـارت عليهـا وعلـى المُثل الأخلاقية التي كانت سائدة في ذلـك الـزمن، ودعـت إلى إصـلاحات واسـعة في الحياة وإلى محاربة الأمراض الاجتماعية العديـدة الـتي كانـت متفشـية في ذلـك العهد، دعاها إلى ذلك ما رأته في قومهـا مـن إغـراق في عبـادة الأصـنام ومـن إسـفاف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة، فرفعت صوتها كما يرفـع المصلحون صـوتهم في كـل زمـن ينـادون بالإصـلاح، وقـد أثـارت دعـوتهم هـذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الأوثان شأن كل دعوة إصلاحية. ويجـوز أن يكون من بين هؤلاء من مـال إلى النصـرانية، غير أننـا لا نسـتطيع أن نقـول إنهـم كانوا نصارى أو يهـوداً، إنمـا أسـتطيع أن أشبـه دعـوة هـؤلاء بـدعوة الـذين دعـوا إلى عبادة الإلـه رب السـماء (ذو سمـوى) أو عبـادة الـرحمن في الـيمن، متـأثرين بمبـادئ التوحيد التي حملتها اليهودية والنصـرانية إلى الـيمن. ولكنهم لم يكونـوا أنفسـهم يهوداً أو نصارى، إنما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد.

ولا يعني قولي هذا أن الحنفاء كانوا على رأي واحد وديـن واحـد كالـذي يفهم مثلاً من قولنـا يهـودي ونصـراني ويهـود ونصـارى، بمعنـى أنهـم كـانوا طائفـة معينة تسير على شريعة ثابتـة كالـذي ذهـب (شبرنكر) إليـه[2]. إنمـا كـان أولئـك

---

1) جعل السجستاني عمر قس بن ساعدة الإيادي، وهو من الحنفاء، ثمانين وثلاث مئة سنة، بلوغ الأرب (2/ 246).

2) Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4.

الأحناف نفراً من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة، إنما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الأصنام وفي الدعوة إلى الإصلاح. وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت إلى الحنفاء.

والرجال الذين قال أهل الاخبار عنهم إنهم كانوا على دين، وكانوا من الأحناف، هم: قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نُفيل، وأميّة بن أبي الصلت: وارياب بن رئاب، وسويد بن عامر المصطلقي، وأسعد ابو كرب الحميري، ووكيع بن زهير الإيادي، وعمير بن جندب الجُهني، وعدي بن زيد العبادي، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وسيف بن ذي يزن، وورقة بن نوفل القرشي، وعامر بن الظرب العدواني، وعبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمي، والملتمس بن أمية الكناني، وزهير بن أبي سُلمى، وخالد بن سنان العَبْسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد بن الأبرص الاسدي، وكعب بن لؤي بن غالب[1].

وبعض هؤلاء مثل: (قس بن ساعسة الإيادي) و(عثمان بن الحويرث) و(عسي بن زيد العبادي) نصارى، وبعض منهم مثل (أسعد ابو كرب الحميري)، (أبو كرب أسعد الحميري)[2] و(عبيد بن الأبرص)، و(زهير بن أبي سلمى)، مشكوك في أمرهم، لا نستطيع أن نذكر شيئاً عن دينهم. ولهذا فأنا أذكرهم هنا بحذرٍ، مجاراة لمن أدخلهم في أهل الدين من الجاهلين. ولا أعني أنهم كانوا على الحنيفية، أي على شريعة التوحيد التي ينص عليها أهل الأخبار.

وقد اقتصر (محمد بن حبيب) على ذكر بعض من تقدم، حين تكلم عن (أسماء الذين رفضوا عبادة الأصنام)، فذكرهم على هذا النحو: عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعبيد الله بن جحش بن رئاب

1) بلوغ الأرب (2/ 244 وما بعدها)، مروح الذهب (1/ 78)، (دار الأندلس).
2) بلوغ الأرب (2/ 244)، مروج (1/ 52 وما بعدها).

الأسدي. وذكر أن منهم من تنصر ومات على النصرانية، مثل: عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش بن رئاب الأسدي[1].

فأما قُس بن ساعدة الإيادي، فقد رفعه الأخباريون من مصاف أسوياء البشر، ووضعوه في صف المعمرين الذين عاشوا مئين من السنين قيل سبع مئة سنة، وقيل ست مئة سنة، أو أقل من ذلك بكثير، غير أنه لا يقل عن ثلاث مئة سنة على كل حال[2].

وأما موته، فمجهول. وأما وفاته، فيكاد يحصل الاتفاق على أنه كان قبيل البعثة. وقد ورد في رواية أن الرسول أدركه ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة، غير أنه لم يحفظها، وأن أبا بكر، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة، كان قد حفظها، فأعادها على الرسول. وهي الخطبة الشهيرة المتداولة بين الناس والمحفوظة في الكتب. وهناك رواية تذكر أن الرسول كان حفظها، وقد تلاها على من حضر عنده، وتلا بعضاً منها على وفد عبد القيس[3].

ومما يلفت النظر في الروايات الواردة عن حفظ الرسول لخطبة (قس)، هو إشارتها إلى أن النبي كان يحفظ نص الخطبة، ولم يكن يحفظ الشعر الملحق بها. مع أن حفظ الشعر أيسر من النثر. ولعل الرواة رووا ذلك لإظهار أن الرسول كان

---

1) المحبر (171 وما بعدها).

2) وقيل: قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر، وقيل: حذافة بن زهير بن برار. وقيل قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن أيدعان بن النمر الخ... وقيل: هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك، وهكذا، بلوغ الأرب (2/ 246)، البيان والتبيين (1/ 50) «طبعة السندوبي»، (1926)، شعراء النصرانية (2/ 211)، «قس بن ساعدة الأيادي بن عمرو بن عدي بن مالك بن أبدطان «ايدعان» بن النمر بن وائلة بن الطمثان بن عوذ بن مناة بن يقدم بن أفصى» المحبر (ص 136)، الأغاني (14/ 40)، البداية والنهاية، لابن كثير (2/ 230)، الميداني، مجمع الأمثال (1/ 117).

3) وفي نصها بعض الاختلاف، راجع:

الإصابة (5/ 285): «وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رجل منهم: هل تعرف قس بن ساعدة؟ فقال رسول الله: ليس هو منكم. هذا رجل من إياد، تحنف في الجاهلية، فوافى عكاظ والناس مجتمعون، فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه»، طبقات ابن سعد: الجزء الأول: القسم الثاني (ص 55)، «وفد بكر بن وائل»، محاضر الأبرار (ص 48 وما بعدها)، البداية والنهاية (2/ 230).

لا يقول الشعر، وإنما كان يسمعه. ولكننا نجدهم من ناحية أخرى يروون أنه كان يتلو من الشعر المناسب ما شاء أن يتلو، وأنه كان يستشهد به في كلامه، وأنه كان يحفظ شيئاً من شعر الماضين والحاضرين. ولن يضير النبوة من حفظ الشعر شيئاً.

والنص المحفوظ لخطبة (قس) نص مختلف لم يتفق الرواة عليه. مما يدل على أنه لم يكن مدوناً، وإنما روي بروايات مختلفة، ثم دونت فيما بعد.

وأوصل بعض الأخباريين قساً إلى القيصر، فزعموا أنه ذهب إليه واتصل به، وأن القيصر أكرمه وعظمه. وأنه سأله عن العلم قائلاً له: ما أفضل العلم؟ قال: معرفة الرجل بنفسه. قال: فما أفضل العقل؟ قال: وقوف المرء عند علمه. قال: فما افضل الأدب؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه. قال: فما أفضل المروءة؟ قال: قلة رغبة المرء في إخلاف وعده. قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قضى به الحق[1]. وهو كلام ينبئك أسلوبه وطبيعته عن أصله وفصله، وله أصل يرجع إلى الفلاسفة اليونان. ونسبوا له قبراً جعلوه في موضع (رَوْحين) على مقربة من حلب في لحف جبل ينشر له[2].

ونجد حديث قيصر المزعوم مع (قس)، في رواية أخرى على شكل آخر. وقد أهملت هذه الرواية اسم قيصر فلم تشر إليه، واكتفت بلفظة (قيل)، فقالت: «قيل لقس بن ساعدة: ما أفضل المعرفة قال: معرفة الرجل بنفسه. قيل له: فما أفضل العلم قال: وقوف المرء عند علمه! قيل له: فما أفضل المروءة؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه»[3].

وقسُ هو مخترع أوجد للعرب أشياء عديدة على زعم أهل الأخبار، أحدث لهم أموراً كثيرة. فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ عند

---

1) شعراء النصرانية (2/ 211)، الأمالي، للقالي (3/ 37)، «دار الكتب»، العقد العريد (2/ 254 وما بعدها)، 290 وما بعدها).

2) شعراء النصرانية (2/ 216)، الأغاني (14/ 40 وما بعدها).

3) العقد الفريد (2/ 290 وما بعدها).

خطبته على سيف أو عصا وأول من علا على شرف وخطب عليه، وأول من قال: «أما بعد»، وأول من كتب «إلى فلان بن فلان»[1]. وأول من قال: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر»، فكل ما عرفه العرب من هذه الأمور، هو من صنعة قس وعمله. ثم أنه كان أحد حكماء العرب، وكان أسقف نجران، وخطيب العرب كافة[2]. وذكروا أن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب، لأن الرسول روى كلامه وموقفه على جمله الأورق بعكاظ وموعظته، وعجب من حسن كلامه، وأظهر تصويبه[3]، وأنه قال فيه: «يحشر أمة وحده»[4].

وجاء في رواية في تفسير قول الرسول: «يحشر أمة وحده»، أو «يرحم الله قساً، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة واحدة»، إن وفداً من إياد قدم على النبي: فسألهم عن قس، فقالوا: هلك. فقال: رحمه الله، كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق (أحمر) وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أوجدني أحفظه. فقال رجل من القوم، أنا أحفظه يا رسول الله. سمعته يقول: ايها الناس اسمعوا وعوا... إلى آخر الخطبة، وما جاء بعدها من شعر، فقال رسول الله عندئذ قوله المذكور فيه[5].

ويختلف هذا الخبر بعين الاختلاف مع خبر آخر أشرت إليه قبل قليل، فقد ورد في ذلك الخبر أن رسول الله كان. يحفظ تلك الخطبة، غير أنه لم يكن يحفظ الأبيات الملحقة بها، وكان (أبو بكر) يحفظها، فأعادها على مسامعه[6].

---

1) المؤتلف والمختلف، للمرزباني (338)، بلوغ الأرب (2/ 246)، الأغاني (14/ 40 وما بعدها)، مروج الذهب (1/ 82)، (2/ 102)، (دار الأندلس)، البداية والنهاية (2/ 230 وما بعدها).

2) اللسان (8/ 58)، شعراء النصرانية (2/ 211).

3) بلوغ الأرب (2/ 246).

4) الأغاني (14/ 40).

5) الأغاني (14/ 40 وما بعدها)، المعارف (61)، البداية والنهاية (2/ 230 وما بعدها).

6) البداية والنهاية (2/ 230 وما بعدها)، مجمع الأمثال، للميداني (1/ 117).

كما يختلف عن رواية أخرى، جاء فيها أن الوفد الذي قدم على الرسول كان وفد (عبد القيس)، وأن الذي قرأ الشعر عليه هو أحد بني عبد القيس[1].

ويذكر بعض أهل الأخبار، أن (الجارود)، وكان في ضمن رجال وفد (عبد القيس)، قال للرسول حين سأل عن (قس): «فداك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره، واقف على أمره. كان قس يا رسول الله سبطاً من أسباط العمر عمّر ستمائة سنة، تقفر منها نفسه خمسة أعمار في البراري والقفار». ثم أخذ في وصفه وفي ذكر عقائده، وفي لقياه لـ (سمعان) رأس الحواريين. وخلص بعد ذلك إلى ذكر نص خطبته بسوق عكاظ، ومطلعها: «شرق وغرب»، حتى انتهى منها، ثم ألحق بها شعراً[2]. وهي خطبة تختلف تماماً عن الخطبة المعروفة التي تنسب إليه، وإن كانت على نمطها من حيث الأسلوب والأفكار، وفيها مصطلحات اسلامية ترد في القرآن الكريم. ولا أستبعد أن تكون من وضع شخص آخر غير الجارود. وضعها في العصور العباسية، للحث على الزهد.

والجارود من سادات عبد القيس، وكان نصرانياً، قدم على النبي سنة عشر في وفد عبد القيس الأخير، وسرّ الرسول بإسلامه، وكان حسن الإسلام صلباً على دينه، وقتل بأرض فارس في خلافة عمر، وقيل بقي إلى خلافة عثمان[3].

ولو صح ما ذكروه من أنه كان أسقفاً على نجران، لوجب اخراجه إذن من الحنيفية وإدخاله في عداد النصارى. ولكن ليس مؤكداً أنه كان اسقفاً على ذلك الموضع، ويرى الأب (لامانس) احتمال كونه نصرانياً، لان ما نسب إليه يبعث على هذا الظن[4]. وقد أدخل الاب (لويس شيخو) قساً في جملة النصارى

1) البداية والنهاية (2/ 230 وما بعدها).
2) البداية والنهاية (2/ 230 وما بعدها).
3) الإصابة (1/ 217 وما بعدها)، (رقم 1042).
4) Ency., II, p. 1161, Sprenger, Leben, I, S. 45.

الجاهليين، وأورد أكثر ما نسب إليه في ترجمته[1]. غير أن كثيراً من هذا المنسوب اليه منسوب إلى غيره. وقد إشار إلى من نسب اليهم العلماء.

وذهب (شبرنكر) إلى أن قساً كان من (الركوسية)، وهم فرقة عرفهم أهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين، شملت جماعة من الحائرين في أمر دينهم، ولذلك عمدوا إلى السياحة والترفع والأنزواء[2]. وقد حسبهم العرب نصارى، فأدخلوهم فيهم في أثناء كلامهم على هؤلاء[3].

ويرى (لامانس) أنه لو كان قس شخصية تاريخية حقاً، فإن زمانه لا يمكن ان يكون في أيام الرسول أو في أيام مقاربة من آيامه. إذ لا يعقل عنده أن يتكون هذا القصص الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافية، لو كان من المعاصرين أو المقاربين له. ثم إن ايادا لم تكن في أيام الرسول كتلة واحدة، حتى ينسب قس إليها. فلا بد إذن ان تكون أيام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن أيام الرسول[4].

غير أن حجج (لامانس) المذكورة لا يمكن أن تكون سنداً يؤيد ادعاءه في أن قساً كان شخصية خرافية، أو أنه كان رجلاً حقاً، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول. فقد روى الأخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غير سلمان من الصحابة، لا يقل نسيجاً عن نسيج قصص قس، فهل يتخذ هذا القصص حجة لإنكار شخصية سلمان وغيره ممن ورد هذا القصص عنهم؟ وهل يجوز أن نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب ان تكون أيامه بعيدة عن ايام الرسول.

---

1) شعراء النصرانية (2/ 211 وما بعدها).

2) تاج العروس (4/ 163).

3) Sprenger, Leben, I, S. 43.

4) Ency., II, p. 1161.

ولدى الرواة أبيات ينسبونها إلى بعض الشعراء الجاهليين، هم: الأعشى، والحطيأة، ولبيد، ذكر فيها اسم قُسّ. وقد أشيد فيها بفصاحته وبلاغته وحكمته، حتى جعل لبيد لقمان دون قس في الحكم[1].

وورد اسم (قس) في هذا الشعر وفي أمثاله إن صح إنه من شعر الجاهليين حقاً، وورود اسمه في الحديث وفي الأخبار، هو تعبير عن رأي أهل الجاهلية في خطيب مفوه عدّ في نظرهم المثل الأعلى في الخطابة وممثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء عند اللاتين.

وجميع هذا القصص المروي عن قس، هو من النوع الذي يحتاج إلى تمحيص. وقد نسبوا إليه شعراً، زعموا أنه قاله وهو يبكي بين قبرين بنى بينهما مسجداً، هما قبرا أخويه، على حين أن أكثر الرواة يقولون إن هذا الشعر لغيره، وإن قصة القبرين لا تخص قساً، بل تخص أناساً آخرين، وقد كانا في إيران وأصحابهما قبرا فيهما في الإسلام. ورواة هذا الخبر، هم رواة خطبة قس الشهيرة، وهم محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح ابن عباس وجماعة آخرون أشار (ابن حجر) إلى بعضهم في كتابه: «الإصابة في تمييز الصحابة»، وقد ضعف ابن حجر هذه الطرق، فقال: «وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس، وفيه شعره وخطبته، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها. وطرقه كلها ضعيفة»[2]. ثم عرج بعد ذلك إلى ذكر بعض الطرق التي وردت فيها خطبة قس.

---

1) قال لبيد:

وأخلف قساً ليتني ولعلني　　وأعيا على لقمان حكم التدبر

الإصابة (5/ 285)، «قس»، قال الأعشى:

وأحلم من قس وأجرى من الذي　　بذي الغيل من خفان أصبح حاردا

وفي رواية أخرى:

وأحلم من قيس وأجرء مقدما　　لذي الدرع من ليث إذا راح حاردا

ديوان الأعشى (ص 49)، «تحقيق R. Geyer»، المؤتلف والمختلف (ص 338)، وقال الحطيأة:

وأقول من قس وأمضى إذا مضى　　من الرمح إذ مس النفوس نكالها

المؤتلف والمختلف (ص 338).

2) الأغاني (14/ 40 وما بعدها)، الإصابة (5/ 286).

واما (زيد بن عمرو بن نفُيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر)، فهو من قريش من بني عدي، لم تعجبه عبادة قومه، فانتقدها وسخفها وهزىء منها ووقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فأعتزل الأوثان، ونهى عن قتل الموؤودة، وامتنع من الذبح للأنصاب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام. فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش، منهم: ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش، لاموا قومهم على عبادتهم الأصنام، واتخاذ الأنصاب وعبادة ما لا يضر ولا ينفع[1]. وهم طائفة من المفكرين، رأى بعضهم بلاد الشأم، واتصل ببعض المبشرين النصارى، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج، ولعله كان يقرأ ويكتب، وله اطلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين.

وترجع احدى الروايات سبب خروج (زيد) على عبادة قومه، أنه حضر يوماً وحضر معه في ذلك اليوم (ورقة بن نوفل)، و(عبد الله بن جحش) و(عثمان بن الحويرث)، عيداً من أعياد قريش، عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه، ويعكفون عنده، أو يديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، وكانوا ينحرون له، فلما خلد بعضهم إلى بعض وتصادقوا، قالوا ليكتم بعضكم على بعض، واتفقوا على ذلك، ثم قال قائلهم: «تعلمون والله ما قولكم على شيء، لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه. ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء. فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب»[2].

وقد زار زيد الشأم والبلقاء، وعاش إلى خمس سنين قبل البعث، فهو من أولئك الرهط الثائرين على قومهم، والذين أدركوا أيام الرسول. وقد نسبوا إليه شعراً في تسفيه عبادة قومه، وفي فراقه دينهم وما لقيه منهم. وكان قد أوذي

1) ابن هشام (1/ 244 وما بعدها)، إرشاد الساري (6/ 190)، أسد الغابة (2/ 236)، طبقات الشعراء (ص 66)، «طبعة ليدن»، البداية والنهاية (2/ 237)، ابن خلدون، القسم الأول، المجلد الثاني (ص 707)، المسعودي، مروج (1/ 70)، «محمد محيي الدين عبد الحميدي» الأغاني (3/ 113)، البخاري (5/ 50)، المعارف (27).

2) البداية (2/ 238)، ابن هشام، سيرة (1/ 242).

لمقالته هذه في دين قومه، حتى أكره على ترك مكة والنزول بـ (حراء)، وكان (الخطّاب بن نفيل) عمه، وقد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفائهم كلفهم ألاّ يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعه من الإتصال بأهلها، مخافة أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراق ما هم عليه. واضطر زيد إلى المعيشة في هذا المحل، معتزلاً قومه، إلاّ فترات، كان يهرب خلالها سراً، ليذهب إلى موطنه ومسكنه، فكانوا اذا أحسوا بوجوده هناك، آلموه وآذوه[1].

وورد في رواية، يرجع رواتها سندها إلى (هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل)، أي إلى حفيد (زيد)، تذكر أن (زيد) خرج مع (ورقة بن نوفل) يلتمسان الدين، حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فسأله عن الدين، فلم يقتنع بالنصرانية، أما (ورقة)، فاقتنع بها وتنصر[2]. وتذكر رواية أخرى أن (زيد بن عمرو) خرج إلى الشأم ومعه: (ورقة بن نوفل)، و(عثمان بن الحويرث)، و(عبيد الله بن جحش)[3]. ويذكر الرواة أن زيداً كان نديماً لورقة بن نوفل، فمات ورقة، وخرج زيد إلى الشأم، فقتله لخم وجذام[4].

ويذكر أهل الأخبار أن حرصه على الحنيفية وتمسكه الشديد بها، حمله على السفر إلى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة، مبادئ إبراهيم الأصيلة الخالية من كل درن وشائبة. فذهب إلى الموصل والجزيرة، ثم طاف في بلاد الشأم حتى انتهى إلى راهب بـ (ميفعة)[5] (ببيعة)[6] من أرض البلقاء أو (أيلة)، فسأله عما قدم من أجله، فأرشده إلى أن ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية، فغادره وتركه، وعاد يريد مكة موطنه. فلما توسط بلاد لخم أو جذام، عدوا عليه وقتلوه. وقالوا أيضاً إنه التقى في أثناء أسفاره هذه بأحبار اليهود وبعلماء من

---

1) ابن هشام (1/ 240 وما بعدها) (البابي)، بلوغ الأرب (2/ 251 وما بعدها)، ابن سعد، الطبقات (1/ 162)، «طبعة دار صادر»، مروج الذهب (1/ 70).

2) البداية (2/ 238).

3) البداية (2/ 243).

4) المحبر (175).

5) ابن هشام (1/ 249).

6) «ببيعة»، البداية (2/ 238).

النصارى، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه، وما يرى فيه التوحيد الخالص، ومبادىء إبراهيم، لذلك لم يدخل في ديانة ما من تلك الديانتيْن، حتى قتل[1].

وتذكر رواية من الروايات، أن (زيد بن عمرو بن نفيل) مات بالسمّ في بلاد الشأم، سمّه بعض ملوك غسان[2]. وتجعل رواية أخرى مقتله بمكان يقال له (ميفعة) من أرض البلقاء بالشأم، وتذكر أن قتلته هم من بني لخم[3]. وتذكر رواية أن (ورقة بن نوفل)، لما سمع بخبر وفاته بكاه في شعر له[4].

وهناك روايات أخرى تفيد رجوع زيد إلى قومه بعد عودته من الشأم، ووفاته وفاة طبيعية لا قتلا بيد إنسان. «توفي وقريش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله بخمس سنين»، ودفن بأصل حراء[5].

وفي رواية تظهر عليها سيماء الصنعة، أن الذي أرشد (زيد بن عمرو) إلى الحنيفية، حبر التقى به في بلاد الشأم، وعالم نصراني، وذلك أنه كان قد سألهما عن دين صحيح قويم، فأرشداه إلى الحنيفية دين إبراهيم. فدخل فيها وصار يرفع يديه إلى الله ويقول: اللهم إني أشهدك أنني على دين إبراهيم[6]. ونجد في هذه الرواية أسئلة وجهها (زيد) إلى الحبر في البحث عن الله وعن دينه الحق، وأجوبة الحبر عليها. كما نجد أسئلة أخرى ذكر أنه وجهها إلى العالم النصراني، وفي أجوبة ذلك العالم عليها. وكيف أنهما دلاه على الحنيفية[7].

---

1) ابن هشام (1/ 249 وما بعدها)، طبقات ابن سعد :الجزء الثالث: القسم الأول (ص 276 وما بعدها)، بلوغ الأرب (2/ 251 وما بعدها)، «فلما توسط جذام عدوا عليه فقتلوه» المحبر (ص 172)، سير أعلام النبلاء، للذهبي (1/ 90 وما بعدها)، ابن خلدون (2/ 707 وما بعدها)، المسعودي، مروج (1/ 70)، إرشاد الساري (6/ 172 وما بعدها).

2) المسعودي، مروج (56/2).

3) البداية (2/ 241).

4) ابن هشام (1/ 249 وما بعدها).

5) طبقات ابن سعد: الجزء الثالث: القسم الأول (ص 277)، البداية (2/ 241).

6) الطبري، تفسير (3/ 306)، صحيح البخاري (5/ 50)، «مطبعة الأزهر بمصر».

7) الأغاني (3/ 126 وما بعدها) «دار الكتب المصرية»، البداية (2/ 238).

وذكر (ابن حبيب) أن زيداً «أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان»[1]. وقال عنه (ابن دريد)، وكان قد «ترك دين العرب في الجاهلية وقلاه»[2]. وقصد بـ (دين العرب) الوثنية ولا شك. وزعم أنه «كان يحيي الموؤودة. يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته مهلاً: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها اليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها»[3]. وقيل إنه كان يقول: «اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك سجدت إليه. ولكني لا أعلمه. ثم يسجد على راحته»[4]. وإنه كان «يقول: إلهي إلَه إبراهيم، وديني دين إبراهيم. وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماءً وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى! إنكاراً لذلك واعظاماً له»[5]. أو «يا معشر قريش: أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحوها لغيره! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيري»[6]. ويستقبل القبلة ثم يقول:

أنفي لرب البيت عانٍ راغم ... مهما يُجشّمني فإني جاشم

عذت بما عاذ به إبراهيم ... مستقبل القبلة وهو قائم[7]

وروي أن أسماء بنت أبي بكر «قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه

---

1) المحبر (ص 171).

2) الاشتقاق (ص 103).

3) طبقات ابن سعد، الجزء الثالث: القسم الأول (ص 276 وما بعدها).

4) المحبر (ص 171).

5) أسد الغابة (1/ 236)، طبقات الشعراء (66)، «طبعة ليدن»، بلوغ الأرب (2/ 248)، البداية والنهاية (2/ 237)، إرشارد الساري (6/ 171 وما بعدها).

6) الأغاني (3/ 119 وما بعدها).

7) كتاب نسب قريش، للزبير (ص 364).

إليك عبدتك به. ولكني لا أعلم. ثم يسجد على راحته»[1]. ثم يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم[2].

وذكر (ابن دريد) أن (زيد بن عمرو بن نفيل)، أدرك أيام الرسول، ثم قال: «وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الوحي قد حبب إليه الأنفراد، فكان يخلو في شعاب مكة، قال: فرأيت زيد بن عمرو بن نفيل في بعضى المشاعب، وكان قد تفرّد أيضاً، فجلست إليه وقربت إليه طعاماً فيه لحم، فقال لي يا ابن أخي إني لا آكل من هذه الذبائح»[3].

وذكر (ابن دريد)، أن زيد بن عمرو قال شعراً في تجنبه الأصنام، هو:

فلا عُزى أدين ولا ابنتيها	ولا صنمي بني عمرو أزور
أربّاً واحداً أم ألف ربّ	أدين اذا تقسمت الأمور[4]

ويفهم من هذا الشعر أن (عزى)، إلهة، أي أنثى، وأن لها ابنتين اثنتين، ولم يشر (ابن دريد) إلى اسميهما.

وقد صيغت الرواية المتقدمة التي تشير إلى التقاء الرسول بزيد في شكل آخر. صيغت بهذه الصورة: «أتى زيد بن عمرو بن نفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه زيد بن حارثة، وهما يأكلان من سُفرة لهما، فدعواه لطعامهما، فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي: أنا لا آكل مما ذبح على النصب»[5].

---

1) البداية (2/ 237)، الذهبي، تأريخ الإسلام (1/ 54)، البغدادي، خزانة (3/ 99).

2) المصدر نفسه.

3) الاشتقاق (84)، إرشاد الساري (6/ 171 وما بعدها).

4) الاشتقاق (84)، وورد:

أرباً واحداً أم ألف رب	أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللاّت والعزى جميعاً	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها	ولا صنمي بني عمرو أزور

5) البداية (2/ 238، 240).

وورد خبر التقاء (زيد) مع رسول الله ﷺ في رواية اخرى. يرجع رواتها سندها إلى (زيد بن حارثة). يذكرون أنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في يوم حار من أيام مكة، وهو مردفي، فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل، فحيا كل منا صاحبه. فقال النبي: يا زيد مالي أرى قومك قد شنقوك؟ فأجابه زيد، بأنه لا يهتم بذلك، وأنه خرج يبتغي دين الله، حتى قدم على أحبار خيبر، فوجدهم يعبدون الله ويشركون به. ثم سأل أحد الأحبار، وهو شيخ منهم عن الدين الذي يبتغيه، فقال له: ما نعلم أحد يعبد الله به إلاّ شيخاً بالحيرة، فخرج إليه. فلما كلمه قال له: إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك قد بعث نبيّ، قد طلع نجمه. فعاد إلى مكة[1]. ولو صح هذا الخبر لوجب أن يكون زيد قد أدرك مبعث الرسول. ولكن أهل الأخبار مجمعون على أنه توفي قبل المبعث. وأن الرسول نفسه قال عنه: يبعث يوم القيامة أمة واحدة، وعلى الخبر سيماء الصنعة والتزويق.

وروي عنه أن قومه كانوا اذا دعوه إلى وليمة، كان يأبى أن يأكل منها قائلاً: «إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلاّ ما ذكر اسم الله عليه»[2]. وهكذا كان يقاطع أكل لحوم الحيوانات التي تذبح للأصنام. ويشاركه في الامتناع عن أكل لحوم هذه للذبائح الأحناف الآخرون، فقد روي أن ورقة بن نوفل كان لا يأكل من لحوم هذه الذبائح أيضاً للسبب المذكور[3].

ويذكر أهل الأخبار أن (زيد بن عمرو بن نفيل) كان اذا خلص إلى البيت استقبله ثم قال: لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً، البر أرجو لا الخال، وهل مهجر لمن قال. ثم يقول:

عذت بما عاذ به إبراهيم   مستقبل الكعبة وهو قائم[4]

---

1) أسد الغابة (2/ 231).

2) البخاري (5/ 50).

3) الأغاني (3/ 119).

4) الأغاني (3/ 117).

أو «لبيك حقاً، تعبداً ورقاً، عذت بما عاذ به إبراهيم»[1].

وذكر أنه كان يأمر بالتوحيد ويعبادة إلَه واحد. من ذلك قوله:

لا تعبدنّ إلهاً غير خالقكم ... وإن دعيتم فقولوا دونه حدد[2]

وزُعم أنه كان يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة، فصلى وسجد سجدتين، ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا اعبد حجراً ولا أصليّ له ولا آكل ما ذبح له، ولا أستقسم بالأزلام، وإنما أصليّ لهذا البيت حتى أموت. وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي، فيقول: لبيك لا شريك لك، ولا ندّ لك. ثم يدفع من عرفة ماشياً، وهو يقول: لبيك متعبداً مرقوقاً[3].

ويروي أهل الأخبار أقوالاً أخرى لزيد، كما رووا له أشعاراً زعموا أنه قالها، وهي في هذه الأمور التي ينسبونها إلى الأحناف من ذكر لديانة إبراهيم وللتوحيد ومن ذمّ إلى الأصنام ومن إصلاح لحال مجتمع ذلك اليوم[4]. كما رووا له أبياتاً من شعر زعموا أنه نظمه يعاتب فيه زوجته (صفية بنت الحضرمي)، لأنها كانت تمانع في خروجه عن مكة وفي سفره إلى الخارج التماساً لهذا الدين[5].

وتفيد رواية من روايات أهل الأخبار بأن (زيد بن عمرو بن نفيل)، كان في جملة من اشترك في (حرب الفجار)، تقول إنه كان على رأس (بني عدي) وذلك في يوم شمطة[6].

---

1) الأغاني (2/ 238).
2) تاج العروس (2/ 331)، (حدد).
3) البداية (2/ 239).
4) الأغاني (3/ 117).
5)ابن هشام، سيرة (1/ 247).
6) البلاذري، أنساب (1/ 102).

وروي أن رسول الله سئل عن (زيد بن عمرو)، فقال: «يبعث أمة وحده يوم القيامة»[1]. بل روي أنه ترحم عليه، وأنه قال: «رأيته في الجنة يسحب ذيولاً»[2].

وينسب أهل الأخبار لزيد شعراً، هو من هذا الشعر الذي ينسبونه إلى الأحناف، في الطابع الديني، من بحث عن توحيد، وحث على عبادة إله واحد، وإقرار بحساب وكتاب. وأمثال ذلك[3] وقد نسب بعض منه إلى (أمية بن أبي الصلت)، ونسب بعض منه إلى شعراء آخرين. كما أن الرواة يروون هذا الشعر بقراءات مختلفة.

ومن ولد زيد رجل كان له سبق وقدم في الإسلام، هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين، شهد المشاهد والأحداث المهمة، إلاّ بدراً، فإنه لم يكن حاضراً بالمدينة إذ ذاك. وهو أحد العشرة المبشرة. ذكر أنه أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم. ولا بد أن يكون لرأي والده في دين قومه وما أبداه من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم أثر في نشوء هذا الابن وفي إقدامه مع السابقين على الدخول في الإسلام، بعد أن كان والده قد سبق إسلامه برحيله إلى الآخرة بسنين. وأمه (فاطمة بنت بعجة بن أمية بن خويلد بن خالد بن اليعمر) من خزاعة. ولسعيد أخت اسمها عاتكة بنت زيد[4].

وذكر (ابن هشام) أن زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، اتفقوا في الرأي والعقيدة، وتعاهدوا على نبذ عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال، وتصادقوا، وكوّنوا عصبة خرجت على عبادة

---

1) البخاري (5/ 50)، المعارف (27)، البغدادي، خزانة (3/ 100).

2) ابن سعد، طبقات (3/ 273).

3) البداية (2/ 241 وما بعدها).

4) كتاب نسب قريش (365)، الاستيعاب (4/ 365)، الإصابة (2/ 44)، (رقم 3261).

قريش، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم، ولم يشاركوهم في عبادتهم، وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابئين[1].

أما عبيد الله بن جحش بن رئاب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فقد بقي مرتاباً في دين قومه، بعيداً عنهم وعن عبادتهم، حتى إذا ظهر الإسلام دخل فيه، ثم هاجر مع من هاجر إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مسلمة كذلك. فلما صار في الحبشة، فارق الإسلام وتنصر، وهلك هناك[2].

وأما عثمان بن الحويرث، فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم، ثم رأى الذهاب إلى الروم، فذهب إليهم، وتقرب إلى قيصر، وحسنت منزلته عنده ومنحه لقب (بطريق)، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة، ولكن قومه أبوا ذلك، فلم يتمّ له مراده، ومات بالشأم مسموماً، سمّه عمرو بن جفنة الغساني[3].

وذكر (الزبيري)، أن والدة (عثمان بن الحويرث)، هي تماضر بنت عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح)[4]. وأنه خرج إلى (قيصر فسأله أن يملكه على قريش، وقال: أحملهم على دينك، فيدخلون في طاعتك، ففعل. وكتب له عهداً وختمه بالذهب، فهابت قريش قيصر، وهمّوا أن يدينوا له، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة، فصاح، والناس في الطواف: إن قريش لقاح، لا تملك ولا تملك. فاتسعت قريش على كلامه، ومنعوا عثمان مما جاء له، فمات عند ابن جفنة، فاتهمت بنو

1) ابن هشام (1/ 242)، «طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد»، المحبر (171، 175، 237)، الروض الأنف (1/ 145).
2) ابن هشام (1/ 243)، المحبر (76، 88، 172، 173)، البداية (2/ 243)، L. Krehl, Das Leben Muhammad, S. 14.
3) ابن هشام (1/ 243)، الاشتقاق (ص 59)، المحبر (165، 170، 171، 175، 307)، الروض الأنف (1/ 146).
4) كتاب نسب قريش (209 وما بعدها)، وذكر صاحب «المحبر» أن أمه من الحبشيات (307).

أسد ابن جفنة بقتله)[1]. وَكان ابن جفنة حبس أبا ذئب عنده، وأبا أحيحة بسبب عثمان بن الحويرث[2]. ويقصدون بابن جفنة: عمرو بن جفنة الغساني[3].

وتذكر احدى الروايات، أن وفاة (عثمان بن الحويرث) كانت بالشأم وقد مات عند قيصر، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاثين سنة، أو نحوها، وقد رثاه (زيد بن عمرو بن نفيل)، وورقة بن نوفل[4].

ويعد (عثمان بن الحويرث) من أشراف (بني أسد) من قريش[5]. وقد كان مع (خويلد بن أسد) على رأس (بني أسد) في (حرب الفجار)[6].

وكان ينادمه (شيبة بن ربيعة بن عبد شمس). وقد تنصرا جميعاً، وقتل شيبة يوم بدر كافراً[7].

وأما (أمية بن أبي الصلت)، فهو أحسن الحنفاء حظاً في بقاء الذكر، بقي كثيراً من شعره، وربما وضع كثير منه على لسانه، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره. وسبب ذلك بقاؤه إلى ما بعد البعث، واتصاله بتأريخ النبوة والإسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الإسلام. لم يكن مسلماً ولم يرضَ أن يدخل في الإسلام لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه، وأن ينزل الوحي عليه، فيكون نبي العرب والعالم أجمعين. فلما رأى النبوة في الرسول، حسده، وأثار المشركين عليه، ورثى قتلاهم في معركة بدر، وحرض قريشاً عليه، حتى مات على حسده

---

1) كتاب نسب قريش (210).
2) جمهرة ابن حزم (190).
3) البداية (2/ 243).
4) كتاب نسب قريش (210).
5) المحبر (165).
6) المحبر (170).
7) المحبر (175).

وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون. لم يمت مسلماً، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه: بل مات كافراً بالديانتيْن[1].

وقد جاء في بعض الروايات، أن وفاة (أمية)، كانت في السنة الثانية من الهجرة[2]. وورد في روايات أخرى أنه توفي سنة تسع للهجرة، كافراً قبل أن يسلم الثقفيون[3].

ورثاؤه قتلى معركة بدر، محفوظ في قصيدة حائية. مطلعها:

ألاّ بكيت على الكرا	م بني الكرام أولى الممادح
كبكا الحمام على فرو	ع الأيك في الغصن الصوادح

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين، ودفنهم بالقليب، وفيهم (عتبة) و(شيبة) ابنا (ربيعة بن عبد شمس)، وهما ابنا خالة أمية. وقد ذكر بعض الرواة أن الذي حمله على قول هذا الشعر، هو أنه لما وصل إلى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر، وكان ذاهباً إلى المدينة يريد الدخول في الإسلام، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين: هل تدري ما في هذا القليب؟ قال: لا. قيل: فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان. فجدع أنف ناقته، وشق ثوبه، وبكى، وعاد إلى الطائف[4].

---

1) الأغاني (4/ 120 وما بعدها)، «طبعة دار الكتب المصرية»، ابن هشام (1/ 11، 48، 61، 63، 68)، (2/ 16، 321، 401، 406)، (3/ 65)، «طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد»، شرح السيرة النبوية، لأبي ذر بن محمد بن مسعود الخشني (1/ 23، 24)، «تحقيق بولس برونله»، نسب قريش (98)، جمهرة الأنساب (257)، ابن قتيبة، الشعراء (429)، شعراء النصرانية (2/ 219 وما بعدها)، الأغاني (16/ 69)، الحيوان للجاحظ (2/ 320)، خزانة الأدب (1/ 119)، الشعر والشعراء (176)، النووي، تهذيب الأسماء (1/ 126)، Ency., IV., p. 997.

2) تأريخ الخميس (1/ 412)، الأغاني (4/ 124، 129)، الشعر والشعراء (10/ 369).

3) الإصابة (1/ 134)، (رقم 552).

4) ابن هشام (2/ 401 وما بعدها)، راجع القصيدة في (ص 20) من ديوان أمية، بيروت 1934، بلوغ الأرب (2/ 256)، 256)، خزانة الأدب (1/ 119)، الحيوان، للجاحظ (2/ 320)، الشعر والشعراء (176)، البيان والتبيين (1/ 291)، المسعودي، مروج (73/1)، محمد محيي الدين عبد الحميد، «1958م»، الأغاني (3/ 119 وما بعدها)، خزانة الأدب (2/ 39 وما بعدها)، الأغاني (4/ 122)، الإصابة (1/ 134)، (رقم 552).

وذكر أن أمية نال في بيتين من هذه القصيدة من أصحاب رسول الله، ولذلك أهملهما (ابن هشام) صاحب السيرة[1]. وذكر أيضاً أن النبي نهى عن روايتها[2]. ولكن الرواة رووها وحفظوها ودوّنوها في الكتب، فكيف تجرؤوا على حفظها وتدوينها لو صح أن النبي نهى عن روايتها على نحو ما يزعمه أهل الأخبار.

وأميّة مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء، سافر إلى الشأم، واتصل بأهلها، وأوى إلى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم ما يهمه من مشكلات دينية وعما كان يجول في خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم. وكان تاجراً، يذهب مع التجار في قوافلهم إلى تلك الديار التي كانت في أيدي الروم. ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات التي وردت في ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً، قرأ الكتب، ووقف عليها. ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين، وشكّه في عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات. وقد بدا هذا التأثر في الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة في شعره وفي الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين: للعهد القديم والعهد الجديد ومن موارد أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب[3].

وقد ورد في بعض الأخبار أن أمية سافر مرة مع أبي سفيان والد معاوية في تجارة إلى بلاد الشأم، فكان كلما نزل منزلاً أخذ فيه سفراً له يقرأه على من معه، كما كان يزور علماء النصارى ويتباحث معهم، وكان يلبس ثوبين أسودين حينما يقابلهم[4]. ولم تذكر الرواية شيئاً عن السفر أو الأسفار التي كان يقرأ

1) ابن هشام (405/2).

2) الأغاني (4/ 123)، «ذكر أمية بن أبي الصلت ونسبه وخبره»، بروكلمان، تأريخ الأدب العربي (1/ 113).

3) الأغاني (4/121 وما بعدها)، «طبعة دار الكتب المصرية»، «وكان يحكى في شعره قصص الأنبياء، ويأتي بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب، يأخذها من الكتب المتقدمة، أو بأحاديث من أحاديث أهل الكتاب»، الشعر والشعراء (1/ 369).

4) البداية والنهاية، لابن كثير (2/ 220)، الأغاني (4/ 123 وما بعدها)، (دار الكتب المصرية).

منها أمية ويشرحها لمن معه من التجار. وتذكر رواية أخرى أنه كان قد بلغ مع (أبي سفيان) غزة أو (ايلياء)[1].

ولأمية في هذا اليوم ديوان ضم أكثر ما نسب إليه من شعر. كما أن في بطون كتب الأدب والأخبار أشعاراً أخرى لم يرد لها ذكر في هذا الديوان. ومعظم شعره هو عن الدين والآخرة وعن الجنة والنار والحساب والكتاب، وقد تضمن إشارات إلى حوادث وقعت في أيامه، أو في أيام قريبة من أيامه مثل قصة الفيل، كما تضمن بعض قصص الأنبياء، ولتعرض شعره إلى هذه النواحي نعت بشاعر الآخرة[2].

ومما ذكره الأخباريون ورواة شعر أمية من أمثلة على استعماله للكلم الغريب، أنه استعمل (الساهور) للقمر، وهي كلمة لا تعرفها العرب، وأنه ذكر، (السلطيط)، اسماً لله تعالى. وأنه أطلق كلمة (التغرور) على الله تعالى في موضع آخر من شعره، وأنه سمى السماء (صاقورة) و(حاقورة) وأنه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل. ولولعه هذا باستعمال الغريب، رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره[3].

والساهور، كلمة آرامية الأصل من أصل (سهرو) Sahro، بمعنى القمر، أي تماماً بالمعنى الوارد في شعر أمية[4].

وهذا الشعر المنسوب إلى أمية وغريبه خاصة مادة مهمة جداً تجب دراستها بعناية، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء في أخبار الرواة عن هذه الكلمات وعن أصولها ومواردها الأولى، إن صح أنها من أشعار تلك الأيام حقاً، إذ ترشدنا أمثال هذه

---

1) البداية والنهاية (3/ 224).

2) تأريخ الأدب العربي، لبروكلمن (1/ 113)، «الترجمة العربية»، عيون الأخبار، لابن قتيبة (6/ 374)، الحيوان (7/ 321)، «عبد السلام هارون»، البيان والتبيين (1/ 291).

3) الأغاني (4/ 121 وما بعدها)، شعراء النصرانية (2/ 219)، ديوان أمية فحول الشعراء، «جمع بشير يموت»، «بيروت 1934م» (ص 5 وما بعدها)، سيرة ابن هشام (1/ 48).

4) غرائب اللغة العربية (ص 189).

الدراسات إلى معرفة المنابع التي استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التي كانت في مكة وفي خارج جزيرة العرب قبيل الإسلام.

وقد روى الأخباريون قصصاً عن إلتقاء أمية بالرهبان، وعن توسمهم معالم النبوة فيه، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظرهم معالم النبوة. فلما كانوا يقفون على الأجوبة، يقولون له: كادت النبوة تكون فيه، لولا بعض النقص في علاماتها عنده، كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر، لتنظيفه، وتهيئة النبوة فيه. ولكنهما عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له[1]. وقد حاكى أهل الأخبار في قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول[2]. كذلك رووا أنه كان يتفرس في لغات الحيوانات، فيعرف ما تقوله وما تريده ويقصه على الناس وأنه كان يسخر الجنّ، وكانت تطيعه، وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب[3]. فجعلوه بأخبارهم هذه في مرتبة تضاهي سلمان في علمه بمنطق الطير وبقية الحيوانات[4]. وذكر (ابن دريد): «كان بعض العلماء يقول له لولا النبي صلى الله عليه وسلم، لادعت ثقيف أن أمية نبي، لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم، ودارس اليهود وكلّ الكتب قرأ»[5].

وتشبه قصة تنظيف الطيرين لقلب أمية، وهي القصة التي أشرت إليها قبل قليل، خبر (حليمة السعدية) مرضعة الرسول لصدر النبي. ورواة قصة شق صدر أمية وتنظيف قلبه هم من أهل الطائف، ويرجعون سند قصتهم إلى أخت أمية المسماة (الفارعة)، «وكانت ذات لُبّ وعقل وجمال، وكان رسول الله، صلى الله

---

1) الأغاني (4/ 123 وما بعدها)، شعراء النصرانية، الجزء الثاني (ص 219)، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء (220 وما بعدها) «دار المعارف».

2) Sprenger, Leben, I, S. 119, M. cl. Huart, Le Livre de la Création et de L'histoire, I, pp. 55, 153, 155, 156, 190, 191, 195.

3) البداية والنهاية (2/ 227 وما بعدها).

4) النمل، الآية 15 وما بعدها.

5) الاشتقاق (ص 184).

عليه وسلم بها معجباً»[1]، وقد وفدت عليه، فلما سألها عن شعر اخيها كما يقول الرواة، قصت عليه قصة الطيرين، كما قصت عليه قصة وفاته، فقال رسول الله: «إن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها»[2].

ويشير القصص الوارد عن التقاء (أمية) بالأحبار وبالرهبان وباتصاله بهم، إلى أن امية كان يرجو أن يكون نبياً، وأنه كان يعتقد بقرب ظهور نبي وتأمله أن يكون هو ذلك النبي المرتجى:

ألا نبيّ منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا[3]

وقد كسف وتألم كثيراً وأكل الحسد قلبه، حين فلت الأمر منه، اذ سمع بإعلان الرسول رسالته، ودعوة الناس. إلى دين الله، الذي كان أمية نفسه يدعو إليه. وقد ورد أنه لما سمع بنبوة الرسول قال: «إنما كنت أرجو ان أكونه»[4].

ويروي أهل الأخبار أن امية كان قد مات وهو معتقد بأن الحنيفية حق إذ رووا أنه قال في مرض موته، «قد دنا أجلي، وهذه المرضة فيها منيتي وأنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلني في محمد. وقال: لا بريء فأعتذر ولا قوي فانتصر له».

وفي جملة ما رووه عنه، أنه عرف مجيء يومه من نعيب غراب، نعب على مقربة منه. فحدث القوم بما سمعه من الغراب، وكان يعرف منطقه، وقال لهم إنه سيموت وذكر علامة ذلك، فكان أن مات على نحو ما قال القوم[5]. وذكر أيضاً أنه لما كان على فراش الموت محتضراً أفاق عدة مرات، وكان يتلو في كل مرة:

---

1)البداية والنهاية (2/ 224 وما بعدها).

2) البداية والنهاية (2/ 224 وما بعدها)، تهذيب ابن عساكر (3/ 127)، مروج (1/ 57 وما بعدها)، الطبرسي، محمع (7/ 63 وما بعدها)، الطبري، تفسير (9/ 121)، «طبعة البابي»، تفسير ابن كثير (2/ 264)، شرح الشهاب على البيضاوي (4/ 236).

3) البداية والنهاية (2/ 227)، تهذيب ابن عساكر (3/ 127)، تأريخ الخميس.

4) الأغاني (4/ 123 وما بعدها).

5) البداية والنهاية (2/ 227).

«لبيكما لبيكما، ها أنذا لديكما»، ثم يتلو هذا الكلام بكلام آخر فيه توسل وتضرع الى الإلَه، إلى ان أفاق للمرة الأخيرة، فقال شعراً بين فيه أن الموت أمر لا بد منه، وأنه هالك في هذه المرة لا محالة، ثم هلك، دون أن يؤمن بالرسول[1].

وهذا القصص الوارد عن أمية، هو -بالطبع- من القصص المصنوع الموضوع، مثل كثير من أخباره وأخبار غيره، قص على ذوي القلوب الطيبة من الرواة والأخباريين، فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الاسرائيليات والأساطير، وروي على أنه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب.

ولا أستبعد أن يكون هذا القصص قد ظهر في أيام الحجاج عصبية وتقرباً إليه، فقد كان الحجاج من ثقيف، وكان أمية من ثقيف كذلك. وقد أنتج الوضاعون في أيامه شيئاً كثيراً من الأخبار في قبيلة ثقيف، كما أنتجوا شيئاً في ذمها وفي ذم رجالها نكاية به.

وقد يكون في قول (الحجاج) حين سئل عن شعر أمية، شيء من التوجع والتألم أو المبالغة في تقديره حين قال: «ذهب قوم يعرفون شعر أمية، وكذلك اندراسُ الكلام». وقد يكون كلام الحجاج غير ذلك، لو كان أمية من قبيلة أخرى.

ونحن نستطيع ادخال قول من قال عن (أمية) «قيل إنه كان نبياً»[2] في جملة هذه الدعاوى التي وضعت في هذا العهد، للرفع من شأن (ثقيف) ومن الرد على المتهجمين عليها الطاعنين حتى في نسبها الذين جعلوا (ثقيفاً) من بقية (ثمود)، وأيدوا قولهم هذا بحديث زعموا أن الرسول قاله: «ثقيف من ثمود»[3]،

---

1) الأغاني (4/ 125 وما بعدها)، ابن سلام، طبقات فحول (ص 220 وما بعدها)، الإصابة (1/ 134)، (رقم 552).
2) تهذيب ابن عساكر (3/ 115).
3) الأغاني (4/ 307) «دار الكتب».

وجعلوه من عبد لأبي رغال، وأبو رغال نفسه الذي نسب عبده إليه، أي جد ثقيف، هو في نظر العرب وقريش خاصة سبّة[1].

ويذكرون عنه أنه بعد أن صبأ عن قومه وتحنف، لبس المسوح على زي المترهبين الزاهدين في هذه الدنيا، ورافق الكتب ونظر فيها، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح، ثم حرّم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين، وتجنب الأصنام، وصام، والتمس الدين، وذكر إبراهيم وإسماعيل، وأنه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة: «باسملك اللهم»، وهي الجملة التي نسخت في الإسلام بجملة: «بسم الله الرحمن الرحيم»[2].

ويذكر أهل الأخبار أن أمية أخذ جملة: «باسمك اللهم» من شيخ كان منطوياً على نفسه في برية نائية، وذلك حينما ألح عليه قوم كانوا معه من قريش في عير لهم، كانت قد نفرت، بأن يجد طريقة لطرد حيّة كانت تظهر بين إبلهم فتنفرها، فذهب إلى ذلك الشيخ واستشاره في طريقة تبعد عنهم أذى تلك الحية، فأشار عليه باستعمال تلك الجملة، فهربت الحية ونفرت منهم، وقد كان سبب ظهور تلك الحية كما يذكر أهل الأخبار، هو أن رجلاً من القوم هو: (حرب بن أمية بن عبد شمس) كان قد قتل حيّة فقررت زميلتها الانتقام من قتلتها، فقتلته الجن انتقاماً منه بثأر تلك الحية. وهربت الجن عند سماعها تلك الجملة. وإليه أشير كما يقول أهل الأخبار بقولهم:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر[3]

فحرب هذا المذكور في هذا البيت، هو حرب بن أمية، وأما الشيخ فكان رجلاً من الجن.

---

1) الأغاني (4/ 302) «دار الكتب».

2) المسعودي، مروج (1/ 57 وما بعدها)، ديوان، أمية «المقدمة» لبشير يموت «بيروت 1934»، ابن خلدون (1/ 177 وما بعدها)، (بيروت 1961م)، التنبيه والأشراف (359)، (مكتبة الخياط).

3) الحيوان للدميري (2/ 195)، الأغاني (4/ 122 وما بعدها)، (دار الكتب المصرية).

ويُذكر أنه لم يكن يرتضي من الأديان غبر دين الحنيفية ديناً. وأنه قال ذلك في شعر له:

كل دين يوم القيامة عند الله، إلاّ ديـــــن الحنيفيـــــة، زور[1]

وأنه كان يعظم الله في شعره ويكبره ويحمده، ويرى أنه إلهَ واحد لا شريك له، وأن من يشرك به أحداً فقد ظلم نفسه:

الحمــد لله لا شـــريك لــه مــن لم يقلـها فنفسـه ظلمـا[2]

وهناك من يروي أن (النابغة الجعدي)، كان يدعي أن هذا البيت وما بعده هو من نظمه. قال ذلك أمام (الحسن بن على بن أبي طالب)[3].

ويروى أن النبي كان يسمع شعر أمية، وأن (الشريد بن سويد) (الشريد بن عمرو) الثقفي، كان ينشد له شيئاً منه، في أثناء أحد أسفاره، فكان كلما أنشد له شيئاً منه، طلب منه المزيد، حتى اذا ما أنشده مئة بيت، قال النبي له: كاد ليسلم، أو كاد ليسلم في شعره. وذكر أن الرسول قال في حديث له عنه: آمن شعره وكفر قلبه، أو آمن لسانه وكفر قلبه[4]. وأنه لما سمع شعره في الدين والحنيفية ومطلعه:

الحمـد لله ممسـانا ومصـبحنا بـالخير صـبحنا ربـي ومسّانا

1) الأغاني (3/ 112)، البعدادي، خزانة الأدب (2/ 39)، شيخو، شعراء النصرانية، الجزء الثاني (ص 219)، ابن هشام، السيرة (1/ 40)، (2/ 982)، الأغاني (4/ 123)، «دار الكتب»، الإصابة (1/ 130)، «مطبعة السعادة».

2) المسعودي، مروج (1/ 70).

3) طبقات ابن سلام (106 وما بعدها)، الأغاني (5/ 10).

4) صحيح مسلم «كتاب الشعر»، (7/ 48)، «طبعة محمد علي صبيح»، طبقات ابن سعد: (5/ 376)، «الشريد بن سويد»، بلوغ الأرب (2/ 253 وما بعدها)، المعارف، لابن قتيبة (28)، المزهر (2/ 309)، خزانة الأدب (1/ 227)، ابن سعد (5/ 376)، الشعر والشعراء (1/ 369)، الإصابة (1/ 134)، (رقم 552).

قال: «إن كاد أمية ليسلم»[1].

وروي عن (ابن عباس)، أن الرسول لما سمع شعر (أمية):

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد[2]

قال: صدق أمية.

وفي رواية أنه: «كان قد قرأ الكتب القديمة، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول، فأتفق أن خرج إلى البحرين، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقام هناك ثماني سنين. ثم قدم، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، في جماعة من أصحابة، فدعاه إلى الإسلام، وقرأ عليه سورة يس، حتى إذا فرغ منها، وثب أمية يجر رجليه، فتبعته قريش تقول: ما تقول يا أمية؟ فقال: أشهد أنه على الحق. قالوا: هل نتبعه؟ قال: حتى انظر في أمره. فخرج إلى الشأم، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم، فلما أخبر بها، ترك الإسلام. وقال: لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته فذهب إلى الطائف ومات»[3].

وفي هذه الرواية المنسوبة إلى الزهري، عن سماع أمية بن أبي الصلت بنبوة النبي وهو في البحرين، ثم مجيئه إلى مكة والتقائه بالرسول ومحاجته له في ظل الكعبة، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه إلى الشأم، ثم عودته منها[4]، تكلف ظاهر، وفي تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضاً.

وورد في رواية أخرى، أن أمية بن أبي الصلت قدم المدينة فقال للنبي: ما هذا الذي جئت به؟ فقال الرسول: الحنيفية دين إبراهيم. قال: فأنا عليها. فقال

1) الأغاني (4/ 132 وما بعدها)، «دار الثقافة»، شرح الشهاب على البيضاوي (4/ 236)، تفسير ابن كثير (2/ 264)، ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري (1/ 26).

2) الإصابة (1/ 129)، الإصابة (1/ 134)، (رقم 552)، (القاهرة 1939م).

3) روح المعاني (9/ 112 وما بعدها)، تأريخ الخميس، للدياربكري (1/ 412)، مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي (7/ 63 وما بعدها)، (بيروت 1957م).

4) راجع البداية والنهاية (2/ 220).

عليه الصلاة والسلام لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها. فقال: أمات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً، ثم خرج إلى الشأم، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا للسلاح. ثم أتى قيصر، وطلب منه جنداً، ليخرج النبي من المدينة، فمات بالشأم طريداً وحيداً. وهي قصة ينسب وقوعها إلى (أبي عامر) الراهب، كما سبق أن تحدثت عن ذلك[1].

وتخالف هذه الرواية الروايات المألوفة الواردة إلينا عن وفاة (أمية) بالطائف. وتزعم إحدى الروايات، أن أمية كان قد أخذ ابنتيه وهرب بهما إلى أقصى اليمن، وذلك حين بعث النبي. ثم عاد إلى الطائف، فبينما هو يشرب مع إخوان له في قصر بالطائف، إذ سقط غراب على شرفة في القصر فنعب، وأدرك أمية انه ميت، لأنه عرف منطق الغراب، وحدّث القوم بذلك في قصة مفصلة تجدها في الكتب ثم مات[2]. وقصة الشرب هذه تناقض ما يذكر عنه أهل الأخبار من أنه كان لا يقترب من الخمر، ومن أنه كان قد حرمها على نفسه، شأنه في ذلك شأن بقية الأحناف. كذلك يناقض خبر تحريمه الخمر على نفسه، خبر آخر، خلاصته أنه كان يشرب يوماً مع عبد الله بن جدعان، فأخذ الشراب برأس (ابن جدعان)، وأصاب عين أمية، فلما كان اليوم الثاني وجلس أيضاً للشرب معه، سأل (عبد الله) أمية عن سبب الألم البادي على عينه، فلما أخبره بأنه كان هو سببه، ترك (ابن جدعان) الخمر استحياءً مما فعله وقال شعراً في سبب تركه الخمر. ويقول أهل الأخبار: «ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية، إلاّ ترك الخمر استحياء مما فيه من الدنس»[3].

وتؤيد قصة ذهاب (أمية) إلى اليمن وسكنه أمداً هناك قصة ينتهي سندها بـ (أبي سفيان)، خلاصتها أنه كان قد ذهب في ركب من قريش إلى اليمن في تجارة، فمرّ بأمية، وقال له كالمستهزىء به: يا أمية قد خرج النبي الذي كنت

---

1) روح المعاني (9/ 111)، تفسير الطبرسي (3/ 500)، (طبعة طهران).
2) الأغاني (4/ 130 وما بعدها)، الإصابة (1/ 129).
3) الأغاني (8/ 332).

تنعته؟ فأجابه أمية: أما إنه حق فاتبعه. وقال له قولاً يتنبأ فيه بمصير أبي سفيان وكيف سيؤتى به إلى الرسول، فيحكم فيه كما يريد[1]. ففي هذه القصة توكيد بخروج أمية الى اليمن حين بعث الرسول وبمكوثه زماناً هناك.

وذكر أنه الشخص الذي نزلت في حقه الآية: (واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا، فانسلخ منها)[2]. وهي آية قيل أيضاً إنها نزلت في (بلعام بن باعور) (بلعم بن ابر)، (بلعام بن باعرا)، أو في زوج البسوس، أو في (النعمان بن صيفي الراهب)[3].

وأمية كأكثر الشعراء له شعر في المدح وله تعريض. وأكثر مدحه في (ابن جدعان) من أجواد العرب المعروفين المشهورين في الجاهلية[4]. وهو في المدح أو في الرثاء أو في كل مناسبة أخرى، مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين وبالأفكار الدينية ولمصطلحات لا ترد إلاّ نادراً في الأشعار المنسوبة إلى الشعراء الجاهليين، مما يدل على غلبة التفكير الديني عليه، وتأثير ما قرأه أو أخذه من غير العرب فيه. سئل الأصمعي عن شعر أمية، فقال: «ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب»[5].

ووالد (أمية)، هو (عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي) أو (ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة) الثقفي على رواية (الزبيري)[6]. أما أمه فهي

1) البداية والنهاية (2/ 224).
2) الأعراف، الآية 175، الأغاني (4/ 125 وما بعدها) «بيروت»، تفسير الطبري (9/ 82 وما بعدها).
3) روح المعاني (9/ 11)، تفسير الطبرسي (3/ 499 وما بعدها).
4) المحبر (ص 138)، ديوان أمية بن أبي الصلت: تحقيق «فريدرش شولتس» (Friedrich Schulthetz)، المطبوع بمدينة «لايبزك» سنة 1911، وكذلك ديوانه المطبوع ببيروت سنة 1934، جمع بشير يموت، التبريزي، شرح الحماسة (4/ 145)، الأغاني (8/ 327)، تهذيب ابن عساكر (3/ 123)، ابن هشام (3/ 141).
5) الإصابة (1/ 129)، الأغاني (4/ 130 وما بعدها).
6) نسب قريش (98).

(رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف). وقد كان والده شاعراً. ذكر أنه مدح (سيف بن ذي يزن)[1].

ومن الرواة من ينسب القصيدة التي تنسب إلى والد أمية، والتي هي في مدح (سيف بن ذي يزن)، إلى أمية نفسه. وفي هذه القصيدة إشارة إلى ذهاب (سيف بن ذي يزن) إلى هرقل، فلما لم يجد منه أية مساعدة أو اهتمام، عافه، وذهب إلى كسرى، حيث وجد منه مساعدة، فجاءت إليه بعد سنين من تعب ومواظبة[2].

وينسب إلى أمية شعر، ذكر أنه افتخر فيه بـ (نزار) وبـ (معد). وبقبيلة (إياد)، حيث نعتهم بـ(قومي إياد)[3].

ويتلخص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء في الاعتقاد بوجود إله واحد، خلق الكون وسوّاه وعدله، وأرسى الجبال على الأرض، وأنبت النبات فيها، وهو الذي يحيي ويميت، ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم، وليجازيهم بما كسبت أيديهم، فريق في الجنة وفريق في النار، يساق المجرمون عراة إلى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال، ثم يلقى بهم في النار يصلونها يوم الدين، يبقون فيها معذبين بها، ليسوا بميتين، لأن في الموت راحة لهم، بل قضى الله أن يمكثوا فيها خالدين أبداً[4].

---

1) الأغاني (4/ 120 وما بعدها)، الشعر والشعراء (1/ 369)، (بيروت)، تهذيب ابن عساكر (3/ 115)، اليعقوبي (1/ 22)، الأغاني (4/ 120 وما بعدها)، الأزرقي، تأريخ مكة (93/1)، جمهرة الأنساب (257).

2) كتاب التيجان، لوهب، (307)، الشعر والشعراء، لابن قتيبة (1/ 369)، بروكلمان (1/ 114)، Schultheso Orient, Studien, I, 73.

3) الأغاني (4/ 120)، (8/ 327 وما بعدها)، شعراء النصرانية (2/ 234).

4) وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع والنكال

ديوان أمية (49).

جهنم تلك لا تبقى بغياً وعدن لا يطالعها رحيم

ديوان أمية (53)، (بشير يموت).

أما المتقون، فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال: لهم ما يشتهون، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وحور لا يرين الشمس فيها، نواعم في الأرائك قاصرات، على سرر ترى متقابلات، عليهم سندس وجياد رَيْط وديباج، حلّوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم، لا لغو فيها ولا تأثيم، ولا غول ولا فيها مُليم، وكأس لا تصدع شاربيها، يلذّ بحسن رؤيتها النديم، تحتهم نمارق من دمقس، فلا أحد يرى فيهم سئيم.

والوقوف على آراء (أمية)، وعلى معتقداته الدينية يجب الرجوع بالطبع إلى أشعاره وما نسب إليه من كلام. ففي هذا التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية، تتمثل آراء ذلك الشاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل المبعث، وهي آراء قريبة جداً من الإسلام، وبعضها يكاد يكون قولاً إسلامياً في لفظه وفي معناه مسبوكاً في شعر. وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبياء: آدم ونوح وقصة طوفانه، والغراب والحمامة[1]، وقصة ذي القرنين وبلقيس وحكاية الهدهد[2]، وقصة إبراهيم وتقديم ابنه للذبح، وداوود، وفرعون، وموسى، وابن عاد[3]. وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به، فوصف ذلك بانياً وصفه على نحو ما جاء في القرآن الكريم عن تكوّن عيسى، مضيفاً إلى ذلك زيادات في حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها[4]. كما أورد في الشعر قصة (لوط اخي سدوم)[5]. وهي من القصص المذكور في التوراة، وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل[6].

---

1) جزى الله الأجل المرء نوحا   جزاء البر ليس له كذاب
ديوان أمية (18 وما بعدها، 58)، (بشير يموت)، الحيوان، للجاحظ (2/ 117)، البدء والتأريخ (1/ 24).

2) قد كان دو القرنين قبلي مسلما   ملكاً علا في الأرض غير معبد
من قبله بلقيس كانت عمتي   حتى تقضى ملكها بالهدهد
ديوان أمية (ص 26)، (بشير يموت).

3) حي داوود وابن عاد وموسى   وفريع بنيانه بالثقال
إبني زارد الحديد على النا   س دروعاً سوابغ الأنيال
ديوان أمية (50 وما بعدها)، (بشير يموت).

4) وفي دينكم من رب مريم آية   منبئة بالعبد عيسى بن مريم
ديوان أمية (58)، (بشير يموت).

5) ثم لوط أخو سدوم أتاها   إذا أتاها برشدها وهداها
ديوان أمية 69)، (بشير يموت).

6) راجع التوراة، ومادة (Lot) في معجمات التوراة.

وفي أكثر ما نسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار، تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم. بل نجد في شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي، فكيف وقع ذلك؟ وكيف حدث هذا التشابه؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق أو إن أمية اخذ مادته من القرآن الكريم، أو كان العكس، أي إن القرآن الكريم هو الذي أخذ من شعر أمية فظهرت الأفكار والألفاظ التي استعملها أمية في آيات الله وسوره؟ فكتاب الله إذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله، أو إن هذا التشابه مردّه شيء آخر هو تشابه الدعوتيْن واتفاقهما في العقيدة والرأي، أو اعتماد الاثنين على مورد أقدم، هما الكتابان المقدسان: التوراة والانجيل، وما لهما من شروح وتفاسير، أو كتب أو موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرها في القرآن الكريم وفي شعر أمية بن أبي الصلت، أو إن كل شيء من هذا الذي نذكره ونفترضه افتراضاً لم يقع، وإن ما وقع ونشاهده، سببه إن هذا الشعر وضع على لسان أمية في الإسلام، وإن واضعيه حاكوا في ذلك ما جاء في القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه.

أما الاحتمال الأول، وهو فرض أخذ أمية من القرآن، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه، وجب حصر هذا الجواز في مدة معينة، وفي فترة محدودة تبتدىء بمبعث الرسول، وتنتهي في السنة التاسعة من الهجرة، وهي سنة وفاة أمية بن أبي الصلت. أما ما قبل المبعث، فلا يمكن بالطبع أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن، لأنه لم يكن منزلاً يومئذ، وأما ما بعد السنة التاسعة، فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً، لأنه لم يكن حياً، فلم يشهد بقية الوحي. ولن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً في هذه الحالة، إلاّ اذا أثبتنا بصورة جازمة أن شعر أمية الموافق لمبادىء الإسلام ولما جاء في القرآن قد نظم في هذه المدة المذكورة، أي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة، وأن أمية كان يتتبع نزول الوحي، ويجمعه، وأنه كان

يملك نسخة مما نزل على الرسول، رجع إليها واقتبس منها، وإلاّ سقط العرض. فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر، أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أمية وما جاء في معناه وفي موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة، فلا تكون شاهداً على أخذ أميّة منها: لأنه كان قد توفي في السنة التاسعة، فلا يقع هذا الافتراض.

ولكن من في استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه، وتعيين أوقات نظمه؟ إن في استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله في مدح عبد الله بن جُدعان أو معركة بدر. ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه، وهي غالبية لم يتطرق الرواة إلى ذكر المناسبات التي قيلت فيها. ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه، مروي لغيره، وبعضه إسلامي، فيه مصطلحات لم تعرف إلاّ في الإسلام، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة في شعره هذا بهذه الطريقة. ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر أن أمية كان ينتحل معاني القرآن الكرم، وينسبها إلى نفسه. ولو كان قد فعل، لما سكت المسلمون عن ذلك، ولكان الرسول أول الفاضحين له.

بقي لدينا افتراض آخر، هو أخذ القرآن الكريم من أميه، وهو افتراض ليس من الممكن تصوره، فعلى قائله إثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم، وتلك قضية لا يمكن إثباتها أبداً. ثم إن قريشاً ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه، لما سكتوا عنه، ولقالوا له إنك تأخذ من أمية، كما قالوا له: انك تتعلم من غلام نصراني كان مقيماً بمكة، وإليه أشير في القرآن الكريم يقوله: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ)[1]. ولقد أشار المفسرون إلى اسم الغلام، كما سأتحدث عن ذلك في الفصل الخاص بالنصرانية عند العرب قبل الإسلام، ولم يشيروا إلى أمية بن أبي الصلت[2]. ثم إن

---

1) النحل، الآية 103.

2) سيرة ابن هشام (1/ 420).

أمية نفسه لو كان يعلم ذلك أو يظن أن محمداً. إنما اخذ منه، لما سكت عنه وهو خصم له، منافس عنيد، أراد أن تكون النبوة له، وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليه، ثم يتبعه الناس فيؤمنون بدعوته. أما هو فلا يتبعه أحد. هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد أي ظن وإن كان بعيداً يفيد أن الرسول قد اخذ فكرة منه، أو من المورد الذي أخذ أمية نفسه منه؟ لو كان شَعرَ بذلك، لنادى به حتماً، ولأعلن للناس أنه هو ومحمد أخذا من منبع واحد، وأن محمداً أخذ منه، فليس له من الدعوة شئ، ولكانت قريش وثقيف أول القائلين بهذا القول والمنادين به.

نعم، لقد ورد في الحديث، كما قلت قبل قليل، أن الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية، وأنه كان كلما أنشده شيئاً منه طلب منه المزيد، حتى إذا ما أنشده مئة بيت، قال له الرسول: آمن شعره وكفر قلبه، أو آمن لسانه وكفر قلبه، ولكننا هنا بحاجة إلى تثبيت تأريخ هذا الإنشاد، وإثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند، لإثبات إن ما أنشد لم يكن قد نزل في مثله الوحي.

وممن ذهب إلى افتراض أخذ الرسول من أمية من المستشرقين (كليمان هوار) و(بور) Power زعم (بور) أنه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن الكريم، فإن ذلك يدل على أن الرسول أخذ من (أمية)، لأن أمية أقدم من الرسول[1]. وهذا الافتراض مقبول كما لو أثبتنا ان هذا النظم شعر أصيل صحيح، وأنه نظم قبل نزول مشابهه في القرآن الكريم، وأنه لم يضف إليه في الإسلام. فإن أثبتنا انه له، جاز لهما مثل هذا الادعاء.

وأما الرأي الثالث. وأعني به رأي من يرجع التشابه بين شعر أمية وما ورد من مثل معانيه في القرآن الكريم إلى أخذ الاثنين من التوراة والانجيل وتفاسيرهما، والى بعض (الصحف) و(المجلات) التي أشير إلى وجودها عند العرب. فهو رأي قديم، وليس بجديد. رأي قيل عن الوحي كله، لا عن القرآن وشعرّ أمية أو غير أمية، قبل أن يخلق المستشرقون بأكثر من 1300 سنة، فقد زُعم «أنّ النبي

---

1) ديوان أمية (ص 7)، «المقدمة الألمانية» «تحقيق فريدرش شولتيس»، بروكلمن (1/ 113)، Cl, Huart, JA. X. Vol., XI, 1904, p. 125.

يتعلم من غلام نصراني اسمه جبر!!». وقد أشير إلى هذا الزعم في كتاب الله، وجاء الرد عليه في قوله تعالى: (ولقد نعلم أنهم يقولون، إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين). فلم يُخْفِ القرآن الكريم ذلك الطعن والمغمز، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يَعلمه، فذكروا جبراً هذا، وكان غلاماً مقيماً بمكة، وقال بعضهم بل هو رجل رومي اسمه غير ذلك.

ولو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد، واستقيا من مورد واحد، لما سكتت قريش عن القول به، ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به. وكيف يعقل سكوته عن هذا، وهو أمر مهم جداً بالنسبة اليه. وسيف يحارب به الإسلام؟ ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة إليه في أثناء حروب الردّة، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة. ولما سكت (يوحنا الدمشقي) وأمثاله من التلميح إلى ذلك، وقد لمح بأمور كثيرة في طعنه على الإسلام.

ثم إنّ هذا التشابه، على ما يتبين من نقده وتمحيصه، ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين، إنما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر، بدليل ورود أمور في القرآن الكريم، لم ترد في التوراة ولا في الانجيل، ولكنها وردت في شعر أمية، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل إسلامي، لا على النحو الوارد عند أهل الكتاب. واستعمال هذا الشخص لجمل وألفاظ وتراكيب إسلامية واردة في القرآن الكريم وفي الحديث لا في الكتب السماوية المذكورة. فلو كان مردّ هذا التشابه الأخذ من مورد واحد، لوجب انحصار هذا التشابه في الأمور المشتركة التي ترد في الكتب المقدسة: التوراة والانجيل والقرآن، وفي شعر أمية حسب، لا في المسائل التي ترد في شعر أمية وفي القرآن الكريم، ولا ترد في الكتابين المقدسين أو في الكتب الأخرى.

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة صله أحدهما بالآخر، وأخذ احدهما من الآخر، تستوجب التأكد من صحة نسبة هذا الشعر إلى أمية. ففي هذا الشعر مقدار لا يمكن أن يشك في وضعه وصنعه، ومقدار نص العلماء نصاً على أنه لغيره، وهم انما ذكروه في شعر أمية، لأن بعض أهل الأخبار نسبه اليه. ولذلك استدركوا هذا الخبر، بالاشارة إلى اسم قائله الصحيح. فلم يبقَ من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه، وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين. وهذا القليل هو، في الغالب ايضاً، تبع لما ورد في القرآن وحده، لا لما ورد في الكتابين المقدسين. ولما كان القرآن محفوظاً ثابتاً، فلم يرتق إليه الشك. اما شعر أمية، فليس كذلك، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم. فهذه المقابلة إن جازت، فإنها تكون حجة على القائلين بالرأي المذكور، لا لهم. وقد كان عليهم أن يثبتوا أولاً اثباتاً قاطعاً صحة رأيهم في أصالة هذا الشعر، لا أن يفترضوا مقدماً انه شعر أصيل صحيح، وأن يذهبوا رأساً إلى أنه هو والقرآن الكريم من وقت واحد، بل إنه على حد قول بعضهم أقدم منه، فكتاب الله منتزع منه.

وممن قال باحتمال أخذ القرآن وأمية من مورد مشترك واحد، (فردرش شولثيس) Friedrich Schulthetz ناشر ديوان أمية. وقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التي كانت مُنزلة وَمئذ، ونظمها في شعره. استند في زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك إلى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير، يفهم منها على زعمه أن الرسول كان قارئاً كاتباً، لكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة، بل ذهب الى أنها (مجلة) و(صحيفة)، تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصاً دينياً قديماً[1]. أما دليله، فافتراض واحتمال، وليس له غير هذين. ولا يقوم علم إلاّ على دليل ملموس.

أما أنا، فأرى أن مردّ هذا التشابه والاتفاق إلى الصنعة والافتعال. لقد كان أمية شاعراً، ما في ذلك شك، لاجماع الرواة على القول به. وقد كان ثائراً

---

1)Ency., IV, p. 998, Tar Andrae, Die Entstehung des Islams und das Charistentums, Upsale, 1926, S. 48.

على قومه، ناقماً عليهم، لتعبدهم للأوثان. وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية، ولكني لا أظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث من العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك، إن هذا الذي ذكره شيء إسلامي خالص، لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى، ولا عند الأحناف. فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الإسلامية، هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام: وضعته على لسانه، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء، لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الإسلام، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه، وأنه لم يكن لذلك غريباً، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب، يعلمون بقرب ظهور نبيّ عربي، وأنهم لذلك بشروا به، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا في أيامه، أو لو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا، وأمثال ذلك من قصص راج وانتشر، كما راج أمثاله في كل دين من الأديان.

ولا بد وأن يكون هذا الوضع قد صنع في القرن الأول للإسلام، لأن أهل الأخبار القدامى يذكرون بعض هذا الشعر[1]. وقد يكون قد وضع أكثره في عهد الحجاج تقرباً إليه، لأنه من ثقيف، وفي ذلك العهد وضع الوضّاع أخباراً كثيرة في الغض من شأن قوم الحجاج، نكاية به فتقدم قوم آخرون إليه بالرفع من شأنها وبإضافة ذلك الشعر الى أمية وغيره، ليكون رداً على كارهي ومبغضي الحجاج.

وتتبين آية الوضع في شعر أمية في عدم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه. فبينما نجد شعره المنسوب إليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين، في ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب إلى شعراء الجاهلية، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين، أسلوب يجعله قريباً من شعر الفقهاء والصوفين المتزمتين، ونسّاك النصارى، فهو بعيد جداً من أسلوب الجاهليين، حتى أسلوب مثل (عدي بن زيد) العبادي والأعشى وبقية من نسب إلى

---

1) بروكلمان (1/ 113).

النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الإسلام[1]. يضاف إلى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر إلى غيره من الشعراء.

وقد يقال إن أسلوب (أمية) في نظم الشعر الديني والحكمي، هو أسلوب صحيح لا يمكن إلاّ أن يكون على هذا الحال، هو أسلوب بعيد عن أسلوب الجاهليين في النظم، لأن الشعر الجاهلي المعروف نظم في أغراض أخرى لا صلة لها بالحكم وبالدين، وما جاء منه إلينا في الحكم وفي الدين هو على أسلوب آخر أيضاً، بدليل أن بعض الشعراء منهم حين نظموا في الحكم، رق شعرهم وبان عن نظمهم المألوف. وبدليل أن نظم (حسان بن ثابت) في الإسلام، هو دون نظمه في الجاهلية من حيث الجزالة والفخامه في النظم، وأن شعر (لبيد). في الإسلام، هو دون ما نظمه في الجاهلية، بسبب تغير الظروف واختلاف الموضوع. وهو اعتذار صحيح، ولكن أسلوب أمية في تعبيره عن الجنة والنار والبعث والحساب، أسلوب آخر، لا يفصح عن عقلية دينية جاهلية، وانما عن عقلية إسلامية. ومن هنا جاء شكنا في صحة هذا الشعر وفي أصالته، وليس من أسلوب النظم.

ولكن من الذي وضع هذا الشعر، ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية؟ ومن الذي وضع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته، ولكنها أبيات إسلامية؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر في ديوان نسبه إليه؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة، ولكن أجوبتها كتاب يؤلف في حياة هذا الشاعر وفي شعره وديوانه، عندئذ يكون هناك مجال للتنقيب عن هذه الأمور، روي أن الحجّاج قال، وهو على المنبر: «ذهب قوم يعرفون شعر أمية»[2]. فهل ذهب العالمون به حقاً قبل أيام الحجاج؟ وهل كان شعره ضخماً واسعاً؟ أو هو قول من أقوال الحجاج، وهو ثقفي من قوم أمية، أو هو قول وزعم من زعم الرواة. وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار.

---

1)Ency., IV, p. 998.

2) الأغاني (4/ 123).

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج إلى دليل، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً. فالقصيدة التي مطلعها:

لك الحمد والمن ربّ العبا   د أنت المليك وأنت الحكمُ

هي قصيدة إسلامية، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعر لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه. خذ هذا البيت منها مثلاً:

محمداً أرسله بالهدى   فعاش غنياً ولم يُهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها:

عطاء من الله أعطيته   وخصّ به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خيرهم   وفي بيتهم ذي الندى والكرم
يعَيبون ما قال لما دعا   وقد فرج الله احدى البُهَمْ
به وهو يدعو بصدق الحدي   ث الى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عبادَ الإلـ   ـه تنجون من شرّ يومٍ ألم
تنجون من ظلمات العذاب   ومن حر نار على من ظلم
دعانا النبيّ به خاتم   فمن لم يُجبه أسر الندم
نبي هدىً صادق طيب   رحيم رؤوف بوصل الرحيم
به ختم الله من قبله   ومن بعده من نبي ختم
يموت كما مات من قد مضى   يردّ إلى الله باري النسم
مع الأنبياء في جنان الخلود   هُمُ أهلها غير حلّ القسم
وقدس فينا بحب الصلاة   جميعاً وعلم خط القلم
كتاباً من اللهِ نقرأ به   فمن يعتريه فقدماً أتم

اقرأ هذه المنظومة، ثم احكم على صاحبها. هل تستطيع أن تقول إنه كان شاعراً مغاضباً للرسول، وإنه مات كافراً، وأن صاحبها رثى كفار قريش في

معركة بدر وأنه قال ما قال في الإسلام وفي الرسول؟ اللهم، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان، هو واعظ مبشر، يخاطب قومه فيدعوهم إلى الإسلام والى طاعة الله والرسول. إنه مؤمن قلباً وايماناً، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه: آمن شعره وكفر قلبه، أو آمن لسانه وكفر قلبه، وإنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول، ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول، مع أن أمية، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه في شعر أمية. نحمد الله على أن صنّاعها لم يتقنوا صنعتها، ففضحوا أنفسهم بها، ودلوّا على مقاتل النظم.

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية، وهي في وصف الجنة والنار استهلت بهذا البيت:

جهنم تلك لا تبقي بغياً ... وعدنٌ لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر في قراءتها، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار، ثم أنعم النظر في هذه الأبيات:

فذا عسل وذا لبن وخمرٌ ... وقمح في منابته صَريمُ
ونخل ساقط الأكتاف عد ... خلالَ أصوله رطب قميمُ
وتفاح ورمان وموز ... وماء بارد عذب سليم
وفيها لحم ساهرة وبحر ... وما فاهوا به لهُمُ مقيم
وحورٌ لا يرين الشمس فيها ... على صور الدمى فيها سهوم
نواعم في الأرائك قاصرات ... فهنّ عقائل وهُمُ قروم
على سررٍ ترى متقابلات ... ألا، ثمَّ النضارةُ والنعيم
عليهم سندس وجياد رَيط ... وديباج يُرى فيها قتوم
وحُلّوا من أساور من لُجين ... ومن ذهب، وعسجده كريم
ولا لَغْوٌ ولا تأثيم فيها ... ولا غولٌ ولا فيها مُليمُ

وكـأس لا تصـدع شاربيـها | يلـذّ بحسـن رؤيتـها النـديم
تصـفّق في صـحافٍ مـن لجـين | ومـن ذهـب مبـاركة رذوم[1]

ثم أحكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات. لقد حاول ناظمها إدخال بعض الكلمات الجاهلية فيها، لإلباسها ثوباً جاهلياً، ولاظهارها بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل، ولكنه لم يتمكن من ذلك، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الإسلام. وما بي حاجة إلى أن أحيلك على الأيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر. وصفه من القرآن الكريم.

ومن الغريب أن بعض الأخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين، فذكر مثلاً أن العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء، وأن منهم من نظر في الكتب وكان مقراً بالجنة والنار. وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة إلى أمية[2]. وقد نسي أن ما قاله على سبيل التعميم أو التغليب، يناقض ما جاء في القرآن الكريم وما أورده الأخباريون عن الجاهليين.

ثم خذ قصيدته في عيسى بن مريم وحمل أمه به[3]، وسائر قصائده الأخرى، تجد عليها هذه المسحة الإسلامية بارزة ظاهرة، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من القول بوجود أبيات قد تكون من نظم أمية حقاً، في هذا المنظوم الديني، غير أن هذا الموجود، هو على كل حال مما لا يتعارض مع عقائد الإسلام. ومن الممكن إدراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره، وبهذه الطريقة نتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين.

---

1) تجد اختلافاً في كلمات هذه القصيدة وأبياتها، وكذلك في قصائد هذا الشاعر الأخرى، فارجع في ذلك إلى طبعات ديوانه وإلى كتب الأدب لمعرفة مواضع الاختلاف: كتاب البدء والتأريخ (1/ 202 وما بعدها)، ديوان أمية «طبعة بشير يموت» (ص 53)، ديوان أمية (ص 51 ما بعدها)، «طبعة فريدرش لولثيس».

2) كتاب البدء والتأريخ (1/ 202)، (طبعة كليمان هوار)، «النص العربي».

3) ديوان أمية (ص 58)، «طبعة بشير يموت»

ولأمية بن أبي الصلت أخت، اسمها (فارعة)[1]. قدمت على النبي بعد فتح الطائف، وكانت ذات لبّ وعفاف وجمال، وكان يعجب بها. وقال لها يوماً: هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً؟ فأخبرته خبره وقصت قصته في شق جوفه واخراج قلبه وردّه مكانه وهو نائم وأنشدته شعره[2]، على ما يزعمه أهل الأخبار.

وذكر أهل الأخبار أسماء أربعة بنين لأمية، هم: القاسم، ووهب، وعمرو (عمر)، وربيعة. فأما (القاسم)، فكان شاعراً، وله مرثية في عثمان بن عفّان[3]. وأسلم (وهب بن أمية) كذلك. وذكر أن رجلاً من ثقيف مات في عهد النبي عن غير ولد، فاختصموا في ميراثه، فأعطى النبى ميراثه لوهب[4]. وأما (ربيعة)، فأسلم كذلك، وله شعر[5]. وقد ذكر أهل الأخبار أن (حقة) بنت (وهب بن أمية بن أبي الصلت)، تزوجت (عبد الله بن صفوان الأكبر)، فولدت له صفوان بن عبد الله بن صفوان[6]. وذكر أن (ربيعة)، قد ولي بعض الوظائف في الإسلام. وأنه صاحب (ربيعتان)، نهر بقرب الابلة. وأن من ولده (كلدة بن ربيعة)، وكان شريفاً شاعراً. وقد ذكر أن بغلاً قتل (ربيعة) على باب دار (عبد الله بن عباس)[7].

وكل ما يعرف عن سويد بن عامر المصطلقي أنه كان على دين الحنيفية وملة إبراهيم، وأنه قال شعراً، وصلت منه بضعة أبيات في (المنايا) وفي المقدر على الإنسان، وأن المنايا محتومة لا مفرّ منها، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصي، وليس لامرىء يدّ فيما يصيبه من مقدور. فهي في هذه المشكلة المعضلة التي شغلت بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة: (الجبر والاختيار)، أو (القدر)، المشكلة التي

---

1) اللسان (1/ 792)، (وثب).

2) الإصابة (4/ 363)، (رقم 824).

3) الإصابة (3/ 213)، (رقم 7052).

4) الإصابة (3/ 604)، (رقم 9157).

5) الإصابة (1/ 493)، (رقم 2590).

6) الإصابة (3/ 604)، (رقم 9157).

7) كتاب البغال، للجاحظ (2/ 258)، (من رسائل الجاحظ)، الأغاني (3/ 179)، الاشتقاق (304 وما بعدها)، (4/ 120)، الشعر والشعراء (1/ 369).

احتلت منزلة الصدارة في (علم الكلام). والتي صارت من أهم موضوعات الجدل في الإسلام. ويقال إنها أنشدت للرسول، فلما سمعها، قال: «لو أدركته لأسلم»[1].

وأما ورقة بن نوفل. فهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، يلتحم نسبه بنسب الرسول في جد جده. ذكروا أنه ساح على شاكلة من شك في دين قومه، وتتبع اليهود والنصارى، وقرأ الكتب، وعدّ في جملة المتنصرين في أغلب الروايات، فقد ذكر أنه «تنصر واستحكم في النصرانية، وقرأ الكتب ومات عليها»[2]. وهذا هو رأي أكثر أهل الأخبار.

ونسب اليه شعر ذكر أنه قاله في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل، وفيه إشارة إلى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت وإلى فكرة التوحيد والإيمان برب ليس رب كمثله والى التنديد بالأوثان[3].

وله أبيات من الشعر يحث فيها على مساعدة الضعيف ونصر المظلوم، وعلى فعل الخير للناس[4].

ولا نعلم عن حياة ورقة في أيام شبابه شيئاً، ولعله كان يعين أهله أو أقربائه في اتجارهم مع بلاد الشأم أو اليمن شأن أكثر شبان أسر مكة المعروفة في ذلك الوقت. فتعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة إلى العراق أو بلاد الشأم، ومن هنا اندفع نحو خارج الجزيرة يلتمس الحكمة والوصول إلى رأي يقنعه في الحياة. ويظهر أنه لم يكن في شبابه من أولئك الشباب الخاملين الذين كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم، دون عمل ولا تفكير، متوسدين الأرض يقتلون فراغهم في ترهات الكلام، كما أنه لم يكن من أولئك الطائشين النزقين الذين يقضون وقتهم في النزاع والخصومة وشرب الخمر والاعتداء على الناس، والحصول على

---

1) بلوغ الأرب (259/2).

2) اليعقوبي (1/ 298)، «22/2» «ليدن»، البداية، لابن كثير (2/ 238).

3) المحبر (171)، ابن هشام (1/ 243، 256)، الأغاني (3/ 113 وما بعدها)، شيخو، النصرانية (1/ 118)، خزانة الأدب (2/ 39 وما بعدها)، مروج (1/ 73)، الذهبي، تأريخ الإسلام (1/ 68).

4) خزانة الأدب (2/ 39 وما بعدها).

المال للانفاق على اللهو بأية طريقة كانت، بل كان شاباً متأملاً مفكراً منكمشاً على نفسه، مكنه علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين، حتى جاء يوم، دفعه اجتهاده الذي وصل إليه على الخروج على تقاليد قومه وانتقاد الأوضاع التي كانوا عليها، مما حمله على ترك مكة طوعاً أو قهراً، والتجول للبحث أو فراراً من غضب قومه عليه.

وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول. وقد أشير اليه في خبر «مجيء جبريل إلى النبي في حراء»، وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات،

يقال إنه قال للرسول وكان قد ذهب إليه مع زوجته خديجة ليسأله رأيه فيما رآه من الرؤيا: «ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك!» وان الرسول قال له: أمخرجي هم؟ قال: نعم، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلاّ عودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»[1]. وأشير اليه في خبر آخر، حيث ورد أن (خديجة) ذهبت وحدها إلى ابن عمها لتسأله عن الرؤيا التي رآها الرسول وعن هذا الناموس الأكبر الذي تجلى له. فلما قصت عليه القصة قال: «لئن كنتِ صادقة، إنّ زوجك لنبي، وليلقين من أمته شدة، ولئن أدركته لأومنن به»[2].

وذكر في خبر آخر أن الرسول قد رأى (ورقة) في منامه، وكان لابساً ثياباً بيضاً، وأن الرسول ذكر ذلك لمن سأله عنه، وبين لهم أنه لو كان من أهل النار لما ظهر له في منامه وهو بهذه الملابس. لأن أهل النار. لا يلبسون ثياباً بيضاً[3]. ويروى أن الرسول قال: «لا تسبّوا ورقة بن نوفل، فإني رأيته في ثياب بيض»[4] قيل إن

---

1) الطبري (2/ 299) «دار المعارف»، ابن هشام (1/ 254 وما بعدها)، المسعودي، مروج (2/ 59)، (1/1/ 73)، «محمد محيي الدين عبد الحميد» «1958م»، الكامل، لابن الأثير (31/2)، الذهبي، تأريخ الإسلام (1/ 75)، القسطلاني، شرح صحيح (1/ 66)، الإصابة (3/ 632).

2) الطبري (2/ 300) «دار المعارف»، ابن سعد، الطبقات (194/1)، «بيروت 1957»، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (1/ 66 وما بعدها).

3) الأغاني (3/ 113 وما بعدها) «بيروت 1955 م».

4) كتاب نسب قريش (207)، الترمذي (3/ 251)، الإصابة (6/ 318 وما بعدها)، مجمع الزوائد (9/ 416).

شخصاً تساب مع أخ لورقة بن نوفل، فسب ورقة ليحرق قلب أخيه، فبلغ ذلك الرسول، فنهى عن سبّه[1].

وجاء في خبر أن (ورقة) كان يمر بمكة فيرى بلالاً وهو يعذَّب، يعذبه المشركون برمضاء مكة، يلصقون ظهره بالرمضاء، ويضربونه يريدون منه أن يشرك بالله، فلا يشرك به. ويأبى إلاّ أن يقول: أحد أحد، فيرثي ورقة لحاله ويقول: أحد أحد والله يا بلال. والله لئن قتلتموه فأنتم من الخاسرين[2]. أو «والله لئن قتلتموه، لاتخذن قبره حناناً»[3].

ويظهر من الأخبار المتقدمة أن (ورقة بن نوفل)، كان قد أدرك أيام الرسول وعاش إلى يوم نزول الوحي عليه. بل يظهر من خبر رؤيته لبلال وهو في حالة تعذيبه، أنه عاش مدة بعد نزول الوحي. غير آن الأخبار المذكورة لا تنص على اسلامه، ولم نجد أحداً قد نص على ذلك. أما خبر رؤيا الرسول له في منامه، فإنه يدل على عدم إسلامه، وعلى أنه كان قد توفي قبل نزول الوحي على الرسول. وهو الرأي الراجح. وهذا ما حمل أحد المؤرخين على القول: وقد اختلف فيه، فمنهم من زعم أنه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي. ومنهم من رأى أنه مات مسلماً وأنه مدح النبي[4]. وقد ورد في بعض الأخبار أن الرسول قال لما توفي ورقة: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي وصدقني»[5]. وورد مثل ذلك من أحاديث زعم أن الرسول قالها في حق ورقة، وهي كلها تشير إلى وفاة ورقة قبل المبعث، وعلى دينه، إذ لم يدرك الإسلام.

---

1) الإصابة (3/ 633).

2) الأغاني (3/ 113 وما بعدها).

3) النهاية، بن الأثير (1/ 226)، الإصابة (6/ 318)، كتاب نسب قريش (208).

4) المسعودي، مروج (2/ 59).

5) القسطلاني، شرح صحيح (1/ 65)، الذهبي، تأريخ الإسلام (1/ 68)، الذهبي، سير النبلاء (80)، خزانة الأدب (2/ 41).

وورد في بعض الروايات أنه «كان يكتب الكتاب العربي، فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء أن يكتب»[1]. وورد في رواية أخرى أنه «كان يكتب الكتاب العبراني، فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب»[2]. والخبران هما خبر واحد، كما يظهر من وحدة النص، غير أن اسم اللغة التي زعم أنه كان يكتب بها قد حرّف، فقرأه بعضهم العربي، وقرأه بعض آخر العبراني. ولما كان الانجيل باليونانية وبلغة بني إرم، فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الانجيل هي العبرانية، وهم يتوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية. والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني إرم التي كانت لغة العلم والأدب والدين في العراق وفي بلاد الشأم، بل وبين مثقفي اليهود ورجال دينهم في ذلك الوقت.

وذكر أهل الأخبار أنه لم يعقب[3]. ولم يذكروا سبب ذلك، هل كان قد تزوج، ولكنه كان عقيماً، فلم يعقب؟ أو أنه عاش أعزب لم يتزوّج طول حياته؟

وكان (أبو قيس صرمة بن أبي أنس) (صرمة بن أنس) وهو من بني النجار، قد ترهب ولبس المسوح، وهجر الأوثان، ودخل بيتاً واتخذه مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم، فلما قدم النبي المدينة أسلم وهو شيخ كبير، وحسن إسلامه. وفيه نزلت الآية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[4]. ورووا له شعراً[5]. وزعم أنه اغتسل من الجنابة، وهمَّ بالنصرانية، ثم أمسك عنها. وذكر أن (ابن عباس) كان يختلف اليه يأخذ عنه الشعر[6].

---

1) النصرانية (1/ 119).

2) الأغاني (3/ 113)، الاشتقاق (164).

3) كتاب نسب قريش (ص 207).

4) البقرة، الآية 187، مروج (1/ 52 وما بعدها)، تفسير الطبري (2/ 97) «بولاق».

5) بلوغ الأرب (2/ 266).

6) بلوغ الأرب (2/ 266)، أسد الغابة (3/ 18)، الإصابة (2/ 176)، (رقم 406)، الاستيعاب (2/ 194)، (حاشية على الإصابة).

وأما (وكيع بن سلمة بن زهر الإيادي)، فهو من إياد، زعم (ابن الكلبي) أنه ولي البيت بعد جرهم، فبنى صرحاً بأسفل مكة، وجعل فيه أمة يُقال لها (حزورة)، وبها سُميّت (حزورة مكة)، وجعل في الصرح سلّماً، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله. وكان ينطق بكثير من الخبر، ويزعم الناس أنه صدّيق من الصدّيقين، وقالوا كان كاهناً[1]. وذكروا له كلمات مسجعة، ليس فيها ما يشرح لنا معتقده الديني ويوضحه وضوحاً تاماً[2].

والصرح كما يقول علماء اللغة، بيت يبنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء وكل بناء عالٍ مرتفع[3]. والحزورة الرابية الصغيرة والتل الصغير[4]. ويظهر أنه كان بنى صرحه فوق تل في محل منفرد، ليختلي هناك على طريقة الرهبان والنساك.

وكل ما عرفه أهل الأخبار عن (عمير بن جندب) الجُهني، أنه كان من جهينة، وأنه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً، وأنه مات قبيل الإسلام[5].

وكان عامر بن الظرب العَدواني من الحكماء، نسبت إليه أقوال في الحكم والدين. منها: «إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلاّ مصنوعاً، ولا جائياً إلاّ ذاهباً، ولو كان يميت الناس الداء، لأحياهم الدواء». ثم قال: «إني ارى

---

1) المحبر (136)، بلوغ الأرب (2/ 260).

2) (وقال الإيادي صاحب الصرح، الذي اتخذ سلماً لمناجاة الرب، وهو القائل: مرضعة وفاطمة، القطيعة والفجيعة، وصلة الرحم وحسن الكلم، زعم ربكم ليجزين بالخير ثواباً، وبالشر عقاباً. وإن من في الأرض عبيد لمن في السماء. هلكت جرهم وربلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد. من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه. كل شاة معلقة برجلها.

وإياه عنى الشاعر بقوله:

ونحن إياد عبيد الإله ورهط مناجيه في السلم

ونحن ولاة حجاب العتيق زمان الرعاف على جرهم

البيان والتبيين (109/2)، الأمثال، للميداني (2/ 81).

3) تاج العروس (2/ 178 وما بعدها)، (صرح).

4) تاج العروس (3/ 138)، (حزر).

5) بلوغ الأرب (2/ 261 وما بعدها).

أموراً شتى وحتى. قيل له: وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حياً، ويعود اللاشيء شيئاً، ولذلك خلقت السماوات والأرض، فتولوا عنه ذاهبين»[1].

وقد نسبوا إليه جملة أحكام، منها حكمه في (الخنثى)، وقد ذكروا أن حكمه هذا قد أقرّه الإسلام. وقالوا إن العرب كانت إذا أشكل عليها أمر في قضاء، أو حارت في أمر معضل ترى وجوب الحكم فيه برأي صائب وعقل وتدبير، ذهبت إليه، فإذا حكم كان حكمه الحكم الفصل، فلا رادّ له[2].

ونسبت إلى كل من عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة وعلاف بن شهاب التميمي أبيات، فيها إقرار بوجود إله واحد خالق لهذا الكون، وبوجود الحساب والثواب والعقاب[3].

وأما (المتلمس بن أمية) الكناني، فذكروا أنه كان قد اتخذ من فناء الكعبة موضعاً يخطب فيه، ويعظ قومه عظات دينية، فكان في جملة ما قاله لهم:

«إنكم قد تفردتم بآلهة شتى، وإني لأعلم ما الله راض به. وإن الله تعالى رب هذه الآلهة، وإنه ليحب أن يعبد وحده»، فنفرت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنبته، وقالوا عنه إنه على دين بني تميم[4].

وفي أبيات منسوبة إلى زهير بن أبي سُلمى الشاعر المعروف إقرار بوجود إله عالم بكل ما في النفوس، هو (الله)، لا تخفى عليه خافية، فلا يجوز كتمان شيء عنه، وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة، فلا مخلص له[5].

---

1) المحبر (135، 181، 236، 237، 239)، بلوغ الأرب (2/ 275 وما بعدها).

2) الروض الأنف (1/ 86)، ابن هشام (1/ 134)، (محمد محيي الدين عبد الحميد)، المعمرون (44 وما بعدها)، عيون الأخبار (1/ 266)، البيان والتبيين (1/ 264، 365، 401)، (2/ 72، 199)، (3/ 38، 39، 299، 369).

3) الأغاني (3/ 113)، (طبعة بيروت)، مروج (2/ 60).

4) بلوغ الأرب (2/ 277).

5) فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، للأمام ثعلب (ص 12)، (طبعة دار الكتب المصرية)، شعراء النصرانية، (القسم الرابع ص 518)، بلوغ الأرب (2/ 277 وما بعدها).

ونسب الإيمان بالله واليوم الآخر إلى أشخاص آخرين، منهم: عبد الله القضاعي والشاعرَ عبيد بن الأبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب، والأول منهم هو ابن تغلب بن وبرة بن قضاعة، كان من الحكماء الخطباء، يتبع الحنيفية، وينهج على نهجها مثل الحنفاء[1].

واما الثاني، وهو عبيد بن الأبرص، فشاعر جاهلي شهير، له في قتله قصة، هي من ذيول قصة (الغريَين) للمنذر بن ماء السماء. نجد في الشعر المنسوب إليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع، ونراه من المتشائمين المؤمنين بالمنايا وبالمحتم المكتوب، ونراه في القصيدة البائية يتوكل على الله، ويدعو الناس إلى الاعتماد عليه فيقول:

من يسأل الناس يحرموه	وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير	والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك	علاَّمُ ما أخفت القلوب[2]

ونراه يقول في المنايا:

فأبلغ بنيَّ وأعمامهم	بأن المنايا هي الوارده
لها مدة فنفوس العباد	إليها وإنْ كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا	فللموت ما تلد الوالده[3]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويتذكر الموت، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال، وينصح الناس بالسير على هذا المنوال. والذي يقرأ شعره، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج، ذي نفس ميالة إلى التقشف والتصوّف، مؤمنٌ بالعدل، كاره للظلم، فهل كان عبيد على هذه

1) بلوغ الأرب (2/ 280).

2) البيان والتبيين (1/ 226)، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص 607 وما بعدها)، أسماء المعتالين (211)، (نوادر المخطوطات).

3) شعراء النصرانية (القسم الرابع ص 604 وما بعدها).

الشاكلة؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه؟ أو هو من نظم من عاش بعده في الإسلام؟

وأما (كعب بن لؤي بن غالب). فهو من أجداد النبى. وقد كان على الحنيفية، وإليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة، فكان يعظهم ويوجههم ويرشدهم يأمرهم بالطاعة والتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين، ويحثهم على صلة الأرحام وإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام[1].

هذه خلاصة موجزة لسير من حشرهم أهل الأخبار في زمرة الحنفاء، تريك آراء الجماعة تكاد تكون واحدة: كفر بالأصنام وبالشرك كله، وإعراض عن عادات قومهم، وثورة على عقائدهم، وترقب لحدوث تطورٍ وإصلاح يقضي على الجهالة، وقد مهدوا له بدعوتهم تلك التي أشاعوها بين بني قومهم فجلبت عليهم السخط والغضب الشديد، مما حمل أكثرهم، وهم في الغالب من مكة وأطرافها، على الفرار من بلدتهم إلى أطرافها المنعزلة الآمنة وغيرها من الأماكن الخالية، ليكونوا في أمان من ايذاء قومهم لهم، وفي وسط يفكرون فيه في خلق السماوات والأرض تفكيراً هادئاً، فلا يزعجهم مزعج، ولا ينغص حياتهم هناك منغص.

لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم إن لم نقل كلهم من القارئين الكاتبين، ونسبوا إلى بعضهم قراءة الكتب والصحف والزبور ومجلة لقمان. يريدون بذلك الكتب المقدسة. ويفهم من كلامهم في بعض الأحيان أن منهم من كان يحسن فهم العبرانية أو لغة بني ارم. ولكن الأخباريين عفا الله عنهم لم يتبسطوا لنا في الحديث عن ماهية تلك الصحف وعن محتويات مجلة لقمان وعن الكتب المنُزلة، ولم يأتوا بنماذج مفصلة طويلة أو قطع ترشد إلى المظانّ

1) ابن سعد، الطبقات (الجزء الأول، القسم ص 39)، بلوغ الأرب (2/ 282).

التي نقلت منها. فأضاعوا علينا، بإهمالهم الإشارة إلى هذه الأمور، أشياء كثيرة مهمة، بنا حاجة ماسة إلى معرفتها، للوقوف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبيل الإسلام وإبان ظهوره.

ويؤكد أهل الأخبار أن بعض أولئك الحنفاء كانوا يسيرون على سنة إبراهيم وشريعته، وأن بعضاً آخر منهم كان يلتمس كلماته ويسأل عنها، وأنهم في سبيل ذلك تحملوا المشاق والأسفار والصعاب. وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشأم وأعالي العراق. أي المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية يومئذ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان. وقد أضافوا إليهم الأحبار أحياناً، وذكروا أن الرهبان والأحبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمل، فليس عندهم ما يأملونه ويرجونه من دين إبراهيم وإسماعيل، ولذلك لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية، بل ظلوا ينتظرون الوعد الحق، ومنهم من مات وهو على هذه العقيدة. مات معتقداً بدين إبراهيم حنيفاً، غير مشرك بربه أحداً.

أما كيف كانت شريعة إبراهيم، وعلى أي نهج سار الحنفاء، وهل كان لهم كتاب أو كتب أو نحو ذلك؟ فأسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار إجابة صريحة واضحة. لذلك صرنا في جهل بأمر تلك الشريعة: شريعة إبراهيم، شريعة التوحيد الحق.

ويذكر أهل الأخبار أنه كان لأتباع إبراهيم من العرب علامات وعادات ميزوا أنفسهم بها عن غيرهم، منها: الختان، وحلق العانة، وقص الشارب، وهي علامات جعلها بعض المفسرين من (كلمات إبراهيم) التي ذكرت في القرآن الكريم، في الآية: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [1]. ذهب القائلون بهذا الرأي إلى أن تلك الكلمات هي عشر: «خمس في الرأس، وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس، فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب وفرق الرأس والسواك.

(1) البقرة، الآية 124.

وأما التي في الجسد فالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان»[1].

ومن سنن شريعة إبراهيم الاختتان. وهو من العادات القديمة الشائعة بين العرب الجاهليين الوثنيين. أما العرب النصارى، فلم يكونوا يختتنون. فالحنفاء في هذه العادة والوثنيون سواء. وفي أخبار معركة (حنين) أنّ الأنصار حينما أجهزوا على قتلى ثقيف ممن سقط في هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبداً، عندما كشف ليستلب ما علية وجد أغرل. فلما تبين ذلك للأنصار، نادى أحدهم بأعلى صوته: يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل ما تختتن. فقام إليه المغيرة بن شعبة، وهو من ثقيف، فأخذ بيده، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه في العرب، فقال له: لا تقل ذلك فداك أبي وأمي، إنما هو غلام لنا نصراني، ثم جعل يكشف له قتلى قومه ويقول له: ألا تراهم مختتنين[2]؟

ويتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعدون الغرل شيئاً معيباً، ومنقصة تكون حديث الناس. وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختتنون، وأن الاختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم، وأنهم في ذلك كاليهود[3]. وقد ورد في الموارد اليهودية ما يفيد اختتان العرب. ولعل التوراة، التي ذكرت قصة اختتان إسماعيل، أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التي كانت شائعة بينهم في ذلك العهد[4].

الاعتكاف:

وقد نسب الاعتكاف في الكهوف وفي البراري وفي الجبال الى عدد من هؤلاء الحنفاء. فقد ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا قد اعتكفوا في المواضع الخالية البعيدة عن الناس، وحبسوا أنفسهم فيها، فلا يخرجون منها إلاّ لحاجة شديدة

1) تفسير الطبري (1/ 414 وما بعدها)، روح المعاني (1/ 374)، بلوغ الأرب (2/ 287)، المحبر (329).

2) الطبري (3/ 130)، «ذكر الخبر عن غزوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هوازن بحنين».

3) الأغاني (6/ 91)، «ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه».

4)Reste, S. 175.

وضـرورة ماسـة[1]. يتحنثـون فيهـا ويتـأملون في الكـون، يلتمسـون الصـدق والحـق. والتحنـث التعبـد. فكـانوا يتعبـدون في تلـك المواضـع الهادئـة السـاكنة، مثـل غـار (حراء) وقد ذكر أن الرسول كان يتحنث فيه الليالي، يقضيها في ذلك الغار[2].

ويعبر عن التعبد ليلا بـ (التهجد) أيضاً. وذكر أن التهجد الصلاة لـيلاً. وقـد كـان الرسـول يتهجـد[3]. والتهجـد التـيقظ والسـهر بعـد نومـة مـن الليـل. والهجـود النـوم عنـد العـرب. ويظهـر أن تفسـير التهجـد بالتعبـد لـيلاً، انمـا ورد مـن تفسيرهم لما ورد في القرآن الكريم: (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)[4]. فخص العلماء التهجد بالتعبد ليلاً.

ويعبر عن التعبد بالنسـك، والنسـك: العبادة والطاعة وكل ما يتقرب به إلى الآلهـة. والنسّـاك: المتعبـدون. وقـد كـان الحنفـاء مـن النسـاك أي المتعبـدين. وعدّوا الذبائح من النسـك. وجعلوا النسيكة: الذبيحـة[5]. والـذبائح، أي النسـائك، هي من أهم مظاهر التعبد والزهد عند الجاهليين.

وممن نسب إلى النسك والرهبنة من الجاهليين (أبو عـامر عبـد عمـرو بـن صيفي بـن مـالـك بـن النعمـان)، أحـد (بـني ضـبيعة بـن زيـد). وكـان في الجاهليـة يسمى (الراهب)، لأنه كان مترهباً، وقد كان من المقدمين بيثرب، إذ كان رأس الأوس فيها، فلما جاء رسول الله إلى المدينة، خاصمه، ثم خرج إلى مكة مباعداً له، ومعه خمسون غلاماً من الأوس، واشترك مع قريش يوم أُحد[6].

1) تاج العروس (6/ 203)، (عكف).

2) تاج العروس (1/ 616)، (حنث).

3) تاج العروس (2/ 543)، (هجد).

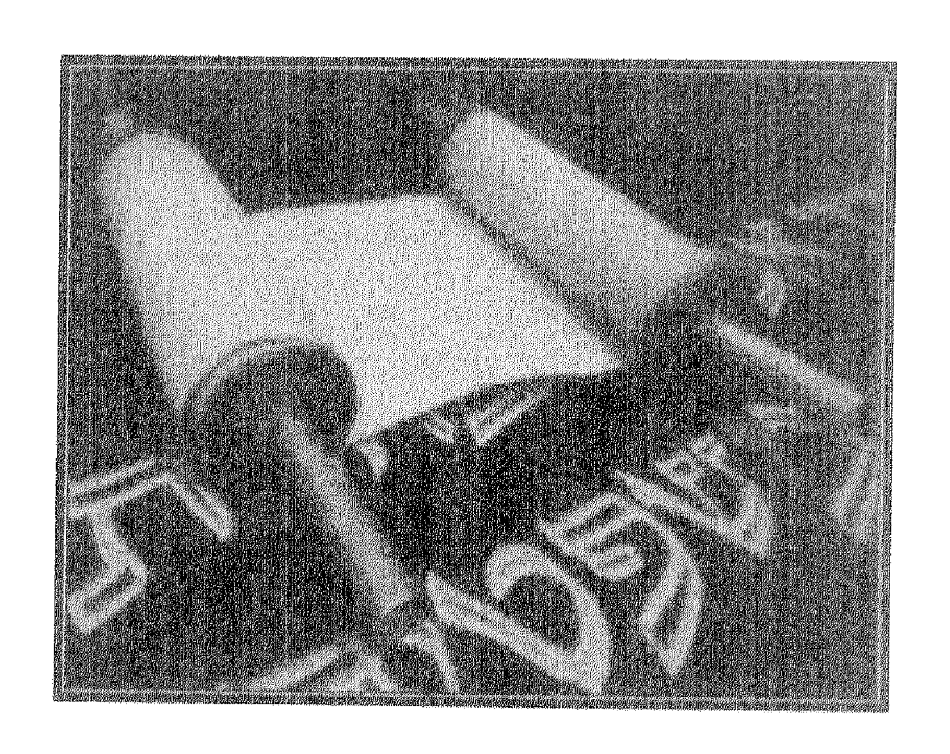
4) الإسراء، الآية 79، تفسير الطبري (15/ 95)، روح المعاني (15/ 127).

5) اللسان (10/ 498 وما بعدها)، (نسك).

6) نهاية الأرب (17/ 89)، (ذكر غزوة أحد)، إمتاع الأسماع (1/ 115)، «غزوة أحد».

الفصل السادس

اليهودية بين العرب



الفصل السادس
اليهودية بين العرب

والحديث عن اليهودية بين العرب، وعن وجود يهود في أنحاء من جزيرتهم، لا يمكن أن يكون حديثاً تأريخياً مبنياً على العلم اذا ارتفعنا به إلى الميلاد وإلى ما قبل الميلاد. ولا يعني كلامي هذا عدم وصول يهود إلى جزيرة العرب، وعدم إقامتهم في أماكن منها. فهذا كلام لا يمكن أن يقال، ولا يمكن قبوله. انما أريد ان أقول إننا لا نملك نصوصاً تأريخية تخولنا أن نتحدث عن اليهود في جزيرة العرب قبل الميلاد حديثاً، علمياً، بأن نعين المواضع التي نزلوا فيها، والأماكن التي وصلوا إليها، وما فعلوه هناك، وفي أي عهد كان ذلك، ومن قادهم إلى تلك الأنحاء، ومن استقبلهم استقبالاً حسناً، أو استقبلهم استقبالاً سيئاً من الجاهليين؟

وقد عرف اليهود عند الجاهليين، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي. ولا بد من وقوف الجاهليين على أحوالهم، لأنهم كانوا كما سنرى يسكنون في مواضع عديدة معروفة تقع ما بين فلسطين ويثرب، كما سكنوا في اليمن وفي اليمامة وفي العروض. وكان تجار منهم يقيمون فى مكة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب للاتجار وإقراض المال بربا فاحش للمحتاجين إليه.

ومعارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة من الموارد الإسلامية. والسبب في ورود خبرهم في هذه الموارد، هو اصطدامهم بالإسلام، ومقاومتهم له حينما دعاهم الرسول إلى الدخول فيه، فنزل فيهم الوحي، وأشير اليهم في الحديث، وذكروا في كتب التفسير والسير والتواريخ والأدب. ومن هنا تجمعت معارفنا عن يهود الجاهلية. ولهذا تجد الحديث عن يهود الجاهلية لا يرتقي كثيراً عن عصر النبوة، ولا يبتعد عنه ولكني لا استبعد احتمال تغير الحال، إذا ما عثر المنقبون في المستقبل على كتابات جاهلية قد تكون مطمورة في الوقت الحاضر في باطن التربة، يكون لها صلة بيهود جزيرة العرب، أو إذا ما عثر على مؤلفات ووثائق

مكتوبة عبرانية أو غير عبرانية قد تكون مجهولة عن ذوي العلم في الوقت الحاضر، تكون لها صلة وعلاقة بأمر يهود جزيرة العرب قبل الإسلام.

وقد وردت لفظة (يهود) معرفة في القرآن الكريم. أي على هذا الشكل: (يَهُودِيًّا). وردت في مواضع من سورة البقرة[1]. ومن سورة المائدة[2] ومن سورة التوبة[3]. وكلها سور مدنية. ولم ترد في سورة من السور المكية. كما وردت لفظة (يهودياً) في سورة آل عمران، وردت في شرح ديانة (إبراهيم): (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[4]. وهي من السور المدنية كذلك.

وعبر القرآن الكريم عن اليهود وعن معتنقي اليهودية بـ (الَّذِينَ هَادُوا)[5]، وبـ (مَن كَانَ هُودًا)[6] و(كُونُوا هُودًا)[7]و(كَانُوا هُودًا)[8]وسورتي الأنعام والنحل من السور المكيّة. وبناء على ذلك تكون جملة «الذين هادوا» قد نزلت قبل نزول لفظة (اليهود) في القرآن الكريم.

وقد عبر عن العبرانيين عامة بـ (بني اسرائيل) في القرآن الكريم. عبر عنهم في سور مكية وفي سور مدنية. ويلاحظ أن ورود هذا التعبير في القرآن الكريم، هو أكثر بكثير من ورود لفظة (اليهود) فيه.

ولما كانت فلسطين امتداداً طبيعياً للحجاز، كان من الطبيعي اتصال سكانها بالحجاز، واتصال سكان الحجاز بفلسطين، وذهاب جاليات يهودية إلى

---

1) البقرة، الآية 113، 120.
2) المائدة، الآية 18، 51، 64، 82.
3) التوبة، الآية 30.
4) آل عمران، الآية 67.
5) البقرة، الآية 62، النساء، الآية 46، 160، المائدة، 41، 44، 69، الأنعام، الآية 146، النحل، الآية 188، الحج، الآية 17، الجمعة، الآية 9.
6) البقرة، الآية 111.
7) البقرة، الآية 135.
8) البقرة، الآية 140.

العربيـة الغربيـة، للاتجـار وللاقامـة هنـاك، خاصـة بعـد فتـوح الـدول الكـبرى لفلسـطين، واسـتيلائها عليهـا، وهجـرة اليهـود إلى الخـارج. فكانـت العربيـة الغربيـة لاتصالها بفلسـطين مـن الأمـاكن الملائمـة المناسـبة لهجـرة اليهـود إليهـا، وإقـامتهم فيهـا، ولا سـيما عنـد مواضـع الميـاه وفي الأرضـين الخصـبة العـامرة. غـير أننـا لا نستطيع، كما قلت، التحدث عن هجرة اليهود هذه إلى هذه الأنحاء حديثاً علمياً معززاً بالكتابات وبالتواريخ.

ولم يترك يهود جزيرة العرب لهم أثراً مكتوباً يتحدث عن ماضيهم فيها. وكل مـا عثر عليه منهم، نصوص معدودة، وجدت في اليمن، لا تفصح بشيء ذي بـال عن اليهـود واليهوديـة. كـذلك لم يصـل إلينـا إن أحـداً مـن المؤلفين والكتبـة العبرانيين ذكر شيئاً عن يهود الجاهلية. وليس لنـا مـن تـأريخ اليهـود في جزيـرة العرب إلاّ ما جاء في القرآن الكريم وفي الحـديث وكتـب التفسير والأخبار والسير. فمادتنا عن تأريخ اليهودية في العربية، لا ترتقي إلى عهد بعيد عن الإسلام.

لقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن اليهود كانوا في جملة من كـان في جيش (نبونيـد) يـوم جـاء إلى تيمـاء. فأقـاموا بهـا وبمواضـع أخـرى مـن الحجـاز بلغـت (يثـرب). وأن هـؤلاء اليهـود أقـاموا منـذ ذلـك الحـين في تلـك الأمـاكن واسـتوطنوا وادي القـرى وأمـاكن أخـرى إلى مجـيء الإسـلام. غير أن (نبونيـد) لم يشر في أخباره المدونة إلى وجود اليهود في جيشـه والى اسكانه لهـم في هـذه الأرضـين كما أننا لم نعثر على كتابات تتحدث عن هذا العهد أو عن العهد الـذي سبقه أو الـذي جـاء مـن بعـده، لـذلك فإننـا لانسـتطيع أن نعـزز هـذا الكـلام بنصـوص وكتابـات. وإن كنـا لا نريـد نفـي احتمـال مجـيء اليهـود إلى هـذه الـديار في عهـد (نبونيد)، أو في عهد (بخت نصر)، أو قبل العهديْن.

نعم، لقد عثر على عدد من الكتابات النبطية في الحجر وفي مواضع أخـرى مـن أرض النبط وردت فيهـا أسمـاء عبرانيـة تشير إلى أن أصـحابها مـن يهـود، ويعـود بعضـها إلى القـرن الأول للمـيلاد، ويعـود بعـض آخـر إلى مـا بعـد ذلـك مثـل الكتابـة التي يعود عهدها إلى سنة 307 ميلادية، وصاحبها رجل اسمه (يحيى بـر شمعـون)

أي (يحيى بن شمعون)[1]. غير أن هذه الكتابات شخصية، ولا تفصح بشيء ذي بال عن عقيدة أصحابها، ولا عن تأريخهم في هذين الأرضين.

وقد ذهب اليهود إلى العربية الشرقية، ذهبوا إليها من العراق، فسكنوا في مواضع من سواحل الخليج، وتاجروا مع أهل هذه البلاد ومع باطن الجزيرة. وقد ساعدتهم بعض الحكومات على الذهاب إليها. وقد كانت ليهود العراق تجارات مع أهل الخليج، كما يفهم ذلك من مواضع من التلمود.

ويتبين من روايات المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) Iosephos Flavius أن اليهودية كانت قد وجدت لها سبيلاً بين العرب. وأن بعض ملوك مملكة (حدياب) Adiabene كانوا قد دخلوا فيها[2]. ويذكر المؤرخ (سوزومين) Souzomenos أن اليهود كانوا ينظرون إلى العرب الساكنين شرق الحد العربي Limes Arabicus على أنهم من نسل إسماعيل، وأنهم كانوا يرون أنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم، فهم من ذوي رحمهم، ولهم بهم صلة قربى. وكانوا يرجون لذلك دخولهم في دينهم، واعتناقهم دين إبراهيم جد اليهود والعرب. وقد عملوا على تهويد أولئك العرب[3].

ويظهر من مواضع من التلمود أن نفراً من العرب دخلوا في اليهودية، وأنهم جاءوا إلى الأحبار، فتهودوا أمامهم[4]. وفي هذه المرويات (التلمودية)، تأييد لروايات أهل الأخبار التي تذكر أن اليهودية كانت في حمير، وبني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكندة[5]، وغسان[6]. وذكر (اليعقوبي) أن ممن تهود من العرب العرب «اليمن بأسرها. كان تُبّع حمل حبرين من أحبار يهود إلى اليمن، فأبطل

---

1) Islamic Culture, Vol., III, No. 2, April 1929, Judaeo-Arabic Relations in Pre-Islam's Times, By Josef Horovity, p. 170.

2) Die Araber, II, S. 65, ff.

3) Sozomenos, 6, 38, 10-13, 299, 17, Die Araber, II, S. 74.

4) Y 'bamot, 16 b, 'Aboda Zara 27,a, Die Araber, II, S. 74.

5) المعارف (621)، الأعلاق النفيسة (217).

6) البدء والتأريخ (4/ 31).

الأوثان، وتهود من باليمن، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير. وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام»[1].

وقد ذكر علماء التفسير في تفسيرهم الآية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[2]، أنها نزلت في الأنصار. كانت المرأة المقلات في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده، فتهود قوم منهم. فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام. أو أنهم لما بقوا، على يهوديتهم، وأمر اليهود بالجلاء، وفيهم منهم، شق على آبائهم ترك أبنائهم يذهبون مع اليهود، فقالوا: «يا رسول الله أبناؤنا وإخواننا فيهم.. فسكت عنهم رسول الله، صلى الله عليه فسلم، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ...﴾ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد خيّر أصحابكم، فإن إختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فهم منهم»[3]. وذكر العلماء أيضاً أن ناساً من الأنصار كانوا مسترضعين في بني قريظة وغيرهم من يهود، فتهودوا، وأن من الأنصار من رأى في الجاهلية أن اليهودية أفضل الأديان، فهودوا أولادهم، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه، فنزل الوحي بالآية المذكورة[4]. فقد كان إذن بين يهود جزيرة العرب، عرب دخلوا في دين يهود.

وذكر أهل الأخبار أن (جبل بن جوال بن صفوان) الثعلبي، من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، كان يهودياً فأسلم. فهو عربي، يظهر أنه أو أهله قبله قد

1) اليعقوبي (226/1 وما بعدها).
2) البقرة، رقم 2، آية 256.
3) تفسير الطبري (3/ 10 وما بعدها).
4) تفسير الطبري (3/ 10 وما بعدها)، تفسير القرطبي (3/ 280 وما بعدها).

تهودوا، فكان على دين يهود، وعاش مع (بني قريظة)، حتى اعتنق الإسلام[1]. وذكروا أسماء آخرين كانوا من متهودة الجاهليين.

ويرى بعض المؤرخين اليهود أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن يهود العربية مثلهم في العقيدة، بل رأوا أنهم لم يكونوا يهوداً، لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ولم يخضعوا لأحكام التلمود[2]. ولهذا لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين العبرانيين.

وعندي إن عدم ورود شيء عن يهود الحجاز في أخبار المؤلفين العبرانيين لا يمكن أن يكون دليلاً على عزلة يهود الحجاز عن بقية اليهود. فقد أهمل غيرهم أيضاً ولم يشر إليهم، لأن التأليف والنشاط الفكري عند العبرانيين كانا قد تركزا في هذه العهود على المستوطنات اليهودية في العراق وعلى فلسطين، وعلى (طبريا) بصورة خاصة، ولم تشتهر الجاليات اليهودية التي انتشرت في مواضع أخرى بالتأليف، فكان من الطبيعي أن تنحصر أخبار اليهود في هذا العهد في هذين القطرين. ولهذا لم يشر إلى يهود الحجاز والى يهود بقية جزيرة العرب. ثم إن الحجاز على اتصال بفلسطين، وفلسطين جزء من الحجاز متمم له جغرافياً، وهو متصل بفلسطين منذ القدم، وفلسطين منفذه التجاري، وميناء (غزة) من المواضع التي كان يقصدها تجار الحجاز للاتجار، والحركة مستمرة دوماً بين فلسطين والحجاز، وقد كان تجار اليهود من أهل الحجاز يتاجرون مع بلاد الشأم وفي جملتها أرض فلسطين، فلا يعقل بالطبع أن يصير يهود الحجاز في عزلة عن يهود فلسطين، وألاّ يكون بين اليهودين اتصال. أما من ناحية الآراء الدينية والاعتقادية، فقد يكون بين اليهودين بعض الاختلاف، فقد وقع اختلاف في الآراء بين أحبار يهود العراق وبين أحبار يهود فلسطين، فلا يستبعد إذن رأي من يقول بوجود اختلاف في وجهة نظر يهود فلسطين بالنسبة ليهود الحجاز، إذ قد يكون

1) الإصابة (1/ 223 وما بعدها)، (رقم 1071).

2) إسرائيل ولفنسون: تأريخ اليهود في بلاد العرب (ص 13)، (القاهرة 1927).

يهود الحجاز ويهود جزيرة العرب قد تأثروا بالعرب الذين نزلوا بينهم فاضطروا إلى التخفيف من التمسك بشعائر دينهم، لا سيما وأن من بين يهود جزيرة العرب يهود متهودون، كانوا في الأصل من أدوم ومن النبط ومن العرب، دخلوا في اليهودية لعوامل متعددة، فلم يكونوا لذلك على سنّة اليهود الأصيلين في المحافظة على شريعتهم محافظة شديدة تامة.

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر إلى يثرب، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم. وقد أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع إتاوة لهم، وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم. وكان من شأنهم أيضاً التفريق بين الرؤساء وإثارة الشحناء بين القبائل حتى لا تصفو الأحوال فيما بينها وتلتئم ولئلاء يكون اتفاقها والتئامها خطراً يتهدد اليهود.

وليس الذي يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشاً إلى الحجاز، واستقرار ذلك الجيش في يثرب بعد فتكه بالعماليق وبعد وفاة موسى، ثم ما يذكرونه عن هجرة داوود مع سبط يهوذا إلى خيبر وتملكه هناك ثم عودته إلى اسرائيل[1] وأمثال هذا إلاّ قصصاً من هذا النوع الذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار، لا أستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم، لإثبات انهم ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم، وانهم كانوا ذوي بأس شديد، وأن تأريخهم في هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء اسرائيل، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين.

وقد زعم أهل الأخبار، أن العمالقة كانوا أصحاب عز وبقي شديد، وكانوا ينزلون الحجاز في جملة ما نزلوا من أماكن في أيام موسى. وكان منهم:

---

1) الأغاني (19/ 94 وما بعدها)، «أخبار اوس ونسب اليهود بيثرب وأخبارهم»، ابن خلدون (2/ 88)، (2/ 594)، «دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956»، أبو الفداء (1/ 123)، ابن الأثير، الكامل (1/ 401 وما بعدها)، ابن خلدون (2/ 594) «بيروت 1956»، ابن هشام (2/ 17).

بنو هف وبنو سعد وبنو الأزرق وبنو مطروق. وملكهم إذ ذاك رجل منهم اسمه (الأرقم)، ينزل ما بين تيماء وفدك. وكان سكان يثرب من العمالقة وكذلك سكان بقية القرى. فلما تغلب عليهم العبرانيون انتزعوا منهم مساكنهم، وأقاموا في مواطنهم في الحجاز[1].

وقد أخذ أهل الأخبار ما رووه عن دخول اليهود إلى يثرب في أيام موسى، وما ذكروه عن إرساله جيشاً إلى هذه المنطقة، ثم ما رووه عن سكنهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز، من سفر (صموئيل الأول) من التوراة[2]. وقد حسب أهل الأخبار العمالقة من سكان يثرب القدماء، ومن سكان أعالي الحجاز، فزعموا أن تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة، وأن اليهود قد سكنوها لذلك منذ أيام موسى. وقد أخذ الأخباريون رواياتهم هذه من اليهود، وممن دخل منهم في الإسلام[3].

ويري بعض الأخباريين أن ابتداء أمر اليهود في الحجاز ونزولهم وادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب إنما كان في أيام (بخت نصر)، فلما جاء (بخت نصر) إلى فلسطين، هرب قسم منهم إلى هذه المواضع واستقروا بها إلى مجيء الإسلام[4]. وليس في هذا الخبر ما يحملنا على استبعاده، فهروب اليهود إلى أعالي الحجاز ودخولهم الحجاز أمر سهل يسير، فالأرض واحدة وهي متصلة والطرق مفتوحة مطروقة، ولا يوجد أي مانع بمنع اليهود أو غير اليهود من دخول الحجاز. لا سيما وأن اليهود كانوا خائفين فارين بأنفسهم من الرعب، فهم يبحثون عن أقرب ملجأ إليهم يحميهم من فتك ملك بابل بهم. وأقرب مكان مأمون اليهم هو الحجاز.

---

1) الأغاني (19/ 94)، ابن هشام (2/ 17).

2) صموئيل الأول: الإصحاح الخامس عشر، الآية 5 وما بعد.

3) Nöldeke, Beträge, S. 52.

4) الأغاني (94/19)، ابن خلدون (2/ 594)، «دار الكتاب»، أبو الفداء (1/ 123)، الكامل (1/ 401)، R. Donyy, Die Israeliten zu Mekka, S. 135.

اما ما ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشأم وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تأريخي صحيح[1]. فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدّى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين.

وكان يقيم بـ (مقنا) عند ظهور الإسلام قوم من اليهود اسمهم (بنو جنبة)، وقد كتب إليهم الرسول والى أهل (مقنا) يدعوهم إلى الإسلام، أو إلى دفع الجزية[2]. وكتب إلى قوم من يهود اسمهم (بنو غاديا)[3]، والى قوم آخرين اسم (بنو عريض)[4].

ومن هؤلاء المهاجرين على رأي الأخباريين بنو قريظة وبنو النضير وبنو بهدل. ساروا إلى الجنوب في اتجاه يثرب، فلما بلغوا موضع الغابة، وجدوه وبيّاً، فكرهوا الاقامة فيه، وبعثوا رائداً أمروه أن يلتمس لهم منزلاً طيباً، وأرضاً عذبة، حتى إذا بلغ (العالية)، وهي بطحان ومهزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة. بها مياه وعيون غزيرة، رجع إليهم بأمرها، وأخبرهم بما راه منها، فقرّ رأيهم على الإقامة فيها. فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور، فكانت لهم تلاعه وما سقي من بعاث وسموات[5].

وسكن اليهود يثرب. سكنها منهم بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص وبنو ماسلة، سكن هؤلاء المدينة وأطرافها، وكان يسكن معهم من غير

---

1) ابن خلدون (2/ 594)، «بيروت 1956».
2) ابن سعد، طبقات (1/ 276).
3) ابن سعد، طبقات (1/ 279).
4) ابن سعد، طبقات (1/ 279).
5) الأغاني (19/ 94 وما بعدها)، ابن خلدون (2/ 594)، تأريخ أبو الفداء (1/ 123) «مطبعة التقدم».

بني اسرائيل بطون من العرب، منهم: بنو الحرمان حي من اليمن، وبنو مرثد حي من بلَيّ، وبنو نيف وهم من بلي أيضاً، وبنو معاوية حي من بنيُ سليم ثم من بني الحرث بن بهثة، وبنو الشطيّة حي من غسان. وظل اليهود أصحاب يثرب وسادتها، حتى جاء الأوس والخزرج، فنزلوها واستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين اليهود، فتغلبوا عليهم، وسيطروا على المدينة، وقسموها فيما بينهم، فلم يبق من يومئذ عليها سلطان[1].

وتذكر روايات أهل الأخبار أن مجيء الأوس والخزرج إلى يثرب كان بعد حادث سيل العرم. جاؤوا إليها لفقر حالهم، والتماساً لوطن صالح جديد، وأنهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة. ولذلك قنعوا بالذي حصلوا عليه من أرض ضعيفة موات، ومن رزق شحيح. أما المال والثروة والملك والجاه، فلليهود. بقوا على ذلك أمداً حتى إذا ما ذهب مالك بن العجلان، وهو منهم، إلى أبي جبيلة الغساني رئيس غسان يومئذ، ونزل عنده، شكا لأمير غسان سوء حال قومه وما هم عليه من بؤس وضنك. فوعد أبو جبيلة أن يأتي على رأس جيش من قومه لمساعدته، على أن يقوم بعد عودته ببناء حائر عظيم، يعلن أنه بناه لاستقبال الأمير فيه، وأن يطلب من اليهود الخروج لاستقباله والتشرف بزيارته في ذلك الحائر، فإن فعلوه، فتك بهم وأبادهم. فلما تمّ البناء، ووصل الأمير في الأجل الموقوت، ودخل المدعوون رؤساء اليهود الحائر، فتكت عساكر أبي جبيلة بهم وأهلكتهم، وتمت الغلبة من يومئذ للأوس والخزرج، وعاد أبو جبيلة الى مقر ملكه[2].

غير أن اليهود ظلوا مع هذه الغلبة يتهاترون مع الأوس والخزرج ويعترضونهم ويتناوبونهم، فعمد مالك بن العجلان الى الحيلة، فتظاهر أنه يريد الصلح معهم، وأنه عزم على تسوية العداوات وطمس الحزازات، وأنه لذلك يدعو رؤساء يهود إلى طعام، ليتفاوضوا مع سادات قومه في أمر الصلح. فلما حضر

---

1) الأغاني (19/ 95)، الكامل، لابن الأثير (1/ 401).

2) الأغاني (19/ 97 وما بعدها)، ابن خلدون (2/ 596)، أبو الفداء (1/ 123)، الكامل (1/ 401).

رؤساء يهود، فتك بعشرات منهم ممن استجاب لدعوته، وفرّ أحدهم ليخبر قومه بما حدث، وحذر أصحابه الذين بقوا، فلم يأت منهم أحد.

«فلما قتل مالك من يهود من قتل، ذلّوا، وقلّ امتناعهم، وخافوا خوفاً شديداً، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم لبعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك، ولكن يذهب اليهودي إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم، فيقول: انما نحن جيرانكم ومواليكم، فكان كل قوم من يهود لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم» ومنذ ذلك الزمن لم يبقَ لليهود على هذه الأرضين سلطان[1].

وورد في رواية أخرى أن (مالك بن عجلان)، كان من الخزرج، وكان سيد قومه يومئذ، وكان على اليهود رجل منهم اسمه (الفَطْيون) ملك عليهم، واستبد بأمر الناس، وكان يهودياً ومن بني ثعلبة، وكان امرأ سوء فاجراً، قرر ألاّ تدخل امرأة على زوجها إلاّ بعد دخولها عليه. فاغتاظ مالك من فعل الفَطْيون ومن استذلاله للعرب، ولما كان زفاف أخته لزوجها، وكان لا بد من ادخالها على (الفطيون) أولاً ليستمتع بها، كبر ذلك عليه، فدخل معها في زي امرأة، فلما أراد (الفطيون) الخلو بها، وثب مالك عليه وعلاه بسيفه وقتله، وخلّص قومه منه، وفرّ عندئذ إلى أبي جبيلة ملك غسان[2].

وتذكر هذه الرواية أن (أبا جبيلة) لم يكن من غسان، بل كان من الخزرج، وكان عظيماً ذا منزلة كبيرة في الناس، حتى صار ملكاً على الغساسنة، ويرجح رواتها أنه لم يكن ملكاً على آل غسان، بل كان مقرباً عند ملكهم، عظيم الحظوة لديه. ودليلهم على ذلك عدم اعتراف الغساسنة بوجود ملك عليهم

---

1) الأغاني (19/ 95 وما بعدها)، ابن الأثير، الكامل (1/ 401 وما بعدها).

2) ابن الأثير، الكامل (1/ 401)، وفي بعض الكتب «القطيون»، بحرف القاف، وهو تحريف، المحبر (112)، جمهرة أشعار العرب (243)، (القاهرة 1926م).

اسمه (عبيد بن سالم بن مالك بن سالم)، وهو اسم (أبو جبيلة) المذكور. ويذكرون أن (الرمق بن زيد الخزرجي) مدحه بشعر قاله فيه[1].

وتذكر رواية أن الفطيون اسم عبراني، واسمه (عامر بن عامر بن ثعلبة بن حارثة)، وكان تملك بيثرب. فلما قتل خرج مالك بن العجلان، حتى قدم على (أبي جبيلة) ملك غسان، فأعلمه غلبة يهود على يثرب وفعله بهم، فقدم (أبو جبيلة) يثرب، ثم صنع طعاماً، ومكن الأوس والخزرج ممن دعاهم إلى الطعام من قتل مائة من أشراف اليهود، فقويت الأوس والخزرج عليهم[2].

وجاء في رواية أخرى، أن (مالك بن العجلان)، إنما فرّ إلى (تبع)، بعد قتله (الفطيون) فأستصرخه على اليهود، فجاء حتى قتل ثلثمائة وخمسين رجلاً غيلة من سادات يهود بـ (ذي حرض)، ولما آدبهم رجع إلى أرضه اليمن[3].

أما مالك بن العجلان، فقد صوره اليهود شيطاناً ملعوناً، وصوروه في بيعهم وكنائسهم ليلعنوه كلما دخلوا ورأوه، وذكروه في شعرهم في أقبح هجاء قالوه[4].

وقد كان بين يهود يثرب قوم يقال لهم (بني الفطيون) بقوا حتى جاء الرسول إلى يثرب. فأجلاهم في السنة الثالثة من الهجرة[5]. وذكر (ابن دريد) أن بعضاً من (بني الفطيون) الذين هم من نسل (الفطيون) ملك يثرب، قد شهد

---

1) ابن الأثير، الكامل (1/ 401 وما بعدها).

2) نوادر المخطوطات، أسماء المغتالين (136 وما بعدها).

3) البدء والتأريخ (3/ 179).

4) الأغاني (19/ 69)، الاشتقاق (ص 270)،

Graetz, Geschichte der Juden, V, S. 431, Hisrchfeld, Essai de l'histoire des Juives de Medine, Revue Etudes Juives, VII, 1889, p : 173, Caussin de Perceval, Essai, II, p. 652, Wellhausen, Skizze, IV, S. 33, Nallino, Raccoltam Ilim p. 111.

5) المحبر (112).

(بدراً) واستشهد بعضهم يوم اليمامة. وذكر أن نسب (الفطيون) في غسان. وأن من ولد الفطيون: (ابو المقشعر) واسمه (أسيد بن عبد الله)[1].

وقد فسّر أهل الأخبار كلمة (الفطيون) بـ (مالك)، وقالوا إنها تقابل (النجاشي) عند الحبشة، و(خاقان) عند الترك. وذكروا أسماء نفر ممن كانوا يلقبون بالفطيون[2].

ويفهم من روايات الأخباريين أن يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر وبطوناً، منهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو عكرمة، وبنو محمر، وبنو زعورا، وبنو زيد، وبنو الشطية، وبنو جشم، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو القصيص (العصيص)، وبنو ثعلبة[3]. غير أنهم لم يكونوا أعراباً، أي بدواً يتنقلون من مكان إلى مكان، بل كانوا حضراً استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها، ومارسوا مهن أهل المدر، كل جماعة مستقلة تحمل اسماً من تلك الأسماء التي ذكرها الأخباريون.

وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بـ (الكاهنين)، نسبوا ذلك إلى جدهم الذي يقال له (الكاهن). و(الكاهن) هو الكاهن بن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار[4]. فهم على هذه النسبة من أصل رفيع ومن نسب حسيب، يميزهم عن بقية طوائف يهود. ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا، ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من إخوانهم في الدين.

ويرى (نولدكه) احتمال كون بني النضير وبني قريظة من طبقة الكهّان في الأصل: هاجروا من فلسطين على أثر الحوادث التي وقعت فيها، فسكنوا في هذه

---

1) الاشتقاق (2/ 249)، «وستنفلد».

2) الاشتقاق (2/ 259).

3) الأغاني (19/ 95 وما بعدها)، سيرة ابن هشام (2/ 147 وما بعدها)، Nöldeke, Beträge, S. 54.

4) الأغاني (19/ 95)، تاج العروس (5/ 259)، (قرظ)، Margoliouth, p. 59, Graetz, History of the Jews, III, p. 56.

الديار. وهناك جملة عشائر وأسر يهودية تفتخر بإلحاق نسبها بالكاهن هارون شقيق موسى النبي[1].

كذلك يرجع (أوليري) كأمثاله من المستشرقين أصل بني قريظة وبني النضير إلى اليهود، ويرى أنهم غادروا ديارهم وجاءوا إلى هذه المنطقة في الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل في عام 70 للميلاد وتنكيل (هدريان) باليهود في عام 123 للميلاد[2].

ويرجع بعض بقية يهود جزيرة العرب نسبهم إلى الكاهنين وإلى الأسباط العشرة. كذلك، فيدعون أنهم من تلك الأسباط المفقودة، وأنهم من نسل قدماء اليهود[3].

وقد كانت منازل بني النضير حينما غزاهم الرسول في وادي بطحان وبموضع البُويرة[4]. ووادي بطحان، هو أحد أودية يثرب الثلاثة، وهي: العقيق وبطحان وقناة. وهو واد فيه مياه غزيرة وعيون، اتخذ به اليهود الحدائق والآطام. وقد كان موضع البُويرة عامراً كذلك، وهو من تيماء، فيه نخل وزرع وأشجار. وقد غزاهم الرسول بعد ستة أشهر من غزوة أُحد، فأحرق نخلهم وقطع زرعهم وشجرهم لتطاولهم على المسلمين. ومن ساداتهم: حيي بن أخطب، وأخوه ياسر بن أخطب، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، وهو أبو رافع الأعور، والربيع بن أبي الحقيق[5]. وعمرو بن جحاش.

---

1) Nöldeke, Beträge, S. 55.

2) O'beary, p. 173.

3) Nallino, Raccolta, III, p. 99, Friedlander, The Jews of Arabia, and the Rechabites, in Jews Quarterly Review, 1910-1911, p. 254.

4) بالضم ثم السكون، وقيل بفتح أوله وكسر ثانيه وبفتح أوله وسكون ثانيه، البلدان (2/ 216)، (1/ 512 وما بعدها)، (السعادة).

5) البلدان (2/ 310 وما بعدها)، البكري، معجم (1/ 285)، «طبعة مصطفى السقا» «بويرة»، شرح ديوان حسان، للبرقوقي (ص 193 وما بعدها)، الطبري (2/ 224)، (الاستقامة)، فتوح البلدان، للبلاذري (1/ 32)، (1932م)، (القاهرة).

ومن بني النضير، كعب بن الأشرف، وكان معاصراً للرسول، وكان صاحب لسان ونفوذ. أبوه من طيء على رواية، ومن بني النضير على رواية أخرى. أما أمه فهي من بني النضير بإجماع الرواة. توفي أبوه- على رأي من يقول إنه من طيء- وهو صغير، فحملته أمه إلى أخواله، فنشأ فيهم، وقال الشعر عندهم، وساد. ولما جاء الرسول إلى يثرب، كان كعب فيمن ناصب الرسول العداء فعلاً وقولاً، فهجا الرسول، وهجا أصحابه، وظل هذا شأنه بالرغم من محاولة المسلمين استصلاحه واسترضاءه. حتى جنى عليه لسانه، فأهدر النبي دمه، فذهب إليه نفر من المسلمين، فاقتحموا داره وقتلوه. وقد كانت له مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج[1].

وكان قد ذهب إلى مكة، فحرض قريشاً على الرسول، ولما عاد إلى موضعه، ألب المشركين من أهل يثرب عليه. ورثا قتلى القليب، فقتله المسلمون كما ذكرت[2].

وكانت لبني قريظة حصون، يتحصنون بها وقت الخطر، ولهم آبار، ومنهم (محمد بن كعب القرظي)[3]. والزبير بن باطان بن وهب، وعزال بن شمويل، وكعب بن أسد، وشمويل بن زيد، وجبل بن عمرو بن سكينة.

وكان بنو قينقاع أول اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء، وكانوا يسكنون في أحياء يثرب، وكانوا أغنياء على غير وفاق ووئام مع بقية أبناء قومهم بني قريظة وبني النضير، وقد اشتركوا في يوم بُعاث. ووقعت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة معارك فتك فيها ببني قينقاع، وأصيبوا بخسائر كبيرة

---

1) الأغاني (19/ 106 وما بعدها)، المحبر (ص 117، 282، 390)، ديوان حسان (ص 46)، «طبعة هرشفلد»، شرح ديوان حسان (ص 272 وما بعدها)، «للبرقوقي»، الكامل، لابن الأثير (2/ 99)، الطبري (2/ 177)، معجم الشعراء، للمرزباني (343)، ابن خلدون (2/ 757)، ابن هشام (2/ 548)، البداية والنهاية (4/ 74).

2) التنبيه (243)، والمصادر المذكورة، السيرة الحلبية (2/ 94 وما بعدها)، الكامل، لابن الأثير (1/ 401 وما بعدها)، ابن خلدون (2/ 608)، ابن عساكر (1/ 40)، البداية النهاية (4/ 74 وما بعدها).

3) تاج العروس (5/ 259)، (قرظ)، البداية والنهاية (4/ 116)، الأغاني (19/ 94)، فتوح البلدان، للبلاذري (1/ 23/ 35)، الطبري (2/ 245)، (الاستقامة)، السيرة الحلبية (2/ 145)، ابن خلدون (777).

اضطرتهم على ما يظهر إلى الالتجاء إلى يثرب والإقامة فيها في حي واحد من المدينة[1].

ويرى (أوليري) احتمال كون بني قينقاع من أصل عربي متهود، أو من بني أدوم[2].

وقد تكون بعض القبائل اليهودية التي ذكر أسماءها الأخباريون قبائل يهودية حقاً، أي من الجماعات اليهودية التي هاجرت من فلسطين في ايام القيصر (طيطوس) Titus، أو (هدريان) Hadrian، أو قبل أيامهما، أو بعدها، ولكن بعضاً آخر منها، لم يكن من أصل يهودي، انما كانت قبائل عربية دخلت في دين يهود، ولا سيما القبائل المسماة بأسماء عربية أصيلة. ولبعض هذه الأسماء، صلة بالوثنية تشعر أنها كانت على الوثنية قبل دخولها في دين يهود[3]. والظاهر أنها تهودت إما بتأثير التبشير، وإما باختلاطها ودخولها في عشائر يهودية جاورتها فتأثرت بديانتها. وقد ذكر البكري أن (بنى حشنة بن عكارمة)، وهم من بليّ قتلوا نفراً من بني الربعة، ثم لحقوا بتيماء «فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم، فتهودوا، فأدخلوهم المدينة. فكانوا معهم زماناً، ثم خرج نفر إلى المدينة، فاظهر الله الإسلام، وبقية من أولادهم بها»[4]. وهنالك بطون أخرى عربية الأصل كانت على دين يهود[5].

وقد اشتهر يهود خيبر من بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم. وخيبر موضع غزير المياه كثيره، وقد عرف واشتهر بزراعته وبكثرة ما به من نخيل. وعند إجلاء اليهود عن خيبر، تفرقوا فذهب بعض منهم إلى العراق، وبعض آخر إلى الشأم، وبعض منهم إلى مصر. وقد بقوا في كل هذه المواضع متعصبين لوطنهم

---

1) البداية والنهاية (4/ 3)، الطبري (2/ 172)، (الاستقامة)، البدء والتأريخ (4/ 195)، البلدان (7/ 199)، ولفنسون (128 وما بعدها)، السيرة الحلبية (2/ 2 وما بعدها)، ابن خلدون (2/ 608).

2) O'beary, p. 173, f.

3) Margoliouth, p. 60, Nöldeke, Beträge, S. 52, Wüstenfeld, Geschichte von Medina, S. 28.

4) البكري (1/ 29) «طبعة السقا»، Islamic Culture, III, Vol., 2, p. 177.

5) Nöldeke, Beträge, S. 55.

القديم خيبر، ينادون بشعارهم الذي كانوا ينادون به قبل الإسلام، وهو: (يا آل خيبر)[1].

وقد اشتهرت (خيبر) وعرفت بالحمى. حتى نسبت إليها، فقيل لها (حمى خيبرية). وكان من أساطيرهم إذ ذاك، أن من أراد دخولها فعليه بالتعشير ليتخلص منها. وكان من أوابدهم فيما يزعمون أن الرجل إذا ورد أرض وباء ووضع يده خلف أذنه، فنهق عشر نهقات نهيق الحمار، ثم دخلها أمن من الوباء[2].

وزعم أن يهود خيبر هم من نسل (ركاب) المذكور في التوراة،[3] وأن (يوناداب) Jonadab(جندب) ابنه: تبدى مع أبنائه ومن اتبعه، وعاش عيشة تقشف وزهد وخشونة، وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكل الأول إلى الحجاز حتى بلغوا خيبر، فاستقروا بها، واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب، وأنهم أقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب عليهم. ذكر بعض الأخباريين أنها ولاية من سبعة حصون، منها: حصن ناعم، والقموص حصن ابن أبي الحقيق وهو أقواها وأعزها وقد أقيم على مرتفع من الأرض حماه وعزز دفاعه، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن وجده، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة (الكثيبة). وقد أخرجوا منها وأجلوا عنها زمان عمر بن الخطاب[4].

وقد زعم بعض الأخباريين أن خيبر لفظة عبرانية، وأن معناها الحصن في عربيتنا[5]. وزعم بعض آخر أنها نسبة إلى رجل اسمه (خيبر بن فاتيه بن مهلاييل)، سميت خيبر باسمه، لأنه كان أول من نزلها[6]. وذهب (وايل) Weil،

---

1) المشرق: السنة السادسة والثلاثون، 1938 (ص 152 وما بعدها).

2) قال عروة بن الورد:

وإني وإنْ عشرت من خشية الردى نهاق حمار إنني لجزوع

تاج العروس (3/ 403)، (عشر).

3) الملوك الثاني: الإصحاح العاشر، الآية 15 ـ 28، Hastings, p. 784.

4) البلدان (3/ 495 وما بعدها)، البكري، معجم (1/ 521)، تاج العروس (3/ 168)، (خبر)، زاد المعاد (2/ 133)، تأريخ الإسلام (1/ 294 وما بعدها)، Graetz, III, p. 56, Ency., II, p. 869, Caetani, Annali, II, I, 8-33.

5) أبو الفداء، (ص 89)، البلدان (3/ 495)، البكري، معجم (2/ 521 وما بعدها)، تاج العروس (3/ 168)، (خبر).

6) R. Dozy, Mekka, S. 136.

إلى ان اللفظة لفظة عبرانية، وهي بمعنى مجموعة مستوطنات[1]. أما (دوزي)، فقد أخذ بالرواية العربية، فزعم أن (خيبر)، كناية عن جماعة من اليهود هاجرت في أيام السبي من فلسطين الى هذا الموضع، وهي من نسل (شفطيا بن مهللئيل) من (بني فارص)[2]. وأن (فاتيه)، هو تحريف (شفطيا) Shaftja المذكور في سفر (نحميا) من أسفار التوراة، وهو ابن (مهللئيل)، الذي هو (مهلاييل) عند أهل الأخبار. وزعم أن زمان هجرة هذه الجماعة يتناسب تماماً مع الرواية القائلة إن هجرة اليهود إلى جزيرة العرب كانت، في أيام (بخت نصر)[3].

وذهب المستشرقون أن كلمة (خيبر)، كلمة عبرانية الأصل (خيبر) Kheber ومعناها الطائفة والجماعة[4]. وذهب بعضهم إلى أن معناها الحصن والمعسكر[5]. وهي من أقدم المواضع التي لجأ إليها اليهود في الحجاز.

ومن الصعب تعيين الزمن الذي هاجر فيه اليهود إلى هذا الموضع. لقد رجع بعضهم ذلك إلى أيام هجوم الرومان على فلسطين. غير أن من الجائز أن تكون هجرتهم إليها قد وقعت قبل ذلك، ومن الجائز أن تكون في أثناء السبي واستيلاء البابليين على القدس، وقد يجوز أن يكون قوم منهم قد جاءوا مع (نبونيد) ملك بابل إلى تيماء حين اتخذ (تيماء) عاصمة له. فهاجر قسم منهم إلى خيبر والى نواح أخرى من الحجاز[6].

وأقدم إشارة كتابية ورد فيها اسم خيبر، نص: حرّان اللجاة، ويرجع تأريخه إلى سنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطية الأولى، وتقابل سنة 568 للميلاد. وقد ورد فيه: «بعد مفسد خيبر بعم»[7]. أي بعد خرب خيبر بعام. وهو

1) Mohammed der Prophet, s. 185.

2) نحميا، الإصحاح الحادي عشر، الآية 4 وما بعدها.

3) R. Dozy, Mekka, S. 136, f.

4) Charles Cutler Torrey, The Jewish Foundations of Islam, New York, 1933, p. 13.

5) Ency., II, p. 870.

6) Torrey, p. 17, A. Müller, Der Islam, Bd., I, S. 36. ff.

7 جواد علي، العرب قبل الإسلام (1/ 195 وما بعدها).

يشير إلى غزو لهذا الموضع أنزل به خسائر كبيرة، ولأهميته وفداحته في نفوس أهله أرخوا بوقوعه. ويعود النص المذكور المدون باليونانية والعربية إلى (شرحيل بن ظلمو) (شراحيل بن ظالم)، وقد دوّنه لمناسبة بنائه (مرطولاً)، فأرخ بتاريخ خيبر المذكور. وهو يشير إلى غزوة قام بها أحد أمراء غسان على خيبر[1].

وقد وجدت كتابات بحروف المسند وكتابات نبطية في خيبر، هي أقدم عهداً من نص (حرّان اللجاة)، يفهم منها بوجود سكن في هذه الأرضين يعود بعضه إلى ما قبل الميلاد. ولم تكتشف تربة خيبر حتى الآن، وكل ما عثر عليه من عاديات فيها هو من النوع الذي وجد ظاهراً على سطح الأرض، وليس بمستبعد أن يعثر فيها على كتابات قد تكشف عن تأريخ هذه البقعة.

ولما بلغ أهل تيماء ما حدث لإخوانهم في خيبر ووادي القرى، وفدك، قبلوا الجزية، وصالحوا الرسول في سنة تسع للهجرة، فضمن بذلك لهم حرية بقائهم في دينهم. وعلى تيماء كان يشرف حصن السموأل (الأبلق الفرد). وقد نعتت تيماء في بعض الأشعار بتيماء اليهود[2].

وتيماء من المواضع القديمة. وقد مرّ الحديث عنها في أماكن من هذا الكتاب. وقد سبق أن قلت بأن الملك (نبو نيد) قد أقام زماناً فيها، حيث اتخذها عاصمة له. وهي في موقع حسن، وملتقى طرق هامة يسلكها التّجار. وقد استبد بها اليهود فأقاموا بها وجعلوها من أهم مستوطناتهم في الحجاز. استغلوا أرضها فزرعوها، واستنبطوا الماء من الآبار بالإضافة إلى واحتها ذات المياه العذبة الغزيرة التي كان لها الفضل في تكوين هذا الموضع وإعماره. وقد ذكرت في شعر (امرىء القيس)، وفيها كان حصن السموأل بن عادياء المذكور في قصص امرىء القيس الشاعر.

---

1) المصدر المتقدم، المعارف (313)، ولفنسون، السامية (192).

2) البلدان (2/ 442) «تيماء»، فتوح البلدان (1/ 29).

ويرى بعض المستشرقين أن (شمعون التيماني) Simeon ofTemanite المذكور في التلمود والمدراش، هو من أهل (تيماء)[1]. ولا يستبعد أن يكون من بين أهل هذه المدينة من حصل على شهرة في العلم بفقه اليهود وبأحوال دينهم. فإن مركزها وموقعها يجعل من السهل على سكانها الوصول إلى فلسطين وبقية بلاد الشأم وأخذ العلم من علماء تلك البلاد.

وقد عثرالرحالة (أويتنك) Euting على كتابة مدونة بقلم بني إرم تعود إلى عهد كان الفرس قد استولوا فيه على هذا المكان، تتحدث عن أهمية تيماء ورقيها في هذا العهد[2]. ولا يستبعد العثور على كتابات عديدة إذا ما قام العلماء بالتنقيب عنها في باطن الأرض، فإن موضعاً مثل هذا الموضع لا بدّ أن يكون غنياً بالكتابات والآثار. وقد وجد (أويتنك) آثار معبد قديم، وآثار مواضع عتيقة أخرى ترجع إلى ما قبل الإسلام[3]. ووجد (جوسن) Jaussen و(سافينه) Savignac آثار مقابر على تلال من النوع الذي يطلق عليه الآثاريون اسم (تمولي) Tumuli، ومرقاة مدرجة تؤدي إلى بناء مربع لعله معبد من معابد القوم بني على هذا التل[4].

ولا توجد اليوم بقية للأبلق الفرد، الذي افتخر السموأل وآل السموأل به، وكذلك يهود تيماء. وليس بمستبعد أن يكون ذلك الحصن من بقايا قصر (نبونيد) أو من بقايا قصر رجاله، أو من بقايا أبنية غيره ممن نزل هذا المكان. وقد يكون بناء أقامه السموأل وبناه بحجر تلك الأبنية القديمة. وقد أكسب قصر

---

1) Mishna Yadayim, I, 3, Yebamoth, 4, 13, Tosephta Berachoth, 4, 24, Sanhedr, 12, 3, Besa, 2, 19, Bab. Talmud, Zebachim, 32b, Baba gamma, 90b., Besa, 21a, Tarrey, p. 26, Margoliouth, p. 68.

2) Ency., IV, p. 622.

3) Euting, Tagebuch einer Reise in Innerarablen, II, 146, 199.

4) Jaussen and Savignac, Mission Arhéologiques, II, pp. 133, 163.

السموأل، هذا الموضع شهرة، وأكسبه خبر وفاء السموأل شهرة كذلك على النحو المذكور في كتب الأدب والأخبار[1].

وفدك موضع آخر من المواضع الذي غلب عليه اليهود. وسكانه مثل أغلب يهود الحجاز مزارعون عاشوا على الزراعة كما اشتغلوا بالتجارة وببعض الحرف التي تخصص فيها اليهود مثل الصياغة والحدادة والنجارة[2]. والموضع من المواضع القديمة التي يعود عهدها إلى ما قبل الإسلام، وقد ذكره الملك (نبونيد) في جملة المواضع التي زارها والتي خضعت لحكمه في الحجاز. وكان رئيس فدك عند ظهور الإسلام وهجرة الرسول إلى يثرب يوشع بن نون[3].

ووادي القرى، هو من المواضع التي غصت باليهود، فكان أكثر أهله منهم. وقد كان يهوده من المزارعين[4]، وقد حفروا به الآبار، وتحالفوا مع الأعراب، وعاشوا معهم متحالفين. يعملون بالزرع. وقد غزاهم الرسول مرجعه من خيبر سنة سبع للهجرة، على أثر إصابة (مدعم الأسود) مولى الرسول بسهم غارب قتله. وهو مولى مولد من (حسمى)، كان أهداه (رفاعة بن زيد الجذامي) أو (فروة بن عمرو الجذامي) إلى الرسول[5].

وكان بين أهل مقنا وأيلة في أيام الرسول قوم من اليهود كذلك، وكذلك أهل بقية القرى الواقعة في أعالي الحجاز وعلى ساحل البحر، وقد صالحوا الرسول على الجزية، وبذلك ضمنوا لهم البقاء في هذه الأنحاء[6]. ومن

---

1) أبو الفداء تقويم البلدان (86)، البكري، معجم (1/ 329)، البلدان (2/ 67)، اللسان (12/ 76) «صادر»، ابن حوقل، صورة الأرض (30)، ابن خلدون (2/ 574)، دائرة المعارف الإسلامية «الترجمة العربية» (6/ 130).

2) البكري، معجم (1/ 327)، تقويم البلدان (78).

3) الطبري (3/ 98)، «حوادث السنة السابعة» ابن الأثير (2/ 93)، «ذكر فدك»، البلاذري، فتوح (36 وما بعدها)، Nallino, Raccolat, I, 198, III, 97.

4) زاد المعاد (2/ 146).

5) الطبري (3/ 16)، (ذكر غزوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وادي القرى)، الإصابة (3/ 374)، (رقم 7858).

6 البلدان (8/ 128)، «مقنا»، البلاذري، فتوح (66)، زاد المعاد (2/ 117)، الطبري (2/ 232 وما بعدها).

هؤلاء اليهود (بنو جنبة)، وهم يهود بـ (مقنا)[1]، و(بنو غاديا)[2]، و(بنو عريض)[3].

وكان بالطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب، فجاءوا إليها ولم تكن قد أسلمت بعد، فأقاموا بها للتجارة. فلما صالح أهل الطائف الرسول. على أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم، واشترط عليهم ألا يربوا ولا يشربوا الخمر وكانوا أصحاب ربا . وضعت الجزية على يهودها، وبقوا فيها، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف[4].

ويظهر أنه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في جنوب المدينة حتى اليمن، لعدم إشارة أهل الأخبار إليهم، وإن كنت لا أستبعد وجود أفراد وأسر منهم في مكة وفي عدن وفي المدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض موانىء البحر الأحمر وموانىء سواحل العربية الجنوبية. غير أن وجودهم في هذه المواضع، لم يكن له أثر واضح مهم، فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار.

وقد ذهب بعض المستشرقين، استناداً إلى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الإسلام، إلى أن أولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقاً، بل كانوا عرباً متهودين، تهودوا بتأثير الدعاة اليهود[5]. ولكن الاستدلال من دراسة الأسماء على أصول الناس، لا يمكن أن يكون حجة للحكم على أصولهم وأجناسهم. فالفرس والروم والهنود وغيرهم ممن دخل في الإسلام، تسمّوا بأسماء عربية، وبعضها أسماء عربية خالصة. وتسمياتهم هذه لا تعني أن من تسمى بها كان عربي الأصل. ثم إن كثيراً من اليهود في الغرب وفي أمريكة وفي البلاد العربية والإسلامية، سموا أنفسهم بأسماء غير عبرانية، ولكنهم كانوا وما زالوا على دين يهود.

---

1) ابن سعد، طبقات (1/ 276).

2) ابن سعد، طبقات (1/ 279).

3) ابن سعد، طبقات (1/ 279).

4) البلاذري، فتوح (63).

5) W. Caskel, Das attararabische köningereich Lihyan, S. 19.

فالأسماء وحدها لا تكفي في إعطاء رأي علمي في تعيين الأصول والأجناس، ولا سيما في المواضع الكائنة على طرق التجارة والمواصلات وفي الأماكن التي يكثر فيها الاختلاط.

وللمستشرق (ونكلر) رأي في هذا الموضوع، خلاصته: إن أولئك اليهود لو كانوا يهوداً حقاً هاجروا من فلسطين إلى هذه المواضع، لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعي على خلاف ما كان عليه هؤلاء اليهود. كانت حالتهم أرقى وأرفع من الحالة التي كانوا عليها، إذ لا يعقل، على رأيه، وصول جماعة إلى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي والمدني أرقى من مستوى من هو دونهم كثيراً في شؤون الحياة. ومستوى الحياة في جميع نواحيها، في فلسطين، أرقى وأرفع من مستواها في الأماكن التي وجد فيها اليهود من بلاد العرب، فهم على رأيه عرب متهودون، لا يهود مهاجرون[1].

غير أن هنالك من يؤاخذ ونكلر على هذا الرأي، لأن رأيه لا يمكن أن ينطبق على من ترك دياره وهاجر، واستقر في موطن جديد لأمد طويل، لأن الأوضاع المحيطة بالوطن الجديد سرعان ما تؤثر في المهاجرين، ولا سيما إذا كانوا جماعات صغيرة أو جماعات ليست ذات بأس شديد، فتجعلها تنصاع للمحيط الذي نزلت به بعض الإنصياع، فتفقد بعض خصائصها، لتكتسب خصائص المجتمع الجديد. ثم إن اليهود الذين نزلوا في الحجاز كانوا يختلفون مع ذلك عمن كان في جوارهم أو بينهم، إذ كانوا يشتغلون بالزراعة ويمتهنون بعض المهن التي يأنفها العربي الأصيل، كما أنهم كانوا لا يرغبون في القتال، ولا يميلون إلى الغزو والحروب، ولم يشتركوا إلاّ اضطراراً وإلا بإلحاح المصالح الضرورية فيها، وهم يختلفون في هذه الناحية من الأعراب[2].

---

1) Wnkler, Mett. Var. Asal. Ges., VI, S. 222.

2) Margoliouth, p. 62.

ويلاحظ أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها محافظة شديدة، كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى. فأكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص، هي أسماء عربية، والشعر المنسوب إلى شعراء منهم، يحمل الطابع العربي، والفكر العربي. وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية لم يكونوا يختلفون اختلافاً كبيراً عن العرب، فهم في أكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين[1]. ولعل هذا بسبب تأثير العرب المتهودة عليهم، وكثرتهم بالنسبة إلى من كان من أصل يهودي، مما سبب تأثيرهم، وهم ذوو أكثرية، في اليهود الأصيلين الذين أثروا فيهم فأدخلوهم في دينهم، فأثروا هم فيهم، وطبعوهم بطابع عربي.

وقد عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها، فلبسوا لباسهم، وتصاهروا معهم، فتزوج اليهود عربيات، وتزوّج العرب يهوديات، ولعلّ كون بعض يهود من أصل عربي، هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس. والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود عند ظهور الإسلام هو الاختلاف في الدين. وقد تمتع اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد[2].

ومن الأسماء التي قد تكون من أصل عبراني (زعورا)، وهو اسم عبراني متأثر بلهجة بني إرم، و(يساف)، وقد يكون من (يوسف)، و(نبتل) وقد يكون من (نفتالي) Naftali، وأسماء أخرى لم تتمكن من المحافظة على أصلها العبراني، فتأثرت بخواص اللسان العربي. وليس بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر، التي كانت في الحجاز في أيام ظهور الإسلام، اسم تظهر عليه الملامح العبرانية غير الاسم الذي ذكرته وهو (زعوراء)[3].

---

1) Nöldeke, Beträge, S. 55, f.

2) Graetz, III, p. 58, f., 60.

3)Margoliouth, p. 60, Nallino, Raccolta, III, p. 104, H. Hirschfeld, Essai sur l'histoire des Juives de Medine, in Revue Etudes Juives, VII, 1889, p : 173 f.

وكانت يثرب عند هجرة الرسول إليها، في أيدي أصحابها الأوس والخزرج، لهم السيطرة والسلطان، ولليهود آطامهم وقلاعهم في خيبر وفي تيماء وفي بعض قرى وادي القرى وفي أعالي الحجاز، يتاجرون، ويزرعون، ويقرضون الأموال بالربا الفاحش للأعراب، ويحترفون بعض الحرف مثل الصياغة، وهي حرفة اشتهروا بها منذ القديم، ويعقدون الأسواق ليقصدها الأعراب للامتيار.

ولكن اليهود مع ما كان لهم من قلاع وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرضين التي أنشأوا مستوطناتهم فيها، ولم يتمكنوا من انشاء ممالك وحكومات يحكمها حكام يهود، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل، يؤدون لهم إتاوة في كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدي عليهم. وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم، فكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين.

وقد كان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه في كل سنة. وهؤلاء السادة هم أصحاب الآطام والحصون والأرض. ولمن يشتغل في الأرض تسديد ما عليه لصاحبها في مقابل استغلاله لها. وقد اعتنوا عناية خاصة بزراعة النخيل. وعرفت القطعة من الأرض المزروعة نخلاً عندهم بـ (الصورين) (الصور)[1]. ولما كانت الأرضون المزروعة واسعة، كانت خارج الآطام والحصون، يحميها حراسها والمشتغلون بها أيام ثمرتها. وأما في أيام الغزو والحروب، فقد كانت معرضة لهجوم المهاجمين. وهذا ما كان يعرض أعظم غلة اليهود للخطر، ولهذا شق عليهم كثيراً، وانهارت مقاومتهم حين أمر الرسول بقطع النخل وتحريقه، وأخذوا يلتمسون منه وقف ذلك.

---

1) الروض الأنف (2/ 194)، ابن هشام (2/ 195)، (حاشية على الروض)، (الصور: أصل النخل)، (الصور: النخلة)، تاج العروس (3/ 343)، (صور).

ويتولى الأحبار الأمور الدينية وتنفيذ الأحكام والنظر فيما يحدث بين الناس من خصومات. يقيمون لهم الصلوات وبقية شعائر دينهم، ويعلمونهم في بيوت المدارس.

وقد أدى التنافس بين سادات يهود إلى نشوب معارك بينهم في الجاهلية. وقد أشار إليها القرآن الكريم وأنّبهم على ذلك. واضطرت بنو قينقاع بسبب ذلك وبضغط بني النضير وبني قريظة الى الالتجاء إلى أحياء يثرب والى محالفة الخزرج، وفي مقابل ذلك تحالفت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس، فصاروا فرقتين: فرقة مع الخزرج، وفرقة مع الأوس.

وفي تأنيب يهود، لتخاصمهم وتنابذهم وإخراجهم بعضهم بعضاً من ديارهم وأسْر بعضهم بعضاً وافتداء الأسرى كالذي وقع بين بني قينقاع وبني النضير، نزل الوحي: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[1]. أنبهم لأنهم فعلوا فعل المشركين والأعراب، مع أنهم أهل دين واحد وكتاب. أما المشركون فلا لوم عليهم، لأنهم لم يكونوا على دين، وليس لهم كتاب يأمرهم وينهاهم.

وفي المعارك والخصومات التي تقع بين يهود، كانوا يؤدون الدية. وهي على ما يظهر من روايات أهل الأخبار مختلفة، وغير متكافئة. فكان بنو النضير يؤدون الدية كاملة لشرفهم في يهود، أما بنو قريظة، فكانوا يؤدون نصف الدية. وفي خلاف في أداء الدية وقع بينهم، التجأوا إلى الرسول للحكم بين، فذكروا له هذا

1) البقرة، الآية 84 وما بعدها، روح المعاني (1/ 309)، ابن هشام (2/ 23)، (حاشية على الروض).

الاختلاف، فحكم بالدية متساوية. وفي هذا الحكم نزلت الآية: (سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ)[1]. ذكر علماء التفسير عن (ابن عباس) أنه قال: «كانت قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة ودى مائة وسق من تمر، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، تبل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا: ادفعوه الينا لنقتله، فقالوا: بيننا وبينكم النبي، صلى الله عليه وسلم، فنزلت: وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط. النفس بالنفس، ونزلت أفحكم الجاهلية يبغون»[2].

وذكر علماء التفسير في تفسيرهم للآيات المتقدمة، أن أحبار اليهود لم يكونوا يحكمون بالحق فيما بين الناس، كانوا يحابون ويتحزبون ويحكمون بالباطل ويأكلون (السحت) أي الرشا، جزاء حكمهم بالباطل. وكانوا يتساهلون في تطبيق أحكام الشريعة مع الشريف لشرفه، ويتشددون مع الدنيء لدناءته وفقر حاله. ولا يراعون التساوي في أخذ الديّات. «كان الشريف إذا زنى بالدنيئة رجموها هي وحموا وجه الشريف وحملوه على البعير، أو جعلوا وجهه من قبل ذنب البعير. وإذا زنى الدنيء بالشريفة: رجموه». وكان هذا شأنهم «إلى أن زنى شاب منهم ذو شرف، فقال بعضهم لبعض لا يدعكم قومه ترجمونه، ولكن اجلدوه ومثّلوا به، فجلدوه وحملوه على حمار أكاف وجعلوا وجهه مستقبل ذنب الحمار. إلى أن زنى آخر وضيع ليس له شرف، فقالوا ارجموه. ثم قالوا فكيف لم ترجموا الذي قبله، ولكن مثل ما صنعتم به فاصنعوا بهذا»، واختلفوا فذهب فريق منهم إلى الرسول، فحكم بينهم بما جاء بحكم التوراة[3].

---

1) المائدة، الآية 42.

2) تفسير القرطبي، الجامع (6/ 187)، تفسير الطبري (6/ 157).

3) تفسير الطبري (6/ 157).

وذكر أن (حيي بن أخطب) كان قد حكم أن للنضري ديتان وللقرظي دية، لأنه كان من النضير[1].

وذكر أهل الأخبار أنه كان لليهود حكام يحكمون بينهم، ويقيمون حدودهم عليهم. فلما جاء الرسول إلى يثرب، صار اليهود يعترضون على عدالة حكم بعضهم، ولا يرضون بتنفيذ أحكامهم عليهم. فكان الحكام أو هم يذهبون إلى الرسول لكي يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون وفق شريعتهم[2].

وكان جلّ اعتماد اليهود في هذه المنطقة عند ظهور الإسلام على التجارة، ومعاطاة الربا والزرع، وبعض أنواع الصناعة: كالصياغة، وتربية الماشية والدجاج، وصيد الأسماك في أعالي الحجاز على ساحل البحر الأحمر. واشتهروا بالاتجار بالبلح وبالبر والشعير والخمر، وكانوا يجلبون الخمر من بلاد الشأم. وكانوا يبيعون بالرهن، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه. وقد ورد أن الرسول رهن درعاً له عند يهودي من أهل يثرب في مقابل شعير كان به حاجة شديدة إليه[3].

ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود، النسيج وهو من اختصاص نسائهم على الأكثر، والصياغة وقد اختص بها بنو قينقاع، والحدادة، وهي صناعة يأنف منها العرب ويزدرونها ويرونها من الحرف الممقوتة الحقيرة.

ولم يكن من مصلحة اليهود، وهم أهل زرع وضرع ومال وتجارة وأرض ثابتة وقصور وآطام، أن يشتركوا في الحروب أو يشجعوا وقوعها في ديارهم وفي جوارهم، بل كان من مصلحتهم أن يعمّ الاستقرار البلاد التي يقيمون فيها، ليعيشوا عيشة هنيئة، وليبيعوا ما عندهم من الأعراب وليشتروا منهم ما عندهم من سلع وليقبضوا أموالهم منهم والأرباح التي استحقت على تلك الأموال.

---

1) تفسير الطبري (6/ 157).

2) تفسير القرطبي، الجامع (6/ 187).

3) Islamic Culture, 1929, III, No., 2, p. 187.

وفي النزاع الذي يقع بين القبائل، لم يكن من مصلحتهم تأييد حزب على حزب، خوفاً من الوقوع في أخطاء تجر عليهم أخطاراً ومهالك هم في غنى عنها وفي مأمن من شرّها. ثم إنهم بتحزبهم لطرف يغضبون الطرف الآخر، فيضمر عندئذ شراً لهم، فيخسرون بذلك مشترياً وبائعاً. وهم أناس أصحاب سوق وتجارة. غير أن الظروف كانت تكرههم في بعض الأحيان على الاشتراك في الحرب، وعلى إثارة الحرب أيضاً متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ومصلحة ترتجى كأن ينهكوا العدوّ بحرب مع عدو آخر بإيقاع الفتنة وإشعال النيران، كما أوقعوا بين الأوس والخزرج، لإضعاف الطرفين معاً، حتى لا تبقى لهم قوة تهددهم وتكون خطراً عليهم.

وفي يوم بعاث استعان الأوس ببني قريظة والنضير، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا إليهم يحذرونهم من سوء عاقبة الإشتراك في هذا النزاع، فتوقفوا، غير أنهم عادوا فعاونوا الأوس، وانضم إليهم بنو النبيت. فلما كسب الأوس الحرب، كسب بنو قريظة والنضير والنبيت غنائم من الخزرج، وخرجوا في هذا اليوم منتصرين بانتصار الأوس[1].

ويذكر أهل السير والأخبار: إن يهود يثرب كانوا اذا تضايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبي يستعلون به عليهم. ففي رواية عن بعض الصحابة أنهم قالوا: «كنا قد علوناهم في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون لنا: إن نبياً يبعث الآن نتبعه، قد أطل زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم»[2]. ولما ذكّرهم معاذ بن جبل وبشر بن البرّاء بن معرور ونفر آخرون بدعواهم تلك، وبظهور النبى العربي بقولهم، لهم: «يا معشر يهود، اتقوا الله، واسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتخبروننا انه مبعوث وتصفونه لنا بصفته»، فكان جواب يهود لهم ما جاء على لسان سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم.

---

1) ابن هشام (3/ 94)، اليهود (ص 62 وما بعدها).

2) ابن هشام (2/ 166)، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد)، تفسير الطبري (1/ 324).

وقد أشير إلى ذلك في القرآن الكريم: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)[1].

واستفتاح اليهود على المشركين، هو للتفريج عن أنفسهم ولتخويف الأوس والخزرج ولاعتقادهم حقاً بظهور مسيح منهم، أي من بني اسرائيل. ولهذا أنكروا نبوة الرسول، وأبوا التسليم بها، لأنه لم يكن منهم، ولأن النبوة لا تكون -على رأيهم - إلاّ في بني اسرائيل. فكيف يصدقون بنبي عربي من الأميين (نبي اموت هاعولام) Nebi'e Ummot ha-'Olam.

يهود اليمن:

والموضع الثاني الذي عششت فيه اليهودية وباضت، هو اليمن. ففي هذه الأرض من جزيرة العرب ظهر اليهود فيها ظهوراً واضحاً، وصارت اليهودية ديانة البلاد الرسمية. أما كيفية مجيئها وانتشارها هناك، ومتى كان ذلك، فليس لدينا علم واضح دقيق عن ذلك. ويزعم أهل الأخبار أن تبعاً، وهو التبع (تبّان أسعد أبو كرب)، اهتدى إلى هذه الديانة عند اجتيازه بيثرب وهو عائد إلى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي ايران، وذلك بتأثير بعض الأحبار عليه، ومنذ ذلك الحين صارت هذه الديانة ديانة رسمية للبلاد[2].

وتجعل بعض روايات الأخباريين اسم هذا التبع (تبع بن حسان) أو (حسان)، وهو (تبع الأصغر)، أو (أبو كرب بن حسان بن أسعد الحميري) أو غير ذلك. وتزعم أن حبرين من أحبار اليهود من بني قريظة عالمين راسخين في العلم، هما اللذان هديا التبع إلى اليهودية، وأبعداه عن عبادة الأوثان[3].

---

1) البقرة، الآية 89، تفسير الطبري (1/ 324)، روح المعاني (1/ 289).

2) الطبري (2/ 105 وما بعدها)، «طبعة دار المعارف بمصر».

3) الأغاني (1/ 109 وما بعدها)، (13/ 120 وما بعدها)،

Gaussin de Perceval, Essai, I, 91, Nallino, Raccolta, III, p. 88.

وقد يكون لهذه الروايات شيء من الصحة، غير أني أرى أن دخول اليهوديه إلى اليمن مردّه أيضاً إلى اتصال اليمن من عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشأم. وفي قصة سليمان وملكة سبأ إشارة إلى تلك الصلات، وإلى هجرة جماعات من اليهود إلى هذا القطر عن طريق الحجاز، بعوامل متعددة، منها: التجارة والهجرة إلى الخارج، وهروبهم من اضطهاد الرومان لهم، وعوامل أخرى جعلتهم يتجهون من الحجاز إلى اليمن، فأقاموا هناك.

وأما يهود اليمن المحدثون فإن أحبارهم ورجال العلم والفهم منهم يرجعون وجودهم في اليمن إلى أيام السبي، أي إلى أيام (بخت نصر)، وهم يزعمون أنهم بقوا في اليمن منذ ذلك الحين ولم يعودوا إلى فلسطين[1]. وقد غادروا اليمن بعد التقسيم.

وقد أشار حبر يسمى (ربي عاقبة) (رباي عقيبة) Rabbi ‘Aqiba، في حوالى سنة (130م)، إلى زيارته لملك عربي كوشي (مليخ عرابيم) كانت زوجته كوشية كذلك، وإلى تحدثه معه. ويراد بـ (كوش) الأحباش غير أن بعضهم كان يقصد بها العربية الجنوبية، كذلك. ولا يستبعد أن يكون مراد الحبر بذلك اليمن، أو منطقة أخرى من العربية الجنوبية كان الحبش قد استولوا عليها[2]. وربما قصد منطقة إفريقية ساحلية كان يحكمها ملك عربي في ذلك الوقت.

وتدل رحلة (ربي عقيبة) R.‘Aqiba هذه إلى اليمن على وجود يهود فيها، إذ لا يعقل سفره هذا إلى تلك البقعة النائية وتجشمه مشقته، لو لم تكن هناك جالية يهودية فيها. وقد يجوز أن تكون سفرته إلى اليمن مجرد سفرة

1) Travels and adventure of the Rev. Poseph Walf, London, 1861, p. 509, R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka von David Zeit bis in's fünfte Jakrhundert unsrer Zeitrechung, 1864, S. 135.

2) Islamic Culture, III, 2, p. 190 (1929), Josephus, Antiquitate, XV, 3, 29, Die Araber, III, S., 22, Talmud Babli., in Rosh Hashnah, 26a, Kraus, in ZDMG., S. 331, 1916.

استطراق وعبور، لغاية الذهاب من اليمن إلى الحبشة، ولكني لا أستبعد مع ذلك وجود اليهود في اليمن في هذا العهد، إذ كان (أوليوس غالوس) قد جاء بجمع منهم معه في حملته على اليمن، فيجوز أن يكون بعضهم قد فضّل البقاء في اليمن والسكن فيها لطيبها ولخصب أرضها وتعبهم من السفر، ففضلوا لذلك البقاء على الرجوع وتحمل المشقات والجوع والعطش والهلاك. وقد هلك بالفعل القسم الأكبر من رجال الحملة بسبب صعوبة الطريق والحر الشديد والجوع والعطش[1].

وقد عثر على كتابة من كتابات القبور في (بيت شعاريم Beth She'arim) في جنوب شرقي حيفا، ورد فيها: (منحم قولن حميرن Mnhm Kwin hmyrn) أي (مناحيم قيل حمير). والموضع الذي وجدت هذه الكتابة فيه، هو مقبرة من مقابر كبار الأحبار، وقد وجدت معها كتابات أخرى، تشير إلى أسماء أحبار معروفين، قبروا فيها. لذلك فإن (مناحيم) (قيل حمير) هو يهودي، قد كان جاء إلى فلسطين للزيارة أو للاتصال بعلماء اليهود الذين كانوا قد تجمعوا في (بيت شيعاريم)، فمرض ومات هناك. ودفن في مقبرة هذا الموضع. ويرجع الباحثون تأريخ الكتابة المذكورة إلى حوالى سنة (200م)[2].

واستدل بعض المستشرقين بنص دوّنه (شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد) على سد مأرب، وردت فيه جملة (بعل سمن وأرضن)، أي (رب السماء والأرض) على تهوده بحجة أن هذه العبارة تشير إلى التوحيد الخالص، والتوحيد الخالص هو عقيدة يهود[3].

1) Ullendorff, in Journ. of Sem. Stud., Vol., I, Num. 3, July 1956, p. 221.

2) S. D. Goitein, Jews and Arabs, New York, 1955, p. 47, Die Araber, III, S., 16, ff., Corp. Inscript. Iudaic., 2, 1952, 207, Nr. 1137, Driver, in Hebrew and Semitic Studies, 1963, 151, f.

3) Islamic Culture, 1929, III, 2, p. 191, Margoliouth, Relations, p. 68.

وقد ذكر المؤرخ النصراني (فيلوستورجيوس) Philostorgius في حوالى سنة 425م، أن أهل سبأ كانوا يتبعون في (السبت) سنة (إبراهيم)، ولكنه ذكر أيضاً أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر ومعبودات أخرى، وأن بعضاً منهم كان على دين يهود، وأنه قاوم رسالة (ثيوفيلس) Theophilus الذي أرسله القيصر قسطنطين (340- 361م) للتبشير بين الحميريين. وذكر المؤرخ (ثيودور لكتور) Theodorus Lecrtor، وهو من رجال النصف الأول للقرن السادس للميلاد، أن الحميريين كانوا في بادىء أمرهم على دين يهود، دخلوا فيه في أيام ملكة سبأ المعروفة بقصتها مع سليمان، بدعوتها إياهم إلى هذا الدين. ولكنهم كما يقول هذا المؤرخ عادوا فارتدوا إلى الوثنية، ثم دخلوا بعدئذ في النصرانية في ايام القيصر (أنسطاس) Anastasius (491 - 518م). ولم يشر هذا المؤرخ إلى وجود اليهودية بين الحميريين، كما أنه لم يشر ولا المؤرخ الآخر إلى تهود أحد من ملوك حمير[1].

ويفهم من الجمل: «وإن اليهود الكائنين في طبرية يرسلون سنة فسنة وقتاً فآخر كهنة منهم إلى هناك لإثارة السجس بين نصارى الحميريين. فلو كان الأساقفة نصارى وليسوا بشركاء لليهود، ويودّون أن تستقيم النصرانية، لرغبوا إلى الملك وعظمائه، ليلقوا القبض على رؤساء كهنة طبرية وبقية المدن، ويلقوهم في السجن. ولا نقول هذا لنجازي سيئة بسيئة، بل ليتوثقوا منهم بكفلاء حتى لا يعودوا يرسلون رسائل وأشخاصاً وجيهين إلى ملك الحميريين، فيصب صاعقة الأرزاء على شعب المسيح في حمير...»، وهي جمل اقتبسها من رسالة (شمعون) عن تعذيب نصارى نجران، إن يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين، بل كانوا على اتصال بهم، وإن أحبار طبرية كانوا يرسلون رجالاً منهم إلى اليمن ومعهم أموال ووجوه إلى يهودها وملكها وكبارها للتأثير فيهم ولتوثيق صلاتهم وروابطهم بهم، وقد نسب شمعون إلى أحبار طبرية، أنهم كانوا يحرضون ملك حمير ويهود حمير على الضغط على نصارى اليمن وعلى اضطهادهم

---

1)Margoliouth, p. 62, f., Migne, Patrologia Graeca, XXXV, p. 211, Islamic Culture, 1929, 2, p. 190, Philostorgius, Hist. Eccl., III, 5.

انتقاماً منهم، فطالب الحكومة والنصارى على الضغط على يهود فلسطين وعلى أحبار طبرية بصورة خاصة، ليكتبوا إلى يهود حمير بالكف عن التحرش بنصارى اليمن، وعن تهديدهم بإنزال العقوبات بهم إنتقاما منهم إن لم يسدوا لهم النصح.

وورد في أخبار الشهداء الحميريين: إن أحبارا من فلسطين من (طبريا) Tiberias، كانوا قد جاؤوا إخوانهم في الدين يهود اليمن وسكنوا معهم[1]. ومعنى هذا أن الصلات بين يهود اليمن ويهود فلسطين كانت موجودة، وأن يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين، ويجب أن يقال مثل ذلك عن يهود الحجاز، اذ لا بد وأنْ يكون ليهود الحجاز اتصال بيهود فلسطين وبيهود اليمن. وكيف لا يكون لهم اتصال بهم، وهم جيران فلسطين ولهم تجارات معهم، ثم إنهم على طريق اليمن وفلسطين، فإذا أراد يهود فلسطين الذهاب إلى اليمن، أو يهود اليمن الذهاب إلى فلسطين فلا بد من المرور بأرض يهود الحجاز والنزول بهم.

وقد عثر في اليمن على نص مكتوب بالمسند، وردت فيه كلمة (يسرائيل) و (رب يهود). ويدل هذا على أن صاحبه كان على دين يهود. عثر عليه المستشرق (كلاسر) ونشره المستشرق (ونكلر)، وهذا هو: «تبرك سم رحمنن ذ بسمين (سمن) ويسر ال والهمو رب يهود. ذ هرد عبدهمو وشحرم وامهوبم (؟) وحشكهتو شمسم واولدهمو ذمم (؟) وابشعر ومار وكل ابهه»[2].

وأما كتابته بلهجتنا، فعلى هذا المنوال: «تبارك اسم الرحمان الذي في السماء وإسرائيل وإلهه رب يهود الذي ساعد عبده شحراً وأمه بم (؟) وزوجته شمساً وأولاده ذمم (؟) وأبشعر ومثاراً وكل أهله بيته».

---

1) Margoliouth, p. 68.

2) Glaser 394-395, Revue des Etudes Juives ; 1891, vol., 23, p. 122, Winckler, AOF, I, S. 337.

غير أن من الباحثين من يشك في صحة نقل هذا النص نقلاً صحيحاً تاماً، ولم يتأكد من صحة نقل كلمة (اسرائيل)[1].

واليهودية وإن ضعفت في اليمن بدخول الحبشة فيها، بقيت مع ذلك محافظة على كيانها، فلم تنهزم، ولم تجتث من أصولها، وبقيت قائمة في هذه البلاد في الإسلام كذلك فلم يجل أهلها عنها كما أجلي أهل خيبر، وظلت بقيتهم هناك إلى سُنَيَّات قريبة حيث غادروها على أثر حوادث فلسطين.

وقد كانت (نجران) من المستوطنات المهمة التي نزل بها اليهود في اليمن[2]. وهي مكان خصب، وقد عاش اليهود فيها مع غيرهم من العرب من نصارى وعبدة أصنام.

ووُجد اليهود في مواضع أخرى من جزيرة العرب. وجدوا في العربية الشرقية وفي نجد وفي مواضع من العربية الجنوبية. ولما ارتد (بنو وليعة) والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي، وتحصن (الأشعث) في (النجير)، وهو حصن لهم، كانت فيه امرأة من يهود، عُرفت بشماتتها بوفاة الرسول، اسمها (هند بنت يامين) اليهودية[3]. مما يدل على وجود اليهود في هذا المكان. وكان بالبحرين قوم من اليهود، صالحوا المسلمين مثل النصارى على دفع الجزية عن رؤوسهم[4]. وقد كتب (المنذر بن ساوى) العبدي، يخبر الرسول أن بأرضه يهود ومجوس، فكتب اليه الرسول: «من أقام على يهودية، أو مجوسية فعليه الجزية»[5].

1) Margoliouth, p. 68.

2) معجم (1/ 327).

3) البلاذري، فتوح (111)، «ردة وليعة والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي».

4 البلاذري، فتوح (89، 91)، (البحرين).

5) ابن سعد، طبقات (1/ 263).

اليهود والإسلام:

ويتبين من القرآن الكريم، إن اتصال الرسول باليهود اتصالاً مباشراً إنما كان في يثرب. أما في مكة، فلم يكن لليهود فيها شأن يذكر، لذلك لا تجد في الآيات المكّية ما نجده في الآيات المدنية، ولا سيما المتأخر منها، من تقريع لليهود وتوبيخ لهم، لوقوفهم موقفاً معادياً من الإسلام، واتفاقهم مع المشركين في معارضة الرسول ومقاومته. وقد بدأ اليهود يعارضون الرسول والإسلام، حينما طلب إليهم الدخول في الإسلام والإيمان برسول الله، وحينما تبين لهم أن الأمر سيفلت من أيديهم، وأن الرسول ليس كبقية رجال قريش أو غير قريش سهل الانقياد مطواعاً لهم، وأن تعاليم الإسلام ستفسد العرب عليهم، ولا سيما بعد تحريم الربا. والربا مورد مهم كان يدر ربحاً عظيماً على يهود، لهذا وجدوا مصلحتهم في معارضته ومقاومته وفي الاتفاق مع المشركين عليه.

ويظهر أنه لم يكن لليهود نفوذ كبير ولا جاليات كبيرة في مكة. فلو كان لهم نفوذ فيها أو رأي مسموع، لسمعنا به كما سمعنا بخبرهم في يثرب، ولكان لهم حيّ خاص بهم، ومكانة بين رجال قريش، كالذي كان عليه يهود يثرب في اتصالهم بالأوس والخزرج. ولأشير إليهم في السور المكية، على نحو ما أشير إليهم في السور المدنية، ثم لما ضطر رجال قريش للذهاب الى يثرب مراراً، لاستشارتهم في أمر سلوكهم مع المسلمين، ولما جاء سادات يهود يثرب إلى مكة، لتحريض أهلها على مقاومة الرسول، ولعقد حلف معهم عليه.

وقد أمل المسلمون أن يساعد اليهود الإسلام على الوثنية وأن يقفوا منه موقف ود أو حياد، ذلك بأنهم أصحاب كتب مُنزلة ودين توحيد، والإسلام قريب منهم، وقد اعترف بالأديان السابقة له، ونزه الأنبياء والمرسلين، وهو دين توحيد كذلك. ثم إن الرسول تودد إليهم حين دخوله يثرب، وأمنهم على أموالهم وأنفسهم، وزارهم وطمأنهم، ثم تعاهد معهم في صحائف كتبت لهم، فيها العهد بالوفاء لما اشترط لهم، ما داموا موفين بالوعد وبالعهد وقد طلب إلى جميع المسلمين الوفاء بما جاء فيها، ومنعوا من التجاوز والتطاول على من في يثرب من

يهود[1]. وجعل لليهود نصيباً في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم النفقة معهم في الحروب.

ولم تكن علاقات اليهود مع المسلمين سيئة في الأيام الأولى من مجيء الرسول إلى يثرب. رأت جمهرة يهود أن الإسلام دين اعترف بالأنبياء، وأنه دين توحيد وأنه في جملة أحكامه قريب من أحكام ديانتهم وقواعدهم، وأنه يناهض الأوثان، وقد أشاد بفضل بني اسرائيل وبتفوقهم على غيرهم بظهور الأنبياء من بينهم، ثم إن قبلته إلى القدس، وقد تسامح معهم فأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب[2]. وهو دين اعترف بأبوة إبراهيم للعرب، وجعل سنته سنة له. وقد تسامح معهم وحفظ ذممهم، فلم ترَ في انتشاره بين أهل يثرب ما يضيرهم شيئاً أو يلحق بهم أذى، ولذلك أظهرت استعدادها لعقد حلف سياسي معه ووقوفها موقف ود منه أو موقف حياد على الأقل، على ألا يطلب منها تغيير دينها وتبديله والدخول في الإسلام.

ولما دخل أهل يثرب في الإسلام أفواجاً، وتوجه المسلمون إلى اليهود يدعونهم إلى الدخول فيه والى مشاركتهم لهم في عقيدتهم باعتبار أنهم أهل دين يقول بالوحي ويؤمن بالتوراة، وبرسالة الرسل، فهم لذلك أولى بقبول هذه الدعوة من الوثنيين، أدركت جمهرتهم أن الإسلام إذا ما استمر على هذا المنوال في المدينة من التوسع والانتشار ومن توجيه دعوته إلى اليهود أيضاً، فسيقضي على عقيدتهم التي ورثوها وهي عقيدة لا تعترف بقيام نبيّ من غير بني اسرائيل، ولا بكتب غير التوراة والكتب التي دونها علماؤهم، ثم هم يرون أن النبوة قد ختمت ولن يكون المسيح إلاّ منهم، فكيف يعتقدون بنبي عربي وهو من الأميين؟

وقد رفض اليهود الدخول في الإسلام، وأبوا تغيير دينهم، ودافعوا عن عقيدتهم وتمسكوا بها، ورفضوا التسليم بما جاء في رسالة الرسول من أن الرسول نبي أرسل للعالمين كافة وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن القرآن كتاب مصدق

---

1) ابن هشام (3/ 74، 197)، الروض الأنف (2/ 16)، (كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين اليهود).

2) المائدة، الآية 48.

من الله، وأن أحكامه مؤيدة لما جاء في التوراة ناسخة لبعضها. وقد جادلوا في ذلك، وانبرى أحبارهم للدفاع عن عقيدتهم ولمجادلة من يأتي إليهم من المسلمين لاقناعهم في الدخول في الإسلام. وفي القرآن الكريم صور من جدلهم هذا ومن محاجّتهم الرسول في دعوته، كما نجد مثل ذلك في الحديث النبوي وفي كتب السير.

ويتبين من نتائج دراسة صور هذا الجدل والخصام الذي وقع بين اليهود والمسلمين، وهو خصام مهم خطير، أن الخصومة كانت في مرحلتها الأولى رفض لدعوة الرسول إياهم للدخول في الإسلام، وتمسكاً شديداً بعقيدتهم وبدينهم وبما ورد عندهم من أن النبوة قد بدأت وانتهت في بني إسرائيل، ثم تطورت واشتدت عنفاً وقوة لما تبين لهم أن الإسلام يرفض نظريتهم هذه، وأنه قد حرم أموراً ستؤثر في مستقبلهم، وقد ألف بين قلوب أهل يثرب وأوجد منهم كتلة واحدة، وأنه سيحدّ من سلطانهم لا محالة، وأن ملكهم سيزول، فوسعوا مقاومتهم، واتصلوا بمن وجدوا فيه حقداً وبغضاً للرسول، وبمن تأثر سلطانه بدخول الإسلام في يثرب من أهلها، ثم لما وجدوا أن كل ذلك غير كاف، تراسلوا مع أعداء الرسول في خارج يثرب من قريش. لتوحيد خططهم معهم، ولحملهم على مهاجمة المسلمين في مدينتهم ومعقلهم قبل أن يستفحل أمرهم ويقوى مركزهم، فيعجزون جميعاً هم وأهل مكة عن التغلب عليهم والقضاء على الإسلام.

وهكذا بدأت خصومة اليهود للإسلام خصومة فكرية، هم يرفضون الاعتراف بنبوة الرسول، وبأن دعوته موجهة إليهم، ويرفضون نبوة في غير بني اسرائيل، والرسول يدعوهم إلى الايمان بالله والى الدخول في دعوته المبنية على الايمان بالله رب العالمين، رب العرب وبني اسرائيل والعجم، وعلى الايمان بنبوته وبنبوة الأنبياء السابقين، ثم تطورت هذه الخصومة إلى معارك وحروب، والحروب كما نعلم تبدأ نزاعاً في الآراء والأفكار ثم تتحول الى صراع ونزاع وقتال.

ومن أشهر سادات يهود الذين وقفوا موقفاً معادياً من الرسول، وعارضوه معارضة شديدة، وصمموا على الايقاع به، حيي بن أخطب، وأخواه ياسر بن أخطب

وجُدَىّ بن أخطب[1]، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن الربيع بن أبي الحقيق، وهو أبو رافع الأعور الذي قتله أصحاب الرسول بخيبر، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن جحاش، وكعب بن الأشرف، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، وكردم بن قيس حليف كعب بن الأشرف، وكل هؤلاء من بني النضير، وعبد الله بن صوري الأعور[2]، وابن صلوبا، وهما من بني (ثعلبة بن الفطيون)، وزيد بن اللعيث (اللعيب)[3]، وسعد بن حنيف، ومحمود بن سيحان (سبحان)، وعزير بن أبي عزير، وعبد الله بن صيف (ضيف)، وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وفنحاص، وأشيع، ونعمان بن أضنا (أمنا؟)، ويحري بن عمرو، وشاس بن عدي، وشاس بن قيس، وزيد بن الحارث، ونعمان بن عمرو، وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد، ونعمان بن أبي أوفى أبو أنس، ومحمود بن دحية، ومالك بن الصيف (الضيف)، وكعب بن راشد، وعازر، ورافع بن أبي رافع، وخالد، وإزار بن أبي إزار (آزر بن أبي أزر)، ورافع بن حارثة، ورافع بن حريملة، ورافع بن خارجة، ومالك بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وكل هؤلاء من يهود بني قينقاع[4].

أما الذين حاربوا الإسلام من بني قريظة، فكانوا: الزبير بن باطا بن وهب، وعزّال بن شَمْويل (سموال)، وكعب بن أسد، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب، وشمويل بن زيد، ونافع بن أبي نافع، وأبو نافع، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، وكردم بن زيد، وأسامة بن حبيب، ورافع بن رميلة (زميلة)، وجبل بن أبي قشير، ووهب بن يهوذا.

---

1) (جد بن أخطب)، (جدي بن أخطب)، (حدى بن أحطب)، الروض الأنف (2/ 24).

2) الروض الأنف (2/ 24).

3) (ابن اللعيب)، ابن هشام (2/ 136).

4) ابن هشام (2/ 136 وما بعدها)، الروض الأنف (2/ 24)، (تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن).

أما من بقية بطون يهود، فكانوا: لبيد بن أعصم، وهو من يهود بني زريق، وكنانة بن صورياء (صوريا)، وهو من بني حارثة، وفردم (قردم) بن عمرو، وهو من يهود بني عمرو بن عوف، وسلسلة بن برهام، وهو من يهود بني النجار[1].

ويظهر من أقوال علماء التفسير في تفسير لفظة (الطاغوت) الواردة في القرآن الكريم، أن (كعب بن الأشرف)، كان من أبرز سادات اليهود في أيام الرسول[2]. فقد كانوا يتحاكمون إليه ويأخذون برأيه، وكان المقدم عندهم وعند الأوس والخزرج، حتى أن الأنصار كانوا يتحاكمون إليه.

ونجد في القرآن أمثلة من أسئلة وجهها اليهود إلى الرسول لاحراجه ولإظهار فساد دعوته بزعمهم. سألوه ان يأتي لهم بمعجزة، إذ قالوا له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾[3]، فنزل الرد عليهم: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4]. «نزلت في كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا، وفنحاص بن عازورا، وجماعة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: له: أتزعم أن الله أرسلك إلينا، وأنه أنزل علينا كتاباً عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإذا جئتنا به صدقناك، فأنزل الله هذه الآية»[5]. وسألوه «أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالتوراة»[6]. وسألوه أسئلة عن أشياء مذكورة في التوراة، وسألوه عن أشياء أخرى محرجة عديدة، وأوحوا إلى غيرهم من المشركين بأسئلة مماثلة ليلقوها على الرسول لامتحانه وإحراجه، وقد نزل الوحي بالرد، عليهم، وبتأنيبهم على أقوالهم هذه، وبتذكيرهم بما قام به

1) وتختلف الموارد في ضبط هذه الأسماء: ابن هشام (2/ 137 وما بعدها)، الروض الأنف (2/ 24).
2) تفسير الطبري (5/ 97 وما بعدها).
3) سورة آل عمران، الآية 183.
4) الآية نفسها.
5) تفسير القرطبي (4/ 295)، روح المعاني (4/ 128 وما بعدها)، تفسير الطبري (4/ 131 وما بعدها).
6) سورة النساء، الآية 153، تفسير القرطبي (6/ 6)، تفسير الطبري (6/ 6 وما بعدها)، روح المعاني (6/ 5)، ابن هشام (2/ 198).

أجدادهم وأسلافهم في مقام أنبيائهم من عدم التصديق برسالتهم ومن الطعن بهم ومن إصرارهم على عبادة الأوثان والكفر بالتوحي[1].

ووقع جدل بين المسلمين وبين سادات يهود، أثار نزاعاً بين الطرفين. دخل أبو بكر «بيت المدراس، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمع إلى رجل منهم يقال له (فنحاص) كان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له: أشيع. فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص اتقِ الله وأسلم، فوالله أنك لتعلم إن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. قال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه، كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء. ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا، كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال:. والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك»[2]. ووقع مثل ذلك في مناسبات أخرى، جعل اليهود يحقدون على المسلمين.

وعمد اليهود إلى استغلال الأحقاد والبغضاء الكمينة التي كانت كامنة في نفوس أهل يثرب من الأوس والخزرج من أيام الجاهلية، فأثاروها، كما استفادوا ممن كان بينهم وبين رجال من المسلمين من الحلف والجوار في الجاهلية للاحتماء بهم وللاتقاء بهم مما قد يلحق بهم من أذى في إثارة الفتنة.

وفي عهد (عمر) آمر بإجلاء اليهود ممن لم يكن لديهم عهد من رسول الله. أما من كان له عهد منه، فقد بقي في وطنه وعلى دينه بالشروط التي ذكرت في الصحف. وقد كان في يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها في زمن الرسول حتى بعد إجلاء بني النضير وبني قريظة وبعد غزوة خيبر. وقد ورد في رواية أن النبي لمّا أمر أصحابه بالتهيؤ لغزوة خيبر، شقّ ذلك على من بقي بالمدينة من يهود[3]. ولما

---

1) سورة البقرة، الآية 101، ابن هشام (2/ 167، 171، 201).

2) آل عمران، الآية 181، تفسير الطبري (4/ 129 وما بعدها)، تفسير الطبرسي (1/ 548)، (طهران).

3) الطبقات، لابن سعد (الجزء الثاني من القسم الأول (ص 77).

مرض عبد الله بن أبي، كان اليهود في جملة من التفّ حول سريره في مرضه الذي هلك فيه، ثم كانوا في جملة من شيعه إلى قبره ومن نثر التراب على رأسه حزناً على فراقه[1]. وقد بقيت أسر يهودية في وادي القرى وفي تيماء قروناً عديدة بعد صدور أمر عمر بالإجلاء، بل ورد أن عدداً منهم عاش في المدينة أيضاً.

وقد كانت اليهودية قانعة بما أوتيت، وبما كسبته من مواطن وتجارة، إن وجدت سبيلاً إلى اقناع سادات القبائل والأمراء والملوك بالتهود وبالدخول في دعوتها، فذلك خير وتوفيق. وإن لم تجد في هؤلاء ميلاً إلى اليهودية، رضيت منهم باكتساب العطف والحماية ورعايتهم في تحصيل ديونهم والأرباح التي يحصلون عليها من الربا، وبالسماح لهم بالتجارة والبيع والشراء، وهو ما يصبو اليه كل يهودي.

لذلك نستطيع أن نقول إن اليهودية كانت من ناحية التبشير عند ظهور الإسلام جامدة خامدة، لا يهمها نشر الدين بقدر ما تهمها المحافظة على الحياة وعلى المركز الذي توصلت إليه وعلى تجارتها التي تعود عليها بمال غزير. فكانت لهذا لا تهتم بحركة إلاّ إذا وجدت فيها فائدة لها، ومنفعة ترتجى منها، ولا تحارب رأياً إلا إذا وجدت أنه سيكون خطراً عليها، فحاربت النصرانية في اليمن لمّا وجدت الروم يسيرون على سياسة معادية لليهود، وأن النصرانية مهما كانت كنيستها هي فرع من شجرة واحدة هي الشجرة التي يقدسها الروم، فامتداد أي فرع منها إلى اليمن، كفيل بالحاق الأذى الذي لاقاه إخوانهم من البيزنطيين بهم. وحاربت الإسلام بعد هجرة الرسول إلى المدينة، لمّا تبين لها أنه يدعو إلى رب العالمين، وأنه لم يكن على ما ظنته حينما سمعت بدعوة الرسول وهو في مكة، من أنه سيخضع لها، أو سيميل إليها، فتستفيد منه على الأقل، فلما وجدت الأمر غير ما ظنت، عندئذ خاصمته وانضمت إلى المشركين في محاربة الإسلام.

---

1) الواقدي (415)، اليهود (177).

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهوداً وفدوا إليها وأحباراً سكنوا بينها لاقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين يهود. نعم لم يفعل اليهود هذا كما فعله النصارى، ولهذا انحصرت سكنى اليهود عند ظهور الإسلام في هذه المواضع الخصبة وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب، وانحصر عملهم في التجارة وفي الربا وفي الزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها. وهي أمور جعلت لهم نفوذاً عند سادات القبائل والأمراء والملوك.

وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم، وأيامهم الماضية، وأخبار الرسل والأنبياء، وما جاء في التوراة والمشنا، وغير ذلك. عرفت بين الجاهليين بـ(المدراس) و(بيت المدراس) (والمدراش). وأطلق الجاهليون على الموضع الذي يتعبد اليهود فيه (الكنيس) و(كنيسة اليهود) تمييزاً لهذه الكنيسة عن (الكنيسة) التي هي لفظة خاصة بموضع عبادة النصارى[1].

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الكنيسة كلمة معربة من (كنشت) وهي لليهود، والبيعة للنصارى. وذهب بعض آخر إلى أنها متعبد الكفّار مطلقاً[2].

وقد أخذ الجاهليون مصطلح (المدراس) من العبرانيين، من لفظة (مدراش) Midrash التي هي من أصل (درش) Darash التي تقابل (درس) في العربية، وتؤدي هذه الكلمة المعنى المفهوم من لفظة (درس) العربية تمام الأداء. ويقصد بالمدراش درس نصوص التوراة وشرحها وتفسيرها وإيضاح الغامض منها وأسرارها وأمثال ذلك، وينهض بذلك المفسر الشارح (درشن) Darshan، ولكل طريقة وأسلوب. وقد نجمت عن هذه الدراسة ثروة أدبية ودينية طائلة للعبرانيين. نتجت من اتباع جملة طرق في الشرح والتفسير، منها (مدراش هلاخه) Midrash Halachah و(مدراش هاكاده)

---

1) اللسان (7/ 382)، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (2/ 120)، صحيح مسلم (5/ 122)، البخاري «كتاب الجزية والموادعة من أهل الذمة والحرب»، الحديث 6، غرائب اللغة (ص 213)، النهاية (2/ 20)، محيط المحيط (1/ 643)، القاموس (2/ 215).

2) اللسان (8/ 83)، المعرب (81)، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الأول (ص 201).

MidrashHaggadah، وتختلف هذه في كيفية إتباع طرق العرض والشرح والتفسير[1].

ولم يكن المدراس (المدراش) موضع عبادة وصلوات حسب، بل كان إلى ذلك دار ندوة ليهود يجتمعون فيه في أوقات فراغهم لاستئناس بعضهم ببعض وللبحث في شؤونهم، وللبت في القضايا الجسيمة الخطرة على اختلاف درجاتها. فهو إذن مجمع الأحبار ومجمع الرؤساء والسادات وأصحاب الشرف فيهم، وإليه كان يقصد الجاهليون حين يريدون أمراً من الأمور أو الاستفهام عن شيء يريدون الوقوف عليه، وإليه ذهب الرسول وكبار المسلمين لمحادثة يهود ومجادلتم فيما كان يحدث بينهم من خلاف أو من أمر يريدون البت فيه. ويقال إنهم عرضوا أمام الرسول كتبهم، فكان يقرأها له بعضهم ممن دخل في الإسلام كعبد الله بن سلام أو بعض المسلمين ممن كان له علم وفهم في العبرانية لغة يهود.

قال (ابن عباس): «دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال على ملة إبراهيم ودينه. فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً. فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبوا عليه»[2]. ويظهر أن هذا المدراس كان من بيوت مدراسهم بيثرب.

وعرفت مساجد اليهود، أي المواضع التي كان يصلّون بها، بالمحاريب جمع محراب. وقد جاءت الاشارة إليها في بيت شعر منسوب إلى (قيس بن الخطيم)[3]. أما في النصرانية، فقد خصصت الكلمة بصدر الكنائس، وذلك على ما يفهم من الكلمة في الإسلام[4].

---

1)Ency. Briti., 15, p. 458, Moore, Judaism, I, 125, Jew, Ency., VII, p. 538.

2) الطبري (7/ 145).

3)Margoliouth, p. 73.

4) النصرانية: القسم الثاني، الجزء الثاني (ص 174).

وعرف علماء اليهود ورجال دينهم بـ (الأحبار) جمع (الحبر) وبـ (الربانيين) وقد وردت الكلمتان في القرآن الكريم[1]. وللإسلاميين آراء في أصل (الحبر)، وهم يذكرون أن من معانيها العالم، والرجل الصالح[2]. واللفظة من الألفاظ المعربة عن العبرانية أصلها (حبر) Haber وجمعها حبريم Habarim، ومعناها (الرفيق) camrade وassociate، وكانت ذات مدلول خاص ومعنى معين. وقد أطلقت في العهد التلمودي على العضوية في جمعية معينة، فأطلقت في العصر الأول والثاني للميلاد على من كان من (الفروشيم)، وهم شيعة يهودية أقسمت على نفسها بمراعاة النصوص الدينية (اللاوية) على نحو ما نزلت وعلى نحو ما يفعله اللاويون.

وللفظة (حبر) أهمية كبيرة عند اليهود، فإنها تشير إلى العلم والمعرفة، وإن كانت لا تصل إلى درجة (رابي) (ربي) Rabbi. ولا تزال مستعملة عندهم فيمن درس الشريعة اليهودية والعلوم الشرعية وتقدم فيها وأتقن الأحكام، وقضى بين الناس، غير أنها دون درجة Rabbi [3]. فهي في العبرانية بمعنى عالم ولكن دون المعنى المفهوم في العربية عند علماء اللغة الإسلاميين، فهذا المعنى هو في مقابل لفظة Rabbi أي (ربّان) لا (حبر).

قد وردت لفظة (حبر) في شعر للشماخ:

كما خطّ عبرانية بيمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا[4]

أما (الربانيون)، فهم العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهي، على رأي بعض العلماء الإسلاميين. وقال بعض آخر: الربّان العالم الراسخ. في العلم والدين، أو العالم العامل المعلّم، أو العالي الدرجة في العلم. وفرّق بعضهم بين

---

1) حبر بالضم والكسر، المائدة: الآية 44، 63، التوبة، الآية 31، 34.

2) تاج العروس (2/ 120)، (حبر)، اللسان (5/ 228)، المفردات، للأصفهاني (ص 104).

3) اليهود (ص 20)، The Universal Jewish Ency., Vol., p. 145.

4) تاج العروس (3/ 117)، (حبر).

الربانيون وبين الأحبار بأن جعل الأحبار أهل المعرفة بأنباء الأمم وبما كان ويكون، وذهبوا إلى أنها من الألفاظ المعربة العبرانية أو السريانية[1]. وهي من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم في أثناء الكلام على علماء يهود[2].

ويتبين من القرآن الكريم أنه قد كان للأحبار والربّانيين نفوذ عظيم على اليهود، فكانوا يطيعون أوامرهم ويفعلون ما يأمرونهم به، وأن غالبيتهم لم تكن تفقه شيئاً ولا تعرف من أحكام دينها إلاّ ما يقوله لهم أولئك الأحبار[3]. وبعض هؤلاء الأحبار هم من المقيمين في جزيرة العرب في المواطن التي أقامت فيها يهود، وبعض منهم كان يأتي إلى يهود العرب من فلسطين: ولا سيما من (طبرية) التي اكتسبت شهرة عظيمة بعد خراب القدس (أورشليم) حيث استقر فيها (السنهدريم) وغدت مركزاً عظيماً للعلوم عند اليهود، وفيها جمعت (المشنه) (المشنا) Mishna و(الماسورة) الكتاب الذي يبين كيفية تحريك كلمات التوراة[4].

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من رجال يهود ممن أدركوا الإسلام، ذكر عنهم أنهم كانوا أحباراً، وأنهم كانوا أصحاب علم بالتوراة وبكتب الأنبياء. وفي مقدمة من ذكروا، عبد الله بن صوري الأعور، قالوا: إنه لم يكن بالحجاز في زمانه من كان أعلم بالتوراة منه، وإنه كان من بني ثعلبة بن الفطيون. ويقولون: إن الفطيون كلمة تقال لمن يلي أمر اليهود وملكهم، كما أن النجاشي تقال لمن يلي ملك الحبشة[5].

وذكر (القلقشندي) أن المشهور من ألقاب أرباب الوظائف عند اليهود ثلاثة ألقاب: الأول الرئيس، وهو القائم فيهم مقام البطرك في النصارى، والثاني

---

1) تاج العروس (1/ 260)، (9/ 211)، المعرب، للجواليقي (ص 161)، سيرة ابن هشام (1/ 395).

2) المائدة: الآية 44، 63، آل عمران، الآية 79، تفسير الطبري (6/ 251).

3) التوبة، الآية 31.

4) قاموس الكتاب المقدس (2/ 46).

5) ابن هشام (2/ 136)، «محمد محيي الدين عبد الحميد».

الحزّان، وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر ويعظهم، والثالث الشّيلحصبور، وهو الإمام الذي يصلي بهم[1].

وقد أطلق القرآن الكريم على أسفار اليهود، أي كتبهم المقدسة (التوراة)[2]. وعرفت بهذه التسمية في الحديث وفي كتب التفسير، وصارت علماً لها في الإسلام. كذلك أطلقت هذه اللفظة على معابد اليهود، ولم يعرف ورودها في الشعر الجاهلي خلا بيتاً ينسب إلى شاعر جاهلي يهودي اسمه (سماك)[3].

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء في أصل كلمة (التوراة)، حتى ذهب بعضهم إلى أنها عربية. ولكن ذوي أكثريتهم ترى أنها عبرانية، لأن لغة موسى كانت العبرانية، وبهذه اللغة نزلت التوراة[4]. ثم هم يختلفون في تعيين حدود التوراة، فيرى بعضهم أنها خمسة أسفار، ويرى بعض آخر أنها أكثر من ذلك، وأنها تشمل الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات، لا يستثنى إلاّ الأناجيل[5].

وليس في القرآن الكريم تحديد لأسفار التوراة، ولكن اقتران اسم موسى بها في بعض الموارد منه يشير إلى أن المراد بها ما يقال له بـ (الأسفار الخمسة) Pentateuch عند الغربيين. وهذه الأسفار الخمسة هي الأسفار المُنزلة المكتوبة التي نزلت على موسى على رأي قدماء العبرانيين. ثم توسعوا في مدلول اللفظة فيما بعد، فأطلقوها على جميع الأسفار التي يقال لها العهد القديم. وأطلقتها بعض الفرق على غيرها من الأسفار مثل الأنبياء (نبيم) Nebiim، والكتب (كتوبيم) Kettubim[6].

---

1) صبح الأعشى (5/ 474).

2) آل عمران، الآية 3، 48، 65، 93، المائدة، 46 وما بعدها، 49، الصف، الآية 6، الفتح، الآية 29، الجمعة، الآية 5.

3)Ency., IV, p. 706.

4) اللسان (20/ 265 وما بعدها)، «ورى»، تاج العروس (10/ 389)، القراؤون والربانون (179)، المفردات، للأصفهاني (ص 74)، Uni. Jew. Ency., 10, p. 267, Katsh., p. 191.

5) صبح الأعشى (13/ 254 وما بعدها)، Katsh., p. 191.

6)Uni-Jew. Ency., 10, p. 268, Katsh., p. 191, f.

وقد أورد القرآن في مخاطبة يهود وتقريعهم قصصاً عن الأنبياء والمرسلين والأمم القديمة، منه ما هو مذكور عندهم في الأسفار الخمسة، ومنه ما هو وارد عندهم في (الهكاده) وفي (المشنه). ولما كان في احتكاك الإسلام بيهود كان لأول مرة في منطقة يثرب، صارت معظم الاشارات الواردة في القرآن الكريم إلى التوراة في السور المدنية لمخاطبة الوحي لهم، وتوجيه الكلام مباشرة إليهم، ولم ترد تلك التسمية في الآيات المكية إلا في موضع واحد هو في سورة الأعراف[1].

والمراد من (الكتاب) الذي أنزل على موسى، والمذكور في مواضع من القرآن الكريم التوراة، أي هذه الأسفار الخمسة التي نتحدث عنها[2]. وهو تعبير قرآني لا نستطيع أن نقول إنه كان من مصطلحات الجاهليين، كما أننا لا نستطيع نفي ذلك، إذ يجوز أن يكون الجاهليون. قد أطلقوه على تلك الأسفار، أو على العهد القديم كله، بمعنى هذه الأسفار وبقية مما ورد فيها من أخبار الأيام والملوك والأنبياء.

وقد ورد في الأخبار عن (أبي هريرة)، أنه «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله»[3].

وقصد بعبارة أهل الكتاب، اليهود، لأنهم أصحاب كتاب موسى، وبينهم كان نزوله، ولذلك عرفوا به. ويظهر من خبر أبي هريرة هذا ومن أخبار أخرى في هذا المعنى أن اليهود كانوا يقرؤون على المسلمين كتبهم وهي بالعبرانية، ثم يفسرونها لهم بالعربية، وذلك في أيام حياة الرسول.

---

1) الأعراف: الآية 157، .Ency., IV, p. 706

2) ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾، البقرة، الآية 78، روح (1/ 316)، تفسير الطبرسي (1/ 155)، المفردات، للأصفهاني (ص 427).

3) «كتاب تفسير القرآن»، سورة البقرة: 2 رقم 11، البخاري (3/ 198)، «طبعة ليدن».

أما الزبور والزبر، فقد وردتا في القرآن الكريم. ويراد بـ (الزبر) في بعض الآيات مثل: (وإنه لفيُ زبر الأولين) الكتب المُنزلة القديمة[1]. وقد وردت الكلمتان في بعض الشعر المنسوب إلى الجاهليين كامرئ القيس[2] المرقش الأكبر[3] وأمية بن أبي الصلت[4]. وذكر علماء اللغة أن معنى زبر كتب ونقش. ويرى بعض المستشرقين احتمال. كونها من الكلمات العربية الجنوبية. ويرى بعض آخر أنها من أصل (مزمور) Mazmor العبراني. و(مزمور) Mazmör في اللهجة السريانية، و(مزمور) Mazmur في الحبشية. أخذت الكلمة وأجري عليها بعض التغيير حتى صارت على هذا الشكل[5].

وقد وردت لفظة (الزبور) مفردة في موضعين من القرآن الكريم، في سورة النساء[6] وفي سورة الأنبياء[7]. أما في الموضع الأول، فقد ورد فيه: (وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا)، ومعنى هذا أن زبوراً أو كتاباً من الكتب المنزلة نزل على داوود. أما الموضع الثاني، فقد أشير فيه إلى (زبور) معرف بأداة التعريف (ال): (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ). ولكن لم يضف إلى اسم نبي من الأنبياء، كما رأينا في الموضع السابق. وقد فسر بعض المفسرين كلمة

---

1) الشعراء: الآية 196.

2) أتت حجج بعدي عليها فأصبحت   كخط زبور في مصاحف رهبان

وينسب إليه أيضاً هذا البيت:

لمن طلل أبصرته فشجاني   كخط زبور في عسيب يماني

شرح ديوان امرىء القيس، تأليف السندوبي (ص 184)، قصيدة رقم 86، النصرانية: القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 184).

3) وكذلك لا خير ولا   شيء على أحد بدائم

وقد خط ذلك في الزبو   ر الأوليات القدائم

اللسان (13/ 16)، النصرانية: القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 184).

4) وأبرزوا بصعيد مستوى جرز   وأنزل العرش والميزان والزبر

كتاب البدء (2/ 146)، النصرانية: القسم الثاني، الجزء الثاني (ص 184).

5)اللسان (4/ 314 وما بعدها)، Ency., IV, p. 1184.

6) الآية 163.

7) الآية 105.

(الزبور) في هذا الموضع بمعنى الكتاب وكتب الله المنزلة، أي على التعميم لا التخصيص[1].

ويراد بالزبور ما يقال له (المزامير) في الترجمات العربية للتوراة، وPsalms في الإنكليزية، من أصل Psalmos اليونانية التي هي ترجمة لفظة (مزمور) Mizmor العبرانية، ومعناها المدائح والأناشيد. وهي أناشيد شعرية تُرَنّم في حمد الإله وتمجيده، ولذلك قيل لهذه المزامير (تحلّيم) tehillim في العبرانية. وtillim على سبيل الاختصار، وtillin في لهجة بني إرم[2].

وقد «قال أبو هريرة: الزبور ما أنزل على داوود، من بعد الذكر من بعد التوراة»[3]. وذكر بعض العلماء أن الزبور خص بالكتاب المنزل على داوود[4]. وقد ذهب الشعبي إلى أن الزبور، الكتاب المنزل على داوود، أما الذكر فما نزل على موسى. وذهب آخرون مذاهب أخرى في تفسير المراد من الزبور ومن الذكر. ولكن الرأي الغالب ان المراد من الزبور، مزامير داوود. وذلك لنص القرآن على ذلك.

وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود اختلاف بين بني اسرائيل في فهم كتاب الله وتفسيره، وأنهم انقسموا لذلك شيعاً وأحزاباً. ولا يستبعد أن يكون هذا الاختلاف شاملاً ليهود الحجاز أيضاً، كأن يكون أحبارهم قد ساروا في اتجاهات مختلفة في التفاسير وفي شرح الأحكام وكان أصحابهم يتعصبون لهم ويتحزبون، على نمط الأعراب في عصبيتهم لقبائلهم، وفي اتباع أقوال ساداتهم دون تعقل وتفكير. أما مواضع الاختلاف ومواطن الفرقة التي كانت تفرق فيما بينهم، فلا نعرف اليوم من أمرها شيئاً، لأنها لم تدون ولم تذكر، ولم يشر القرآن إليها، ولكنها على كل لا تخرج ولا شك عما نعرفه من خلاف في أوجه النظر في المسائل المعروفة حتى اليوم في أمور الفروع.

---

1) تفسير الجلالين (2/ 33).

2)Uni-Jew. Ency., Vol., 9, p. 13.

3) اللسان (4/ 315)، «صادر».

4) المفردات (ص 210).

ونحن لا نستطيع أن نتصور أن سواد يهود الجاهلية كانوا على علم بالكتابة وبالقراءة ثم بأحوال دينهم وأموره. وفي القرآن الكريم أن هذا السواد كان جاهلاً ليس له علم ولا خبر بأمور دينه وشريعته، وأنه مقلد تابع لما يقوله له أحباره وربّانيوه. فكل ما كانوا يقولونه له، كانوا يرونه حقاً وعلماً[1]. مع أن من بين أولئك من كان دجّالاً ليس على درجة من دراية وعلم، ومن كان ينطق بالباطل ولا يخشى الكذب، لينال بذلك كسباً ومالاً، وأنه كان لهؤلاء على أتباعهم ومقلّديهم سلطان عظيم.

وقد تعرض (ابن خلدون) لموضوع علم اليهود العرب وثقافتهم، فقال: «ذا تشوقت العرب إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم. وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك»[2]. فغالبية يهود جزيرة العرب في الجاهلية، هم في مستوى، يعد، دون مستوى يهود البلاد الأخرى، بسبب تبدّيهم وانقطاعهم عن غيرهم من اليهود.

وقد كانت لليهود مدارس تدارسوا فيها أحكام شريعتهم، وكان لهم أحبار وحاخامون علموهم أمور دينهم. ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا يكتبون بالعبرانية أو بالسريانية، وذلك لاختلاف أهل الأخبار في تعيين تلك اللغة، وعدم تمكنهم من التمييز بينهما. وفي كتب الأخبار والتواريخ اشارات إلى اتصال بعض رجال مكة ويثرب باليهود والاستفسار منهم عن أمور الرسل والأنبياء والماضين وعن

1) ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني. وإن هم إلاّ يظنون﴾، البقرة، الآية 87، تفسير القرطبي، الجامع (1/ 296 وما بعدها).

2) ابن خلدون (1/ 439).

بعض الأحكام. وفيها قصص إسرائيلي وجد له سبيلاً الى العربية، يرويه القصاصون عن الرسل والأنبياء، وأساطير لا يشك في كونها اسرائيلية الأصل. كما نجد ألفاظاً عبرانية لا شك في أصلها وجدت لها سبيلاً إلى عربية الجاهليين بسبب اتصال اليهود بهم، واستعمالهم اياها، فتأثر بهم الجاهليون وأخذوها منهم واستعملوها أيضاً فصارت من المعربات.

سُطورُ يهوديين في مهرقيهما مُجيدين من تيماء أو أهل مدين[1]

وينسب إلى الشاعر (الأسود بن يعفر) بيت شعر هو:

واذا صحت نسبة هذا البيت إليه، يكون قد تعرف على يهوديين اثنين، وجدهما يجيدان الكتابة، وقد كتبا على المهارق. ولم يكن الشاعر على علم أكيد بموطنهما، فلم يدرِ اذا كانا من أهل تيماء او من أهل مدين.

ولتعبير (مجيدين) أهمية خاصة، إذ يشير إلى تمييزه بين الكتابة الجيدة والكتابة الرديئة، والى وجود مصطلح (مجيد) عند الجاهليين، يطلقونه كما نطلقه اليوم على من يجيد الكتابة ويتقنها.

ولما كانت اللغة العبرانية لغة الدين عند العبرانيين، وبها نزل الوحي على موسى، فلا بد أن يكون لعلمائهم ورجال دينهم في جزيرة العرب علم بتلك اللغة وفقه بها. ولكن هذا لا يعني ضرورة كونهم كعلماء طبرية أو قيصرية في فلسطين أو بعض المواضع التي اشتهرت بعلمائها في التلمود بالعراق، ولست أستبعد أن يكون لهم علم بلغة بني إرم أيضاً، لأن هذه اللغة كما نعلم كانت لغة العلم والثقافة قبل الميلاد وبعده، وبها كتبت كتب عدة من التلموديين، ثم إنها انتشرت بين سواد الناس حتى صارت لغة سواد يهود يتكلمون بها ولو برطانة وبلهجة خاصة هي اللهجة التي يمتاز بها سواد اليهود في كل قطر يعيشون فيه.

---

1) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، (ص 82).

أما سواد يهود جزيرة العرب في الجاهلية: فلا أظن أنهم كانوا يتكلمون العبرانية أو لغة بني إرم، إنما أرى أنهم كانوا يتكلمون لهجة من هذه اللهجات العربية. أعني لهجة العرب الذين كانوا يعيشون بينهم وينزلون بين أظهرهم، ولم يرد في الأخبار ما يفيد أنهم كانوا يتحادثون بالعبرانية، بل الذي ورد أن عامتهم لم تكن تعرف تلك اللغة، وأن الخاصة منهم والمزاولين لحرفة الكتابة والسحر كانوا يعرفونها ويكتبون بها، وبها يعوذون أنفسهم وغيرهم من الناس. وكانوا يفسرون التوراة والتلمود والكتب المقدسة لسواد الناس من العبرانية إلى العربية، لأنهم لم يكونوا يعرفون العبرانية، لا سيما وقد كان بينهم عرب متهودة.

ولم يظهر في يهود جزيرة العرب من حاز على شهرة في العلم والفقه والتأليف والخطابة على نحو ما ظهر بين يهود العراق أو فلسطين أو مصر، وإلا لاشتهر أمره وذاع خبره، كما ذاع خبر علماء يهود بابل وفلسطين ومصر. ولا يمكن أن تكون عزلتهم عن بقية يهود الأقطار المذكورة سبباً كافياً في تعليل عدم شيوع اسم أحد من هؤلاء، إن قضية عزلتهم عن بقية إخوانهم في الدين، هي نفسها تحتاج إلى سند يثبت وجود تلك العزلة. فمواضعهم في أعالي الحجاز، على اتصال ببلاد الشأم، وهي لا تبعد كثيراً عن مساكن إخوانهم في فلسطين. ثم إنهم كانوا على اتصال مستمر بهم بالتجارة، وقد كانوا يشترون حاصل بلاد الشأم من خمور وحبوب وما شاكل ذلك، وينقلونه إلى يثرب، يذهبون إليها للتعامل والاتجار، فكيف يكون يهود جزيرة العرب في معزل عن غيرهم مع وجود الأسفار والتجارة لا سيما أن أحبار (طبرية) كانوا يأتون إلى يهود اليمن ليلقنوهم أمور الدين، ولا يستبعد أن يكون من بين أولئك الأحبار من ذهب إلى يهود يثرب أو خيبر أو تيماء.

فالقضية على ما يظهر، ليست قضية عزلة يهود جزيرة العرب عن بقية يهود وانفصالهم بذلك ثقافياً وعلمياً عن بني دينهم انفصالاً يؤثر في مستواهم الثقافي والعلمي، فيجعلهم دون غيرهم من إخوانهم في العلم والثقافة، إنما يظهر أن هنالك جملة عوامل حالت دون نبوغ أحد فيهم. فيهود جزيرة العرب مهما قيل

عنهم وعن رقيهم وارتفاع مستواهم عن مستوى من كان في جوارهم، لم يكونوا في ثقافتهم وفي مستواهم الاجتماعي أرقى من الفلاحين وسكان القرى وما إليها في العراق أو فلسطين أو مصر، كما أن حالتهم المادية لم تكن على مستوى عالٍ بحيث يمكن أن تقاس بالأحوال المادية التي كان عليها اليهود الآخرين في الأرضين المشار إليها، أو أصحاب تلك الأرضين من غير يهود. ثم إن عددهم مهما قيل فيه، لم يكن كبيراً. وقد رأينا أن رجالهم المحاربين لم يكونوا يتجاوزون كلهم في الحجاز كله بضعة آلاف، وفي مثل هذا العدد والظروف والأحوال لا يمكن بالطبع أن تتوفر الامكانيات المساعدة على البحث والتتبع والتعمق في العلم.

وقد عرف يهود يثرب بمعرفتهم السحر والاتقاء منه، ويعلمهم بالتعاويذ، فكان المشركون يلجؤون إليهم إذا احتاجوا إلى السحر أو اذا اعترضتهم مشكلات يرون أنها لا تحل إلاّ بقراءة التعاويذ عليها. وقد ذكر المفسرون أن اليهود عملوا السحر للنبي، عمله رجل اسمه (لبيد بن الأعصم) أو بناته وهو من يهود يثرب[1]. وقد أشير إلى سحر اليهود في الحديث[2].

وقد لجأ العرب إلى اليهود يأخذون منهم الرقى والتعاويذ. فقد ورد في الأخبار «أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تشتكي ويهودية ترقيها، فقال أبو بكر: ارقيها بكتاب الله. يعني: بالتوراة والإنجيل...»[3].

وقد حافظ يهود جزيرة العرب على حرمة السبت، ويوم السبت من الأيام المقدسة التي يجب مراعاة حرمتها مراعاة تامة، فلا يجوز ليهودي الاشتغال فيه، والقيام ببعض الأعمال. ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنّسه بالإشتغال فيه يكون قد ارتكب جرماً عظيماً.

---

1) تفسير الطبري (31/ 226)، تفسير الطبرسي (5/ 568)، روح المعاني (30/ 282).

2) البخاري باب السحر، عمدة القارئ (21/ 279 وما بعدها)، «الحديث رقم 77 وما بعده».

3) عمدة القارئ (21/ 262).

وقد وردت إشارات إلى يوم السبت في مواضع من القرآن الكريم، في معرض الكلام على بني اسرائيل، وأشير في بعضها إلى أخذ موسى العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم، وإلى نقضهم له وعدم مراعاتهم جميعاً لهذا العهد، وإلى أنهم اعتدوا فيه[1]. وفي هذه الإشارات دلالة على أن من اليهود عامة من خالف حرمة هذا اليوم، فلم ينفذ ما ورد في أحكام شريعته عنه. ولكن هذا عام غير خاص بيهود العرب الجاهليين، وإنما يشير إلى خروج بعض بني اسرائيل على أحكام دينهم وعدم مراعاتهم لها، وهذا اليوم من أقدس الأيام في نظرهم.

وقد وقف العرب الذين كانوا على اتصال باليهود على بعض أحكام دينهم مثل: الرجم بالنسبة للزنا، واعتزال النساء في المحيض. فذكر العلماء أن حكم الإسلام في الحيض «اقتصاد بين إفراط اليهود الآخذين في ذلك باخراجهن من البيوت، وتفريط النصارى. فإنهم كانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض»[2]، ومثل الدعاء إلى الصلاة عند اليهود بالنفخ في (الشبور)[3]، وذلك كما تحدثت عنه في موضع آخر، ومثل صوم (عاشوراء) وأعيادهم، ومثل الصلاة وأوقاتهم عندهم.

واستعمل يهود يثرب (القرن) في معابدهم، لإعلان صلواتهم وأعيادهم واعلان احتفالاتهم والحوادث المهمة التي قد تقع لهم. وقد كانوا يستعملون آلتين، يقال لإحداهما الـ (شوفار) Shophar ومعناها القرن، ويقال للأخرى القرن، وتصنع من القرون كذلك. ولذلك اختلط الأمر بينهما. والظاهر أنهما كانتا تختلفان في نوع قرون الحيوانات التي تتخذان منها[4].

---

1) الأعراف: الآية 162، النحل: الآية 124، البقرة: الآية 65، النساء: الآية 46، 153، أو الثناء الألوسي، روح المعاني (1/ 256 وما بعدها)، اللسان (2/ 37) «صادر»، محيط المحيط (3/ 911 وما بعدها)، الطبري، تفسير (9/ 65)، الطبرسي، مجمع البيان (1/ 129 وما بعدها)، الزمخشري، الكشاف (1/ 218)، الطبرسي (5/ 391) «طهران»، الطبري، تفسير (14/ 124)، الكشاف (2/ 178).

2) إرشاد الساري (1/ 340)، (كتاب الحيض).

3) إرشاد الساري (2/ 2 وما بعدها)، (كتاب الأذان).

4) Religi. Ency., Vol., III, p. 1599.

وقد اختلف يهود جزيرة العرب عن الجاهليين في الأمور التي حرمتها شريعتهم عليهم في مثل المأكولات، كما اختلفوا عنهم في عبادتهم وفي اعتقادهم بوجود إلهٍ واحد، هو (إله اسرائيل)، وفي أمور عقائدية أخرى، واختلفوا عنهم في بعض العادات والمظاهر الخارجية، فكان اليهود مثلاً يسدلون شعورهم، أما المشركون فكانوا يفرقون رؤوسهم. ورد عن ابن عباس: «أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يسدل شعره وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبي، صلى الله عليه وسلم، رأسه». ولا يستبعد اختلافهم عنهم في لبس بعض الملابس التي لم تكن مألوفة عند الجاهليين[1].

وقد ظهر بين اليهود شعراء، نظموا الشعر بالعربية وعلى طريقة العرب في نظم الشعر. منهم السموأل المشهور، و(كعب بن الأشرف) وسمّاك اليهودي، وسأتكلم عنهم في أثناء حديثي عن الشعر.

لم يسلم من يهود في أيام الرسول غير عدد قليل من المتبينين منهم. مثل: عبد الله بن سلام، ولم يتعاون معه غير عدد قليل منهم مثل يامين بن عمير بن كعب النضري، ويامين بن يامين الاسرائيلي، ومخيريق، وكان رجلاً غنياً صاحب نخيل، وهو أحد بني ثعلبة بن الفطيون، حث قومه على مساعدة الرسول ومعاونته في غزوة أُحد. وكان الرسول قد طلب مساعدتهم لوجود صحيفة بينه وبينهم. فلما اعتذروا له بالسبت، خالفهم مخيريق قائلاً لهم: لا سبت لكم، وقاتل معه حتى قتل، فقال الرسول: مخيريق خير اليهود. وقد وصف بالعلم، وذكر أنه كان حبراً عالماً فيهم[2]. آمن بالرسول وجعل ماله له، وهو سبعة حوائط فجعلها الرسول صدقة[3].

---

1) عمدة القارئ (17/ 71).

2) ابن هشام (2/ 140)، (3/ 38)، (محمد محيي الدين عبد الحميد)، Graetz, Vol., III, p. 75.

3)البلاذري، فتوح (24)، الإصابة (3/ 373)، (رقم 7852)، (من بني النصر... ويُقال إنه من بني قينقاع، ويُقال من بني الفطيون).

أما عبد الله بن سلام، فكان يدعى، وهو في يهوديته، الحصين بن سلام بن الحارث. وسلام اسم والده. فلما أسلم سمّاه رسول الله (عبد الله)، وهو من بني قينقاع، أسلم والرسول في مكة لم يهاجر بعد، وذلك في رواية من الروايات. وأسلم بعد الهجرة على أكثر الروايات. ذكر أنه كان شريفاً في قومه، سيداً، صاحب نسب وحسب، وأنه كان حبراً عالماً. فلما أسلم، نبذه قومه، وتحدثوا فيه[1]. وقد نزلت فيه بضع آيات[2].

أما أنه كان حبراً من الأحبار، عالماً في شريعتهم، فلا يمكن البت فيه، فقد جرت عادة أهل الأخبار على إطلاق كلمة (الحبر) على نفر ممن أسلم من يهود في أيام الرسول، كما أطلقت على نفر ممن أسلم بعده، مثل كعب الذي عرف بكعب الأحبار. ولا يمكن في نظري البت في درجات علم أمثال هؤلاء وفي مقدار فهمهم للتوراة ولكتب يهود إلاّ بجمع ما نسب إليهم من قول، ودراسته. عندئذ نستطيع أن نحكم على علمهم إنْ كان لهم علم بأحكام ديانة يهود وبالعالم وبما كان يتدارسه علماء ذلك العهد. ورأيي أن هذه الدرجات إنما منحها لهم بعض ذوي القلوب الطيبة من المسلمين الأولين، لما رأوه فيهم، ولما سمعوه منهم من أقوال نسبوها إلى الأنبياء والعلماء والى كتب الله القديمة، ولم يكن لهم بطبيعة الحال علم بها، لعدم وقوفهم على ما كان يتداوله الأحبار، فعجبوا من علمهم هذا، ومن إحاطتهم بأحوال الماضين، فعدّوهم أحباراً لهم في قومهم علم ورأي. وقد تساهل بعضهم في ذلك لظنه أن في منح هؤلاء أمثال هذه النعوت مما يفيد الإسلام، إذ يعني هذا تقدير أولئك الأحبار أصحاب العلم الأول له، وأن تقديرهم هذا شهادة مزكية له. وقد يكون لهم نصيب أيضاً في منحهم هذه الدرجة لأنفسهم للتباهي وللتصدر بذلك بين المسلمين.

---

1) ابن هشام، سيرة (2/ 137)، أسد الغابة (3/ 176)، تهذيب الأسماء واللغات (1/ 270 وما بعدها)، الروض الأنف (2/ 25).

2) تهذيب الأسماء (1/ 271)، الإصابة 3/ 116)، (2/ 212)، (رقم 4725)، (1939م).

وقد نسب أهل الأخبار أقوالاً لابن سلام، نجد بعضها في كتب التفسير والحديث، ونجد بعضها في كتب السير والأخبار. لبعضها طابع إسرائيلي، فهو من القصص المعروفة بالإسرائيليات، ولبعضها طابع الأقاصيص. قد يكون (ابن سلام) صاحبها ومرجعها، وقد يكون غيره قد نسبها اليه[1].

وقد كان له ابنان، هما يوسف ومحمد، رويا عنه الحديث[2]. وقد كنّي باسم ولده يوسف، فعرف بأبي يوسف[3]. ويعد يوسف من الصحابة، وله حديث عن الرسول، ويقال إن الرسول هو الذي سماه يوسفَ، وقيل ليست له صحبة. وقد روى عن جماعة من الصحابة[4].

وقد أسلم يامين بن يامين الاسرائيلي، على أثر إسلام عبد الله بن سلام[5].

وأما يامين بن عمير بن كعب، أبو كعب النضري، فهو من بني النضير. وقد ساعد اثنين من فقراء أصحاب رسول الله على تجهيزهما بشيء من التمر ليتمكنا بذلك من الالتحاق بالجيش الذي سار في السنة التاسعة من الهجرة لغزوة تبوك[6]. أسلم فأحرز ماله من بني النضير، ولم يحرز ماله من بني النضير غيره وغير أبي سعيد بن عمرو بن وهب، فأحرزا أموالهما. وذكر أن النبي قال ليامين: ألم ترَ إلى ابن عمك عمرو بن جحاش وما همّ به من قتلي؟ وكان أراد أن يلقي على النبي رحى فيقتله. فجعل يامين لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله.

وكان فيمن أسلم من بني قريظة (كعب بن سليم القرظي)، وهو من سبيهم في الإسلام، ويعد في الصحابة، ولكن لا تعرف له رواية، وهو والد محمد بن

---

1)Ency., I, p. 30-31, Caetani, Annali, I, p. 413, Harovitz, in ZDMG., IV, 524.

2) أسد الغابة (3/ 176).

3) تهذيب الأسماء واللغات (1/ 271).

4) تهذيب الأسماء (2/ 166).

5) الإصابة (6/ 333)، (3/ 612)، (رقم 9214).

6) الطبري (3/ 143)، (حوادث السنة التاسعة)، الإصابة (6/ 333)، (القاهرة 1907م)، (3/ 611)، (رقم 9213).

كعب القرظي المعروف بروايته عن أحداث يهود مع النبي، وعن بعض أخبار بني اسرائيل[1]. وله روايات في حديث الرسول عن بعض الصحابة، ويعد من التابعين. يقال: إنه ولد في حياة الرسول، وتوفي ما بين سنة ثمان ومئة وسنة عشرين ومئة. وقد عدّه علماء الحديث في طبقة الثقات الورعين[2].

وفيمن أسلم من يهود بني قريظة رفاعة القرظي، وهو رفاعة بن سموأل (سموال)، وقيل: رفاعة بن رفاعة القرظي من بني قريظة، وهو خال صفية زوجة النبي، لأن أمها برة بنت سموأل (سموال)، أما أبوها، فهو (حيى بن اخطب) من رؤساء يهود، وكان من كبار المعارضين له، وهو من بني النضير[3].

ويعدّ (زيد بن سَعْية) (سعنة) في طبقة الصحابة، ويُقال إنه كان أحد أحبار اليهود الذين أسلموا، وإنه كان أكثرهم علماً ومالاً، وقد شهد مع النبي مشاهد كثيرة، وتوفي في غزوة تبوك مقبلاً إلى المدينة[4].

ويعدّ (عطية القرظي) من الصحابة كذلك، كان صغيراً حين غزا النبي بني قريظة، ولذلك لم يقتل، فأسلم، وصحب النبي[5].

ولم يظهر من يهود اليمن في الإسلام ممن عرفوا برواية الإسرائيليات سوى رجلين، هما: كعب الأحبار، ووهب بن منبه. فأما كعب الأحبار، فقد أدرك زمن الرسول، غير أنه لم يره، ولم يدخل في الإسلام إلاّ في أيام أبي بكر أو عمر، وهو أبو اسحاق كعب بن ماتع بن هينوع (هيسوع)، وقد عرف بين المسلمين بكعب الأحبار وبكعب الحبر من باب التعظيم والتقدير لعلمه. وقد أتاه هذا اللقب من علمه بالشريعة وبكتب الأنبياء وباخبار الماضين، وهو علم لا نستطيع أن نحكم

---

1) تهذيب التهذيب (67/2)، أسد الغابة (4/ 242).

2) الطبري (3/ 44)، (السنة الخامسة)، تهذيب الأسماء (1/ 90).

3) الإصابة (1/ 504)، (رقم 2668)، تهذيب الأسماء (1/ 171 وما بعدها، 191)(2/ 348 وما بعدها).

4) تهذيب الأسماء (1/ 204)، الإصابة (3/ 28)، (1/ 548)، (رقم 2904)(التجارية 1939م)، (واستشهد في غزوة تبوك تبوك مقبلاً غير مدبر).

5) تهذيب الأسماء (1/ 235)، الإصابة (2/ 479)، (رقم 5581).

على درجته ومقدار بعده أو قربه من العلم الذي كان منتشراً بين أحبار ذلك العهد ما لم نقف على الأقوال الصحيحة التي صدرت عن ذلك الحبر. أما هذا المروي عنه والمذكور في تفسير الطبري وفي تأريخه وفي كتب من كان يعنى بجمع القصص ولا سيما قصص الرسل والأنبياء، فليس في استطاعتنا التصديق بأنه كله صادر من فم كعب، إذ يجوز أن يكون من رواية أناس آخرين ثم حمل على كعب.

ولم ينسب أحد إلى كعب مؤلفاً، وكل ما نسب إليه فهو مما ورد عنه بالمشافهة والسماع. وهو بين صحيح يمكن أن يكون قد صدر منه، وبين مشكوك في أمره وضع عليه، وفيه ما هو اسرائيلي صحيح، أي إنه مما هو وارد في التوراة أو في التلمود أو في الكتب الاسرائيلية الأخرى وفيه ما هو قصص اسرائيلي نصراني، وما هو محض افتعال وخلط. وبالجملة، إن هذا الوارد عنه يصلح أن يكون موضوعاً لدراسة، لمعرفة أصوله وموارده والمنابع التي أخذت منه. وعندئذ يمكن الحكم على درجة أصله ونسبه في علم بني اسرائيل، وإمكان صدوره من كعب أو من غيره، ومقدار علم كعب ووقوفه على الإسرائيليات.

وأما وهب بن منبه، فيعدّ من التابعين، ويعد مرجعاً مهماً في القصص الاسرائيلية ويقال إنه حصل على علمه من كتب الأولين، وإن أخاً له كان يذهب إلى الشأم للتجارة فيشتري له الكتب ليطالعها، وإنه كان على علم غزير بأحوال الماضين، وكان ملماً بجملة لغات[1]. وإذ كان وهب من المتأخرين وكان نشاطه في الحركة الفكرية في الإسلام لا في الجاهلية، لم نجعل له في هذا الموضع مكاناً، انما مكانه في الأجزاء المتعاقبة بتأريخ الإسلام.

هذه قصة يهود جزيرة العرب قبل الإسلام، قصة لا تستند إلى مؤلفات تأريخية كتبت في تلك الأيام، ولا إلى نصوص جاهلية عربية أو أعجمية لها علاقة بيهود كتبت في ذلك العهد، ولكن استند، في أكثر ما حكيناه، إلى موارد

---

1) لي مقال عنه في مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول والثاني منها.

إسلامية، ذكرتهم وأشارت إليهم لمناسبة ما وقع بينهم وبين الرسول من خلاف، وقد ورد شيء كثير بحقهم في القرآن الكريم وفي الحديث وفي الأخبار ولا سيما أخبار الغزوات، يتعلق معظمه بأمر الخصومة التي وقعت بينهم وبين النبي عند قدومه يثرب، فهو لا صلة له لذلك إلاّ بما له علاقة بهذه الناحية. وما ورد عنهم إذن هو من مورد واحد وطرف واحد. أما الطرف الثاني من أصحاب العلاقة بهذا التأريخ والشأن، وأعني بهم اليهود، فلا صوت لهم فيه، ولا رأي. فلم تصل إلينا منهم كتابة ما عنهم في علاقتهم بالإسلام. كذلك لم تصل إلينا كتابة أو رواية أو خبر عن أولئك اليهود في الموارد التأريخية التي دوّنها غيرهم من مؤرخي يهود وكتابهم عن علاقة يهود جزيرة العرب بالإسلام، وعن إجلاء يهود الحجاز من مواضعهم إلى بلاد الشأم، لا في العربية ولا في العبرانية ولا في بقية اللغات، مع ما لهذا الحادث من خطر في تأريخ اليهود في جزيرة العرب. ولعل الأيام تكشف لنا عن موارد في العبرانية أو في لغة بني إرم تذكر أحوال يهود جزيرة العرب قبل الإسلام وعند ظهوره، وتكشف عن آثار يهود في المواضع التي كانوا يسكنونها في الحجاز، فتبتّ في أمور كثيرة عن حياة هؤلاء. وليس احتمال عثورنا على مثل هذه الآثار ببعيد، فلا بد أن يعثر على حجر من الحجارة المكتوبة التي توضع فوق القبور، فنعرف منه ما لغة الكتابة التي كان يستعملها أولئك اليهود، أهي العبرانية، أو العربية، أو لغة بني إرم، أو أبجدية من الأبجديات المشتقة من القلم المسند؟ وقد يعثر على نصوص أطول من هذه النصوص التي توضع على القبور، تكشف النقاب عن أمور أخرى مهمة تفيدنا في معرفة أحوال اليهود ببلاد العرب قبل الإسلام.

وما دمنا لا نملك نصوصاً يهودية جاهلية، ولا نصوصاً عربية جاهلية تتعرض ليهود، فليس في وسعنا إذن أن نتحدث باطمئنان عن أثر اليهود في الجاهليين أو أثر الجاهليين في اليهود. لقد تحدث عدد من المستشرقين عن أثر اليهود في الجاهليين، فزعموا أن لليهود أثراً عميقاً فيهم، فالختان مثلاً هو أثر من آثار يهود في العرب، وشعائر الحج عند الوثنيين أكثرها هي من إسرائيل، فالطواف حول البيت يرجع أصله إلى بني اسرائيل، ذلك أن قدماءَهم كانوا

يطوفون حول خيمة الإله (يهوه) إله اسرائيل ومنهم تعلمه الجاهليون واتبعوه في طوافهم بالبيت. والإجازة بعرفة يهودية كذلك، لأن الذي كان يجيز الحجاج بعرفة فيأمر الحجيج بالرمي بعد أن يلاحظ الشمس، وقت الغروب يعرف بـ (صوفة)، وصوفة تسمية عبرانية لها علاقة وصلة بهذه الوظيفة وظيفة مراقبة غروب الشمس وتثبيت وقته، فالإجازة إذن عبرانية الأصل. و(منى) صنم من أصنام اسرائيل، ووادي منى على اسم هذا الصنم الإسرائيلي، وأسماء أيام الأسبوع هي تسميات أخذت من يهود، ولفظة (المدينة) التي تطلق على يثرب، أطلقها اليهود على هذا الموضع قبل الإسلام، وقد أخذوها من الإرمية، لتميز هذا المكان عن (وادي القرى). وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل[1].

وقد غالى بعض اليهود في تقدير يهود جزيرة العرب، فذهب إلى أن أولئك اليهود جلهم إن لم يكونوا كلهم كانوا يحسنون قراءة الكتاب المقدس، بدليل اطلاق القرآن الكريم عليهم (أهل الكتاب). وقد فاته أن عبارة (أهل الكتاب) لا تعني أهل الكتابة، بمعنى أنهم كانوا أصحاب علم بالكتابة، وإنما المراد من ذلك أهل كتاب منزل سماويّ. ويدخل في ذلك النصارى أيضاً لوجود كتاب سماوي لديهم كذلك هو الانجيل. وقد رأيت أن القرآن الكريم قد وصف بعض الأحبار بالعلم، كما رمى أكثرهم بالجهل. أما السواد الأعظم منهم، فقد جعلهم عامةً تتبع أقوال رجالها، فلا علم لها ولا معرفة بأمور الماضين أو الحاضرين.

وأنا لا أريد هنا أن أجادل في نفي هذه الأمور، أو إثباتها، فأخذ الشعوب واقتباسها بعضها عن بعض، من القضايا التي لا يمكن أن ينكرها إلّا المعاندون الجاهلون المتعصبون. وقد رأيت ان ابن الكلبي وغيره من قدامى الأخباريين قد أشاروا إلى أن أصل بعض الأصنام عند العرب هو من الشمال، استورد في مناسبات أشاروا إليها، كما أن التنقيبات الأثرية قد أثبتت وجود صلات فكرية بين جزيرة العرب وبين العالم الخارجي، وأن ما يزعمه القائلون بعزلة الجاهليين عن بقية العالم هو هراء لا يستند إلى دليل. ولكني في هذه الأمور من الحذرين. أكره

---

1) اليهود (78 وما بعدها)، .Graetz, Vol., III, p. 60

الجزم في بشيء من غير برهان قاطع ودليل محسوس. فكلام أهل الأخبار، أكثره مما لا يمكن الاعتماد عليه، وقد رأينا طبيعة أكثره ونوعه. ثم إن الكثير مما له علاقةّ بيهود وبالدين هو مما أخذ من أهل الكتاب في الإسلام او من أفواه مسلمة أهل الكتاب. فهو متأخر عن الجاهلية، فلا يمكن أن يشمل الجاهليين من أهل الكتاب ومن وثنيين. وعلينا الآن التمييز بين هذا الذي أدخل بين العرب بعد أيام الجاهلية وبين ذلك الذي كان معروفاً عند الجاهليين وقد ورد عنهم، وذلك لنتمكن من إبداء رأي في هذه القضايا المعقدة.

ثم إن العرب كانوا شعباً سامياً، كاليهود في اصطلاح العلماء، وتشترك البطون السامية في كثير من أصول التفكير والعقيدة، ومعنى هذا أن ما تجده عند يهود قد يكون عند العرب وعند غيرهم ممن يدخلهم المستشرقون في هذه الزمرة. فلم كل شيء ليهود، ونحكم على أن الجاهليين قد أخذوه منهم، ولا نقول إن هذا من فلك التراث القديم الموروث؟ أنا لا أقول ذلك متأثراً بدافع من العصبية، انما أقول ذلك لأني أدين بفكرة هي ان الاستعجال في اصدار الأحكام بغير دليل خطأ فاحش لا يجوز لإنسان يشعر بانسانيته أن يوقع نفسه فيه.

هذا ولا بدّ بالطبع من أن يتأثر الجاهليون المجاورون لليهود بعض التأثر بهم، بأن يأخذوا منهم بعض الأشياء ويتعلموا منهم بعض الأشياء التي تنقصهم. والتي هم في حاجة ماسة إليها. فذلك أمر لا بد منه. بهما ولا بد وأن يكون اليهود قد اقتبسوا أشياء من جيرانهم العرب، وعملوا على محاكاتهم في حياتهم الاجتماعية، لا سيما وبينهم يهود من أصول عربية.

شعر اليهود:

واللغة التي كان يتكلم بها اليهود، هي اللهجات العربية التي كان يتكلم بها أهل المناطق التي ينزلونها. ولتكلم اليهود في كل قطر يحلّون فيه بشيء من الرطانة، لا يستبعد أن تكون لغتهم العربية التي كانوا يتكلمون بها عربية. تشوبها الرطانة العبرانية. ولكن هذا لا يمنع من وجود أناس فيما بينهم كانوا يتكلمون ويكتبون بالعبرانية، ولا سيما أنهم كانوا يستعملون العبرانية في دراسة أمورهم الدينية وفي كتابة النشرات والتعاويذ، كما كانوا يستعملونها في السحر. وقد وردت إشارات إلى ذلك في كتب الحديث. وقد ورد أيضاً أنهم كانوا يعلمون أطفالهم العبرانية في الكتاب.

ويروي رواة الشعر شعراً جاهلياً زعموا أن قائليه هم من يهود. وأكثره أبيات لشعراء لا نعرف من أمرهم شيئاً، لعلها بقايا قصائد. أما القصائد، فينسب أكثرها إلى السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق في تيماء، وصاحب قصة الوفاء المشهورة[1]. وهذا الشعر المنسوب إلى اليهود، لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسقه عن شعر الشعراء الجاهليين، ولا نكاد نلمس فيه أثراً لليهودية ولا للعبرانية. فالفاظه عربية صافية نقية مثل ألفاظ أهل الجاهلية، وأفكاره على نمط أفكار الجاهليين. ويصعب أن تجد فيه أثراً للتوراة والتلمود، مما يحملنا على التفكير في صحة هذا الشعر وفي درجة تعمق صاحبه وتفهمه لدين يهود.

ومن الشعراء الذين روى الأخباريون شيئاً من شعرهم بعد السموأل: (أوس بن دنن)، وهو من بني قريظة، و(كعب بن سعد القرظي)، و(سارة القريظية)، و(سعية بن غريض بن عادياء) (شعية بن غريض بن عادياء)، و(الربيع بن أبي

---

1) تأريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان (1/ 121)، (طبعة دار المعارف بمصر)، (طبعة ثانية)، (تعريب الدكتور عبد الحليم النجار).

الحقيق)، و(أبو الديال) (أبو الزناد)، وله شعر في رثاء يهود تيماء الذين أجلاهم الرسول و(شريح بن عمران)، و(كعب بن الاشرف)، و(أبو رافع اليهودي)[1].

وروى أن (جعفر بن محمد الطيلسي) جمع أشعار اليهود في ديوان، ويظهر أنه أخذ ذلك من كتاب للسكري. ويقال إن الموفق بالله أخا الخليفة المعتمد العباس طلب من الوزير (إسماعيل بن بلبل) أن يقدم إليه ديواناً في شعر اليهود، فطلب الوزير من العالم اللغوي الأديب (المبرّد) أن يقدم إليه ديواناً في شعر يهود، فأخبره المبرد أنه لا يعرف شعراً لليهود. فطلب الوزير من العالم (ثعلب) أن يقدم إليه ما عنده من شعر لليهود، فأجابه ان لديه ديواناً من شعرهم، فقدمه إليه[2].

وقد كانت بين المبرد وثعلب خصومة شديدة ومنافسة عنيفة، فلعل هذا الخبر هو من مرويات الجماعة المتعصبة لأحد الطرفين في الطعن في أحدهما والحطّ من شأنه، فقد تحزّب طلاب العلم وانقسموا جماعتين، كل جماعة كانت تنتصر لصاحبها، إذ لا يعقل ألا يكون للمبرد علم بشعر لليهود، وقد ذكر من سبقه مثل أبي تمام في حماسته والجمحي في طبقات الشعراء كما ورد في الأصمعيات شعراً لهم[3]، كما أن في كتابه الكامل، نتفاً من شعرهم، أو لعل إنكاره لشعرهم بمعنى أن أكثر ما نسب إليهم من شعر هو في نظره مزيف مصنوع، ولهذا لم يُعنَ بجمع ما ورد عنهم، ولا يمكن أنْ يكون ديواناً في شعر يهود[4].

والشعراء اليهود الذين ذكرهم الجمحي في كتابه، (طبقات الشعراء)، هم: السموأل بن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق، وهو من (بني النضير)، وكعب

---

1) الأغاني (19/ 94 وما بعدها)، الميداني (2/ 276)، المشرق، السنة الثانية عشرة (1909)، (162)، Margoliouth, p. 76.

2)Margoliouth, p. 75.

3) طبقات الشعراء للجمحي (70 وما بعدها).

4)Margoliouth, p. 74.

بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعبة بن غريض (شعية بن غريض) وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذيال، ودرهم بن زيد. وقد ذكر لهم أبياتاً مما قالوه من الشعر[1].

والسموأل: وهو من سادات يهود الحجاز ومن أثريائهم وملاكهم، أحسن الشعراء اليهود حظاً في الخلود. بقيت أشعاره، وحفظت قصائده، ولم يبخل علماء الشعر عليه، فجمعوا شعره في ديوان. ولم يشأ الزمان أن يبخل عليه فهيأ له من طبعه. ولا تزال تلك القصة: قصته مع مخلفات امرئ القيس مضرب الأمثال. وصير هذا الشاعر الملاك المرابي مثلاً وقدوة للأوفياء، فضرب به المثل وقيل: أوفى من السموأل، ولعل القصيدة المبتدئة بهذه الأبيات:

وفيت بأدرع الكندي، إني	إذا ما ذمّ أقوام وفيت
وأوصى عادياً يوماً بألاّ	تهدمَ يا سموأل ما بنيت
بنى لي عادياً حصناً حصينا	وماء كلما شئت استقيت

هي التي خلدت هذه القصة، وصيرت لها فروعاً وذيولاً، وهي قصة تجعل الكندي المقصود بها هو الشاعر الشهير امرأ القيس وهي التي خلدت اسم صاحب ذلك الحصن.

ونجد هذه القصة في قصيدة للأعشى، يقال إنه قالها مستجيراً بابن السموأل شريح، ليفكه من أسره، وكان قد وقع أسيراً في يد رجل كلبي كان الأعشى قد هجاه، ثم ظفر به الكلبي، فأسره وهو لا يعرفه، فنزل بشريح بن السموأل وأحسن ضيافته، فلما مرّ بالأسرى، قال الاعشى أبياتاً يمدحه فيها، ويمدح أباه، ويذكر كيف أن أباه اختار أدراع الكندي، وأبى إلاّ أن يسلمها إلى آله وذويه، على أن يسلمها إلى آسري ابنه إذا أطلقوه. وهي أبيات نجته من أسر الكلبي،

1) (ص 70 وما بعدها).

ففر منه بعد أن وهبه لشريح وهو لا يعرف به. فلما عرف به، ندم. ولكن ندمه هذا لم يفده شيئا لأنه جاء بعد فوات الوقت[1].

ويروي الأخباريون ورواة الشعر أشعاراً أخرى للأعشى قالها في مدح السموأل وفي وصف حصنه وفي سرد قصة وفائه، تجد فيها مصطلحات وجملاً وكلمات ترد أيضاً في الشعر المنسوب إلى السموأل. وهذا ما يحملنا على التفكير في كيفية حدوث ذلك ووقوعه. هل حدث ذلك لوقوف الأعشى على شعر السموأل واقتباسه منه، باعتبار أن السموأل أقدم عهداً منه أم حدث بتوارد الخواطر والمعاني فهو من قبيل المصادفة ليس غير، أم صنع فيما بعد على لسان السموأل بعد شيوع هذا الشعر المنسوب إلى الأعشى صاحب الأبلق الفرد، أم الشعران مصنوعان صنعاً في الإسلام ووضعا على لسان الرجلين؟ وبالجملة أن أكثر ما ينسب إلى السموأل، هو من النوع المصنوع الذي شك فيه، وبعضه مما نسب إلى غيره من الشعراء.

أما جامع شعر السموأل في ديوان، فهو إبراهيم بن عرفة الملقب بنفطويه (323 ـ 324هـ)، من مشاهير علماء العربية. وبعض ما هو مذكور في هذا الديوان[2]، مثل قصيدته الشهيرة:

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل

مذكور في حماسة أبي تمام، وبعضه من مرويات الأصمعي ولم يذكر نفطويه جامع الديوان سنده في رواية هذا الشعر. وهذا السند مهم جداً عند المؤرخ للوقوف على كيفية حصول هذا العالم على شعر السموأل، ولمعرفة صحة نسبته اليه.

---

1) الأغاني (19/ 99 وما بعدها).

2) طبع هذا الديوان في بيروت (سنة 1909م) في مجلة المشرق للسنة المذكورة (ص 161 ما بعدها)، كما نشره عيسى سابا بعنوان: شعر السموأل ببيرت كذلك. وأعاد نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين بعنوان: «ديوان السموأل» صنعة أبي عبد الله نفطويه وطبع ببغداد سنة 1955م.

وفي الشعر المنسوب إلى السموأل جزء منحول مصنوع، وُضع عليه، وجزء منسوب إلى غيره، وقد أشار اليه العلماء. ونحن إذا قمنا بغربلته وتنقيته نجد أقله له وأكثره لغيره، قد يكون من صنعة شاعر آخر، وقد يكون من وضع وضَعَة الشعر ومفتعليه. ثم إذا فحصنا هذا القليل الذي يتفق أهل الأخبار على أنه له، لا نجد فيه ما يشير إلى وجود أثر لدين يهود في هذا الشعر.

وقد استدل الأب (شيخو) على نصرانية ذلك الشاعر، من قصيدة نسبت الى السموأل، ورد فيها شيء من القصص الديني، والأب شيخو لا يكتفي بنصرانية السموأل وحده، بل يرى أن النصرانية هي ديانة جميع الشعراء الجاهليين، ولهذا ألف فيهم كتابه (شعراء النصرانية) وتحدث فيه عنهم على أنهم نصارى مؤمنون بدين المسيح[1]. وقد فاته شيء واحد لا أدري كيف عزب عن باله، عفا الله عنه، هو: تعيينه مذهبهم في النصرانية، ونصه على ترهبهم وتنسكهم ولبسهم المسوح على طريقة الرهبان.

ومن القصائد المنسوبة إلى السموأل، قصيدة مطلعها:

ألا أيها الضيف الذي عاب سادتي	ألا اسمع جوابي لست عنك بغافل

ختمها بهذا البيت:

وفي آخر الأيام جاء مسيحنا	فأهدى بني الدنيا سلامَ التكامل[2]

وهي قصيدة تختلف في أسلوب نظمها وفي العرض العام عن طرق النظم المألوفة في الشعر قبل الإسلام، والشعر المنسوب إلى السموأل. وقد وردت فيه كلمة

1) Nallino, Raccolta, III, p. 105, Nöldek, Sammaual, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVII, 1912, S. 177, Welahusen, Zum Koran in ZDMG, LXVII, 1913, S. 630, Eisenburg, Zu Samaw'al, in ZDMG., LXVIII, 1914, S. 644, Al-Samaw'al ibn Adiya, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVI, 1912, S. 318.

2) شعر السموأل (ص 53)، (عيسى سابا)، «بيروت 1951م».

(رحمانهم) وأشير فيها إلى قصة إبراهيم الخليل، والذبيح ابنه، والى تسميته بإسرائيل، ثم إلى الأسباط. وقصة بني إسرائيل مع فرعون مصر. وقد أغرق الله فرعون في البحر. والى القدس والطور، وأمثال ذلك.

وهذه القصيدة هي ردّ لأقوال رجل يظهر أنه عاب بني اسرائيل، وتهجم عليهم، فأثار هذا التطاول صاحب هذه الأبيات فنظمها في الردّ عليه، وفي الفخر بقومه، مستشهداً على ذلك بالقصص الوارد في التوراة عن بني اسرائيل وعن الأنبياء: إبراهيم وإسحاق ويوسف، وختمها بالبيت الذي رويته منها عن مجيء المسيح، وقد دعاه بـ (مسيحنا) لأن المسيح من اليهود. ذكر المسيح فيها بعد حديثه عن موسى وتكليم الربّ له على جبل الطور، وهو انتقال فجائي غريب ليست له صلةٌ ما بالأبيات المتقدمة.

والحوادث المذكورة في هذه القصيدة والاستشهادات التي استشهد بها الشاعر، وإن كانت مما هو مذكور في (الكتاب المقدس) بجزءيه، تدل على أن ناظمها قد استعان في نظم المصطلحات التي استعملها وطريقة تعبيره عن الحوادث بالقرآن الكريم، وبالقصص الوارد في كتب سير الرسل والأنبياء، وأن الغاية من نظمها هو إثبات مجيء المسيح، وقد جاء. وشهادة شاعر يهودي مفيدة ولا شك في هذا الباب.

ولم ترد هذه القصة في ديوان السموأل ولا في كتب الأدب القديمة. وعدم ورودها في تلك الموارد، دليل بالطبع على أنها مما وضع بعد تدوين شعر السموأل في الديوان المنسوب إليه وفي كتب الأدب القديمة، وأن هذه القصيدة هي من الشعر المصنوع المتأخر بالنسبة إلى بقية ما نسب إليه.

وللسموأل آراء دينية تراها في هذا الشعر المنسوب إليه، في بعضه إقرار بالبعث والحساب، وأن المليك وهو الرب يجازي الإنسان على ما قام به وما فعله من خير أو شرّ[1]، وأن الله قد قدّر كل شيء وقضى به، وأن كل ما قدره كائن ولكل

1) شعر السموأل (بيروت 15951)، «عيسى سابا» (ص 26).

رزقه[1]، وأن الإنسان ميت من يوم يولد، وفيه جرثومة الموت، ولد من ميت، ثم يموت، ثم يبعث تارة أخرى للحساب والكتاب، ولكل أجل[2].

وفي قصيدة تائية:

نطفــة مــا منيــت يــوم منيــت	أمــرت أمرهــا وفيهــا بريــت
كنّهــا الله في مكــانٍ خفــي	وخفــيّ مكانهــا لــو خفيــت

وهي فيِ كيفية نشوء الإنسان منَ مني يُمنى، وهي فكرة يظهر أن صاحب هذا الشعر اقتبسها من القرآن الكريم، نظراً لمظهر التأثر به في تعبيره عن كيفية خلق الإنسان. وقد تطرق في هذه القصيدة إلى ما ذكرته من اعتقاده بالموت وبالبعث بعده وبالحساب والثواب والعقاب، والى سليمان والحواري، يحيى وبقايا الأسباط أسباط يعقوب دارس التوراة والتابوت[3]. والى انفلاق البحر لموسى وأشار إلى طالوت وجالوت. والاشارات الموجزة هذه، وإن كانت لقصص موجود في التوراة، لم يعتمد الشاعر عليها، بل اعتمد على القرآن الكريم[4]. فـ (طالوت) مثلاً غير مذكور في التوراة، انما ذكر في القرآن الكريم. وهو اسم الملك (شاؤول) في التوراة[5] وفي أخذ الشاعر بهذه التسمية القرآنية التي لا وجود لها في التوراة دليل على أنه وضع شعره بعد نزول القرآن، أي في الإسلام. وأما (جالوت) فلفظة وردت في كتاب الله كذلك، وهي تقابل Galiath في العهد القديم[6]. ويلاحظ أن صاحب

---

1) ليس يعطى القوي فضلاً من الرز ق ولا يحرم الضعيف الشخيت

بل لكل رزقه ما قضى اللّـ ـه وإن حز أنفه المستميت

شعر السموأل (28).

2) شعر السموأل (ص 29 وما بعدها).

3) وبقايا الأسباط أسباط يعقو ب دارسي التوراة والتابوت

وانفلاق الأمواج طورين عن مو سى وبعد المملك الطالوت

ومصاب الافريس حين عصى الل ـه وإذا صاب حيبه الجالوت

شعر السموأل (ص 27)، ديوان السموأل (ص 25).

4) سورة البقرة، الآية 246 وما بعدها.

5)Ency., IV, p. 642.

6)Ency., I, p. 1008, Hastings,p. 303.

القصيدة قد أخذ مصاب (جالوت) من القرآن الكريم، كما أنه سار على نهجه في ذكر طالوت وجالوت، وهو ينفرد بذلك عن التوراة.

وشعر فيه هذه المصطلحات وهذه المعاني، لا يمكن أن يكون شعراً يهودياً جاهلياً، بل لا بد أن يكون من الشعر المصنوع المنظوم في الإسلام.

فليس في شعر السموأل إذن شيء خاص من الأشياء التي انفردت بها يهود، وهذا الفخر الذي نراه في إسرائيل وفي الأسباط هو فخر يقوم على نمط فخر القبائل بقبائلهم، وليس شيئاً من دين. ثم إن بنا حاجةً إلى إثبات أنه من نظم السموأل حقاً، وأنه ليس من نظم إنسان آخر قاله على لسان السموأل في مدح اليهود وفي الفخر بهم. ولا عجب أن يقوم إنسان بوضع شعر على لسان السموأل أو غيره من الشعراء الجاهليين، فكتب الأدب مليئة بشواهد تذكر أسماء قصائد منتحلة، وضعت على ألسنة شعراء جاهليين، وأسماء من انتحل ذلك الشعر. ولم يكن انتحال ذلك الشعر عملاً سهلاً، إذ لا بد له من قدرة وعلم ومعرفة بأساليب شعر الماضين. وقد كان حمّاد الراوية، وهو أديب كبير وراوية شهير، على رأس طبقة المنتحلين الوضاعين للشعر.

وأشهر القصائد والأشعار المنسوبة إلى السموأل، القصيدة المقولة في الفخر التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداءٍ يرتديه جميل

وهي قصيدة شهيرة معروفة تعد نموذجاً في الفخر والحماسة وفي حسن النظم، ولذلك تحفظ في المدارس حتى اليوم، ويضيف إليها بعض العلماء هذا البيت:

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره ... يعز على من رامه ويطول

وبعض العلماء يزيد عليها وينقص منها أبياتاً أخرى. وهي مع ذلك مما يعزوه بعض العلماء إلى شعراء آخرين، فعزاها بعضهم إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، أو عبد الله بن عبد الرحمان، وقيل ابن عبد الرحيم الأزدي، وهو شاعر شامي إسلامي[1].

وينسب بعض الرواة القصيدة المذكورة إلى شاعر إسلامي آخر يسمى (دكين) الراجز[2]، فترى من هذا مبلغ الاختلاف في صحة نسبة هذه القصيدة إلى السموأل.

ولم يرد في ديوان السموأل. ولا في بعض الكتب الأخرى البيت المتقدم، وأعني به قوله:

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره   يعزّ على من رامه ويطول

ولعدم وروده في ديوانه أهمية بالطبع، إذ يجوز أن تكون هذه الزيادة متعمدة لإثبات إنها من شعر السموأل حقاً، وآية ذلك ورود (الأبلق الفرد) في هذه القصيدة، وليس هناك حصن اشتهر وعرف بهذه التسمية غير هذا الحصن.

وينسب إلى السموأل قوله معتذراً لرجل من ملوك كندة:

وإن كنت ما بلغت عني فلامني   صديقي وحزت من يدي الأنامل

وقد ذكر هذا البيت، وكذلك بيت آخر معه في ديوانه. غير أن بعض العلماء ينسبها إلى معدان بن نجواس بن فروة السكوني[3].

---

1) ديوان السموأل (ص 10 وما بعدها)، الحماسة (ص 49)، العيني (2/ 77)، الأمالي (1/ 273).

2) الأغاني (9/ 262)، (طبعة دار الكتب المصرية).

3) ديوان السموأل (ص 43 وما بعدها)، سمط اللآلئ (457).

وللأخباريين روايات تختلف بعض الاختلاف في اسم والد السموأل فمنهم من جعله عادياء، ومنهم من دعاه أوفى، ومنهم من سمّاه حيّان، (حسان)، ومنهم من قال له (السموأل بن غريض بن عاديا)[1]. وهم يقولون إنه يهودي، ويقولون أحياناً إنه من غسان، وغسان بالطبع ليست من يهود. ومنهم من قال إن والده من يهود، أما أمه فكانت من غسان[2]. فهو إذن ذو نصفين – اذا صح التعبير– نصف يهودي، ونصف آخر عربي. ثم هم يذكرون أنه كانت له صلات وثيقة بأمراء غسان، ولصلته هذه بهم قصده امرؤ القيس، طالبا وساطته له عند الحارث بن أبي شمر الغساني، ليوصله إلى قيصر، فينال بمساعدته حقه من خصومه[3]. أما نحن، فلا يهمنا من أمر السموأل في هذا المكان شيء، وكل ما يهمنا هو ما له صلة بدين اليهود، وعقيدة يهود الجاهلية في الحجاز.

ويستشهد الذين يذكرون أن اسم والد السموأل هو (عاديا) ببيت شعر نسبوه إلى السموأل هو:

بني لي عاديا حصنًا حصيناً وعينــاً كلمـا شـئت اسـتقيت

فقالوا إن أباه (عاديا) اليهودي، وهو باني ذلك الحصن[4].

وقد جعل (ابن دريد) نسب (السموأل) في (بني غسان)، وجعل عمود نسبه على هذا النحو: (السموأل بن حيّا بن عادياء بن رفاعه بن الحارث، بن ثعلبه بن كعب)[5].

---

1) الأغاني (12/3)، (19/ 98)، الميداني (2/ 276)، تاج العروس (7/ 382)، (السموأل بن أوفى بن عادياء بن رفاعة بن جفنة)، التاج (7/ 382)، المشرق، النسة الثانية عشرة (1909)، (ص 162)، اليهود (ص 27)، معاهد التنصيص (1/ 131)، مروج (2/ 176)، (دار الأندلس).
2) الأغاني (19/ 98)، المشرق، العدد المذكور.
3) الأغاني (19/ 98).
4) تاج العروس (6/ 298).
5) الاشتقاق (259/2)، «وستنقلد».

ولا يستبعد بعض المستشرقين احتمال كون السموأل من أصل عربي، هو من غسان. تهود في جملة من تهود من العرب، لا سيما أن في منطقة يثرب أحياء نص على أصلها العربي، دخلت في هذا الدين. وقد ذهب بعضهم إلى احتمال وجود رجلين بهذا الاسم: رجل غساني عربي، وأخر يهودي[1].

وفي هذا البيت المنسوب إلى الأعشى:

أرى عاديا لم يمنع الموت ما له	وفرد بتيماء اليهودي أبلق

ما يشير إلى يهودية السموأل، وهو يشير أيضاً إلى غنى عادياء وكثرة ماله.

وقت عرف حصن السموأل بالأبلق، وبالأبلق الفرد، وهو حصن مشرف على تيماء، وقد ذكر الأخباريون أنه إنما دعي بالأبلق لأنه كان في بنائه بياض وحمرة. وكان أول من بناه عادياء أبو السموأل. وقد ذكر ياقوت الحموي أن موضعه على رابية فيها آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنه من العظمة والحصانة، وهو خراب[2] ولست أرى أن الأبلق أو الأبلق الفرد هي تسمية ذلك الحصن، إنما هي صفة له، أخذت من البيت:

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره	يعز على من رامه ويطول

وهو بيت ينسب قوله إلى السموأل. ومن أبيات أخرى تنسب إلى الأعشى. وورد في أبيات منسوبة إلى الأعشى أن باني الأبلق هو (سليمان)، قال:

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله	وحصن بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داوود حقبة	له أزجٌ عالٍ وطيء موثق
يوازي كبيدات السماء ودونه	بلاط ودارات وكلس وخندق[3]

---

1) Zeitschrift für Assyriologie, 1912, S. 174.

2) البلدان (1/ 86)، القزويني، آثار البلاد (48)، المشرق (1909)، (163)، تاج العروس (6/ 298)، (بلق).

3) البلدان (1/ 87)، تاج العروس (6/ 298).

ولكن هذا البيت يناقض ما ينسب إلى السموأل من شعر فيه أن باني ذلك الحصن، هو أبوه (عاديا) (عادياء). ولست أستبعد أن يكون أكثر هذا الشعر من الشعر المصنوع في الإسلام. وأما نسبة بناء الحصن إلى سليمان، فهي من الأمور المألوفة التي رواها أهل الأخبار عن أبنية سليمان في جزيرة العرب. وردت من أساطير روّجها اليهود بين العرب في الجاهلية وفي الإسلام عن عظمة سليمان وبنائه الأبنية العظيمة. وقد خصصوا سليمان دون سائر رجال اليهود بالبناء، لبنائه الهيكل الذي أدهش العبرانيين ولا شك، ولم يكن لهم عهد بمثل هذا العهد من قبل. ومن يدري، فلعل هذه الأبيات المنسوبة إلى الأعشى هي من عمل أناس في الإسلام كلفهم اليهود صنعها، للتفاخر والتباهي بمآثرهم الماضية، إنها حقاً من قول الأعشى، صنعها لليهود بعد أن فك شريح أسره وأعطاه شيئاً من المال، والمال مالك لكل لسان.

وزعم أهل الأخبار أن الملكة (الزّباء) قصدت هذا الحصن، وحصن مارد، فعجزت عنهما، فقالت: «تمرد مارد وعزّ الأبلق»، فسيرته العرب مثلاً لكل عزيز ممتنع[1]. و(مارد) حصن بدومة الجندل[2].

ونحن إذا تتبعنا الشعر المنسوب إلى السموأل، نجد معظمه كما قلت منتحلاً موضوعاً، صنع فيما بعد. وإذا تتبعنا سيرة هذا الشخص وما قيل فيه، نجد أكثره مما لا يستطيع الثبات للنقد. ولعل هذا هو الذي حمل بعض المستشرقين على الشك لا في شعر السموأل وحده، بل في شخصية السموأل نفسها، فذهبوا إلى أنها من اختراع أهل الأخبار، اخترعوها لما سمعوه من قصص مذكورة في التوراة عن (صموئيل)[3].

وقد نسب بعض المستشرقين بقاء شعر السموأل وعدم ذهابه في الإسلام إلى أهله الذين دخلوا في الإسلام، وبقوا في أماكنهم من تيماء، فلم يكن من الهين

---

1) تاج العروس (6/ 298)، (بلق).

2)(تاج العروس (2/ 50)، (مرد).

3) Margoliouth, p. 72, Winckler, in MVAG., Bd., S. 262.

عليهم نبذ شعره وتركه، ولهذا حافظوا عليه، فكانت محافظتهم هذه عليه سبب بقائه حتى اليوم[1].

وقد ذكر الأخباريون أسماء ثلاثة أولاد للسموأل. أولهم شريح الذي مر ذكره. وثانيهما حوط، وثالثها منذر. ولا نعرف من أمرهما غير الاسم. ويظن أن حوطاً هو الذي وقع في الأسر فذبح[2].

أما (سعية بن غريض) (شعية بن غريض بن السموأل) (شعبة)، فهو أخو السموأل على رواية لأبي الفرج الأصبهاني، جعلت اسم والد السموأل: (غريض بن عادياء)[3]، وهو حفيده على رواية أخرى. وقد أورد له الأصبهاني جملة أبيات في أثناء كلامه على السموأل[4]. ويذكر أنه كان غنياً صاحب أملاك وأموال، يعقد المجالس، وينادمه قوم من الأوس والخزرج، وأن بعض ملوك اليمن أغار عليه فانتسف من ماله حتى افتقر ولم يبقَ له مال، ثم عاد إليه حاله، وأنه عاش طويلاً إلى أيام معاوية، وأنه دخل في الإسلام، وأن معاوية رآه يصلي في المسجد الحرام، فطلب حضوره، وسأله عن شعر أبيه الذي يرثي به نفسه، فأنشده قصيدته:

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ماذا تؤبنني به أنواحي

ويذكر رواة هذا الخبر أن (سعية) كان شيخاً طاعناً في السن يومئذ. وأنه لم يكن يرى حقاً لمعاوية في الخلافة، ولذلك لم يقبل أن يسلم عليه بالخلافة، وأنه أجاب أجوبة فيها خشونة وجفاء، وأن الخليفة كف أصحابه من الإساءة إليه قائلاً لهم: قد خرف الشيخ، فأقيموه. فأخذ بيده فأقيم.

والقصيدة المذكورة ينسبها بعض الرواة إلى السموأل، وهذه النسبة تجعل السموأل أبا لسعية لا أخاً له. أما اذا جعلناها من شعر غريض (عريض)، والد

1) Islamic Culture, III, 2, p. 190, (1939).

2) المشرق، السنة (1909)، (ص 163).

3) الأغاني (19/ 100)، طبقات الشعراء، لابن سلام (111)، اليهود (31).

4) Nöldeke, Beiträge, S. 64.

سعية، فلا يكون هناك إشكال ما من ناحية نسبة القصيدة، غير أن علينا حينئذ جعل (سعية) (شعية) حفيدا للسموأل، في رواية من جعله (شعية بن غريض بن السموأل). بإضافة ولد آخر على أولاد السموأل، اسمه (غريض) (الغريض).

وذكر البحتري في (حماسته) اسم شاعر يهودي آخر، هو: عريض بن شعبة، ونسب اليه هذا الشعر:

ليس يعطى القوي فضلاً من الرز ق ولا يحرم الضعيف الخبيث

بل لكلّ رزقه ما قضى اللّـ ـه ولو كد نفسه المستميت[1]

وهو من شعر السموأل نفسه على رواية بعض الأخباريين، يروونه له مع شيء من الاختلاف[2].

أما (الربيع بن أبي الحقيق)، فهو من بني قريظة على رواية، أو من بني النضير على رواية أخرى. وقد اشترك في يوم بعاث، وعاصر النابغة الشاعر الشهير، وخلف جملة أولاد ناصبوا الرسول العداء[3].

ومن بقية شعراء يهود: (أوس بن دنى) من قريظة[4]، و(كعب بن الأشرف)[5]، و(سمّاك اليهودي). وهو شاعر قوي في رده على المسلمين عنيفا[6].

وكان (كعب بن الأشرف) رجلاً شاعراً يهجو النبي وأصحابه ويحرض عليه ويؤذيهم. خرج إلى مكة ونزل على (المطلب بن أبي وداعة السهمي)، بعد

---

1) Nöldeke, Beiträge, S. 71.

2) ليس يعطى القوى فضلاً من الرز ق ولا يحرك الضعيف الشخيت

بل لكل من رزقه ما قضى اللّـ ـه وإن حز أنفه المستميت

شعر السموأل (27 وما بعدها).

3) الأغاني (21/ 63)، Nöldeke, Beiträge, S. 72.

4) الأغاني (19/ 94).

5) الأغاني (19/ 106)، ابن هشام (2/ 123)، «حاشية على الروض».

6) ابن هشام (2/ 179)، «حاشية على الروض».

معركة (بدر) وجعل يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب. فكان حاصل هجائه القتل[1].

وكان (أبو عفك) اليهودي ممن يحرض على رسول الله ويقول الشعر، وكان شيخاً كبيراً. فقتل لتحريضه على رسول الله وقوله الشعر فيه[2].

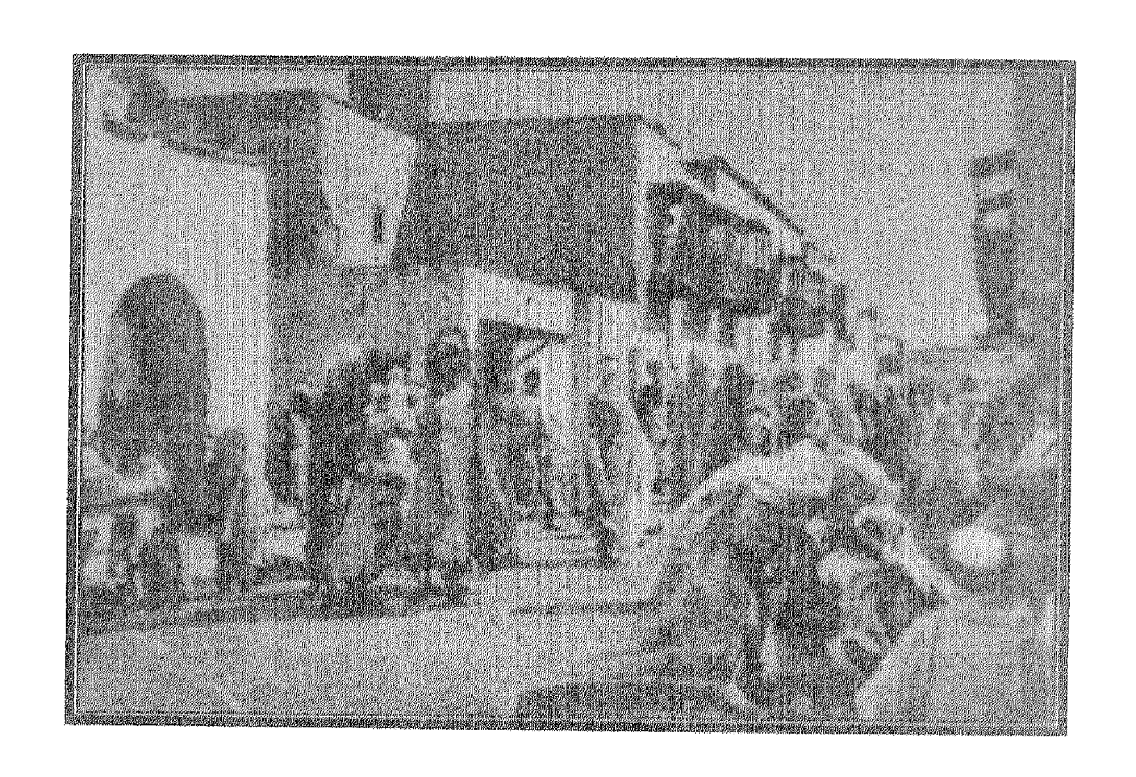
---

1) نهاية الأرب (17/ 72 وما بعده).

2) نهاية الأرب (17/ 66 وما بعدها.

الفصل السابع

النصرانية بين الجاهليين



الفصل السابع

النصرانية بين الجاهليين

ولم تكن اليهودية، الديانة السماوية الوحيدة التي وجدت لها سبيلاً إلى جزيرة العرب، بل وجدت ديانة سماوية أخرى طريقاً لها إلى العرب، هي الديانة النصرانية. وهي ديانة أحدث عهداً من الديانة الأولى، لأنها قامت بعدها، ونشأت على أسسها ومبادئها، ولكنها كانت أوسع أفقاً وتفكيراً من الأولى. فبينما حبست اليهودية نفسها في بني إسرائيل، وجعلت إلهها إله بني إسرائيل شعب الله المختار، جعلت النصرانية ديانتها ديانة عالميةً جاءت لجميع البشر. وبينما قيّدت اليهودية أبنائها بقيود تكاد تضبط حركاتهم وسكناتهم، وفرضت عليهم فروضاً ثقيلة، نجد النصرانية أكثر تساهلاً وتسامحاً، فلم تقيد أبنائها بقيود شديدة، ولم تفرض عليهم أحكاماً اشترطت عليهم وجوب تنفيذها. وقد قام رجال الدين النصارى منذ أول نشأتها بالتبشير بها، وبنشرها بين الشعوب، وبذلك تميزت عن اليهودية التي جمدت، واقتصرت على بني إسرائيل.

ولفظة (النصرانية) و(نصارى) التي تطلق في العربية على أتباع المسيح، من الألفاظ المعربة. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سرياني هو: (نصرويو) Nosroyo، (نصرايا) Nasraya [1]، ويرى بعضٌ آخر أنّها من Nazerenes التّسمية العبرانية التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح. وقد وردت في العهد الجديد في (أعمال الرسل) حكاية على لسان يهود[2]. ويرى بعض المؤرخين أن لها صلةً (بالناصرة) التي كان منها (يسوع) حيث يُقال: (يسوع الناصري) أو أنّ لها صلة بـ (الناصريين) Nazarenes = Nasarenes إحدى الفرق القديمة اليهودية المتنصرة. وقد بقي اليهود يطلقون على من اتّبع ديانة المسيح (النصارى)،

---

1) غرائب اللغة (ص 207)، Ency. , III, p. 848.

2) أعمال الرسل: الإصحاح 24، الآية 5 «فإننا إذْ وجدنا هذا الرجل مفسداً ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة ومقدام شيعة الناصريين»، Ency. Relig. Ethic. , III, p. 574.

ويهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم، ومن هنا صارت النصرانية علماً لديانة المسيح عند المسلمين.

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء في معنى هذه الكلمة وفي أصلها، هي من قبيل التفسيرات المألوفة المعروفة عنهم في الكلمات الغريبة التي لا يعرفون لها أصلاً. وقد ذهب بعضهم إلى أنها نسبة إلى الناصرة التي نُسب إليها المسيح[1]. وزعم بعض منهم أنها نسبة إلى قرية يُقال لها (نصران)، فقيل نصراني وجمعه نصارى[2]. وذُكر أن (النصرانة) هي مؤنث النصراني[3].

ولم أعثر حتى الآن على نص جاهلي منشور وردت فيه هذه التسمية. أما في الشعر الجاهلي، وفي شعر المخضرمين، فقد ذُكران أمية بن أبي الصلت ذكرهم في هذا البيت:

أيام يلقى نصاراهم مسيحهم　　　والكائنين له وداً وقربانا[4]

وذكر أنّ شاعراً جاهلياً ذكر النصارى في شعر له، هو:

اليكَ تعدو قلقا وضينها　　　معترضاً في بطنها جنينها

مخالفاً دين النصارى دينها

وذُكر أنّ جابر بن حُنَيّ قال:

وقد زعمت بهراء أنّ رماحنا　　　رماح نصارى لا تخوض إلى دم[5]

---

1) اللسان (7/ 68)، تاج العروس (3/ 568)، (نصر).

2) المفردات، للأصفهاني (ص 514).

3) فكلتاهما حرت وأسحد رأسها　　كما أسجدت نصرانة لم تحنف

اللسان (7/ 68)، (نصر)، «والنصرانية واحدة النصارى»، تاج العروس (3/ 569)، (نصر).

4) النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 187).

5 النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 171، 225)، شعراء النصرانية (190)، المشرق، السنة السابعة 1904، (620 وما بعدها).

وأنّ حاتماً الطّائي قال في شعر له:

ومازلت أسعى بين نابٍ ودارة بلحيانَ حتى خفت أن آتنصرا[1]

وأنّ (طخيم بن أبي الطخماء) قال في شعر له في مدح بني تميم:

وإنّي وإنْ كانوا نصارى أحبهّم ويرتاح قلبي نحوهم ويُتَوَّق[2]

وأنّ حسان بن ثابت قال:

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد[3]

غير أنّ هذه الأبيات وأمثالها إنْ صح أنها لشعراء جاهليين حقاً، هي من الشعر المتأخر الذي قيل قبيل الإسلام. أما قبل ذلك، فليس لنا علم بما كان العرب يسمّون به النصارى من تسميات.

والذي نعرفه أن قدماء النصارى حينما كانوا يتحدثون عن أنفسهم كانوا يقولون (تلاميذ) Disciples، و(تلاميذ المسيح)، ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى المسيح نظرتهم إلى معلم يعلمهم[4] وكذلك نظروا إلى حوارييه، فورد (تلاميذ يوحنا) وقصدوا بذلك النصارى[5]. وهذه التعابير من أقدم التعابير التي استعملها النصارى للتعبير عن أنفسهم.

كذلك دعا قدماء النصارى جماعتهم بـ (الاخوة) وبـ (الاخوة في الله) Brethren in Lord للدلالة على الجماعة، وبـ (الأخ) للتعبير عن المفرد، ذلك

---

1) الأغاني (104/16)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (171، 225).

2) المشرق، السنة السابعة 1904 (620 وما بعدها).

3) ديوان حسان (24).

4) Hastings, p. 192.

5) إنجيل مرقس: الإصحاح الثاني، الآية 18.

لأن العقيدة قد آخت بينهم، فصار النصارى كلهم إخوة في الله وفي الدين[1]. ثم تخصصت كلمة (الأخ) برجل الدين[2]. ودعوا أنفسهم (القديسين) Saints[3]المؤمنين[4] والمختارين الأصفياء والمدعوّين، ويظهر أنها لم تكن علمية، وإنما وردت للأشارة إلى التسمية التي تليها.

وقد كنى عن مجتمع النصارى بـ (الكنيسة) Ecclesia وتعني (المجمع) في الإغريقية، بمعنى المحل الذي يجتمع فيه المواطنون. فكنى بها عن المؤمنين وعن الجماعة التابعة للمسيح. كما عبر عن النصارى بـ (الفقراء) وبـ (الأصدقاء)[5].

وقد عرف النصارى بـ Christians نسبةً إلى Christos اليونانية التي تعني (المسيح) Messiah، أي المنتظر المخلص الذي على يديه يتم خلاص الشعب المختار. ويسوع هو المسيح، أي المنتظر المخلص الذي جاء للخلاص كما جاء في عقيدة أتباعه، ولذلك قيل لهم أتباع المسيح. فأطلقت عليهم اللفظة اليونانية، وعُرفوا بها، تمييزاً لهم عن اليهود. وقد وردت الكلمة في أعمال الرسل وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتوس[6].

أما في القرآن الكريم وفي الأخبار، فلم ترد هذه اللفظة اليونانية الأصل. ولهذا نجد أن العربية اقتصرت على إطلاق (نصارى) و(نصراني) و(نصرانية) على النصارى تمييزاً لهم عن أهل الأديان الأخرى. أما مصطلح (عيسوي) و(مسيحي)، فلم يُعرفا في المؤلفات العربية القديمة وفي الشعر الجاهلي، فهما من المصطلحات المتأخرة التي أطلقت على النصارى[7]. وقد قصد في القرآن الكريم بـ (أهل الإنجيل)

1) Hastings, p. 104.

2) أعمال الرسل، الإصحاح الأول، الآية 15 وما بعدها، Ency. Reli. Ethic. , 3, p. 573.

3) رسالة بولس الرسول، الرسالة الأولى إلى أهل كورنتوس، الإصحاح الأول، الآية الأولى ما بعدها.

4) أعمال الرسل: الإصحاح الخامس، الآية 14، رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس، الإصحاح الأول، الآية الأولى وما بعدها.

5) Ency. Reli. Ethic. , 3, p. 574 .

6) أعمال الرسل: الإصحاح الحادي عشر: الآية 26، الإصحاح 26، الآية 28، رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتس: الإصحاح الرابع، الآية 16، Hastings, p. 127.

7) Hughes, Dictionary of Islam, p. 431.

[1] النصارى، إذ لا يعترف اليهود بالإنجيل. وقد أدخل علماء اللغة اللفظة في المعربات[2].

وأهم علامة فارقة ميزت نصارى عرب الجاهلية عن العرب الوثنيين، هي أكل النصارى للخنازير، وحملهم الصليب وتقديسه. ورد أنّ الرسول قال لراهبيْن أتياه من نجران ليبحثا فيما عنده: «يمنعكما عن الإسلام ثلاث: أكلكما الخنزير، وعبادتكما الصليب، وقولكما لله ولد»[3]. وورد أنه رأى (عدي بن حاتم الطائي) وفي عنقه صليب من ذهب، لأنه كان على النصرانية[4].

وورد في شعر ذي الرّمة:

ولكنَّ أصل امرىء القيس معشرٌ يحل لهم أكل الخنازير والخمر[5]

يريد أنّهم نصارى في الأصل، فهم يختلفون عن المسلمين في أكلهم لحم الخنزير وفي شربهم الخمر.

وقد أقسم النصارى بالصليب. هذا (عدي بن زيد) يحلف به في شعر ينسب اليه، فيقول:

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب[6]

ليس في استطاعتنا تعيين الزمن الذي دخلت فيه النصرانية إلى جزيرة العرب. وتحاول مؤلفات رجال الكنائس رد ذلك التاريخ إلى الأيام الأولى من

---

1) المائدة، الآية 47.

2) النهاية في غريب الحديث (4/ 136)، المعرب، للجوالقي (23).

3) البلاذري (71).

4) اللسان (443/13)، (وثن)، السيوطي، الدرر المنثور (10/ 75).

5) النصرانية (75).

6) شيخو، شعراء النصرانية (451).

التاريخ النصراني[1]، غير أننا لا نستطيع اقرارهم على ذلك، لأن حججهم في ذلك غير كافية للاقناع. ولذلك، فليس من الممكن تثبيت تأريخ لانتشارها في هذه الأماكن في الزمن الحاضر، وليس لنا إلاّ التفتيش عن أقدم الوثائق المكتوبة للوقوف عليها بوجه لا يقبل الشك ولا التأويل. ونحن أمام بحث علمي، يجب أن تكون العاطفة بعيدة عنه كل البعد.

واذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة، فإنّ دخول النصرانية إليها كان بالتبشير وبدخول بعض النساك والرهبان إليها للعيش فيها بعيدين عن ملذات الدنيا، وبالتجارة، وبالرقيق ولا سيما الرقيق الأبيض المستورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة. أما هجرة نصرانية كهجرة يهود إلى الحجاز أو اليمن أو البحرين، فلم تحدث، ذلك لأن النصرانية انتشرت في إمبراطورية الروم والساسانيين بالتدريج، ثم صارت ديانة رسمية للقياصرة والروم وللشعوب التي خضعت لهم، فلم تظلّ النصرانية أقلية هناك، لتضطر إلى الهجرة جماعة وكتلة إلى بلد غريب. لذلك كان حديثنا عن نصارى العرب من حيث الأصل والأرومة، يختلف عن حديثنا عن أصل يهود اليمن أو الحجاز.

وبفضل ما كان لكثير من المبشرين من علم ومن وقوف على الطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير في النفوس، تمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم في دينهم، أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم. فنسب دخول بعض سادات القبائل ممن تنصر إلى مداواة الرهبان لهم ومعالجتهم حتى تمكنوا من شفائهم مما كانوا يشكون منه من أمراض. وقد نسبوا ذلك إلى فعل المعجزات والبركات الإلهية، وذكر بعض مؤرخي الكنيسة أن بعض أولئك الرهبان القديسين شفوا بدعواتهم وببركات الربّ النساء العقيمات من مرض العقم فأولدن أولاداً، ومنهم من توسل إلى الله أن يهب لهن ولداً ذكراً، فاستجاب دعوتهم، فوهب لهم ولداً ذكراً، كما حدث ذلك لضجعم سيد الضجاعمة، اذْ توسل أحد الرهبان إلى الله أنْ يهب له ولداً ذكراً، فاستجاب له. فلما رأى ضجعم

---

1) النصرانية وآدابها، القسم الأول، تأليف لويس شيخو، بيروت، 1912م.

ذلك، دخل في دينه وتعمّد هو وأفراد قبيلته[1]. ومنهم من شفى بعض الملوك العرب من أمراض كانت به مثل (ماريشو عزخا) الراهب. ذكروا أنه شفى النعمان ملك الحيرة من مرض عصبي آلم به، وذلك بإخراجه الشيطان من جسده[2].

وفي تواريخ الكنيسة قصص عن أمثال هذه المعجزات المنسوبة إلى القديسين، كالتي نسبوها إلى القديس (سمعان العمودي) (المولود نحو سنة 360م) يذكرونها على أنها كانت سبباً في هداية عدد من الأمراء وسادات القبائل إلى النصرانية، وبفضل تنصرهم دخل كثير من أتباعهم في هذا الدين[3]. وكالتي نسبوها إلى القديس (أفتميوس) الذي نصر بفضل هذه المعجزات جمعاً من الأعراب وأسكنهم في أماكن خاصة أنشأ فيها كنائس أطلق عليها في اليونانية ما معناه (المحلة) أو (المعسكر) [4].

ولم يعبأ المبشرون بالمصاعب والمشقات التي كانوا يتعرضون لها، فدخلوا مواضع نائية في جزيرة العرب، ومنهم من رافقوا الأعراب، وعاشوا عيشتهم، وجاروهم في طراز حياتهم، فسكنوا معهم الخيام، حتى عرفوا بـ (أساقفة الخيام) وبـ (أساقفة أهل الوبر)، وبأساقفة القبائل الشرقية المتحالفة وبأساقفة العرب البادية. وقد ذكر أن مطران (بصرى) كان يشرف على نحو عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان وقد نعتوا بالنعوت المذكورة، لأنهم كانوا يعيشون في البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر[5].

وقد دخل أناس من العرب بالنصرانية باتصالهم بالتجار النصارى وبمجالستهم لهم. روي أن رجلاً من الأنصار، يُقال له (أبو الحصين)، كان له

---

1) النصرانية وآدابها (1/ 35)، Sozomene, Hist. Eccl. , VI, 38.

2) الديورة في مملكتيْ الفرس والعرب، للقس بولس شيخو (ص 32، 47).

3) النصرانية وآدابها (1/ 81 وما بعدها).

4) المشرق: السنة الثانية عشرة، الجزء 5، آذار (1909م)، (ص 344 وما بعدها).

5) النصرانية (1/ 37).

ابنـان، فقـدم تجـار مـن الشـأم إلى المدينـة يحملـون الزيـت، فلمـا بـاعوا وأرادوا أن يرجعـوا، أتـاهم ابنـا أبـي الحصـين، فـدعوهما إلى النصـرانية، فتنصـرا فرجعـا إلى الشأم معهم[1].

ودخلـت النصـرانية جزيـرة العـرب مـع بضـاعة مسـتوردة مـن الخـارج، هـي تجارة الرقيق مـن الجنسيْن، فقـد كـان تجار هـذه المادة المهمـة الرابحـة يسـتوردون بضـاعتهم مـن أسـواق عالميـة مختلفـة، ولكـن أثمـن هـذه البضـاعة وأغلاهـا هـي البضاعة المستوردة من إمبراطوريتي الرّوم والفرس، لمميزات كثيرة امتـازت بهـا عـن الأنـواع المسـتوردة مـن إفريقيـة مـثلاً. فقـد كـان صـنفها مـن النـوع الغـالي الممتـاز بالجمال والحسن والاتقان ثم بالابتكار وبالقيام بأعمال لا يعرفها من هم من أهل إفريقية. ومن الروميّات والصقليات والجرمانيات من صرن أمهات لأولاد عدوا من صميم العرب. وقد كان أكثرهن، ولا سيما قبيل ظهور الإسلام، على النصرانية. ومـن بينهن مـن خلدت أسماؤهن لتتحدث للقادمين مـن بعدهم مـن الأجيال عـن أصولهن في العجم وعن الدين الذي كنّ عليه.

وقـد كـان في مكـة وفي الطـائف وفي يثـرب وفي مواضـع أخـرى مـن جزيـرة العرب رقيق نصراني كان يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والأناجيل، ويقص عليهم قصصاً نصرانياً ويتحدث إليهم عن النصرانية، ومنهم من تمكن مـن إقناع بعض العـرب في الـدخول في النصـرانية، ومـنهم مـن أثـر علـى بعضـهم، فأبعـده عن الوثنية، وسفه رأيها عندهم، لكنهم لم يفلحوا في إدخالهم في دينهم، فبقوا في شك من أمـر الـديانتيْن، يـرون أنّ الحـق في توحيـد الله وفي اجتنـاب الأوثـان، لكنّهـم لم يـدخلوا في نصـرانية، لأنهـا لم تكـن علـى نحـو مـا كـانوا يريـدون مـن التوحيـد وتحريم الخمر وغير ذلك مما كانوا يبتغون ويشترطون.

وقـد أثـرت الأديـرة تـأثيراً مهمـاً في تعريـف التجـار العـرب والأعـراب بالنصـرانية. فقـد وجـد التجـار في أكثـر هـذه الأديـرة ملاجـىء يرتـاحون فيهـا

1) تفسير الطبري (3/ 10)، تفسير القرطبي (3/ 280 وما بعدها).

ومحلات يتجهزون منها بالماء، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشرب: يأنسون بأزهارها وبخضرة مزارعها التي أنشأها الرهبان، ويطربون بشرب ما فيها من خمور ونبيذ معتق امتاز بصنعه الرهبان. وقد بقيت شهرة تلك الأديرة بالخمور والنبيذ قائمة حتى في أيام الإسلام. ومن هؤلاء الرهبان ومن قيامهم بشعائرهم الدينية، عرف هؤلاء الضيوف شيئاً عن ديانتهم وعما كانوا يؤدونه من شعائر. وقد أشير إلى هؤلاء الرهبان الناسكين في الشعر الجاهلي، وذكر عنهم أنهم كانوا يأخذون المصابيح بأيديهم لهداية القوافل في ظلمات الليل[1].

وقد كانت هذه الأديرة، وهي بيوت خلوة وعبادة وانقطاع إلى عبادة الله والتفكير فيه، مواطن تبشير ونشر دعوة. وقد انتشرت حتى في المواضع القصية من البوادي. واذا طالعنا ما كتب فيها وما سجله أهل الأخبار أو مؤرخو الكنائس عن أسمائها، نعجب من هذا النشاط الذي عرف به الرهبان في نشر الدعوة وفي إقامة الأديرة للإقامة فيها في مواضع لا تستهوي أحداً. وهي متقاربة عديدة في بلاد العراق وفي بلاد الشأم. بل نجد لها ذكراً حتى في الحجاز ونجد وفي جنوبي جزيرة العرب وشرقيها: تتلقى الإعانات من كنائس العراق والشأم ومن الروم، حتى تمكنت من التبشير بين أكثر القبائل. ولولا ظهور الإسلام ونزول الوحي على الرسول في الحرمين، لكان وجه العالم العربي ولا شك غير ما نراه الآن. كان العرب على دين النصرانية وتحت مؤثرات ثقافية أجنبية، هي الثقافة التي اتسمت بها هذه الشيع النصرانية المعروفة حتى اليوم.

وقد ذكر (ابن قتيبة الدينوري): أن النصرانية كانت في ربيعة، وغسان، وبعض قضاعة[2]. وقال (اليعقوبي): «وأما من تنصر من أحياء العرب، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى، منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد

---

1) Wellhausen, Reste, S. 232.

2) المعارف (621)، البدء والتأريخ (4/ 31)، الأعلاق النفيسة (217).

العزّى، وورقة بن نوفل بن أسد. ومن بني تميم: بنو امرىء القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة: بنو تغلب، ومن اليمن: طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم»[1].

وطبيعي أن يكون انتشار النصرانية في العرب ببلاد الشأم واضحاً ظاهراً أكثر منه في أي مكان آخر. وأقصد ببلاد الشأم ما يقصده علماء الجغرافيا العرب من هذا المصطلح. فقد كان لعرب هذه الديار علاقة مباشرة واتصال ثقافي بغيرهم من سكان هذه الأرضين الذين دخل أكثرهم في الديانة النصرانية، والذين صارت هذه الديانة ديانة بلادهم الرسمية بعد دخول الروم فيها واتخاذهم النصرانية ديناً رسمياً للدولة منذ تنّصر أوّل قيصر من القياصرة، فكان من أولى واجبات الروم السعي في تنصير الشعوب الخاضعة لهم، لا تقرباً إلى الله وحده، بل لتمكين سلطانهم عليهم، وإخضاعهم روحياً لهم. ولهذا كان من سياسة البيزنطيين نشر النصرانية بين أتباعها وفي الخارج وإرسال المبشرين والاغداق عليهم ومدهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير، وبالفعلة لبناء الكنائس الفخمة الجميلة على طراز فني أنيق جميل غير معروف بين من سيبشر بهذا الدين بينهم. وبذلك تبهر عقولهم، فتشعر أن للدين الجديد مزايا ليست في دينهم، وأن معابده أفخم من معابدهم، ورجال دينه أرقى من رجال دينهم. وبذلك يأتون إليها. وللبهرجة والفخفخة أثر عظيم في كثير من الناس، فالعين عند أكثر البشر، تقوم مقام العقل. وقد يكون ما قام به الأحباش في اليمن من إنشاء الكنائس العظيمة فيها وتفننهم في تزويقها وتجميلها وفي فرشها بأفخر الرياش والفراش لصرف الناس عن الكعبة كما يزعم أهل الأخبار دليلاً على ما أقول.

وقد وجدت النصرانية لها سبيلاً بين عرب بلاد الشأم وعرب بادية الشأم والعراق. فدخلت بين (سليح)، و(الغساسنة)، و(تغلب)، و(تنوخ)، و(لخم)، و(إياد)[2]. وقد انتشرت بين عرب بلاد الشأم بنسبة تزيد على نسبة انتشارها بين عرب بلاد العراق، وهو شيء طبيعي، فقد كانت بلاد الشأم تحت حكم البيزنطيين، وديانتهم

---

1) اليعقوبي (1/ 227).

2) اليعقوبي (1/ 227)، (أديان العرب).

الرسمية، هي الديانة النصرانية، وكانوا يعملون على نشرها وترويجها بين شعوب (إمبراطوريتهم)، وبين الشعوب الأخرى، لا سيما الشعوب التي لهم مصالح اقتصادية معها. ففي نشر النصرانية بينهم وإدخالهم فيها، تقريب لتلك الشعوب منهم، وتوسيع لنفوذهم السياسي بينهم، وتقوية لمعسكرهم المناهض لخصومهم الفرس، أقوى دولة معادية لهم في ذلك الوقت. ولهذا سعت القسطنطنية لإدخال عربهم في النصرانية، وعملت كل ما أمكنها عمله للتأثير على سادات القبائل لإدخالهم في دينهم، بدعوتهم لزيارة كنائسهم وبارسال المبشرين اللبقين اليهم، لاقناعهم بالدخول فيها، وبإرسال الأطباء الحاذقين اليهم لمعالجتهم، وللتأثير عليهم بذلك في اعتناق النصرانية. كما دعوهم لزيارة العاصمة، لمشاهدة معالمها ولإبهار عقولهم بمشاهدة كنائسها، والاتصال بكبار رجال الدين فيها، لتعليمهم أصول النصرانية. وأظهروا لهم مختلف وسائل المعونة والمساعدة إن دخلوا في ديانتهم، وبذلك أدخلوهم في النصرانية فصاروا إخواناً للروم في الدين.

نعم، دخل سادات القبائل والحكام العرب التابعون لهم في هذه الديانة، فصاروا نصارى، ولكنهم لم يأخذوا نصرانية الروم، بل أخذوا نصرانية شرقية مخالفة لكنيسة (القسطنطنية)، فاعتنقوها مذهباً لهم. وهي نصرانية عدت (هرطقة) وخروجاً على النصرانية الصحيحة (الأرثوذكسية) في نظر الروم. نصرانية متأثرة بالتربة الشرقية، وبعقلية شعوب الشرق الأدنى، نبتت من التفكير الشرقي في الدين، ولهذا تأثرت بها عقلية هذه الشعوب فانتشرت بينها، ولم تجد لها إقبالاً عند الروم وعند شعوب أوروبة. وكان من جملة مميزاتها عكوفها على دراسة العهد القديم، أي التوراة، أكثر من عكوفها على دراسة الأناجيل[1].

والنصرانية التي شاعت بين عرب بلاد الشأم، هي النصرانية اليعقوبية، أو المذهب اليعقوبي بتعبير أصح. وهو مذهب اعتنقه أمراء الغساسنة وتعصبوا له، ودافعوا عنه، وجادلوا رجال الدين في القسطنطنية وفي بلاد الشأم في الذب عنه. فزعم مثلاً أن (الحارث بن جبلة) (ملك العرب النصارى) تغلب في مناظرة جرت له

1) Nöldeke, Geschichte des Qorāns, I, S. 7.

مع (البطريرك افرام) (526 – 545م) على (البطريرك) وأفحمه في جوابه. وكان افرام، وهو على مذهب (الملكيين)، قد قصده لاقناعه بترك المذهب (المنوفيزيتي) والدخول في مذهبه[1]. ونسبوا إلى (المنذر بن الحارث) دفاعاً شديداً عن (المنوفيزيتية)، أي المذهب الذى كان عليه الغساسنة من مذاهب النصرانية، وذكروا أنه أنب (البطريرك دوميان) وهو في القسطنطنية على تهجمه على (المنوفيزيتيين)، وعمل جهده في التقريب بين مذهبه ومذهب القيصر، واتصل بالقيصر (طيباريوس) (578 – 582م) ليعمل على بث روح التسامح بين المذاهب النصرانية وترك الحرية للأفراد في دخول المذهب الذي يريدونه والصلاة في أية كنيسة يريدها النصراني.

ويظهر أن بعض الضجاعمة الذين كانوا يتولون حكم عرب الشأم قبل الغساسنة كانوا على دين النصرانية. غير أننا لانستطيع أن نحكم على أي مذهب من مذاهب النصرانية كانوا. فذكروا أن (زوكوموس)، وهو (ضجعم) جد الضجاعمة تنصر على يد أحد الرهبان، وذلك أن هذا الرئيس كان متلهفاً إلى مولود ذكر، فجاءه هذا الراهب، وتضرع إلى الله أن يهبه ولداً ذكراً، فلما استجاب الله له تعمدّ وتبعته قبيلته[2].

وقد كان مشهد القديس (سرجيوس) في (الرصافة)، من أهم المزارات التي تقصدها المتنصرة من عرب الشأم، مثل الغساسنه وتغلب. وقد تقرب إليه بعض ملوك الغساسنة بتقديم الهدايا والنذور إليه وبتزيينه وبزيارته، وبالاعتناء بالمدينة وبصهاريجها تكريماً له، وتقرباً اليه، وظل هذا المزار مقصوداً مدة في الإسلام. وقد عدّ التغلبيون هذا القديس شفيعهم، جعلوا له راية حملوها معهم في الحروب،

1) المشرق، السنة الرابعة والثلاثون، كانون الثاني . آذار، 1936 (ص 61 وما بعدها).

2) النصرانية (1/ 35).

وكانوا يحملونها مع الصليب تبركاً وتيمناً بالنصر[1].

وكان حاضر (قنسرين) لتنوخ. أقاموا في طرفها هذا منذ زمن قديم، مذ أول نزولهم بالشأم. نزلوا في طرفها وتنصروا. فلما حاصر (أبو عبيدة) المدينة، دعاهم إلى الإسلام، فأسلم بعضهم، وأقام على النصرانية بنو سليح. كذلك كان في طرف قنسرين عشائر من طيء، نزلوا بها في الجاهلية على أثر الحروب التي وقعت فيما بينهم، واستدعت تفرقهم، فأقاموا عند قنسرين مع القبائل العربية الأخرى التي جاءت إلى هذا المكان[2].

وكان بقرب مدينة (حلب) حاضر يدعى (حاضر حلب) يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم. فلما جاء (أبو عبيدة) إلى المدينة، صالح من فضّل البقاء منهم على دينه على الجزية، ثم أسلم الكثير منهم فيما بعد[3].

وتعد بهراء في جملة القبائل العربية المتنصرة عند ظهور الإسلام. تنصرت كما تنصرت غسان وسليح وتنوخ وقوم من كندة، وذلك لنزولها في بلاد الشأم ولاتصالها بالروم[4].

وقد سكن قوم من (إياد) السواد والجزيرة، وسكن قوم منهم بلاد الشأم، فخضعوا للغساسنة وللروم وتنصروا. وهم في جملة القبائل التي لم يأخذ علماء

---

1) قال الأخطل:

لما رأونا، والصليب طالعا، ومار سرجيس، وسما ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعا خلوا لنا راذان والمزارعا

فأجابه جرير:

أبالصليب وما سرجيس تتقي شهباء ذات مناكب جمهورا

وقال:

يستنصرون بمار سرجيس وابنه بعد الصليب وما لهم من ناصر

المشرق، السنة الرابعة والثلاثون، نيسان ـ حزيران، 1936، (ص 246 وما بعدها).

2) البلاذري، فتوح (150 وما بعدها)، (أمر جند قنسرين والمدن التي تدعى العواصم).

3) البلاذري، فتوح (151).

4) اليعقوبي (1/ 298)، الخراج (146)، النصرانية (125).

العربية اللسان عنها لمجاورتها أهل الشأم، ولتأثرها بهم، وهم قوم يقرؤون ويكتبون بالسريانية، فتأثروا بهم، لروابط الاحتكاك والثقافة والدين[1].

وقد ترك لنا رجل من نصارى الشأم نصاً قصيراً مؤرخاً بسنة (463) المقابلة لسنة (568) للميلاد، وهي غير بعيدة عن ميلاد الرسول جاء فيها: «نا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت 463 بعد مفسد خيبر بعم»، أي «أنا شراحيل بن ظالم بنت ذا المرطول بعد مفسد (خيبر) بعام». هو على قصره ذو أهمية عظيمة من الناحية اللغوية، إذ هو النص الجاهلي الوحيد الذي وصل الينا مكتوباً باللهجة التي نزل بها القرآن الكريم. وهو على ما أعلم النص الجاهلي الوحيد أيضاً الذي وصل إلينا مكتوباً بصيغة المتكلم، فالنصوص الأخرى التي وصلت إلينا والمكتوبة بمختلف اللهجات العربية مدوّنة كلها بضمير الغائب. وهو أيضاً من النصوص العربية القليلة التي تركها النصارى العرب لمن بعدهم في بلاد الشأم.

وقد استغل الروم العربَ المتنصرة بأن أثاروا في نفوسهم العواطف الدينية على المسلمين، حينما عزم المسلمون على فتح بلاد الشأم وطرد البيزنطيين منها، وأغروا سادات القبائل بالمال وبالهدايا وبالوعود حتى اشتروهم فصاروا إلى جانبهم. والمصالح الشخصية هي فوق كل مصلحة عند سادات القبائل، لا تعلوها عندهم مصلحة، فانضموا اليهم، وجاءوا بقبائلهم لتحارب معهم. ومن هذه القبائل العربية التي حاربت مع الروم، غسان. حاربوا معهم في معارك عديدة. ففي يوم اليرموك كانوا في صفوف الروم، وكان رئيسهم (جبلة بن الأيهم الغساني) في مقدمة الجيش الذي أرسله هرقل لمحاربة المسلمين. كان على رأس مستعربة الشأم من غسان ولخم وجذام[2]. وقد اشترك مع الروم في حروب أخرى ضد المسلمين.

---

1) المزهر (1/ 105)، النصرانية (124).

2) البلاذري، فتوح (140)، (يوم تبوك).

وكانت (سليح) في جملة القبائل العربية المتنصرة التي حاربت المسلمين. ولما تقهقر الروم وانهزموا، دفعوا الجزية لاحتفاظهم بدينهم. وكذلك كانت عاملة ولخم وجذام في جملة القبائل المتنصرة التي ساعدت الروم، وآزرتهم. كانوا مع الروم مثلاً حين مجيء الرسول إلى (تبوك)[1]. وظلوا إلى جانبهم يؤيدونهم حتى تبين لهم أن النصر قد تحول للمسلمين، وأن الهزائم قد حالفت الروم، عندئذ انضمت في جملة من انضم من متنصرة العرب إلى المسلمين لمحاربة الروم[2].

وكادت قبيلة (تغلب) الساكنة غرب الفرات، أن تفرّ إلى بلاد الروم وتلحق بأرض الروم، لما غلب البيزنطيون على أمرهم وفتحت بلاد الشأم والعراق أمام المسلمين. ولما خيّرت بين البقاء على دينها ودفع الجزية وبين الدخول في الإسلام، أنفت من دفع الجزية، ورضيت بدفع ضعف الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض[3].

وقد نزحت (إياد) إلى بلاد الروم وبقيت بها، ثم عاد جمع منها لاخراج القيصر إياهم، فنزلوا بلاد الشأم والجزيرة وانضموا إلى اخوانهم في الجنس[4].

ويلي هؤلاء عربُ العراق، لاحتكاكهم بالنصارى ولانتشار النصرانية في العراق بالرغم من آن ديانة الحاكمين لهذا القطر كانت ديانة أخرى، وأن النصرانية لم تكن في مصلحة الفرس. غير أن الفرس لم يكونوا يبشرون بدينهم، ولم يكن يهمهم دخول الناس فيه، إذ عدت المجوسية ديانة خاصة بهم، وهذا مما صرف الحكومة عن الاهتمام بأمر أديان الخاضعين لها من غير أبناء جنسها، إلاّ اذا وجدتها تتعارض مع سياستها، وتدعو إلى الابتعاد عنها. ثم إن النصرانية التي انتشرت فيها لم تكن من النصرانية المتشيعة للروم، ولهذا لم تجد الدولة الساسانية من هذه الناحية ما يهدد سياستها بالأخطار، فغضت النظر عنها، وإنْ

---

1) البلاذري (71)، (تبوك وأيلة وأذرح ومقنا والجرباء).

2) الخراج (138)، (فصل في الكنائس والبيع والصلبان).

3) البلاذري (185)، (أمر نصارى بني تغلب بن وائل)، السنن الكبرى (9/ 216)، الخراج (120 وما بعدها).

4) الطبري (4/ 197 وما بعدها)، (الجزيرة).

قاومتها مراراً واضطهدتها، وفتك ملوكها بعدد من الداخلين فيها، أشارت اليهم كتب مؤرخو الكنيسة في تواريخهم عن الشهداء القديسين[1].

وقد أشار أهل الأخبار إلى تنصر بعض ملوك الحيرة، ونسبوا اليهم بناء الأديرة والكنائس، كما أشار إلى ذلك بعض مؤرخي الكنيسة. كالذي ذكروه عن (المنذر) وعن (النعمان بن المنذر). غير أننا لا نستطيع إقرار ذلك بوجه عام، ولا بدّ من التريث، إذ يظهر أن أكثر ملوك الحيرة كانوا على الوثنية. وإذا كان كثير من ملوك الغساسنة قد دخلوا في النصرانية فإن ظروفهم تختلف عن ظروف ملوك الحيرة. فقد كان الروم، وهم سادة بلاد الشأم، على هذه الديانة، وكانوا يشجعون انتشار النصرانية ويسعون لها، ولهذا كان لهذه السياسة أثر في الغساسنة أصحاب الروم، وهم على اتصال دائم بهم بطبيعة حكمهم لبلاد الشأم. أما في العراق، فلم تكن هذه الديانة ديانة رسمية للحكومة، إنما انتشرت بفضل المبشرين، ولهذا انتشرت بين سواد الشعب، ولم تنتشر بين الملوك. ولم تضغط الحكومة الساسانية على ملوك الحيرة للدخول في هذه الديانة التي لم يكونوا أنفسهم داخلين فيها، فهي بالإضافة إليهم ديانة غريبة، لا يعنيهم موضوع انتشارها، ولا يهمهم موضوع انتشارها، ولا يهمهم شأنها ما دامت لا تتعارض وحكمهم في العراق.

وقد كان (هانىء بن قبيصة الشيباني) ممن كان على النصرانية، وهو من سادات (بني شيبان)، ومات وهو على هذا الدين. وكان في جملة من فاوض (خالد بن الوليد) باسم قومه على دفع الجزية للمسلمين.

ومن متنصرة العراق بنو عجل بنُ لجيم من قبائل بكر بن وائل. وقد عُرف منهم (حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي) الذي سادهم في معركة ذي قار. وقد حاربت (خالد بن الوليد)، وكان قائدها جابر بن بجير وعبد الأسود. وكان منها

---

1) هنالك عدة مؤلفات في هذا الموضوع، راجع منها:

Georg Hoffmann, Auzüge aus Syrischen akten Persicher Märtyrer, Leipzig, 1880.

في أيام بني أمية أبجر بن جابر. وهو والد حجّار. وقد بقي على نصرانيته في الإسلام[1].

وكان في الحيرة سراة نصارى اشتركوا مع سراة قريش في الأعمال التجارية مثل (كعب بن عدي التنوخي)، وهو من سراة نصارى الحيرة، وكان أبوه أسقفاً على المدينة، وكان هو يتعاطى التجارة، وله شركة في التجارة في الجاهلية مع (عمر بن الخطّاب) في تجارة البز، وكان (عقيداً) له، قدم المدينة في وفد من أهل الحيرة إلى النبي ورأى الرسول، فأسلم في رواية، ولم يسلم في رواية أخرى. ولما توفي الرسول، ثبت على الإسلام على رواية من صيره مسلماً في أيام الرسول. واشترك في جيش اليمامة الذي أرسله (أبو بكر)، ووجهه (أبو بكر) في رسالة إلى (المقوقس)، ثم وجهه (عمر) برسالة اليه في أيامه. وشهد فتح مصر[2].

وقد أخرجت مدينة الحيرة عدداً من رجال الدين، مثل مار إيليا وأصله من الحيرة، والقديس حنا نيشوع، وهو من عرب الحيرة ومن عشيرة الملك النعمان[3]، والقديس مار يوحنا[4]، و(هوشاع) الذي حضر مجمع اسحاق الجاثليق عام 410م، وشمعون الذي أمضى أعمال مجمع (يهبالا) الذي انعقد سنة 486م، وشمعون الذي حضر مجمع (أقاق)، و(ايليا) المنعقد سنة 486م وأمضى في سنة 497م مجمع (اباي)، و(ترساي) الذي تحزب سنة 524م لنرساي الجاثليق ضد (اليشاع) و(افرام) و(يوسف)، وقد حضر مجمع (أيشوعياب الأرزني) الذي انعقد سنة 585م، وشمعون بن جابر الذي نصرّ الملك النعمان الرابع في سنة 594على ما يذكره مؤرخو الكنيسة[5].

1) الأغاني (46/13 وما بعدها)، النصرانية (136).
2) الإصابة (3/ 282)، (رقم 7422).
3) الديورة في مملكتي الفرس والعرب (32 وما بعدها).
4) الديورة (47).
5) أدي شير (2/ 208).

وقد كان (مار يشوعياب الأرزوني) Jesujab I. Arzunita المتوفي سنة 596م من أصل عربي. درس الديانة في (نصيبين) Nisibis، ثم تقدّم فصار أسقفاً على (ارزون) Arzun، ثم ترقى حتى صار (بطريكاً) (بطريقاً) على النساطرة سنة580م. وقد زار الملك (النعمان). وتوسط عند الروم لمساعدة (خسرو أبرويز) Chosroes Abruizus، ضد (بهرام) Varames — Beheram وقد توفي في خيم (بني معدّ) (المعديين) Maadenes، ونقل إلى الحيرة فدفن في دير (هند) ابنة النعمان[1].

وقد عثر على آثار كنائس في خرائب الحيرة، وأشار أهل الأخبار إلى وجود الكنائس والبيع والأديرة في الحيرة. وذكر (ياقوت الحموي) أسماء عدد من الأديرة كانت بالحيرة أو بأطرافها وبالبادية، منها: (دير ابن برّاق) بظاهر الحيرة، و(دير ابن وضّاح) بنواحي الحيرة، وديارات الأساقف، وهي جملة أديرة كانت بالنجف ظاهر الكوفة بحضرتها نهر الغدير، ودير الأسكون «وهو بالحيرة راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيه رهبان يضيفون من ورد عليهم». ودير الأعور، بظاهر الكوفة بناه رجل بن إياد يقال له الأعور من بني حذافة بن زهر بن إياد، ودير بني مرينا، بظاهر الحيرة عند موضع جفر الأملاك، ودير حنظلة، منسوب إلى حنظلة بن أبي عفراء بن النعمان، وهم عم إياس بن قبيصة، وكان من رهط (أبي زبيد) الطائي، وكان من شعراء الجاهلية، ثم تنصر وفارق قومه، ونزل الجزيرة مع النصارى حتى فقه دينهم وبلغ نهايته، وبنى ديراً عُرف باسمه، هو هذا الدير، وترهب حتى مات[2]. ودير حنظلة بالحيرة، وهو منسوب إلى حنظلة بن عبد المسيح بن علقمة، ودير حنة، وهو بالحيرةّ كذلك بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع، تقابله منارة عالية كالمرقب تسمى القائم، لبني أوس بن عمرو بن عامر، ودير السوا بظاهر الحيرة يتحالفون عنده، ودير الشاء، ودير عبد المسيح وهو بظاهر الحيرة بموضع الجرعة بناه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة، ودير علقمة بالحيرة منسوب إلى علقمة بن عدي بن الرميك بن توب بن أسس بن دبي بن

---

1)W. Smith, A Dictionary, II, p. 370, John of Ephesus, Eccl. Histo. , II, 40 ff.

2) البكري، معجم (2/ 567)، (دير حنظلة).

نمارة بن لخم، ودير قرة وهو دير بإزاء دير الجماجم بناه رجل اسمه قرة من بني حذافة ابن زهر بن إياد في أيام المنذر بن ماء السماء، ودير اللُجّ وهو بالحيرة بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس، و«كان يركب في كل أحد اليه، وفي كل عيد، ومعه أهل بيته، خاصة من آل المنذر، عليهم حلل الديباج المذهبة، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب، وفي أوساطهم الزنانير المفصصة بالجوهر، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان، وإذا قضوا صلاتهم، انصرفوا إلى مستشرفه على النجف، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه، وخلع ووهب، وحمل ووصل وكان ذلك أحسن منظر وأجمله»[1].

ودير مارت (مارة) مريم. وهو دير قديم من أبنية آل المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخصيب مشرف على النجف، ودير مار فايثون بالحيرة أسفل النجف، ودير مر عبدا بذات الأكيراح من نواحي الحيرة منسوب إلى مر عبدا بن حنيف بن وضاح اللحياني كان مع ملوك الحيرة، دير ابن المزعوق، وهو دير قديم بظاهر الحيرة، ودير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالخَرْقة، وكانت به قبور أهلها، بنته هند في أيام (خسرو أنو شروان) في زمنْ مار افريم الأسقف. وأما الدير المعروف بدير هند الأقدم، فنسب بناؤه إلى هند الكبرى، أم عمرو بن هند[2].

هذه أسماء اخترتها من بين أسماء أديرة أخرى كثيرة ذكرها (الشنابشتي)[3]، وياقوت الحموي والبكري، لأن لها صلة بالحيرة وبما جاورها وبالعرب سكان هذه الأرضين. ونجد في بلاد الشأم أديرة أخرى بناها عربها في تلك الديار قبل الإسلام. ونجد على تسميات بعضها الصبغة الإرمية كما في تسمية (مار افريم) (مار افرايم) و(مار عبدا) و(مار فايثون)، وغيرها. وكلمة (مار) من كلمات بني إرم، كما نجد الصبغة النصرانية للأعلام واضحة على بعضها كما

---

1) البكري، معجم (5/ 596)، (دير اللج).

2) البكري (2/ 606)، البلدان (4/ 119 وما بعدها)، «القول في ذكر الأديرة».

3) مطبعة المعارف، بغداد، تأريخ كلدو وآثور (2/ 29)، ذخيمة الأذهان (317).

في عبد المسيح وحنة ومارت مريم وأمثال ذلك، وهي من الأعلام التي اختصت بالنصارى. وذلك بسبب أن النصرانية كانت متأثرة بثقافة بني إرم، وكانت تستعمل اللغة الإرمية في الصلوات وفي تأدية الشعائر الدينية الأخرى. ولغة بني إرم هي لغة العلم عند النصارى الشرقيين، فكان من الطبيعي استعمال نصارى العرب لهذه اللغة في كنائسهم وبيعهم وأديرتهم وفي دراستهم للدين وما يتصل باللاهوت من علوم. ومن هنا استعمل كتّابهم قلم بني إرم في كتاباتهم، ومن هذا القلم تولد القلم النبطي المتأخر الذي تفرع منه القلم العربي الذي كتب به أهل الحجاز عند ظهور الإسلام، فصار القلم الرسمي للمسلمين.

وقد نعت الرواة وأهل الأخبار العرب التي دانت بالنصرانية بـ (العرب المتنصرة)، تمييزاً لها عن العرب الآخرين الذين لم يدخلوا في هذه الديانة، بل بقيت على إخلاصها ووفائها لديانة آبائها وأجدادها، وهي عبادة الأوثان. ومن القبائل التي يحشرها أهل الأخبار في جملة (العرب المتنصرة) غسان وتغلب وتنوخ ولخم وجذام وسليح وعاملة. ويلاحظ أن الأخباريين يطلقون على هذه القبائل أو على أكثرها (العرب المستعربة)، وهم لا يقصدون بذلك نسبها، لأن من بينها كما نعلم من هو من أصل قحطاني على حسب مذهب أهل الأنساب في نسب القبائل. وإنما يريدون من هذا المصطلح القبائل التي كانت قد سكنت ببلادالشام والساكنة في أطراف الإمبراطورية البيزنطية وفي سيف العراق. من حدود نهر الفرات إلى بادية الشأم، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس التي تحيط بحدود الإمبراطوريتيْن. وخاصة تلك القبائل التي دانت بالنصرانية وتأثرت بثقافة بني إرم وبلهجتها، وذلك لظهور هذا الأثر فيها، وعلى لهجتها خاصة، مما حدا بعلماء اللغة أن يتحرجوا في الاستشهاد بشعرها في قواعد اللغة. والاستشهاد بشعر قبيلة لاثبات القواعد هو أوثق شاهد في نظر العلماء على التسليم بنقاوة لغة القبيلة التي يستشهد بشعرها وأصالتها.

ووجدت النصرانية بعد بلاد الشأم والعراق لها مواضع أخرى دخلت إليها، هي أطراف جزيرة العرب، كالعربية الغربية والجنوبية والشرقية. وتفسير دخولها

إلى هذه الأرضين واضح، هو اتصالها بطرق القوافل البرية والبحرية في البلاد التي انتشرت فيها النصرانية، ومجيء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل إليها. وتجار النصارى، لم يكونوا على شاكلة تجار يهود: كانوا يرون أن التجارة هي كسب مادي، ولكن التبشير مع التجارة ربح مضاعف، هو ربح في الدارين: الدنيا والآخرة، فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم في البلاد التي ينزلونها لنشر دينهم فيها ثم إن في انتشار دينهم بين سكان هذه المواضع التي يطرقونها كسباً لهم ولبلادهم، وأكثرهم من الروم. فإنهم يجدون بتنصر الغرباء، إخواناً لهم يرون رأيهم، ويعطفون عليهم. ثم إنهم سيفضلونهم في تعاملهم معهم على غيرهم، وسيتساهلون معهم ولا شك. ثم إنهم سيقربونهم بتنصيرهم من العالم النصراني، وممثل هذا العالم وحماته هم الروم.

وكان أهل دومة الجندل خليط، فهم نصارى، قال عنهم أهل الأخبار انهم (من عباد الكوفة)[1]. ويظهر من خبر أسر خالد للأكيدر ومجيئه به على رسول الله، ومن مصالحة الرسول له على الجزية، أنه كان على النصرانية، إذ لا تؤخذ الجزية من مشرك[2].

أما (أيلة)، فكان اسم صاحبها في أيام الرسول (يحنة بن رؤبة) (يوحنا بن رؤبة) وهو نصراني كما يدل اسمه عليه، جاء إلى تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، وكان الرسول بها، فصالحه على الجزية وبقي في محله[3]. وقد دعاه المسعودي (أسقف أيلة)[4]. وورد في محاضر بعض المجامع الدينية (أسقف أيلة والشراة)[5].

---

1) البلاذري، فتوح البلدان (74) «دومة الجندل».

2) «ثم إنّ خالداً قدم بأكيدر على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته»، الطبري (3/ 109)، (دار المعارف)، (ذكر الخبر عن غزوة تبوك).

3) البلاذري (66)، السنن الكبرى (9/ 185 وما بعدها).

4) التنبيه (272)، النصرانية (448).

5) النصرانية (448).

وكان في وادي القرى نفر من الرهبان، كما ورد ذلك في شعر جعفر بن سراقة أحد بني قرة، وهو:

فريقان: رهبان بأسفل ذي القرى وبالشأم عرافون فيمن تنصرا[1]

وتعد طيء من القبائل التي وجدت النصرانية سبيلاً إليها. وقد ورد أن (أحودما) (المغريان) تنقل بين طيء في سنة (870) لليونان المقابلة لسنة (559) للميلاد[2]. وقد كان عدي بن حاتم الطائي في جملة الداخلين في النصرانية من طيء. ويذكر أنه كان (ركوسيّاً)، وفد على الرسول، وأعلن إسلامه[3]. غير أن هذا لا يعني أن النصرانية كانت هي الغالبة على هذه القبيلة، فقد كان قوم منها يتعبدون للصنم (الفلس)، أي على الشرك.

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً يستحق الذكر عن النصرانية في يثرب. وقد أشار القرآن الكريم في مواضع عديدة من الآيات المدنية إلى النصارى، غير أن تلك الاشارات عامة في طبيعة المسيح وفي النصرانية نفسها لا في نصارى يثرب وفي صلاتهم بالإسلام. ثم إن أهل السير لم يشيروا إلى تصادم وقع بين النصارى والمسلمين ولا إلى مقاومة نصارى يثرب للرسول كالذي وقع بين يهود يثرب والرسول، مما يدل على أن النصرانية لم تكن قوية في المدينة، وأن جاليتها لم تكن كثيرة العدد فيها. غير أن هذا لا يعني عدم وجود النصارى في هذا الموضع الزراعي المهم[4]. فكما كان في مكة رقيق وموالي يقومون بخدمة ساداتهم، كذلك كان في المدينة نفر منهم أيضا يقومون بمختلف الأعمال التي يعهد أصحابهم إليهم القيام بها. ولا بدّ أن تكون لهذه الطبقة من البشر مكانة في هذه المدينة وفي أي موضع آخر من جزيرة العرب. فقد كانت هذه الطبقة عموداً خطيراً من الأعمدة التي يقوم عليها بنيان الاقتصاد في ذلك العهد، فهي بالنسبة لذلك العهد الآلات

---

1) الأغاني (7/ 96) «نسب جميل وأخباره».

2) النصرانية وآدابها، القسم الأول (132 وما بعدها)، Barhebrael, Chronicon Eccl. , III, 100.

3) الإصابة (2/ 461)، (رقم 5477)، المشرق، السنة الثامنة، العدد 11، (1905)، (507)، النصرانية (133).

4) السنن الكبرى (9/ 182 وما بعدها).

المنتجة والمعامل المهمة لأصحاب الأموال وللسادة الأثرياء، تؤدي ما يطلب منها القيام به وما يراد منها إنتاجه بأجور زهيدة وبدقة ومهارة لا تتوفر عند الأحرار من العرب. ثم إن الأحرار مهما بلغ حالهم من الفقر والفاقة كانوا يأنفون من الأعمال الحرفية ونحوها مما يوكل إلى هذه الطبقة القيام به، لأنها في نظرهم من المهن المنحطة التي لا تليق بالرجل الحر مهما كان عليه من فقر وبؤس، ولهذا كان لا بد من الاستعانة بالموالي والرقيق للقيام بأكثر متطلبات حياة الإنسان.

ويفهم من بيت للشاعر حسان بن ثابت في قصيدة رثى بها النبي، وهو:

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لمّا توارى في الضريح الملحد[1]

أنه كان في يثرب نفر من النصارى كما كان بها قوم من يهود. وذكر أن النصارى كانوا يسكنون في يثرب في موضع يقال له: سوق النبط[2].

ولعل هذه السوق هي الموضع الذي كان ينزل فيه نبط الشأم الذين كانوا يقصدون المدينة للاتجار في الحبوب، فصارت موضعاً لسكنى هؤلاء النصارى، ونسب إليهم[3]. وقد ورد أن عمر بن الخطاب استعمل أبا زبيد الشاعر النصراني على صدقات قومه، وأن أبا زبيد هذا كان مقرباً من الخليفة عثمان بن عفان من بعده[4].

وقد كان (أبو عامر) الراهب، الذي تحدثت عنه أثناء حديثي عن الأحناف، ممن اعتنق النصرانية، ومن أهل يثرب. ويظهر أنه كان قد تمكن من إقناع بعض شباب الأوس من اعتناق دينه، بدليل ما ذكره علماء التفسير من أنه لما خرج من يثرب مغاضباً للرسول، وذهب إلى مكة، مؤيداً إياهم ومحرضاً لهم على محاربة الرسول أخذ معه خمسين أو خمسة عشر رجلاً من الأوس، على ما ذكره

---

1) ديوان حسان (59) «تحقيق هرشفلد».

2) Nallino, Raccolta, III, p. 140.

3) البخاري (3/ 41 وما بعدها)، النصرانية (449).

4)النصرانية (449).

علماء التفسير، فلما أيس من نجاح أهل مكة في القضاء على الرسول فرّ إلى بلاد الشأم على نحو ما ذكرت، ليطلب مدداً من الروم يعينه في زحفه على المدينة. وأنا لا استبعد احتمال وجود أناس آخرين من أهل يثرب كانوا قد دخلوا في النصرانية ودعوا إليها، واحتمال وجود مبشرين فيها، كانوا يسعون لإدخال أهلها في دين عيسى، يؤيدهم ويمدّهم بالمال والمعونة الروم حكام بلاد الشأم.

وكان بين سكّان مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين إليها، لأسباب، منها: الرق، والإتجار، والتبشير، والحرفة. فأما الرقيق، فمنهم الأسود والأبيض: الأسود من إفريقية، والأبيض من أوروبة، أو من أقطار الشرق الأدنى، وهم أعلى في المنزلة وفي السعر من النوع الأول، وهم بحكم قانون ذلك العهد وعرفه تبع لسادتهم وفي ملك يمينهم، يقومون بالأعمال التي توكل اليهم، ليس لهم التصرف إلاّ بأمرهم، فهم في الواقع بضاعة يتصرف بها صاحبها كيف يشاء، ليس لها صوت ولا رأي، إن أبق المملوك قتل أو أنزل به العقاب الذي يراه ويختاره صاحبه ومالكه.

وبين الرقيق الأبيض خاصة نفر كانوا على درجة من الفهم والمعرفة، يعرفون القراءة والكتابة، ولهم إطلاع في شؤون دينهم ومعارف ذلك العهد. ولهذا أوكل اليهم القيام بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وخبرة وذكاء. وقد كان حالهم لذلك أحسن من حال غيرهم من الأرقاء. ومنهم من كان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم، ويقصون عليهم ما حفظوه ووعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين، وأكثرهم ممن كانت ألسنتهم لم تتروض بعد على النطق بالعربية، فكانوا يرطنون بها، أو يتلعثمون، ومنهم من كان لا يعرف شيئاً منها، أو لا يعرف منها إلا القليل من الكلمات.

ومن، هؤلاء رجل نصراني كان بمكة قيل إن اسمه: سلمان، أو يسار، أو جبر، أو يعيش، أو بلعام، ادعى أهل مكة أنه كان هو الذي يلقن الرسول ما كان يقوله للناس من رسالته، وأنه هو الذي كان يعلمه. وقد أشير إلى قول قريش هذا في الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

أَعْجَمِيٌّ، وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)[1]. ومن روى من المفسرين أن اسمه جبر، قال: إنه كان غلاماً لعامر بن الحضرمي، وأنه كان قد قرأ التوراة والإنجيل[2]، وكان الرسول يجلس اليه عند المروة إلى مبيعته، «فكانوا: والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلاّ جبر النصراني، غلام الحضرمي»[3].

ومن هؤلاء من زعم أنه كان قيناً لبني الحضرمي، وأنه كان قد جمع الكتب، وهو رومي، فكان رسول الله يأتي اليه ويجتمع به، فكان المشركون يقولون: إنه يتعلم من هذا الرومي! وذكر بعض الرواة أن (آل الحضرمي) كانوا يملكون عبديْن، هما: جبر ويسار، فكانا يقرآن التوراة والكتب بلسانهما، فكان الرسول يمر عليهما فيقوم يستمع منهما. وقيل إنهما كانا من أهل (عين التمر)، وإنهما كانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل، فربما مرّ بهما النبي، وهما يقرآن فيقف ويستمع. وأما من قال إن اسمه (يعيش)، فذكر أنه كان مولى لحويطب بن عبد العزى. وأما من ذكر أن اسمه (بلعام)، فقال انه كان قيناً رومياً بمكة وكان نصرانياً أعجمي اللسان، «فكان المشركون يرون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده، فقالوا انما يعلمه بلعام»[4]. ومهما اختلف المفسرون في اسم هذا الرجل فإنهم اتفقوا على أنه كان أعجمي الأصل، نصرانياً، يقرأ الكتب، وأنه كان بمكة نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية يقرأون ويكتبون.

والى هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص، أعني: يعيش ويقال عائش أو عدّاس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر، أشير في القرآن الكريم، في الآية: (وقال الذين كفروا: إن هذا إلاّ إفك افتراه

---

1) سورة النحل، الرقم 16، الآية 103.

2) تفسير الطبري (14/ 119)، «وكانوا يقولون: والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلاّ جبر النصراني، غلام ابن الحضرمي»، روح المعاني (14/ 212 وما بعدها)، ابن هشام.

3) تفسير الطبري (14/ 120)، روح المعاني (14/ 212)، ابن هشام (260).

4) تفسير الطبري (14/ 119)، روح المعاني (14/ 233)، تفسير الطبرسي (المجلد الثالث).

وأعانه عليه قوم آخرون)[1]. وقد ذكر المفسرون أنّ هؤلاء «كانوا كتابيين يقرأون التوراة، أسلموا، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم يتعهدهم، فقيل ما قيل»[2].

وعرفت أسماء جملة رجال ونساء من هذا الرقيق الذي جيء به إلى مكة والى مواضع أخرى من جزيرة العرب. من هؤلاء نسطاس، ويقصد بذلك أنستاس، وكان من موالي صفوان بن أمية. و(مينا) (ميناس)، و(يوحنا) عبد (صهيب الرومى)، و(صهيب) نفسه لم يكن عربياً، إنما كان من بلاد الشأم في الأصل، وهو رومي الأصل ولذلك قيل له (صهيب الرومي). وكان قد جاء مكة فقيراً لا يملك شيئاً، فأقام بها، ثم اتصل بعبد الله بن جُدعان الثري المعروف، وصار في خدمته، ولذلك قيل إنه كان مولى من موالي عبد الله بن جدعان. وفي رواية أنه كان من (النمر بن قاسط)، سقط أسيراً في الروم فباعوه، فاشترى منهم. وقد ورد في حديث: «صهيب سابق الروم»، فهذا يدل على أنه من أصل رومي. وهو من أوائل المسلمين، يذكر أنه حينما همَّ بترك مكة والذهاب إلى المدينة بعد هجرة الرسول إليها «قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك!! والله، لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي»[3]، وترك قريشاً ليذهب إلى الرسول.

وكان لبني مخزوم الأثرياء جملة جوارٍ يونانيات، كما كان لدى العبّاس عم النبي جوار يونانيات، وأشير إلى وجود جوار فارسيات. وكان هذا الرقيق الأبيض ذكوراً وإناثاً من جنسيات متعددة، منهم من كان من أصل رومي، ومنهم من كان من عنصر أوروبي آخر، ومنهم من كان من الفرس أو من أهل

---

1) الفرقان، الرقم 25، الآية 4.

2) تفسير الطبري (18/ 137 وما بعدها)، روح المعاني (18/ 234 وما بعدها)، محمع البيان (7/ 161)، (طهران)، (الجزء الثامن عشر)، (سورة الفرقان).

3) ابن هشام (2/ 89)، الإصابة (2/ 188)، (الرقم 4104).

العراق مثل نينوى وعين التمر، ومنهم من كان من بلاد الشأم أو من أقباط مصر، وهم على النصرانية في الغالب[1].

وقد كانت في مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من العبيد، عرفوا بـ (الأحابيش). وبين هؤلاء عدد كبير من النصارى، استوردوا للخدمة وللقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة. وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثراً في لغة أهل مكة، يظهر في وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها في مثل المصطلحات الدينية والأدوات التي يحتاج إليها في الصناعات وفي الأعمال اليدوية التي يقوم بادائها العبيد. وقد أشار العلماء إلى عدد من هذه الكلمات ذكروا أنها تعربت، فصارت من الكلام العربي. وقد أشاروا إلى ورود بعضها في القرآن الكريم وفي الحديث[2].

ويشير أهل الأخبار إلى ورود بعض الرهبان والشمامسة إلى مكة. وقد كان من بينهم من يقوم بالتطبيب. وقد ذكر الأخباريون أن شماساً كان قد قصد مكة، فعجب الناس به، وقد سمّوا أحدهم به، هو عثمان بن الشّريد بن سويد بن هرمي بن عامر بن مخزوم، فقالوا له: (شماس)[3].

وذكر (اليعقوبي)، أن ممن تنصر من أحياء العرب، قوم من قريش من بني (أسد بن عبد العزى)، منهم (عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى)[4]. وقد ورد في بعض الأخبار أنه قدم على قيصر، فتنصر، وحسنت منزلته عنده. وأن قيصر ملكه على مكة. ومنحه براءة بذلك، واعترف به. وقد سبق أن تحدثت عنه في أثناء كلامي على مكة. وقد ذكرت أن من الصعب تصور بلوغ نفوذ القيصر هذا الحد من جزيرة العرب، فلم يتجاوز نفوذ الروم الفعلي في وقت ما من الأوقات أعالي

---

1) المشرق، السنة الخامسة والثلاثون 1937 (ص 88 وما بعدها).

2) «فقال: يا أم خالد، هذا سناه. وسناه بالحبشية حسنة»، أسد الغابة (5/ 579)، المعرب (202، 303، 352)، صحيح مسلم (2/ 189).

3) ابن هشام (2/ 329)، «من حضر بدراً من بني مخزوم»، المشرق، السنة الخامسة والثلاثون، 1937 (ص 90 وما بعدها)، كتاب نسب قريش (342).

4) اليعقوبي (1/ 227)، (أديان العرب).

الحجاز. ولكن ذلك لا يمنع من تقرب السادات وتزلفهمً إلى عمال الروم وموظفيهم في بلاد الشأم، بإظهار أنهم من المخلصين لهم المحبين للروم، وأنهم من كبار السادات ذوي المكانة والنفوذ، للحصول على مكاسب مادية ومعنوية منهم، تجعل لهم مكانة عند أتباعهم وجاهاً ومنزلة ونفوذاً على القبائل الأخرى. وقد كان الروم يعرفون ذلك معرفة جيدة، بفضل دراستهم لنفسية الأعراب، ووقوفهم على طبائع سادات القبائل، فكانوا يشجعون هذا النوع من التودد السياسي لكسب العرب وجرهم إلى جانبهم.

وعدّ (ورقة بن نوفل) في جملة المتنصرين في بعض الروايات، فقد ذكر أنه «تنصر واستحكم في النصرانية، وقرأ الكتب، ومات عليها»[1].

وقد استدل (شيخو) من الخبر المروى عن الصور التيً قيل إنها صور الرسل، والأنبياء وبينها صورة المسيح ومريم، والتي ذكر أنها كانت مرسومة على جدران الكعبة، على أنها هي الدليل على أثر النصرانية بمكة. استدل على فكرته هذه بخبر خلاصته أن الرسول حينما أمر فطمست تلك الصور، استثنى منها صورة عيسى وأمه مريم، وبخبر ثان ورد عن تمثال لمريم مزوّق بالحلي وفي حجرها عيسى، باد في الحريق الذي شب في عصر (ابن الزبير)، وبخبر ثالث عن امرأة من غسان قيل إنها «حجت في حاج العرب، فلما رأت صورة مريم في الكعبة، قالت: بأبي أنتِ وأمي: إنكِ لعربية. فأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بمحو تلك الصور، إلاّ ما كان من صورة عيسى ومريم»[2].

وكان في الطائف نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية، لم يتعرض سادتهم كسائر رجال الأماكن الأخرى من الحجاز لدينهم، فتركوهم على دينهم يقيمون شعائرهم الدينية على نحو ما يشاؤون. من هؤلاء (عدّاس)، وكان من أهل نينوى، أوقعه حظه في الأسر، فبيع في سوق الرقيق، وجي به إلى الطائف

---

1) اليعقوبي (1/ 298)، (ليدن)، المحبر (171)، ابن هشام (1/ 243، 250 وما بعدها)، النصرانية (1/ 119)، المشرق، السنة الخامسة والثلاثون، 1937 (ص 272).

2) النصرانية (ص 117).

فصار مملوكاً لعتبة وشيبة ابني ربيعة. وعند مجيء الرسول إلى الطائف عارضاً نفسه على ثقيف أهلها، كان هو في جملة من تكلم اليه[1]. ومنهم الأزرق، ذكر أنه كان عبداً رومياً حداداً، وأنه هو أبو نافع الأزرق الخارجي الذي ينتمي اليه الأزارقة. وهناك روايات تنفي وجود صلة لهذا الأزرق بالأزرق والد نافع المذكور[2].

وأما الحديث عن النصرانية في اليمن، فهو حديث غامض أوله، مبهم أصله، لا نعرف متى نبدأ به على وجه التحقيق. فليس لدينا نص بالمسند يشير إلى مبدأ دخول النصرانية العربية الجنوبية. وما لدينا من كتابات مما له بعض العلاقة بالنصرانية إنما دوّن في الحقبة المتأخرة من تأريخ اليمن، وفي أيام الحبشة في اليمن، وهو ساكت في الجملة عن المبدأ وعن المبشرين بالنصرانية في العربية الجنوبية. فليس لدينا من بين نصوص المسند في هذا الباب عون ولا سند.

وليس لنا اذن إلاّ أن نفعل ما فعلناه بالنسبة إلى اليهودية، فنرجع إلى الموارد الإسلامية والنصرانية لنرى رأيها في هذا الباب.

وتزعم الموارد الإسلامية أنّ الذي نشر النصرانية في اليمين رجل صالح من بقايا أهل دين عيسى اسمه (فيميون) Faymiyon = Phemion[3]، وكان رجلاً زاهداً في الدنيا مجاب الدعوة سائحاً ينزل القرى لا يُعرف بقرية إلاّ خرج منها إلى قرية لا يعرف فيها، وكان لا يأكل إلاّ من كسب يده، وكان بنّاءً يعمل الطين وكان يعظم الأحد: إذا كان الأحد لم يعمل فيه شيئاً. ففطن لشأنه في قرية من قرى الشأم رجل من أهلها اسمه (صالح)، فأحبه واتبعه على دينه ورافقه. وانصرف ومعه صالح من ضواحي الشأم حتى وطئا بعض أرض العرب، فعدا عليهما، فاختطفتهما سيارة من بعض العرب، فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران. وأهلها من بني الحارث بن كعب من بني كهلان. وكانوا يعبدون العزى على صورة نخلة طويلة بين أظهرهم. فابتاع رجل من أشرافهم (فيميون)، وابتاع

1) ابن هشام (2/ 30)، أسد الغابة (3/ 289)، الإصابة (2/ 459)، الرقم (5470)، النصرانية (452).
2) البلاذري (62).
3) «فيميون» «فميون» «ميمون».

رجل آخر صالحاً، وقد أعجب صاحب فيميون به، لما رآه فيه من صلاح وورع، فآمن بدينه، وآمن أهل نجران منذ ذلك الحين بالنصرانية لمعجزة قام بها (فيميون)، حينما دعا الله يوم عيد العزى أنْ يرسل عليها ريحاً صرصراً عاتية تُخنى عليها. فأتت الريح عليها فجعفتها من أصلها فألقتها، فآمن بدينه أهل نجران. فمن هنالك كانت النصرانية بنجران[1]. ويذكر الطبري أنّ أهل نجران كانوا يعيدون كل سنة، «إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه، وحليّ النساء. ثم خرجوا، فعكفوا عليها يوماً»[2].

ويظن أن (فيميون) كلمة يونانية في الأصل حرفت من أصل Euphemion.

وزعم أن (فيميون) عين أحد النجرانيين واسمه (عبد الله بن الثامر) رئيساً عليهم، وجعلهم تحت رعاية أسقف اسمه (بولس)[3].

وقد ذكر (الأزرقي) أن أهل نجران كانوا من أشلاء سبأ «وكانوا على دين النصرانية على أصل حكم الإنجيل، وبقايا من دين الحواريين، ولهم رأس يقال له: عبد الله بن ثامر»[4].

وتذكر رواية اسلامية أخرى أن أهل نجران كانوا أهل شرك، يعبدون الأوثان وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، وكان أحد رجال نجران واسمه (الثامر) يرسل ابنه (عبد الله) مع غلمان أهل نجران إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر، فكان يمر على صاحب خيمة بين نجران وتلك القرية، وقد أعجبه ما رآه من صلاته وعبادته وتقواه، فجعل يجلس

---

1) الطبري (2/ 103 وما بعدها)، ابن هشام (20 وما بعدها)، الكامل، لابن الأثير (1/ 171)، البيضاوي (2/ 395)، ابن خلدون (2/ 59).

2) الطبري (2/ 120 وما بعدها) «دار المعارف».

3) Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 31, anm., I, O'leary, p. 143.

4) أخبار مكة (1/ 81).

اليه ويسمع منه حتى دخل في دينه، وصار يدعو اليه بين أهل بلده. فمن ثم انتشرت النصرانية في نجران، وظهرت على الوثنية[1].

وتذكر هذه الرواية، أن (عبد الله بن الثامر)، أخذ من ثم يبشر بالنصرانية، ويأتي بالمعجزات إذ يشفي المرضى «حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلاّ أتاه فاتبعه على أمره، ودعا له فعوفي، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران. فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأمثلن بك! قال: لا تقدر على ذلك، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح عن رأسه فيقع على الأرض، ليس به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران، بحور لا يقع فيها شيء إلاّ هلك، فيُلقى فيها فيخرج ليس به بأس، فما غلبه، قال عبد الله بن الثامر: إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت ذلك سلطت علي فقتلتني، فوحد الله ذلك الملك، وشهد بشهادة عبد الله بن الثامر، ثم ضربه بعصاً في يده فشجّه شجة غير كبيرة، فقتله، فهلك الملك مكانه، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر»[2].

ولم تصرح هذه الرواية التي يرجع سندها إلى (محمد بن كعب بن القرظي) وبعض أهل نجران، باسم الرجل الصالح الذي أخذ منه (عبد اللّه بن الثامر) نصرانيته. وقد نبّه إلى ذلك الطبري، في أثناء سرده لها، فقال: «ولم يسموه باسمه الذي سمّاه به وهب بن منبه»[3].

وقد صيرت بعض الروايات (عبد الله بن الثامر) في جملة من قتلهم (ذو نواس) من النصارى، غير أن (الطبري)، نبه إلى خطل هذا البعض، وبينّ أن (عبد الله) كان قد قتل قبل ذلك، قتله ملك كان قبله، هو كان أصل ذلك الدين[4].

---

1) الطبري (2/ 121 وما بعدها) «دار المعارف».

2) الطبري (2/ 122) «دار المعارف».

3) الطبري (2/ 121 وما بعدها) «دار المعارف».

4) الطبري (2/ 123) «دار المعارف».

وهناك قصة ذكرها (ابن إسحاق)، تزعم أن رجلاً حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجاته، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دفن منها قاعداً واضعاً يده على ضربة في رأسه ممسكاً عليها بيده، فإذا أخرت يده عنها انبعثت دماً، وإذا أرسلت يده ردّها عليها، فأمسك دمها، وفي يده خاتم، فأقر على حاله وردّوا عليه الدفن الذي كان عليه، وكان ذلك بأمر عمر بن الخطاب[1].

والظاهر أن النجرانيين، لم ينسوا رئيسهم (عبد الله بن الثامر) حتى بعد اسلامهم، فرووا عنه هذا القصص وصيروه على هذه الصورة التي روتها القصة. ويظهر أنه قتل، فصير شهيداً من الشهداء، لأنه قتل في سبيل دينه وفي سبيل نشره بين النجرانيين.

وزعم بعض الأخباريين أن الذي أدخل النصرانية ونشرها في الحميريين، هو التبع عبد كلال بن مثوب: أخذ التبع نصرانيته بزعمهم من رجل من غسان ذكروا أنه كان قد قدم عليه من الشأم. فما علمت حمير بتنصر التبع وبتغيير دينه وإعراضه عن عبادتها، وثبت بالغساني فقتلته[2]. وقد أشير إلى تنصره في القصيدة الحميرية[3].

أما الرواية الأولى فتنسب إلى (وهب بن منبه). وأما الرواية الثانية فتنسب إلى (محمد بن كعب القرظي) والى بعض أهل نجران لم يصرح (ابن إسحاق) بذكر أسمائهم، فالروايتان اذن من مورد واحد هو أهل الكتاب[4]. فوهب بن منبه من مسلمة يهود. وأما محمد بن كعب بن أسد القرظي المتوفي بين سنة 118 . 120 للهجرة، فهو من أصل يهودي كذلك، من قريظة حلفاء الأوس، وقريظة

---

1) الطبري (2/ 124).

2) الطبري (2/ 86): «ذكر ما كان من الأحداث في أيام يزدجرد بن بهرام وفيروز بين عمالها على العرب وأهل اليمن»، النصرانية (1/ 55 وما بعدها)، Nallino, Raccolta, III, p. 124.

3) أم أين عبد كلال الماضي على   دين المسيح الطاهر المساح

النصرانية (1/ 55).

4) الطبري (2/ 104)، تفسير الطبري (30/ 85)، Nallino, Raccolta, Di Scritti, III, 1941, p. 124.

يهود. وكان مثل وهب قاصاً من القصاص يقص في المسجد. وقد جرّ قصصه. هذا عليه البلايا، فكان يقص في المسجد فسقط عليه السقف فمات[1].

وجدت أقوال محمد بن كعب القرظي سبيلها إلى تأريخ الطبري عن طريق سيرة ابن إسحاق، وهو طريق ابن حميد عن سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق صاحب السيرة الذي أخذ منه بلا واسطة كما أخذ منه بالواسطة. أما الأخبار المروية عنه، فهي في سير الرسل والأنبياء، وفي انتشار اليهودية والنصرانية في اليمن، وفي الأمور التي تخص اليهود في الحجاز[2]. وكان من المقربين إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، لأنه كانت له به معرفة سابقة قبل توليه الخلافة. فلما ولي الخلافة، كان يذهب اليه ويتحدث معه في الزهد وفي القصص الذي يحمل طابع الإسرائيليات وفي التفسير الذي اشتهر به[3].

فناقل النصرانية إلى نجران إذن رجل غريب جاء إلى البلد من ديار الشأم على رواية (وهب بن منبه). ويرجع (أوليري) هذه الرواية إلى أصل يرى جذوره في السريانية[4]. واسم هذا الرجل الصالح غير عربي بالطبع. فلعله من المبشرين الذين كانوا يطوفون بين ديار العرب للتبشير.

ولا يستبعد أن يكون المبشرون قد أدخلوا النصرانية إلى اليمن عن طريق الحجاز، فقد كانوا يتنقلون بين العرب لنشر هذا الدين. وليس بمستبعد أيضاً أن يكون قد دخل عن طريق الساحل أيضاً مع السفن. فقد كان المبشرون يتنقلون مع البحارة والتجار لنشر النصرانية، وقد تمكنوا بمعونة الحكومة البيزنطية من تأسيس جملة كنائس على سواحل جزيرة العرب وفي سقطرى والهند. كما لا يستبعد أن يكون للمبشرين الذين جاؤوا من العراق كما تذكر بعض الموارد

---

1) راجع ما كتبته عنه في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الأول، 1950، (ص 198)، وتهذيب التهذيب (9/ 420)، عيون الأخبار (1/ 201، 264) (2/ 14، 343)، (3/ 4).

2) الطبري (1/ 138)، (2/ 104)، ورد اسمه في «29» موضعاً في تأريخ الطبري.

3) ابن سعد، طبقات (5/ 272 فما بعدها)، مجلد 7، قسم 2 ص 194، عيون الأخبار (2/ 343)، (3/ 4).

4) O'leary, p. 143.

النصرانية السريانية دخل في نشر النصرانية في اليمن. ولا سيما نشر النسطورية في تلك البلاد.

وأما الموارد النصرانية، فإنها مختلفة فيما بينها في أول من أدخل النصرانية إلى اليمن، فالموارد اليونانية ترى رأياً، والموارد السريانية ترى رأياً، والموارد الحبشية ترى رأياً آخر، يختلف عن الرأيين. وكل رأي من هذه الأراء الثلاثة يرجع شرف نشر النصرانية في اليمن إليه.

يحدثنا كتبة التواريخ الكنسية من اليونان أن القيصر (قسطنطين) الثاني أرسل في عام (354) للميلاد (ثيوفيلوس اندس) Theophilus Indus، أي (ثيوفيلوس الهندي)، من جزيرة سرنديب أي سيلان إلى العربية الجنوبية للتبشير بالنصرانية بين الناس. وقد تمكن من إنشاء كنيسة في عدن وأخرى في ظفار وثالثة في هرمز، وعين للمتنصرين رئيساً ثم رحل. وصارت ظفار في سنة 356م مقراً لرئيس أساقفة يشرف على شؤون نصارى نجران وهرمز وسقطرى[1]. وقد عثر على مقربة من خرائب ظفار على أعمدة من الطراز (الكورنثي) وعلى بقايا تيجانها وعليها نقوش صلبان يظهر أنها من مخلفات تلك الكنائس القديمة التي شيدت بمساعدة البعثات التبشيرية وفي أيام الحبشة في اليمن[2].

وزعم (فيلوستورجيوس) Philostorgius أنّ هذا الشعب الذي بشّر (ثيوفيلوس) بين أفراده بالنصرانية، شعب هندي، وكان يدعى سابقاً باسم شعب (سبأ) نسبة إلى عاصمته سبأ ويعرف اليوم باسم حمير omeritae[3]. وقد توهم

1) «ثاوفي الهندي» النصرانية (1/ 56).
Alt Kult., S. 148, Philostorgius, Historia Ecclesiastica, III, 46, Hugh Scott, in the High Yemen, 1947, p. 211, Mordtmann, Miscellen zur himjarischen Alterthumskunde, in ZDMG., 1877, XXXI, S. 64. ff., Migne, Petr. Grea., LXV, Col., 459-637, Conti Rossini, un documento, p. 710.

2) Alt. Kult. S. 148, Nallino, Raccolta, III, p. 133, Bury, History of the Roman Empire, II, p. 322.

3) Philostorgius, I, II, 6, ZDMG., 31, 1877, S. 65.

عدد من الكتبة (الكلاسيكيين) فحسبوا الحميريين من الهنود، كما أن بعضاً منهم ظنوا أن السبئيين من (الكوشيين) الحبش، والذي أوقعهم في هذا الوهم هو صلات هؤلاء بإفريقية وبالهند، ولوقوع بلادهم على المحيط الهندي وعلى مقربة من إفريقية[1].

وجاء في رواية أخرى أن القيصر (قسطنطين) الثاني أرسل (ثيوفيلوس) إلى ملك حمير Homeritaeونجاشي الحبشة Axume وذلك في عام (356) للميلاد. برسائل كتبها القيصر إلى الملكيْن. فلما أنهى مهمته لدى ملك حمير، انتهز هذه الفرصة فزار وطنه الهند، ثم عاد فذهب إلى الحبشة. وعاد منها فذهب إلى أنطاكية Antiochia ومنها إلى القسطنطنية[2]. ويظهر من هذه الرواية أن مهمته هذه لم تكن مهمة دينية، انما كانت ذات طابع سياسي، الغاية منها ضم حمير والأحباش إلى معسكر البيزنطيين.

وقد كان من مصلحة الحكومة البيزنطية بعد دخول القيصر (قسطنطين) في النصرانية عام (313) للميلاد واتخاذها ديانة رسمية للدولة، أن ينشر هذا الدين ويكثر أتباعه، لما في ذلك من فوائد سياسية ومصالح اقتصادية، فضلاً عن الأثر العميق الذي يتركه هذا العمل في نفوس أتباعه المؤمنين مما يرفع من مكانة القياصرة في نفوس الشعب ويقوي من مراكزهم ونفوذهم على الكنيسة والرعية. وبمساعدة هؤلاء القياصرة تمكن المبشرون من إنشاء ثلاث كنائس في (ظفار) و(عدن) و(هرمز)[3].

ولم يكن يقصد (قسطنطين) كما يرى المستشرق (روسيني) من إرسال الوفد الذي ترأسه (ثيوفيلوس) إلى ملك حمير، هدفاً دينياً محضاً، وإنما أراد أن

---

1) النصرانية (1/ 53 وما بعدها).

2) Paulys—Wissowa, Zweite Reike, Zehuter Halbband, S. 2167, Philostorgius, Hist. Eccle., II 6, Kidd, A History of the Church, II, 161, III, 429, Bury, History of the later Romen Empire, II, p. 322.

3) Ency. of Relig. And Ethi., III, p. 589, Franz Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S. 12.

يعقد معاهدة تجارية مع الحميريين ويحقق له منافع اقتصادية وسياسية، بأن يحقق له التجارة البحرية، ويحرض اليمانيين على الفرس ويدخلهم في معسكره بدخولهم في النصرانية التي تجمع عندئذ بينهم وبين الروم[1].

وورد في رواية أخرى أن الحميريين Homeritae دخلوا في عهد (انسطاس) (انسطاسيوس) (491 – 518م) في النصرانية. وذكر أيضاً أنه كان في جملة من قصدوا القديس (سمعان العمودي) رجال من عرب حمير، وقد رآهم (تاودوريطس) في القرن الخامس للميلاد[2].

وأما الموارد السريانية، ومنها الموارد النسطورية، فتزعم أن تاجراً من أهل نجران اسمه (حنان) أو (حيّان)، قام في أيام (يزدجرد) الأول (399– 420 للميلاد) بسفرة تجارية إلى القسطنطنية، ثم ذهب منها إلى الحيرة، وفيها تلقن مبادىء النصرانية ودخل فيها. فلما عاد منها إلى نجران، بشر فيها بالنصرانية حتى تمكن من نشرها بين حمير. وترجع تواريخ البطارقة هذه الحادثة إلى أيام بطرقة (معنى) Ma'na الموافقة لحوالى سنة (420) بعد الميلاد[3]. وذكر أنه في عهد البطريق (سيلاس) Silas (505 – 523م) هرب لاجئون من اليعاقبة Jakobiten إلى الحيرة، غير أن النساطرة أجلوهم عنها، فذهب قسم منهم إلى نجران، فنشروا مذهبهم بين السكان[4].

وتشير الأخبار الكنسية أيضاً إلى أن رسولي الكلدان الأولين: (ادي) و(ماري) كانا قد سارا إلى بلاد العرب سكان الخيام. وإلى نجران وجزائر بحر

---

1) النصرانية (1/ 59)،

Conti Rossini, un documento sul Cristianesimo nello iemen, p. 710.

2) النصرانية (1/ 57 وما بعدها)،

Mordtmann, in ZDMG., XXXI, 1877, S. 65, Theodorus, Lector, Histo. Eccl., I, II, p 567, (ed. Valesius and Nicephorus Callistus).

3)Chronik von Séert, II, 149, ABM, 22, Eduard Sachau, zur ausbreitung des Christentums in Asien, Berlin, 1919, S. 68.

4) Chronik von Séert, II, 149.

اليمن. وجاء في المصحف الناموسي: «وبشر الجزيرة والموصل وأرض السواد كلها وما يليها من أرض التيمن كلها وبلاد العرب، سكان الخيام والى ناحية نجران والجزائر التي في بحر اليمن ماري الذي من السبعين»[1].

وللحبش قصص عن انتشار النصرانية في نجران، خلاصتها: إن قديساً اسمه (ازقير) Azkir، أقام كنيسة ورفع الصليب وبشّر بالنصرانية في نجران، وذلك في أيام الملك (شرحبيل ينكف) ملك حمير، فاستاء من ذلك (ذو ثعلبان) و(ذو قيفان)، وأرسلا رجالهما إلى المدينة لهدم الكنيسة وانزال الصليب والقبض على القديس، ففعلوا وألقوا به في غياهب السجن. وفي أثناء اقامته فيه هدى قوماً من السجناء إلى النصرانية بفعل المعجزات التي قام بها، فغضب الملك (شرحبيل) عليه، وأرسل إلى القيلين اللذين كانا في نجران أن يرسلا اليه هذا الرجل الذي فتن الناس، فأرسل مخفوراً اليه. وفي أثناء اجتيازه الطريق إلى عاصمة الملك ظهرت منه معجزات خارقة، آمن بها عدد ممن رافقوه أو وقفوا على أحواله وتعمّدوا على يديه. فلما وصل إلى (ظفار) عاصمة (شرحبيل)، انتهره الملك وحاجه في دينه وعرض عليه كتب (يهود)، ثم أغراه بالذهب والمال، فقال له القديس: «الذهب والفضة فانيان، أما كرستس ساكن السماء فباق». وقد حرضه عليه أحد الأحبار، فأمر الملك عندئذ بإرساله إلى نجران لقتله. فلما بلغ المدينة، قتله اليهود، فمات شهيداً في سبيل دينه[2].

وتزعم الرواية الحبشية أن نصارى اليمن كانوا يرسلون بهداياهم إلى النجاشي بالضرائب يدفعونها اليه[3].

1) النصرانية (1/ 58).

2)Winckler, AOF., IV, 1896, S. 329. ff., British Museum Orient., 686, 687, 688, 689.

3) Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 50.

وذكر أن أحد الأساقفة ممن كان في اليمن، كان قد اشترك في أعمال مجمع (نيقية) الذي انعقد سنة 325 للميلاد[1]. وإذا صح هذا الخبر، فإنه يعني أن النصرانية كانت قد وجدت لها سبيلاً إلى اليمن في القرن الرابع للميلاد.

يتبين من هذه الأخبار أن النصرانية لم تدخل العربية الجنوبية من طريق واحد، وإنما دخلتها من البر ومن البحر، دخلتها من البر من ديار الشأم إلى الحجاز فاليمن، ومن العراق أيضاً مع القوافل التجارية المستمرة التي كانت بين اليمن والعراق. ودخلتها من البحر بواسطة السفن اليونانية ودخلتها مع الحبشة كذلك الذين كانوا على اتصال دائم باليمن وببقية العربية الجنوبية منذ أيام ما قبل الميلاد.

وقد كانت نجران أهم موطن للنصرانية في اليمن، ولعلها الموطن الوحيد الذي رسخت هذه الديانة فيه في هذه البلاد. وقد اشتهرت نجران بالحادثة التي وقعت فيها، حادثة تعذيب النصارى، وبما ذكره أهل الأخبار عن الكنيسة التي أنشأها الأحباش فيها وعرفت بـ (كعبة نجران) عند الأخباريين كما عرفت بـ (بيعة نجران) أيضاً. وفي رواية تنسب إلى ابن الكلبي «أنها كانت قبّة من أدم من ثلاث مئة جلد، كان اذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت، أو مسترفد أرفد. وكانت لعظمتها عندهم يسمونها كعبة نجران، وكانت على نهر نجران، وكانت لعبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل، وكان يستغل من ذلك النهر عشرة آلاف دينار، وكانت القبّة تستغرقها»[2]. وكان ينفق عليها من غلّة ذلك النهر.

---

1) النصرانية (1/ 57)، Nallino, Raccolta, III, p. 122, Caetani, Annali, I, p. 125.

2) البلدان (8/ 193)، تاج العروس (1/ 457)، (3/ 556)، ديوان الأعشى (122)، (طبعة كاير) (Geyer)، ابن قتيبة، الشعر والشعراء (283)، Raccolta, III, p. 127.

وورد في رواية أخرى أنها كانت بناءً بُني على بناء الكعبة. وقد بناها بنو عبد المدّان بن الديّان الحارثي، بنوها على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة لها. وكان فيها أساقفة معتمون، وهم الذين جاؤوا إلى النبي، ودعاهم إلى المباهلة[1].

وتذكرنا قصة (ابن الكلبي) عن أصل كعبة نجران، وأنها كانت من أدم، بما نعرفه عن خيمة (يهوه) إله العبرانيين، وتعبد الإسرائيليين له فيها قبل بناء الهيكل، واعتقادهم أنها خيمة مقدسة، وبما نعرفه من خيم القبائل المقدسة، وذلك لأنها كانت بيوتاً توضع فيها الأصنام ويتعبد أفراد القبيلة بها، فإذا ارتحلوا إلى مكان جديد نقلوا خيمتهم معهم. والظاهر ان كعبة نجران المذكورة، إن صحت رواية ابن الكلبي، كانت من هذا النوع، خيمة مقدسة في الأصل وذلك قبل دخول أهل نجران في النصرانية، فلما دخلوها، لم تذهب عنها قدسيتها، بل حولوها إلى كنيسة، ثم بنوا بيعة في موضعها فيما بعد.

وفي رواية أن قُس بن ساعدة الإيادي كان أسقفاً على نجران[2]، وهي رواية تحتاج إلى سند موثوق به، وقد أخذ بها (شيخو) وأمثاله ممن يرجع كل شيء من هذا القبيل في الجاهلية إلى النصرانية.

وقد كانت نجران المركز الرئيس للنصرانية في اليمن عند ظهور الإسلام، لها نظام سياسي وإداري خاص تخضع له، وعليها: (العاقب)، وهو كما يقول أهل السير: «أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه»، و(السيد)، وهو «ثمالهم، وصاحب رحلهم ومجتمعهم»، و(الأسقف)، وهو «حبرهم، وإمامهم، وصاحب مدراسهم»[3]. ويقصدون به رئيس نجران الديني الذي

---

1) البلدان (8/ 623) «نجران»، تاج العروس (3/ 556).

2) Raccolta, III, p. 128, Lammens, Califat, p. 332.

3) ابن هشام (2/ 204)، تاج العروس (1/ 389)، (عقب)، (6/ 141)، (سقف)، اللسان (11/ 57)، «وصاحب مدارسهم»، ابن سعد (1/ 357).

اليه يرجعون في أمور الدين. أما العاقب والسيد، فإليهما إدارة الجماعة، والإشراف على شؤونهم السياسية والمالية، وتدبير ما يحتاج المجتمع اليه من بقية الشؤون[1].

وقد صالح أهل نجران خالد بن الوليد، في زمن النبي، في السنة العاشرة من الهجرة، وبذلك دخل أكثر سكان المدينة في الإسلام. أما من بقي على دينه من النصارى، فقد فرضت عليه الجزية[2].

ويذكر أهل السير أن اسم عاقب نجران في أيام النبي، هو (عبد المسيح) رجل من كندة. وقد قدم على رأس وفد من أهل نجران إلى يثرب، فقابل الرسول، وتحدث معه. وكان معه (الأيهم) وهو سيد نجران يومئذ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل، وكان أسقفهم وحبرهم وإمامهم يومئذ، وله مقام عظيم عندهم، «وقد شرف فيهم، ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه وموّلوه، وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه وإجتهاده في دينه»[3].

وإذا صح ما رواه أهل الأخبار من أن عاقب نجران كان كندياً، وأن اسقفها كان من (بكر بن وائل)، فإن ذلك يدل على أن الرئاسة عند النصارى العرب، لم تكن تتبع العرف القبلي في الزعامة، وإنما كانت عن تنسيب واختيار، وأنا لا استبعد احتمال وجود مراجع دينية عليا، كانت هي التي تتولى النظر في ادارة الكنائس وفي تعيين رجال الدين وفي النظر في المشكلات التي تقع بين النصارى، أو بين النصارى وغيرهم، وفي أمر مساهمة النصارى العرب في المجامع الكنسية التي تنظر في المسائل العامة للطوائف.

---

1) Raccolta, III, p. 128.

2) الطبري (3/ 157)، «حوادث السنة العاشرة»، البلدان (8/ 261 وما بعدها).

3) ابن هشام (3/ 204)، تاج العروس (1/ 389)، اللسان (2/ 15)، ابن سعد (1/ 358)، نهاية الإرب (18/ 121).

ويرى بعض أهل الأخبار أن «السيد والعاقب أسقفي نجران اللذين أرادا مباهلة رسول الله» هما من ولد الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي، الذي حكم بين بني نزار بن معد في ميراثهم، وكان منزله بنجران[1].

ويذكر علماء اللغة، أن (العاقب) من كل شيء آخره، والعاقب السيد، وقيل الذي دون السيد، وقيل الذي يخلف السيد، وقيل: الذي يخلف من كان قبله في الخير كالعقوب[2]. والذي أوحى اليهم بهذا التأويل والتفسير، ظاهر لفظة (عقب) في عربيتنا التي منها اشتقت لفظة (العاقب) على رأيهم، والصحيح أنها لفظة عربية جنوبية وردت في المسند، بمعنى (رئيس) وممثل قوم، أي رسول قوم، فورد (عقبت نشقم)، أي (رئيس) مدينة (نشق)[3]، وبمعنى ممثل مدينة (نشق)[4].

وذكر أن نصارى نجران، أرسلوا العاقب والسيد في نفر لمحاجة رسول الله فيما نزل عليه في المسيح، من أنه عبد الله، حيث كبر ذلك عليهم سماعه، فاخذوا يخاصمونه ويجادلونه فيه، وألحوا عليه بالجدل والخصومة، فدعاهم إلى الملاعنة، فامتنعوا ودعوا إلى المصالحة، فصالحهم[5]. وأنه إلى ذلك أشير في القرآن الكريم: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)[6].

وورد ايضاً أنه لما بُعث رسول الله وسمع به أهل نجران آتاه منهم أربعة نفر من خيارهم منهم العاقب والسيد، و(مار سرجس)، و(مار يحز)، «فسألوه ما يقول في عيسى. فقال: هو عبد الله وروحه وكلمته. قالوا هم: لا، ولكنه هو الله نزل من ملكه، فدخل في جوف مريم، ثم خرج منها، فأرانا قدرته وأمره، فهل رأيت قط

1) المحبر (131).
2) تاج العروس (1/ 389)، (عقب).
3)Jamme 619, Ma Mb 178, Mahram, p. 120.
4)Jamme, South Arabian Inscription, p. 445.
5) إرشار الساري (6/ 437).
6) آل عمران، الآية رقم 61، تفسير الطبري (3/ 209 وما بعدها)، روح المعاني (3/ 165)، إمتاع الأسماع (1/ 502)، الواحدي، أسباب (74)، ابن سعد (1 قسم 2 ص 84)، إشارد الساري (6/ 437).

إنساناً خلق من غير أب؟ فأنزل الله، عز وجل: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ: كُن فَيَكُونُ»[1].

وقد كان لنصارى اليمن كنائس أخرى غير كنيسة (نجران): فقد كانت لهم كنيسة عظيمة في (صنعاء)، هي (القليس) التي اكتسبت شهرة عظيمة في كتب الأخبار والتواريخ وهي كنيسة (أبرهة)، من أصل (اكلسيا) Ecclysia اليوناني بمعنى الكنيسة، وموضعها الآن جامع (صنعاء) على ما يظن. وقد أبدع الأحباش في تزيينها وتجميلها، وأنفقوا عليها مبالغ طائلة.

كما كانت لهم كنائس في (مأرب) و(ظفار). وقد عهد الأحباش بتدبير شؤون كنيسة (ظفار) إلى أسقف شهير يقال له (جرجنسيوس) (جورجيسيوس) (جرجيسيوس). وهو مؤلف كتاب شرائع الحميريين. وله مناظرات مع اليهود[2].

وقد بقيت النصرانية قائمة في اليمن في أيام الإسلام، ففي الأخبار الكنسية أن رئيس البطارقة النساطرة (طيموثاوس)، نصب في أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء، اسمه (بطرس)[3]. وفي (الفهرست) لابن النديم، أنه التقى براهب من نجران يدعى حسّان، كان قد أنفذه الجاثليق إلى الصين، ليتفقد مع خمسة أناسي من النصارى أحوال نصاراها، فعاد منها سنة (377) للهجرة، وأخبره بعجائب تلك البلاد[4]. وذكر أنه في حوالي سنة 1210 للميلاد كان في منطقة صنعاء خمسة أساقفة، وأسقف في مدينة زبيد وأسقف في نجران، وأنه كان في حوالى سنة 1250 للميلاد أسقف في عدن[5].

إن بقاء النصرانية في نجران وفي مواضع من اليمن وأنحاء أخرى من جزيرة العرب، وبقاء اليهود في اليمن إلى زمن غير بعيد، يشير إلى أن ما ذهب اليه

---

1) تفسير الطبري (3/ 19 وما بعدها).

2) النصرانية (1/ 64)، Minge, Patr. Grae., 86, 567-620.

3) النصرانية (1/ 67).

4) الفهرست (504) «مطبعة الاستقامة».

5) النصرانية (1/ 67).

كثير من المؤرخين من إجلاء أهل الكتاب بأمر الخليفة (عمر) عن جزيرة العرب ثم بقية الخلفاء الذين ساروا على حكم: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» فيه مبالغة[1]. والظاهر أن الإجلاء كان قاصراً على المواضع التي تعرضت فيها جاليات أهل الكتاب فيها للإسلام بسوء. فطبق على جاليات يهود يثرب ومن كان يسكن إلى الشمال منهم، لوقوفهم موقفاً معادياً شديداً من الإسلام، ولعملهم في إثارة الفتن على المسلمين. ومن يدري فلعلهم، ولعل أهل الكتاب عموماً ساعدوا في قيام الردة وتشجيع المتنبين والمرتدين للقضاء على الخطر الذي زعموه، خطر ظهور الإسلام وانتشاره في جزيرة العرب وفي خارجها، وقيام دولة موحدة كبيرة فيها. ومن يدري أيضاً، فلعل الروم والأحباش كانوا أيضاً في جملة من كان محرض أهل الكتاب على الدس للإسلام، وأن بعض من أعلن الردة مثل (النعمان الغرور) وهو نصراني، وغيره ممن ارتد معه من النصارى، كانوا قد تلقوا عوناً من الخارج، وهذا ما حمل الخليفة على اتباع قاعدة إجلاء الدساسين من أهل الكتاب مهما كان نوعهم عن جزيرة العرب لحماية الإسلام من خطر الفتنة ومن الردة، ولم تكن قواعده قد تركزت واستقرت استقراراً تاماً بعد.

إن الذي افهمه من سياسة إجلاء (عمر) لأهل الكتاب، هو إن ذلك الإجلاء كان خاصاً بالجاليات اليهودية التي كانت تقيم فيما بين فلسطين ويثرب، وقاصراً عليها، بسبب وقوفها موقفاً معادياً من الإسلام، أما النصارى فلم تكن لهم جاليات هناك، فلم يقع إجلاء لهم فيها. ولكن (عمر) ومن جاء بعده لم يطبقوا الإجلاء على الأسر والأفراد، بدليل ما نجده في أخبار أهل الأخبار من وجود أسر وأفراد من يهود ونصارى في يثرب وفي مكة وفي الطائف بعد وفاة عمر.

أما في غير الحجاز من بقية أنحاء جزيرة العرب، فلم يطبق قانون (عمر) على أهل الكتاب، بدليل دفع جالياتهم (الجزية) عن رؤوسهم في أيامه إلى وفاته، ثم في أيام من جاء بعده من الخلفاء. فكأن الخليفة، قد طبق أمر الإجلاء على يهود

1) «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأخرجن اليهود والنصارى عن حزيرة العرب حتى لا أدعْ فيها إلاّ مسلماً»، البلدان (8/ 263).

الحجاز لخوفه من خطر بقائهم في مقر الإسلام وفي مدينة الرسول ومن احتمال عودة من هاجر منهم إلى أرضهم وتكتلهم من جديد، وإثارتهم من لم يكن قد تمكن الإسلام من قلبه بعد، فيقع للاسلام ما وقع في أيام الرسول من إتصالهم سراً بكفار قريش، ومن حدوث ردة جديدة، فقرر إجلاءهم جماعة عن تلك الديار.

النصرانية في بقية مواضع جزيرة العرب:

وكان التجار الروم ينزلون سواحل العربية الجنوبية للتزود منها بالماء وبالطعام وللاتجار مع سكانها، ومنهم من أقام بها وقضى حياته فيها، وتعرب. وكان منهم من بشر بالنصرانية وعمل على نشرها بين السكان. ولعل الحكومة البيزنطية كانت ترسل المبشرين إلى هذه المواضع للتبشير، كذلك أرسل نصارى الحيرة المبشرين لنشر نصرانيتهم في العربية الجنوبيّة[1]. وبعد دخول هذه البلاد في الإسلام احتفظ قوم من النصارى بدينهم، مقابل دفع الجزية للمسلمين[2].

وأما اليمامة، فكانت النصرانية قد وجدت لها سبيلاً بين قراها وقبائلها. ويظهر من شعر للأعشى مدح به (هوذة بن على) حاكمها عند مبعث الرسول، أنه كان نصرانياً منّ على قوم من (تميم) ففك وثاقهم يوم أسروا، ويوم قتلوا وسط (المشقر)، ومنّ عليهم (يوم الفصح)، يرجو الإله بما سدى وما صنعا[3].

وأما العربية الشرقية، فقد دخلت النصرانية إليها من الشمال، من العراق في الغالب. ولكن بعض الروم كانوا قد وجدوا سبيلهم إليها، فدخلوها من البحر أيضاً. فعششت في مواضع منها مثل البحرين، وقطر، وهجر، وبعض جزر الخليج. وكانت غالبية نصارى هذه الأرضين على مذهب نسطور آخذين هذا المذهب من نصارى الحيرة الذين كانوا على اتصال وثيق بهم، كما كان رجال دينهم

1) النصرانية (70).

2) البلاذري (84).

3) ديوان الأعشى (86)، جواد علي «تأريخ العرب قبل الإسلام» (5/ 211).

يسافرون إلى هذه المنطقة للتبشير بها، فزرعوا فيها بذور مذهبهم، ونشروه بين من أقبل على النصرانية من العرب.

ومن رجال البحرين النصارى (الجارود بن عمرو بن حنش المعلى)[1]، قدم على النبي بالمدينة، فأسلم وأسلم معه أصحابه. وكان حسن الإسلام صلباً حتى هلك، وقد لام قومه ممن انضم إلى (المنذر بن النعمان بن المنذر) الغرور، فارتد عن الإسلام وعاد إلى دينه الأول[2]. وقد بقي إلى أيام (عمر) في أغلب الروايات وإلى خلافة عثمان في رواية. واشترك في حروب فارس، فقتل بها بـ (عقبة الطين)، التي عرفت باسمه، فقيل لها عقبة الجارود، وذلك سنة احدى وعشرين في خلافة عمر، وقيل قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن. وقد رووا له شعراً. وكان ولده (المنذر بن الجارود) من رؤساء (عبد القيس) بالبصرة. وحفيده (الحكم بن المنذر) الذي مدحه (الأعشى الحرمازي) بشعر حسده الحجاج عليه[3].

المذاهب النصرانيّة:

لقد أصيبت النصرانية بما أصيبت به أكثر الأديان من تشقق وتصدع وانفصام، فظهر فيها شيع وفرق، تخاصمت فيما بينها وتجادلت. وكان أكثر جدالها في موضوع طبيعة المسيح وعلاقة الأم بالابن، وفي موضوع النفس، وقد عقدت لذلك جملة مجامع كنسية للنظر في هذه الآراء والحكم على صحتها أو فسادها، وفي أمر أصحابها، اجتمع فيها مندوبون من مختلف الأماكن وبينهم بعض الأساقفة العرب. غير أنها لم تتمكن من القضاء على النزعات المختلفة، فظهرت فيها جملة مذاهب، حرمت المجامع أصحابها، وحكمت ببدعتهم وبخروجهم على التعاليم الصحيحة، وطلبت من بعضهم الرجوع إلى الدين

1) ويُقال ابن عمرو بن المعلى، وقيل الجارود بن العلاء، وورد الجارود بن عمرو بن حنش، «والجارود لقب بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى من بني عبد القيس العبدي الصحابي، رضي الله عنه. كنيته أبو المنذر، وقيل أبو غياث، وهو أصح»، تاج العروس (2/ 318) (جرد).

2) الطبري (3/ 136 وما بعدها)، «قدوم الجارود في وفد عبد القيس».

3) الإصابة (1/ 217)، (رقم 1042).

الصحيح، غير أن منهم من أصر على رأيه، وتحزب له، وبشّر به، فوجد أنصاراً وأعواناً انتموا اليه وتسموّا به.

والواقع أنه لم يكن من السهل على الداخلين في النصرانية فهم قضية معقدة كهذه القضية، وهي قضية فلسفية جدلية أكثر منها عقيدة دينيه. ولذلك كان من الطبيعي وقوع الاختلاف فيها، وتشتت آراء النصرانية بالقياس إليها، خاصة وهي حديثة عهد، وأكثر الداخلين فيها هم ممن دخلوا حديثاً في هذا الدين، وليس لهم الإدراك العميق والخيال الواسع لفهم موضوع كهذا الموضوع. ثم إن النصرانية ديانة عالمية، لم توجه لأمة خاصة من الأمم، وقد جاءت ككل الأديان بأحكام لا بد وأنْ يختلف الناس في فهمها، لاختلاف المدارك والثقافات، وهذا الاختلاف في الفهم، يؤدي إلى ظهور المذاهب والشيع، والى تناحر هذه المذاهب، وإدعاء كل واحد منها أنه وحده على الحق، وأن ما دونه على الباطل والهرطقة والكفر.

لقد فتح (بولس الرسول) وأتباع المسيح الآخرون ميداناً واسعاً من الجدل في موضوع المسيح: هل المسيح إنسان، أو هو ربّ، أو هو من خلق الرب؟ وهل هو والربّ سواء، أو هو منفصل عن الربّ؟ هذه الأسئلة وأمثالها مما يتصل بطبيعة المسيح شغلت رجال الكنيسة، وكتّلتهم كتلاً: كل كتلة ترى أن رأيها في الطبيعة هو الرأي الصواب، وأنه هو الدين الحق القويم، وأن ما دونه ضلال وباطل. فظهرت المذاهب: شرقية وغربية، وانقسمت الكنيسة على نفسها، فظهرت من الكنيسة الواحدة كنائس. ولا تزال تنشق، ويزيد عددها وتظهر أسماء جديدة لمذاهب لم تكن معروفة في النصرانية القديمة.

لقد كان الناصريون الأولون، وهي التسمية القديمة التي عُرف بها النصارى، في فوضى فكرية. فلم تكن تعاليم المسيح مفهومة عندهم ولا مهضومة، وكانت تفاسير تلاميذه غير منسقة ولا مركزة تركيزاً يكفي لتوجيه الناصريين وجهة معينة واحدة. ثم إن تعقب اليهود والرومان للنصارى وتنكيلهم بهم، وخوف الناصري على حياته وعلى ماله إذا تظاهر بدينه: كل هذه كان لها أثر خطير في

المجتمع النصراني الأول. ولولا جلد بعض التلاميذ وتفانيهم في الدعوة، وتركيزهم لتعاليمها وتبويبها وصقلها، لما كان للنصرانية ذكر باقٍ حتى الآن.

وليس في استطاعة أحد الزعمُ بأن هذه النصرانية التي تركّزت وتثبتت على هذه الصورة التي نشهدها، هي النصرانية التي جاء بها المسيح وكان عليها الناصريون، أي أقدم أتباع عيسى. فالنصرانية هي سلسلة تطورات وأفكار وآراء وضعها البارزون من الآباء، ثم إنها كأكثر الأديان تأثرت بمؤثرات عديدة لم يكن من الممكن على الداخلين فيها التخلص منها. فدخلت فيها وصارت جزءاً منها، مع أن بعضها مناهض ومناقض لمبادئ هذا الدين.

وتولد عن هذا الجدل ظهور (الآريوسية) أتباع (آريوس)، و(السبيلية) Sabellians وأتباع (الثالوث) Trinitarians ومذاهب أخرى نبعت من تلك البلبلة الفكرية التي أظهرها الاختلاف في طبيعة المسيح. ونظراً إلى ما أحدثته هذه الآراء اللاهوتية من انقسام وتفرق في صفوف النصارى، وما تركته من أثر خطير في الأحوال الداخلية للإمبراطورية. عزم الإمبراطور (قسطنطين) باني القسطنطنية على عقد مؤتمر للتوفيق بين هذه الآراء وتنسيقها، فعقد مجمع (نيقية) Nicaea حضره (آريوس) للدفاع عن نفسه وحضره جمع من الأساقفة المخالفين له لمحاكمته ولإثبات هرطقته وخروجه على الإيمان الصحيح. وكانت النتيجة الوحيدة لهذا المؤتمر وضع بيان دقيق عن الثالوث، والحكم بفساد رأي آريوس وبخروجه على عقيدة النصرانية الصحيحة، ووضع تعريف للإيمان الصحيح[1].

وعقب هذا المجمع الذي انعقد في سنة (325) للميلاد وحدد معنى النصرانية وأصولها، عدة مجامع عُقدت للنظر في أمثال هذه المشكلات الخطيرة التي جابهت الكنيسة، عقد بعضها في القسطنطنية فعرفت بها، وعقد بعض آخر

---

1) مجلة المشرق، السنة الثالثة والعشرون (1925)، العدد 7، (481 وما بعدها)، خلاصة تأريخ الكنيسة، لـ«لومند»، ترجمة الخوري يوسف البستاني، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت 1881، في جزءين (1/ 174 وما بعدها، Ecny. Religi. snd Ethic., I, pp. 775, (Arianism).

في (افسوس) (431م) وفي (خلقدونيا) Chalcedon (451م)، ولكنها لم تستطع أن تعيد الوحدة إلى الكنيسة، فانقسمت إلى عدة كنائس، وحدث الانفصال الأكبر في سنة (1054م) حيث تجزأت الكنيسة الكبرى للإمبراطورية إلى كنيستيْن: كنيسة غربية استعملت اللغة اللاتينية لغةً رسميةً لها، وكنيسة أرثوذكسية هي الكنيسة الإغريقية الأصلية، وذلك بسبب خلافات بسيطة ليس لها أثر خطير في جوهر العقيدة. أما الشرق، أي آسية وافريقية، فقد سبق نصاراه نصارى الغرب في تحطيم وحدة الكنيسة، فظهرت عندهم الكنيسة النسطورية والكنيسة اليعقوبية، في زمان مبكر سبق إنفصال الكنيسة اللاتينية عن الإغريقية بزمان طويل.

وقد وصلت إلينا أسماء من حضر بعض تلك المجامع الكنيسية، واشترك في جدالها ومناقشاتها ووقع على قراراتها ومحاضرها، وبينها أسماء أساقفة بشروا بين العرب، وأساقفة يظهر أنهم كانوا من أصل عربي بدليل أسمائهم العربية الخالصة أو المنقولة إلى اليونانية والسريانية. وقد عرف بعضهم بأساقفة الخيام، لمرافقتهم للأعراب ومعيشتهم بينهم في الخيام معيشة الأعراب[1].

ومن أساقفة الأعراب أسقف عُرف باسم (بطرس)، وقد وقع على أعمال مجمع (افسوس) بصفة كونه (أسقف محلة العرب)، والأسقف (تاوتيموس أسقف العرب) الذي وقع على أعمال مجمع انطاكية الذي انعقد عام 363 للميلاد[2].

وقد كان بين أساقفة القدس في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس للميلاد، أسقف من أصل عربي، اسمه الياس (494 - 513م)[3].

فالأساقفة الذين كانوا يديرون أمور النصارى العرب ويبشرون بين القبائل الوثنية، أسهموا في الجدل الديني الذي قام أكثره على بحث موضوع

1) النصرانية (1/ 33 وما بعدها).

2) المشرق، العدد 12، الجزء الخامس (353)، النصرانية (1/ 34).

3) W. Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 84.

طبيعة المسيح واشتركوا فيه، وبذلك نقلوا إلى العرب هذه الأبحاث اللاهوتية التي شغلت بال العالم المتمدن منذ القرن الأول للميلاد فما بعده، وكانت أهم مشكلات النصرانية يومئذ مشكلة شغلت بال المؤمنين، ثم بال الحكومة البيزنطية بعد تنصرها وبال أتباعها المؤمنين، وشغلت العالم الغربي حتى بعد عصر النهضة، مشكلة أطاحت برؤوس الآلاف من الناس باسم الكفر والإيمان، البدعة والحق. وكان في جملة ما أسهم فيه رؤساء أديرة أقليم العربية وضع رسالة مضمونها دستور الإيمان، كتبها أولئك الرؤساء، ووجهوها إلى يعقوب البرادعي، ردّوا فيها على رأي يحيى النحوي في تثليث الجوهر الفرد، وذلك بين السنتين 570 و578 للميلاد. وقد وقعها 137 رئيساً لـ 137 ديراً في أقليم العربية الممتد من شرقي بلاد الشأم إلى الفرات[1].

ومن المذاهب النصرانية التي تدخل في حدود موضوعنا: المذهب النسطوري والمذهب اليعقوبي، وهما من المذاهب الشرقية، أي من المذاهب النصرانية التي ظهرت وانتشرت في الشرق، ووجدت لها مجالاً وانتشاراً في العراق وفي بلاد الشأم ومصر والحبشة وجزيرة العرب.

أما المذهب النسطوري، فينسب إلى البطريق (نسطوريوس) (نسطور)Nestorius من (جرمانيقية) Germanicia، وهي (مرعش) المتوفى سنة (450م)، وله رأي ومقالة في طبيعة المسيح، فجعل للمسيح طبيعتيْن.

(اقنومين): أقنوم الإنسان يسوع، وأقنوم الله الكلمة، وذكر أن مريم هي بشر ولدت بشراً هو المسيح الذي هو إلَه من ناحيةَ الأب الإلَه فقط[2].

وتستند تعاليم نسطور وآراؤه إلى الجدل الذي أثاره من تقدمه من الأباء في موضوع طبيعة المسيح، والانشقاق الذي حدث نتيجة لهذا الجدل. وأكثر من

1) النصرانية (1/ 105 وما بعدها).

2) المشرق: السنة 1931 (615)، «لا يدعُ أحد مريم أم الله لأنها كانت امرأة، ومن المستحيل أن يولد الله من امرأة»، علوم اليونان وسبل انتقالها إلىالعرب، أوليري، تعريب الدكتور وهيب كامل (ص 254)، شرح الأصول الخمسة لقاضي القضاة، عبد الجبار بن أحمد «تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان»، القاهرة 1965، (ص 292، 385 وما بعدها).

اثر فيه وكوّن له رأياً في المسيح هو (ديودورس) Diodorus أسقف (طرسوس) Tarsus و(ثيودور المصيصي) (393 – 428م) تلميذ (ديودورس). وفي انطاكية وقف (نسطور) على آراء هذين العالمين، وكان قد ترهب وسكن هذه المدينة في عام (428م) وتحمس لها وبّشر بها بين الناس، فأثار غضب رجال الكنيسة المعارضين لتلك الآراء، فصاروا ينددون به. وبما يقوله ويبشر به، وعدّوه ملحداً خارجاً على تعاليم الكنيسة الصحيحة وعلى مبادىء الدين القويم.

ولنشاط (نسطور) في بث هذه الأفكار وعدم تراجعه عنها، طلب إليه المثول أمام مجلس اجتمع فيه كبار رجال الدين لمحاكمته عرف بـ (مجمع أفسوس) انعقد في عيد العنصرة من عام (431م)، وبعد محاكمات ومناظرات قرر المجتمعون الحكم بهرطقة هذه الآراء وبمخالفتها للمبادىء العامة التي تدين بها الكنيسة، وبذلك كان الحكم على نسطور وأتباعه بالضلال والإلحاد وبعزله من أسقفية القسطنطنية حكماً رسمياً. ومعنى ذلك مقاومة القائلين بهذه الآراء واضطهادهم والتضييق عليهم في حكومة لها كنيسة خاصة ترى أنها على الحق وأن ما دونها على عمى وضلال.

و كانت (الرها) Edessa أهم مركز ثقافي للنساطرة، ومن أهم معاقل الأدب السرياني. أمَّها كثير من طلبة العلم السريان للتثقف بها، ولا سيما في عهد الأسقف (ايباس) Ibas (436 – 457م) الذي انتخب أسقفاً لهذه المدينة بعد وفاة أسقفها (ربولا) Rabbula في عام (436م). ثم نالت (نصيبين) Nisibis مكانة كبيرة في النسطورية، خاصة بعد وفاة ايباس، وانتخاب (نونوس) Nounus أسقفاً للمدينة، وكان هذا متأثراً بالآراء البيزنطية كارهاً للنسطورية، لذلك رأى النساطرة الانتقال عن (الرها) إلى أماكن أخرى لا أثر لنفوذ هذا الأسقف عليها، فكانت (نصيبن) الموقع المختار من بين هذه الأماكن، ونالت الحظوة عند رجالهم، واحتلت مكانة (الرها) في العلم[1].

---

1) أدي شير (2/ 130)، المشرق، 1910م (ص 390)، Socrates Scholasticus, Hist. Eccl., VII, 29-35, O'leary, p. 133, Ency. Relig. Ethi., p. 323.

ولكن الأسقف (نونوس) كان أسقفاً واحداً من عدد عديد من رجال الدين الرسميين الذين يمثلون كنيسة الروم، الكنيسة التي حكمت حكماً رسمياً بهرطقة (نسطور)، لذلك كان على النسطورية مواجهة الاضطهاد والمقاومة في أي مكان من الأماكن الخاضعة للروم، أو التابعة لكنيستهم، وللكنائس المعارضة لآراء نسطور. لذلك فكر النساطرة في حمل آرائهم ومعتقداتهم إلى بلد أملوا أنْ يتمتعوا فيه بحريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية، لمعارضته للإمبراطورية البيزنطية وتشجيعه كل حركة مناوئة لها، ثم لأن له حكومة ذات دين آخر بعيد عن النصرانية، فهي إذن لا تتدخل في أمور المذاهب النصرانية إلاّ إذا كانت مشايعة للروم، وليست النسطورية من هذه المذاهب.

وقد أظهر (الشاهنشاه) ملك الملوك، استعداده لحماية، النساطرة ومنحهم الحرية الدينية وحرية التبشير بمذهبهم بين رعاياه، كما أظهر رغبته في الاستفادة من علمهم ودرايتهم، فاختارهم للأعمال التي لم يكن فيها متخصصون من أتباعه، وسمح لهم بالتدريس وبتهذيب الناس وبتعليمهم الفلسفة اليونانية، ولا سيما فلسفة أرسطو والطب، وغدت (سلوقية) Seleucia على نهر دجلة قبالة العاصمة (طيسفون) مركزاً ثقافياً خطيراً ينافس (الرها) و(نصيبين)، وصار هذا المركز من أهم معاقل النسطورية والتبشير في العراق وفي سائر أنحاء إمبراطورية الفرس.

ومن هؤلاء النساطرة تعلم عرب بلاد العراق وعلى رأسهم أهل الحيرة النسطورية، ومن أهل الحيرة انتقلت إلى جزيرة العرب. ولما كانت السريانية هي اللغة الرسمية لهذه الكنيسة، صارت هذه اللغة بهذه الصفة لغة نصارى العرب، بها يرتلون صلواتهم في الكنيسة وبها يكتبون، وإن كانت بعيدة عنهم غير مفهومة لدى الأكثرية منهم. لقد كانت على كل حال لغة رجال الدين. وجلهّم من رجال العلم في ذلك الزمن. فهي عندهم لغة للدين وللعلم، كما كانت اللاتينية لغة للدين والعلم عند الرومان، والإغريقية لغة للدين والعلم عند اليونان، والعربية عند المسلمين.

وأنا حين أقول إن النسطورية كانت قد وجدت لها سبيلاً إلى أهل الحيرة، فدخلت بينهم، فأنا لا أقصد بقولي هذا أن أهل الحيرة كانوا جميعاً على هذا المذهب، أو أنهم كانوا كلهم نصارى. فقد كان جلّ أهل الحيرة على دين أكثر ملوكهم، أي على الوثنية، أما الذين اعتنقوا النصرانية، فهم العباديون، وبينهم قوم كانوا على مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة، أي مذهب اليعاقبة، وبينهم من كان على مذهب آخر.

وقد تسربت النسطورية إلى العربية الشرقية من العراق وإيران، فدخلت إلى (قطر) والى جزر البحرين وعمان واليمامة ومواضع أخرى. وورد في أسماء من حضر المجامع النسطورية اسم أسقف يدعى (إسحاق) اشترك في مجمع النساطرة الذي عقد سنة 576م، كما ذكر اسم أسقف آخر يدعى (قوسي) اشترك في مجمع سنة 676م. وقد كانا أسقفيْن على (هجر)[1]. كذلك وردت أسماء أساقفة من النساطرة تولّوا رعاية شؤون أبناء طائفتهم في جزيرة (دارين) وفي جزيرة (سماهيج) وفي مواضع أخرى من الخليج، تولى بعضهم أعماله قبيل الإسلام وعند ظهوره، وتولى بعضهم رعاية شؤون أتباعه في أوائل عهد الإسلام[2].

ومن الحيرة انتقلت النسطورية إلى اليمامة فالأفلاج فوادي الدواسر إلى نجران واليمن، وصلت إليها بالتبشير وبواسطة القوافل التجارية، فقد كانت بين اليمن والحيرة علاقات تجارية وثيقة، وكانت القوافل التجارية تسلك جملة طرق في تنمية هذه العلاقات وتوثيقها. وقد قوي هذا المذهب ولا شك بعد دخول الفرس إلى اليمن، لما عرف من موقف رجاله من كنيسة الروم، ولما كان لأصحابه من نفوذ في بلاط (الشاهنشاه) ومن صداقته لهم[3].

---

1) النصرانية (71).

2) النصرانية (71).

3) النصرانية (1/ 59 وما بعدها)، Assemani, Bibl. Orient., 3, 603, Philiby. Arablan Highlands, p. 261.

وتعزو التواريخ النسطورية انتشار النصرانية في نجران إلى رجل اسمه (حسّان) أو (حنّان) أو (حيّان) ذكرت أنه ذهب في أيام يزدجرد (399 – 420م) إلى القسطنطنية للاتجار. فلما أنجز ما ذهب اليه، عاد إلى وطنه سالكاً اليه طريق (الحيرة)، وهناك اتصل بنصاراها، ودخل في النصرانية التي استهوته. فلما بلغ نجران مدينته، نشط فيها بنشر الدعوة بين الناس حتى دخل فيها كثير منها ومن بقية حمير[1].

وقد ورد أنّ البطريق (تيموثيوس) Timotheos الأول (780 – 823م) كان قد نصّب أسقفاً نسطورياً على اليمن[2]. وقد سعى الفرس لنشر مذهب النساطرة بين أهل نجران، كما سعوا في تقوية الصلات بين الحيرة ونجران. واذا علمنا أن الفرس أنفسهم لم يكونوا على دين المسيح، عرفنا الأهداف السياسية البعيدة التي كانوا يبتغونها من هذا التقارب ومن نشر المذهب النسطوري في اليمن.

وقد بقيت النسطورية قائمة في اليمن في أيام الإسلام، ففي الأخبار الكنسية أن رئيس البطارقة النساطرة (طيموثاوس)، نصّب في أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء، اسمه (مار بطرس). وأن أساقفة من النساطرة كانوا في مواضع متعددة من اليمن وفي عدن، وذلك في القرن الثالث عشر للميلاد[3].

أما اليعاقبة، فقد انتشر مذهبهم بين عرب بلاد الشأم والبادية، وقد اصطدم هذا المذهب بالكنيسة الرسمية للبيزنطيين، واعتبرته من المذاهب المنشقة الباطلة، لذلك حاربته الحكومة، وقاومت رجاله. كما عارضه النساطرة، لاختلافه معهم في القول بطبيعة المسيح، وفي أمور أخرى، وهذا ما حمل النساطرة على الحكم بهرطقة اليعاقبة، كما حمل هذا الاختلاف اليعاقبة على الحكم

1) E. Sachau, S. 68, Chro. Seert., I, II, p. 330, Nallino, Raccolta, III, p. 123.

2)O'leary, p. 141, Sachau, S. 68. f.

3) النصرانية (1/ 67).

بهرطقة النساطرة، حتى صار اختلاف الرأي هذا سبباً في وقوع معارك كلامية وجدل طويل عريض بين رجال المذهبيْن[1].

واليعاقبة Jacobitechurch، ويدعون بـ (المنوفسيتيين) Monophystte = Monophysite أيضاً، أي القائلين بالطبيعة الواحدة، لقولهم إن للمسيح طبيعة واحدةً وأقنوماً واحداً، فقيل لهم من أجل ذلك (أصحاب الطبيعة الواحدة)، هم مذهب من مذاهب الكنيسة الشرقية، نسبوا إلى (يعقوب البرادعي)Jacabus Baradaeus ويسمى بـ (جيمس) James أيضاً، المولود في حوالى سنة (500) للميلاد في مدينة (الأجمة) Tela = Tella من أعمال (نصيبين) في شرقي (الرها)Edessa والمتوفى سنة 578 للميلاد. ولد في أسرة كهنوتية، وتتلمذ لـ (ساويرس) الذي صار رئيساً على بطريركية أنطاكية في عام 514 للميلاد. ثم اضطر إلى مغادرة انطاكية إلى مصر لاختلافه مع رجال الدين في هذه المدينة في طبيعة المسيح، إذ كان يقول بوجود طبيعة واحدة فيه، ومنه أخذ يعقوب رأيه هذا في المسيح.

وذهب (يعقوب) في حوالى سنة 528 للميلاد إلى القسطنطنية، لحمل القيصرة (ثيودورة)Theodora على التأثير في الكنيسة وحملها على الكف عن اضطهاد القائلين برأيه في طبيعة المسيح. وقد مكث في القسطنطنية خمسة عشر عاماً، وسعى سعياً حثيثاً في نشر مذهبه والتبشير به، وهذا ما أوقعه في نزاع مع بقية رجال الدين هناك لخروجه على تعاليم المجمع الخلقيدوني الذي عين التعاليم الثابتة في طبيعة المسيح.

وكان (يعقوب) أسقفاً على (الرها) Edessa في حوالى سنة (541م). وكان (الحارث بن جبلة) من المقدرين له، والمحبوبين عنده، لذلك كان ممن

1) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد (ص 292 وما بعدها).

توسطوا لدى بلاط (القسطنطنية) للسماح له بالخروج منها، وللتوفيق بين آرائه وآراء الكنيسة البيزنطية، كما توسط (المنذر) لدى البيزنطيين للغرض نفسه[1].

وكان من جملة تلاميذ (يعقوب) والمبشرين بتعاليمه (أحودمة) (أحودمى) الذي اغتيل بأمر كسرى أنو شروان في 2 آب من سنة 575م. وكان من المبشرين النشيطين، ذهب إلى بني تغلب وبشّر بينهم، وقد عرف هؤلاء عند السريانيين بالأعراب سكنة الخيام، وأقام بينهم كهاناً ورهباناً، وبنى لهم ديراً عرف في السريانية بـ (عين قنا) أي (عين الوكر) وديراً آخر بتكريت سمي (دير جلتاني). وكانت في أيامه أسقفيتان على العرب: أسقفية عرفت بأسقفية العرب، وأسقفية التغلبيين أو (السن) وكرسيها بـ (عاقولا) (عاقول). وعاقولا هي موضع الكوفة. أما كرسي أسقفية العرب، فكان في الحيرة[2].

كذلك كان من تلاميذه (جيورجيوس) (جرجيس) و(غريغور)، وقد تمكنا بنشاطهما وتبشيرهما من نشر هذا المذهب في بلاد الشأم وبين الأقباط والأرمن[3].

وقد بذل (شمعون الأرشامي) Shem'on of Beth Arsham و(مراثا) Muratha جهداً كبيراً في نشر هذا المذهب بين أهل العراق، وصارت (تكريت) القاعدة الكبرى للمذهب اليعقوبي في العراق. بقيت محافظة على هذا المركز في الإسلام[4].

---

1) W. Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 328, Devreese, Patr. d'Antioche, 75, 88, 96, Bury, Later Roman Empire., II, 391.

2) ذخيرة الأذهان (1/ 303).

3) وللقائلين بالطبيعة الواحدة حملة أسماء، منها المنوفيستيون والأوطاخيون، نسبةً إلى أوطاخي من القائلين بالطبيعة الواحدة، والديوسقوريين. راجع: أدي شير: تأريخ كلدو وآشور (2/ 132)، ذخيرة الأذهان (1/ 208)، النصرانية (1/ 38 وما بعدها)، المشرق، السنة الأولى، الجزء السادس (249)، خلاصة تأريخ الكنيسة (1/ 288 وما بعدها).
Ency. Relig. and Ethics, XII, p. 172, Ency. Brita., 12, p. 860, Burkitt, early Eastern Christianity, 1904.

4) Araber, I, S. 10.

وقد دخل أكثر الغساسنة في هذا المذهب، وتعصبوا له، وطالما توسطوا لدى الروم في سبيل حملهم على الكف عن اضطهادهم والتنكيل بهم. ظلوا مخلصين لهذا المذهب إلى ظهور الإسلام. وقد نعت بعض ملوكهم بنعوت تدل على تنصرهم وتدينهم، مثل: المحبين للمسيح والمؤمنين. وقد وردت في بعض المخطوطات إشارة إلى كاهن نعت بـ (كاهن ذي العزّة والمحب للمسيح البطريق المنذر بن الحارث)، كما أنعم القياصرة على بعض ملوك الغساسنة بألقاب لا تمنح في العادة إلاّ لمن كان على دين النصرانية[1].

وتذكر تواريخ اليعاقبة قصصاً عن بعض هؤلاء الملوك يشير إلى ذكائهم وتمسكهم في قواعد هذا المذهب وتعلقهم به، ودفاعهم عنه، وإفحامهم بذكائهم وبعلمهم أيضاً لخصوم هذا المذهب من أصحاب المذاهب الأخرى ممن أرادوا اقناعهم بالخروج من المذهب اليعقوبي ونبذه، مع ميلهم إلى التوفيق بين المذاهب ومنع الفرقة بين النصارى، كالذي ذكروه مع مناظرة وقعت بين البطريرك (البطريق) افرام (526 – 545م)، وهو من بطاركة الملكيين والحارث بن جبلة ملك الغساسنة وهو على اليعقوبية، وقد أفحم فيها الملك الحارث خصمه على ما يدعيه اليعاقبة بذكائه وبقوة بديهته وحجته، وكالذي رووه عن تعنيف المنذر بن الحارث للبطريرك (دوميان) في أثناء زيارته للقسطنطنية، لتهجمه على اليعاقبة وإثارته بهذا الهجوم الفرقة بين النصارى، وطلبه منه الاتفاق مع (فولا) بطريرك اليعاقبة على التآخي وتوحيد المساعي، وكالذي ذكروه عن هذا المنذر أيضاً من كتابته إلى القيصر (طيباريوس) للتدخل في حمل البطريرك والأساقفة على ايقاف حملاتهم على اليعاقبة، ولكي يسعى في إطلاق الحرية لجميع النصارى، وأن يصلي كل واحد منهم أينما شاء وحيثما شاء[2].

---

1) ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، تأليف القس بطرس نصري الكلداني (1/ 132)، النصرانية (1/ 36)، O'leary, p. 192.

2) المشرق، السنة الرابعة والثلاثون (1936) (61 وما بعدها).

وكان لليعاقبة مشهد مقدس يحجون اليه للتبرك به والنذر له، هو مشهد القديس (سرجيوس) (سرجيس) في مدينة (سرجيوبوليس) Sergiopolis، وهي الرصافة. وكان عرب بلاد الشام اليعاقبة يتيمنون به، ويضعون صورته مع الصليب على راياتهم أملاً في الفوز في المعارك. والى هذا القديس أشار الشاعر الأخطل بقوله:

لما رأونا والصليب طالعاً ومار سرجيس وموتاً ناقعا

وأبصروا راياتنا لوامعاً خلوّا لنا راذان والمزارعا[1]

مما يدل على أن شهرة هذا القديس ظلت بين النصارى حتى في أيام الإسلام. وطالما قصد الأعراب كنيسة هذا القديس لتعميد أبنائهم هناك. وقد كانوا يعقدرن العقود عند قبره، ويقسمون الإيمان عنده، دلالة على التشديد فيها وصدقهم في الوفاء. وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به، ويقصدونه للتبرك به، على عكس نصارى الحيرة الذين امتهنوا القبر في حروبهم مع الغساسنة، واعتدوا على المدينة. وقد كان نصارى الحيرة على مذهب (نسطور) في الأغلب، كما كانوا من الوثنيين، ولذلك لم تكن لسرجيوس في نفوسهم منزلة ومكانة.

وقد أشار المؤرخ (يوسبيوس القيصري) (أويسبيوس)، إلى رأي كان عند بعض نصارى العرب، خالفوا به مذهب الكنيسة إذ قال: «ونحو هذا الوقت قام آخرون في بلاد العرب منادين بتعليم غريب عن الحق. إذ قالوا إن النفس البشرية في الوقت الحاضر تموت وتبيد مع الجسد. ولكنهما يتجددان معاً يوم وقت القيامة»[2]. وليس في هذا الكلام كما نرى، أية اشارة إلى أولئك النصارى العرب، ولا إلى مواضع سكنهم. وكل ما يفهم منه أن خلافهم وقع في زمن قريب من زمنه، وأنه كان في موضوع الروح.

---

1) ديوان الأخطل (309)، المشرق، السنة الرابعة والثلاثون، (1936)، كانون الثاني، 2 (247)، النصرانية (1/ 99).

2) تأريخ الكنيسة، ليوسابيوس القيصري، ترجمة القس مرقس داوود (ص 292 وما بعدها)، Eusebius, 6, 37.

وقد جودل القائلون بهذا الراي، ونوقشوا في مجمع انعقد سنة (246م)، عرف بـ (مجمع العربية) Council of Arabia[1].

وقد كان لـ (بولس السميساطي) Paul of Samosata، راي في المسيح، حتى قيل إنه رأى نفسه في منزلة المسيح، وقد حكمت الكنيسة عليه بالهرطقة، وحرمته، وأعلنت خلعه عن أسقفية (انطاكية)، وكان من المقربين إلى الملكة (الزبّاء)، لهذا لم تنفذ ما جاء في حكم الكنيسة عليه[2].

وذكر أهل الأخبار أن من بين فرق النصرانية، أو الفرق التي هي بين بين: بين النصرانية والصابئة دين يقال له (الركوسية)، وذكروا أن الرسول قال لحاتم الطائي: إنك من أهل دين يقال لهم الركوسية[3]. ولكنني أشك في صحة هذا الحديث، إذ كانت وفاة حاتم قبل مبعث الرسول، ولم يثبت أنه التقى به.

وهناك شيع عقائدها مزيج من اليهودية والنصرانية. وجدت سبيلها في جزيرة العرب، مثل (الابيونيين) Ebionites و(الناصريين) Nazarenes و(الكسائيين) Elkesaites[4].

أما (الأبيونيون) Ebionites، فجماعة من قدماء اليهود المتنصرين عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي تعني (الفقراء)، لا يعرف عن كيفية ظهورهم ونشوء عقيدتهم على وجه صحيح أكيد، وكل ما يمكن أن يقال عن معتقداتها إنها مزيج من اليهودية والنصرانية، وإنها نصرانية بنيت على أسس ودعائم يهودية، فهي نصرانية يهودية في وقت واحد.

---

1)A Religious Encyclopaedia, Vol., I, p. 122.

2) Runciman, The Mediaeval Maniche, 19. ff.

3) أسد الغابة (3/ 392)، المشرق، السنة 1903 (ص 574، 777، 928)، 1905، (ص 504)، 1907م، (ص 1120)، 1908م، (ص 480)، 1937، (ص 73 وما بعدها)، اللسان (7/ 405)، تاج العروس (4/ 163)، (ركس).

4) النصرانية (1/ 111 ما بعدها).

وقد ذهب بعض قدماء المؤرخين إلى أنهم إنما دعوا بهذه التسمية نسبة إلى مؤسس هذا المذهب المسمى (ابيون) Ebion. غير أن من الصعب إثبات صحة هذا الرأي. وهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون، وينكرون رأي (بولس) الرسول في المسيح، ويحافظون على حرمة يوم السبت Sabbath وحرمة يوم الرب. وقد ذهب بعض قدماء من تحدث عنهم إلى أنهم فرقتان بالقياس إلى مولد الابن المسيح من الأم العذراء[1]. ويُعتقد أكثرهم أن المسيح بشر مثلنا، امتاز على غيره بالنبوة، وبأنه رسول الله، أرسله إلى الناس أجمعين. فهو رسوله ولسانه الناطق برسالته للعالمين. وهو نبي كبقية من سبقه من الأنبياء المرسلين. وقد آمن بعض منهم بعقيدة (العذراء) وولادتها للمسيح من غير اتصال ببشر، غير أن بعضاً آخر منهم، آمن بأن المسيح ابن مريم من (يوسف) فهو بشر تماماً، وأنكر الصلب المعروف، وذهب إلى أن من صلب، كان غير المسيح، وقد شبه على من صلبه، فظن أنه المسيح حقاً. ورجعوا إلى إنجيل متى بالعبرانية (The GospelofMathew) وأنكروا رسالة (باولس) Paul على النحو المعروف عند بقية النصارى[2].

وأما (الناصريين) (Nazarenes)، فهم فرقة معارفنا عن أصلها وعن كيفية ظهورها قليلة كذلك. وأكثر ما نعرفه عنها مستمد مما كتبه عنها (أفيفانيوس) (Epiphanius) و(جيروم) (Jerome). وقد أدخلهم (أفيفانيوس) في جملة (الهراطقة) (Heratics)، وذكر أنهم كانوا يقرأون النسخة العبرانية لإنجيل متى، The Gospel of Mathew وأنهم ظهروا في غور الأردن.

وقدا اعترفوا بألوهية المسيح (ابن الله)، قائلين إنه ولد من العذراء مريم، واعترفوا برسالة القديس (بولس) كما حافظوا على ناموس موسى (Mosaic Law) (شريعة موسى)، وهم يرون أن ميلاد المسيح شيء خارق للعادة، وأنه (المولود

1)Ency. Brita., Vol., 7, p. 881, (Ebionites), Hastings, Ency. Rell. Ethic., 3, p. 574.

2) Kenneth Scott Latourette, A History of Christianity, p. 122.

الأول من الروح القدس)[1]، وأن تعاليمه، هي متممة للرسالات السابقة ومكملة لها. وقد راعوا حرمة السبت، وما يختص بالأكل وبالختان[2].

وأما (الكسائيون) (Elkesaites)، ففرقة يظهر أنها ظهرت في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد في وادي الأردن، ومعناها اللغوي (القوى الخفية)، في لغة بني إرم، و(المتخفون)، أو المتسترون تحت الكساء في لغتنا. وقد نبعت من اليهودية. وهي تنسب إلى رجل اسمه (Elkesai) (الكسائي) صاحب كتاب نسب اليه، ويحافظ الكسائيون على الختان وعلى حرمة السبت وعلى سائر أحكام الشريعة الموسوية، وينسب اليه أنه كان يرى تحريم أكل اللحوم. والظاهر أن ذلك من وضع المستخفين بتعاليمه. وإنما كان يحرم أكل ذبائح الوثنيين وما أهل للأوثان. وقد حتم على أتباعه التوجه إلى بيت المقدس في صلواتهم، ومنع التوجه إلى الشرق. وهو يعتقد بوجود إله واحد، وباليوم الآخر، وبملائكته. ويرى ان الشياطين هي النجوم الكائنة في المناطق الشمالية من السماء[3].

ومن أهم تعاليم (الكسائيين) الإغتسال، أو ما يقال له (التعميد) (Babtism) وذلك بالاغتسال في النهر أو في البئر لغسل الأدران من الأجسام وتطهيرها. ويسمي المغتسلُ (باسم الله العلي العظيم) (بسم الله الرحمن الرحيم)، ويستعمل الغسل في الشفاء من الآفات كذلك، مثل عض الكلب المكلوب أو الحيوانات المؤذية وإخراج الأرواح الشريرة من الجسم. ولذلك يمكن تسمية هذه الفرقة بالمغتسلة، لجعلها الغسل من أهم أركان الدين.

وللخبز والملح اهمية خاصه لدى أصحاب هذا المذهب، فهما بمثابة العهد عندهم. وهم في ذلك على شاكلة يهود، حيث يتمثل العهد (Convenant)

---

1)Hastings, Ency. Relig. Eathi., 5, p. 141, Ency. Brit., 16, p. 178.

2) History of the Christianity, by Latoure, p. 121.

3) Hastings, 5, p. 263.

عندهم بالملح والخبز[1]. ويقسمون بهما الإيمان. وللإيمان عندهم قدسية كبيرة، فلا يجوز لأي إنسان كان أن يحنث بيمينه، وأن يخالف ما أقسم عليه، وإلاّ كان عقابه عند الله عظمياً.

والعرب من الذين يقيمون للقسم بالخبز والملح وزناً عظيماً عندهم. فكانوا يحلفون بهما كما يحلفون بالله وبأصنامهم. ولا يجوز الحلف كذباً بهما. ولا زال الناس يقسمون بالخبز والملح قسمهم بالمقدسات.

وقريب من مذهب (الكسائيين) في الاغتسال ما يذهب اليه الصابئون فيه. فللغسل لتطهير الجسم من الآثام الظاهرة والباطنة ومن الأرواح الشريرة مقام كبيرعند الصابئة، ولهذا نراهم يختارون السكنى عند الآبار والأنهار.

ووجدت فرقة عرفت بـ (الفطائريين) (Collyridiens) بالغ أصحابها في عبادة مريم وفي تأليهها، وكانوا يقدمون لها نوعاً من القرابين أخصها أقراص العجين والفطائر، لذلك عرفوا بالفطائريين. وقد ذكرهم (أفيفانيوس) في كتاب الهرطقات[2].

وعلى عكس هؤلاء كان من دعوا بـ (Antidicomariantes)، وهم الذين أنكروا على مريم دوامها في التبتل، فسموا لذلك بالمعادين لمريم[3].

وذكر أن فرعاً من الأريوسية، أي من أتباع (أريوس)، كان معروفاً بين العرب أطلق عليهم القديس (ايلاريوس) اسم (أقاقيين) نسبةً إلى (أقاقيوس). كانوا يقولون إن المسيح ليس هو ابن الله، لأن من قال ذلك جعل لله زوجة[4].

---

1) اللاويون، الإصحاح الثاني، الآية 13، العدد، الإصحاح الثامن عشر، الآية 12، أخبار الأيام الثاني، الإصحاح 13، الآية 6.

2) النصرانية (1/ 113).

3) النصرانية (1/ 113).

4) النصرانية (1/ 113).

وقد تحدث أهل الأخبار عن قوم قالوا لهم (الأريسيون). ذكروا أنهم «فلاحو السواد الذين لا كتاب لهم. وقيل الاريسيون: قوم من المجوس، لا يعبدون النار، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم... وقيل إنهم أتباع عبد الله بن أريس رجل كان في الزمان الأول قتلوا نبياً بعثه الله إليهم»، «وقال بعضهم في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية»[1].

التنظيم الديني:

وكان لنصارى العرب تنظيمهم الخاص بدور العبادة وبالتعليم والإرشاد، وهو تنظيم أخذ من تنظيم الكنيسة العام، ومن التقاليد التي سار عليها آباء الكنيسة منذ أوائل أيام النصرانية حتى صارت قوانين عامة. فللكنيسة درجات ورتب، وللمشرفين عليها منازل وسلالم، وقد اقتبست هذه التنظيمات من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي عاشت فيها النصرانية منذ يوم ولادتها، والتي وضعها رؤساؤها لنشر الديانة ولتنظيم شؤون الرعية، حتى صارت الكنيسة وكأنها حكومة من الحكومات الزمنية، لها رئيس أعلى، وتحته جماعة من الموظفين، لها ملابس خاصة تتناسب مع درجاتهم ومنازلهم في مراتب الحكومة، ولهم معابد وبيوت وأوقاف وسيطرة على أتباعهم، جاوزت أحياناً سيطرة الحكومات.

ومن الألفاظ التي لها علاقة بالدرجات والرتب الدينية عند النصارى لفظة (البَطْرك) و(البطريق). وقد وردت لفظة (البطريق) في شعر ينسب إلى (أمية بن أبي الصلت[2]).

وقد ذهب علماء اللغة إلى أن (البطرك)، هو مقدم النصارى، وهو في معنى (البطريق) أيضاً. وقالوا أيضاً إن البطريق مقدم جيش الروم. و(البطرك) من أصل

---

1) تاج العروس (4/ 96)، (ارس).

2) من كلّ بطريق لبطريق نقي الوجه واضح. تاج العروس (6/ 296)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 191)، تاج العروس (7/ 111) (الطبعة الأولى بمصر، مطبعة مصر)، اللسان (10/ 212، 401)، (دار صادر) «بيروت 1956»، البستان (11/ 157)، «بيروت 1927»، محيط المحيط (102/1) «بيروت 1867م»، مروج (2/ 199)، صبح الأعشى (5/ 472)، (القاهرة 1915)، «المطبعة الأميرية».

يوناني هو «Patriakhis»، (بتريارخيس)، ومعناه (أبو الآباء)، وذلك لأنه الأب الأول والأعلى للرعية، فهو أب الآباء ورئيس رجال الدين. اما لفظة البطريق، فإنها من أصل لاتيني، هو Patrikios، وهو يعني وظيفة حكومية وتعني درجة (قائد) في المملكة البيزنطية[1]. فلا علاقة لها إذن بالتنظيم الديني للنصرانية.

وبين البطريق (البطرك) والأسقف منزلة يُقال لشاغلها (المطران)، وقد عرف بأنه دون البطرك وفوق الأسقف. وقد وسمه (القلقشندي)، بأنه القاضي الذي يفصل الخصومات بين النصارى[2]. واللفظة من الألفاظ المعربة عن اليونانية، أخذت من (متروبوليتيس)، «Mtropolitis»، أي مختص بالعاصمة، أو المدينة[3]. وقد ذكر علماء اللغة أن لفظة (المطران)، ليست بعربية محضة[4].

والأسقف من الألفاظ التي تدل على منزلة دينية عند النصارى، وقد وردت في كتب الحديث. وقد ذكر بعض علماء اللغة أنه إنما سمي أسقف النصارى أسقفاً لأنه يتخاشع[5]. واللفظة من الألفاظ المعربة المأخوذة عن اليونانية، فهي (ابسكوبوس) «Episkopos»، في الإغريقية، وقد نقلت منها إلى السريانية، ثم نقلت منها إلى العربية[6]. وقد وردت في كتب التواريخ والسير، حيث ورد في شروط الصلح التي عقدها الرسول مع أهل نجران، شرط هو: «لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته». والقس من الألفاظ الشائعة بين النصارى، ولا تزال مستعملة حتى الآن. ويُقال لها (قسيس) في الوقت الحاضر أيضاً. وهي من أصل آرامي هو «Gachicho»، ومعناه، كاهن وشيخ[7]. وقد جمعها (أمية بن أبي

1) النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 190 وما بعدها)، غرائب اللغة (ص 255).

2) صبح الأعشى (5/ 472).

3) محيط المحيط (2/ 1987)، غرائب اللغة (ص 269).

4) تاج العروس (3/ 546)، «مطر»، النصرانية (191)، البلدان (4/ 122)، «ديارات الأساقفة».

5) اللسان (11/ 56)، البلدان (4/ 122)، تاج العروس (6/ 141)، صبح الأعشى (5/ 472)، مقدمة ابن خلدون (234)، تأريخ ابن خلدون (27، القسم الأول ص 297)، اللسان (156/9) «صادر».

6) النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 191)، غرائب اللغة (ص 252)، محيط المحيط (1/ 970)، البستان (1/ 111)، النهاية في غريب الحديث (4/ 237).

7) غرائب اللغة (ص 201)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (192).

الصلت) على (قساقسة)[1]. وذكر بعض علماء اللغة أن «القس والقسيس العالم العابد من رؤوس النصارى» وأن «أصل القس تتبع الشيء وطلبه بالليل. يقال تقسست اصواتهم بالليل، أي تتبعتها»[2]. وقد وردت لفظة (قسيسين) في القرآن الكريم: (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى. ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ)[3]. ويدل ذلك على أن موقف النصارى تجاه الإسلام كان أكثر مودة من موقف يهود. وقد نسب ذلك إلى القسيسين والرهبان.

وترد لفظة (شماس) في جملة الألفاظ التي لها معان دينية عند نصارى الجاهلية. وهي من الألفاظ الحية التي لا تزال تستعمل في هذا اليوم أيضاً. وتعد من الألفاظ المعربة عن السريانية. وهي «Chamocho»، في الأصل، وتعني خادم، ومنها البيعة. فهي إذن ليست من الوظائف الدينية الكبيرة، وإنما هي من المراتب الثانوية في الكنيسة[4]. وقد ذكر بعض العلماء بأن الشماس يحلق وسط رأسه ويجعل شعره من جوانب رأسه على شكل دائرة، وهو الذي يكون مسؤولاً عن الكنيسة، ويكون مساعداً للقسيس في أداء واجباته الدينية، وفي تقديس القداس أيام الآحاد والأعياد. يعمل كل ذلك للتعبد، وليس لأخذ المال والتكسب[5].

وورد في كتاب رسول الله إلى سادة نجران: «لا يغير أسقف عن سقيفاه، ولا راهب عن رهبانيته، ولا واقف عن وقفانيته»[6]. ويظهر من هذا الكتاب أن للواقف

---

1) لو كان منفلت كانت قساقسة يحييهم الله في أيديهم الزبر
تاج (4/ 207).

2) تاج العروس (4/ 216)، محيط المحيط (1/ 1221)، تأريخ ابن خلدون (حـ 2 قسم 1 ص 297). المفردات للأصفهاني (ص 412)، اللسان (6/ 174) «صادر»، صبح الأعشى (472/5)، مقدمة ابن خلدون (ص 233).

3) المائدة، الآية 85، أسباب النزول (152)، تفسير الطبري (2/7).

4) النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 193)، غرائب اللغة (ص 191).

5) اللسان (114/6) «صادر» محيط المحيط (1/ 1221)، صبح الأعشى (5/ 472)، ابن خلدون (29، القسم الأول، ص 297)، البستاني (1/ 1259).

6) ابن سعد، الطبقات (1/ 358)، «طبعة صادر»، «لا يعبر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، لا واقه من وقاهيته»، النهاية في غريب الحديث (4/ 237)، «واقه من وقاهيته»، البلاذري، فتوح (73)، (صلح نجران)، اللسان (17/ 459)، تاج العروس (9/ 421)، الفائق (2/ 317)، النهاية (4/ 240).

منزلة من المنازل الدينية التي كانت في مدينة نجران. والظاهر أنها تعني الواقف على أمور الكنيسة، أي الأمور الإدارية والمالية والمشرف على أوقافها وأملاكها. فهو في الواقع مسؤول إداري، اختصاصه الاشراف على الأمور المتعلقة بأمور الكنيسة وأموالها اذ لا يعقل أن يكون الواقف بمعنى خادم البيعة الذي يقوم بالخدمة بمعنى التنظيف والأعمال البسيطة الأخرى اذْ لا يعقل النص على مثل هذه الدرجة في كتاب صلح الرسول مع سادة نجران. وقد ذكر بعض علماء اللغة: «الواقف خادم البيعة، لأنه وقف نفسه على خدمتها»[1]. ولا يعني هذا التفسير بالضرورة الخدمة على النحو المفهوم من الخدمة في الإصطلاح المتعارف. فقد كان الملوك والسادات يلقبون أنفسهم بـ (خادم الكنيسة) و(خادم المعبد)، أي بالمعنى المجازي. ولا يكون خادماً صارفاً وقته كله في تنظيف الكنيسة وفي القيام بالأعمال التي يقوم بها الخادم الاعتيادي.

وهناك لفظة أخرى لها علاقة بالكنيسة وبالبيعة وبالنواحي الإدارية منها، هي لفظة (الوافه) و(الواقه). وقد عرفوا صاحبها بـ (قيم البيعة التي فيها صليب النصارى)، وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (الواهف) حيث قالوا: «الواهف سادن البيعة التي فيها صليبهم وقيمها كالوافه وعملها الوهافة»، والوهفية والوُهفيّة. والظاهر أنها كلها في الأصل شيء واحد، وإنما اختلف علماء اللغة في ضبط الكلمة، فوقع من ثم هذا الاختلاف بينهم[2]. فالوظيفة إذن هي بمنزلة الخازن القيم على شؤون الصليب، يحفظه من السرقة، ويضعه في خزانة أمينة، فإذا حانت أوقات العبادة وضعه في موضعه. فالصليب ثمين، فيه ذهب في الغالب، لذلك يكون هدفاً للسراق[3].

ويلاحظ أن علماء الحديث والتأريخ والسير، ليسوا على اتفاق فيما بينهم في تدوين نص كتاب الصلح الذي أعطاه الرسول لأهل نجران، إذ تراهم يختلفون

---

1) تاج (6/ 269)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأوّل (ص 193) اللسان (9/ 306)، «صادر».

2) تاج (6/ 373)، (9/ 421)، المخصص (600/13)، اللسان (13/ 561) «صادر».

3) النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 194).

في ضبط نصه: وفي جملة ما اختلفوا فيه جملة: «ولا واقه من وقاهيته»، فقد كتبوها بصور شتى كما رأيت، كما كتبوا النص بأشكال متباينة، مما يدل على أن الرواة قد اعتمدوا على نسخ متعددة للكتاب، وعلى أن أهل نجران كانوا قد نسخوا منه نسخاً، تحرفت نصوصها بالاستنساخ، لعدم تمكن الناسخ من ضبط العبارات ضبطاً صحيحاً. فلمّا دوَّن العلماء صورة النص تباينوا في تدوينه، وأوجدوا لهم تفاسير للفظة (واقف) و(وافه) و(واقه)، وهي لفظة واحدة في الأصل، قرأها النساخ ثلاث قراءات، فظهرت وكأنها ألفاظ مختلفة. وحاروا في تعليل المعنى، فقال بعضهم الوافه: قيم البيعة بلغة أهل الجزيرة، وقال بعض آخر بلغة أهل الحيرة، وقال بعض: كلها في معنى واحد[1].

وهناك مصطلحات دينية أخرى استعملها النصارى للدلالة على درجات رجال دينهم، مثل (بابا)، وهي كلمة (رومية) وهو أعلى مرجع في نظر النصارى (الكاثوليك)[2]، و(الجاثليق)، وهو رئيس أساقفة بلد ما، والأعلى مقاماً بينهم، وقد أطلقت اللفظة على رئيس نصارى بغداد في العهد العباسي[3] وهي من أصل يوناني هو (كاثوليكوس)، Katholikos ومعناه عام[4].

والساعي من الألفاظ التي تتناول المنازل والدرجات عند النصارى، وتشمل اليهود أيضاً. ويقصد بها الرئيس المتولي لشؤون اليهود أو النصارى، فلا يصدرون رأياً إلاّ بعد استشارته، ولا يقضون أمراً دونه. وقد ورد في حديث حذيفة في الأمانة: «إنْ كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه على ساعيه»[5].

ولفظة (بابا) وما بعدها، هي من الألفاظ التي شاع استعمالها في العربية في الإسلام، وليس لدينا ما يفيد استعمالها بين الجاهليين.

---

1) اللسان (17/ 459)، تاج العروس (9/ 421)، النهاية (4/ 240).

2) صبح الأعشى (5/ 472)، تأريخ ابن خلدون (ج 2 القسم الأول، ص 297)، مقدمة ابن خلدون (ص 234)، غرائب اللغة (ص 277).

3) تاج العروس (6/ 305)، صبح الأعشى (5/ 472)، محيط المحيط (1/ 214)، البستان (1/ 309).

4) غرائب اللغة (ص 256).

5) تاج العروس (10/ 178) «سعى»، اللسان (14/ 387)، محيط المحيط (1/ 960)، النصرانية (192).

وذكر علماء اللغة أن من الألفاظ المعروفة بين النصارى لفظة (العسطوس)، ويراد بها القائم بأمور الدين، وهو رئيس النصارى[1].

أما (الراهب)، فهو المتبتل المنقطع إلى العبادة. وعمله هو الرهبانية. وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الرهبانية غلوّ في تحمّل التعبد من فرط الرهبنة[2]. وقد ذُكرت الرهبانية في القرآن الكريم[3]، وذكرت في الحديث. وقد نهى عنها الإسلام: «لا رهبانية في الإسلام». وقد ندد القرآن الكريم في كثير من الأحبار والرهبان، فورد: (إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)[4]. ويظهر من ذلك أن جماعة منهم كانت تتصرف بأموال الناس التي تقدم إلى الأديرة والبيع، فيعيشون منها عيشة مترفة، لا تتفق مع ما ينادون به من التقشف والزهد والعبادة. كما أن منهم من عاش عيشة رفيهة وبطر، فتكبر عن الناس وترفّع، حتى جعلوا أتباعهم يحيطونهم بهالة من التقديس والتعظيم، إلى درجة صيرتهم أرباباً على هذه الأرض. فتقربوا اليهم وقدّسوهم قدسية لا تليق إلاّ للخالق. (اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ)[5]. ذلك إنهم كانوا يحلّون لهم ما حرم اللّه فيستحلونه ويحرّمون ما أحلّ الله لهم فيحرمونه. «أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه واذا حرموا عليهم شيئاً أحله الله لهم حرموه، فتلك كانت ربوبيتهم»[6]. وكانوا يطيعونهم طاعة عمياء، ويأخذون عنهم، ويقدسونهم، ويقبّلون أيديهم ولا يعصون أمراً لهم. وذكر أنّ (عدي بن حاتم) الطائي، قال

---

1) تاج العروس (4/ 192)، اللسان (6/ 141)، محيط المحيط (1/ 1396).

2) المفردات للأصفهاني، (ص 203)، اللسان، (جـ 1/ 437)، «صادر» القاموس (1/ 76)، تاج العروس (1/ 281)، الصحاح، للجوهري (1/ 140).

3) المائدة، الآية 82، التوبة، الآية 31، 34، سورة الحديد، الرقم 57، الآية 27، مجمع البيان (7/ 158)، تفسير الفخر الرازي (12/ 66 وما بعدها)، روح المعاني (6/ 8 وما بعدها)، النهاية لابن الأثير (2/ 120).

4) التوبة، الرقم 9، الآية 34، مجمع البيان (10/ 48)، تفسير الطبري (7/ 8 وما بعدها)، تفسير الخازن (7/ 233 وما بعدها)، تفسير أبي السعود (4/ 141 وما بعدها)، المقريزي، السلوك من معرفة سير الملوك (1/ 182)، (دار الكتب المصرية 1936)، السيوطي، الدر المنثور (10/ 75).

5) التوبة، الرقم 9، الآية 31، جامع البيان (10/ 80)، الكشاف (2/ 31)، روح المعاني (10/ 75)، تفسير الخازن (2/ 216).

6) تفسير الطبري (10/ 80 وما بعدها)، تفسير أبي السعود (5/ 142)، تفسير الطبرسي (5/ 22).

لرسول الله لما سمعه يقرأ: (اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ)، «يا رسول الله! إنّا لسنا نعبدهم. فقال: أليسو يحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويحلوّن ما حرّم الله، فتحلونه! قال: قلت بلى. قال فتلك عبادتهم»[1].

ويظهر من روايات أهل الأخبار، أن من الرهبان من بالغ في الترهب وفي الزهد، فخصى نفسه ووضع السلاسل في عنقه أو في يديه أو رجليه ليحبس نفسه، وامتنع عن المأكل والأطايب، مكتفياً بقليل من الماء وبشيء من الخز الخشن، وأن منهم من امتنع عن الكلام وصام معظم أوقاته، وابتعد عن الناس متخذاً من الكهوف والجبال والمواضع النائية الخالية أماكن للتأمل والتعبد. وذلك كما يظهر من نهي الرسول عن الرهبنة والرهبانية، وحمل الإسلام عليها. لأنها تبعد الناس عما أحل الله وقد عوض الإسلام عنها بالجهاد في سبيل الله[2].

ومن عادات الرهبان وتقاليدهم التي وقف عليها أهل الجاهلية، الامتناع عن أكل اللحوم والودك، أبداً أو أمداً، وحبس النفس في الأديرة والصوامع، والكهوف، والاقتصاد على أكل الصعب من الطعام والخشن من الملبس، ولبس السواد والمسوح. وهي عادة انتقلت إلى الأحناف أيضاً وإلى الزهّاد من الجاهليين الذين نظروا نظرة زهد وتقشف إلى هذه الحياة[3]. كما كانوا لا يهتمون بشعورهم فكانوا يطلقونها ولا يعتنون بها ولذلك كانت شعورهم شعثاً. وعبّر عن الراهب بالأشعث، لأنه كان يطلق شعر رأسه ولا يحلقه ولا يعتني به[4].

---

1) تفسير الطبري (10/ 80 وما بعدها)، «بولاق».

2) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (ص 163) (2/ 120) «المطبعة الخيرية»، اللسان (1/ 437 وما بعدها)، تاج العروس (1/ 280 وما بعدها)، القاموس المحيط (1/ 76)، محيط المحيط (1/ 806)، مجمع البيان (7/ 158)، (6/ 176)، جامع البيان (27/ 238)، (10/ 114، 117)، الكشاف، للزمخشري (4/ 69)، (2/ 31)، (1/ 43)، روح المعاني (27/ 165)، (10/ 75)، (7/ 3)، الدرر المنثور (10/ 75)، صحيح مسلم (8/ 229)، «كتاب الزهد»، اللسان (1/ 437)، «صادر».

3) تفسير الطبري (7/ 8)، «الطبعة الثانية 1956م»، تفسير أبي السعود (4/ 141 وما بعدها)، تفسير الرازي (12/ 67 وما بعدها).

4) تاج العروس (1/ 638).

ومن الرهبان من ساح في الأرض، فطاف بلاد العرب وأماكن أخرى، وهام على وجهه في البوادي وبين القبائل، لا يهمه ما سيلاقيه من أخطار ومكاره، ومنهم من ابتنى له بناءً في الفيافي وفي الأماكن النائية، واحتفر الآبار وحرث البقول، وعاش عيشة جماعية، حيث يعاون بعضهم بعضاً في تمشية أمور الدير الذي يعيشون فيه[1]. ومنهم من عاش في قلل الجبال، بعيداً عن المارة والناس.

قال الشاعر:

لو عاينت رهبان دير في القلل لانحدر الرهبان يمشي وينزل[2]

وقد وقف بعض أهل الجاهلية على أخبار هؤلاء الرهبان وعرفوا بعض الشيء عنهم، وبهم تأثر بعض الحنفاء على ما يظهر فأخذوا عنهم عادة التحنث والتعبد والانزواء والانطواء في الكهوف والمغاور والأماكن النائية البعيدة للتنسك والتعبد مبتعدين بذلك عن الناس منصرفين إلى التأمل والتفهم في خلق هذا الكون دون أن يدخلوا النصرانية.

وقد نهى الرسول بعض الصحابة مثل (عثمان بن مظعون)، وهو من النصارى في الأصل من تقليد الرهبان في الإخصاء وفي الامتناع عن الزواج ومن التشدد في أمور أحلها الله للناس.[3] ويظهر أن هذا التشدد إنما جاء به وإلى أمثاله من وقوفهم على حياة الرهبان وعلى رأيهم وفلسفتهم بالنسبة لهذه الحياة. وفي حق هؤلاء نزلت الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ. وَلاَ

---

1) تفسير الطبري (27/ 124)، روح المعاني (6/ 8 وما بعدها)، تفسير الطبري (7/ 8 وما بعدها)، تفسير الخازن (7/ 233 وما بعدها)، تفسير أبي السعد (4/ 141 وما بعدها).

2) تفسير الطبري (7/ 4).

لو أبصرت رهبان دير في الجبل لانحدر الرهبان يسعى ويصل

تفسير القرطبي، الجامع (6/ 258).

3) الدرر المنثور (2/ 307)، مجمع البيان في تفسير القرآن (7/ 6 وما بعدها)، تفسير القرطبي (6/ 260 وما بعدها)، مجمع البيان (27/ 158)، (طبعة دار الفكر، بيروت)، الدرر المنثور، للسيوطي (2/ 307)، روح المعاني (7/ 3)، (27/ 165).

تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[1]. وذكر أن الرسول لما سمع بابتعاد (عثمان) من أهله، دعاه، فنهاه عن ذلك. ثم قال: «ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ألا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء، فمن رغب عن سنتي، فليس مني. فنزلت الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ). يقول لعثمان لا تجب نفسك، فإن هذا هو الاعتداء»[2].

وورد في الحديث: «لا صرورة في الإسلام»، والصرورة التبتل وترك النكاح، أي ليس ينبغي لأحد أن يقول لا أتزوج، لأن هذا ليس من أخلاق المسلمين، بل هو من فعل الرهبان. وهو معروف في كلام العرب. ومنه قول النابغة:

لو أنها عرضت لأشمط راهب   عبد الإله صرورة متعبد

يعني الراهب الذي ترك النساء[3].

وقد أشير إلى الرهبان في شعر امرئ القيس، اذ أشار فيه إلى منارة الراهب الذيّ يمسي بها يتبتل فيها إلى الله، وعنده مصباح يستنير بنوره[4]. كما أشار فيه اليه وهو في صومعته يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا[5]، دلالة على تهجده وتعبده في وقت يكون الناس فيه نياماً. كما أشير إليهم في شعر شعراء جاهليين آخرين مثل (النابغة الذبياني)، الذي أشار إلى ركوع الراهب يدعو ربه فيه ويتوسل إليه[6]. كما أشار إلى موقف الراهب من رؤية امرأة جميلة، وكيف سيرنو إليها

---

1) المائدة، الآية 87.

2) تفسير الطبري (7/ 6)، روح المعاني (7/ 7).

3) تاج العروس (3/ 331)، (صرر).

4) تضيء الظلام بالعشاء كأنها   منارة ممس راهب متبتل

النصرانية (الجزء الثاني، القسم الأول، ص 175).

5) كأنه راهب في رأس صومعة   يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا

النصرانية (ج 2، قسم 2، ص 392).

6) سيبلغ عذراً أو نجاحاً من امرئ   إلى ربه رب البرية راكع

دائرة المعارف الإسلامية «الترجمة العربية» (10/ 9)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الثاني (ص 394).

حتى وإنْ كان راهباً أشمط[1]. وقد أشار إلى (ثوبي راهب الدير) وإلى الحلف بثوبيه[2].

وورد في الشعر ما يفيد بانقطاع الرهبان في الأماكن الصعبة القصيّة مثل قلل الجبال وذراها، حيث لا يأتيهم الناس، فيعيشون في خلوة وانقطاع عن البشر[3]. ومن الأماكن التي اشتهرت بوجود الرهبان فيها أرض مدين[4]. ووادي القرى ومنازل تنوخ وصوران وزبد[5].

وقد سبّح الرهبان ورجال الدبن، اللهَ، في الكنائس وفي الأديرة بألحان عذبة جميلة، ورتلوا الزبور والأسفار المقدسة الأخرى. وقد عرف الجاهليون ذلك عنهم، وأشاروا إلى ذلك في شعرهم، وربما كان بعضهم يحضر تلك التراتيل ويستأنس بها على الرغم من وثنيته وعدم اعتقاده بالنصرانية.

ويقال للراهب الزاهد، الذي ربط نفسه عن الدنيا: الربيط. وقيل له: الحبيس. وذكر أن الربيط، هو المتقشف الحكيم[6]، وأن الحبيس هو الذي حبس نفسه في سبيل الله، فقبعوا في الأديرة وابتعدوا عن الناس. فصاروا كالحبساء[7].

---

1) تفسير القرطبي (6/ 258).

لو أنّها عرضت لأشمط راهب عبد الإله صرورة متعبد

كربا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشداً وإنْ لم يرشد

2) تاج العروس (1/ 281).

3) لو كلمت رهبان دير في القلل لانحدر الراهب يسعى فنزل

اللسان (1/ 437) «صادر»، تاج العروس (1/ 281)، المقريزي، السلوك في معرفة الملوك (1/ 182)، تفسير الطبري (27/ 158)، «البابي»، الكشاف (2/ 31)، الدرر المنثور (6/ 177)، تفسير الحازن (2/ 216)، (4/ 232).

لو أنها عرضت لأشمط راهب في رأس مشرفة الذرى متتبل

الأغاني (19/ 92) «دار الثقافة بيروت». وقد نُسب هذا الشعر إلى ربيعة بن مقروم الصيفي. وقد مرّ النصف الأول من هذا البيت من شعر نُسب إلى النابغة الذبياني في تفسير القرطبي (6/ 258).

4) قال جرير:

رهبان مدين، لو رأوك تنزلوا والعصم من سعف العقول، الغادر

اللسان (1/ 437) «صادر»، تفسير الطبري (7/ 4).

5) النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (196 وما بعدها).

6) تاج العروس (5/ 143)، القاموس المحيط (3/ 361)، المقريزي، سير (1/ 182)، البلدان (2/ 213) «صادر».

7) النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (197)، البلدان (2/ 213).

ويُقال للراهب: المقدسي. والمقدس الراهب. وصبيان النصارى يتبركون به، ويتمسحون بملابسه تبركاً[1]. كما قيل له: المتعبد، والأعابد[2] ونسب إلى (امرئ القيس) هذا البيت:

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدسي

ويُروى المقدس، وهو الراهب ينزل من صومعته إلى بيت المقدس، فيمزق الصبيان ثيابه تبركا به[3].

وأما (النهامي)، فهو صاحب الدير، أو الراهب في الدير[4].

ومن الألفاظ التي شاعت بين النصارى ووصل خبرها إلى الجاهليين، لفظة: (الأبيل)، وقد اتخذوها للدلالة على رئيس النصارى. وذكر بعض أهل الأخبار أنها تعني أيضاً (المسيح)، وقد كانوا يعظمون الأبيل فيحلفون به كما يحلفون بالله. وهي من الألفاظ المعربة عن السريانية (أبيلو Abilo)، ومعناها في السريانية الزاهد والناسك والراهب. وكانوا يتخذون عادة رؤساءهم من الرهبان المتبتلين[5]. وقد وردت لفظة (الأبيل) في الشعر الجاهلي، في شعر: الأعشى وفي شعر عدي بن زيد. وورد (أبيل الأبيلين)، وأريد بذلك المسيح[6]. وذكر أن (الأبيل)

1) اللسان (6/ 169) «صادر».

2) اللسان (3/ 272).

3) تاج العروس (6/ 390)، (شبرق).

4) تاج العروس (9/ 88)، (نهم)، المخصص (13/ 100).

5) النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (190)، غرائب اللغة (172).

6) قال ابن عبد الجن، وقيل عمرو بن عبد الحق:

أما ودماء مائرات تخالها على قنة العزى أو النسر عندما

وما قدس الرهبان في كل هيكل أبيل الأبيلين، المسيح بن مريما

لقد ذاق منا عامر يوم لعلع حساماً، إذا ما هز بالكف صمما

اللسان (11/ 6 وما بعدها)، (أبل)، (صادر).

هو صاحب الناقوس، والراهب أيضاً[1]. وأن (الأيبلي)، هو صاحب الناقوس. و(الأيبل)، العصا التي يدق بها الناقوس[2]. قال الأعشى:

وما أيبلي على هيكل	بناه وصلب فيه وصارا
يراوح من صلوات المليك	طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

يعني بالجؤار الصياح. إما بالدعاء وإما بالقراءة[3].

والساعور من أسماء المسيح وهو من أصل (سوعورو) So'ouro، بمعنى زائر. وتطلق اللفظة على من يزور القرى ويطلع على أحوالها وذلك بأمر من الأسقف[4]. وذكر علماء اللغة أنّ اللفظة من الألفاظ المعربة عن السريانية، وأنّ الأصل (ساعورا)، ومعناه متفقد المرضى، وتطلق اللفظة على مقدم النصارى في معرفة علم الطب[5].

ويقال لخادم البيعة: الجلاذي[6]. وذكر أن (الجلذي) الراهب والصانع والخادم في الكنيسة. قال ابن مقبل:

صوت النواقيس فيه ما يفرطه	أيدي الجلاذيّ جون ما يغضينا[7]

و(الكنيس) و(الكنيسة) موضع عبادة اليهود والنصارى، فهما في مقابل (المسجد والجامع) عند المسلمين. والكلمة من الألفاظ المعربة عن الآرامية، وتعني لفظة، «Knouchto» (كنشتو) (كنشت) في السريانية، اجتماع، ومجمع

---

1) اللسان (11/ 6 وما بعدها)، تاج العروس (7/ 199)، الأب مرمرجي، معجميات عربية سامية (131 وما بعدها)، شعراء النصرانية، لشيخو (453)، المخصص (13/ 100).
2) ديوان الأعشى (53)، «المطبعة النموذجية، 1950».
3) تفسير الطبري (14/ 82).
4) غرائب اللغة (187).
5) تاج العروس (3/ 468) «الخيرية»، النصرانية، القسم الأول (194)، القاموس (2/ 48).
6) اللسان (5/ 14) «المطبعة الأميرية»، (3/ 482) «صادر»، تاج العروس (2/ 557).
7) تاج العروس (2/ 557)، (ما يعفينا)، اللسان (3/ 482)، (صادر).

وأطلقت بصورة خاصة على كنيس اليهود[1]. ولهذا نجد العرب يطلقونها على معبد اليهود كذلك. ويُقال في العبرانية للكنيس (كنيستا)، بمعنى محل الصلاة. ونجد الكتب العربية تفرق بين موضع عبادة اليهود وموضع عبادة النصارى، فتطلق (الكنيس) على موضع عبادة اليهود و(الكنيسة) على موضع عبادة النصارى. وقد ذهب بعض علماء اللغة، إلى أن الكنيسة، هي متعبد اليهود، وأما (البيعة)، فهي متعبد النصارى[2]. وقد عرف علماء اللغة العرب، أنّها من الألفاظ المعربة فقالوا: وهي معربة، أصلها كنست[3].

وقد زوّق النصارى كنائسهم، وجملوها، وزينّوها بالصور وبالتماثيل ووضعوا الصلبان على أبوابها وفي داخلها. ووضعوا بها المصابيح لإنارتها في الليل وكانوا يسرجون فيها السرج، وجعلوا بها النواقيس، لتقرع، فترشد المؤمن بأوقات الصلوات، ولتشير إليهم بوجود مناسبات دينية، كوفاة، أو ميلاد مولود، أو عرس وأمثال ذلك. ومن الكنائس التي اكتسبت حرمة كبيرة عند النصارى العرب: كنيسة القيامة، وكنيسة نجران، وكنيسة الرصافة. وقد أشير في شعر للنابغة إلى (صليب على الزوراء منصوب)، أي على كنيسة.

والتمثال الشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق اللّه، أي من إنسان أو حيوان أو جماد[4]. وأدخل العلماء الصور في التماثيل. وقد كانت الكنائس مزينةً بالتماثيل والصور، تمثل حوادث الكتاب المقدس وحياة المسيح. ونظراً إلى محاربة الإسلام للأصنام، وإلى كل ما يعيد إلى ذاكرة الإنسان عبادة الأصنام والصور، والنهي عنها في الإسلام. جاء في الحديث: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصورون»[5].

1) غرائب اللغة (ص 204)، النصرانية وآدابها، شيخو (2/ 201 وما بعدها)، «الطبعة الثانية، بيروت 1933».
2) تاج العروس (4/ 235).
3) اللسان (6/ 199)، تاج العروس (4/ 235).
4) تاج العروس (8/ 111)، (مثل).
5) تفسير الطبري (22/ 49)، تفسير القرطبي (4/ 273 وما بعدها).

وقد كان الروم يمدون الكنائس والمبشرين بالمال وبالفعلة وبالمساعدات المادية لبناء الكنائس والأديرة. والكنائس والأديرة وإن كانت بيوت تقوى وعبادة، كانت بيوت سياسة ودعوة وتوجبه. ونشر النصرانية مهما كان مذهبها ولونها مفيد للروم، فالنصراني مهما كان مذهبه لا بدّ أن يميل إلى إخوانه في العقيدة والدين، ففي انتشار النصرانية فائدة من هذه الناحية كبيرة للبيزنطيين.

وفي العربية لفظة أخرى للكنيسة، إلاّ أنها لفظة خصصت بكنيسة معينة، والكنيسة التي بناها أبرهة بمدينة صنعاء، واللفظة هي: (القُلّيس). وللأخباريين آراء في معناها وفي أصلها، بنيت على طريقتهم الخاصة في إيجاد التفاسير للكلمات القديمة من عربية ومن معربة، التي لا يعرفون من أمرها شيئاً. وهي لذلك لا تفيدنا شيئاً. والكلمة أعجمية الأصل، عربت، وشاع استعمالها، حتى ظن أنها اسم تلك الكنيسة. أخذت هذه اللفظة من أصل يوناني هو (أكليسيا) «Ekklesia»، ومعناه في اليونانية المجمع، أي الكنيسة. والظاهر أن أهل صنعاء سمعوا اللفظة من الحبش حينما كانوا يذهبون إلى الكنيسة، فصيروها اسم علم على هذه الكنيسة ولم يدروا أنها تعني الكنيسة، أي موضع عبادة[1].

والصوامع والبيع هما من الألفاظ الي استعملها الجاهليون للدلالة على مواضع العبادة عند النصارى. وقد ذهب العلماء إلى أن البيعة من الألفاظ المعربة[2] أخذت من السريانية. وأصل اللفظة في السريانية، هو (بعتو) بمعنى بيعة، وقبة، لأنها كانت قبة في كثير من الكنائس القديمة[3]. وقد استعملت في الحبشية كذلك ولذلك ذهب بعضهم إلى أنها من الحبشية[4]. وقال علماء اللغة العرب: الصومعة كل بناء متصمع الرأس، أي متلاصقه، والأصمع اللاصقة أذنه

---

1) (القُلّيس)، (القليسة)، اللسان (4/ 180)، (قلس)، Ency., II, p. 144, Raccolta, III, p. 127.

2) المعرب (81).

3) معحميات (ص 109 وما بعدها)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الحزء الثاني، القسم الأول (ص 213)، غرائب اللغة (175).

4) النصرانية (الثاني)، القسم الأول (213)، «طبعة ثانية».

برأسه[1]. وقد أشير إلى (البيع) في القرآن: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾[2]. وقد ذهب بعض علماء اللغة، إلى أن البيعة متعبد اليهود[3]. ولكن أغلبهم على أنها متعبد النصارى.

وقد وردت لفظة (بيعة). في نص (أبرهة) الشهير الذي دوّنه على سد مأرب. ففي هذا النص جملة: (وقدس بعَين)، أي (وقدس البيعة)[4].

وذكر أن لفظة (البيعة) قد وردت في شعر ينسب إلى ورقة بن نوفل، حيث زعم أنه قال:

أقول إذا صليت في كل بيعة   تباركت قد أكثرتَ باسمك داعياً[5]

كما ذكر أنها وردت في كلام أناس من الجاهليين والمخضرمين[6].

وقد أشير إلى ورودها في الشعر الجاهلي وفي بعض الأخبار المنسوبة إلى الجاهليين. وردت في شعر منسوب إلى (عبد المسيح بن بقيلة)، وهو كما يظهر من اسمه من النصارى[7]. ووردت في بيت منسوب إلى لقيط بن معبد[8]، وفي شعر ينسب ينسب إلى الزبرقان بن بدر التميمي[9]. ولا بد أن تكون هذه الكلمة من الكلمات

---

1) المفردات (288)، اللسان (8/ 208)، تاج العروس (7/ 411).

2) الحج، الآية 40.

3) تفسير الطبري (15/ 175) «البابي»، اللسان (8/ 26) «صادر».

4) راجع النص في مجلة المجمع العلمي العراقي (4/ 215).

5) الأغاني (3/ 16).

6) ابن هشام (935) «طبعة ليدن»، تاج العروس (5/ 285)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 201 وما بعدها).

7) كم تحرجت بدير الحرجة   غصصا كبدي بها منصدعة
من بدور فوق أغصان على   كثب رزن احتساباً بيعه
البلدان (4/ 120) «دير الجرعة»، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الثاني (202 وما بعدها).

8) تامت فؤادي بذات الخال خرعة   مرت تريد بدات العذبة البيعا
تاج العروس (5/ 285)، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الثاني (202).

9) نحن الكرام، فلاحي يعادلنا   منا الكرام، وفينا تنصب البيع
ابن هشام (1/ 935)، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الثاني (201).

المألوفة عند الجاهليين المتنصرين، وعند غيرهم ممن كانوا على الوثنية، غير أنهم كانوا على اتصال بالنصارى، ذلك لأنها من الألفاظ الشائعة المعروفة عند النصارى وقد كانت البيع منتشرة في المدن وفي القرى والبوادي، وطالما قصدها الأعراب للاحتماء بها من الحر والبرد وللاستعانة برجالها لتزويدهم بما عندهم من ماء أو زاد أو للتنزه بها واحتساء الشراب.

والصومعة من أصل حبشي هو (صومعت) على رأي بعض المستشرقين وقد خصصت بـ (قلاية) الراهب[1]. أي مسكن الرهبان. وبهذا المعنى وردت في القرآن. ويقول علماء اللغة، أنها على وزن فوعلة، سُميت صومعة، لأنها دقيقة الرأس. وهي صومعة النصارى[2]. وذكر بعض منهم أن الصومعة كل بناء متصمع الرأس، أي متلاصقة[3]. وقد سميت صومعة لتلطيف أعلاها[4]. ويدل ورود هذه اللفظة بصورة بصورة الجمع في القرآن الكريم، على وقوف الجاهليين على الصوامع ووجودها بينهم[5]. وقد كان الرهبان قد ابتنوا الصوامع وأقاموا بها للعبادة بعيدين في مختلف أنحاء جزيرة العرب، ومنها الحجاز. وقد وقف الجاهليون عليها، ودخلوا فيها. أما تجارهم ممن قصد بلاد الشأم والعراق، فقد رأوا في طريقهم إلى تلك الأرضين، وفي تلك الأرضين بالذات، حيث انتشرت فيها النصرانية صوامع كثيرة. وتجد في كتب الأخبار أمثلة عديدة تشير إلى دخول تجار مكة الصوامع في بلاد الشأم وفي وادي القرى، للحصول على ملجأ أو عون.

والقلاّية، وهي كالصومعة، يتعبد فيها الرهبان، وهي من الألفاظ المعربة، عربت من أصل يوناني هو «Kelliyon» ؛ ومعناه غرفة راهب أو ناسك[6]. ومن هذا الأصل انتقلت اللفظة إلى السريانية فصارت (قلّيتا)، فانتشرت بين نصارى

---

1) معجميات (ص 109 وما بعدها)، Raccolta, III, p. 127.

2) اللسان (10/ 76)، معجميات (ص 153)، تاج العروس (7/ 411)، النصرانية، القسم الثاني، الجزء الثاني (174، 213).

3) مفردات الأصفهاني (ص 288).

4) اللسان (8/ 208) «صادر».

5) سورة الحج، الرقم 22، الآية 40، النهاية، لابن الأثير (2/ 120)، تفسير الطبري (15/ 175).

6) غرائب اللغة (ص 265)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 213).

بلاد الشأم بصورة خاصة ثم بقية النصارى، منها دخلت العربية. وقد عرف علماء العربية أنها من الألفاظ المعربة، فقالوا: هي تعريب كلاذة، وهي من بيوت عباداتهم، أي عبادات النصارى. وقد وردت في الحديث، كما ورد ذكرها في صلح عمر مع نصارى الشأم، حيث كتبوا له كتاباً: إنّا لا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا قلية[1]. والظاهر أن النصارى توسعوا في المعنى، فأطلقوها على المنازل التي يسكنها الرهبان، ثم توسعوا فيها فأطلقوها على دور المطارنة والبطارقة، وأصلها بمعنى الأكواخ[2].

ولفظة (الدير) هي من الألفاظ النصرانية الشهيرة المعروفة بين العرب. وهي أكثر اشتهاراً من الألفاظ الأخرى التي لها علاقة بمواضع العبادة أو السكن عند النصارى، وذلك لانتشارها ووجودها في مواضع كثيرة من العراق وبلاد الشأم وجزيرة العرب. ولمرور التجار وأصحاب القوافل والمارة بها، واضطرارهم إلى الاستعانة بأصحابها وباللجوء إليها في بعض الأحيان. كما كانت محلاً ممتازاً للشعراء ولأصحاب الذوق والكيف، حيث كانوا يجدون فيها لذة ومتعة تسر العين والقلب، من خضرة ومن ماء بارد عذب ومن خمر يبعث فيهم الطرب والخيال، ولذلك أكثر الشعراء في الجاهلية والإسلام من ذكر الأديرة في شعرهم. حتى الشعراء النصارى مثل (عدي بن زيد العبادي)، يترنّم في شعره بذكر الدير، لأنه نادم فيه (بني علقما)، وعاطاهم الخمر ممزوجة بماء السماء[3].

ولفظة (الدير) هي مثل أكثر الألفاظ النصرانية من الألفاظ المعربة. عربت من أصل سرياني، هو (دير Dayr)، بمعنى دار، أي بيت الراهب[4]. ومسكنه،

---

1) النهاية (3/ 309)، البكري، معجم (2/ 583)، اللسان (20/ 63)، تاج العروس (8/ 86)، (قلل).

2) معجميات (ص 180 وما بعدها).

3) نادمت في الدير بني علقما   عاطيتهم مشمولة عندما
كان ريح المسك من كأسها   إذا مزجناها بماء السماء
البلدان (2/ 639، 680)، (2/ 449) «ميروت»، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 212)، المخصص (13/ 100 وما بعدها).

4) غرائب اللغة (ص 182).

ولا سيما المحصن، ثم خصوا بها مسكن الرهبان[1]. وقد عرف علماء العربية أن الدير هو مسكن النصارى، يتعبد فيه الرهبان ويسكنون به، وقد ذكر (ياقوت الحموي) أن الدير بيت يتعبد فيه الرهبان، ولا يكاد يكون في المصر الأعظم، وإنما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال، فإن كان في المصر الأعظم فإنه كنيسة أو بيعة[2] غير أن الأديرة تكون في كل مكان، تكون في القرى وتكون في المدن كما تكون في البوادي وفي رؤوس الجبال[3].

و(الديراني)، صاحب الدير، وقد ذكر بعض العلماء أن الديراني صاحب الدير الذي يسكنه ويعمره. نسب على غير قياس. ويُقال للرجل إذا رأس أصحابه هو رأس الدير[4].

ولا تقتصر الأديرة على الرجال، فللراهبات أديرة أيضاً. ويقضي أصحاب الأديرة وقتهم في الزهد والتقشف والعبادة. والقيام بالأعمال اليدوية التي يوكلها رئيس الدير اليهم[5]. وقد عرف الراهب المعتكف بالدير بـ (الديراني) و(الديرانية)، هي الراهبة[6]. وقد عرفت أديرة الراهبات بـ (أديرة العذارى) كذلك.

واذ كان لهذه الأديرة حرمة في نفوسهم، فقد كانوا يعقدون فيها عقودهم ويحلفون بها على نحو ما كان يفعله الوثنيون في معابدهم حيث كانوا يقسمون الإيمان ويتعاقدون أمام الأوثان، فكان للنصارى في الحرة دير السوا، وفي هذا الدير كانوا يتناصفون ويحلفون بعضهم لبعض على الحقوق[7].

---

1) النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 212).

2) معجم البلدان (2/ 639)، (6/ 639).

3) اللسان (5/ 287)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 212).

4) اللسان (5/ 387)، تاج العروس (3/ 231).

5) البلدان (2/ 639)، (4/ 451).

6) النصرانية، القسم الثاني، الحزء الثاني، القسم الأول (ص 212)، الشعر، لابن قتيبة (229).

7) البلاذري، فتوح (292).

وفي الآرامية لفظة هي (عمرو) Oumro، وقد صارت (العمر) في العربية. ويراد بها البيعة والكنيسة والدير ودار[1]. وقد وردت في شعر (المتلمس)، حيث جاء:

ألك السديرُ وبارق ومبايض ولك الخورنق

والعمر ذو الأحساء واللذات من صاع وديسق[2]

وعرفت العربية لفظة (الكرح)، و(الأكيراح)، وقد عرفها علماء العربية بقولهم: «الأكيراح: بيوت ومواضع تخرج إليها النصارى في بعض أعيادهم»[3]. واللفظة من أصل سرياني هو (كرحو) «Kourho»، بمعنى كوخ، ومسكن حبيس، وبيت ناسك وراهب[4]. وذكر ياقوت الحموي: إن «الأكيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلالي لهم»[5]. هناك دير اسمه (الأكيراح)، ورد في شعر لأبي نؤاس، ويقع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياحين، وبالقرب منه ديران، يُقال لأحدهما دير عبد، وللآخر دير هند[6].

والمحراب من الألفاظ التي استعملها النصارى في أمور دينهم كذلك، إذ أطلقوها على صدر كنائسهم. وقد استعملت في الإسلام أيضاً، حيث يشير إلى القبلة، ويؤم الإمام فيه المصلّين. وقد ذكر بعض علماء اللغة، أن محاريب بني إسرائيل مساجدهم التي كانوا يصلون فيها[7]. وقد وردت لفظة المحراب في أشعار بعض الجاهليين[8]. كما وردت في القرآن الكريم[9]، وفي الشعر الجاهلي[10].

---

1) غرائب اللغة (ص 196).

2) البكري، معجم (696)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 213)، تاج العروس (3/ 320).

6) يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاح

اللسان (3/ 405)، البكري، معجم (4/ 575)، المخصص (13/ 102).

4) غرائب اللغة (ص 203)، النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 212، 214).

5) البلدان (1/ 345).

6) البلدان (1/ 345).

7) النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (174).

8) اللسان (1/ 305)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (174)، اللسان (7/ 17).

9) آل عمران، الآية 37، 39، مريم، الآية 11، ص، الآية 21.

10) النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول(174).

وذكر علماء التفسير أن المحراب كل موضع مرتفع. وقيل الذي يصلي فيه: محراب، وذكروا أن المحاريب دون القصور، وأشرف بيوت الدار. قال عدي بن زيد العبادي:

كدمى العاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مستنير[1]

وذكر علماء العربية لفظة (التامور) (التأمور)، في جملة الألفاظ المتعلقة بالرهبان والرهبنة. وقد عرفها بعضهم بأنها صومعة الراهب وناموسه[2].

وذكر أن (القوس)، بمعنى الدير والصومعة أو موضع الراهب[3]. أو معبد الراهب. وذكر أن أصل الكلمة من الفارسية[4].

وذكر أن (الغربال)، هو مكان أيضاً من أمكنة الرهبان، وأنه كهيئة الصومعة في هندسة بنائه وارتفاعه. وأنه كل بناء مرتفع. ويظهر أنها من الألفاظ المعربة[5].

والاسطوانة، وهي السارية من الألفاظ النصرانية التي وقف عليها الجاهليون. وقد اتخذها العرب بمعنى العمود الذي كان يتعبد فوقه بعض الرهبان المعروفين بالعموديين Stylites. قد اشير إلى (اسطوان) في شعر نسبوه إلى (ذي الجدن). وفسرت لفظة (الاسطوان)، و(الاسطوانة)، بأنها موضع الراهب المرتفع[6].

و(المنهمة) مسكن النّهام، والنهامي، هو الراهب. وأما المنهمة فموضع الراهب[7].

---

1) تفسير الطبري (22/ 48)، تفسير القرطبي (14/ 271).

2) النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول (ص 212)، تاج العروس (3/ 20)، (مر).

3) اللسان (8/ 69)، معجم البلدان (4/ 200).

4) النصرانية وآدابها، القسم الثاني، الجزء الثاني، القسم الأول، (ص 214).

5) تاج العروس (7/ 416)، البلدان (3/ 525)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (213).

6) النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (211)، البلدان (1/ 345)، المخصص (13/ 100 وما بعدها).

7) النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (214).

ووردت في شعر للأعشى لفظة (الهيكل). إذ قال:

وما أيبلى على هيكل ... بناه وصلّب فيه وصارا[1]

ويذكر علماء اللغة، أن الهيكل: بيت النصارى فيه صورة مريم وعيسى، وربما سُميّ به ديرهم. وأن الهيكل: العظيم واستعمل للبناء العظيم، ولكل كبير، ومنه سمي بيت النصارى الهيكل[2]. واللفظة من الألفاظ المعربة، وهي ترد في العبرانية (هيكل) وفي الآرامية (هيكلو). وتعني في اللغتيْن المعبد الكبير ومعبد الوثنيين[3].

وقد كان الرهبان وبقية رجال الدين وكذلك الأديرة والكنائس يستعملون المصابيح. والقناديل للاستضاءة بهما. ويعبر عن المصباح بالسراج كذلك[4]. وقد تركت مصابيحهم وقناديلهم أثراً ملحوظاً في مخيلة الشعراء فأشير إليها في شعر (مزرد بن ضرار الذبياني) حيث قيل إنه قال:

كأن شعاع الشمس في حجراتها ... مصابيح رهبان زهتها القنادل[5]

وذكر علماء اللغة أن الزيت الذي له دخان صالح ويوقد في الكنائس، هو (السليط)[6].

1) اللسان (6/ 144)، الأضداد (24)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (203).

2) المخصص (13/ 100 وما بعدها)، اللسان (14/ 225)، العقد الثمين (18)، النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (202).

3) النصرانية، الجزء الثاني، القسم الأول (202)، غرائب اللغة (209).

4) المفردات، للأصفهاني (ص 674).

5) المفضليات (36) «طبعة السندوبي».

6) تاج العروس (5/ 158)، اللسان (7/ 320)، (سلط).

ولفظة: قنديل من الألفاظ المعربة، أصلها يوناني هو «Candela»، أي شمعة[1]. وقد دخلت إلى العربية قبل الإسلام، عن طريق الاتصال التجاري بين جزيرة العرب وبلاد الشأم.

وكان النصارى العرب يتقربون إلى رجال دينهم ويتبركون بهم ويحترمونهم حتى قيل إن الصبيان منهم كانوا إذا رأوا الراهب ينزل ليذهب إلى بيت المقدس أو غيره خرجوا له فتمسحوا به ولثموا ثيابه، حتى يمزقوا ثيابه. والى ذلك أشير كما يقول أهل الأخبار في شعر امرئ القيس:

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس[2]

ولبس رجال الدين ملابس خاصة لتميزهم عن غيرهم، غلب عليها السواد. وقد اختصت لفظة (المسح) و(المسوح) بالملابس التي كان يلبسها الزهّاد والرهبان.

ومن أهم العلامات الفارقة التي ميزت معابد النصارى عن معابد اليهود والوثنيين: (الناقوس)، الذي ينصب فوق سطوح الكنائس وفي منائرها، للإعلان عن أوقات العبادات ولأداء الفروض الدينية، وهو عند الجاهليين خشبة طويلة يقرع عليها بخشبة أخرى قصيرة يطلقون عليها لفظة (الوبيلة) و(الوبيل). وهو في مقابل البوق عند يهود يثرب، أذا أرادوا الإعلان عن موعد العبادة. وقد عرف هذا البوق بين عرب يثرب بـ (القنع) أيضاً[3]، وبـ (الشبور)[4]. وقد ذكر علماء اللغة أن الشبور «شيء يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان يتقربون به». وقال

1) غرائب اللغة (279).

2) المعاني الكبير (2/ 764).

3) القنع، وورد القبع والقتع والقثع، اللسان (10/ 131).

4) عمدة القارئ (5/ 102 وما بعدها)، اللسان (8/ 126).

بعضهم: هو القربان بعينه، وذكروا أن الشبور شيء ينفخ فيه، فهو البوق عند اليهود، وهو معرّب وأصله عبراني[1].

وقد وردت كلمة (الناقوس) في الشعر الجاهلي: وردت في بيت للشاعر المتلمس[2]، وفي شعر للمرقش الأكبر[3]، وللأعشى[4]، وللأسود بن يعفر[5]. وقد أشير في هذه الأبيات إلى قرع النواقيس بعد الهدوء إيذاناً بدنو الفجر وحلول وقت الصلاة. وقد كانت هذه النواقيس في القرى وفي الأديرة، يقرعها الرهبان والراهبات والقسيسون[6]. وقد أدخل بعض علماء اللغة هذه الكلمة في جملة الألفاظ المعربة التي دخلت العربية من أصول أعجمية[7]. واللفظة من أصل (سرياني) هو (ناقوشا)[8].

أعياد النصارى:

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء أعياد نصرانية ترجع أصول تسميتها في الأكثر إلى لغة بني إرم، ويظهر أن أولئك الأخباريين تعرفوا عليها في الإسلام باختلاطهم وباتصالهم بالنصارى، إذ لم يشيروا إلى ورود أكثرها في الشعر الجاهلي، ومن عادتهم أنهم إذا عرفوا شيئاً كان معروفاً عند الجاهليين جاءوا ببيت أو أبيات يستشهدون بها على ورودها عند الجاهليين.

---

1) اللسان (6/ 59)، تاج العروس (3/ 289)، (شبر)، «وقد نقس بالوبيل الناقوس»، تاج العروس (4/ 262 وما بعدها).

2) حنت قلوصي بها والليل مطرق بعد الهدو وشاقتها النواقيس

ديوان المتلمس (178)، (طبعة فولرس)، (لايبزك 1903).

3) وتسمع تزقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقس

المفضليات (465)، النصرانية (207).

4) وكأس كعين الديك باكرت وحدها بفتيان صدق والنواقيس تضرب

تاج العروس (2/ 331)، (حد)، ويروى لعنترة، العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين (179)، (طبعة الوردت)، (Ahlwardt)، (باريس 1913)، النصرانية (207).

5) وقد سبأت لفتيان ذوي كرم قبل الصباح ولما تقرع النقس

اللسان (8/ 126)، (نقس)، تاج العروس (4/ 263).

6) النصرانية (207)

7) عمدة القارئ (5/ 103)، المعرب (239).

8 Shorter Ency., p. 437.

ومن الأعياد التي ورد فيها شاهد في الشعر الجاهلي، (السباسب)، وهو (يوم السعانين) و(الشعانين). وقد وردت كلمة السباسب في بيت للنابغة قاله في عيد السعانين عند بني غسّان، هو:

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب[1]

و(السعانين) و(الشعانين) من أصل عبراني (هوشعنا). وقد وردت هذه الكلمة في صحيفة صلح (عمر) مع نصارى الشأم، وردت معها لفظة أخرى من الألفاظ النصرانية كذلك هي (الباعوث)[2]، وهي رتبة تقام في اليوم الثاني من عيدَ الفصح[3]، وصلاة لثاني عيد الفصح في بعض الطوائف[4]. وقد ذكرها علماء علماء اللغة في جملة الألفاظ المعربة، والآرمية الأصل، وجعلها بعضهم (الباعوث). وذكروا أنها (استسقاء النصارى)، وأن (عمر) لما صالح نصارى الشأم، كتبوا له أن لا نحدث كنيسة ولا قلية ولا نخرج سعانين ولا باعوثاً[5].

و (خميس الفصح) من أعياد النصارى كذلك. وهو بعد السعانين بثلاثة أيام، وكانوا يتقربون فيه بالذهاب إلى الكنائس والبيع[6].

وقد أشير إلى عيد (الفصح) في بيت للأعشى يمدح فيه (هوذة بن علي) لتوسطه لدى الفرس بالإفراج عن مئة أسير من أسرى بني تميم همّ الفرس بقتلهم، وذلك لمناسبة يوم الفصح. وقد كان نصارى الجاهلية يحتفلون به،

---

1) «والسباسب أيام السعانين. وفي الحديث أن الله تعالى أبدلكم بيوم السباسب يوم العيد. يوم السباسب عيد للنصارى، ويُسمونه يوم السعانين»، تاج العروس (1/ 293)، النصرانية (215)، غرائب اللغة (212)، عن «أحد الشعانين»، راجع المشرق: السنة الثامنة، الجزء 8، السنة 1905م، (ص 327 وما بعدها).

2) «أن لا يحدثوا كنيسة ولا قلية، لا يخرجوا سعانين ولا باعوثا»، «ويوم السعانين عيد للنصارى. وفي حديث: شرط النصارى النصارى ولا يخرجوا سعانين. قال ابن الأثير: هو عيد لهم معروف. قبل عيدهم الكبير بأسبوع. وهو سرياني معرب. وقيل هو جمع واحده سعنون»، اللسان (17/ 71)، (سعن)، (13/ 209)، (صادر).

3) النصرانية (217).

4) غرائب اللغة (173).

5) اللسان (13/ 209)، تاج العروس (1/ 903)، (بعث)، اللسان (2/ 118)، (بعث).

6) الأغاني (3/ 32)، النصرانية (216).

فيوقدون المشاعل، ويعمرون القناديل، ويضيئون الكنائس بالمسارج ويقصدونها للإحتفال بها، حتى قيل للقنديل الذي يعمر لهذا اليوم (قنديل الفصح)[1].

وقيل لاجتماع النصارى واحتفالهم (الهنزمن)، وذكر أن هذه اللفظة من أصل فارسي هو (هنجمن) أو (أنجمن)، ومنها دخلت إلى السريانية فأطلقت على اجتماع النصارى واحتفالهم وتعييدهم[2].

وقد أشار امرؤ القيس في بعض شعره إلى عيد النصارى، ولبس الرهبان فيه ملابس طويلة ذات أذيال[3].

وكانت الكنائس والأديرة والأضرحة والمقابر الأماكن التي يقصدها النصارى في أعيادهم. فتكون موضع تجمع ولقاء. كانوا يقصدونها للتقرب إلى الرب وللصلوات له. وللتوسل اليه بأن يمن عليهم ويبارك فيهم. وكانوا يقصدون المقابر إظهاراً لشعورهم بأن موتاهم وإنْ فارقوهم وابتعدوا عنهم، غير أنهم لا زالوا في قلوبهم. وأيام الأعياد من أعزّ الأيام على الإنسان، لذلك فهي أجدر الأيام بأن تخصص لزيارة بيوت الأرباب وبيوت الموتى: القبور.

---

1) قال عدي بن زيد العبادي:

بكروا علي بسحرة فصحبتهم ... بأناة ذي كرم كعقب الحالب

بزجاجة ملء اليدين كأنها ... قنديل فصح في كنيسة راهب

الأغاني (9/ 53)، اللسان (3/ 378)، النصرانية (216). وورد في شعر لأوس بن حجر:

عليه كمصباح العزيز يشبه ... لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

شعراء النصرانية (494)، النصرانية (216).

2) قال الأعشى:

إذا كان هنزمن ... ورحت مخشما

اللسان (17/ 329)، تاج العروس (9/ 368)، النصرانية (217).

3) فآنست سربا من بعيد كأنه ... رواهب عيد في ملاء مهذب

النصرانية (173).

أثر النصرانية في الجاهليين:

وإذا كنا قد حُرمنا من الموارد الأصلية التي يجب أن نستعين بها في معرفة أثر النصرانية عند نصارى الجاهلية والجاهليين، فإن في الشعر المنسوب إلى بعض نصارى الجاهلية مثل عدي بن زيد العبادي وإلى بعض الشعراء ممن كان لهم اتصال بالنصارى مثل الأعشى، فائدة في تكوين صورة يتوقف صفاؤها ووضوحها وقربها أو بعدها من الواقع والحق على مقدار قرب ذلك الشاعر من الصدق والصواب والواقع والافتعال.

وعدي بن زيد هو أشهر من وصل الينا خبره من شعراء النصارى الجاهليين. هو من العباديين، أي من نصارى الحيرة، ولذلك عرف بالعبادي وكان من أسرة اكتسبت نفوذاً واسعاً ونالت حظاً كبيراً عند الفرس وعند ملوك الحيرة، فكان لها أثر خطير في سياسة عرب العراق في ذلك الزمن. ولما كانت السياسة ارتفاعاً وهبوطاً، سعادة وشقاء، لاقى عدي منها الاثنين: ارتفع حتى بلغ أعلى المنازل، ثم انخفض حتى تلقاه قابض الأرواح وهو في سجنه فقضى عليه بعد أن ترك أثراً خطيراً في سياسة الحيرة وفي تقرير مصير الملك فيها. وعدي، على ما يذكر أهل الأخبار، من أهل اليمامة في الأصل: هاجر أحد أجداده من اليمامة إلى الحيرة بسبب دم اهرقه هناك، فخاف على نفسه من الثأر، ولم يجد محلاً أصلح له وآمن مقاماً من الحيرة، لوجود (أوس بن قلام) أحد رؤساء بني الحارث بن الكعب فيها وهو من أصحاب الجاه والنفوذ وبينه وبين أوس نسب من النساء، وهو نسب يضمن له الحماية والعيش بسلام، فجاء إلى الحيرة وأقام بها حيث أكرمه أوس وقربه إلى آل لخم، واكتسب منزلة عالية عند ملوك الحيرة، انتقلت من بعده إلى أبنائه الذين كوّنوا لهم صلات وثيقة مع آل لخم ومع ملوك الفرس، بما كان لهم من علم وذكاء ومن سياسة. ويذكر الأخباريون أن جدّ عدي قد تعلم الكتابة في الحيرة، فصار من أكتب الناس فيها، وأنه لذلك انتخب كاتباً لملك الحيرة، واتصل بحكم وظيفته المهمة هذه بدهاقين الفرس، وأنه لما توفي أوصى بابنه زيد والد عدي إلى واحد منهم يعرف بـ (فروخ ماهان) فأخذه هذا إلى بيته، ورباه مع

ولده. فتعلم عندهم الفارسية، وحذقها وكتب بها وبرّز، وكان قد، حذق الكتابة بالعربية كذلك، فأوصله الدهقان إلى كسرى، لعلمه هذا باللغتيْن ولذكائه، فعينه في وظيفة مهمة لم يكن الفرس يعينون لها أحداً من غيرهم هي وظيفة البريد. وقد مكث في هذه الوظيفة زماناً جعلته يكتسب منزلة محترمة عند عرب الحيرة والفرس.

وعُني زيد بتربية ولده عدياً: أرسله إلى الكتّاب ليتعلم به العربية. فلما برع فيها، أرسله إلى كتاب الفارسيه حيث تعلم مع أبناء المرازبة فنون القول والكتابة، ثم تعلم الرماية ولعب الفرس حتى صار من المبرزين فيها. وقد قربه علمه وعقله من آل لخم ومن الفرس، حتى وصل إلى مناصب عالية جعلت لقوله أهمية كبيرة حتى في تثبيت ملك ملوك الحيرة.

وقد أرسله (هرمز بن أنو شروان) في سفارة مهمة إلى القيصر (طيباريوس) فأدّاها على خير وجه. وعاد فأقام أمداً بالشأم، ووقف على ما كان فيها من علم، ومعالم. وقد زادت هذه الأسفار بالطبع في سعة أفقه وفي ثقافته. ثم عاد إلى الحيرة، فوجد والده قد توفي بعد أن صار المهيمن الحقيقي على البلاد. وزار كسرى ليقدم اليه هدايا قيصر. وارتفع نجمه في البلاطين. وتزوج هنداً بنت الملك النعمان. غير أن تقدمه هذا أوجد له خصومة شديدة من منافسيه (بني مرينا) وهم نصارى مثله ومن أهل الجاه والحسب، فأغرى خصمه ومنافسه العنيد (عدي بن مرينا) قلب النعمان عليه. وكان عدي بن زيد صاحب الفضل في حصول النعمان على التاج. وظل ابن مرينا يعمل في الخفاء للقضاء على عدي، حتى تمكن من ذلك، إذ سجنه النعمان، ثم أمر فاُغتيل وهو في السجن[1].

---

1) المشرق، الحزء الأول، كانون الأول 1944، (ص 26 وما بعدها)، شعراء النصرانية (426 وما بعدها)، راكلوتا نالينو، تأرخ الآداب العربية في الجاهلية حتى عصر بني أمية (ص 71)، (القاهرة 1954).

Ency., I, p. 137, Brockelmann, I, S. 29, Rothstein, S. 109, Nöldeke, Geschichte der Perser und Araber Zu Zeit der Sassaniden, S. 512, Islamic Culture, IV, p. 31, ff.

و ذكر أن (كسرى) جعله كاتباً على ما يجتبى من الغور، وكان هو سبب ملك النعمان بن المنذر[1].

والذي يهمنا في هذا الموضع من أمر عدي هو مدى وقوف عدي على النصرانية ومبلغ تسربها في نفسه وفي نفوس أهل الحيرة. أما النواحي الأخرى من حياته، فليس لها محل في هذا المكان. وشعر عدي وأضرابه من العبادبين هو سندنا الوحيد الذي نستخرج منه رأينا في النصرانية عند عدي وعند إخوانه العباديين.

والشعر المنسوب إلى عدي أقرب إلى نفوسنا وأسهل علينا فهماً من الشعر المنسوب إلى بقية الجاهليين، معانيه وألفاظه حضرية متحررة من الأساليب البدوية التي تميل إلى استعمال الجزل من الكلمات، وهو يخالف مذاهب أولئك الشعراء في كثير من الأمور. ولهذا «كانت الرّواة لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد لمخالفتهما مذاهب الشعراء»[2]، و«لأن ألفاظه ليست بنجدية»[3]. وقد ورد في شعره بعض المعربات مما يدل على أثر الفارسية والآرمية فيه[4]. وكثير من شعره هو في الزهد، وفي التذمر من هذه الدنيا التي لا تدوم حالها على حال، وفي تذكير الأحياء بنهاية الأموات بالرغم مما أقاموه وشيّدوه من أبنية ضخمة وقصور شاهقة. وهذا الشعر يتناسب مع ما يذكره أهل الأخبار عن حياة هذا الشاعر، وتألق نجمه وبلوغه أعلى المراتب ثم سقوطه فجأة ودخوله السجن واغتياله فيه. وفي شعره قصائد في القيان وفي الخمر تتحدث عن الحياة التي قضاها قائلها، وهي حياة لذيذة ولكنها لا تدوم بالطبع إلى الأبد، ولا بد لها أن تزول ثم تنتهي بما يوجب الأسف عليها والألم والتوجع من فنائها ومن ذهاب تلك الأيام.

---

1) نوادر المخطوطات، أسماء المغتالين (140).

2) الأغاني (15/ 93)، (مطبعة التقدم)، (ذكر أخبار أبي دؤاد الأيادي ونسبه)، نالينو (74).

3) ابن قتيبة، الشعر (115).

4) نالينو (74).

أما صميم الديانة والآراء النصرانية الخاصة، وهي ضالتنا في هذا الفصل وهدفنا الذي نقصده، فلا تجد منها في شعره الموثوق بصحته شيئاً كثيراً. ونحن لا نستطيع بالطبع أن نلوم عدياً على ذلك، فعدي كما نعلم رجل شعر وسياسة، وليس برجل دين ولا كهانة فيتعمق في شعره بإيراد تواريخ الأنبياء والأوامر والنواهي الإلهية الواردة في التوراة والإنجيل. ولم يذكر أحد من الأخباريين عنه أنه كان كاهناً أو قسيساً فنأمل منه التطرق في شعره إلى موضوعات اللاّهوت والكهنوت. فما نجده في شعره عن النصرانية هو من حاصل المناسبات والظروف، وليس من حاصل بحث متعمد قصد به البحث في الدين من أجل الدين.

ولو كان عديّ قد تعرض للنصرانية عنده وبين قومه لأفادنا ولا شك كثيراً. وما زلنا في الواقع فقراء في ناحية علمنا بمبلغ فهم أهل الحيرة وغير أهل الحيرة من نصارى العرب في الجاهلية لأحكام النصرانية وقواعدها، ومقدار رسوخها في نفوس أولئك النصارى ولا سيما الأعراب منهم. ولكن عذره كما قلت بينَ واضح، وليس لنا أن نلومه. وما جاء به عن النصرانية في شعره على كل حال مفيد، أفادنا ولا شك. فلنكن قنوعين غير طامعين، مكتفين مما أورده عدي عنها في شعره، ولننظر إلى المستقبل، فهو أملنا الوحيد، فنجده يكشف عن مصادر كتابية مطمورة، يبعثها من قبورها المغمورة بالأتربة المتراكمة، وعندئذ تكون أمام المؤرخ ثروة تغنيه، يستطيع أن يظهرها العشاق للمولعين بمعرفة أحوال الماضين.

وقد ورد في قصيدة قيل إنّه نظمها في معاتبة النعمان على حبسه بيت فيه قسم برب مكة والصليب:

سعى الأعداء لا يألون شراً … عليك ورب مكة والصليب[1]

وهذا البيت يدعو إلى التأمل والتفكير، فرجل نصراني يؤمن بعيسى وبالصليب، لا يمكن أن يقسم برب مكة. فمكة كما نعلم مجمع الأصنام والأوثان

1) شيخو، شعراء النصرانية (451).

وكعبة الوثنية في الجاهلية، فكيف يقسم بربها رجل نصراني يرى الأوثان والوثنية رجساً من عمل الشيطان وكفراً. بل لو فرضنا أنه أقسم بمكة وبرب مكة على سبيل مجاراة العرب الوثنين وتقرباً إلى الملك النعمان، فليس لدينا دليل مقنع يفيد أن وثنيي الحيرة كانوا يؤمنون برب مكة. ولم يذكر أحد من أهل الأخبار أن أصنام أولئك الوثنيين كانت بمكة، وأن أهل الحيرة كانوا يزورون مكة ويحجون إلى (رب البيت) في جملة من كان يحج إليه من العرب. ولم يرد في روايات أهل الأخبار أن الملك (النعمان) كان وثنياً مؤمناً بقدسية مكة وأنه حج إليها حتى نذهب إلى الفرض بأن عدياً، إنما أقسم بمكة، مجاراة لهذا الملك، بل الوارد فيها أنه كان على دين النصرانية، وإنه كان مؤمناً بهذا الدين، يزور الأديرة ويحضر الصلوات ورجل على هذا النحو من التدين لا يمكن بالطبع أن يحفل بقسم ببيت من بيوت الأصنام. ثم أن مصطلح (رب مكة)، هو مصطلح إسلامي، أخذ من عقيدة التوحيد في الإسلام، فقيل: (رب البيت) و(رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ)[1].

لقد اتخذ الأب (شيخو) هذا البيت دليلاً على انتشار النصرانية في مكة وعلى تنصر أحياء منها، وعلى أن النصرانية قديمة فيها، بل يكاد يفهم من قوله أن البيت هو في الأصل كنيسة بنيت بعد المسيح بعهد قليل: بناها النصارى الذين جاءوا إلى هذه المدينة وسكنوها، وأن صور الأنبياء وصورة عيسى وأمه مريم التي ذكر الأخباريون أنها كانت مرسومة على جدار الكعبة والتي أمر الرسول بطمسها ومحو معالمها هي دليل على أثر النصرانية في مكة، ولهذا كان النصارى الجاهليون يحجون إليها ويقدسونها، ولهذا السبب أقسم[2] عدي بها، وأقسم الأعشى بها كذلك حيث قال:

حلفت بثوبي راهب الدير والتي ... بناها قصيٌّ والمضاض بن جرهم

---

1) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، سورة قريش، الآية 3.

2) النصرانية (ص 118)، وفي الديوان:

فإني وثوبي راهب اللج والتي ... بناها قصي وحده وابن جرهم

ديوان الأعشى (ص 75).

وذكر أن من شعر (عدي) هذا البيت:

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت   فيكم وقابل قبر الماجد الزارا[1]

وقد اختلف العلماء في مراده بـ (ذات الودع)، فذهب بعضٌ منهم إلى أن (ذات الودع) الأوثان، أو وثن بعينه، وقيل سفينة نوح، وكان يحلف بها، وكانت العرب تقسم بها، وتقول: بذات الودع. وقيل الكعبة، لأنه كان يعلق الودع في ستورها[2].

ولم يرد في شعر عدي شيء ما يتحدث عن عقيدة التثليث، أي الإيمان بالثالوث. وكل ما ورد فيه هو الإشارة إلى عقيدة بوجود رب واحد هو (الله). وهو رب مستجيب مسبّح خلاق[3]. وهذا الرأي إسلامي كما هو معلوم، وقريب من عقيدة الحنفاء.

ووردت في بيت شعر وجهه إلى النعمان كلمة (أبيل)[4]، وأبيل اسم للمسيح، ويطلق على حبر النصارى أيضاً، ومعناها الناسك والزاهد. وهي من

---

1) تاج العروس (5/ 514)، (ودع).

2) المصدر نفسه.

3) فإني قد وكلت اليوم أمري   إلى ربٍ قريب مستحيب

...

أجل أن الله قد فضلكم   فوق من أحكأ صلبا بازار

...

واذهبي يا أميم أن يشأ اللّـ   ـه بنفسي من أزم هده الخناق

أو تكن وجهه فتلك سبيل الذ   لا تمنع الحتوف الرواقي

...

ليس شيء على المنون بباق   غير وجه المسيح الخلاق

شعراء النصرانية (452، 454)، النصرانية (162).

4) إنني ولله فاقبل حلفي   لأبيل كما صلى حار

وروي:

إنني والله فاقبل حلفتي   بأبيل كلما صلى جار

شعراء النصراينة (453)، النصرانية (194).

أصل سرياني، من فعل (ابل) بمعنى ناح وبكى على خطاياه، ولذلك قصد بها الناسك والراهب[1]. وقد دعا الأعشى ضارب الناقوس: الأبيل[2].

ونسب لعدي هذا البيت:

وأهبط الله إبليساً وأوعده نـاراً تلهب بالأسعار والشرر[3]

ولم ترد كلمة (إبليس) في شعر منسوب لشاعر جاهلي آخر، إنما وردت كلمة (شيطان) في شعر منسوب إلى أميّة بن أبي الصلت.

ونسب إلى عدي هذا البيت:

ناشدتنا بكتاب اللّه حرمتنا ولم تكن بكتاب الله تقتنع[4]

ويظهر من دراسة الشعر المنسوب لعديّ أنه كان على مذهب القائلين بالقضاء والقدر. فكل كائن خاضع لحكم القدر، يفعل به ما يشاء، ليس في إمكانه ردّ شيء مقدر كائن عليه. وقد رسخت هذه العقيدة في نفس عدي ولا شك بعد أن زجّ به في السجن، وأصبح وحيداً لا يدري ما الذي سيصنع به. وهي عقيدة يسلم بها أكثر من يقع في مثل هذه الظروف، لأنها تفرج عن النفس، وتخفف بعض التخفيف عما ينتاب المرء وهو في هذه الحالة من هموم وأحزان. والإيمان بالقدر وبأن الإنسان مسير مجبر، عقيدة لها صلة كبيرة بالظروف الاجتماعية وبالأحوال التي تحيط بالانسان، وهي ليست من الآراء الدينية الخالصة.

1) تاج العروس (7/ 199)، (ابل)، اللسان (13/ 6)، مرمرجي، معجميات عربية سامية (131 وما بعدها).

2) فإني ورب الساجدين عشية وما صك ناقوس الصلاة أبيها

النصرانية (208).

3) النصرانية (168).

4) شعراء النصرانية (472).

ونسبت لعدي أبيات فيها حكايات من العهد العتيق، مثل هذه الأبيات وهي في مبدأ الخلق:

اسمع ديثاً لكي يوماً تجاويه	عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا
أن كيف أبدى إله الخلق نعمته	فينا وعرفنا آياته الأولا
كانت رياحاً وماءً ذا عُراثيه	وظلمة لم يدع فتقاً ولا خللا
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت	وعزّل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطاً ثم قدرها	تحت السماء سواء مثل ما فعلا
وجعل الشمس مصراً لا خفاء به	بين النهار وبين الليل قد فصلا
قضى لستة أيام خلائقه	وكان آخر شيء صوّر الرجلا[1]
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له	بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا[2]

وطابع هذا النظم وأسلوبه يفصحان أنه نظم من النوع التعليمي الديني، لا أدرى أكان شاعرنا يعترف به وينسب إلى نفسه؟ أمّا أنا، فلا أرى أنه لشاعر عربي عاش قبل الإسلام.

ونجد فيِ شعر (عدي) نزعة من نزعات التصوف والتأمل، جاءت اليه من الأوضاع التي أحاطت به، من وشايات، ومن غضب الملك عليه ومن سجن، بعد أنْ كان السيد المهيمن. حتى صار الدهر عنده حالاً بعد حال. لا يدوم صفاؤه لأحد، فلا يركن أحد اليه، ولا يغتر إن وجد نفسه في أعلى عليين، فقد يسقط غداً إلى أسفل سافلين[3].

1) قضى لستة أيام خليقته وكان آخرها أن صور الرجلا
الحيوان (4/ 198)، (عبد السلام محمد هارون).

2) البدء التأريخ (1/ 150 وما بعدها)، النصرانية (254)، وتجد في النص بعض الاختلاف عن النص الذي تجد في كتاب النصرانية، وفي المراجع الأخرى.

3) العمدة (1/ 223).

وهنالك شاعر آخر اسمه (الملمس بن عبد المسيح) يدل اسم أبيه على أنه كان نصرانياً، غير أنّ هناك رواية أخرى تذكر ان اسم والده (عبد العُزى)[1]. وعبد العُزى من أسماء الوثنين كما هو معروف. ثم إننا لا نجد في شعره ما يشير إلى آراء وعقائد نصرانية يمكن أن يستنبط منها أنه كان نصرانياً. ورجل يحلف في شعره باللات والأنصاب لا يعقل أن يكون نصرانياً[2].

أما الأعشى، فهو شاعر عاش في الجاهلية، وأدرك أيام الرسول. ومدحه بقصيدة جميلة مشهورة، جعلت أبا سفيان يحرض قومه على ارضائه خوفاً من ان يسلم ومن أن ينظم شعراً آخر في مدح الرسول وفي ذم قريش، فجعل له مائة من الإبل جمعها من قومه على أن يرجع ويؤجل أمر إسلامه عاماً. فرجع إلى بلدته (منفوحة) باليمامة، وكان قد ولد بها، فمات بها بعد حين وعرف قبره بين الناس أمداً.

وكان الأعشى كما يروي أهل الأخبار جواباً في الآفاق، عرف الحيرة ونادم ملوكها، وزار النجاشي في أرضه، وتجول في أرض النبيط وأرض العجم. وتنقل في أرجاء اليمن وفي حضرموت وعمان وبلاد العراق وبلاد الشأم ومتع نظره بالآثار القديمة واتخذها عبرة للمعتبرين[3]. وقد وسعت هذه الأسفار آفاق نظره

---

1)Vollers, Die Gedichte des Mutalammis, Leipzig, 1903, S. 149.

2) اطردتني حذر الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تئل
ديوان المتلمس (171)، (طبعة فولرس)، النصرانية (404).

3) وقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فأوري شلم
أتيت النجاشي في أرضه وأرض النبيط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حمير فأي مرام له لم أرم
ومن بعد ذاك إلى حضرموت فأوفيت همي وحينا أهم
ألم ترى الحضر إلاّ أهله بنعمى، وهل خالد من نعم؟
أقام به سابور الجنود حولين يضرب فيه القدم
فما زاده ربه قوة مثل مجاورة لم يقم
ديوان العشى «طبعة رودلف كاير»، (ص 33 وما بعدها).
قد طفت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في العجم ترحالي وتسياري
ديوان الأعشى (126)،

وعرفته على شعوب متعددة وعلى آراء ومعتقدات متنوعة. ومنها هذه النصرانية التي نبحث فيها.

وقد حمله اختلاطه بالنصارى العرب على الإشارة إلى بعض طقوسهم وأحوال عباداتهم في شعره. وإلى أن يشير إلى قصص معروفة بين أهل الكتاب، واردة بينهم، فذكره في شعره. فتراه يتحدث عن حمامة نوح وعن أخبار سليمان وعن جنّ سليمان وعن المباني القديمة العادية المنسوبة إليه، كما تراه يشير إلى عادة النصارى في الطواف حول الصليب أو تمثال المسيح[1]. ثم تراه يشير إلى الصليب نصبه الراهب في الهيكل بعد أنْ زيّنه بالصور[2].

وفي الشعر المنسوب اليه إقرار بإلَه واحد كريم[3]، ونهي عن عبادة الأوثان ومن التقرب منها[4]، وفيه إن الرب يكفي الإنسان ويرعاه ويساعده في حله وفي ترحاله[5]، وإن الإنسان عبده[6]. وإن الفناء واقع على كل امرىء، وليس أحد في هذه الدنيا بخالد، ولو كان الخلود لأحد لكان لسليمان[7]. وفيه حديث عن البعث البعث والحساب يوم الدين.

---

1) قال في مدحه «قيس بن معديكرب الكندي»:

تطوف العفاة بأبوابه كطوف النصارى ببيت الوثن

ديوان الأعشى (19)، اللسان (17/ 334)، (وثن).

2) وما أيبلى على هيكل بناه وصلب فيه وصارا

ديوان الأعشى (40)، النصرانية (204)، بروكلمان، تأريخ الأدب العربي (1/ 147 وما بعدها).

3) ربي كريم لا يكدر نعمه فإذا تنوشد في المهارق أنشدا

النصرانية (162).

4) وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لا تعبد الأوثان، والله فاعبدا

النصرانية (159).

5) ولكن ربي كفى غربتي بحمد الإله فقد بلغن

ديوان الأعشى (17).

6) فأقسم بالذي أنا أعبده لتصطفقن يوماً عليك المآتم

ديوان الأعشى (58).

7) ولو كان شيء خالداً ومعمرا لكنا سليمان البرئ من الدهر

رآه إلهي فأصطفاه عبادة وملكه ما بين ثريا إلى مصر

وسخر من جن الملائكة تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجر

ديوان الأعشى (243).

ونجد في شعره معرفة بنوح وبسفينته، أشار إلى نوحٍ في مدحه إياسا حيث خاطبه بقوله:

جـزى الإلـه إياسـاً خـير نعمتـه   كما جـزى المرء نوحـاً بـدما شـابا
في فلكـه اذ تبـداها ليصنعهـا   وظـل يجمـع ألواحـاً وأبوابـا[1]

فهل أخذ الأعشى رأيه هذا عن نوح من أهل الجزيرة؟ وهل كان في ذلك قاصداً متحدثاً مخاطباً رجلاً نصرانياً يعرف الحكاية والموضوع؟ أو كان متحدثاً عن نوح حديث من يدين به ويعتقد، فهو رأيه ودينه. الواقع أن البت في ذلك أمر لا أراه ممكناً ما لم تتجمع لنا موارد تأريخية كثيرة، ليتمكن المرء من استنتاج رأي واضح في أمثال هذه الموضوعات المعقدة، التي لم تدرس مظانها المدوّنة، ولم تنتقد حتى الآن.

وقد ذهب (كاسكل) «Caskel» إلى ان (الأعشى) كان نصرانياً. وذهب الأب (شيخو) هذا المذهب أيضاً، وجوّز (بروكلمن) تنصره، لكن ذهب إلى أنه لم يكن متعمقا في النصرانية[2]. وقد استدل (كاسكل) على نصرانيته من بيتيْن في ديوانه، ومن بيت آخر ورد في قصيدة أخرى، لا يمكن في الواقع أن يكون دليلاً على نصرانية قائله[3].

وذكر أنه كان قدرياً، روى روايته (يحيى بن متى) وهو من عباد الحيرة، انه أخذ مذهبه هذا في القدر من العباديين نصارى الحيرة، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر، فلقنوه ذلك. وقد استشهدوا على قوله هذا في القدر بهذا البيت:

استأثر الله بالوفـاء وبالعـدل   وولى المـلامة الـرجلا[4]

1) شعراء النصرانية (389)، النصرانية (261).

2) تأريخ الأدب العربي لبروكلمن (1/ 147 وما بعدها).

3) انظر البيتين 12 . 13 من القصيدة رقم 34 بديوانه، والبيت 9 من القصيدة 13 بالديوان، بروكلمن، تأريخ الأدب العربي (1/ 147)، (الترجمة العربية).

4) الأغاني (8/ 79)، نالينو (17).

وقد راجعت شعر (الأعشى)، فلم أتمكن من استنباط رأي منه يدل على مقدار علمه بالنصرانية وعلى مدى تعمقه أو تعمق غيره من النصارى بدينهم. فما ذكره مما له علاقة بالنصرانية، هو شيء عام، يأتي بخاطر كل شاعر ذكي جوّاب في الآفاق، له احتكاك واتصال بالنصارى أو بغيرهم، وهو لا يصلح أن يكون دليلاً على عقيدة ودين وفهم لذلك الدين.

وفي شعر (الجعدي) كلام عن سفينة نوح، ذكر أنه قال:

يَرْفعُ، بالقار والحديد من الـ جوز، طوالاً جذوعها، عُمما[1]

والنابغة الجعدي، مخضرم، يُقال إنه كان مثل الحنفاء، أنكر الخمر والميسر، وهجر الأزلام والأوثان. وكان ممن فكر في الجاهلية، وأنكر الخمر والسكر، وهجر الأزلام واجتنب الأوثان، وذكر دين إبراهيم. وقد لقي الرسول، وأسلم وأنشده من شعره. وذكر أنه هو القائل القصيدة التي فيها:

الحمد للهِ ربي لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

على نحو شعر أمية بن أبي الصلت، وقد قيل إنها لأمية، لكن صححها حماد الراوية[2].

ونجد في شعر آخرين من غير من ذكرت ألفاظاً وكلمات كانت معروفة عند النصارى وإشارات إلى عباداتهم وعاداتهم، وردت في شعر (النابغة الذبياني) ولبيد، وامريء القيس، وأوس بن حجر وآخرين غيرهم ممن طافوا في الأرضين وارتحلوا فوقفوا على بعض أحوال النصارى فأشاروا إليها في شعرهم.

---

1) اللسان (12/ 425)، (عمم).

2) الإصابة (3/ 508)، (رقم 8641)، أمالي المرتضى (1/ 263 وما بعدها)، المرزباني (321).

ونجد في شعر (الأفوه الأودي) وهو صلاءة بن عمرو، تسجيلاً لأبناء نوح. سجلهم مع مَن سجل أسماءهم من ملوك التبابعة ممن دانت لهم الأنام، فنجده يقول:

وبما يعصها سام وحام ويافث حيثما حلت ولام[1]

ولا أدري إذا كان هذا البيت من نظم شاعر جاهلي، هو الأودي، أو من نظم شخص آخر نظمه على لسانه في الإسلام. ولكني لا أستبعد بالطبع أن يكون خبر أولاد نوح الثلاثة. وهم: سام ويافث وحام، قد عُرف عند العرب النصارى وعند من كان على احتكاك واتصال بهم.

ونجد في بيت شعر ينسب لأفنون التغلبي ذكراً لولد آدم[2]. وورود آدم في هذا البيت، إنْ صح إنه من شعر ذلك الشاعر الجاهلي، دليل على وقوف هذا الشاعر على قصة آدم وانحدار البشر من نسله. ولا يستبعد أن يكون إذن قد وقف عليها باختلاطه ببني قومه تغلب، وقد كان قسم كبير منهم قد دخلوا في النصرانية. ولا يستبعد أيضاً أن يكون بعض الوثنيين قد وقفوا أيضاً على قصة الخلق كما وردت في الديانتيْن من اختلاطهم بأهل الكتاب واتصال بهم.

وقد وردت، في بيت آخر من قصيدة يُقال إنه قالها في رثاء نفسه، لفظة (الله) في شكل يفهم منه أنه كان يدين بالتوحيد، وأن الآجال كلها بيد الله[3]، وأشار في بيت أخر إلى عاد وإرم ولقْمان وجدن[4].

---

1) النصرانية (266)، عن الأفوه الأودي راجع الأغاني (11/ 41 وما بعدها)، ابن قتيبة، الشعر (110)، ديوان الأفوه، (القاهرة 1937)، (تحقيق عبد العزيز الميمني).

2) قد كنت أسبق من جاروا على مهل من ولد آدم ما يخلعوا رسني

المفضليات (524)، النصرانية (261)، شعراء النصرانية (193).

3) لعمرك ما يدري امرء كيف يتقي إذا هو لم يجعل له الله واقيا

شعراء النصرانية (193).

4) لو أنني كنت من عادٍ ومن إرم ربيت فيهم ومن لقمان أو جدن

شعراء النصرانية (193).

وأشير في أشعار بعض الجاهلين إلى تعبد النصارى وصلواتهم سجداً وقياماً، وهؤلاء الذين أشير اليهم من الرهبان والناسكين الذين كانوا قد اعتكفوا في الصوامع وفي البيع والأديرة النائية يعبدون الله، ويدعون إلى الرب تقرباً وخشية[1]، ومنهم من ترك السجود أثراً في جباههم. وقد اطلقوا على صلواتهم هذه اسم (الصلاة). وهي من الألفاظ التي أخذها أولئك النصارى من (بني إرم). وعرفت المواضع التي كانوا يسجدون فيها بالمساجد، والمسجد هو الموضع الذي يتعبد فيه[2].

وقد كان الركوع من العادات المعروفة عند الأحناف والنصارى[3]، و«كانت العرب في الجاهلية تسمى الحنيف راكعاً إذا لم يعبد الأوثان، ويقولون: ركع إلى الله»[4]. وأما إحناء الرؤوس، فكان للتعظيم، ولذلك حنوا رؤوسهم في الكنائس ولرؤسائهم على سبيل الاحترام والتعظيم[5]. وقد كانوا يبجلون رؤوسهم وسادتهم كثيراً، ولذلك نزل الوحي بتأنيبهم وتقريعهم، إذ جعلهم هذا الاحترام في مصاف الآلهة والأرباب.

---

1) قال منظور الأسدي:

كأن مهواه على الكلكل   موقع كفي راهب يصلي

في غبش الصبح أو التجلي

الألفاظ، لابن السكيت (412)، النصرانية (177).

وقال البعيث:

على ظهر عادي كأن أرومه   رجال يتلون الصلاة قيام

تاج العروس (10/ 53)، اللسان (18/ 111)، وقال الأعشى:

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها   وإن ذبحت صلى عليها وزمزما

ببابل لم تعصر فسالت سلافة   تخالط قنديداً ومسكاً مختما

وقال مضرس الأسدي:

وسخال ساجية العيون خواذل   بجماد لينة كالنصارى السجد

النصرانية (177).

2) اللسان (5/ 187)، (سجد).

3) النصرانية (178).

4) تاج العروس (5/ 363).

5) قال النابغة الذبياني:

سيبلغ عذراً أو نجاحاً من امرئ   إلى ربه ربِّ البرية راكع

النصرانية (178).

وتلحق بالصلاة التسابيح، أي ذكر الله وتقديس اسمه، وقد كان من عادة الرهبان التسبيح بعد الصلاة، ولا سيما في الضحى والعشي[1].

وقد كان رجال الدين، ولا سيما الرهبان منهم، يقومون بالفروض الدينية فرادى وجماعة، فيرتلون المزامير والأدعية بنغمات وألحان شجية. وقد عرف ترتيل القسيسين (الهينم)، وذلك في حالة النغم بخفوت الصوت[2]. وإذا طرب القس في صوته خفياً قيل لذلك (الزمزمة)[3]. أما إذا تغنى، فيقال لذلك الشمعلة. وقد قيل للمتغنين في تلادة الزبور (المتشمعل). وورد: «شمعلة اليهود: قراءتهم، إذا اجتمعوا في فهرهم»[4]. وأما إذا أطلق صوته بالدعاء فيقال لذلك الجأر[5]. واللحون من الكلمات التي أطلقت على ترتيل أهل الكتاب لكتبهم المقدسة. فقد كانوا يقرؤون التوراة والإنجيل في المحافل باللحن. وقد أشير إلى

---

1) قال أمية بن أبي الصلت:

سبحانه ثم سبحانا يعود له　　وقبلنا سبح الجودي والجمد

وقال الأعشى:

وسبح على حين العشيات والضحى　　لا تعبد الشيطان والله فاعبدا

تاج العروس (2/ 157)، (سبح)، اللسان (3/ 210)، النصرانية (178).

2) «الهينمة: الصوت. وهو شبه قراءة غير بينة». وأنشد لرؤبة:

لم يسمع الركب بها رجع الكلم　　إلاّ وساويس هيانيم الهنم

وفي حديث إسلام عمر رضي الله عنه. قال: «ما هذه الهينمة؟ قال أبو عبيدة: الهينمة: الكلام الخفي لا يُفهم... وفي حديث الطفيل بن عمرو: هينم في المقام. أي قرأ فيه قراءة خفية. وقال الليث:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم

أيْ فأدعُ الله». اللسان (16/ 108)، تاج العروس (9/ 111).

3) «قال الجوهري: الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم. وفي حديث عمر، رضي الله عنه، كتب إلى أحد عماله في أمر المجوس: وانههم عن الزمزمة. قال: هو كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفي. وفي حديث قباث بن أشيم: والذي بعثك بالحق ما تحرك به لساني لا تزمزمت به شفتاي. الزمزمة: صوت خفي لا يكاد يُفهم»، اللسان (15/ 165).

4) تاج العروس (7/ 399)، (اشمعل).

5) «جأر يجأر جأرا وجؤارا: رفع صوته مع تضرع واستغاثة... وقال ثعلب: هو رفع الصوت إليه بالدعاء. وجأر الرجلُ إلى الله عزّ وجل إذا تضرع بالدعاء. وفي الحديث: كأني أنظر إلى موسى له جؤار إلى ربه بالتلبية. ومنه الحديث الآخر: لخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»، اللسان (5/ 181).

ذلك في بعض الأحاديث[1]. أما إذا ردد الشخص نغمات الإنجيل في حلقه، فكانوا يقولون له الترجيع، ومنه قولهم: رجع الإنجيل[2].

و(التصبيغ) من الألفاظ التي كانت تدل على معنى خاص عند النصارى، هو التعميد. وقد عرفه الجاهليون. وذكر علماء اللغة أن الصبغة الدين والملة والشريعة والفطرة والختانة. «اختتن إبراهيم، صلوات الله عليه، فهي الصبغة.

فجرت الصبغة على الختانة. وصبغ الذمي ولده في اليهودية أو النصرانية صبغة قبيحة، أدخله فيها»[3]. و«كانت النصارى تغمس أبناءها في ماء المعمودية ينصرونهم»[4]. وقد صالح عمرُ بني تغلبَ بعدما قطعوا الفرات قاصدين اللحاق بأرض الروم، على ألا يصبغوا صبياً ولا يكرهوه على دينهم، وعلى أن عليهم الصدقة مضعفة[5]. وعرفوا (المعمودية) بقولهم: «لفظ معمودية معرب معموذيت بالذال المعجمة، ومعناها الطهارة. وهو ماء أصفر للنصارى يقدس بما يتلى عليه من الإنجيل، يغمسون فيه ولدهم معتقدين أنه تطهير له كالختان لغيرهم»[6].

وقد كان نصارى الجاهلية يعمدون أولادهم، يأخذونهم أطفالاً إلى الكنائس لتعميدهم على نحو ما يفعل سائر النصارى. وقد قيل له: التغميس والتصبيغ[7].

---

1) النهاية في غريب الحديث (4/ 57)، معجميات (42 وما بعدها)، تاج العروس (9/ 330)، اللسان (7/ 263).

2) اللسان (9/ 172)، النصرانية (356).

3) تاج العروس (6/ 19)، (صبغ).

4) المصدر المذكور.

5) «قال الأزهري: وسمعت النصارى غمسهم أولادهم في الماء صبغاً، لغمسهم إياهم فيه»، اللسان (10/ 319)، فتوح البلدان (190).

6) تاج العروس (2/ 432)، (عمد).

7) السنن الكبرى (9/ 216)، «ومنه صبغ النصارى أولادهم في ماءٍ لهم. قال الفراء: إنما قيل صبغة لأن بعض النصارى كانوا إذا ولد المولود جعلوه في ماءٍ لهم كالتطهر، فيقولون هذا تطهير له كالختانة»، اللسان (10/ 320).

والصوم من الأحكام الدينية المعروفة عند اليهود والنصارى، وقد أشير إليه في شعر لأمية بن أبي الصلت وفي بيت ينسب إلى النمر بن تولب[1]. وقد عرف أهل الجاهلية أن اليهود كانوا يصومون، وقد أشير إلى صومهم في عاشوراء في أثناء الكلام على فرض الصوم على المسلمين بصيامهم شهر رمضان، ولابد أن يكون للجاهليين علم بصوم النصارى كذلك، وذلك نتيجة لاتصالهم بهم واختلاطهم معهم.

ومن المصطلحات النصرانية (الحواريون)، وقصد بها رسل المسيح. وقد وردت اللفظة في مواضع من القرآن الكريم[2]. ووردت لفظة (الحواري) في بيت ينسب إلى (ضابىء بن الحارث بن أرطاة البرجمي)[3]. وقد رجعَ بعض الباحثين أصل هذه اللفظة إلى لغة بني إرم ورجعها اللغويون إلى أصل عربي هو (حور)، وذهب آخرون إلى أنها من أصل حبشي[4].

والصليب، من أهم المصطلحات المعروفة عند النصارى، لاعتقادهم بصلب المسيح عليه، حتى صار رمزاً للنصرانية. وصاروا يعلقونه على أعناقهم تبركاً وتيمناً به، وينصبونه فوق منائر كنائسهم وقبابها، ليكون علامة على متعبّد النصارى. وقد أقسموا به. وقد عرف المسلمون تمسك النّصارى به، واتخاذهم له شعاراً، حتى كان بعضهم يرسمه على جبهته، وكانوا يلثمونه ويتمسحون به تبركاً، ويزينون صدورهم به[5].

---

1) صدت كما صد عمّا لا يحل له   ساقي نصاري قبيل الصبح صوام

النصرانية (179).

2) آل عمران، الآية 52، المائدة الآية 114 وما بعدها، الصف، الآية 14.

3) وكر كما كر الحواري يبتغي   إلى الله زلفى أن يكر فيقتلا

المشرق، المجلد 1929 (ص 575 وما بعدها)، النصرانية (189).

4) المشرق، السنة السابعة 1904 (620)، النصرانية (189)، معجميات (139).

5) قال الأخطل:

لما رأونا والصليب طالعا   خلوا لنا راذان والمزارعا

ديوان الأخطل (309). وقال حجار بن أبجر:

هددني عجل وما خلت أنني   خلاة لعجل والصليب لها بعل

الأغاني (13/ 47). وقال الأقيشر:

في فتية جعلوا الصليب إلههم   حاشاي أنني مسلم معذور

النصرانية (204).

وذكر علماء اللغة (الشبر) على أنه من المصطلحات الشائعة بين النصارى. وهو على حدّ تعريفهم له: «شيء يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان، يتقربون به، أو القربان بعينه»، وذكروا أيضاً أن (الشبر) الإنجيل والعطية والخير. ومن ذلك قول عديّ:

لم أخنه والذي أعطى الشبر[1]

ويظهر من كتب الحديث أن أهل الكتاب كانوا يخالفون المشركين في بعض عاداتهم: كالذي ورد عن عبد الله بن عباس من «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم. وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يُؤمر فيه بشيء. ثم فرق النبي صلى الله عليه وسلم رأسه»[2]. وكالذي ورد من أن أهل الكتاب كانوا يخالفون الجاهليين في كيفية التحية عند ملاقاة أحدهم الآخر، وأن الرسول أقر المصافحة.

وقد أُطلقت لفظة (المصاحف) في شعر ينسب إلى امرىء القيس على أسفار النصارى، وهو قوله: «كخطّ زبور في مصاحف رهبان»[3]. والكلمة على رأي بعض علماء الساميات والنصرانيات من أصل حبشي، ومفردها (مصحف)[4].

ونُسب إلى عبد المطلب بن هاشم قوله:

لا يغلبن صليبهم ومحالهم، عدواً، محالك

اللسان (11/ 619)، (محل).

1) تاج العروس (3/ 289)، (شبر).

2) عمدة القارئ (17/ 71).

3) أتت حجج بعدي عليه فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

العقد الثمين (161).

4) النصرانية (181).

وصحف بمعنى كتب. وقد وردت لفظة (صحيفة) في بيت ينسب إلى (لقيط الإيادي)[1].

والمجلة من الألفاظ المعروفة بين الجاهلين. وقد اشتهرت في العربية باقترانها باسم (لقمان)، فقيل: «مجلة لقمان»[2]. وأطلقت عند العبرانيين على أسفار الكتاب المقدس على سبيل التخصيص أحياناً وعلى باب التعميم في بعض الأحيان[3]. وقد وردت في شعر للنابغة، هو:

مجلتهم ذات الإله ودينهم　　　قويم فما يرجون غيرَ العواقب[4]

وقصد بها كتاب النصارى، فقد مدح به الغساسنة، وهم على دين المسيح.

وقصد بالسِفر وبالأسفار الكتاب والكتب من التوراة والإنجيل، وكلمة (سفر) بمعنى كتاب[5]قويم فما يرجون غيرَ العواقب[6].

وكانت النصارى تقرأ كتبها. من الصحف[7]، وتفسر للمستمعين ما جاء جاء فيها من مشكل.

ولفظة (جهنم) من الألفاظ المعروفة عند اليهود والنصارى. وهي تعني الموضع الذي يكون فيه العذاب بعد الحشر، فيخلد فيه أصحاب الآثام والمعصية. واللفظة من أصل عبراني على رأي المستشرقين وعلماء الساميات هو (جحينوم) (جهينوم) «Gehinnom»، أي (وادي حينوم)، «Hinnom»[8]. وهو وادٍ يدور

---

1) كتاب في الصحيفة من لقيط　　إلى من بالجزيرة من أياد
الأغاني (20/ 34)، النصرانية (181).

2) النصرانية (181).

3) معجميات (167 وما بعدها).

4) «محلتهم» في بعض الروايات، ديوان النابغة (8).

5) اللسان (6/ 35)، الاشتقاق (103)، النصرانية (18).

6) «محلتهم» في بعض الروايات، ديوان النابغة (8).

7) النهاية (4/ 136).

8) Ency., I, p. 998, Shorter Ency., p. 81.

حول القدس نحو أربعة كيلومترات، ويُعرف اليوم باسم (وادي الربابي)، وقد كان اليهود الوثنيون يقربون في موضع منه يسمى (توفيث) «Topheth»، الصبيان قرابين للإلهَ (ملوخ)، «Molech» = «Moloch»، يقدمونها ذبائح محروقة إكراماً له، ثم صار هذا الموضع محلاً ترمى فيه أقذار المدينة وجثث الحيوانات، وتحرق هناك لئلا تنتشر منها الأوبئةَ، وصار الموضع رمزاً للجحيم، ومنه أخذت لفظة (جهنه) «Gehenna»، التي هي جهنم[1]، الموضع الذي يعاقب فيه المجرمون بعد الموت. وهو موضع يقع تحت الأرض، واسع جداً، وأكبر حجماً من الأرض. يلقى فيه الآثمون جزاء إثمهم في الدنيا ومخالفتهم شريعة الرب. فيبقون فيه يعذبون. وقد اختلف في موضوع أبدية التعذيب وبقاء وجهنم، فمنهم من رأى أن جهنم خالدة، وأن العذاب أبدي، ومنهم من ذهب إلى أنها ترفع بعد انتهاء التعذيب[2].

وقد وردت لفظة جهنم في مواضع متعددة من شعر أمية بن أبي الصلت، كما ورد فيه وصفها وكيفية التعذيب فيها[3]. ولمعرفة أصل هذا الشعر: هل هو من شعر امية حقاً، أو من شعر آخرين وضعوه على لسانه، لا بد من دراسته ومقارنته بما جاء في الإسلام عن وصف جهنم وكيفية التعذيب فيها. وهناك

---

1) Hastings, p. 285.

2) متى، الأصحاح الخامس، الآية 29، الإصحاح العاشر، الآية 28، Hastings, p. 285.

3) «ورد في تأريخ دمشق لان عساكر (3/ 124): قال عبد الله بن مسلم الدينوري: سُئلت هل وجدتم لحنهم ذكراً في الشعر القديم، فقلت: هذا يحتاج إلى تتبع وطلب. وقد أتذكر فلم أذكر إلاّ شيئاً وجدته في شعر أمية بن أبي الصلت، فإنه قال:

فلا تكنو جهنم من بريئ　　ولا عدن يطالعها أثيم

إذا شبت جهنم ثم وارت　　وأعرض عن قوانسها الجحيم

وروي البيت في المخصص (9/ 6):

جهنم لا تبقي بعيا　　وعدن لا يطالعها رجيم

ودكر للعديل بن الفرخ (ياقوت 4/ 117) قوله في نار جهنم وجنة الحلد:

أما ترهبان الدار في ابني أبيكما　　ولا ترجوان الله في جنة الخلد

وقد ورد اسم حهنام في شعر الأعشى. قال (التاج 7/ 372):

دعوت حليلي مسحلا ودعوا له　　جهنما جدعا للهجين المذمم»

النصرانية (462 وما بعدها).

رواية تنفي ورود لفظة جهنم في أي شعر جاهلي خلا هذا الشعر المنسوب إلى أمية بن أبي الصلت، ويلاحظ انه ذكر (عدن) مع جهنم.

ولم أجد في أشعار الجاهليين ذكراً للإنجيل، إلاّ في الشعر المنسوب إلى (عدي بن زيد العبادي)[1]. وربما في شعر عدد قليل آخر من الجاهليين، لم أقف عليه. غير أن عدم ورود اللفظة كثيراً في هذا الشعر، لا يدل على عدم معرفة الجاهلين لها، ودليلنا على ذلك ورودها في مواضع من القرآن الكريم. وورودها فيه دليل على وقوف الجاهلين عليها واستعمالهم اياها، وأصلها من اليونانية، وقد وقف العرب عليها من السريانية أو من الحبشية[2]. وقد ذكرت فيما سبق أن نفراً من أهل الكتاب كانوا قد أقاموا بمكة وكانوا يقرأون التوراة والإنجيل بألسنتهم، فلا يستبعد إذن وقوف بعض الجاهليين، ولا سيما المثقفين منهم وأصحاب التجارات الذين كانوا يقصدون الحيرة وبلاد الشأم ونجران للتجارة وكان لهم اتصال وثيق بنصارى هذه الأرضين على الإنجيل وعلى الكتب الأخرى التي كان يستعملها رجال الكنيسة لافهام الناس أمور الدين.

ويظهر من بعض روايات الأخباريين أن بعض أهل الجاهلية كانوا قد اطلعوا على التوراة والإنجيل، وأنهم وقفوا على ترجمات عربية للكتابيْن. أو أن هذا الفريق كان قد عرب بنفسه الكتابين كلاّ أو بعضاً، ووقف على ما كان عند أهل الكتاب من كتب في الدين. فذكروا مثلاً أن (ورقة بن نوفل) «كان يكتب الكتاب العبراني، ويكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب»، وقالوا: «وكان امرؤ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية

---

1) وأوتيا الملك والإنجيل نقرؤه   نشفي بحكمته أحلامنا علا

الحيوان (4/ 64)، النصرانية (185).

2) اللسان (13/ 171)، النصرانية (185)، Shorter Ency., p. 168.

ما شاء الله أن يكتب»[1]. وذكروا مثل ذلك عن (أمية بن أبي الصلت)، فقالوا إنه كان قد قرأ الكتب المقدسة[2]، وقالوا مثل ذلك عن عدد من الأحناف.

وإذا كانت هذه الروايات صحيحة، فإنّها تدل على أنّ الجاهليين كانوا قد وقفوا على ترجمة العهديْن. ويرى بعض المستشرقين احتمال ترجمة العرب للكتاب المقدس قبل الإسلام وعند ظهوره، ترجمة من اليونانية على الأرجح. وقد استندوا في ذلك إلى خبر ذكره (ابن العبري) «Barkebraeus»، يفيد أن البطريق (المنوفيزيتي) المدع (يوحنا)«MonophysitePatriarchJohannes» كان قد ترجم الكتاب المقدس إلى أمير عربي اسمه (عمرو بن سعد) وذلك بين سنتيْ (631) و(640) للميلاد، وإلى أخبار أخرى تفيد أن بعض رجال الدين في العراق كانوا قد ترجموه إلى العربية وذلك قبيل الإسلام وعند ظهوره[3].

لا يستبعد وجود ترجمات للكتاب المقدس في الحيرة، لما عرف عنها من تقدم في الثقافة وفي التعليم، ولوجود النصارى المتعلمين فيها بكثرة. وقد وجد المسلمون فيها حينما دخلوها عدداً من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة وتدوين الأناجيل، وقد برز نفر منهم، وظهروا في علوم اللاّهوت، وتولوا مناصب عالية في سلك الكهنوت في مواضع أخرى من العراق، فلا غرابة اذا ما قام هؤلاء بتفسير الأناجيل وشرحها للناس للوقوف عليها. وقد لا يستبعد تدوينهم لتفاسيرها أو لترجمتها، لتكون في متناول الأيدي، ولا سيما بالنسبة إلى طلاب العلم المبتدئين. وقد لا يستبعد أيضاً توزيع بعض هذه الترجمات والتفاسير إلى مواضع أخرى لقراءتها على الوثنيين وعلى النصارى للتبشير[4].

ونجد في كتب الأخباريين وفي كتب قصص الأنبياء وفي القصص المدونة عن الماضين قصصاً وأمثلة وكلاماً يرجع أصله إلى بعض أسفار التوراة أو إلى

---

1) راجع ما كتبته عنه في فصل الأحناف، Sprenger, Leben, I, S. 128.

2) ابن قتيبة، الشعر والشعراء (176).

3) Sprenger, I, S. 131.

4) Ency., II,p 504.

الأناجيل، غير أننا لا نستطيع أن نؤكد أن هذا المدون قد نقل عن الجاهليين، وأن أهل الجاهلية كانوا يعرفونه، وأنه ليس مما قصه أهل الكتاب أو مسلمة أهل الكتاب مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه على المسلمين، فدخل بينهم. ثم إن القصص أكثره من (التلمود) و(المشنا) والكتب غير القانونية، روي بشكل فيه بُعْدٌ في بعض الأحيان عن هذا المدون المعروف، وهو يفيدنا من هذه الناحية كثيراً في الحكم على مدى معرفة العرب بعلم أهل الكتاب.

وللأسماء أهمية كبيرة في تعيين مبلغ أثر لليهودية والنصرانية في الجاهليين. وإذا كانت أسماء الوثنيين قد ساعدت (ولهوزن) في الكشف عن أسماء أصنام وأوثان لم ترد في كتاب الأصنام لابن الكلبي ولا في كتب الأخباريين الأخرى، وساعدت في الكشف عن مدى تغلغل الوثنية في نفوس أهل الجاهلية، فإن للأسماء اليهودية أو الأسماء النصرانية التي تسمى بها أهل الجاهلية والتي وصل خبرها إلينا أهمية كبيرة في الإفصاح عن مدى تأثر الجاهليين بالديانتيْن. وليس من اللازم أن تكون هذه الأسماء أسماء أناس كانوا على دين يهود، أو على دين النصرانية، فالأسماء وإنْ كان لها ارتباط في الغالب بأديان حامليها غير أنها لا تكون دائماً دليلاً على دين أصحابها، فلبيئة ولبعض العادات والاعتقادات دخل في اختيار الأسماء. وعلى ذلك فإن ما سنذكره من أسماء لا نذكرها على أن أصحابها كانوا يهوداً أو نصارى حتماً، وإنما نذكرها على سبيل الإشارة إلى أن بعض الجاهليين كانوا يحملون أسماء هي في الغالب من أسماء اليهود والنصارى.

وفي طليعة هذه الأسماء التي يجب أن نذكرها، الأسماء الواردة في التوراة والإنجيل، فهي أسماء عبرانية ونصرانية معروفة، وبها تسمّى كثير من اليهود والنصارى. ودخولها بين الجاهليين العرب دليل على وجود بعض تلك المسميات بينهم، وتسمى أهل الجاهلية بتلك الأسماء.

ومن جملة تلك الأسماء: آدم وقد دعي به آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. قُتل في الجاهلية، وهو الذي وضع النبي دمه يوم فتح مكة. وقد جاء (ابن

دريد) بتفسير لهذه التسمية فذكر أنها من الأدمة أو بمعنى الطويل القامة ذي العنق الناصع، ولم يشر إلى وجود علاقة لها باسم آدم أبي البشر[1]. غير أني لا أستبعد احتمال أخذها من التسميات التي كانت بين اليهود أو النصارى عند الجاهليين. غير أننا لا نعرف من أمثال هذه التسميات غير عدد قليل محدود بحيث لا يمكن أنْ نتّخذها قاعدة لبناء حكم عليها في ورود هذه التسمية عند الجاهليين.

وأكثر من هذه التسمية شيوعاً اسم (إبراهيم)، ومن جملة من تسمى بها: إبراهيم جد عدي بن زيد بن حمّان بن زيد بن أيوب من بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم. فولد أيوب إبراهيم وسلم وثعلبة وزيد. منهم عدي بن زيد ابن حمان بن زيد بن أيوب بن مجروف الشاعر. ومنهم مقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس بن إبراهيم بن أيوب، الذي نُسب إليه قصر مقاتل. وقال ابن الكلبي: لا أعرف في الجاهلية من العرب أيوب وإبراهيم غير هذيْن، وإنما سميّا بهذيْن الاسمين للنصرانية[2].

وممن سمُي بإبراهيم: إبراهيم بن كُتيف النبهاني، وهو شاعر قديم، وإبراهيم الأشهلي، وإبراهيم بن الحارث بن خالد التيمي القرشي، وأبو رافع إبراهيم القبطي، وهو من موالي الرسول، وإبراهيم بن عبّاد الأوسي، وإبراهيم بن قيس بن حجر بن معديكرب الكندي، وإبراهيم النجّار وهو الذي صنع المنبر لرسول الله. وأكثر هؤلاء هم من الذين عاصروا الرسول وكانوا من صحابته[3]. ويجب ألاّ ننسى أنّ الرسول سمّى ابنه الذي توفي صغيراً في حياته إبراهيم[4].

وعُرف من الصحابة رجل اسمه (إِسحاق الغنَوَي)[5]، وعُرف ثلاثة صحابيين باسم (إسماعيل)[6]. وأما (أيوب)، فقد عُرف به (أيوب بن مجروف) جدّ

---

1) الاشتقاق (44)، النصرانية (228).

2) تاج العروس (1/ 151)، (أوب)، النصرانية (229).

3) أُسد الغابة (1/ 40 وما بعدها)، الإصابة (1/ 25 وما بعدها)، النصرانية (329).

4) ابن هشام (1/ 206).

5) أسد الغابة (1/ 68)، الإصابة (1/ 47)، (رقم 94)، النصرانية (229).

6) أُسد الغابة (1/ 79)، الإصابة (1/ 55 وما بعدها)، النصرانية (230).

عدي بن زيد العبادي، وأيوب بن مكرز، كما تكنّى به أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري من الصحابة، وهو الذي نزل عليه الرسول يوم مقدمه إلى يثرب مهاجراً من مكة[1].

واسم (داوود) من الأسماء التي وردت في جملة أسماء ملوك بني سليح، فذكر منهم (داوود اللثق)[2]. وأظن أن لفظة (دؤاد) التي كُنّي بها الشاعر الجاهلي أبو دؤاد الإيادي هي من داوود[3]، وإنْ ذهب المفسرون فيها مذهباً آخر فقالوا إنها من الدُود والدوادة والدودة وأمثال ذلك[4]. وعرف شاعر آخر باسم داوود داوود بن حمل الهمداني[5]، ومن الأنصار رجل اسمه داوود بن بلال[6] وصحابي اسمه داوود بن سلمة الأنصاري[7].

وقد عرف داوود في الشعر الجاهلي بنسجه الدروع حتى ضُربت بدروعه عندهم المثل. وهي في نظرهم دروع قوية ممتازة، صنعها كل من الحديد الذي كان يلين بين يديه[8]. وقد تكرر ورود ذلك في أشعار جملة شعراء، مما يدل على

---

1) ابن هشام (2/ 66، 125، 144، 150، 305)، (3/ 347، 392)، الاشتقاق (266).

2) الاشتقاق (319)، النصرانية (532).

3) النصرانية (232).

4) الاشتقاق (104).

5) النصرانية (232).

6) أسد الغابة (2/ 129)، الإصابة (1/ 463)، (رقم 2278 و2288)، الإصابة (4/ 169)، (988).

7) الإصابة (1/ 463).

8) قال طرفة:

وهم ما هم إذا ما لبسوا   نسج داوود لباس محتضر

النصرانية (272)، شعراء النصرانية (309)، ديوان طرفة (58).

وقال حصين بن الحمام المري:

صفائح بصرى أخلصتها قيونها   ومطرداً من نسج داوود بهما

الحماسة لأبي تمام (189)، النصرانية (273).

وقال حسيل بن سجيع الضبي:

وبيضاء من نسج ابن داوود نثرة   تخيرتها يوم اللقاء ملابسا

الحماسة لأبي تمام (284)، النصرانية (273).

وللبيد:

وبزعن من داوود أحسن صنعه   ولقد يكون بقوة ونعيم

أنها كانت معروفة بين الجاهليين مشهورة. هذا ولا بد أنْ يكون لذلك أصل بعيد ظهر من قصص بني إسرائيل عن داوود وعن ملكه وحروبه وتغلبه على خصومه، هذا القصص الذي جعل من داوود رجلاً لا يستطاع التغلب عليه بفضل الحديد الذي لان بين يديه، فصار دروعاً لا تمضي فيه سيوف المقاتلين.

ولم يخلُ شعر الأعشى من اسم داوود، فورد في مناسبة التحدث عن حوادث الزمان واعتداء الدهر على الإنسان، وتبدل الأيام، كما في موضع آخر في كلامه على الدروع[1]. أمّا عبيد الأبرص، فقد ذكره في أثناء كلامه على طول العمر[2].

وعرف (سليمان) في أبيات للنابغة قالها في مدح النعمان ملك الحيرة بتسخيره الجنّ لبناء تدمر[3]. وعرف بمثل ذلك وببنائه الأبنية الفخمة وبسعة

صنع الحديد لحفظه أسراده لينال العيش غير سروم

ديوان لبيد (83)، (طبعة الخالدي)، النصرانية (273).

وللأعشى:

ومن نسج داوود يجدي بها على أثر العيس عير فعيرا

النصرانية (273)، شعراء النصرانية (388).

ولسلامة بن جندل:

مداخلة من نسج داوود شكلها كحب الحنا من أبلم متفرق

وله أيضا:

من نسج داوود وآل محرق غال غرائسهن في الآفاق

النصرانية (273).

1) ومر الليالي كل وقت وساعة يزعزعن ملكا أو يباعدن دانيا

وردن داؤد حتى أبدنه وكان يغادي العيش أخضر صافيا

الحماسة، للبحتري (90)، النصرانية (272).

2) وطلبت ذا القرنين حتى فاتني ركضاً وكدت أرى داؤودا

خزانة الأدب (1/ 323)، النصرانية (272).

3) ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد

إلاّ سليمان، إذا قال الإله له: قمْ في البرية فاحددها عن الفند

وخيس الجن أني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

فمن أطاعك فاخضعه بطاعته كما أطاعك وأدلله على الرشد

من عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم لا تعقد على أحد

العقد الثمين (7)، شعراء النصرانية (663)، النصرانية (274).

ملكه في شعر لشعراء آخرين[1]. وإذا كان ما نسب إلى أولئك الشعراء صحيحاً، كان رأيهم هذا في سليمان بتأثير ما كان يقصه أهل الكتاب على الجاهلين من قصص وارد في العهد القديم، في سفر الملوك الثالث وأخبار الأيام الثاني عن ملكه وعجيب أبنيته[2].

وقد ورد اسم سليمان علماً لجملة رجال، عاشوا في الجاهلية وفي أيام الرسول، فهناك حاكم من حكام العرب المعروفين في الجاهلية اسمه (سليمان بن نوفل)[3].

وهناك جملة من الصحابة عُرفوا بسليمان[4]. ومن هذه اللفظة نشأت الأسماء: سليمان وسلام، وسُليم، كما يتبين ذلك من أبيات للأسود بن يعفر[5] والحطيئة[6] والنابغة[7]. وعُرف بسلمان رجل من نصارى بني عجل اسمه سلمان العجلي.

---

1) قال الأعشى:

فلو كان حياً خالداً ومعمراً لكان سليمان البري من الدهر

براه إلهي واصطفاه عبادة وملكه ما بين سرفي إلى مصر

وسخر من جن الملائك شيعة قياماً لديه يعملون بلا أجر

البدء والتأريخ (3/ 108)، النصرانية (274)، وله أيضاً:

فذاك سليمان الذين سخرت له مع الإنس والجن والرياح والمراخيا

الحماسة، للبحتري (86 وما بعدها)، النصرانية (275).

2) النصرانية (273).

3) اليعقوبي (1/ 299)، النصرانية (232).

4) مثل سليمان بن الحارث، الاشتقاق (2/ 318)، وسليمان الليثي بن أكيمة، وسليمان بن أبي حثمة القرشي، وسليمان بن صرد الخزاعي، وسليمان بن عمرو بن حديدة، وسليمان بن مسهر، وسليمان بن هاشم بن عتبة القرشي، أسد الغابة (2/ 350 وما بعدها)، الإصابة (2/ 128 وما بعدها)، النصرانية (232)، تاج العروس (8/ 344).

5) ودعا بمحكمة أمين سكها من نسج داوود أبي سلام

تاج العروس (8/ 344).

6) فيه الرماح وفيه كل سابغة جدلاء محكمة من نسج سلام

النصرانية (232).

7) وكل صموت نثلة تبعية ونسج سليم كل قضاء ذائل

وهناك طائفة لأسماء نصرانية خالصة تسمى بها نفر من الجاهلين قبل الإسلام، مثل: عبد المسيح، وعبد ياسوع، وعبد يسوع، وعبد يشوع، وايشوع، وأبجر. وقد عُرف بأبجر عدد من ملوك الرها، كما عرف بها أبجر بن جابر سيد بني عجل، وأفريم، وبولس، وجرجس، وجريج، وروماـن، وروماـنوس، وسرجس، وسمعان، وشمعون، ونسطاس، وحنين، و(حنيناء) و(يحنة)[1]. ومن أسماء النساء: مارية، ومريم، وحنة[2]، ومن بين هذه الأسماء ما كانت خاصة بطبقة الموالي الذين جلبوا من الخارج، وبيعوا في أسواق النخاسة، فحافظوا على أسمائهم القديمة التي تشير إلى أصولهم في النصرانية.

ونرى ورود (عبد المسيح) بين أسماء أهل الحيرة بصورة خاصة، ورد علماً لأناس معروفين جداً بينهم، وكانوا عليهم زعماء، مثل عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيّان بن بقيلة، وكان في جملة من خرج لملاقاة خالد بن الوليد للاتفاق معه على شروط الصلح[3]. وعادة جعل المرء نفسه عبداً لإله أو لشخص مقدس، كما في هذه التسمية، لم تكن من العادات الخاصة بالنصارى، فقد رأينا أن أكثر الجاهلين كانوا يجعلون أنفسهم عبداً لإلهَ من الآلهة، ثم يتخذون ذلك تسمية لهم، مثل عبد العزى، وعبد يغوث، وعبد ودّ، وأمثال ذلك. فلما كانت النصرانية، تبرأ من تنصر من اسم الآلهة الوثنية، وأحلوا محلها اسم المسيح.

وكان اسم والد حنظلة صاحب دير حنظلة الذي بأرض بني علقمة بالحيرة (عبد المسيح)، ويذكر الأخباريون أنهم وجدوا على صدر الدير كتابة مكتوبة بالرصاص على ساج محفور: «بني هذا الهيكل المقدس، محبة لولاية الحق

ديوان النابغة (99)، النصرانية (233)، «أراد نسج داوود، فجعله سليمان ثم غيّر الاسم، فقال سلام وسليم. ومثل ذلك في أشعارهم كثير. قال ابن بري: وقالوا في سليمان اسم النبي، صلى الله عليه وسلم، سليم وسلام فغيره ضرورةً»، اللسان (15/ 192 وما بعدها)، تاج العروس (8/ 344).

1) البكري، معجم (4/ 580)، تاج العروس (9/ 186).

2) النصرانية (239)، وقد أورد قائمة بالأسماء النصرانية، وأورد أمثلة لمن تسمّى بها قبل الإسلام من الجاهليين، البكري، معجم (4/ 578)، «دبر حنة».

3) البلاذري، فتوح (252)، المعمرون، للسجستاني (38)، «طبعة كولدتزيهر»، المشرق، السنة السابعة عشرة، (1914)، (ص 132)، البلدان (2/ 677).

والأمانة، حنظلة بن عبد المسيح، يكون مع بقاء الدنيا تقديسه، وكما يذكر أولياؤه بالعصمة، يكون ذكر الخاطئ حنظلة»[1].

غير أن هذه الأسماء اليهودية الأصل أو النصرانية قليلة الاستعمال، فلم تكن مستعملة بنطاق واسع. وأكثر من تسمى بها، هم من الموالي والأرقاء، أو من العرب الذين كانوا على أطراف العراق وبلاد الشأم، وممن تأثر بالمؤثرات الثقافية الأعجمية، أو ممن كان على يهودية أو نصرانية، فتسمى بأسماء محببة أو مباركة في هاتيْن الديانتيْن.

وأهل نجران، هم الذين كانوا يجادلون الرسول في طبيعة المسيح، فلم يكن بمكة أو بيثرب قوم منهم يستطيعون مجادلته في أمور الدين. وقد ذكر بعض المفسرين أن أهل نجران كانوا أعظم قوم من النصارى جادلوا الرسول في عيسى. جاؤوا إلى الرسول، فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله. فقال: أجل إنه عبد الله. قالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أُنبئت به، ثم خرجوا من عنده غاضبين. وقالوا إنْ كنت صادقاً، فأرنا عبداً يحيي الموتى ويبرئ الأكمه، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، فلما عادوا قال رسول الله: مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون[2].

وقد جادل بعض النصارى رسول الله في أمور الدين، ثم أسلموا. ونظراً لقلة عددهم بيثرب، لم يقاوموه هنا كما قاومه اليهود.

وطبيعي أن يتأثر نصارى الجاهلية بلغة بني إرم، فيستعملوا المصطلحات الدينية التي كانت شائعة في الكنيسة، وهي مصطلحات آرمية الأصل في الغالب: فقد كانت لغة بني إرم لغة العلم والدين عند النصارى الشرقيين. بها يقيمون طقوسهم الدينية. ومنها يترجمون الأناجيل إلى أتباعهم النصارى العرب، فدخلت بذلك إلى العربية ألفاظ آرمية ذات معان خاصة. ومنها الألفاظ التي تكلمنا عنها

---

1) البكري، معجم (2/ 572)، (دير حنظلة).

2) تفسير الطبري (3/ 207 وما بعدها).

وألفاظ أخرى عديدة لم نتطرق إليها، لعدم وجود صلة لها بهذا الموضوع، وخشية الإطالة والخروج على صلب الموضوع. وهناك مصطلحات يونانية ولاتينية وحبشية، لها صلة بالدين وبالمجتمع دخلت العربية أيضاً عن طريق النصرانية، ظهر أثرها في نصارى بلاد الشأم والعربية الغربية خاصة، بتأثير الاحتكاك المباشر والتبشير.

وقد عني بعض الباحثين بجمع المصطلحات الدينية المعروفة عند أهل الكتاب في الجاهلية والتي أقرها الإسلام على نحو ما كانت تعرف به، أو أعطاها معنى خاصاً، ومن بينها عدد كبير ورد في القرآن الكريم[1]. ولما كانت غالبية العرب على الوثنية، وهي ديانة بسيطة قليلة الشعائر بالنسبة إلى اليهودية والنصرانية، لذلك كانت هذه المصطلحات شائعة معروفة بين أهل الكتاب من الجاهليين، وقد نقلوها من اللغات الدينية التي كتب بها علماء أهل الكتاب، فهي في الغالب من أصل سرياني أو عبراني أو يوناني أو حبشي.

وقد جمع الأب (شيخو) في كتابه: (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) الألفاظ الخاصة بأهل الكتاب من الأبيات الواردة في دواوين شعراء الجاهلية وفي كتب الأدب، وهي أبيات منها ما أجمع الرواة وأهل الأخبار على نسبتها إلى أولئك الشعراء، ومنها ما ورد عند بعض الرواة والأخباريين ولم يرد في دواوين أولئك الشعراء، ليجعل من تلك الألفاظ دليلاً على أثر النصرانية في الجاهليين، وعلى مدى تغلغلها بينهم. وهو حكم لا يمكن أن يكون سليماً، إلاّ بعد ثبوت صحة نسبة تلك الأبيات إلى الجاهليين.

وقد كان للنصرانية أثر مهم في نشر الكتابة العربية، المأخوذة عن الآرمية، بين الجاهليين، الكتابة التي تولد منها قلمنا الذي نكتب به في الوقت الحاضر. وقد وجد المسلمون في فتحهم للعراق مدارس عديدة لتعليم الأطفال

---

1) Nöldeke, Neue Beiträge zur Semit. Sparad., S. 1, ff., J. Horovitz, Jewish Proper Names and derivatives in Koran, 145, R. Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

القراءة والكتابة، كما أن تجار مكة ويثرب الذين كانوا يقصدون الشأم والعراق وجدوا الضرورة تحتم عليهم تعلم هذا الخط، فتعلّموه. ولما نزل الوحي كتب كتابه به، فصار قلم المسلمين. كما سأتحدث عن ذلك في موضوع الخط عند الجاهليين.

ولم يترك رجال الدين من النصارى العرب لنا أثراً كتابياً ينبىء عن مدى اشتغالهم في علم اللاهوت وفي العلوم الأخرى، غير أن هذا لا يعني أن النصارى العرب لم يزجوا علماء دين منهم، ولم يعطوا النصرانية رجلاً منهم يخدمها ويقف حياته الروحية عليها، ففي قوائم أسماء من حضروا المجامع الدينية التي عقدت للنظر في الأمور الجدلية وفي القضايا التي تخص مبادئ الدين أسماء رجال تنبئ أنهم كانوا عرباً، وقد دونت في محاضر تلك المجالس أسماء المواضع التي مثلوها من بلاد العرب، كما أن بين رجال الدين الكبار الذين نبغوا في العراق من كان أصله من الحيرة، وإذ كانت غالبية سكان هذه المدينة من العرب، فلا يستبعد أن يكون من بين هؤلاء العلماء النصارى الحيريين من كان من أصل عربي.

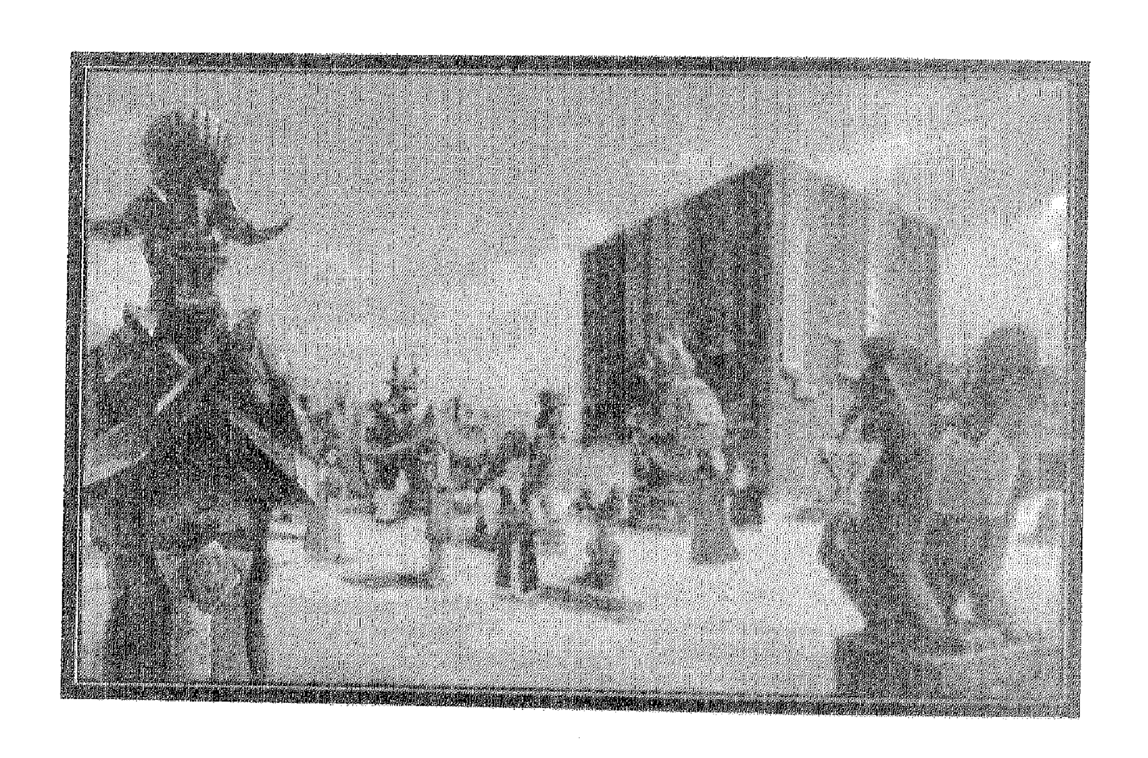
لقد كانت النصرانية عاملاً مهماً بالطبع في إدخال الآراء الإغريقية والسريانية إلى نصارى العرب، فقد كانت الكنيسة مضطرة إلى دراسة الإغريقية ولغة بني إرم، لما للغتيْن من قدسية خاصة نشأت من صلتهما بالأناجيل. وقد كان أثر الآرمية أهم في الكنيسة الشرقية من الإغريقية، لكونها لغة الثقافة في الهلال الخصيب في ذلك العهد. ولهذا وجدنا معظم التعابير والمصطلحات الدينية عند نصارى الشرق هي من هذه اللغة، ومنها أخذها النصارى العرب، فصارت عربية، وقد كان السريان قد نقلوا بعض مؤلفات اليونان واللاتين إلى لغتهم، ولا أستبعد نقلهم بعض تلك المؤلفات، ولا سيما الدينية منها، من هذه اللغة إلى اللغة العربية، وذلك قبل الإسلام، أو ترجمتها ترجمة شفوية لطلاب العلم من العرب ممن كانوا لا يفقهون لغة بني إرم، أو لا يلمّون بها إلماماً صحيحاً. وإذ كانت هذه اللغة لغة مقدسة ولغة الكنيسة الرسمية، وكان أكثر رجال الدين من بني إرم،

فقد كانت هذه اللغة اللغة المقررة في الكنيسة، بها يدرس ويتباحث رجال الدين وإنْ كانوا عرباً، على نحو ما يفعله رجال الدين الأعاجم الذين يدرسون العربية بعلومها المختلفة ليتفقهوا بذلك في الدين، والعربية هي لغة الدين الإسلامي، وكما يفعل رجال الدين الكاثوليك أيضاً في دراستهم اللاتينية وتبحرهم بها لأن اللاتينية هي لغة النصرانية عند الكاثوليك.

وكان للنصرانية أثر آخر في نصارى عرب الجاهلية، هو أثرها فيهم من ناحية الفن، إذ آدخلت النصرانية بين العرب فناً جديداً في البناء، هو بناء الكنائس والأديرة والمذابح والمحاريب والزخرفة، كما أدخلت النحت والتصوير المتأثرين بالنزعة النصرانية. ولدخول أكثر هذه الأشياء لأول مرة بين الجاهليين، استعملت مسمياتها الأصلية اليونانية أو الآرمية في اللغة العربية، بعد أن صقلت وهُذّبت، حتى اكتسبت ثوباً يلائم الذوق العربي في النطق. وستكشف الحفريات في المستقبل عن مدى تأثر النصارى العرب الجاهليين بالفن النصراني المقتبس عن الروم أو عن بني إرم والأحباش.

الفصل الثامن

المجوس والصابئة



الفصل الثامن

المجوس والصابئة

يقصد الأخباريون بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة: الخير والشر، فيزعمون أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة[1]، وهم يعلمون أن المجوس من الفرس وأنهم عبدة النيران.

وفي القرآن الكريم ذكر للمجوس. وقد ورد ذكرهم في موضع واحد منه: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)[2]. وفي ذكرهم في القرآن الكريم دليل كاف على معرفة أهل الحجاز بهم، ووقوفهم عليهم. وكيف لا يكون لهم علم بهم ووقوف عليهم، وقد كان لأهل مكة اتصال وثيق بالحيرة كما كان لأهل الحجاز اتصال باليمن؟ وقد كان المهيمن على اليمن الفرس عند ظهور الإسلام، حيث طردوا الأحباش وأخذوا محلهم، وقد كان هؤلاء الفرس على المجوسية، ثم إنه كان في حضرموت وفي العربية الشرقية أناس منهم أقاموا هناك. وقد كان وكلاء الأكاسرة على هذه الأماكن منهم، وهم على دين المجوسية. وقد أشير إلى وجودهم في أخبار الفتوح، حيث دفع الجزية من أبى منهم الدخول في الإسلام. والظاهر أن هؤلاء كانوا مقيمين فيها من أمد طويل بدليل ورود جملة في أخبار الفتوح تفيد ذلك، وهي: «وأسلم معهما جميع العرب وبعض العجم. فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى، فإنهم صالحوا العلاء»[3].

---

1) النهاية (4/ 85)، اللسان (8/ 98) (محس)، تاج العروس (4/ 345) (مجس)، الملل والنحل (2/ 57)، الحيوان (1/ 190)، (4/ 95، 479، 481)، المسعودي، مروج (1/ 252، 253، 273)، (بيروت)، عمدة القارئ (15/ 78).

2) الحج، الآية 17، عمدة القارئ (15/ 78 وما بعدها)، الطبرسي، مجمع البيان (13/ 88 وما بعدها)، تفسير أبي السعود (4/ 8)، تفسير الطبري (6/ 201)، روح المعاني (6/ 179)، تاج العروس (4/ 245) (مجس).

3) البلدان (2/ 74)، «ومن أبى فعليه الجزية. فصالحهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أن على المحوس الحزية»، «وأخذ الحزية من المجوس»، الطبري (3/ 29).

ويروي أهل الحديث حديثين يذكرون أن الرسول قالهما هما: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يمجسانه»، أي يعلمانه دين المجوسية. وحديث «القدرية مجوس هذه الأمة»[1]. وفي هذين الحديثين ذكر للمجوس. ولعلماء الحديث كلام عليهما. ولا سيما على الحديث الثاني، وفيه تعريض بالقدرية، أسلاف المعتزلة.

وكلمة (مجوس) من الكلمات المعربة، عربت عن لفظة (مغوس) «Maghos»، الفارسية التي تعني (عابد النار)[2] وهي من الألفاظ التي دخلت إلى اليونانية كذلك، حيث وردت لفظة«Magi» ، فيها، وهي جمع (مجوس) «Magus»[3]. وقد دخلت إلى لغة (بني إرم). أيضاً. ولا ندري اليوم على وجه صحيح من أي طريق دخلت لفظة (مجوسي) و(مجوس) إلى العربية، عن الفرس أنفسهم، أو عن اليونانية أو عن طريق لغة (بني إرم)[4]!

وقد عرف علماء اللغة بأن لفظة (مجوس) من الألفاظ المعربة. وقد ذهبوا إلى أنها معربة عن الفارسية القديمة. ولكنهم اختلفوا فيما بينهم في أصل اللفظة وفي بيان معناها، وذهبوا في ذلك مذاهب[5]، وبعض هذه التفسيرات والتأويلات مفتعل يدل على عدم وقوف أصحابها على جلية الموضوع.

ويريد الأخباريون بالمجوسية عبادة النار. واذا صح ما ورد في شطر بيت منسوب إلى الشاعر الجاهلي (التوأم اليشكري) المعاصر لامرىء القيس، هو: (كنار مجوس تستعر استعاراً)[6]، فإن فيه دلالةً على أن هذا الشاعر هو وامرأ

---

1) اللسان (6/ 213 وما بعدها)، تاج العروس (4/ 345)، اللسان (8/ 98)، «مجس» «طبعة بولاق».

2) غرائب اللغة (ص 269).

3)Hastings, p. 565.

4)Shorter Ency. of Islam, p. 98, Ency., III, p. 97.

5) اللسان (8/ 98)، «طبعة بولاق»، محيط المحيط (2/ 250)، تاج العروس (4/ 345)، «مجس»، الحيوان، للجاحظ (5/ 69)، «عبد السلام هارون»، المعرب، للجواليقي (320).

6) اللسان (6/ 213 وما بعدها)، تاج العروس (4/ 245)، (مجس).

القيس كانا على علم بنار المجوس، وأنها كانت تستعر دائماً، وربما كانا على علم ببعض تعاليمها أيضاً.

وفي أخبار أهل الأخبار ما يفيد بتمجس بعض العرب، فورد أن «المزدكية والمجوسية في تميم»[1]. وورد أن (زرارة بن عدس) وابنه (حاجب بن زرارة)، وهما من سادات تميم كانا قد اعتنقا المجوسية، واعتنقها أيضاً (الأقرع بن حابس) و (أبو الأسود)، جدّ (وكيع بن حسان)[2]. وقيل إن أشتاتاً من العرب عبدت النار، سرى إليها ذلك من الفرس والمجوس[3].

وكان مجوس اليمن، من الفرس الذين أرسلهم كسرى لطرد الحبش من اليمن، فهم وأبناؤهم كانوا على هذا الدين، دين الامبراطورية الفارسية. ولما ظهر الإسلام، نبذ هؤلاء المجوسية واعتنقوا الإسلام[4].

وأما مجوس عُمان وبقية أنحاء العربية الجنوبية، فقد كانوا من الفرس كذلك: من تجار ومن مقيمين من بقية الفرس الذين كانوا قد استولوا على هذه الأرضين. وعند ظهور الإسلام لم يكن لهم نفوذ سياسي فقد كان سادات القبائل قد كوّنوا مشيخات فيها، واستقلت في إدارة شؤونها، غير أن المجوس بقوا فيها، وعند دخول أهلها في الإسلام، ودخول البلاد في دين الله، دفع بعض أولئك المجوس الجزية، ودخل الباقون في الإسلام. شأنهم في ذلك شأن اليهود والنصارى المقيمين في هذه الأرضين.

وأما مجوس البحرين، فقد كانوا أكثر عدداً وأكثر نفوذاً من إخوانهم في عُمان، لقرب هذه الأرضين من إمبراطورية الساسانيين، ولهجة الفرس من السواحل المقابلة ومن طريق الأبلة الساحلي. وقد عثر المنقبون على قبور عديدة تعود إليهم؛ وعلى آثار لمعابدهم في العربية الشرقية. وكان على (هجر)، حين أبلغ

---

1) البدء والتأريخ (4/ 31).

2) المعارف (266)، «الصاوي»، البدء والتأريخ (4/ 31)، الأعلاق النفيسة (217).

3) بلوغ الأرب (2/ 233).

4) Ency., Vol., III, p. 99.

الرسول دعوته إليها، رجل من الفرس اسمه (سيبخت مرزبان)، وقد أسلم وأسلم معه قوم من قومه، ودفع الجزية من فضّل البقاء منهم على دينه، شأنهم في ذلك شأن أهل الكتاب[1]. وذكر أن الرسول كتب إلى (مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا أخذت منهم الجزية، وبأن لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم)[2].

وكان باليمامة قوم من المجوس، عاشوا في قراها ومواضعها، اشتغلوا بالزراعة وبالتعدين. وأرض اليمامة أرض غنية، وهي (ريف) أهل مكة، وعليها اعتمادهم في الحصول على الحبوب. كما عرفت بوجود المعادن بها، فسهّل أهلها دخول المجوس إليها، للاستفادة منهم في استغلال الأرض وفي للتعدين.

هذا ولم نسمع بدخول أحد من ملوك الحيرة، أو الأمراء الذين عينهم الفرس على العرب في المجوسية مع علاقتهم بالفرس واتصالهم الوثيق بهم، ووجود الفرس في أرضهم وفي عاصمتهم، بينما نجد بعضاً منهم وقد دخل في النصرانية. ولعل ذلك بسبب عدم ميل الفرس إلى إدخال أحد من الغرباء عنهم في دينهم والى عدّهم المجوسية ديانة قومية خاصة بهم، فلا يهمهم دخول أحد من غيرهم فيها.

هذا ولا أجد صلة بين (الأسبذية) التي زُعم أنها ديانة قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين، عرفوا بـ (الأسبذيين)، وبين (بني دارم)، وكونهم كانوا على هذا الدين. فقد كان أحدهم وهو (المنذر بن ساوى) أسبذياً، ولم يكونوا كلهم. قيل إنه نسب إلى قرية بهجر يقالَ لها (الأسبذ)، وقيل إلى الأسبذيين[3]. ولا صلة لهذه الأسبذية بالمجوسية، أو إلى ديانة دخلت من فارس إلى البحرين. وقد تحدثت في مكان آخر عن وجود قوم من العرب قدسوا (الحصان). ورأيي أن المراد من (الأسبذية) الفرسان. وأن (المنذر بن ساوى) كان (أسبذاً) أي بدرجة فارس، وهي من درجة الشرف والرفعة في الجيش الساساني.

---

1) البلاذري (85 وما بعدها)، البلدان (2/ 73 وما بعدها).
2) ابن سعد، طبقات (1/ 263)، (صادر).
3) فتوح البلدان (98)، (89)، (طبعة المكتبة التجارية)، محاضرات للدكتور صالح أحمد العلي (171).

ويذكر علماء اللغة في معرض كلامهم على معنى لفظة (الزمزمة) أن من عادة المجوس الزمزمة عند الابتداء بالأكل، أي قراءة شيء من كتبهم الدينية قراءة خافتة على المأكول تقديساً وشكراً له. وقد نهى الخليفة عمر عن الزمزمة، لأنها من علائم المجوس[1].

وقد عرف عالم المجوس ورئيسهم الروحي عند العرب بـ (الموبذ) و(الموبذان)، وعرف كبيرهم بـ (موبذان موبذ)؛ وجعل بعض العلماء (الموبذان) بمنزلة قاضي القضاة للمسلمين، والموبذ بمنزلة القاضي[2]. وتعني (موبذان موبذ) الموبذ الأعظم. وقد اكتفي أحياناً بلفظة (موبذان) للتعبير عن (موبذان موبذ). وقد فسر المسعودي لفظة (الموبذ) بمعنى حافظ الدين. ورجع أصلها إلى (مو) بمعنى (دين) في رأيه، و(بذ) بمعنى (حافظ)[3]. ورأى (اليعقوبي) أن (الموبذان) بمعنى عالم العلماء[4]. والموبذ هي من الألفاظ المعربة عن الفهلوية، فهي من أصل فهلوي هو Magupat، بمعنى عظيم المجوس، ويتمتع هذا الرئيس الديني الأعظم بسلطات دينية واسعة[5]. وقد أطلق السريان على الموبذ جملة (ريش مكوشي) (Resh Magushi) و(Resh dam'gushi)، أيْ (رئيس المجوس)[6].

وترد في العربية لفظة أخرى، لها صلة بالمجوسية، هي (الهربذ)، و(الهرابذة). ذكر علماء اللغة أن «الهرابذية: المجوس، وهم قومة بيت النار التي للهند... وقيل عظماء الهند أو علماؤهم». وذكروا أن «الهربذي مشية فيها اختيال، كمشي الهرابذة، وهم حكام المجوس. قال امرؤ القيس:

---

1) اللسان (15/ 165)، تاج العروس (8/ 165)، تاج العروس (8/ 165)، تاج العروس (8/ 328).

2) اللسان (3/ 511)، (موبن)، النهاية في غريب الحديث (4/ 119)، تاج العروس (2/ 513).

3) مروج الذهب (1/ 268)، (ذكر ملوك الساسانية).

4) تأريخ اليعقوبي (1/ 207)، .Ency., III, p. 543

5) Ency., III, p. 543.

6) اللسان (3/ 517 وما بعدها)، (هربن).

مشى الهربذي في دفه ثم فرفرا»[1]

واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية. من أصل (هور) و(بت)، بمعنى رئيس خدام النار. والموكل على خدمة النار في المعبد[2].

وقد ذكر (الألوسي)، أن صنفاً من العرب عبد النار، وقال عنهم: «وهم أشتات من العرب، وكأن ذلك سرى إليهم من الفرس والمجوس»[3]. ولم يذكر أسماء هؤلاء الأشتات. ولم يتحدث عن طريقة تعبدهم للنار. ولكننا نستطيع أن نجد في (نار الاستمطار) وفي (نار التحالف) وفي النيران الأخرى التي يذكر أسماءها أهل الأخبار دلالة على وجود فكرة تقديس بعض العرب للنار. وقد خبب الإسلام هذه النيران.

فقد ذكر أهل الأخبار أن العرب كانت في الجاهلية الأولى، اذا احتبس عنهم المطر، ويئسوا من نزوله، يجمعون البقر ويعقدون في أذنابها وعراقيبها السلعَ والعشرَ ويصعدون بها في الجبل الوعر، ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر، قال الشاعر (الورل) الطائي:

أجاعلٌ أنتَ بيقوراً مسلّعة وسيلة منك بين الله والمطر[4]

وقد أشير إلى هذه النار في شعر ينسب الى أمية بن أبي الصلت[5]. ويسمونها بنار الاستسقاء وبنار الاستمطار[6].

---

1) Ency., III, p. 543.

2) غرائب اللغة (248).

3) بلوغ الأرب (2/ 233).

4) (الوديل الطائي)، صبح الأعشى (1/ 409)، بلوغ الأرب (2/ 164)، خزانة الأدب (3/ 212)، الحيوان (4/ 468).

لا در در رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعشر

أجاعل أنت بيقورا مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر

اللسان (4/ 73)، (بقر).

5) نهاية الأرب، للنويري (1/ 109 وما بعدها)، الحيوان (4/ 466 وما بعدها).

6) نزهة الجليس (2/ 406).

وذكروا ناراً أخرى قالوا لها: (نار التحالف) و(نار المهول). وقالوا إن العرب كانوا لا يعقدون حلفاً إلاّ عليها، وكانوا اذا اختصموا في شيء، واتفقوا على اليمين، حلفوا على النار. ولهذا قيل لها (نار التحالف). وطريقتهم في ذلك أن المتحالفين أو المتخاصمين يحضرون أمام نار يوقدونها، ثم يلقون عليها ملحاً وكبريتاً. وعندئذ يذكرون منافع هذه النار ويدعون بالحرمان من خيرها على من ينقض العهد ومحل العقد. وفي حالة الحلف واليمن يقول صاحب النار للحالف: «هذه النار قد تهددتك»، فإن كان مبطلاً نكل، وإن بريئاً حلف، ولذلك قيل لها «نار المهول»[1]. وذكروا أيضاً أن هذه النار كانت معروفة في اليمن، مستعرة دائماً، ولها سادة سدنة وقيّمون يطرحون الملح والكبريت في النار، أما السدنة فيقومون بأخذ اليمين. وكان سادنها إذا أتى برجل ليحلف، هيبوه من الحلف بها، وخوّفوه من الكذب. وقد عّرفت هذه النار بـ (نار التحاليف) كذلك. وقد أشار إليها الكميت بقوله:

هُمُ خوّفوني بالعمى هوّة الردى   كما شب نار الحالفين المهوّل

كما أشار إليها شاعر آخر هو أوس، إذ قال:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه   كما صدّ عن نار المهوّل حالف[2]

وذكر (الجاحظ) أن العرب «يقولون في الحلف: الدّم، الدّم، والهدم الهدم، لا يزيده طلوع الشمس إلاّ شداً، وطول الليالي إلاّ مداً، ما بل البحر صوفة، ومما أقام رضوى في مكانه، إن كان جبلهم رضوى.

---

1) اللسان (5/ 243)، (نور)، نزهة الجليس (2/ 406).

2) اللسان (7/ 102)، صبح الأعشى (1/ 409)، خزانة الأدب (3/ 212)، (خوفونا)، نهاية الأرب (109/1 وما بعدها)، بلوغ الأرب (2/ 161 وما بعدها)، الحيوان (4/ 470).

«وكل قوم يذكرون جبلهم، والمشهور من جبالهم. وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم»[1].

بل زعم بعض أهل الأخبار أن حمير كانت تحتكم إلى نار كانت باليمن تحكم بينهم فيما كانوا يختلفون به. تأكل الظالم ولا تضر المظلوم. فلما اعتنق التبع (تبان أسعد)، ديانة يهود، وطلب من قومه الدخول فيها، أبوا عليه ذلك، وطلبوا منه الاحتكام إلى تلك النار في قصة يذكرونها في سبب تهود بعض حمير[2].

وللعرب نار السعالى والجن والغيلان[3]. ذكروا أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتخييل وإضلال السابلة. وأنها ترفع للمتقفر فيتبعها فتهوى به الغول. وأورد أهل الأخبار شعراً في ذلك منه شعر لـ(عبيد بن أيوب)، المعروف بـ (أبي مطراب)، وكان يزعم أنه يؤاكل الظباء والوحش ويرافق الغول والسعلاة، ويبايت الذئاب والأفاعي[4].

وذكر أهل الأخبار قصة عن (خالد بن سنان العبسي) النبي العربي الذي منحه بعضهم في الإسلام جملة (عليه السلام) باعتبار أنه من أنبياء الله، قد يكون لها صلة بعقيدة عبادة النار عند العرب. إذ ذكروا ان ناراً ظهرت «بالبادية بين مكة والمدينة في الفترة، فسمّتها العرب بداً، وكادت طائفة منهم أن تعبدها مضاهاة للمجوس. فقام خالد هذا، فأخذ عصاه، واقتحم النار يضربها بعصاه، حتى أطفأها الله تعالى، ثم قال: إني ميت، فإذا أنا مت، وحال الحول، فارصدوا قبري. فإذا رأيتم حماراً عند قبري، فارموه واقتلوه، وانبشوا قبري، فإني محدثكم بكل ما هو كائن. فمات. فلما حال الحول، رأوا الحمار فقتلوه، وأرادوا نبشه، فمنعهم

---

1) الحيوان (470/4 وما بعدها).

2) سيرة ابن هشام (1/ 27).

3) الحيوان (4/ 481).

4) الحيوان (4/ 481 وما بعدها)، معجم الشعراء (182)، مروج الذهب (1/ 328)، الحيوان (5/ 123)، صبح الأعشى (1/ 410).

أولاده، وقالوا: لا نسمى بني المنبوش»[1]. وقد عرفت تلك النار بـ (نار الحرتيْن)[2]. وذكر أنها كانت ببلاد عبس، فإذا كان الليل تضيء نار تسطع وفي النهار دخان مرتفع. وربما بدر منها عنق فأحرق من مرّ بها. فحضر خالد بن سنان. النبي، فدفنها، فكانت معجزة له[3]. ويظهر ان حرة، كانت في تلك المنطقة، ثم خمدت فنسب الناس خمودها إلى (خالد بن سنان).

وللجاهليين استعمالات أخرى للنار، فكانوا إذا خافوا شرّ رجل، وتحوّل عنهم أوقدوا خلفه ناراً، ليتحول شرهم معه[4]. ويقولون: «أبعده الله واسحقه وأوقد ناراً في أثره»، يقولون ذلك لكراهيتهم له، ويتمنّون الموت له.

وتعرف هذه النار بـ (نار الطرد)[5]. وذكر أن العرب تدعو على العدو فتقول:

أبعد الله داره وأوقد ناراً أثره[6].

ولا بد أن يكون للنار الموقدة على المزدلفة صلة ما بعقائد الجاهليين القديمة في النار. وينسب الأخباريون هذه النار إلى (قُصي بن كلاب)، يقولون إنه أوقدها على المزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة في أيام الحج. وقد بقي الناس يوقدونها إلى الإسلام[7].

---

1) محاضرات الأبرار (1/ 77)، نهاية الأرب (1/ 109 وما بعدها)، نزهة الجليس (406/2).
2) الحيوان (4/ 476 وما بعدها).
3) صبح الأعشى (1/ 409 وما بعدها).
4) اللسان (7/ 102)، نهاية الأرب (1/ 109 وما بعدها).
5) خزانة الأدب (3/ 212)، الحيوان (4/ 474)، صبح الأعشى (1/ 409).
6) قال الشاعر:

وجمة أقوام حملت، ولم أكن كموقد نار أثرهم للتندم

اللسان (5/ 243)، (نور).
7) صبح الأعشى (1/ 409)، نهاية الأرب (1/ 109 وما بعدها)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (462)، الكامل، لابن الأثير (2/ 17)، نزهة الجليس (2/ 406).

ومن نيران العرب، نار الغدر، وتوقد بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين، جبليْ مكة: أبي قبيس وقُعَيْقعان، أو أبو قبيس والأحمر. فإذا استعرت، صاح موقدها: هذه غدرة فلان، ليحذره الناس، وليعلموا أن فلاناً قد غدر بجاره[1].

وأما (نار السلامة)، فهي التي توقد للقادم من سفر سالماً غانماً، وقد عرفت لذلك بـ (نار المسافر) أيضاً[2]. و(نار السليم)، هي النار التي توقد للملدوغ وللمجروح ولمن ضرب بالسياط ولمن عضه الكلب الكَلِبُ، ويقولون إنها إنما توقد لكي لا يناموا، فيشتد بهم الأمر ويؤدي إلى الهلاك[3].

وأما (نار الحرب)، فهي النار التي كانوا اذا أرادوا حرباً، وتوقعوا جيشاً عظيماً، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم ناراً، ليبلغ الخبر أصحابهم. واذا جدوا في جمع عشائرهم إليهم أوقدوا نارين[4].

ونار الصيد، هي نار توقد للظباء وللحيوانات الأخرى، فتغشاها اذا نظرت إليها[5].

ونار الأسد، وهي نار توقد إذا خافوا الأسد، لينفر عنهم، فإن من شأنه النفار عن النار، يقال إنه اذا رأى النار حدث له فكر يصده عن قصده، ويشغله عن السابلة. ويقولون إن الضفدع اذا رأى النار تحير وترك النقيق[6].

ونار الفداء، وكان الملوك منهم، إذا أسروا نساء قبيلة، خرجت إليهم السادة منهم للفداء أو الاستيهاب، فيكرهون أن يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن أو

---

1) بلوغ الأرب (2/ 162)، نهاية الأرب (1/ 109 وما بعدها)، نزهة الجليس 02/ 406).

2) الحيوان (4/ 473)، نزهة الجليس (2/ 406).

3) بلوغ الأرب (2/ 161 وما بعدها)، صبح الأعشى (1/ 410).

4) الحيوان (4/ 474 وما بعدها)، (5/ 133)، صبح الأعشى (1/ 409)، نزهة الجليس (2/ 406).

5) صبح الأعشى (1/ 410)، نزهة الحليس (2/ 406).

6) صبح الأعشى (1/ 410)، بلوغ الأرب (2/ 161 وما بعدها)، خزانة الأدب (3/ 212)، نزهة الجليس (2/ 406).

في الظلمـة فيخفـى قـدر مـا يحبسـونه لأنفسـهم مـن الصـفي، فيوقـدون النـار لعرضهن[1].

ونار القرى، هي من أعظم مفاخر العرب، وهي النار التي ترفع للسفر، ولمن يلتمس القرى، فكلما كان موضعها أرفع كان أفخر. وهي نار مذكورة على الحقيقة لا على المثل[2]. وعُرفت عندهم بـ (نار الضيافة) وبـ (نار الأضياف) أيضاً. وقد ذكر أهل الأخبار أنهم ربما يوقدونها بـ (المندلى)، ليهتدي إليها العميان. فالمندلى خشب ذو رائحة طيبة، تفوح منه اذا أحرق، فتشم من مسافة بعيدة[3]. وذكر أنهم كانوا يوقدونها في ليالي الشتاء، خاصة لحاجة الناس إلى القرى في ذلك الوقت. وكلما كانت النار مرتفعة ضخمة، كانت أفخر لصاحبها. وقد أشير إليها في الشعر[4].

ويطلق العرب على كل نار تراها العين لا حقيقة لها عند التماسها، نار الحباحب، ونار أبي الحباحب. وقد ذكر (الجاحظ) أنه لم يسمع في أبي حباحب شيئاً[5]. ولهم قصص عن شخص زعموا أنه كان يعرف بـ (أبي حباحب)، وكان رجلاً في سالف الدهر بخيلاً لا توقد له نار بليل، مخافة أن يقتبس منها نار، أو يراها الضيفان فيفدون إليه، فإن أوقدها ثم أبصرها مستضيئ أطفأها، فضربت العرب به المثل في البخل، فقالت: «أخلف من نار أبي حباحب». وذكر أن (أبا الحباحب) رجل كان لا ينتفع بماله لبخله فنسبوا إليه كل نار لا ينتفع بها[6].

---

1) صبح الأعشى (1/ 410)، بلوغ الأرب (1/ 161 وما بعدها)، خزانة الأدب (3/ 212)، نزجة الجليس (2/ 406).
2) الحيوان (5/ 134)، خزانة الأدب (3/ 212)، نزهة الجليس (2/ 406).
3) بلوغ الأرب (2/ 161 وما بعدها)، نهاية الأرب (1/ 109 وما بعدها).
4) بلوغ الأرب (2/ 161)، صبح الأعشى (1/ 410).
5) الحيوان (4/ 486 وما بعدها)، المخصص (1/ 28)، بلوغ الأرب (2/ 161 وما بعدها).
6) بلوغ الأرب (2/ 161 وما بعدها).

ومن النيران الأخرى: نار البرق، ونار اليراعة، ونار الخلعاء والهراب، ونار الوسم، وهي النار يسم بها الرجل منهم أبله. فيقال له: ما سمة إبلك؟ فيقول كذا[1].

وقد ذكر علماء اللغة أن العرب استعملوا النار في معنيين: معنى حقيقي، ومعنى مجازي. وقصدوا بالنيران الحقيقة، النيران التي كان يوقدها العرب حقاً، وحصروها في أربعة عشر ناراً أو أكثر من ذلك، أو أقل[2]. وقصدوا بالنيران المجازية، استعمال الكلمة في معان مجازية، مثل قولهم نار الحب ونار المعدة، ونار الحُمى، ونار الشوق[3].

الصابئة:

ونجد في القرآن الكريم اشارة إلى الصابئين، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى في موضع من سورة البقرة[4]، وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى في موضع من سورة المائدة وفي سورة الحج[5]. ويظهر أن معارف أهل الأخبار عنهم نزرة، نزرة، فليس لديهم شيء مهم مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم.

وقد ربط أهل الأخبار بين هؤلاء الصابئة المذكورين في القرآن وبين صابئة حرّان وصابئة العراق، وجعلوهم طائفتين في الأصل: طائفة هم صابئة

---

1) الحيوان (4/ 486 وما بعدها)، صبح الأعشى (1/ 410)، نهاية الأرب (1/ 109 وما بعدها).

2) بلوغ الأرب (2/ 161 وما بعدها)، خزانة الأدب، للبغدادي (3/ 212)، (بولاق)، نهاية الأرب (1/ 109 وما بعدها)، الحيوان (5/ 107 وما بعدها)، نزهة الجليس).

3) نهاية الأرب (1/ 109 وما بعدها).

4) البقرة، الآية 62.

5) المائدة، الآية 69، الحج، الآية 17، تفسير الطبري (2/ 144)، «دار المعارف»، مجمع البيان، للطبرسي (1/ 278)، الملل والنحل، للشهرستاني (2/ 98)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، للدمشقي (1/ 44)، «بطرسبورغ»، ابن خلدون (2/ 32)، «دار الكتاب اللبناني 1959م»، المسعودي، مروج (2/ 247)، الفهرست (332)، رسوم دار الخلافة.

حنفاء وهم في نظرهم أصحاب إبراهيم ممن كان بحرّان وممن كان على دعوته، وصابئة مشركون وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب[1].

ولكن الذي يفهم من القرآن الكريم أن الصابئة جماعة كانت على دين خاص، وأنها طائفة مثل اليهود والنصارى، أي إن الكلمة مصطلح ولها مدلول معين مفهوم. فما ذهب إليه المفسرون من هذا التعريف للصابئة ومن هذا التقسيم، انما تكوّن عندهم في الإسلام، بعد وقوفهم على أحوال الصابئة واتصالهم بهم. ويفهم من المواضع التي ورد فيها ذكرهم في القرآن الكريم، ومن ورود اسمهم مع اليهود والنصارى فيه، أنهم كانوا يعبدون إلهاً، ويتوجهون في دينهم إليه[2].

ولا استبعد أن يكون من بين سكان مكة أناس كانوا من الصابئة، جاءوا إليها تجاراً من العراق، أو جاء بهم الحظ إليها، حيث أوقعهم في سوق النخاسة، فاشتراهم تجار مكَة وجاءوا معهم إلى مدينتهم، وعرفوا منهم أنهم صابئة.

ونحن إذا ما تتبعنا ما ورَد عن لفظة صبأ وصابئ في الموارد الإسلامية نرى أن هذه الموارد تفسر لفظة صبأ بمعنى خرج من شيء إلى شيء، وخرج من دين إلى دين غيره. وتذكر أن قريشاً كانت تسمي النبي صابئاً، والصحابة الصباة[3]. أي الخارجين على دين قومهم. وهي تستعمل لفظة الصابئة في كثير من الأحوال في معنى حنفاء، كالذي نراه في ربطهم إبراهيم بهاتين الديانتين، وعدّهم قدماء الصابئة في جملة الحنفاء، فإن هذا يدل على أن المراد من الصابئة بين العرب عند ظهور الإسلام هم المنشقون الخارجون على ديانة قومهم، أي على عبادة الأوثان والمنادين بالتوحيد. وأما ما نراه من إطلاق الصابئة على الصابئة المعروفين في الإسلام، فإنما حدث في الإسلام.

---

1) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون (1/ 887)، بلوغ الأرب (2/ 223 وما بعدها).

2) Dictionary of Islam, p. 551.

3) النهاية (2/ 369)، اللسان (1/ 102)، «وكانت العرب تسمي النبي صلى الله عليه وسلم الصابئ، لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ويسمون من يدخل في دين الإسلام مصبوا.. ويسمون المسلمين الصباة»، تاج العروس (1/ 306)، «طبعة الكويت»، القاموس المحيط (1/ 20).

واطلاق قريش لفظة الصابئ والصباة على المسلمين بدلاً من تسميتهم بمسلمين قضية مهمة جداً، يجب الاهتمام بها، وفي الأخبار أمثلة كثيرة على ذلك. فقد ذكرت كتب الحديث والسير واللغة أن قريشاً دعت النبي صابئاً، وفي جملة من دعاه بذلك عمر قبل اسلامه، ثم رمي عُمر بها بعد إسلامه أيضاً. ولما أسلم أبو ذر الغفاري، انهال عليه أهل مكة بالضرب، لأنه صبأ وفتن وخرج عن دينهم. ولما أرادت زوج مطعم بن عديّ خطبة ابنة أبي بكر إلى ابنها، ذكرت له أنها تخشى أن يؤثر على ولدها، فيكون من الصباة. وقد كانت لفظة الصباة والصُّبّاء بمعنى مسلمين عند المشركين، ففي معركة حنين نجد (دريد بن الصمّة) يخاطب أحد رؤوس القوم ويقول له في جملة ما قاله: «ثم ألق الصُبّاء على متون الخيل»[1]. ولما أرسل بنو عامر لبيداً إلى النبي ليرى خبره وعلمه، أسلم، وأصابه وجع هناك شديد من حمّى، فرجع إلى قومه بسبب تلك الحمّى، وجاءهم بذكر البعث والجنّة والنار، فقال صرافة بن عوف بن الأحوص:

لَعمَرُ لبيد إنه لابن أمه	ولكن أبوه مسه قدم العهد
دفعناك في أرض الحجاز كأنما	دفعناك فحلاً فوقه قرع اللبد
فعالجت حماه وداء ضلوعه	وترنيق عيش مسه طرف الجهد
وجئت بدين الصابئين تشوبه	بلواح نجد بعد عهدك من عهد
وإن لنا داراً زعمت ومرجعاً	وثم إياب القارضين وذي البرد

فكان عمر يقول: «وايم الله إياب القارضين وذي البرد»[2]. فقصد الشاعر بجملة «دين الصابئين» الإسلام، فالصابئون في نظر المشركين هم المسلمون.

ولما ذهب سعد بن معاذ إلى مكة، أنبه أبو جهل على قدومه إليها بعد أن دخل في دين الصابئين. ولما قدم خالد بن الوليد على بني جذيمة، نادوه بأنهم صبأوا، أي دخلوا في الإسلام[3]. ويلاحظ أن الوثنيين أطلقوا هذه التسمية على

1) الطبري (1/ 126)، «معركة حنين».

2) الأغاني (131/15 وما بعدها)، «حبر لبيد في مرثية أخيه».

3) لقد جمع «ولهوزن» أكثر المواضع التي أطلق الوثنيون فيها هذه اللفظة على المسلمين، راجع كتابه: Reste, S. 236.

كل من أسلم، وعلى كل من شكّوا فيه ورأوا أنه ميال إليهم، فكانوا يرمونه بهذه التهمة. أما المسلمون، فلم يرتاحوا إليها. والظاهر أنها كانت سبّة بالنسبة إليهم في ذلك العهد، بدليل أنهم كانوا يكذبون من كان يطلقها من المشركين عليهم ويردّ عليهم رداً شديداً، فلما نادى جميل بن معمر الجمحي في قريش: ألا، إن ابن الخطاب قد صبأ، وذلك حين دخل في الإسلام، وشهد بذلك أمام النبي، نادى عمر من خلفه: كذب، ولكني أسلمت، وقالت قريش: صبأ عمر[1]. ولا بد أن يكون لتكذيب عمر وغيره الوثنيين لتسميتهم المسلمين بهذه التسمية من سبب. وهو سبب يشعر أن أهل مكة انما أطلقوها عليهم إهانة لهم وازدراء لشأنهم وعلى سبيل السبّة، لأنها كانت سبّة عندهم وذلك قبل الإسلام. وإلاّ لما انزعج المسلمون منها، وردّوا على قريش بسببها رداً قبيحاً. وقد رأيت أن المسلمين كانوا يفتخرون باطلاق الحنيفية عليهم، وأنهم كانوا يرون أن الحنفاء هم سلف المسلمين، وأن إبراهيم كان حنيفاً وكان أول المسلمين.

فالصابئون إذن هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم المخالفون لهم في ديانتهم شأنهم في ذلك في نظر قريش شأن من يسميهم المسلمون في أيامنا بالملحدين أو الهدامين، أو أي مصطلح آخر يراد به الرمي بالخروج على مثل المجتمع القائم وتقاليده، وذلك ازدراء بهم، وتنفيراً للناس عنهم.

---

1) ابن الأثير (2/ 34 وما بعدها)، «ذكر إسلام عمر بن الخطاب».

الفصل التاسع

العالم الخفي



الفصل التاسع
العالم الخفي

تسخير عالم الأرواح:

للعالم الخفي، وأقصد به عالم الأرواح وكل ما لا تراه العين ويدركه الحس من قوى طيبة أو خبيثة، أثر خطير في عقائد أهل الجاهلية، وفي عقائد الشعوب القديمة، وفي أنفس كثير من الناس حتى اليوم، إذ يشغل ذلك العالم في الواقع جزءاً خطيراً من الدين ومن حياة الناس عامة. فهناك صلوات وشعائر وأدعية مكتوبة وغير مكتوبة تتلى وتقال وتقرأ للسيطرة على ذلك العالم، وللانتفاع منه، ولتسخيره في سبيل خير الإنسان ومصلحته، ولتجنب أذى النوع الخبيث منه. واذا تتبعنا هذه الاعتقادات، عند الجاهليين، وجدنا أنها قد كونت الجزء الأكبر من عقيدتهم وديانتهم، وأنها والذبائح من الأصول التي ارتكزت عليها ديانات العرب قبل الإسلام.

والواقع أن الاعتقاد بالأرواح يشغل جزّءاً كبيراً من فناء الدين عند الجاهليين، وإن بدا لنا أنه شيء لا علاقة له بالدين. فنحن حين البحث في موضوع العقيدة والدين عند أهل الجاهلية، لا نتحدث بالطبع عن العقيدة والدين بالنسبة إلى معتقداتنا وبالنسبة الى تفكير الإنسان في القرن العشرين، وإنما نتحدث عن رأي أناس عاشوا قبل الإسلام، وعن جماعة أدركت الإسلام، كانت الأرواح في نظرها أكثر أثراً في حياة الفرد من أثر الآلهة فيه. فتقرب وتوسل إليها أكثر من تقربه وتوسله إلى آلهته التي كان يرى أن بيدها مفتاح سعادته وشقائه. وآية ذلك كثرة الكلمات والمصطلحات الجاهلية المتعلقة بها، وما ورد في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي والأخبار من أثر الجن في نفوس القوم، حتى تصوروهم آلهة وشركاء للأرباب في إدارة دفة هذا الكون.

هذا، ونحن إن ذكرنا الأرواح، فإننا لا نقصد المعنى المفهوم منها في رأينا، بل نقصد هذا المعنى وشيئاً آخر أعم وأوسع منه، معنى يشمل أيضاً بعض الأحجار والأشجار والآبار والكهوف وأمثال ذلك من أشياء تصور أهل الجاهلية أنها تكمن فيها قوة خارقة تستطيع التأثير في حياة الناس، فتقربوا إليها بالزيارات والقرابين وبالتضرع والتوسل والأدعية لقدسيتها ولتلك القدرة العجيبة التي فيها، فهي من حيث النفع أو الضرر كالأرواح: لوجود قوى خارقة غير منظورة فيها، هي من الأرواح، فتقرب إليها الإنسان لذلك، لغرض الاستفادة منها أو دفع أذاها.

وطبيعة الأرواح، طبيعة غير مرئية ولا منظورة، هي لطيفة خفيفة مستورة. إنما يجوز لبعضها الظهور في صورة أشباح، والتجسم على هيأة الأجساد. ثم إنها على طبيعتين: شريرة وخيرة، خبيثة وصالحة. من الطبيعة الأولى الشياطين وبعض أنواع الجن، ومن الطبيعة الثانية الملائكة والشطر الثاني من الجن. وأثر الخبيث من الأرواح أوضح وأكثر في عقلية أهل الجاهلية من أثر الفريق الصالح. وهو شيء منطقي مفهوم، فالإنسان إلى الشر أقرب منه إلى الخير، ذلك أن من طبع الخير عدم إلحاق الأذى بالغير، فلا يخشى منه. أما الشرير، ففي طبعه إلحاق الضرر والأذى بكل واحد، وفي كل لحظة يراها، لذلك التفتت إليه الأنظار حذراً منه، وخشية من مكره، وتقرّبت وتوددت إليه، لا حباً، ولا تقرباً إليه لأنه جدير به، بل إنما تملّقاً وتزلفاً لإبعاد شره، وأمن جانبه على نمط ما يفعله الناس تجاه الأقوياء من الأشرار حيث يتقربون إليهم أو يبتعدون عنهم طمعاً ورهبة تمشية لأمور معاشهم، لا حباً لهم وإخلاصاً لاستحقاقهم ذلك الحب والإخلاص.

وقد ذكر (الجاحظ) أن الأعراب تجعل الخوافي والمستجنّات جنسيْن. يقولون جن وحن[1]. وقصد بـ (الخوافي) الأرواح، لأنها لا ترى. وذكر غيره أن (الحن)، حي من الجن، كانوا قبل آدم، يقال منهم الكلاب السود البهم، يُقال كلب حني أو سفلة الجن وضعفاؤهم أو كلابهم، «ومنه حديث ابن عباس، رضي

1) الحيوان (6/ 193).

الله تعالى عنهما، الكلاب من الحن، وهي ضعيفة الجن، فإن كان عندكم طعام فالقوا لهن، فإن لهن أنفساً، أي تصيب بأعينها»[1]. وذكر ان (الحن) خلق بين الجن والانس[2].

وذكر (الجاحظ) أيضاً أن بعض الناس يضم الجنّ على قسميْن، فيقول: هم جنّ و(حن). ويجعل (الجن) أضعفها[3]. وقد ذهب بعض أهل الأخبار إلى أن (الحن)، هم كلاب الجن وسفلتهم، وشر أنواع الجن[4]. ويجعلون الجن فوق الحن[5].

ويقال للجنّ الجان، و(الجنة) كذلك. و(الجان) اسم جمع للجن على رأي بعض علماء اللغة[6]. وقد ورد في مقابل (الإنس) في القرآن الكريم، (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان)[7]، وصيره اسم أبي الجن بعض العلماء، أي في مقابل أدم أبي البشر[8]. وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن كلمة (الجن) من الكلمات المعربة، وذهب بعض آخر الى أنها عربية[9]. وأرى أنها من الكلمات السامية القديمة، لأن الايمان بالجن من العقائد القديمة المعروفة عند قدماء الساميين وعند غير الساميين كذلك. والجن قوم مستترون، وكلمة (جنون) من هذا الأصل، ومن معاني أصل الكلمة الاستتار.

---

1) تاج العروس (9/ 185)، (حنن).

2) المصدر نفسه.

3) الحيوان (7/ 177)، (هارون)، (6/ 193).

4) بلوغ الأرب (2/ 351).

5) قال أعشى سليم:

فما أنا من حن إذا كنت خائفاً ولست من النسناس في عنصر البشر

وقال آخر:

أبيت أهوى في شياطن ترن محتلف نجواهم حن وحن

6) تاح العروس (9/ 165)، (جن)، روح المعاني (14/ 34 وما بعدها).

7) الرحمن، الآية 74.

8) تاج العروس (9/ 165)، (حن)، (والجان: أبو الحن.. كما أن آدم أبو البشر)، اللسان (13/ 95 وما بعدها)، (حنن)، Reste, S. 148.

9) Ency., I, p. 1045, Smith, p. 121, Lane, Lexicon, p. 492.

ولم يتوصل الباحثون حتى الآن إلى رأي ثابت في أصل كلمة (الجن). فمنهم من رأى أنهم اسم صنم من أصنام العرب القديمة، ومنهم من رأى أنها من أصل أعجمي، ومنهم من وجد لها صلة بالحبشية[1]. أما علماء العربية، فرأوا أن معنى الكلمة الأصلي هو الاستتار، وأنها من الاجتنان، ولعدم إمكان رؤية ذلك أطلقت عليه كلمة (الجن)[2]. وتقابل لفظة (الجن) و(جن)، لفظة (Demons) في الإنكليزية.

ويرى (نولدكه) أن فكرة (الجن) فكرة استوردها العرب من الخارج، بدليل قولهم إن الجنة من عمل الجن، ومن تلبس الجن بالإنسان، وهي نظره عقيدة قديمة دخلت العرب من جيرانهم الشماليين، فقد كان الإيرانيون يطلقون على المجنون لفظة (ديوانه) (Devana)، أي الذي به (ديو) (dev) من الأصل (ديوه) (Daiva)، ومعناها (Demon)، أي جان. ومن هذه الفكرة دخلت العهد الجديد من الكتاب المقدس. ويأتي (نولدكه) بدليل آخر على إثبات نظريته في أن فكرة الجن فكرة مستوردة من الخارج شيوع قصص بناء جنّ سليمان مدينة (تدمر) بين الجاهليين، وهو قصص ورد من قصة بناء (سليمان) لـ(تامار) في العهد القديم، وتفسير (تامار) بتدمر عند المفسرين العبرانيين[3].

ورأى (روبرتسن سمث) وجوه شبه كبير بين فكرة العرب عن الجن وبين فكرة بعض القبائل البدائية عن الحيوانات. إن رأي الجاهليين في الجن في رأيه يشبه رأي المتوحشين الطوطميين في الحيوانات الوحشية. وفي القصص الذي يرويه البدائيون عن الحيوانات الوحشية وعن أرواحها وإمكان إحداثها الأمراض والأذى بالإنسان شبّه بهذا القصص المروي عن الحيوانات الوحشية، مما جعله يتصوّر أن فكرة الجن عند الجاهليين هي تطور لهذه النظرية القديمة التي تكون

1)Ency. Religi., I, p. 669, Nöldeke, Moallakat, I, 69, 78, Shorter, Ency., p. 91, Ency., I, p. 1045.

2) تاج العروس (9/ 165)، (جن)، اللسان (13/ 95 وما بعدها)، (جنن).

3)Ency. Religi., I, p. 670.

عند الطوطميين انتقلت إليهم من عقيدة سابقة تطورت من عهد عبادة الطوطم. وأن الجن (طوطمية) دون أن يكون لها قوم يشعرون بوجود صلة نسب وقربى بها[1].

ولكن من الصعب تصور ظهور فكرة الجن عند عرب الجاهلية برمتها من الطوطمية. لأن هناك أموراً عديدة لا يمكن تفسيرها على وفق هذه النظرية. ولكننا نستطيع أن نقول إنها نوع من أنواع الـ (Animism)[2]. وقد وجدت عن العبرانيين في عهودهم القديمة، كما كانت عند البابليين وغيره.

وإذا سكن الجن مع الناس، قالوا: عامر، والجمع عمّار، وإنْ كان ممن يعرض للصبيان، فهم أرواح، فإن خبث أحدهم وتعرّم، فهو شيطان. فإن زاد على ذلك، فهو مارد. فإن زاد على ذلك في القوة، فهو عفريت. فإن طهر الجنى ونظف ونقي وصار خيراً كله فهو ملك وهم في الجملة جن وخوافي[3].

لقد لعب الإيمان بالجن عند بعض الجاهليين دوراً فاق الدور الذي لعبته الآلهة في مخيلتهم، فنسبوا إليها أعمالاً لم ينسبوها إلى الأرباب، وتقربوا إليها لاسترضائها أكثر من تقربهم إلى الآلهة. إنها عناصر مخيفة راعبة. تؤذي من يؤذيها ويلحق بها الأذى والأمراض، وذلك كان استرضاؤها لازماً لأمن تلك الآفات. وهذه العقيدة جعلت الجن في الواقع آلهة، بل أكثر سلطة ونفوذاً منها، وصيّرت عمل الآلهة سهلاً يسيراً تجاه الأعمال التي يقوم بها الجن. ولا زال أثر هذه العقيدة باقياً في نفوس الناس حتى الأيام، مع تقليل أهمية عمل الجن على الإنسان في الإسلام.

وليست هذه العقيدة عقيدة أهل الجاهلية حسب، بل هي عقيدة أكثر من اعتقد بأثر الأرواح في العالم وفي عمل الإنسان، إذ صيرتها آلهة مقرّها الأرض، أو آلهة من الدرجة الثانية. والغريب أننا نرى بعض الشعوب تخصص أعمال الآلهة

---

1)Robertson Smith, Marriage, p. 128.

2) المصدر نفسه.

3) الحيوان (6/ 190 وما بعدها).

الكبيرة بناحية معينة، وتعتبرها آلهة رئيسية كبرى، بينما تجعل عمل الجن عملاً واسعاً يشمل كل الأرض والإنسان، أي أن عملها أوسع جداً من عمل تلك الآلهة وأهم.

وفي القرآن إن قريشاً جعلت بين الله وبين الجنة نسباً: (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)[1]، وإنها جعلت الجن شركاءً له: (وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ)[2]. أي جعلوا لله الجن شركاءً في عبادتهم إياه، وخرقوا له بين وبنات، وتخرصوا لله كذباً، فافتعلوا له بنين وبنات جهلا وكذباً[3]. وورد أن الله تزوج الجن، وأن الملائكة هم بناته من هذا الزواج. «قال كبار قريش: الملائكة بنات الله. فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سراة الجن»[4].

ويفهم من القرآن الكريم أيضاً أن من العرب من كان يعبد الجن: «قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ»[5]. وذكر (ابن الكلبي) أن (بني مليح) من خزاعة رهط طلحة الطلحات، كانوا ممن تعبد الجن من الجاهليين[6]. ويزعمون أن الجن تتراءى لهم[7]. وفيهم نزلت: (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)[8]. وذكر أن قبائل من العرب عبدت الجن، أو صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن. ويقولون هم بنات الله[9]، فأنزل

1) الصافات، الآية 158.
2) الأنعام، الآية 100.
3) تفسير الطبري (7/ 197).
4) لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي (2/ 81 وما بعدها)، حاشية على تفسير الجلالين.
5) سبأ، الآية41.
6) الأصنام (34)، الاشتقاق (276).
7) تفسير القرطبي (14/ 309).
8) الأعراف، الآية 193.
9) تفسير الطبري (15/ 72).

الله: (أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا)[1].

وليس لدى المفسرين أو أهل الأخبار علم واضح عن كيفية اعتقاد بعض العرب بألوهية الجن وبمصاهرتها للآلهة أو الإله. وما ورد عن ذلك في القرآن، مجمل. والظاهر أن ذاكرة الأخباريين لم تتمكن من حفظ تفاصيل هذه العقيدة والعقائد المماثلة الأخرى، ولا بد وأن تكون لها أسطورة قديمة، يظهر أنها ماتت قبل الإسلام، أو أن المسلمين تركوا روايتها لمعارضتها للإسلام ولأنها كانت في نظرهم خرافة تتعلق بأصنام، فلم يروا الاهتمام بها، وتركوها، ولولا ورود ذكرها مقتضباً في القرآن، فلربما صرنا في جهل تام بأمر تلك العبادة.

ويرى (نولدكه) أن الجاهليين لم يتعبدوا للجن، ولم يتخذوها آلهة على نحو ما نفهم من معنى الآلهة، وأن (عبد الجن)، وإن دل على التعبد للجن إلاّ ان هذه التسمية لا تدل حتماً على عبادة للجن[2].

وتتألف الجن من عشائر وقبائل، تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم. وهي كعشائر وقبائل جزيرة العرب، تتقاتل فيما بينها، ويغزو بعضها بعضاً. ولها أسماء ذكر بعضاً منها أهل الأخبار، كما أن لها ملوكاً وحكاماً وسادات قبائل. فهي في حياتها تحيا على شكل نظام حياة الجاهليين. وإذا اعتدى معتدٍ على جان انتقمت قبيلته كلها من المعتدي أو المعتدين. وبين قبائل الجن عصبية شديدة، كعصبية القبيلة عند الجاهليين، وهي تراعي حرمة الجوار، وتحفظ الذمم والعقود وتعقد الأحلاف. فنحن إذن أمام حياة جاهلية مستترة غير منظورة، هي حياة جن جاهلبين، ومن الجن (بنو غزوان)[3]، (بنو عزوان)[4].

---

1) الإسراء، الرقم 17، الآية 57.

2)Ency. Religi., I, p. 670.

3) اللسان (5/ 89)، (وبنو غزوان، حي م ں الحن)، (فرر).

4) تاج العروس (10/ 241)، (عزا).

وقد تتقاتل طوائف من الجن، فيثير قتالها عواصف الغبار، ولذلك فسر الجاهليون حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن. ونجد هذه الفكرة فكرة إحداث الجن للرياح والعواصف في المزامير من أسفار التوراة[1].

وهم مثل البشر، فيهم الحضر، أهل القرار، وفيهم المتنقلة وهم أعراب الجن، وفيهم من يسير بالنهار، وفيهم من يسير بالليل، وهم (سراة الجن)، و(السراة). قال الشاعر:

أتوا ناري فقلت منون قالوا: سراة الجن، قلت: عموا ظلاما[2]

وللجن كما للأنس سادة ورؤساء وعظماء، نذكر منهم: الشنقناق والشيصبان. وقد ذكر الأول في شعر (بشار بن برد) وفي شعر لأبي النجم، وفي شعر حسان بن ثابت[3]. و(دحرش) أبو قبيلة من الجن[4].

وعقد الجاهليون أحلافاً مع الجن على التعاون والتعاضد، فقد ذكر أن قوماً من العرب، كانوا قد تحالفوا مع قوم من الجن من (بني مالك بن أقيش)[5].

ويذكر الرواة قصصاً عن الجن مع الإنسان. يذكرون أن (تأبط شراً) رفع كبشاً تحت إبطه، وأخذه معه إلى الحي، فصار يبول عليه في الطريق، حتى إذا قرب من مكانه، ثقل عليه، فرمى به، فإذا هو الغول[6]. ويذكرون أن ابن امرأة من الجن أراد الحج في الجاهلية، فخافت عليه أمه من سفهاء قريش، ولكنه ألحّ عليها بأن تسمح له بالذهاب. فلما أكمل الطواف، وصار ببعض دور بني سهم، عرض له شاب منهم فقتله، فثارت غبرة شديدة بمكة، ومات من بني سهم خلق كثير قتلهم

---

1) المزمور 104، الآية الرابعة، Reste, s. 151.
2) تاج العروس (10/ 174)، (سرى).
3) الحيوان (1/ 308)، (6/ 228، 231)، ثمار القلوب (55).
4) تاج العروس (4/ 310)، (دحرش).
5) الطبري (2/ 349)، (دار المعارف).
6) الأغاني (18/ 210 وما بعدها).

الجنّ انتقاماً منهم لمقتل الجان، فنهضت بنو سهم وحلفاؤها ومواليها وعبيدها، فتركوا الجبال والشعاب بالثنيّة، فما تركوا حيّة ولا عقرباً ولا عظاية ولا خنفساء ولا شيئاً من الهوام يدب على وجه الأرض إلاّ قتلوه، حتى ضجت الجن، فصاح صائحهم من على أبي قبيس يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم الذين قتلوا منهم أضعاف ما قتله الجن من بني سهم، فتوسطت قريش، وأُنهي النزاع، وتغلب بنو سهم على الجن[1].

والجن مثل البشر، يعتدون كذلك، ولا يردعهم من اعتدائهم إلاّ القوة. هذا رجل من (بني سهم) يقص علينا في الإسلام أنه كان بـ (تبالة) يراجع نخلاً له، وبين يديه جارية له، فصرعت، فأدرك أن الجن هم الذين صرعوها، فوقف عليها قائلاً: يا معشر الجن! أنا رجل من بني سهم، وقد علمتم ما كان بيننا وبينكم في الجاهلية من الحرب وما صرنا إليه من الصلح والعهد والميثاق أن لا يغدر بعضنا ببعض، ولا يعود إلى مكروه صاحبه، فإن وفيتم وفينا، وإن غدرتم عدنا إلى ما تعرفون. فخافت الجن من هذا التهديد، وأفاقت الجارية، ولم يصبها بعد ذلك مكروه[2].

وذهب الجاهليون إلى جواز قتل الجن للإنسان. وقد بقي هذا الاعتقاد في الإسلام. فلما قتل (سعد بن عبادة بن دليم)، زعم أن الجن قتلته[3]. ولما قتل المغني المعروف (الغريض)، وهو من الموالي، وكان نشأ خياطاً ثم أخذ الغناء بمكة عن (ابن سريج)، زعم أن الجن نهته أن يغني لحنه الذي يقول فيه:

تشرب لون الرازقي بياضه أو الزعفران خالط المسك رادعه

---

1) الأزرقي (2/ 11 وما بعدها)، «المطبعة الماجدية بمكة».

2) الأزرقي (2/ 12 وما بعدها).

3) كتاب البغال من رسائل الجاحظ (2/ 373)، المعارف (112)، الحيوان (6/ 209)، الاشتقاق (456)، وسمعوا الهاتف يقول:

قد قتلنا سيد الخزر ج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

الحيوان (6/ 209)، (هارون)، (1/ 308).

فلما لم ينته قتلته الجن في ذلك خنقاً[1].

وزعم أن الجن خنقت (حرب بن أمية)، وقالت الجن في ذلك شعراً[2]. وقتلت (مِرْداس بن أبي عامر)، أبا (عباس بن مرداس)، واستهوت (سنان بن حارثة)، ليستفحلوه، فمات فيهم. واستهووا (طالب بن أبي طالب)، فلم يعثر أهله له على أثر، واستهووا (عمرو بن عدي) اللّخمي الملك، ثم ردّوه على خاله (جذيمة بن الأبرش)، بعد سنين وسنين. واستهووا (عمارة بن الوليد بن المغيرة)، ونفخوا في أحليله، فصار مع الوحش[3].

ويروي أهل الأخبار أن الجن تتصادق مع الإنسان وتتّباغض معه، وقد تقتله، ورووا في ذلك قصصاً، وذكروا أنها قد تتألم لوفاة رجل طيب أو شهير محبوب. وقد تعطف على المحتاجين والمعوزين. وفي جملة ما قالوه عن الجن إن (أبا هالة) كان قد خرج في الجاهلية في عير لقريش يريد الشام، فنزل وادياً يقال له: (عز)، وانتبه آخر الليل فإذا شيخ قائم على صخرة، وهو ينشد شعراً في رثاء عبد الله بن جُدعان، وكان ذلك الشيخ جان من الجن. وقد ذكر أهل الأخبار محاورة من الشعر قالوا إنها جرت بين (أبي هالة)، وبين ذلك الشيخ الجني الذي عين وقت وفاة (عبد الله بن جدعان)، وثبته بالضبط فكان كما قال[4].

وقد يقع الحب بين الجن والإنس. فقد ذكر أن الجنية قد تتبع الرجل تحبه، ويقال لها: تابعة. ومن ذلك قولهم معه تابعة، أي من الجن. والتابعة جنية تتبع الإنسان كما يكون للمرأة تابع من الجن، يتبع المرأة يحبها[5]. وقد يعشق

---

1) كتاب البغال من رسائل الجاحظ (2/ 373)، الأغاني (2/ 136، 143)، الحيوان (6/ 208)، (هارون)، الحيوان (1/ 307).

2) الحيوان (1/ 302)، (هارون)، وقالت الجن:

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

الحيوان (6/ 207)، (هارون).

3) الحيوان (6/ 209 وما بعدها)، (هارون).

4) الاشتقاق (ص 88 وما بعدها).

5) اللسان (8/ 29)، (تبع).

الجـني امـرأة ويتصـادق معهـا. هـذا (منظـور) الجـني، عشـق امـرأة اسمهـا (حبّـة)، وتصادق معها، فكانت (حبة) تتطبب بما يعلمها منظور[1].

وقد يسرق الجن الأطفال والرجال والنساء، وللأخباريين قصص يروونه في ذلك. وينسب فقدان الأشخاص في البوادي إلى الجن في الغالب. غير أنها قد تنفع الناس أيضاً، لأن من الجن من هو طيب النفس، مفيد نافع، ولاسيما اذا تقرب إليها الإنسان وأحسن إليها. رأى الشاعر عبيد بن الأبرص حية، فسقاها. فلما ضل جمل له وتاه، نادى هاتف بصوت مسموع سمعه عبيد بن الأبرص مشيراً إلى الموضع الذي ذهب الجمل إليه. فذهب عبيد إلى المكان، وجاء بجمله[2]. وكان هذا الهاتف هو صوت الحية التي هي جان من الجن.

وقد يتصاهر الإنسان مع الجن، فقد كان لعمرو بن يربوع بن حنظلة التميمي زوج من الجن: ولكنها لم تبق معه، بل اختفت بعد ذلك عند ظهور البرق[3]. ونسبت بعض الأسر والقبائل مثل (بني مالك)، و(بني شيصبان)، و (بني يربوع بن حنظلة) وعرفوا ببني السعلاة إلى الجن[4]. ونسب بعض الأخباريين نسب بلقيس وذي القرنين إلى الجن[5]. وذكر أيضاً أن زوج (عمرو بن يربوع التميمي) كانت سعلاة، أقامت مع زوجها في (بني تميم): فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى، حنت وطارت إليهم، فقال شاعرهم:

رأى برقاً فأوضع فوق بكر فلا بك ما أسأل وما أغامت[6]

---

1) تاج العروس (1/ 198)، (حب).

2) الأساطير العربية (79)، Reste, 154, ff.

3) الحماسة (561/1)، (طبعة فرايتاغ)، بلوغ الأرب (2/ 340)، الحيوان (1/ 185 وما بعدها، 188)، (هارون)، Reste, S. 154.

4) الأساطير العربية (75).

5) بلوغ الأرب (2/ 349)، الحيوان (1/ 187 وما بعدها).

6) الحيوان (1/ 186)، (هارون)، (6/ 197).

وفي ذلك قال (علباء بن أرقم):

يــا قـــاتل الله بــني الســـعلاة   عمـرو بـن يربـوع شـرار النـاتِ[1]

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع زواج الإنس بالجن وبالعكس، أي زواج الجن بالانس. وتعرض لقول من قال إن (بلقيس) كانت من امرأة جنيّة. وذكر آراء الناس في هذا الزواج المختلط، الذي شك في امكان إنجاب نسل منه. وقال: «وقد يكون هذا الذي نسمعه من اليمانية والقحطانية، ونقرؤه في كتب السيرة، قص به القصاص، وسمروا به عند الملوك»[2]. وقد كان لأهل اليمن قصص وأساطير، بدليل ما نلاحظه من أن معظم رواة القصص القديم كانوا من أهل اليمن في صدر الإسلام. ويظهر أنهم حذقوا به وتفوقوا به على بقية العرب الذين نسميهم العدنانيين بسبب دخول كثير منهم في اليهودية وفي النصرانية وشرائهم الكتب، وفيها قصص من قصص أهل الكتاب والأساطير القديمة، فمزجوه مع ما كان لهم من قصص وثني قديم.

وقد أطلق (الجاحظ) على قول الناس بزواج الإنس بالجن وبالعكس (الزواج المركب)، وأشار إلى قول الشاعر علباء بن أرقم:

يــا قاتَـلَ اللهُ بــني الســعلاة   عمــراً وقابوســا شــرار النــات

إنه الدليل على أن السعلاة تلد الناس. هذا سوى ما قالوا في الشق وواق واق ودوُال باي وفي الناس والنسناس[3].

---

1) الحيوان (6/ 161)، اللسان (407/2)، نوادر أبي زيد (104، 147)، المخصص (3/ 26)، (13/ 283)، الأمالي، للقالي (2/ 68)، محاضرات الراغب (2/ 281)، الخصائص (451)، الفصول والغايات (210).

2) كتاب البغال من رسائل الجاحظ (2/ 317).

3) كتاب البغال من رسائل الجاحظ (2/ 374)، الحيوان (1/ 189)، (هارون).

وقد وجه الإنسان جميع مواهبه منذ أقدم أيامه لتسخير عالم الأرواح، وجعله في خدمته وتحت تصرفه، أو لتحويله بحسب رغباته، وتجنب ضرره وأذاه. قام بذلك رجال الدين خاصة، ورجال الدين بحكم اتصالهم بالآلهة وبالعالم غير المنظور، هم خلفاء الآلهة على وجه الأرض، وألسنة الأرواح الناطقة بين الناس. فكانوا حكاماً ورجال دين وسحرة وأطباء وعلماء، كما قام بذلك المنجمون والسحرة والكهّان وغيرهم ممن تكهن وتحدث عن الغيب، وأظهر أن في قدرته التأثير على حياة الإنسان ونفعه وضره بالاستعانة بعالم الأرواح وبما عنده من قدرات خارقة في إمكانها اختراق حجب الأسرار والتحكم في العالم الخفي لتحويله إلى صالح إنسان أو الى الاضرار به.

وليس الجاهليون بدعاً في هذه الأمور، بل كان غيرهم من الشعوب كالعبرانيين والبابليين والإغريق والرومان والمصريين والهنود وكل الشعوب الأخرى تعتقد بذلك. ولها رجال ادعوا العلم.

وقد كان الجاهليون يعلقون الحلي والجلاجل على (اللديغ)، يفعلون ذلك لاعتقادهم أنه يفيق بذلك، فلا ينام. ولو نام، سرى السم في جسمه، فمات. وذهب بعضهم إلى أن تعليق الحلي على اللديغ يبرئه من أمله. أما إذا علق الرصاص عليه، أو حلي به، فإنه يموت[1].

وتقوم الجن بأعمالها بشكل غير منظور في الغالب، لانها أرواح. وهي قد تحذر الإنسان أو ترشد إلى شيء يريده بصوت جهوري مسموع، يقال له: الهاتف، دون أن يرى الشخص أو الأشخاص صاحب ذلك الصوت. وهي تنبىء عن المستقبل كما تتحدث عن الماضي[2]. وقد ذكر (الجاحظ) أن الأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف، بل يتعجبون ممن ردّ ذلك. ثم قال: «قالوا: ولنقل

---

1) بلوغ الأرب (3/ 304).

2) الحيوان (6/ 202).

الجن الأخبار علمَ الناس بوفاة الملوك، والأمور المهمة، كما تسامعوا بموت المنصور بالبصرة وفي اليوم الذي توفي فيه بقرب مكة. وهذا الباب أيضاً كثير»[1].

والجن وإن كانت من الأرواح، أي أنها غير منظورة، إلاّ أن في استطاعتها أن تتجسم متى شاءت. فتظهر على هيئة جسم من الأجسام. إذ إن للجن قدرة على التشكل بالشكل الذي تريده، تظهر في صورة حيوان أو في صورة إنسان أو غير ذلك. ومن هنا نجد قصص مصاهرة الإنسان للجن، وظهور نسل وأسر من هذا الزواج. وفي استطاعتها أيضاً تغيير الشكل الذي ظهرت به بشكل آخر حيث تشاء[2]. كما ورد ذلك في قصة الشاعر (تأبط شراً) والكبش الذي حمله، بينما هو جني. ومن هنا تختلف طبيعتها عن طبيعة البشر والحيوان.

وقد تمثل الجن في صور حيوانات مشعرة، أي ذات شعر كثيف. فالجن عند الشعوب السامية ذات شعر كثيف، لذلك قيل لها (سعريم) (Sa'irim) في العبرانية. وهي تختار الأماكن الموحشة المقفرة في الظلام، مثل رهبان الليل (ليليت) (Lilith)، وتذهب مع الحيوانات التي تنفر من الإنسان مثل النعامة[3].

وفي الأساطير الجاهلية إن البقر اذا أوردت «فلم ترد، ضربوا الثور ليقتحم الماء، فتقتحم البقر بعده، ويقولون إن الجن تصدّ البقر عن الماء، وإن الشيطان يركب قرني الثور»[4]. وقد ذكرت هذه الأسطورة في أشعار جاهلية، يظهر من نقدها ودراستها أنها من آثار العقائد الجاهلية في الجن. وقد اتخذت مثلاً لمن ينزل عليه مكروه في سبيل إخافة غيره، فيكون بذلك كبش الفداء. واعتقادهم أن

---

1) الحيوان (6/ 202 وما بعدها).

2) Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semite, p. 120.

3) Robertson, p. 120, B.C. Thompson, Semitic Magic, London, 1908, p. 57.

4) قال الأعشى:

لكالثور والجني يضرب وجهه ... وما ذنبه إن عافت الماء باقر

ولغيره:

إني وقتلى سليكا حين أعقله ... كالثور يضرب لما عافت البقر

شرب الماء ذلك لأن الشيطان ركب قرنيه، فلا يخشى الثور إذن من الجن، والشيطان أخبث أنواع الجن وأذكاها. فتخافه الجن، وتفسح المجال للبقر في ورود الماء. أما ضرب الثور لتوجيهه إلى الماء، فلأجل أن الشيطان ركب قرنية، فبضربه وبتقدمه يتقدم الشيطان نحو الماء فتخافه الجن وتفزع منه، وتسمح للبقر بورود الماء، ولهذا ضرب، ليستفيد بذلك غيره[1].

وأهم مواطن الجن في نظر الجاهليين، هي المواضع الموحشة، والأماكن المقفرة التي لا تطرق إلاّ نادراً والمحلات التي لا تلائم الصحة، والمقابر والاماكن المظلمة والمهجورة. ففي مثل هذه المواطن تنزل الجن، وتفضل الإقامة بها، وسبب ذلك، هو أن الإنسان يخشى هذه المواضع، ويحس بشيء من الخوف والوحشة من الدخول إليها، فقد يتعرض فيها إلى التهلكة، فأوحى هذا الاحساس اليه أنها (مسكونة)، وأن سكانها هم الجن. وأنهم قد يتعرضون له بسوء إن لم يعرف كيف يسلك سلوكاً طيباً معها، ولذلك صار يتحاشى ولوج هذه المواضع، لا سيما في الليالي المظلمة، واذا دخلها مضطراً، تخيل الأشباح والأرواح وهي تلعب به كيف تشاء، وتحوم حوله. ومن هنا ظهر عنصر القصص المروي عن مواطن الجن.

وسكنت الجن المواضع المظلمة والفجوات العميقة فيها وباطن الأرض، ولذلك قيل لها: ساكنو الأرض. كما سكنت المقابر[2]. والمقابر هي من المواضع الرئيسية المهمة المأهولة بالجن، ولذلك يخشى كثير من الناس ارتيادها ليلاً. وهي لا بد أن تكون على هذه الصفة، فهي مواطن الموتى، وأرواح الموتى تطوف على القبور، والموت نفسه شيء مخيف، والجن أنفسها أرواح مخيفة، فهل يوجد موضع أنسب من هذا الوضع لسكن الجن؟

وتزعم الأعراب أن الجن سكنت (وبار). وحمتها من كل من أرادها؛ وهي بلاد من أخصب بلاد العرب، وأكثرها شجراً، وأطيبها ثمراً واكثرها حباً وعنباً.

---

1) بلوغ الأرب (2/ 203 وما بعدها).

2) Reste, S. 151.

فإن دنا إنسان من تلك البلاد متعمداً أو غالطاً، حثوا في وجهه التراب. فإن أبى الرجوع خبلوه، وربما قتلوه. فليس في تلك البلاد إلاّ الجن، والإبل الحوشية[1].

وقد زعم أن (يبرين) من مواطن الجن. وكانت في الأصل مواضع عاد. فلما هلكت، سكنتها قبائل الجن. وقد روى أهل الأخبار قصصاً عنها وعن اتصالها بالانسان. وزعم بعض منهم أن (النسناس)، هم قوم من الجن[2].

وقد ورد مثل هذه الاقوال عن مواضع أخرى كانت عامرة آهلة، ثم أقفرت، مثل الحجر موضع ديار ثمود[3]، مما يدل على أن من اعتقادات العرب قبل الإسلام هو أن المواضع التي تصيبها الكوارث تكون بعد هلاك أصحابها مواطن للجن. وفي مثل هذه الأساطير عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب[4].

وأشير في شعر (لبيد) إلى (جن البدي). قيل: «والبدي: البادية، أو موضع بعينه» وقيل واد لبني عامر[5]. وأشار (النابغة) إلى (جنة البقار). وذكر أن البقار واد، أو رملة، أو جبل، سكنته الجن، فنسبت إليه[6]. وأشير إلى (جنة عبقر) في شعر (زهير) و(لبيد) و(حاتم)[7]. وعبقر أرض بالبادية كثيرة الجن، وذكر بعضهم أنها باليمن[8]، قال لبيد:

ومن فاد من إخوانهم وبنيهم — كهول وشبان كجنة عبقر

---

1) الحيوان (6/ 215 وما بعدها).

2) تاج العروس (4/ 257)، (نسن).

3) Reste, S. 150

4) Robertson, p. 120.

5) الحيوان (6/ 189)، (هارون).

6) الحيوان (6/ 189)، اللسان (6/ 47)، (12/ 330).

7) الحيوان (6/ 189)، اللسان (6/ 209)، البلدان (6/ 209)، البلدان (6/ 113)، ثمار القلوب (188).

8) تاج العروس (379/3)، (عبقر)، اللسان (04/ 534).

وقال بعض العلماء: عبقر قرية يسكنها الجن فيما زعموا، فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصعب عمله ويدق أو شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه إليها. ولهذا قالوا: للعبقري للسيد الكامل من كل شيء، وللذكي الممتاز[1].

والمواضع المذكورة هي المواضع المفضلة المختارة لسكنى الجن. غير أن مواطن الجن غير محدودة ولا معينة، إنها تسكن كل موضع ومكان، حتى بيوت الناس لا تخلو منها، بل حتى البحار والسماء لا تخلو منها كذلك، فدولتها إذن على هذا الوصف أوسع من دولة الإنسان. وعلى من سكنت الجن بيته ألاّ يمسها بأذى ولا يلحقها أي سوء، وأن يقوم بترضيتها بالبخور وبما شاكل ذلك مما تحبه الجن، وإلا أساءت اليه، وجعلت بيته مؤذياً شؤماً، لا يرى من يسكن فيه أي خير.

وكان الرجل في الجاهلية إذا اطّرف داراً ذبح فيها ذبيحة، يتقي بها أذى الجن، لاعتقادهم أن في كل دار جنّا يقيمون بها فلترضيتهم وللتقرب إليهم، يذبحون ذبيحة عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن)[2]. ولا تزال عادة الناس ذبح ذبيحة عند الابتداء ببناء دار، وعند الانتقال إليها. وكانوا أيضاً يذبحون ذبيحة عند استخراجهم عيناً، أو شرائهم داراً، أو بنيانهم بنياناً، مخافة أن تصيبهم الجن، فأضيفت الذبائح اليهم لذلك. وقد نهى النبي عن ذبائح الجن[3].

وكان في اعتقادهم أن الأماكن المذكورة مليئة بالجن، لذلك كانوا يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم، اذا نزلوا منازلهم، يقولون: نعوذ بأعز أهل هذا المكان، أو إني أعوذ بكبير هذا الوادي. والى ذلك أشير في القرآن الكريم: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)[4]. روي، عن عن (حجاج بن علاط السلمي)، «إنه قدم مكة في ركب فأجنهم الليل بواد مخوف

1) تاج العروس (379/3)، (عبقر).
2) اللسان (13/ 213)، (سكن).
3) اللسان (2/ 437)، (ذبح).
4) سورة الجن، رقم 72، الآية 6، تفسير الطبري (29/ 67 وما بعدها).

موحش، فقال له الركب: قم خذ لنفسك أماناً ولأصحابك، فجعل يطوف بالركب ويقول:

أعيذ نفسي وأعيذ صحبي　　　من كل جني بهذا النقب
حتى أأوب سالماً وركبي»[1]

فوصل وركبه سالماً إلى مكة دون أن يمسه أو أن يمس من كان معه من الركب أحد بسوء[2].

وروي أن الرجل منهم كان إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل عمد الى واد ذي شجر فأناخ راحلته في قرارته وهي القاع المستديرة وعقلها وخطّ عليها خطاً ثم قال: «أعوذ بصاحب هذا الوادي»[3]. وربما قال بعظيم هذا الوادي. قال أحدهم:

قد بتُ ضيفاً لعظيم الوادي　　　المانعي من سطورة الأعادي
راحلتي في جاره وزادي[4]

وقالوا إنهم كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً يقولون: نعوذ بأعزّ أهل هذا المكان. يقولون ذلك عند نزولهم وادياً في الغالب، إذ نجد الرواة يكررون عبارة: «كانوا إذ نزلوا الوادي، قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي»، أو «بعزيز هذا الوادي»[5]. ويظهر أنهم تخوفوا من الوديان خاصة، لما قد يقع فيها من مهالك، فنسبوا ذلك إلى فعل الجن.

---

1) الروض الأنف (136/1).
2) الروض الأنف (1/ 136)، الإصابة (1/ 312)، (162).
3) بلوغ الأرب (2/ 325).
4) بلوغ الأرب (2/ 326).
5) تفسير الطبري (29/ 68 وما بعدها).

وقال آخر يستجير بجن (عالج) ويتوسل إليهم ألاّ يرهقوه بغويّ هائج، إذ يقول:

يا جن أجزاء اللوى من عالج عاذ بكم ساري الظلام الدالج
لا ترهقوه بغويّ هائج

وقال آخر:

أعوذ من شر البلاد البيد بسيّد معظم مجيد
أصبح يأوي بلوى زرده ذي عزة وكاهل شديد

وقد استعاذ رجل منهم ومعه ولد، فأكله الأسد فقال:

قد استعذنا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعادي
فلم يجرنا من هزبر عادي[1]

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يرون أن الجن تعزف في المفاوز بالليل. والعزف والعزيف صوت الجن، وهو جرس يسمع بالمفاوز. وهو صوت يسمع بالليل كالطبل. ورُوي عن (ابن عباس) قوله: «كانت الجن تعزف بالليل كله بين الصفا والمروة»[2]. وقد اشتهر موضع (العزاف)، وقيل (ابرق) العزاف بأنه موضع يسمع به عزيف الجن[3].

وقد موّن القصص الاسرائيلي أهل الجاهلية بشيء مما كان ينقصهم من أساطير الجن، وتوسع وزاد هذا القصص في الإسلام، حتى تولد منه هذا الذي نجده مدوناً عن أخبار الجن في المؤلفات الإسلامية.

---

1) بلوغ الأرب (2/ 326).
2) تاج العروس (6/ 197)، (عزف).
3) تاج العروس (6/ 197، 287)، (برق).

وتخبر الجن الإنسانَ بحوادث تقع في مواضع بعيدة، وهو لا يعلم عنها شيئاً. فلما هبط (نباش بن زرارة بن وقدان)، زوج (خديجة بنت خويلد) قبل النبي، وادياً يُقال له (عز)، انتبه في آخر الليل، فاذا شيخ قائم على صخرة، وهو يقول:

ألا هلك السيّال غيث بني فهر وذو العز والباع القديم وذو الفخر

فقال له نباش:

ألا أيها الناعي أخا الجود والفخر من المرء تنعاه لنا من بني فهر

ويقيا يقولان الأبيات، حتى أخبره الشيخ بوفاة (عبد الله بن جدعان) في وقت حدده وضبطه له. فلما وصل مكة، علم بوفاته على نحو ما أخبره به ذلك الشيخ. وهو جني من الجن، ينظم الشعر، وقد رثى (ابن جدعان)[1].

ونجد في شعر الشعراء الجاهليين أمثال (أمية بن أبي الصلت) و(الأعشى) إشارات إلى الجن. وهم من أقل الجاهلية الذين كان لهم اتصال بأهل الكتاب وبكتبهم، وقد زعم أن بعضاً منهم كان قد قرأ تلك الكتب ووقف على العبرانية أو السريانية. ولهذا ورد في شعرهم شيء من قصص أهل الكتاب. وفي جملته ما ذكرته من إشاراتهم الى الجن. وتراهم يربطون بينها وبين (سليمان). أخذوا ذلك ولا شك من الأساطير العبرانية، التي صيّرت الجن في خدمة (سليمان). فنجد الأعشى يقول:

وسخّر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون محاريا

قصد بذلك (سليمان)[2] ونجد أن في جملة ما نسب عمله إلى جن سليمان بعض المواضع مثل تدمر وقصر غمدان.

---

1) الاشتقاق (88 وما بعدها).

2) تاج العروس (9/ 165)، (جن).

وسخر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجر

اللسان (13/ 97)، (جنن).

وقال النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قال الإله له	قم في البرية فاحددها عن الفند
وخَيِّس الجن إني قد أذنت لهم	يبنون تدمر بالصفاح والعمد
فمن عصاك فعاقبه معاقبة	تَنْهي الظلوم ولا تقعد على ضمد[1]

وفي هذا الشعر إن صح أنه من نظم النابغة حقاً، دلالة على تأثر الشاعر بالأسطورة اليهودية عن (تامار)، وعن جن سليمان.

ونسبوا السيوف المأثورة إلى جن وشياطن (سليمان). ونسبوا اليه واليهم أشياء عديدة أخرى[2].

وقد ادعى أناس من الجاهليين أنهم كانوا يرون الغيلان والجن، ويسمعون عزيف الجان، أي صوت الجن. وقد بالغ الأعراب في ذلك، وأغربوا في قصص الجان، لما كانوا يتوهمونه من ظهور الأشباح لهم في تجوالهم بالفيافي المقفرة الخالية، فتصوروه جناً وغولاً وسعالى، وبالغوا في ذلك أيضاً، لما وجدوه في أهل الحضر ولا سيما في الإسلام من ميل إلى سماع قصص الجان والسعالى والغول[3]. وقالوا إنهم ربما نزلوا بجمع كثير، ورأوا خياماً، وقباباً، وناساً، ثم إذا بهم يفقدونهم من ساعتهم، وذلك لأنهم من الجن[4].

ونسبوا إلى الجن إحداث كثير من الأمور غير الطبيعية، مثل الأمراض والأوبئة والصرع والاستهواء والجنون خاصة. فالجنون هو تلبس الجن بالإنسان ودخولهم جسمه. لذلك ربطوا بين الجن والجنون. ويرى (نولدكه) أن فكرة أن الجنون من عمل الجن، عقيدة قديمة وجدت عند غير العرب كذلك. فقد كان الايرانيون يطلقون على المجنون لفظة (ديوانه) (Devana)، أي الذي به (ديو)

---

1) الحيوان (6/ 223).

2) الحيوان (6/ 187).

3) الحيوان (6/ 172 وما بعدها، 182).

4) الحيوان (6/ 200)، (هارون).

(Dev) من الأصل (ديوه) (Daiva)، ومعناها (Demon) أي جان. ومن هذه الفكرة دخلت في العهد الجديد من الكتاب المقدس. ومن الفارسية دخلت (ديوان) (Daiwan) في الإرمية بينما دخلت إلى الفارسية كلمة (شدها) (Shedha) من أصل (شدهان) (Shedhan) الإرمي واستعملت في مقابل (Deo) أي جان. و(شيده) (Shedh) في الإرمية الجان[1].

وهم يزعمون أن الجن اذا عشقت إنساناً صرعته، ويكون ذلك على طريق العشق والهوى، وشهوة النكاح. وأن الشيطان يعشق المرأة، وأن نظرته إليها من طريق العجب بها أشد عليها من حُمى أيام، وأن عين الجان أشد من عين الانسان[2].

والعرب تزعم أن الطاعون من الجن، ويسمون الطاعون رماح الجن. قال الأسدي للحارث الملك الغساني:

لعمرك ما خشيت على أُبيٍّ   رِماح بني مقيَّدة الحمار
ولكني خشيت على أبيٍّ   رِماح الجن أو إياك حار[3]

وللجنّ حوار مع الإنس وكلام تجده منثوراً كما نجده منظوماً في شعر ينسب إلى الشعراء الجاهليين. ويروي الأخباريون شعراً ينسب إلى (جذع بن سنان) ورد فيه وصف ملاقاته الجن ومحاورته معها ودعوته إياها إلى الطعام وامتناعها عن الأكل، كما رووا شعراً لغيره يصف ملاقاة بين الجن وبين أصحاب هذا الشعر[4]. وهو قصص لم يبخل على الجن فأعطاها شعراً من هذا الشعر الجاهلي الفصيح! وقد سخر (الخيتعور) أحد (بني الشيصبان) من الجن من الأشعار التي

1) Ency. Religl., I, p. 670.

2) الحيوان (6/ 217 وما بعدها).

3) الحيوان (6/ 219).

4) بلوغ الأرب (2/ 350 وما بعدها).

جمعها (المرزباني) (المتوفى سنة 384هـ)، من شعر الشعراء الجن، فما هذا الذي جمعه إلا قطعة من شعرهم، وهل يعرف البشر من النظم كما يعرف الجن.

وانما للبشر خمسة عشر جنساً من الموزون، قل ما يعدوها القائلون، وإن للجن آلاف الأوزان ما سمع بها الإنس[1].

طعام الجن:

وطعام الجن مثل طعام الإنسان، وهم يشاركونه أكله، في بعض الأحيان. «رووا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه سأل المفقود الذي استهوته الجن: ما كان طعامهم؟ قال: الفول. قال: فما كان شرابهم؟ قال: الجدف. ورووا أن طعامهم الرمة وما لم يذكر اسم الله عليه»[2]. وقد جاء قوم من الجن إلى نار (شمر بن الحارث الضبّي)، فدعاهم إلى الطعام بقوله:

أتـوا نـاري فقلـت منـون قـالوا	سـراة الجـن قلـت عمـوا ظلامـا
فقلـت إلى الطعـام فقـال مـنهم	زعـيم نحسـد الإنـس الطعامـا[3]

والحوشي من الإبل هي التي قد ضربت فيها فحول إبل الجن. فالحوشية من نسل إبل الجن[4]. ويقال إنها منسوبة إلى (الحوش) بلاد الجن من وراء رمل يبرين، لا يمر بها أحد من الناس، وقيل هم من بلاد الجن. وقيل الحوشية إبل الجن، أو منسوبة إلى الحوش وهي فحول جن، تزعم العرب أنها ضربت في نعم (بني مهرة بن حيدان) فنتجت النجائب المهرية من تلك الفحول الوحشية، فنسبت إليها، فهي لا يكاد يدركها التعب[5].

1) رسالة الغفران (291)، (بنت الشاطئ).
2) الحيوان (6/ 210 وما بعدها).
3) الحيوان (6/ 197).
4) الحيوان (216/6).
5) الحيوان (4/ 302)، (حاش).

الحية:

والحية من أكثر الحيوانات وروداً في القصص الذي يرويه الأخباريون عن الجن. وقد جعلوها فصيلة مهمة من فصائلها، ونوعاً بارزاً من أنواعها. قال بعض العلماء: الجان، حيّة بيضاء، وقال بعض آخر: الجان حيّة، أو ضرب من الحيّات[1]. ولما قام (حرب بن أمية) جد معاوية بن أبي سفيان مع (مرداس بن أبي عمرو) بإصلاح (القرية)، وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام، فأضرما النار في الغيضة، فلما استطارت وعلا لهيبها سمع من الغيضة أنين وضجيج كبير، ثم ظهرت منها حيات بيض تطير حتى قطعتها وخرجت منها، فما لبث أن مات الرجلان، أماتهما الجن على ما يزعمه رواة هذا الخبر[2]. ولعلهما ماتا بعضة حية من تلك الحيات التي كانت ساكنة بين تلك الأعشاب وقد هاجتها تلك النيران. ومثل هذه المواضع تكون موئلاً للحيات والحشرات، فابتدعت مخيلة القصاصين هذه القصة عن فزع الجن وطيرانها في صورة ثعابين بيض. ويعلل (نولدكه) وفاتهما بفعل الاختناق من الغاز الذي تصاعد من الاحتراق[3].

وذكروا أن الحيّة لا تموت حتف أنفها، وإنما تموت بعرض يعرض لها. وأنها تصبر على الجوع حتى ضرب بها المثل في ذلك. وأنها اذا هرمت صغرت في بدنها. ولم تشته الطعام[4]. وأنها تنطق وتسمع. وقد أورد أهل الأخبار شعراً في ذلك، ذكروا أنه للنابغة. ومذهب النابغة في الحيات مذهب أمية بن أبي الصلت، وعدي بن زيد وغيرهما من الشعراء[5]، الذين تأثروا برأي أهل الكتاب فيما جاء عن عن الحية في العهدين وفي كتب الشروح والتفاسير والقصص الاسرائيلي القديم.

---

1) تاج العروس (9/ 165)، (جن).

2) الحيوان (2/ 143)، (حاشية)، Robertson, p. 233.

3) Ency. Religi., I, p. 670.

4) الحيوان (4/ 118 وما بعدها)، (موت الحية).

5) الحيوان (203/4 وما بعدها).

ولم تنفرد مخيلة الجاهليين وحدها باختراع أسطورة أن الحيات هي من الجن، وأنها جنس منها، فإن غير العرب من الساميين مثل العبرانيين كانوا يقولون أيضاً بهذا القول. وكذلك قال بهذه الأسطورة غير السامين، مما يدل على أنه من الأساطير القديمة جداً التي انتشرت عند البشر، بسبب ما قاسوه في أيام بداوتهم من هذا الحيوان[1]. ونجد قصة الحية في سفر التكوين. وهي في هذا السفر أشد الحيوانات حيلة، فهي التي خدعت حواء خدعتها الشهيرة، وسببت طردها وطرد زوجها آدم من الجنة إلى الأرض[2].

ولعقيدتهم هذه في (الحية)، كانوا اذا وجدوا حية. ميتة كفنوها ودفنوها، فعلوا ذلك في الإسلام أيضاً جاء أنه بينما كان (عمر بن عبد العزيز) بمشي في أرض فلاة، فاذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها. وورد أنه كان جمع من أصحاب رسول الله «يمشون فوقع لهم إعصار، ثم جاء إعصار أعظم منه، ثم انقشع، فاذا حية قتيل، فعمد رجل منا إلى ردائه وكفّن الحية ببعضه ودفنها. فلما جنّ الليل اذا امرأتان تساءلان أيكم دفن عمرو بن جابر فقلنا ما ندري ما عمرو بن جابر! فقالتا إن كنتم ابتغيتم الأجر، فقد وجدتموه. إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين منهم. فقتل عمرو، وهو الحية التي رأيتم»[3].

«وفي الحديث: أنه نهى عن قتل الجنان. هي الحيات التي تكون في البيوت، واحدها جان، وهو الدقيق الخفيف»[4]. والجان الشيطان أيضاً، وورد في الحديث: ذكر الحيات، فقال: من خشي خبثهن وشرهن واربهن، فليس منا. أي من توقى قتلهن خشية شرّهن فليس ذلك من سنتنا. وكانت الجاهلية تقول إنها تؤذي قاتلها أو تصيبه بخبل[5].

---

1) Ency. Relıgi., I, p. 669.

2) السفر الثالث من التكوين، الآية 1 وما بعدها.

3) الروض الأنف (1/ 136).

4) اللسان (13/ 95)، (جنن).

5) تاج العروس (1/ 145)، (أنب).

وذكر العلماء أن (اللاهة) الحية، أو الحية العظيمة. وأن (اللات)، الصنم المعروف أصله (لاهة) كأنه سمي بها. وأن اسم الجلالة منها[1]. وفي الأساطير الجاهلية ما يفيد تعبد الجاهليين للحية، وفي هذا التفسير ما يؤيد هذا الرأي.

ويقال للحية: (بنت طبق). و(بنات طبق) الحيات، والحية (أم طبق) وبنت طبق. وهي (الدواهي) ومن أساطيرهم أن بنت طبق سلحفاته تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحف، وتبيض بيضة تنقف عن حية[2].

والحيات شياطين، وللعرب شجر يطلقون عليه (الصوم)، كريه المنظر جداً، يقال لثمره (رؤوس الشياطين) أي الحيات، وليس له ورق[3].

الغول:

وقصص الغول هي من أشهر القصص الجاهلي المذكور عن الجن، ومع خطر الغول وشراسته في رأي الجاهلين، ورد في قصصهم تزوج رجال من الإنس منهم. وورد أن الشاعر (تأبط شراً) تعرض بغيلة. فلما امتنعت عليه، جللها بالسيف فقتلها. وهم يروون أن من الممكن قتل الغول بضربة سيف. أما اذا ضربت مرة ثانية، فإنها تعيش ولو من ألف ضربة. وهكذا ترى قصصهم يروي تغلب الإنسان على الغيلة في بعض الأحيان. وأكثر قصصم عن الغول منسوب الى (تأبط شراً)[4]. وللقب الذي يحمله هذا الشاعر أو حمل عليه دخل، ولا شك، في ظهور هذا القصص.

ويرى علماء اللغة أن من معاني (الغول) التلون، والظهور بصور مختلفة، والاغتيال. ويرون أن الغول أنثى وأما ذكرها فسمى. (قطرباً)[5]. ولصفة التلون

---

1) تاج العروس (9/ 410)، (لاه).

2) تاج العروس (6/ 415)، (طبق).

3) تاج العروس (8/ 372)، (صام).

4) بلوغ الأرب (2/ 341 وما بعدها)، الأغاني (18/ 209 وما بعدها)، الحيوان (6/ 233، 235).

5) بلوغ الأرب (2/ 346 وما بعدها)، الحيوان (6/ 48)، تاج العروس (8/ 51)، (غال).

والظهور بصور مختلفة سموا الغول (حيتمورا)، وهو كل شيء لا يدوم على حالة واحدة، ويضمحل كالسراب[1]. وذكر في وصف غدرها بالإنسان أنها اذا أرادت أن تضل إنساناً وقدت له ناراً، فيقصدها، فتدنوا منه، وتتمثل له في صور مختلفة، فتهلكه روعاً، وأن خلقتها خلقة إنسان، ورجلاها رجلا حمار[2].

وذكروا أن الغول هو اسم لكل شيء من الجن يعرض للسُفّار، ويتلون في ضروب الصور والثياب، ذكراً كان أو أنثى، وقد قال (كعب بن زهير) الشاعر الصحابي، الذي مدح الرسول، في وصف تلون الغول:

فما تدوم على حالٍ تكون بها ... كما تلوّن في أثوابها الغول[3]

وفي تلوّن الغول يقول (عباس بن مرداس السلمي):

أصابت العامَ رعلاً غول قومهم ... وسط البيوت ولون الغول ألوان[4]

فالغول تتحول في أي صورة شاءت، وتتمثل في صور مختلفة، إلا رجليها، فلا بد من أن تكونا رجلي حمار[5].

وذكر أن (الغول) (السعلاة)، وهما مترادفان، وذكر أن الغيلان جنس من الجن والشياطن، والعرب تسمي الحية الغول. وقيل إن (أنياب أغوال) الواردة في شعر لأمرىء القيس، الحيات، وقيل الشياطين[6].

وإلى الشاعر (عبيد بن أبوب) شاعر (بني العنبر)، يعود قسط كببر من القصص الوارد عن (الغول) و(السعلاة). فقد كان يخبر في شعره أنه يرافق الغول

---

1) بلوع الأرب (2/ 347).
2) بلوغ الأرب (2/ 348)، الحيوان (6/ 214).
3) الحيوان (6/ 158 وما بعدها).
4) الحيوان (61/ 161).
5) الحيوان (6/ 220).
6) تاج العروس (8/ 51)، (غال).

والسعلاة، ويبايت الذئاب والأفاعي، ويؤاكل الظباء والوحش. وقد أورد أهل الأخبار شيئاً من شعره في هذا الباب[1]. وذكر بعض علماء اللغة، أن الغول الذكر من الجن، والسعلاة الأنثى. والغول ساحرة الجن، وتقول إن الغول يتراءى في الفلاة للناس فتضلهم عن الطريق[2].

واما (السعالي)، وواحدتها السعلاة، فذكر أنها سَحَرة الجن، وقيل: إن الغيلان جنس منها، وإن الغيلان هي إناث الشياطين، وإنها ـ أي السعالي ـ أخبث الغيلان، وأكثر وجودها في الغياض، وإنها إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر، وإن الذئب يأكل السعلاة[3]. وذكر أن (السعلاة) اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغول لتفتن السفّار. وهم إذا رأوا المرأة حديدة الطرف والذهن، سريعة الحركة مممشوقة ممحصة، قالوا: سعلاة. وقال الأعشى:

ورجال قتلى بجنبي أريك ونساء كأنهن السعالى[4]

وذكر أن في الجن سحرة كسحرة الإنس لهم تلبيس وتخييل، وهم السعالى. وهم أقدر من الغيلان في هذا الباب[5].

الشيطان:

والشيطان هو (Satan) في الإنكليزية، و(Diabolos) في الإغريقية. ويرجع علماء اللغة كلمة (الشيطان) إلى أصل (شطن)، ويقولون إن من معاني هذه الكلمة الخبث، ولما كان الشيطان خبيثاً قيل له (شيطان) ومعنى ذلك أن فكرة خبث الشيطان كانت معروفة لصاحبها قبل التسمية[6]. فلما بحث عن

---

1) الحيوان (4/ 482)، (هارون)، (5/ 123، 138، 241)، (6/ 128، 159، 160، 165، 235، 251، 395).
2) تاج العروس (8/ 51)، (غال).
3) بلوغ الأرب (2/ 346 وما بعدها).
4) الحيوان (6/ 158 وما بعدها).
5) تاج العروس (7/ 375 وما بعدها)، (سعل).
6) اللسان (17/ 104)، (شطن)، الحيوان (1/ 153، 291).

لفظة مناسبة لها، اختاروا هذه الكلمة التي تدل على الخبث. وهو تعليل من تلك التعليلات المعروفة المألوفة التي كان يرجع إليها علماء اللغة كلما أعياهم الوصول إلى أصول الأشياء.

و(الشيطان) (ساطان) (سطن) في العبرانية، ومعناه: عدو ومشتك. في هذه اللغة[1]. ومن هذه اللغة جاءت لفظة (Satan) في الإنكليزية.

وذكر (الطبري): «والشيطان في كلام العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء»[2]. ثم قال: «وانما سمي المتمرد من كل شيء شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله وبعده من الخير». وقد قيل إنه أخذ من قول القائل شطنت داري من دارك، يريد بذلك بعدت. ومن ذلك قول نابغة بني ذبيان:

نأت بسعادٍ عنك نوى شطون   فبانت والفؤاد بها رهين

والنوى الوجه الذي نوته وقصدته، والشطون البعيد. فكأن الشيطان على هذا التأويل شطن. وما يدل على ذلك كذلك، قول أمية بن أبي الصلت:

أيما شاطن عصاه عكاه   ثم يلقى في السجن والأكبال

ولم ترد لفظة (الشيطان) في شعر الشعراء الجاهليين، خلا شعر (أمية بن أبي الصلت) و(عدي بن زيد العبادي). والأول شاعر وقف، على ما يظهر من شعره، على شيء من اليهودية والنصرانية. وأما الثاني، فهو نصراني، لذلك يجوز لنا أن نرجع علمهما بالشيطان إلى ما جاء في اليهودية والنصرانية عنه، ولذلك نستطيع أن نقول إن هذه اللفظة جاءت العرب عن طريق أهل الكتاب.

---

1) غرائب اللغة (212).

2) تفسير الطبري (1/ 37 وما بعدها).

وذكر علماء اللغة، أن (الأزب) اسم من أسماء الشياطين، وذكروا أن (الأزب) شيطان اسمه أزب العقبة، وقيل هو حية[1]. وأن من أسماء الشيطان: (الحُباب). ويقع على الحية أيضاً، لأن الحية يقال لها شيطان، وفي حديث: «الحباب شيطان».[2] وذكروا أن من أسماء الشيطان (الطاغوت)[3].

ومن الشياطين، شيطان اسمه (زوبعة)، وقيل هو رئيس للجن. ومنه سمي الإعصار زوبعة، ويقال أم زوبعة وأبو زوبعة وهو الذي يثير الأعصار، حين يدور على نفسه، ثم يرتفع في السماء ساطعاً كأنه عمود[4].

وأما ما ورد في القصص عن الشياطين عند الجاهليين، فهو يختلف عما جاء عن الشيطان في الكتب اليهودية والنصرانية، مما يدل على أن منبعه منبع آخر، وأن (الشيطان) عند الجاهليين، هو غير الشيطان المعروف عند اليهود والنصارى، الذي دخل إلى العرب قبيل الإسلام وفي الإسلام.

ومن القصص المذكورة، استمد بعض الجاهليين قصصهم عن ذكاء الشيطان وعن حيله. ومن هذا القصص ولا شك استعمل الناس مصطلح (تشيطن) و(الشيطنة) بمعنى الذكاء والحيلة، لما رسخ في ذهنهم من ذلك القصص عن ذكاء الشيطان وسعة حيله وتلاعبه بأذكى البشر. وهو في التوراة ذو طبع شرير، وزعيم العصاة لأوامر الله يضل الناس ويسلك بهم سبيل الخطيئة، ولذلك تعوذوا منه[5].

ومن القصص المذكور استمد أيضاً حكماء اللغة ما ذكروه من أن كلمة، الشطن تعني الحية[6]، ففي ذلك القصص ظهور الشيطان على صورة حية

---

1) تاج العروس (1/ 147)، (أرب)، (1/ 284)، (زبب).

2) اللسان (1/ 295)، (حبب).

3) تفسير الطبري (14/ 71)، (131/23 وما بعدها).

4) تاج العروس (5/ 367)، (تربع).

5) قاموس الكتاب المقدس (1/ 651).

6) اللسان (17/ 104)، تاج العروس (9/ 253)، (شطن)، (والعرب تسمي كل حية شيطاناً)، الحيوان (1/ 300).

خـدعت أبوينـا آدم وحـواء في الجنـة. وتمثّـل هـذا القصـص في الأدبـين العبرانـي والنصراني. وسبب ذلك هو ما علق بأذهان العبرانيين من مكر الحيات ودهائها وخبثها وميلها إلى الشر، وما علق بذهنهم عن هذه الصورة في الشيطان. والحية هي عند أكثر الشرقيين رمز يشير إلى الثورة والعصيان والشر. وهذه الفكرة هي من أسطورة شرقية قديمة على سقوط البشرية في الشر، وتتمثل في سقوط آدم وحواء وطردهما لذلك من الجنة، وفي تعاليم زرادشت من أن الشرير ظهر في هيأة حية، وأخذ يعلم الناس الشر[1].

وزعم ان (شيطان الحماطة) الحية[2]. وورد (شيطان حماط). ولعل ذلك بسبب لجوء الحيات إلى الحماط، والحماطة شجرة شبيهة بالتين، وهي أحب الشجر إلى الحيات، إذ تألفها كثيراً[3]. وفي هذا المعنى ورد في قول الشاعر:

تلاعِبُ مثنى حضرمي كأنه　　　تعمج شيطان بذي خروع قفر[4]

والتعمج التلوي. والمراد هنا تلوي شيطان بمكان قفر نبت فيه الخروع. وقصد بالشيطان الحية.

وقد وصف الشيطان بالقبح، فإذا أريد تعنيف شخص وتقبيحه، قيل له: «يا وجه الشيطان» وما هو إلاّ شيطان، يريدون بذلك القبح، وذلك على سبيل تمثيل قبحه بقبح الشيطان. وقيل: الشيطان حية ذو عرف قبيح الخلقة[5].

وقيل إنه كان حية زعم أنها تأتي حول البيت، فلا يطوف أحد. ولما شرعوا ببناء الكعبة في أيام شباب الرسول، جاء طير فالتقط الحية[6]. ولقبح وجه الشيطان، قالوا للذي به لقوة أو شتر، إذا سبّ: يا لطيم الشيطان. وقالوا للمتكبر

---

1) قاموس الكتاب المقدس (1/ 400)، Hastings, p. 829.
2) الحيوان (6/ 192).
3) تاج العروس (5/ 121)، (حمط).
4) الحيوان (1/ 153)، (6/ 192).
5) الفاخر (ص 238)، الحيوان (1/ 300)، تاج العروس (9/ 253)، (شطن).
6) الفاخر (ص 238).

الضخم: ظل الشيطان[1]. وكانوا إذا أرادوا ضرب مثل بقبح إنسان قالوا: لهو أقبح من الشيطان[2]. وقالوا لشجرة تكون ببلاد اليمن، لها مظهر كريه (رؤوس الشياطين)[3]. وبهذا المعنى فسرت (رؤوس الشياطن) في الآية: (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ)[4]. «يقول تعالى ذكره كأن طلع هذه الشجرة، يعني شجرة الزقوم في قبحه وسماجته رؤوس الشياطين في قبحها»، وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في تقبيح الشيء، قال: كأنه شيطان، فذلك أحد الأقوال. والثاني أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطاناً. وهي حية له عرف فيما ذكر، قبيح الوجه والمنظر، وإياه عنى الراجز، بقوله:

عنجرد تحلف حين أحلف ... كمثل شيطان الحماط أعرف

ويروي عجيز: «والثالث أن يكون مثل نبت معروف برؤوس الشياطين، ذكر انه قبيح الرأس»[5]. ويظهر أن العرب في الجاهلية، كانوا يطلقون (رؤوس الشياطين) على شجر كريه المنظر جداً، قال علماء اللغة: «والصوم: شجر على شكل شخص الإنسان كريه المنظر جداً، يقال لثمره رؤوس الشياطين، يعني بالشياطين الحيات، وليس له ورق»[6]. وقد جمع هذا التفسير بين الشياطن والقبح. ويمثل الصورة التي رسمها الناس في مخيلتهم للشياطين.

وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر، وتلقنها إياه وتعينها عليه، وتدعي أن لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود. وبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بهذا أن ذكروا لهم أسماء شياطينهم، فقالوا: إن اسم شيطان الأعشى مسحل، وللأعشى أشعار فيه، يمدحه ويثني عليه، لأنه يعاونه ويساعده في نظم الشعر فيلقيه عليه إلقاءً. وقد زعم (حسان بن ثابت) أن شيطانه الذي يلهمه الشعر هو من (بني

---

1) الحيوان (6/ 178).

2) الحيوان (6/ 213).

3) الحيوان (6/ 211)، (4/ 39 وما بعدها).

4) الصافات، 37، الآية 63 وما بعدها.

5) تفسير الطبري (23/ 40 وما بعدها).

6) اللسان (12/ 351 وما بعدها)، (صوم).

شيصبان) من فصائل الجن. وقد انتقلت هذه العقيدة في إلهام الشعر للشعراء إلى المسلمين كذلك. وقد دعا (جرير) شيطانه الذي يلقي عليه الشعر (ابليس الأباليس)[1].

ويكنى عن الشيطان بالشيخ النجدي[2]. وقد أشير اليه مراراً في كتب السير والأخبار. أشير إليه في بنيان الكعبة، حين حكّموا رسول الله في أمر الركن من يرفعه، فحضر في زي شيخ نجدي بين الحاضرين، وصاح: يا معشر قريش أرضيتم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أسنانكم، وحضر اجتماع (دار الندوة). وأيد قرارهم في قتله. وذكَر علماء الأخبار، أنه عرف بالشيخ النجدي، لأنه تمثل نجدياً، وقيل لأن نجداً يطلع منها (قرن الشيطان) ورووا أحاديث تذكر ذلك، وتذكر أن الفتن تخرج من المشرق، والمشرق نجد بالنسبة لأهل الحجاز[3].

و(قرن الشيطان)، ناحية رأسه، ومنه الحديث: تطلع الشمس بين قرني الشيطان، فإذا طلعت قارنها، وإذا ارتفعت فارقها[4]. وفي الأساطير أن للشيطان قرنين.

وكان الكهان يستعينون بالشياطين في الإخبار عن المغيبات، يذكرون أن الشياطين يسترقون السمع من السماء، فيخبرونهم عن أنباء الأرض. وكان للكاهن (صاف ابن صياد) شيطان يلقي إليه بما خفي من أخبار الأرض، وذكر أن النجوم تقذف الشياطين، وأن الجاهليين كانوا يرون ذلك، وهو موجود في أشعار

---

1) الثعالبي، ثمار القلوب (69 وما بعدها)، قال الأعشى:

دعوت حليلي مسحلا ودعوا له   جهنام جدعا للهجين المذمم

وقال:

حباني أخي الجني نفسي فداؤه   بأفيح جياش العشيات مرجم

الحيوان (225/6 وما بعدها).

2) تاج العروس (2/ 512)، (نجد).

3) الروض الأنف (1/ 291).

4) تاج العروس (9/ 306)، (قرن).

القدماء من الجاهلية، منهم عوف بن الجزع، وأوس بن حجر، وبشر بن أبي خازم وكلهم جاهلي، وقد وصفو الرمي بالنجوم[1].

و(إبليس) من هذه الأفكار التي نفذت إلى العرب عن طريق أهل الكتاب، والعلماء على أن الكلمة معربة، وهي كذلك[2]. فأصلها (ديابولس) «Diabolos»، وهي كلمة يونانية استعملت في مقابل لفظة (شيطان)[3]. وقد أطلقت لفظة (أباليس) في مقابل (شياطين). وقد ورد أن من أسماء ابليس (قترة)، وأن اللفظة علم للشيطان. ومن المجاز أبو قترة: إبليس. وفي الحدبث نعوذ بالله من الأعميين ومن قترة وما ولد. الأعميين الحريق والسيل، قترة من أسماء إبليس، وكنيته: أبو قترة. وقترة حية صغيرة، لا ينجو سميمها[4]، ولعل بين التسميتين صلة.

شق:

ومن الجن جنس صورة الواحد منهم على نصف صورة الإنسان، واسمه (شق)، وإنه كثيراً ما يعرض للرجل المسافر اذا كان وحده، فربما هلك فزعاً، وربما أهلكه ضرباً وقتلاً. ورووا في ذلك قصصاً. منه ما زعموه من أن (علقمة بن صفوان بن أمية بن محرث الكناني) جدى (مروان بن الحكم)، خرج في الجاهلية، وهو يريد مالاً له بمكة، وهو على حمار، وعليه إزار ورداء، ومعه مقرعة، في ليلة اضحيانة، حتى انتهى إلى موضع يقال له (حائط حزمان)، فاذا هو بشقّ له يد ورجل، وعين، ومعه سيف، وهو يقول:

---

1) الروص الأنف (1/ 135)، (فضل في الكهانة).

2) المعرب للجواليقي (23)، تاج العروس (4/ 111)، (البلس).

3) Ency., Reiligi., 4, p. 600, Geiger, Was hat Mohammad aus der Judenthume Aufgenomen, Leipzig, 1902, S. 107, Weil, Biblische Legenden der Muselmanner, S. 12, Shorter Ency., p. 146, Grünbaum, Beiträge zur Sem. Sagen, S. 60.

4) اللسان (5/ 73)، (إبليس)، تاج العروس (3/ 480)، (قتر)، (4/ 111)، (البلس).

علقم إني مقتول — وإن لحمي مأكول

أضربهم بالهذلول — ضرب غلام شملول

رحب الذراع بهلول

فقال علقمة:

يا شقها ما لي ولكْ — اغمد عني مُنصلك

تقتل من لا يقتلك

فقال شق:

عبيت لك عبيت لك — كما أتيح مقتلك

فاصبر لما قد حمّ لك

فضر بكل واحد منهما صاحبه، فخرّا ميتين[1].

الهاتف والرئي:

ويؤمن الأعراب بالهاتف، ويتعجبون ممن يرد ذلك. وهم يزعمون أنهم يسمعون الهاتف يخبرهم ببعض الخبر، فيكون صحيحاً. ومن ذلك حديث (الأعشى بن نبّاش بن زرارة الأسدي)، أنه سمع هاتفاً يقول:

لقد هلك الفياض غيثُ بني فهر — وذو الباع والمجد الرفيع وذو الفخر

فقال مجيباً له:

ألا أيها الناعي أخا الجود والندى — من المرء ننعاه لنا من بني فهر

---

1) الحيوان (6/ 206)، (هارون).

فقال:

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا الندى وذا الحسب القدموس والحسب القهر[1]

وزعموا أن لنقل الجن الأخبار، علم بوفاة الملوك وأصحاب النباهة والجاه، وأمثال ذلك من الأمور الخطيرة[2].

وتتردد في الأخبار كلمة (هاتف) و(الهاتف)، بمعنى صوت صادر من مصدر غير مرئي، وردت في مواضع عديدة من القصص الجاهلي، ووردت بعدها الجمل التي قالها الهاتف لمن وجه خطابه إليه. وهي تكهن وأخبار، عن أمر وقع وحدث، أو لتحذير من القيام بعمل ما، أو بإرشاد إلى عمل أو جهة أو ما شابه ذلك من الأمور. وقد تستعمل بمعنى (الرئي) الذي يهتف للكاهن، أو الصوت الذي يزعم أنه يخرج من جوف الصنم[3].

الرئي:

وكانوا يقولون، إذا ألف الجني إنساناً وتعطف عليه، وخبّره بعض الأخبار وجد حسّه ورأى خياله، فاذا كان عندهم كذلك قالوا: مع فلان رئي من الجن، يخبره بما وقع ويقع وعن الأسرار. وممن يقولون ذلك فيه: عمرو بن لحي بن قمعة، والمأمور الحارثي، وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وهم من الرؤساء السادة، وقد كان لكل كاهن وعرّاف رئي يخبر صاحبه بما يسأل عنه. وذكر أنه قد كان مسيلمة يدعي أن معه رئي في أول زمانه، ولذلك قال الشاعر حين وصفه:

ببَيْضة قارورٍ وراية شادنٍ وخلة جني وتوصيل طائر[4]

---

1) الحيوان (6/ 202).

2) المصدر نفسه (ص 203).

3) تاج العروس (6/ 273)، (هتف).

4) الحيوان (6/ 205 وما بعدها)، (هارون).

الملائكة:

والملائكة هم روحانيون، أي من أرواح في نظر أهل الجاهلية. ويدل ورود الملائكة في مواضع عديدة من القرآن الكريم ومن الآيات التي تشير الى مجادلة المشركين ومحادثتهم للرسول في الملائكة، أن فكرة الملائكة كانت معروفة شائعة بينهم، وأن بعض العرب كانوا يعبدونها، كما يظهر ذلك من الآية: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ)[1].

غير أن المفسرين، لم يشيروا إلى أولئك الذين تعبدوا للملائكة، ولم يذكروا أسماءهم، مع أنهم ذكروا اسم من تعبد للجن[2]، بل يظهر من تفسيرهم للآية المذكورة، أنها وردت على سبيل الاستفهام «كقوله عز وجلّ لعيسى: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال النحاس: فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم اذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت لهم، فهو استفهام توبيخ للعابدين»[3]. ولكنهم أشاروا في مواضع أخرى إلى أن مشركي قريش كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونها. ويقولون إن أمهاتهن بنات سروات الجن، يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس[4].

وقد أشير في القرآن الكريم، إلى أن من الجاهليين من زعم أن الملائكة بنات الله[5]. وتحدث المفسرون في تفسير ذلك، غير أنهم خلطوا في الغالب بين الملائكة والجن. ولم يأتوا بشيء يذكر عن رأي أهل الجاهلية في الملائكة. وما ذكروه هم عن الملائكة، هو اسلامي، يرجع في سنده الى أهل الكتاب، ولا سيما القصص الإسرائيلي، ولهذا فهو مما لا يمكن أن يقال عنه إنه يعبر عن رأي الجاهليين.

---

1) سبأ، الآية 40 وما بعدها.

2) راجع تفسير الطبري (22/ 69)، روح المعاني (22/ 139)، القرطبي، الجامع (14/ 309).

3) القرطبي، الجامع (14/ 308 وما بعدها).

4) تفسير الطبري (23/ 67 وما بعدها).

5) الصافات، الآية 149 وما بعدها، الإسراء، الآية 40، الزخرف، الآية 15 وما بعدها، تفسير الطبري (14/ 83).

ويظهر أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الملائكة، لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة اليهودية ثم النصرانية، وهم لا يعرفون الكتاب، إلاّ من كان منهم على دين اليهودية أو النصرانية، أو كان من الحنفاء أو على اتصال بأهل الكتاب، كأمية بن أبي الصلت وأمثاله.

وقد أشير الى الملائك، أي (الملائكة) في شعر ينسب إلى (أمية بن أبي الصلت)، هو:

وكأن برِقعَ، والملائك حوله سدرٌ تواكله القوائم أجرد[1]

وورد (ملأك) في شعر رجل من عبد القيس جاهلي يمدح بعض الملوك، قيل هو النعمان. وقيل هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير:

فلست لإنسيّ، ولكنِ لِملأك تنزل من جو السماء يصوب[2]

وقد زعم أن الملائكة تصافح الناس وتناجيهم. زعم ذلك حتى في الإسلام. ذكر (ابن دريد) أن (عمران بن الحُصين بن عُبيد بن خلف)، وهو من الصحابة، وعرف بـ (أبي نجيد)، «كانت تصافحه الملائكة وتناجيه لداء كان به، فاكتوى، فذهب عنه ذلك. وذهب ما كان يسمع ويرى»[3].

السحر:

والسحر من أهم الوسائل التي لجأ إليها البشر وأقدمها منذ أعتق أيامه في التأثير على الأرواح، وقد جعله جزءاً من الدين، لذلك كان من اختصاص رجال الدين، يقومون به في المعابد قيامهم بالشعائر.

1) اللسان (10/ 496).
2) اللسان (10/ 496).
3) الاشتقاق (2/ 278)، (طبعة أوربة)، (إنه كان يرى الحفظة، وكانت تكلمه حتى اكتوى)، الإصابة (27/3)، (الرقم 6012).

واذ كـان معظـم النـاس في الـزمن الحاضـر يفرقـون بـين الـدين والسـحر، ويعـدّون السـحر شيئاً بعيداً عن الـدين، بـل هـو ضـد الـدين، فإن قـدماء البشـر لم يكونوا ينظرون إليه هذه النظرة، كانوا ينظرون اليه كما قلت على أنه جزء مهم من الدين، بل هو أهم جزء فيه وأعظمه، بـل مـا زلنا نجد ديانات القبائل البدائيـة تعدّ السحر جزءاً من الدين[1]. وهو كذلك في كل دين بدائي.

وعمل السـاحر هو السحر، والسحر في عرف بعض علماء اللغة الإسلاميين هو «عمل يقرب فيه إلى الشيطان»[2]. وقد فسّر بعض العلماء كلمة (الجِبْت) في القرآن الكريم بمعنى السحر، كما ذكر أنها تعني السـاحر والكاهن والصنم وكل ما عبد من دون الله. وفسر (الطاغوت) بمعنى الشيطان[3].

وقد وردت كلمة (السحر) و(سحر) و(السـاحر) و(السـاحرون) و(السـحرة) و(مسحوراً) و(مسحورون) في مواضع عديدة من القرآن الكريم، ويدل ورودها فيه بهذه الكثرة على مبلغ أثر السحر في عقلية الجاهليين. وقد اتهم أهل مكة الرسول أنه سـاحر، حينمـا أخبرهم بنـزول الـوحي عليـه. وقـالوا إنـه يسـتمد وحيـه مـن الشياطين.

وقد جمع البخاري بين الكهانة والسحر بأن قدّم الكهانة على السحر، لأن مرجع الاثنين شيء واحد هو الشياطين[4].

وقد حملت تلك المواضع من القرآن الكريم المفسرين على جمع ما علق بأذهان الناس عن السحر. أما كتب الحديث ففيها مـادة مفيدة وردت ضمناً عن

---

1) R. Campell Thompson, Semitic Magic its Origins and Development, London, 1908, p. XVII, Smith, p. 90.

2) تاج العروس (3/ 258)، (سحر)، اللسان (4/ 348)، (سحر).

3) النساء، الآية 50، «وسُمّي الساحر والكاهن جبتاً»، المفردات (83)، تاج العروس (1/ 535)، شمس العلوم (ج1، ق2، ص 244).

4) عمدة القارئ (21/ 273، 282)، «باب السحر»، إرشاد الساري (8/ 401)، الطبري (2/ 421، 445)، الطبرسي (1 . 2)، (384).

عقيدة أهل الجاهلية به. كما وردت في أخبار أهل الأخبار إشارات إليه، تجمل جميعها أن الاعتقاد بالسحر بين الجاهليين كان شائعاً معروفاً، وأن ممارسيه في جزيرة العرب كانوا عرباً ويهوداً، وأنهم كانوا يرون أن أصوله في بابل وعند يهود.

وقد كان أكثر السحرة في الجاهلية من يهود[1]. يقصدهم الجاهليون من أنحاء بعيدة، لاعتقادهم بسعة علمهم وباختصاصهم فيه. وكان اليهود، يسندون علمهم إلى بابل، ولهذا نجد الأحاديث والأخبار العربية ترجع علم السحر إلى بابل واليهود.

والفرق بين الكهانة والسحر إن الكهانة تنبؤ، فسند الكاهن هو كلامه الذي يذكره للناس. أما السحر، فإنه عمل في الأكثر، للتأثير في الأرواح، كي تقوم بأداء ما يطلب منها. ولا يمكن صنع سحر ما لم يقترن بعمل. ويصحب هذا العمل كلام مفهوم أو غير مفهوم، وإشارات، يدعي الساحر أنه انما يقوم به وبالاشارات لتسخير الأرواح، وإن ما يفعله مفهوم عند جنوده، وهم الجن والشياطين.

وفن مثل هذا مغر جداً، فمن من الناس من لا يريد تسخير القوى الخفية لخيره ولصالحه، وإلحاق الأذية بأعدائه ومبغضيه. ولذلك كان للسحر والسحرة أثر خطير في التأريخ، بالرغم من مقاومة بعض الأديان له. فما يقوم به السحرة من أعمال وخفة، وما لشخصيات بعض السحرة من تأثير نفسي كبير، تجعل من الصعب على بعض الناس أن يكذّبوا أقوالهم وأفعالهم، ولذلك يتأثرون بهم، ويأخذون بما يقولونه لهم، حتى تكون للساحر مكانة كبيرة في نفس ذلك الشخص.

وللسحر أغراض عديدة، وقد استخدم في معالجة أمور كثيرة، حتى إدارة الملك والقضاء على الأعداء، للسحر وللسحرة فيها صولات وجولات. ومن

---

1) عمدة القارئ (21/ 213)، الطبري (2/ 439)، العقد الفريد (6/ 276)، تفسير الرازي (17 . 18)، (ص 9)، سنن ابن ماجة (2/ 1173)، روح المعاني (30/ 282).

الطبيعي أن يكون للحب المكانة البارزة فيه، حتى ليكاد يتخصص بهذا الجانب من حياة الإنسان. ولما كانت العادة أن يتزوج الرجل من جملة نساء صار السحر من أهم الوسائل التي استعانت بها الزوجات للتأثير في قلب الرجل، ولكسب المكانة الأولى عنده، وللتفريق بين الرجل وبين بقية أزواجه. ومصداق ذلك ما ورد في القرآن الكريم عن السحرة في هذه الآية: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[1]. فالتفريق بين المرء وزوجه، كان ولا يزال من أهم أعمال السحرة. ونجد في الحديث تقريعاً ولوماً للسحرة لاستخدامهم السحر في هذا الغرض الفاسد.

والساحر في معالجة الحب على طريقيْن: إشعال جذوة نار الحب في قلب من يقصد إثارته عنده، أو اطفاء نارها وإخمادها واماتتها في قلب المسحور. ولكل من الطريقين قواعد وأحكام وأصول يجب تطبيقها بعناية، وإلا بطل فعل السحر.

أما إشعال نيران الحب، فيكون بطرق متعددة يتبعها الساحر، فقد يستعين بالنباتات. والأعشاب، يستخرج أدوية منها يقدمها إلى المرأة لتُوجر الرجل إياها سراً. وقد يستعين بالجمر يقرأ عليه، ثم يرمى في الممرات التي يمر الرجل، أو الشخص المراد سحره منها. وقد يدفن السحر في موضع كمقبرة أو محل آخر ليؤثر من ذلك الموضع على المسحور. وقد يستعين بالخرز يسحر عليها، فتحبب المرأة إلى زوجها، وتسمى (التوِلة)[2].

وكما يستعمل السحر لإشعال نيران الحب في القلب، كذلك يستعمل لايقاد البغض والكراهية في النفوس. فقي استطاعة الساحر بما عنده من جنود مجندة أن يلقي البغضاء والكراهية والحقد في نفس أي شخص يود انساناً آخر،

---

1) البقرة: الآية 102، عمدة القارئ (20/ 278 وما بعدها).

2) بالكسر وبالضم، «وقيل هي معاذة تعلق على الإنسان»، اللسان (13/ 85).

فينقلب مبغضاً حاقداً كارهاً لمن كان يحبه ويعشقه. ومجال هذا الباب واسع جداً للنساء خاصة.

وفي استطاعة الساحر مداواة العاشق وإماتة عشقه بوصفة يعطيها إليه تقضي على حبه الجامح قضاءً تاماً يسمونها (السلوانة) و(السلوان). وما هذه الوصفة إلاّ مادة ذات سحر عجيب يغتسل بها الإنسان أو يشربها، فتطفيء في الحال أو بعد أمد كل نيران الحب مؤججة في قلب العاشق. والسلوانة هي شيء من تراب قبر، أو خرزة تسحق ويشرب ماؤها؛ فيورث شاربها سلوة. وتكون الخرزة شفافة، تدفن في الرمل فتسود، ثم تستخرج لسحقها وشربها، وقد يكتفى بصب ماء المطر على تلك الخرزة لسقي العاشق ذلك الماء الذي يسمونه (السلوان)، ليشفى من العشق[1]. ولا بد أن يكون لاختيار الماء وتراب القبر أو مسحوق الخرزة في معالجة العشق، سبب يمكن تفسيره بأنه لغسل قلب المحب، وإماتة الحب فيه.

ومن أهم الأعمال التي يعالجها السحرة، إخراج الجن من المجانين فالجنون هو من عمل الجن. تحل الجنة بالإنسان فتأخذ عقله. ومن هنا قيل لهذا المرض (جنة) و(جنون)[2]. ومن واجب الساحر إخراج الجن من هؤلاء المرضى، وهو عمل يقوم به الساحر حتى اليوم، ويكون ذلك بضرب المريض بالعصا لإخراج الجنة منه. أو بسقيه بعض الأشربة السحرية، أو بتدليك جسمه وغسله، وبإدخاله محلاً مظلماً هادئاً يحرق فيه البخور، وبتعليق بعض العزائم والحجب وما شاكل ذلك لإبعاد الجن عن المجنون وإعادة عقله اليه.

---

1) يا ليت أن لقلبي من يعلله   أو ساقياً فسقاني عنك سلوانا

وورد:

شربت على سلوانة ماء مزنة   فلا وجديد العيش يا مي ما أسلو

وجاء:

جعلت لعراف اليمامة حكمة   وعراف نجد إن هما شفياني

فما تركا من رقية يعلمانها   ولا سلوة إلاّ بها سقياني

اللسان (19/ 118 وما بعدها).

2) تاج العروس (9/ 164 وما بعدها)، «جنن».

ويداوي الساحر أمراضاً عديدة أخرى، بل كل أنواع الأمراض، وما المرض في نظر القدماء إلاّ أرواح شريرة حلت في الأجساد أو بجزء منها، فألحقت بها الأمراض. ولن يشفى الجسد أو الجزء المصاب منه إلاّ بطرد تلك الأرواح. وطرد الأرواح من أعمال السحر. والساحر هو سلف من أسلاف الأطباء. وكلمة (طبيب) العربية هي من هذا الأصل. فالطب في اللغة السحر، و(المطبوب) هو المسحور، والطابّ هو الساحر يستخدم طبه في الشفاء[1]. وقد أدخلت كتب الحديث السحر في (كتاب الطب)[2]. فالساحر هو طبيب يعالج أشياء عديدة، ثم تخصص الأطباء بالطب، غير أن الأطباء ظلوا يمارسون حتى في أوروبة السحر في معالجة مرضاهم مدة طويلة، إلى أن تطور العلم، وظهر البحث الحديث.

ويقوم أكثر مداواة المرضى بواسطة السحر بالنفث على المريض أو في فمه وبإمساك الرأس أو الجزء المريض، لقراءة شيء عليه يضمن شفاءه، أو بتدليك ذلك الجزء منه. وقد يعطى حجباً وتمائم تشفي المريض من مرضه. والنفث في الفم من العادات الجاهلية القديمة، يقوم به الكاهن والساحر والأب في بعض الأحيان، لاعتقادهم أن ذلك سيلهم الطفل فيعلمه العلم والحكمة والذكاء ويمنحه الصحة الجيدة.

ومن طرق السحر عند الجاهليين، النفثُ في العُقد، وقد دلتّ عليه هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾[3]. ويكون ذلك بعقد عقد والنفث عليها[4]. ويذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن (لبيد بن أعصم اليهودي) سحر الرسول، ودس ذلك السحر في بئر (لبني زريق) تسمى (بئر ذروان) (بئر ذي أروان)، وأنه وضع ذلك السحر في جف طلعة تحت راعوفة، أي في قشر الطلع وتحت حجر في أسفل البئر. فلما استخرج السحر، وجدوه مشاطة رأس وأسنان

1) صحيح مسلم (7/ 14)، اللسان (2/ 42)، تاج العروس (1/ 351)، عمدة القارئ (21/ 229).
2) راجع كتب الحديث: (كتاب الطب)، إرشاد الساري (8/ 360 وما بعدها)، عمدة القارئ (21/ 277 وما بعدها).
3) الفلق: الآية 4.
4) الكشاف (4/ 244)، تاج العروس (1/ 650)، «نفث»، صحيح مسلم (7/ 14)، «باب السحر»، عمدة القارئ (21/ 280 وما بعدها)، أسباب النزول (346 وما بعدها).

مشطه، وإذا فيه معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر[1]. ويقوم بهذا السحر الرجال والنساء. غير أن المفسرين وأهل الأخبار واللغة حينما يذكرون هذا النوع من السحر يذكرون أن النساء النفاثات هن اللواتي كنّ يقمن بذلك، أخذوا رأيهم هذا من الآية المذكورة التي تشير الى بنات لبيد وكنّ ساحرات، والإشارة في هذه الآية عن حادث معين، ولم يقصد بها الاطلاق.

والنفث في العقد، وعقد سبع عقد توضع فيها مادة السحر، من طرق السحر القديمة المعروفة عند العبرانيين والآشوريين وغيرهم. وقد عثر في الكتابات المسمارية على تعليمات في كيفية اتقاء شر الأرواح الخبيثة وأرواح الأموات الشريرة التي تسحر الناس، فكان مما جاء فيها عقد سبع عقد ووضع مادة سحرية فصلت في تلك التعليمات لاتقاء شر سحر تلك الأرواح[2].

ويذكر المفسرون وأهل الحديث أن الرسول لما سحره (لبيد بن الأعصم) من (بني زريق)، كان «يخيل إليه أنه كان يفعل شيئاً وما فعله»[3]، حتى علم بسحر (لبيد)، فلما استخلصه من البئر، ذهب أثر ذلك السحر عنه.

وقد كان السحرة اليهود يقرأون شيئاً ويهمهمون عند عقدهم كل عقدة من هذه العقد، ويقال لذلك Ghabar [4]. ومن هؤلاء اقتبس السحرة العرب طريقهم في النفث على العقد.

والمواد التي يستعين بها الساحر لعمل السحر عديدة. أوراق بعض النباتات والملح والبخور والدماء والعظام وقرون الحيوانات يدفنها أو يحرقها أو يذيبها في الماء. وفي كل سحر لا بد أن يشفع الساحر سحره بطقوس أو بحركات خاصة، وبتمتمة تلقي في الروع أن الساحر يقول شيئاً ويخاطب أشخاصاً هم الجن.

---

1) الطبرسي، الجزء التاسع، المجلد الخامس (568)، إرشاد الساري (8/ 403 وما بعدها، 407).

2) Semitic Magic, p. 33.

3) إرشاد الساري (8/ 403 وما بعدها)، شرح صحيح مسلم، للنووي (9/ 15) «حاشية على إرشاد الساري»، الطبري (2/ 429)، سنن ابن ماجه (2/ 1173).

4) Hastings, p. 569.

والتمتمة هي في الغالب كلام غير مفهوم عند الناس، ولكنه عند الساحر وجنوده الجن والشياطين كلام واضح بليغ.

ويعمد السحرة إلى الصور والرموز في سحرهم، ومنهم من كانوا لا يعرفون الكتابة ولا القراءة فيرمزون إلى من يريدون سحره، أو إلحاق الأذى به، أو يصورونه. وقد يشيرون بالصور والرموز إلى الجن والشياطن. وهم في الغالب يدفنون تلك الصور والرموز في المقابر، لأنها من أنسب الأماكن للسحر. وقد عثر على عدد من هذه الاشارات والصور السحرية. ومنها ما هو مكتوب بكتابات لها صور بالسحر[1].

إبطال أثر القوى الخفية:

وقد حمل اعتقاد الجاهليين بوجود قوى خفية تؤثر في الإنسان، أهل الجاهلية على العمل على التغلب على تلك القوى أو الحد منها وايقاف فعلها وذلك بابتداعه طرقاً عديدة لذلك، مثل استعماله (النفرات) أو السحر، أو (الرقي)، أو التمائم، والتعاويذ وما شابه ذلك من أمور.

و(النفرة) شيء يعلق على الصبى لخوف النظرة[2]. و(التنفير) الطرق التي يستعملها الإنسان لتنفير القوى الخفية وإبعادها عنه. وطريقتهم في ذلك شبيهة بطرقهم في تنفير الثقلاء وغير المرغوب فيهم من الناس وإبعادهم، وذلك باتخاذ كل ما ينفر ويقزز، لتعاف تلك الأرواح المواضع التي اختارتها والأشخاص الذين نزلت بساحتهم وحلت في أجسامهم، ومنها طريقة (التنجيس). وطريقتهم في ذلك تعليق الأقذار من خرق المحيض وعظام الموتى وأمثال ذلك على الصبي ومن يُخاف عليه عيون الجن، لاعتقادهم أن الجن سوف تبتعد عن هؤلاء وتهرب منهم.

---

1)Hastings, p. 569.

2) تاج العروس (3/ 579)، (نفر).

ويقال للمعوذ (المُنجِّس)، وللشخص الذي عوّذ له (المُنجَّس). والتنجيس يشفي إلاّ من العشق[1].

واتخذ الجاهليون طرقاً عدة للتخلص من الجن، ولا سيما من الخطفة والنظرة، أي من خطف الجن للأطفال ومن حسدها لهم. فهداهم تفكيرهم إلى تعليق بعض الأشياء على الصبي[2]، مثل سنّ ثعلب، أو سن هرة، وتقطير شيء من السوائل في عينيه عند الولادة لتنفير الجن منه. وتسمى هذه الأمور المنفرة للجن النفرات[3].

ومن النفرات التحايل على الجن بتغيير الأسماء، بتغريبها، كأن يسمى الصبي بأسماء بعض الحيوانات الصغيرة أو الأشياء التافهة الحقيرة، وبذلك تنفر الجن منه، فلا تقترب منه، ولا تمسه بسوء[4]. «قال أعرابي لما ولدت قيل لأبي نفر عنه، فسماني قنفذاً وكناني أبا العدّاء»[5].

التحصن من الجن:

والاستعاذة بالجن تفيد أيضاً في نظر الجاهليين في حماية الشخص من أذاهم. فإذا استعيذ بعظيم الجن، استجاب العظيم نداء المستعيذ. فكان المسافرون إذا خافوا من طوارق الليل، عمدوا إلى وادٍ ذي شجر، فأناخوا رواحلهم، وعقلوها وخطوّا عليها خطاً ثم نادوا: نعوذ بعظيم هذا الوادي، أو نعوذ بصاحب هذا الوادي. فيستجيب عندئذ عظيم الوادي لنداء المستعيذ، فلا يسمح لأحد أن يلحق به أذى.. وقد أشير إلى ذلك في القرآن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[6]. وذكر أن العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض، وتوسطوا بلاد الحوش، خافوا عبث الجنان والسعالي والغيلان والشياطين، فيقوم

---

1) ورد: «وعلق أنجاساً على المنجس»، اللسان (8/ 111)، (نجس)، بلوغ الأرب (2/ 319).

2) بلوغ الأرب (2/ 319).

3) بلوغ الأرب (2/ 325)، (التاج).

4) بلوغ الأرب (2/ 325).

5) اللسان (7/ 85)، التاج (3/ 579)، (نفر).

6) سورة الجن، الآية 6.

أحدهم فيرفع صوته: إنا عائذون بسيد هذا الوادي فلا يؤذيهم أحد، وتصير لهم بذلك خفارة[1].

ذبائح الجن:

ولارضاء الجن وإسكانها، وتجنب أذاها، قام الجاهليون بتقديم الذبائح لها. فاذا أراد إنسان السكن في بيت جديد، أو استخراج الماء من بئر احتفرها أو من عين ماء، أو ما شاكل ذلك وخاف من وجود الجن فيها ذبح ذبيحة، يرضى بها الجن، فلا تتحرش عندئذ به ولا تصيبه بأذى، لأنه قد تقرب بالذبيحة إليها وبيّن لها أنه صديق لها، فيعيش عندئذ قرير العين في بيته الجديد، لا يمس عماره بسوء. ويقال لهذه الذبائح: (ذبائح الجن). وقد نهى الإسلام عن ذبائح الجن. ورد أنهم «كانوا اذا اشتروا داراً أو استخرجوا عيناً أو بنوا بنياناً، ذبحوا ذبيحة مخافة أن تصيبهم الجن، فأضيفت الذبائح اليهم لذلك»[2].

و(النُّشرة) سلاح مفيد جداً لحل عقد الرجل عن مباشرة أهله. وقد كانت مشهورة في أيام الرسول. وقد أباح العلماء «النشرة العربية التي لا تضر إذا وطئت، وهي أن يخرج الإنسان في موضع عضاه، فيأخذ عن يمينه وشماله من كل، ثم يذيبه ويقرأ فيه، ثم يغتسل به»[3]. ويدل نعت هذه النشرة بالنشرة العربية على وجود نشرات غير عربية، وهي النشرات التي كان يعملها اليهود. وقد كانوا يستعملون الأدعية العبرانية، لذلك نهى الإسلام عن استعمال تلك النشرات.

و(النُّشرة) في تعريف علماء اللغة: رقية يعالج بها المجنون والمريض ومن كان يظن أن به مساً من الجن. وإذا نشر المسفوع كان كأنما أنشط من عقال، أي يذهب عنه سريعاً. وفي الحديث أنه سئل عن النشرة، فقال هي من عمل الشيطان. وقد أدخلها بعضهم في السحر[4].

---

1) الحيوان (6/ 217).

2) اللسان (3/ 262)، تاج العروس (2/ 138)، (نبح)، اللسان (2/ 437)، (نحج)، (صادر).

3) عمدة القارئ (21/ 284)، تاج العروس (3/ 566)، سنن أبي داوود (4/ 6).

4) تاج العروس (3/ 566)، (نشر)، الحيوان (4/ 185)، اللسان (5/ 209)، (نشر)، (صادر).

و(العوذة) ويقال لها (المعاذة) و(المعاذات)، تستعمل في التعويذ من الفزع والجنون[1]. وتبعث تسميتها على الظن بأنها من المصطلحات الإسلامية، وأنها أخذت تسميتها من المعوذتين. غير أن ورودها في مواضع عديدة من الحديث، واستعمالها في القرآن الكريم للتعبير عن فكرة معينة معلومة، يدلان على أنها من المصطلحات التي كانت معروفة بين أهل (يثرب) حتى إن بعض الصحابة ذكروا أنها نزلت للتعويذ. ومعنى (أعوذ) أعتصم والتجىء، فلا يستبعد أن يكون أهل يثرب على الأقل قد تعلموا ذلك من اليهود الذين كانوا يقرأون بعض التعاويذ من التوراة لحماية أنفسهم من شر الأمراض.

وتستعمل (الرقية) في مداواة الآفات، مثل الحمى والصرع والنظرة ولدغات العقارب والحيات وأمثال ذلك، وتكون بقراءة شيء على المريض أو على موضع المرض ثم النفث عليه، أو بحمل شيء مكتوب. وقد جاء في بعض الأحاديث جوازها في الإسلام، وفي بعضه النهي عنها. وقد ذكر الحديث أن الإسلام نهى عن الرقية التي تكون بلسان غير عربي، ويدل هذا على أن الجاهليين كانوا يذهبون إلى أهل الكتاب ولا سيما اليهود منهم، فيرقونهم بالعبرانية أو السريانية، ولذلك نهوا عنه. وقد عرضت بعض أنواع الرقية التي كان يستعملها أهل الجاهلية على الرسول لأخذ رأيه فيها، فأباحها لهم، وأباح لهم كل رقية ليس فيها شيء من ألفاظ الجاهلية[2].

وقد حفظت الكتب لنا أنموذجات من بعض الرقى منها هذه الرقية التي استعملت في اشعال نيران الحب: «هوا به هوا به، البرق والسحابة، أخذته بمركن. فحبه تمكن. أخذته بإبره، فلا يزل في عبره، جلبته بإشفى، فقلبه لا يهدأ. جلبته

---

1) اللسان (5/ 34)، سنن ابن ماجة (2/ 1163)، اللسان (3/ 499)، العقد الفريد (6/ 274).

2) شرح الإمام النووي على متن مسلم (9/ 39)، إرشاد الساري (8/ 391)، سنن أبي داود (4/ 10 وما بعدها)، اللسان (14/ 332)، (صادر)، (19/ 49)، تاج العروس (10/ 154)، اللسان (3/ 499)، (4/ 332)، صحيح مسلم (7/ 18)، سنن ابن ماجة (2/ 1166)، (كتاب الطب 38).

يمبرد، فقلبه لا يبرد»[1]. فهذه الرقية تلهب قلب الرجل وتهيجه، وتجعله كأنه في إجانة غسل الثياب. يعمل على وفق ارادة المرأة التي استعملت تلك الرقية.

أما إذا سئمت المرأة زوجها، وأرادت الابتعاد عنه، وطرده عنها، فسبيلها في ذلك رقية تبعد الرجل، وتنفره منهما، وذلك بأن تقول: «بأفول القمر، وظل الشجر، شمال تشمله، ودبور تدبره، ونكباء تنكبه، شيك فلا انتقش». فاذا أتمت ذلك، رمت في أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة. ثم تقول: «حصاة حصت أثره، ونواة نأت داره، وروثة راثت خبره، لفعته ببعرة»[2].

و(العزائم) الرقيّ، أو ضروب منها. يقال عزم الراقي، كأنه أقسم على الداء، وعزم الحوّاء، إذا استخرج الحية. كأنه يقسم عليها. والعزيمة من الرقي التي يعزم بها على الجن والأرواح[3]. ومن اعتقادات الأعراب أن الجن لا تجيب صاحب العزيمة، حتى يكون المعزّم مشاكلاً لها في الطباع[4]. وأن للمعزمين جنوداً من الشياطين والجن تتبع أوامرهم وتطيعهم وتخدمهم وتتصرف بين أمرهم ونهيهم[5].

ومن ضروب الرقية، ما يدعيه الحوّاء من إخراج الحية من جحرها، بعزيمة يقوم بها، تجبرها على الخروج منه. وقد قالت بذلك الشعراء في الجاهلية والإسلام. وكانوا يؤمنون بذلك ويصدقون به. وقد أشير في شعر لأمية بن أبي الصلت، إلى اخراج الحية من جحرها. وقد تحدث (الجاحظ) عن ذلك، وعلل سبب خروجها وجاء بأبيات شعر في ذلك، وتحدث عن تمويه الحواء والراقي[6].

---

1) بلوغ الأرب (3/ 7).

2) بلوغ الأرب (3/ 7).

3) اللسان (12/ 400)، (عزم)، الحيوان (4/ 184).

4) الحيوان (4/ 185 وما بعدها).

5) الحيوان (4/ 184 وما بعدها)، الفهرست، (الفن الثاني من المقالة الثامنة).

6) الحيوان (4/ 184 وما بعدها).

و(التمائم) ومفردها (التميمة)، هي عوذة على هيأة قلادة من سيور تضم خرزاً، وقد تكون من خرزة واحدة تستعمل للصبيان والنساء في الغالب اتقاء النفس والعين. فاذا كبر الطفل، انتزعت التميمة منه. وقيل: التمائم «خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها النفس والعين بزعمهم، فأبطله الإسلام». وذكر أن التميمة خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق. وكانوا يعتقدون أنها تمام الدواء والشفاء[1]. وقد أشير إليها في الشعر الجاهلي.

وكانوا يستعملونها بكثرة، يتعوذون بها، لذلك عدها بعض الصحابة من الشرك، لأنهم جعلوها واقية من المقادير والموت وأرادوا دفع ذلك بها، وطلبوا دفع الأذى من غير الله[2].

وللخرز عند الجاهلين وعند الأعراب حتى اليوم، أهمية كبيرة في السحر، وفي دفع أذى الأرواح والعين، وفي النفع والحب، وأمثال ذلك. ولما كانت الخرز فصائل وأنواعاً، فقد خصوا كل فصيلة باسم معين، وجعلوا لكل قسم وصنف أثراً خاصاً يمتاز به عن بقية الأصناف الأخرى. فالتولة مثلاً الخرزة التي تحبب المرأة إلى زوجها[3]، و(العُقرة) (خرزة العقر) خرزة تشدها المرأة على حقويها لئلا تلد. يزعم الأعراب أنها إذا علقت على حقو المرأة لم تحمل إذا وطئت. وقيل العكس: العقرة خرزة تعلق على العاقر لتلد[4]. و(الينجلب) خرزة للتأخيذ، تفيد في رجوع الرجل بعد الفرار وفي اكتساب عطفه بعد وقوع بغضه[5]. وكانوا يقولون أقوالاً في ذلك مثل: «أخذته بالينجلب، فلا يرم ولا يغب، ولا يزل عند الطنب»، و«وأعيذه بالينجلب، أن يقم وأن يغب». فهم يربطون الرجل بهذه الخرزة. فيجعلونه لا يفارق بيته وأهله.

---

1) اللسان (12/ 69 وما بعدها)، (تمم).

2) اللسان (12/ 70)، (تمم)، سنن أبي داود (4/9)، النهاية (1/ 143)، تاج العروس (7/ 242)، شحن العلوم (حـ1 ق1 ص 215).

3) تاج العروس (7/ 242).

4) تاج العروس (3/414)، (عقر)، بلوغ الأرب (3/ 7).

5) تاج العروس (8/ 379)، بلوغ الأرب (3/ 7).

و(الخَصُمة)، وهـي خـرزة للـدخول علـى السـلطان والخصومة تجعـل تحـت الخـاتم أو في زر القمـيص أو في حمائـل السـيف[1]. و(العطفـة) هـي خـرزة تجلـب العطف لصاحبها[2]. و(السلوانة) خـرزة تسحق ويشـرب ماؤها، فيورث شاربه سلوة. وقيـل: خـرزة للتأخيـذ، يؤخـذ بهـا النسـاء الرجـال، وقيـل خـرزة للبغض بعد المحبـة، وقيل خرزة شفافة تدفن في الرمل، فتسود فيبحث عنها ويسقاها الإنسان فتسليه، أو يسقاه العاشق فيسليه عن المرأة. وقيل خـرزة كانوا يقولون: اذا صب عليها مـاء المطر، فشربه العاشق سلا. أو هو أن يؤخذ تـراب قبر ميت: فيجعل في مـاء فيسقى العاشـق، فيمـوت حبـه، أو هـو دواء يسـقاه الحـزين فيفرحـه[3]. و(القرزحلـة)، وهـي خرزة من خرز الضرائر[4].

وكـانوا يرقـون بـالخرز. فلخـرزة (الهنمـة)، رقيـة خاصـة، هـي: «أخذتـه بالهنمة، بالليل زوج وبالنهار أمة»[5]. وللقبلـة و(الـدردبيس)، وهـي خـرزة مـؤثرة ذات قـوة فعالـة، يتحبـب بهـا النسـاء إلى أزواجهـن، تؤخـذ مـن القبـور العاديـة، أي القبـور الجاهلية القديمة، رقية خاصة، هي: «أخذته بالدردبيس تدرّ العرق اليبيس، وتذر الجديـد كالـدريش». وقيـل الـدردبيس خـرزة سـوداء، كـأن سـوادها لـون الكبـد، إذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشف مثل العنبة الحمراء للحب، تتحبب بها المرأة إلى زوجها، توجد في قبور عاد[6].

ومـن خـرزهم: (كـرار)، خـرزة تؤخـذ بهـا نسـاء الأعـراب. وقيل خـرزة تؤخـذ بهـا النسـاء والرجـال. ورقيتها: «يـا كـرار كـرّيه، يـا همـرة اهمـريه، إن أقبـل فسـريه، وإن أدبـر فضـريه، مـن فرجـه الى فيـه»[7]. ومنهـا (الهمـرة)، خـرزة للتأخيـذ. وهـي خـرزة الحـب، يسـتعطف بهـا الرجـال، ورقيتها: «يـا همـرة اهمـريه، ويـا غمـرة اغمـريه، إن أقبـل

1) تاج العروس (8/ 379)، (خصم).
2) تاج العروس (200/6)، بلوغ الأرب (3/ 7).
3) تاج العروس (10/ 181)، (سلا).
4) بلوغ الأرب (3/ 6 وما بعدها).
5) اللسان (16/ 107)، تاج العروس (9/ 111)، (الهينمة).
6) تاج العروس (4/ 149)، (الدربيس).
7) تاج العروس (3/ 519 وما بعدها)، (كرر)، بلوغ الأرب (3/ 7).

فسرّيه، وإن أدبر فضريه، من استه إلى فيه، وماله وبنيه»[1]، ومثلها (الهصرة)، خرزة للتأخيذ[2].

ومن الخرز المعروفة: (الكحلة)، خرزة من خرزات العرب للتأخيذ، تؤخذ بها النساء الرجال. أو هي خرزة سوداء تجعل على الصبيان للعين والنفس من الجن والإنس، فيها لونان بياض وسواد[3].

إصابة العين:

كان للجاهلين رأي وعقيدة في العين وفي أثرها في الحياة، فهم يعتقدون بأثر العين وإصابتها. ولخطر هذه الإصابة وأهميتها، تفننوا في ابتداع وسائل الوقاية منها، وحماية أنفسهم من أثرها. وقد زعموا أن عيون بعض الناس تصيب، وأنها إن أصابت شيئاً أهلكته، فان (العين) لا تنتج الاّ شراً، وهي لا تكاد تكون في خير مطلقاً. ولذلك تجنبوا (العائن) وابتعدوا عنه. و(العائن) و(المعيان) و(العيون) هو من تصيب عيونه. فكان أحدهم اذا ما اتصل بإنسان، وصادف أن نظر ذلك الإنسان إلى شيء أعجبه، أو رأى شيئاً لفت نظره، ثم صادف أن وقع مكروه لمن نظر إليه، أو إلى ما كان قد رآه (العائن)، نسب ذلك المكروه إليه، ورمي بإصابة العين، وقد يحدث من ذلك الرجل مثل ما حدث له مع من وقع المكروه عليه، فيرمى عندئذ بإصابة معين، وينبذه الناس خوفاً من إصابتهم بعينه. فيقال إن فلاناً لعيون: اذا كان يستشرف للناس ليصيبهم بعين. ويقال لعيون إنه لنفوس، وما أنفسه وقد أصابته نفس أو عين[4].

ولا تقتصر الإصابة بالعين على إصابة عيون الإنسان، فقد تصيب عيون الحيوان كذلك. وهناك حيوانات عديدة لها قدرة على الإصابة بعينيها مثل الحيات والثعلب والطاووس. وأكثر الحيوانات التي تكون لعيونها بريق أو لمعان

---

1) تاج العروس (3/ 623)، (همر)، بلوغ الأرب (3/ 7).
2) تاج العروس (3/ 621)، (هصر).
3) تاج العروس (8/ 95)، (كحل)، اللسان (11/ 585)، (كحل).
4) الحيوان (2/ 142 وما بعدها).

خاص، هي من هذا القبيل. وقد حمل هذا الاعتقاد بعض الناس على التخوف من تلك الحيوانات والابتعاد عنها، بل بلغ الخوف ببعضهم أن امتنعوا من ذكر اسم أمثال تلك الحيوانات أو تهجّي حروف أسمائها خشية العين[1]. والكلاب من الحيوانات التي تصيب بعيونها. ورد عن (ابن عباس) قوله: «الكلاب من الجن، فإن غشيتكم عند طعام، فالقوا لهن، فإن لهن أنفساً أي أعيناً»[2]. ولخوفهم من إصابة عيون الحيوان كرهوا الأكل بين يديها. فكانوا إما أن يشغلوها عن النظر إليهم بشيء يرمونه لها لتأكله، ولو بعظم وإما ان يطردوها، فيتخلصوا من إصابتهم بعيونها[3].

ويعبر عن العين التي تصيب (المعين) بـ (النفس). يقال نفسته بنفس، أي أصبته بعين، وأصابت فلاناً نفس، أي عين. وفي الحديث «إنه نهى عن الرقية إلاّ في النَّملة والحُمَة والنفس، أي العين»[4]. و(النافس) العائن، والمنفوس المعيون. و«النّفوس: العيون الحسود المتعين لأموال الناس ليصيبها، وما أنفسه، أي ما أشد عينه»[5].

و(السفعة) العين. ورجل مسفوع، أي معيون أصابته سفعة، أي عين. ويقال به سفعة من الشيطان، أي مس، كأنه أخذ بناصيته. ويعبر عنها بـ (النظرة) كذلك. وقيل: النظرة الإصابة بالعين والسفعة العين[6]. و(النظرة) الغشية أو الطائف من الجن، وقد نظر، فهو منظور، أصابته غشية أو عين. وفي الحديث أن النبي، صلى الله عليه وسلم، رأى جارية، فقال: إن بها نظرة، فاسترقوا لها. قيل

---

1) روح المعاني (30/ 284)، Ency. Religi., 610.

2) اللسان (6/ 236)، (نفس)، «إن الكلاب من الجن، وإن الجن من ضعفة الجن، فإذا غشيتم منها شيء، فالقوا إليها شيئاً واطردوها، فإن لها أنفس سوء»، الحيوان (2/ 131).

3) الحيوان (2/ 132).

4) تاج العروس (4/ 259)، (نفس).

5) اللسان (6/ 236)، (نفس).

6) تاج العروس (5/ 381)، (سفع).

معناه: إن بها إصابة عين من نظر الجن إليها وكذلك بها سفعة[1]. وقد يخصصون (النظرة) بإصابة عين الجن[2].

وللحاسد نفس على المحسود. وقد يصل نفس الحاسد إلى حد الإهلاك. والعائن ربما لا يتعمد الأذى، انما عينه هي التي تصيب بمجرد المقابلة أو وقوع النظرة على الشيء، ولذلك كان أذاه عند المقابلة ووقوع عين العائن على المعيون. أما الحاسد، فإنه يصيب في النية وفي الحضور، لأن عينه تنفذ وتصل إلى المحسود، وإن كان غائباً عن الحاسد[3]. ولخطر الحسد وشدة أذاه، اتخذت الوسائل الخاصة بمقاومة عيون الحسود.

ولحماية النفس من العين، استعملت الخرز والتعاويذ والرقي. ومن الخرز التي استخدمت في حماية الأطفال من إصابة العين، (الكحلة)، وهي خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم. و(القبلة)، وهي خرزة بيضاء تجعل في عنق الفرس من العين[4].

و(الودعة)، تفيد في دفع أذى العين عن الإنسان. وذكر أنها مما يقذفه البحر، وهي تتفاوت في الصغر والكبر، وهي خرزة تثقب وتتخذ منها القلائد، وللحماية من العين[5].

في أوابد العرب:

وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية بعضها يجري مجرى الديانات، وبعضها يجري مجرى الاصطلاحات والعادات، وبعضها يجري مجرى الخرافات، وقد كانت قد هيمنت وسيطرت على عقليتهم، ولا سيما تلك الأمور التي كانت

---

1) تاج العروس (3/ 574)، (نظر).
2) عمدة القارئ (21/ 264 وما بعدها)، اللسان (17/ 176).
3) روح المعاني (30/ 284).
4) تاج العروس (8/ 71)، بلوغ الأرب (3/ 7).
5) تاج العروس (5/ 534)، (ودع).

تتصل بحياتهم، كالكهانة والحداسة والرقية والتنجيس والتنجيم، وغير ذلك مما له علاقة بحياة الإنسان حتى قيل إنهم كانوا (بين متكهن وحدّاس وراق ومنجس ومتنجم)[1].

الكهانة:

وفي طليعة بعض الناس الموهوبين بما لهم من قدرة خفية خارقة وإلهام، الاتصال بالآلهة وبالأرواح، والاستئناس بها والأخذ منها، والحصول على علم غزير منها يتعلق بالمستقبل عامة ومستقبل كل إنسان خاصة، أو التأثر عليها بصرف الخير إلى شخص ودفع الأذى عنه، وبتوجيه الشر إلى شخص يراد توجيهه إليه وإيذاؤه. ويُقال للاتصال بالآلهة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبؤ عما سيحدث:

(الكهانة) «Divination»، ويُقال لمن يقوم بذلك الكاهن. أما الذي يزعم أن في امكانه التحكم في الأرواح وتوجيهها الوجهة التي يريدها، فيقال له (ساحر) ويقال لعمله (السحر). وتقابل كلمة (السحر) في العربية، كلمتا «Magic»و«Sorcery»، في الإنكليزية.

والكهانة في اللغة العربية تعاطي الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ومعرفة المغيبّات والأسرار، وتقابل بهذا التعريف في العربية كلمة «Soothsayer»، في الإنكليزية. وتقابل كلمة (كاهن) لفظة (كوهين) «Kohen»، في العبرانية و(كهنا)، «Kehna»، في لغة بني إرم، وكلها من الأصل السامي القديم[2].

---

1) إرشاد الساري (8/ 400)، صحيح مسلم (7/ 35 وما بعدها)، عمدة القارئ (21/ 275)، اللسان (17/ 244)، الروض الأنف (1/ 136)، مروج الذهب (2/ 82)، (محمد محيي الدين عبد الحميد).

2) إرشاد الساري (8/ 398)، اللسان (13/ 362 وما بعدها)، (كهن)، مفتاح السعادة، لطاش كبري زاده (1/ 293 وما بعدها)، Nöldeke, Neue Beiträge Semitischen Sprachwissenschaft, S. 36.

ومن مرادفات الكاهن: (الطاغوت). وبهذا التفسير فسر العلماء قوله تعالى: (فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ)[1]. قالوا: الطاغوت: الكاهن. وهم كهان تنزل عليهم شياطين يلقون على ألسنتهم وقلوبهم. والطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، كان في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد وهم كهان تنزل عليهم الشياطين[2]. وذكر بعض علماء التفسير ان الطاغوت: الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه. وقد وردت اللفظة في موضع آخر من القرآن الكريم بعد لفظة (الجبت)، اذ جاء في التنزيل: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ)[3]. وقد ذكروا أن الجبت السحر والساحر، بلسان الحبشة والطاغوت الكاهن[4]. وأن الجبت والطاغوت صنمان، أو أن الجبت الأصنام والطاغوت تراجمة الأصنام، والذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس، أو أن الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة أو خضع له، كائناً ما كان ذلك المعبود من حجر أو إنسان أو شيطان. وإذ كان ذلك كذلك، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها كانت معظمة بالعبادة من دون الله، فقد كانت جبوتاً وطواغيت، وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كانا مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله، وكذلك حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف لأنهما كانا مطاعان في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله، فكانا جبتين وطاغوتين[5].

وذكر علماء التفسير في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا)[6]، أن (الطاغوت)

---

1) البقرة، الرقم 2، الآية 256.
2) تفسير الطبري (3/ 13 وما بعدها).
3) النساء، الآية 51.
4) تفسير الطبري (5/ 84).
5) تفسير الطبري (5/ 83 وما بعدها).
6) سورة النساء، الآية 60.

الكاهن الذي كان يحكم بين الناس، ويتحاكمون له. وأنها نزلت في حق يهودي اختصم مع مسلم، فكان المسلم أو المنافق يريد الاحتكام الى الكاهن، وكان اليهودي يدعو إلى النبي أو المسلمين، لأنهم لا يقبلون الرشوة، فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جهينة، أو إلى كاهن بالمدينة، أو إلى كعب بن الأشرف، فنزل الوحي بتوبيخ ذلك المسلم أو المنافق[1].

والتكهن عن المستقبل والتحدث عن الماضي، موضوع له فروع عديدة. وقد عدّ علماً من العلوم عند كثير من الأمم. وألفوا فيه. وتنبؤ الأصنام هو نوع من هذه الأنواع. ويدخل في التكهن التنبؤ بواسطة وسيط: مكالمة صنم، أو (تابع) أي (رئي)، وقراءة كبد الشاة وقراءة أعضائها كما كان عند البابليين وعند المصريين. والتكهن بحركات الطيور، وتفسير الأحلام. وتفسير بعض الظواهر الطبيعية وما شابه ذلك وكل هذه كانت معروفة عند الجاهلين.

وليس من الضروري أن يكون التكهن بتكليم الصنم حتماً وفي المعبد بالضرورة، فقد كان من الكهان من يقيم في بيته ويتكهن مع ذلك للناس، ينطق بما يوحى إليه ومما يشعر به. وقاصدوه يرون أن فيه قوة خارقة وقابلية لتلقي الوحي من تلك القوة التي يتصورونها على هيأة شخص غير منظور يلقي إلى الكاهن الوحي، فينطق بما يناسب المقام وبما يكون جواباً، على الأسئلة التي توجه اليه. ويطلقون على ذلك الشخص الخفي اسم (تابع) أو (صاحب) أو (مولى) و(ولي) و(رئي)، لأنه يكون تابعاً وصاحباً للكاهن، يتبعه ويصاحبه ويلقي إليه (الرئي). يكشف له الحجب ويأتيه بالأسرار. فهو (حاز) و(حزّاء) و(حازية) و(الرائي) في العهد القديم[2].

وكان من رأي الجاهليين أن هناك وحياً يوحى إلى الكاهن بما يقوله، وقد قالوا لذلك المصدر الذي يوحي اليه: (شيطان الكاهن)، كما قالوا للمصدر الذي يوحي إلى الشاعر بوحي شعره: (شيطان الشاعر)، ذلك لأن شيطان الكاهن

1) تفسير الطبري (5/ 96 وما بعدها).

2) Reste, S. 134, Shorter Ency., p. 207.

يسترق السمع ويلقي به إلى الكهنة[1]. يسترقه من السماء، فيأتي به إلى الكاهن ويلقي ما استرقه إليه، فيلقي الكاهن ما ألقى عليه شيطانه إلى الناس، وبذلك يتنبأ لهم[2]. «سأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ناسٌ عن الكهان، فقال: ليسوا بشيء، فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحياناً بشيء، فيكون حقاً، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: تلك الكلمة من الحق، يخطفها من الجني فيقرها في أذن وليه، فيخلطون معها مئة كذبة»[3].

وقد وردت كلمة (كاهن) في القرآن الكريم في معرض الرد على قريش الذين اتهموا الرسول بأنه (كاهن)، وبأنه يقول القرآن على نمط سجع الكهان. فجاء فيه: (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)[4]، و(إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)[5]. فرد عليهم بقوله: «ما هذا القرآن بقول شاعر، لأن محمداً لا يحسن قيل الشعر، فتقولوا هو شعر، قليلاً ما تؤمنون. يقول تصدقون قليلاً به أنتم، وذلك خطاب من الله لمشركي قريش. ولا يقول كاهن، قليلاً ما تذكرون. يقول ولا هو بقول كاهن، لأن محمداً ليس بكاهن، فقولوا هو ممن سجع الكهان»[6]. فكان للكهان أسلوب خاص في كلامهم عند التنبؤ والتكهن هو أسلوب للسجع. ولذلك عرف بـ (سجع الكهان). وقد امتاز سجعهم هذا باستعمال الكلام الغامض، والتعابير العامة الغامضة التي يمكن تفسيرها تفاسير متناقضة ومختلفة. وهو أسلوب تقتضيه طبيعة التكهن، لكي لا يلزم الكاهن على ما يقوله من قول ربما لا

1) تاج العروس (9/ 326 وما بعدها)، اللسان (17/ 244)، الطبرسي (5/ 349، 367)، بلوغ الأرب (2/ 269)، مروج الذهب (2/ 172 وما بعدها)، مفتاح السعادة، لطاش كبري زاده (1/ 113 وما بعدها)، إرشاد الساري (8/ 398)، مقدمة ابن خلدون (1/ 101 وما بعدها).

2) صبح الأعشى (1/ 398).

3) إرشاد الساري (8/ 400)، صحيح مسلم (7/ 35 وما بعدها)، عمدة القارئ (21/ 275)، اللسان (17/ 244)، الروض الأنف (17/ 244)، الروض الأنف (1/ 136)، نهاية الأرب (3/ 128)، (في أخبار الكهان).

4) سورة الطور، الآية 29، تفسير الطبري (27/ 18).

5) الحاقة، الآية 42.

6) تفسير الطبري (29/ 42).

يقع، أو قد يقع العكس. ففي مثل هذه الحالة، يمكن أن يكون للكاهن مخرج باستعماله هذا النوع من الكلام.

وقد ورد أن الرسول نهى عن محاكاة الكهان في سجعهم، فذكر عنه قوله: «أسجعٌ كسجع الجاهلية»[1].

ويذكر أهل الأخبار أن (تابع) الكاهن، وهو شيطانه وجنيهّ، كان يسترق في الجاهلية الأخبار من السماء، فيلقي بها إلى الكاهن المختص به. فيخبر الكاهن من يأتي إليه للكهانة. بقوا على ذلك إلى ظهور النبوة، فلما نزل الوحي انقطعت الكهانة، إذ وجد الشياطن الذين كانوا يسترقون السمع لهم شهاباً رصداً. وقالوا إن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[2]، إنما عنى به هذا الحادث، حادث منع الشياطن من استراق السمع[3].

ويذكر أهل الأخبار أيضاً أن «القذف بالنجوم قد كان قديماً، وذلك موجود في أشعار القدماء من الجاهلية. منهم: عوف بن الجزع، وأوس بن حجر، وبشر بن أبي خازم، وكلهم جاهلي. وقد وصفوا الرمي بالنجوم»[4]. وأن من عقائد عقائد أهل الجاهلية في تساقط النجوم والشهب دليل على موت عظيم أو ميلاد مولود عظيم[5]. وذكر أن الرسول كان جالساً مع قوم من الأنصار إذ رمي بنجم فظهر نوره، فقال لهم: ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في

---

1) البيان والتبيين (1/ 287).

2) سورة الجن، رقم 72، الآية 8 وما بعدها.

3) تفسير الطبري (29/ 69 وما بعدها)، الكامل، لابن الأثير (2/ 10)، (المنيرية)، نهاية الأرب (3/ 124 وما بعدها)، مفتاح السعادة (1/ 293 وما بعدها)، تاج العروس (9/ 326 وما بعدها)، (كهن)، مروج الذهب (2/ 152 وما بعدها).

4) الروض الأنف (1/ 135).

5) الروض الأنف (1/ 136 وما بعدها).

الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كنا نقول حين نراه يرمى به مات ملك، ولد مولود[1].

وقد جعل (المسعودي) حدة الأذهان مع نقصان الأجسام وتشويه الخلق، من جملة العوامل التي دفعت على التكهن والإخبار عن الغيب. وضرب مثلاً على ذلك: شق، وسطيح، وسملقة، وزوبعة، سديف بن هوماس، وطريفة الكاهنة، وعمران أخي مزيقياء، وحارثة، وجهينة وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان[2].

وقد يلحق التابع من الجن أشخاصاً لم يشتهروا بالكهانة وإنما عرفوا بشدّة ذكائهم ومعرفتهم بعواقب الأمور، مثل (أحيحة بن الجُلاح) وكان من أشراف المدينة، وقد اشتهر عندهم بكثرة صوابه وسرعة ادراكه للعواقب. فعللوا ذلك بوجود تابع له من الجن كان يعلمه المغيبات[3].

قال (الجاحظ): «وكانوا يقولون، إذا ألف الجني إنساناً وتعطف عليه، وخبره ببعض الأخبار، ووجد حسه ورأى خياله، فإذا كان عندهم كذلك قالوا: مع فلان رئي من الجن. ومن يقولون ذلك فيه عمرو بن لحي بن قمعة، والمأمور الحارثي، وعتبة بن الحارث بن شهاب».

فأما الكهان، فمثل حارثة جهينة، وكاهنة باهلة، وغُزى سلمة، ومثل شق وسطيح وأشباههم[4].

والكهان يرون تابعهم، وقد يتجلى لهم في صورة إنسان. ويظهر على صورة رجل للكواهن كذلك. فقد كان للغيطلة، وهي على ما يزعمه أهل الأخبار كاهنة أبوها مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرّة، وشنوق أخو مدلج، تابع يفد إليها، ويدخل غرفتها، ويجلس، تحتها. كما كان لفاطمة بنت

---

1) السيرة الحلبية (1/ 140).

2) مروج (2/ 154).

3) الأغاني (13/ 115)، «ذكر أحيحة بن الجلاح».

4) الحيوان (6/ 203 وما بعدها).

النعمان النجارية، وهي كاهنة كذلك، تابع من الجن «كان إذا جاءها، اقتحم عليها في بيتها. فلما كان في أول البعث، أتاها، فقعد على حائط الدار ولم يدخل، فقالت له: لِمَ لا تدخل؟ فقال: قد بعث نبي بتحريم الزنى»[1].

فالكاهن إذن، هو الذي يتنبأ بواسطة تابع، ولا يستطيع غير الكاهن رؤية التابع. وتكون الكهانة كلاما يلقيه الكاهن لنفسه، أو تابعه، جواباً عن أسئلة الكاهن. ولما كان التابع روحاً، كان من الطبيعي تصور صدور ذلك الكلام من روح لا يمكن لمسها ولا رؤيتها، ترى وتسمع وتعقل، وتجيب ما يطلب منها الإجابة عنه.

ويكون الكاهن في أثناء تكهنه في غيبوبة أو في شبه غيبوبة في الغالب، ذلك بأنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجهد صعب لا يتحمله كل انسان، ولاتصال الروح فيه، واتصال الروح بجسم الكاهن شيء جد عسير، يتصبب العرق منه. خاصة اذا كان المتكلم الكاهن نفسه.

ويكون التكهن، في الغالب، في مكان هادىء تكتنفه ظلمة أو عتمة، لأن للهدوء والظلام أثراً عظيماً في النفوس، ويسبقه حرق بخور في الأكثر يستمر إلى ما بعد انتهاء التنبؤ، لأن البخور من الروائح الطيبة التي تؤثر في الأرواح، فتجلبها إلى المكان بسرعة. ثم إن له تأثيراً خاصاً في الأعصاب، وهو بذلك مادة صالحة في الإيحاء لمن يقصد استشارة الكهان.

ويروي الأخباريون أن الناس كانوا اذا قدموا على الكهان امتحنوهم ليتأكدوا من صدق تكهنهم ومقدار علمهم. وذلك بإخفاء شيء إخفاءً لا يمكن الاهتداء إليه، أو بوضع لغز، أو ما شابه ذلك، فيبدؤون، الكاهن بالسؤال عنه. فاذا أجاب جواباً دل على معرفة وسعة علم، سألوه عن الأمر الذي عندهم والذي من أجله قصدوه. ويكون لهؤلاء الكهان أجر يدفع اليهم. والعرف الغالب أن الكهانة لا

1) الروض الأنف (1/ 137).

تكَون ولا تصح إلا بتقديم شيء للكاهن، لأن التابع لا يرضى بالتنبؤ إلاّ اذا رأى حلاوة للتنبؤ.

ومن قبيل الامتحانات التي امتحن بها الكهان، امتحان (عتبة بن ربيعة) إلى بعض كهان اليمن ليتأكد من صدق تكهنه قبل النظر في أمر اختلاف ابنته (هند) مع زوجها (الفاكه بن المغيرة) في فرية رماها (الفاكه) زوجته بها[1]. وامتحان (عبد المطلب) للكاهن (ربيعة بن حذار الأسدي) حين اختصم مع (بني كلاب وبني رياب)[2]، وامتحان (الكاهن الخزاعي)[3] وغير ذلك.

وما يعطاه الكاهن ويجعل له على كهانته، يقال له (الحُلوان) و(حلوان الكاهن)، وهو شيء غير معين ولا ثابت، إنما يتفق عليه، والرأي الشائع بين العامة حتى الآن أن الكهانة لا تصدق إذا لم يعط الكاهن أو الساحر (حلوانه) لأن ما يقدم إلى الكاهن لا يخصه ولا يكون له إنما هو للرئي، والرئي لا يقوم بعمله ولا يحسن أداءه إلاّ بحلوان، يقبله مهما كان، وعلى الكاهن استشارة (التابع) ومراجعته فيه حتى يقنع، ويوافق على الأجر. ولما كان الإسلام قد منع الكهانة، كان من الطبيعي نهيه عن دفع الحلوان[4].

والكهّان إنما صاروا كهاناً، أي متنبئين بالغيب، لأن «الكهنة قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة، وطباع نارية، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه»[5]. وهذا هو تعليل إسلامي بالطبع لمصدر تنبؤ الكهان، أما رأي الجاهلين عنه، فلا علم لدينا عنه، لعدم ورود شيء منهم إلينا.

---

1) نهاية الأرب (3/ 131)، صبح الأعشى (1/ 398 وما بعدها).

2) نهاية الأرب (3/ 133).

3) نهاية الأرب (3/ 132).

4) «أعطيت الكاهن حلوانه، أي كراء كهانته»، الاشتقاق (2/ 314)، «نهى النبي صلى الله عليه وسلم، عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن»، إرشاد الساري (8/ 400)، اللسان (18/ 211)، تاج العروس (10/ 96)، اللسان (14/ 194)، (صادر) «حلو»، النهاية (3/ 256 وما بعدها)، مفتاح السعادة (1/ 293 وما بعدها).

5) عمدة القارئ (21/ 275)، إرشاد الساري (8/ 398 وما بعدها).

وتقدم الكهانة على القدرة الشخصية وعلى ذكاء الكاهن، لذلك لم تكن كالسدانة مثلاً إرثاً ينتقل من الآباء إلى الأبناء، بل كان في إمكان كل شخص يرى في نفسه القدرة على التنبؤ بالغيب والتحدث عما سيحدث للسائلين أن يدعي الكهانة وأن يعد نفسه كاهناً يتكلم باسم الأرباب، وينطق بالقوة الخفية التي توحي إليه بالتنبؤات، فيتخذ له مكاناً في معبد أو في موضع آخر أو في بيته ليقصده من يريد استشارته في عظائم الأمور مهما اختلفت وتنوعت عن المستقبل وعن الأخبار وعن الأسرار والمغيّبات وعن القيام بعمل من الأعمال.

وفي الأقوال المنسوبة إلى الكهان، قسم بالكواكب كالشمس والقمر وبالنجوم وبالليل وبالنهار وبالأشجار وبالرياح والكلمات وبالجبال والأنهار وبالطيور ومما شابه ذلك أمور طبيعية الغرض منها التأثير في نفوس السامعين والأغراب في الكلام، ليكون بعيداً عن الأسلوب المألوف. وقد روى الأخباريون نماذج من هذا الكلام، من هذا السجع المعروف بـ (سجع الكهان)، نسبوه إلى أصحابه من كهان الجاهلية. وهي نسبة مهما حاولوا إثبات صحتها وصدق روايتها، فإنهم عاجزون في رأيي عن اقناعنا بصحة ما يقولون. كيف حفظوا ذلك الكلام وتناقلوه بالحرف الواحد بوزنه وبأسلوبه وبنصه وبفصه إلى أن أوصلوه إلى أيدي العلماء والمدونين فثبتوه بالتدوين؟ وكيف لم يخطئوا في ذلك ولم ينسوا منه حرفاً، حتى لكأنه كلام مقدس وارد عن وحي سماوي، فلا بدّ من المحافظة على نصه وروايته على نحو ما ورد وحفظ؟ واذا كان العلماء قد تساهلوا في رواية متن حديث رسول الله فسمحوا بالتصرف فيه بشرط المحافظة على المعنى محافظة تامة، لصعوبة التمسك برواية النص على نحو ما ورد عن الرسول. فكيف يعقل محافظة الرواة على حرفية كلام الكهان على نحو ما نُسب اليهم. وكلام الكهان ليس بشيء بالقياس إلى كلام الرسول، ثم إنه أقدم منه، ولم يكن مدوناً ولا مكتوباً في كتاب على ما يفهم من روايات الأخباريين.

وقد كان للكهان على ما يتبين من قصص الأخباريين أثر كبير في حياة العرب قبل الإسلام. فقد كان الناس يستشيرونهم في إبرام مهمات الأمور،

كإعلان حرب أو كشف عن جريمة أو بحث عن شيء مفقود وما شاكل ذلك. لقد كانوا يستشيرونهم في الحروب، يتنبؤون للناس بقرب حدوث غزو أو نزول كارثة أو خير سيقع قريباً، لقد كان هجوم بني أسد على (حجر) بمشورة الكاهن وبرأيه، وكان تركهم تميماً وافتراقهم عنهم في يوم جبلة بتحذير من الكاهن كذلك[1]. وقد استعان النعمان أو يزيد بن عمرو الغساني بالكاهن (الخمس التغلبي)، لإخباره عمن تجاسر على ناقته فقتلها، كما استعان (عتبة بن ربيعة) في إثبات نسب ابنته (هند) منه[2].

وقد اشترك الكهان أنفسهم في الغزوات وفي الحروب. وكانوا يشجعون قومهم ويحثونهم على القتال، وكان بعضهم من مشاهير الفرسان، مثل (زهير بن جناب)، و(جذيمة) العبهي، وقلطف الكاهن، والمأمور كاهن مذحج.

ولم يكن الكهان من الطبقات الدنيا عند عرب الجاهلية، ولا من سواد الناس. لقد كان منهم من هو من سادة القبيلة ومن الأشراف. ولا بد أن يكونوا من هذه الطبقة، ليكون حكمهم نافذاً بين الناس بما لهم من عز ومنزل وجاه. وقد عد الأخباريون (زهير بن جناب) رئيس كلب في جملة الكهان[3]. وقد كان للقبائل (كهان) تلتجىء إليهم في الملمات، لتستشيرهم وتعمل برأيهم في الغزو والحرب. يسيرون معها، وقد يقودونها في المعارك.

وقد كان لكل قبيلة كاهن منها أو عدة كهان، تلتجىء القبيلة إليهم لاستشارتهم في كل أمر عظيم يحدث لهم. ولا يشترط أن يكون كاهن القبيلة رجلاً، إذ يجوز ان يكون امرأة. وكان كاهن ثقيف (قريش) عند ظهور الإسلام رجلٌ يقال له (خطر)، وكان لجنب كاهنهم كذلك، وكان لقريش حين ظهور الإسلام كاهنة تدعى (سوداء بنت زهرة بن كلاب)، وهكذا كان شأن بقية

---

1) الأغاني (10/ 36)، مروج الذهب (2/ 173 وما بعدها)، نهاية الأرب، للنويري (124/3)، صبح الأعشى (1/ 398)، Reste, S. 136.

2) الأغاني (10/ 27)، «ذكر مقتل خالد بن كلاب»، صبح الأعشى (1/ 338 وما بعدها)، Reste, S. 136.

3) الأغاني (8/ 66)، (15/ 73)، (21/ 99).

القبائل. فلما ظهر الإسلام، ودّع أولئك الكهان رئيهم وتابعهم، وكهانهم، إذ نهى الإسلام عنها. وقد كان لبعضهم أثر مهم في إعداد قبائلهم للدخول في الإسلام[1].

وقد أشار بعض الكتبة الكلاسيكيين إلى وجود كهان عند العرب، كما أنه ورد في كتابات طور سيناء ما يدل على وجودهم عند القبائل[2].

ولم يكن الكاهن، كاهناً، بمعنى المخبر عن المغيبات فقط، بل كان حاكماً يحكم بين الناس فيما يقع بينها من خلاف. فالكاهن حاكم يفصل في الخصومات. وقد كان أكثر حكام العرب كهاناً، يقصدهم المتخاصمون من مواضع بعيدة لما عرفوا، به من أصالة الرأي، وصحة الحكم.

وقد ذكر أن الكاهن كان لا يلبس المصبغ أما العراف فإنه لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه[3]، ويدل ذلك على أنهما كانا يميزان أنفسهما بمميزات وعلامات وأنهما كانا يتجنبان بعض الأمور.

وقد اشتهر في الجاهلية عدة كهان ذكر الأخباريون أسماءهم، منهم: شقّ، وسَطيح، وأوس بن ربيعة، والخمس التغلبي، وعُزى سلمة الكاهن، ونفيل بن عبد العزي، وخنافر بن التوأم الحميري، وسواد بن قارب الدوسي، وعمرو بن الجعيد، وابن الصياد، والأبلق الأزدي، والأجلح الدهري، وعروة بن زيد الأزدي، ورباح (رياح) بن عجلة، وهو المعروف بعراف اليمامة، والكاهن الخزاعي، وهو جدّ (عمرو بن الحمق)، وكان منزله بعسفان، وإليه احتكم هاشم وأمية[4]، و(كهال)، أحد الكهنة الجاهليين[5].

---

1) الروض الأنف (1/ 137 وما بعدها)، مفتاح السعادة (1/ 113 وما بعدها)، نهاية الأرب (3/ 124)، صبح الأعشى (1/ 398).

2) Ency. Religi., I, p. 667.

3) تفسير الطبري (18/ 57)، ثمار القلوب (193)، بلوغ الأرب (3/ 407).

4) تاج العروس (9/ 326)، بلوغ الأرب (2/ 269 وما بعدها)، مروج الذهب (2/ 175 وما بعدها)، الكامل، لابن الأثير (2/ 10)، البيان والتبيين (1/ 289)، نهاية الأرب (3/ 132)، الثعالبي، ثمار (105 وما بعدها)، Reste, S. 136, f.

5) تاج العروس (8/ 106)، (كهل).

وأشهر الكهان وأعرفهم: شق وسطيح، وللأخباريين عنهما قصص أخرجهما من عالم الواقع، وجعلهما في جملة الأشخاص الخرافيين. فشق في زعمهم إنسان له يدٌ واحدة وعين واحدة، وجعلوه من المتشيطنة صورته صورة نصف آدمي. وذكروا أنه كان معاصراً لمالك بن نصر اللخمي، وأنه استدعاه واستدعى سطيحاً معه لتفسير رؤيا رآها أفزعته، وأنهما أخبراه بوقوع غزو الحبشة لليمن وبظهور سيف بن ذي يزن. وقالوا: إنه من بني جليخة، وأنه عمر ثلاثمائة سنة[1]. وقالوا إن سطيحاً كان كتلة من لحم يدرج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه إلاّ الجمجمة، وأن وجهه في صدره، ولم يكن له رأس ولا عنق، وكان في عصره من أشهر الكهّان، وإن كسرى بعث إليه عبد المسيح في بن بقيلة الغساني ليسأله في تأويل رؤيا رآها، فأخبره بظهور أمر رسول الله وبقرب زوال ملك العجم، فأخبر (عبد المسيح) كسرى بذلك[2].

وزعم أن سطيحاً جسد ملقى لا جوارح له، ولا يقدر على الجلوس، إلاّ اذا غضب انتفخ فجلس. وكان شق شق إنسان، له يد واحدة، ورجل واحدة وعين واحدة. وولد سطيح وشق في اليوم الذي ماتت فيه طريفة الكاهنة، امرأة (عمرو بن عامر)، وهي بنت الخير الحميرية، ودعت بسطيح قبل أن تموت، فأتيت به، فتفلت في فيه، وأخبرت أنه سيخلفها في علمها وكهانتها. وكان وجهه في صدره، ولم يكن له رأس ولا عنق، ودعت بشق ففعلت به ما فعلت لسطيح، ثم ماتت وقبرها بالجحفة[3].

وقد ذكر (المسعودي)، نسب الكاهن (شق) على هذا النحو: (شق بن مصعب بن شكران بن أترك بن قيس بن عنقر بن أنمار بن ربيعة بن نزار). وذكر نسب (سطيح) على هذه الصورة: (هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن

---

1) الاشتقاق (303)، المستطرف (2/ 80 وما بعدها)، (ربيعة بن نصر اللخمي)، الأزمنة والأمكنة (2/ 193)، الاشتقاق (286).

2) القزويني: عجائب المخلوقات (1/ 371)، «طبعة وستنفلد»، الطبري (2/ 99)، نهاية الأرب (3/ 128 وما بعدها)، (في أخبار الكهان)، Ency., Vol., p. 370.

3) الروض الأنف (1/ 18 وما بعدها).

عدي بن مازن بن غسان)[1] ودعاه بـ (سطيح الغساني) في موضع آخر، وأورد سجعاً من سجعه، كما أورد أخباراً لشق المعاصر له[2]. وقد دعاه (الجاحظ) بـ (سطيح الذئبي)، كما دعاه (ابن اسحاق) بذلك، لأنه ينسب إلى جد اسمه (ذئب)[3].

واذا كانت رواية أهل الأخبار عن وجود الكاهن (سطيح) صحيحة، فيجب أن يكون قد عاش في القرن السادس للميلاد، اذ هم يذكرون أنه كان معاصراً لكسرى أنو شروان، وللنعمان بن المنذر، ويروون أنه أخبر (عبد المسيح بن حسان)، الذي جاء إليه ليستفسر منه عن رؤيا رآها كسرى في منامه فأزعجته، فأخبره بمولد الرسول. وذكروا أيضاً أن كسرى كان يستعين في حكمه بالكهان، فيستشيرهم، وأنه كان لديه ثلثمائة وستون كاهناً وسحرة ومنجمين، وكان، من بينهم كهنة من العرب وأشهرهم: السائب[4].

وذكر بعض، أهل الأخبار «أن خالد بن عبد الله القسري كان من ولد شق هذا. فهو خالد بن عبد الله بن أسد بن كرز. وذكر أن كرزاً كان دعياً، وأنه كان من اليهود فجنى جناية، فهرب إلى بجيلة، فانتسب فيهم. ويُقال كان عبداً لعبد القيس وهو ابن عامر ذي الرقعة. وسمي بذي للرقعة، لأنه كان أعور يغطي عينه برقعة ابن عبد شمس بن جون بن شق الكاهن بن صعب»[5]. ويظهر أن أعداء (القسري)، قد أوجدوا له هذه للقصة للحط منه، كما أوجدوا قصصاً شبيهاً بهذه القصة، حكوها عن ثقيف، نكاية بالحجاج المكروه.

---

1) مروج الذهب (2/ 160)، «دار الأندلس»، سيرة ابن إسحاق (47)، (طبعة أوربة)، عجائب المخلوقات (310)، الحيوان (3/ 210)، (6/ 204، 206 وما بعدها).

2) مروج الذهب (2/ 175 وما بعدها)، الحيوان (3/ 204)، (6/ 204).

3) الحيوان (3/ 210)، البيان والتبيين (1/ 281)، ابن إسحاق (47)، (كوتنكن).

4) تأريخ الخميس (1/ 322)، نهاية الأرب (3/ 128 وما بعدها).

5) الروض الأنف (1/ 19).

والى هؤلاء تجب إضافة (الأفعى الجرهمي)، وكان منزله بنجْران، وإليه احتكم ولد نزار في إرث والدهم[1].

ورووا أن الكاهن (الخزاعي) كان من الكهان المعروفين وإليه تحاكم (أمية بن عبد شمس) و(هاشم بن عبد مناف) في أمر مفاخرتهما، فحكم لهاشم على أمية، فخرج الى الشأم وأقام بها عشر سنين. وإنه قال في حكمه كلاماً مسجعاً ختمه يقوله: «ولأمية أواخر»، فكانت أول عداوة بين بني هاشم وبني أمية[2]. وهكذا جعلوه يتنبأ بظهور ملك بني أمية. وربما كان هذا الملك هو الذي أوحى إلى مفتعل القصة بإبداع موضوع اختيار (أمية) الشأم لتكون داراً له أقام بها مدة نزاعه مع هاشم، فحكم أن الملك عليها كان مكتوباً لبني أمية منذ عهد الجاهلية.

وتشبه هذه القصة، قصة شك (الفاكه بن المغيرة)، في سيرة زوجه (هند بنت عتبة بن ربيعة)، وتكلم الناس فيها، وذهاب والدها وزوجها بها إلى كاهن من كهان اليمن، فلما امتحنه عتبة، وتبين له أن الكاهن حاذق لايخطىء قال له: «قد جئناك في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها، ويقول لها: انهضي حتى بلغ هنداً. فقال: انهضي غير رسحاء ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه، فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده، وقالت اليك عني، فوالله لأحرص أن يكون ذلك من غيرك فتزوجها أبو سفيان، فولدت له أمير المؤمنن معاوية»[3]. وهي قصة تتحدث عن نفسها، ولا حاجة لي إلى ابداء أي تعليق عليها.

وكان (صاف بن صيّاد) يتكهن ويدعي النبوة. وخبأ له النبي خبيئاً فعلمه. وكان يدعي أن شيطانه كان يأتيه بما خفي من أخبار الأرض[4]. ويذكر

1) مجمع الأمثال (1/ 17 وما بعدها).

2) المستطرف (2/ 81)، نهاية الأرب (3/ 123 وما بعدها).

3) المستطرف (2/ 82)، نهاية الأرب (3/ 131 وما بعدها)، (الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الثاني، في أخبار الكهنة).

4) الروض الأنف (1/ 137).

أن الرسول سأله: كيف يأتيك هذا الأمر؟ قال: يأتيني صادقاً وكاذباً[1]. وأن رسول الله ذهب اليه ليرى أمره وكان (ابن صياد) في نخل، فكلمه رسول الله. وذكر أنه انطلق مرة مع (عمر بن الخطاب) في رهط قبل ابن صياد، فوجده عند (أطم بني مغالة)[2].

وكان في بني لهب كاهن لهم يقال له خطر بن مالك. وكان في أيام الرسول. وكان اذ ذاك شيخاً كبيراً[3]. وكان (أبو برزة) الأسلمي من الكهان المعروفين في المدينة أيام الرسول: قد تحاكم إليه بنو قريظة وبنو النضير في أمر الديات التي كانت بينهما[4].

وذكر أن (خطر بن مالك) كان من أعلم كهان (بني لهب)، وأنهم كانوا يأتونه في الملمات، أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة، وقد تنبأ لقومه بانقطاع الكهانة وظهور الرسول بمكة حين سألوه عن سبب تساقط النجوم في السماء[5].

وكان في دوس كاهن اسمه سواد بن قارب الدوسي أو السدوسي. وقد وفد مع وفد من قومه على الرسول وأسلم معه أمامه. وكان له رئي يأتي إليه[6]. وذكر وذكر أهل الأخبار أنه كان حاذقاً في الكهانة، مصيباً بها، خرج خمسة نفر من طيء من دور الحمى، منهم: برج بن مسهر، أحد المعمرين، وأنيف بن حارثة، ولأم عبد الله بن سعد والد حاتم وعارف الشاعر، ومرة بن عبد رضا، يريدون سواد بن قارب ليمتحنوا علمه، فقالوا: ليخبيء كل منا خبيأً ولا يخبر أصحابه، فإن أصاب عرفنا علمه، وإن أخطأ ارتحلنا عنه. ثم وصلوا إليه فأهدوا إليه إبلاً وطرفاً، فضرب عليهم قبة ونحر لهم، فما مضت ثلاثة أيام دعاهم، فتكلم برج، وكان

---

1) مقدمة ابن خلدون (1/ 95 وما بعدها).

2) زاد المسلم (2/ 104 وما بعدها).

3) الروض الأنف (1/ 138 وما بعدها).

4) تفسير الطبري (5/ 97 وما بعدها).

5) السيرة الحلبية (1/ 139).

6) الروض الأنف (1/ 139 وما بعدها)، نزهة الجليس (1/ 277).

أسنهم فذكر القصة بجميع ما خبأوه ثم بمعرفته بأعيانهم وأنسابهم فقال فيه عارف الشاعر:

الله أعلـــم لا يجـــارى إلى	القـــالات في حصـــني ســـواد
كـــأن خبيئنـــا لمـــا انتخبنـــا	بعينـــه يصـــرح أو ينـــادي[1]

ومن الكهان المعروفين (الحصين بن نضلة) وقد عرف بـ (الكاهن)، وقيل: إنه سيد أهل تهامة في أيامه[2]. و(عمرو بن الحمق)، وقد أسلم وصحب النبي، وشهد المشاهد مع علي[3].

وكان (ربيعة بن حُذار الأسدي) من الكهان المعروفين، وإليه تحاكم (بنو كلاب) و(بنو رباب) لما خاصموا (عبد المطلب) في مال قريب من الطائف. فحكم لـ(عبد المطلب)[4].

وذكر (المسعودي) اسم كاهنين، دعاهما به (سملقة) و(زوبعة)[5]. وقد أشار (الجاحظ) إليهما في معرض كلامه على الخرافات[6].

وأشار (الجاحظ) إلى كاهن ظهر في (بني جهينة)، عرف بـ (حارثة جهينة)[7]، وإلى (عزى سلمة). وقد قال (الجاحظ) عن (عزى)، إنه كان من أكهن أكهن العرب وأسجعهم. ودعاه بـ (سلمة بن أبي حية)[8].

---

1) الإصابة (2/ 95)، (رقم 3582).

2) الاشتقاق (ص 279).

3) الاشتقاق (279)، الإصابة (2/ 526)، (رقم 5820).

4) نهاية الأرب (3/ 133).

5) مروج الذهب (2/ 160، 176).

6) الحيوان (1/ 309).

7) الحيوان (6/ 204)، مروج الذهب (1/ 337)، ثمار القلوب (81).

8) الحيوان (6/ 204)، البيان والتبيين (1/ 195)، رسائل الجاحظ (130).

وكـان (خُنـافر بـن التـوأم الحميري) كاهنـاً، وكـان قـد أوتـي بسـطة في الجسـم، وسعة في المال، وكـان عاتيـاً، فلمـا وفـدت وفـود الـيمن علـى الـنبي، وظهـر الإسـلام أغار على إبل لمراد فاكتسحها وخرج بأهلـه ومالـه ولحق بالشحر، فحـالف (جودان بن يحيى الفرِضمي)، وكان سيداً منيعـاً، ونـزل بـواد مـن أودية الشحر، ثـم جاءه (شصار) رئيه، فنصحه بالعودة إلى الـيمن، والـدخول في الإسلام. فأسلم على يد معاذ بن جبل بصنعاء، فترك الكهانة وتعلم سوراً من القرآن[1].

ومـن الكهان (المأمور)، وهو (الحارث بـن معاويـة) الكـاهن وكانـت مـذحج في أمـره تتقدم وتتأخر[2]. و(قلطف) الكاهن، وهو من طيء[3].

وكـان (زهير بـن جنـاب الكلبي)، و(جذيمـة) العبسـي، كهانـاً[4]. وزهـير مـن الفرسان، فكان من فرسان كلب، وكان شاعراً[5].

ويعدّ (الأفكل) من الكهان الفرسان، وله فرس اسمه هبود[6].

ولم تحـرم النسـاء الكهانـة، فكـان لهـن فيهـا حصـة ونصـيب. وقـد حفـظ الأخباريون أسماء عدد من الكاهنات اشتهرت كهانتهن في الجاهلية، منهن طريفة الكاهنة، وزبراء، وسلمى الهمدانية، وعفيراء الحميرية، وفاطمة بنت مرّ الخثعمية، وسجاح، وغيرهن. وقد نسبوا إلى طريفة إخبارها عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه وبخراب سد مأرب، وذكروا أنها سارت مع القبائل حين خافت سيل

---

1) الأمالي، للقالي (1/ 134 وما بعدها)، الإصابة (1/ 456)، (رقم 2342)، تاج العروس (3/ 192)، (خنافر).
2) الاشتقاق (2/ 239).
3) الاشتقاق (2/ 237).
4) المشرق، السنة 1938م، (الجزء الأول)، (ص 7).
5) معجم الشعراء (130)، الشعر والشعراء (223).
6) المشرق، السنة 1938م، (الجزء الأول)، (ص 9).

العرم[1]. ونسبوا إلى بقية الكاهنات أمثال هذا القصص عن أمورستقع قالوا إنها وقعت كما تنبأن به.

وذكر (المسعودي)، أن (طريفة) كانت كاهنة لعمرو بن عامر، وقد نعتها بـ (طريفة الخير). وقد تنبأت له بقرب تهدم السد، وظهور سيل العرم. كما تنبأ بذلك أخ للملك اسمه (عمران)، وكان عقيماً كاهناً، فوقع ما تنبآ به[2].

وكان من شهيرات الكاهنات أيضاً (الغيطلة)، وهي (أم الغياطل)، وهي من (بني مُرة بن عبد مناة بن كنانة)[3]. وقيل: «الغيطلة بنت مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرة. وشنوق أخو مدلج». وقد عرف ولدها بالغياطل وهم من بني سهم بن عمرو بن هصيص[4].

ويقال أيضاً أن (سُعدى بنت كريز بن ربيعة) كانت قد تكهنت، وهي خالة عثمان بن عفان[5].

وكان لفاطمة بنت النعمان النجارية تابع من الجن، وكان اذا جاءها اقتحم عليها في بيتها، وقد أدركت مبعث الرسول[6].

وكانت سوداء بنت زهرة بن كلاب، كاهنة قريش. ويذكر أن والدها أعطاها لحافر قبور ليحفر لها قبراً في الحجون، فيدفنها حيّة فيه. أي يئدها، لأنها ولدت زرقاء شيماء، وكانوا يئدون من البنات من كان على هذه الصفة، غير أن حافر القبر عاد بها إلى والدها، لأنه لم يشأ دفنها في خبر يرويه أهل الأخبار[7].

---

1) بلوغ الأرب (2/ 283 وما بعدها)، الأغاني (13/ 105) «ذكر خبر مضاض بن عمرو»، الطبري (2/ 244)، مروج الذهب (2/ 175)، Reste, S. 137.

2) مروج الذهب (2/ 167 وما بعدها).

3) الروض الأنف (1/ 138 وما بعدها).

4) الروض الأنف (1/ 137 وما بعدها).

5) نهاية الأرب (3/ 126)، (3/ 130)، (طبعة وزراة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة).

6) الروض الأنف (1/ 137).

7) الروض الأنف (1/ 141).

وكان في (خثعم) كاهنة عرفت بفاطمة[1].

ولاستشارة الناس هؤلاء الكهان في الأمور وطلبهم منهم الفصل فيها صارت كلمة (حكم) مرادفة لكلمة (كاهن) في بعض الأحايين. وقد روي الأخباريون أمثلة عديدة من حكم هؤلاء الكهان بين الناس وطريقة فصلهم في الأمور، فهم في هذه الحالة حكام يفصلون في القضايا التي يتفق الجانبان المتخاصمان فيها على احالتها عليهم. ولم تكن لنفوذ أحكامهم مناطق وحدود، لقد كان حدود أحكامهم المدى الذي وصلت شهرة الكاهن إليه، لذلك كان الناس يقصدون الكاهن من مناطق بعيدة في بعض الأحيان لشهرته الواسعة التي يتمتع بها بين الناس. وتتوقف هذه الشهرة بالطبع على مبلغ ذكاء ذلك الكاهن وقدرته في فهم طبيعة المتخاصمين أو السائلين، ليتمكن من إصدار حكم معقول مقبول. وتكون أحكامهم قطعية، على الطرفيْن إطاعتها والامتثال لها، وليس لأحد أن يعترض عليها. ولذلك يأخذ الكاهن من الطرفين المتخاصمين قبل سماعه الشكوى عهداً بوجوب الامتثال لحكمه وعدم ردّه مهما كان نوع الحكم.

العرّاف:

ويطلق بعض علماء اللغة على الكاهن (العرّاف)، فهو عندهم مرادف للكاهن. غير أن من العلماء من يفرق بين الكلمتين، ويرى بينهما فرقاً، فالكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار، والعراف هو الذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحوهما، أو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله[2]. ومنهم من يذهب الى أن العراف من اختص بالإنباء عن الأحوال المستقبلة. أما الكاهن فهو الذي اختص بالإخبار عن الأحوال الماضية[3].

---

1) أنساب الأشراف (1/ 79).

2) النهاية (4/ 43).

3) تاج العروس (6/ 193).

وقد فرّق بين الكاهن والعراف في حديث: «من أتى عرّافاً أو كاهناً...»[1]. وأطلق بعضهم العراف على من يدعي الغيب مطلقاً وفي ضمنهم المنجم والحازي[2].

وذكر أن (العراف) الكاهن أو الطبيب أو المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب[3]. فللكلمة معانٍ عديدة، ولا تختص بمعنى واحد. وقد ذهب (المسعودي) إلى أن العراف دون الكاهن[4]. ونجد هذه النظرة عند غيره أيضاً.

وخلاصة ما يفهم عن الكهانة والعرافة في روايات الأخباريين أن الكهانة هي التنبأ بواسطة تابع. وأن العرافة تكون بالملاحظات وبالاستنتاجات وبمراقبة الأشياء لاستنتاج أمور منها، يخبر بها السائلون على سبيل التنبؤ. وهي على ما يظهر من تلك الروايات، دون الكهانة في المنزلة، ولم يكن للعرافين اتصال ببيوت العبادة والأصنام[5]، ولم يكن لهم (رئي) أي (تابع)، وإنما كانوا يستنبطون ما يقولونه بذكائهم وعلى القياس. فيأخذون بالمشابهة وبالارتباط بين الحوادث، ويحكمون بما سيحدث بموجب ذلك[6].

وقد عدّ العبرانيون العرافة من الحيل الشيطانية كالسحر والتفاؤل، لأنها من رجس المشركين. وتشمل عندهم التنجيم والقرعة والزجر وما شاكل ذلك[7]. وقد نهي عنها في الإسلام.

وقد اعتمد العرّاف على الخط. فكان يخط خطوطاً، ثم ينظر إليها، ليستنبط شيئاً منها، يتنبأ به للناس. ومن مشاهيرهم (حليس الخطاط الأسدي).

---

1) النهاية (3/ 98).
2) تاج العروس (6/ 193).
3) تاج العروس (6/ 193).
4) مروج (2/ 154).
5) (وأما العراف، وهو دون الكاهن)، الحيوان (6/ 204).
6) مفتاح السعادة (1131 وما بعدها).
7) قاموس الكتاب المقدس (2/ 93).

وقد ذكر أنهم كانوا يخطون خطوطاً، ثم ينظر العراف ويقول: «ابنا عيان، اسرعا البيان، ثم يخبر بما يرى»[1].

وتعتمد العرافة ـ كما تعتمد الكهانة ـ على الذكاء والتفرس في الأمور والتجارب. وقد خصصها أكثر الناس في الإسلام بالتوصل إلى معرفة الأشياء المفقودة. والعراف بما عنده من الملكات والمواهب المذكورة، يقضي ويتنبأ للناس فيما يراه، ومن أشهر العرافين في الجاهلية: عرّاف اليمامة، وهو (رباح بن كحلة) (رباج بن عجلة) (رباح بن كحلة) المذكور في الشعر، وعرّاف نجد وهو الأبلق الأسدي[2]. والأجلح الزهري، وعروة بن زيد الأسدي[3].

وفي عرّاف اليمامة ورد قول الشاعر:

فقلتُ لعرّاف اليمامه داوني ... فإنك إن داويتني لطبيب

والأبلق الأسدي، هو عراف نجد، وفيه يقول عروة بن حزام:

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه ... وعرّاف نجد إن هما شفياني[4]

وقد كان أهل الجاهلية يعرضون صبيانهم على (العرافين) لإخبارهم عن مستقبلهم. وكانت الأسواق مثل سوق عكاظ موئلاً لهم. فكان العراف فيها يريه

---

1) فأنتم عضاريط الخميس إذا غزوا ... غناؤكم تلك الأحاطيط في الترب

الحيوان (1/ 63).

2) بلوغ الأرب (3/ 306 وما بعدها)، قال عمرو بن حرام العذري:

وقلت لعراف اليمامة داوني ... فإنك إن أبرأتني لطبيب

فما بي من سقم ولا طيف جنة ... ولكن عمى الحميري كذوب

تاج العروس (6/ 193)، (فقلت)، الحيوان (6/ 205)، مروج الذهب (2/ 154)، ثمار القلوب (81).

3) الحيوان (6/ 204)، (الأزدي)، مروج (2/ 154)، (دار الأندلس).

4) مروج الذهب (2/ 154)، (العرافة وبعض العرافين)، رسائل الجاحظ (130)، مقدمة ابن خلدون (94 وما بعدها)، الحيوان (6/ 204)، (1/ 63).

الناس صبيانهم، ويقول عنهم ما يجول بخاطره، وذلك بالتفرس في وجه الصبي، ومقارنة ذلك بما حصل عليه من تجارب في هذا الباب[1].

وفي اللغة العربية كلمة قديمة أخرى لها صلة بموضوعنا هذا، هي (القيافة). ويقصد بها التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر والشبه[2]، وتدخل في ذلك قيافة آثار الأقدام والأخفاف والحوافر للاستدلال منها على أصحابها، وتعيين النسب في حالة الشك فيه. وما زالت القيافة معروفة عند العرب حتى الآن. وقد اشتهرت بها (بنو مُدلج) خاصة، حتى قيل للقائف (مدلجيّ) بسبب هذا الاختصاص[3]، وبنو لهب[4]، وأحياء مضر[5].

ويرى (المسعودي) أن القيافة من الأمور التي برع بها العرب واختصوا بها، وصار لهم مران وخبرة بها، وذكر أن ممن عرف واشتهر بها (محرز المدلجي)، وقد تعجب الرسول من قيافته وصدقه[6].

وذكر أهل الأخبار أن (الحازر)، هو من يحزر الأشياء، وأن (الحزارة) في معنى القيافة.

وأما (الفراسة)، فتكون بالاستدلال بهيأة الإنسان وأشكاله وأقواله على صفاته وطبائعه. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أنها من الكلمات المعربة التي أخذت من (بني إرم)، وأنها أحدث عهداً من لفظة (القيافة) التي هي من الكلمات

---

1) السيرة الحلبية (1/ 114).
2) اللسان (11/ 201 وما بعدها)، مروج الذهب (2/ 144).
3) المستطرف (2/ 82)، Ency., II, p. 1048, Muh. Stud., I, S. 184.
4) بلوغ الأرب (3/ 262).
5) مروج الذهب (2/ 149).
6) مروج الذهب (2/ 150).

العربية الجاهلية[1]، وقد توسع في معناها وألف فيها الكتب في الإسلام وتبحر فيها بعض أئمة الفقهاء مثل الشافعي[2].

وأما (العيافة) فهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها، وقراءة بعض أحشائها، ولذلك قيل في العبرانية للعائف (الشاق)، لشقه الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخير مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف يرى أن في أوضاعها معاني يذكرها للسائل على شكل نبوءة[3]. وكانت معروفة خاصة عند الكلدانيين.

وقد اشتهرت (بنو أسد) بالعيافة، فقصدها الناس للأخذ منها، حتى الجن سمعت بعيافتها، وعجبت منها، فجاءت إليها تمتحنها في هذا العلم[4].

واشتهرت (بنو لهب) بالعيافة كذلك، ولهبٌ حي من الأزد. ومن هؤلاء (العائف اللهبي)، (لهبَ بن أحجن بن كعب)، وهو الذي تكهن بموت عمر بن الخطاب قبل وقوعه بعام[5].

والزجر العيافة. وهو يزجر الطير يعافها، وأصله أن يرمى الطير بحصاة ويصيح، فإن ولاه في طيرانه ميامنه تفاءل به أو مياسره تطير. وهو ضرب من

---

1) Ency., II, p. 108.

2) النهاية (3/ 207 وما بعدها)، بلوغ الأرب (263/3 وما بعدها)، بهاية الأرب (149/3).

3) تاج العروس (1/ 207)، قاموس الكتاب المقدس (2/ 129).

4) «وبنو أسد يذكرون بالعيافة ويوصفون بها، قيل عنهم إن قوماً من الجن تذكروا عيافتهم، فأتوهم، فقالوا: ضلت لنا ناقة، فلو أرسلتم معنا من يعيف. فقالوا: لغليم منهم: انطلق معهم، فاستردفه أحدهم، ثم ساروا، فلقيهم عقاب كاسرة إحدى جناحيها، فاقشعر الغلام وبكى، فقالوا: مالك؟ فقال: كسرت جناحاً ورفعت جناحاً وحلفت بالله صراحاً، ما أنت بأنسي ولا تبغي لقاحاً»، تاج العروس (307/6)، اللسان (167/11 وما بعدها).

5) الروض الأنف (118/1 وما بعدها)، قال عبد الرحمن الخزاعي:

تيممت لهباً أبتغي العلم عندهم وقد رد علم العائفين إلى لهب

تاج العروس (475/1)، (لهب).

التكهن. وإنما سُمّي الكاهن زاجراً، لأنه اذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة[1].

وتطلق لفظة (الحازي) على من يحزر الأشياء ويقدرها بظنه، فهي من الكلمات المستعملة في الكهانة، ويطلق على من يشتغل بالنجوم اسم (حزّاء)، لأنه ينظر في النجوم وأحكامها بظنه وتقديره[2]. وأطلقت أيضاً على من يزجر الطير، ولا سيما الغراب[3].

وقد أشير في كتب أهل الأخبار إلى (حازي) عُرف وأشتهر بين الجاهليين بـ (حازي جهينة)[4].

الراقي:

ويُقال لمن يعمل الرقي ويرقي: (الراقي). والرقية العوذة التي يرقي بها صاحب الآفة كالحمّى والصرع. قال عروة:

فما تركا من عوذة يعرفانها ... ولا رقية إلا بها رقياني[5]

ويقال لأجرة الراقي: (البسلة) و(بسلة الراقي). و(البسل) الحلال، والبسل أيضاً الحرام، فهو من الأضداد. وبسل الدعاء بمعنى آمين، أي الاستجابة. وكان الرجل اذا دعا على صاحبه، يقول: قطع الله مطاك. فيقول الآخر: بسلا بسلاً، أي آمين آمين[6].

---

1) تاج العروس (234/3)، (زجر).
2) الروض الأنف (1/ 118 وما بعدها).
3) النهاية (1/ 257).
4) البيان والتبيين (1/ 289).
5) تاج العروس (10/ 154)، (رقى).
6) تاج العروس (7/ 227)، (بسل)، الروض الأنف (1/ 75).

الاستقسام بالأزلام:

ومن طرق التنبؤ الاستقسام بالأزلام ويقابل ذلك ما يقال له (كسيم) (كسم) «Gasam» في العبرانية. وهي طريقة معروفة عند البابليين كذلك[1]. وعند غيرهم من الشعوب. وقد أشير في التوراة إلى أن (نبو ختنصر) (بختنصر) (نبخد نصر) «Nebuchadnezzar» اجال السهام حين عزم على فتح (أورشليم) (القدس). «فإن ملك بابل قد وقف عند أم الطريق في رأس الطريقين ليباشر عرافة. فأجال السهام وسأل الترافيم ونظر في الكبد»[2]. وقد خرج السهم الذي كتب عليه (أورشليم)، فعمل به وهاجم القدس وفتحها[3].

وتعني لفظة (كوسيم) «Gosem» و«Gesem»، «Kosem» العرافة في العبرانية[4]. من أصل (كسم) (كيسم) (قيسم) وهو التكهن. وهو أصل (سامي). وإليه تعود كلمة (الاستقسام)، لا إلى (قسم) بمعنى تقسيم الشيء وتجزئته. وهو المعنى الذي ذهب إليه أكثر علماء اللغة. وقريب من معنى (قيسم) (كيسم) ما ذكره علماء اللغة من أن القِسْمَ هو الحظ والنصيب. فإن للحظ والنصيب علاقة وثيقة بالتكهن، لما فيه من معرفة المستقبل والوقوف عليه.

وقد عرّف أهل الأخبار (الأزلام): إنها السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها. وعرّفوا (الزلم)، إنه السهم، وإنه القدح المزلم[5]، وعرفوا القدح: إنه إنه السهم قبل ان ينصل ويراش. وإن القدح: قدح السهم، وجمعه قداح، وصانعه قدّاح[6]. وقد فسر بعض العلماء الأزلام بأحجار بيض تشبه أحَجار الشطرنج، كما كما جعل بعض آخر تلك السهام في مقابل (الكعاب) التي يستعملها الروم

---

1)Hastings, p. 567.

2) حزقيال، الإصحاح الحادي والعشرون، الآية 21.

3)Hastings, p. 567.

4) العدد، الإصحاح الثالث والعشرون، الآية 23، صموئيل الأول، الإصحاح السادس، الآية 2، إشعياء، الإصحاح الرابع والأربعون، الآية 25.

5) اللسان (12/ 270).

6) اللسان (2/ 556)، (قدح)، تاج العروس (2/ 202)، (قدح).

والفرس في الاستخارة[1]. وذكر بعض آخر أن «الأزلام: سهام كانت لأهل الجاهلية مكتوب على بعضها: أمرني ربي، وعلى بعضها: نهاني ربي، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً، ضرب تلك القداح، فإن خرج السهم الذي عليه أمرني ربي مضى لحاجته، وإن خرج الذي عليه نهاني ربي لم يمض في أمره»[2]. وذكر أن الأزلام التي كانوا يستقسمون بها غير قداح الميسر[3]، وأنها قداح الأمر والنهي لا قداح الميسر. وذكر أن أهل الجاهلية، كانوا اذا أرادوا أن يخرجوا في سفر، جعلوا قداحاً للجلوس والخروج، فإن وقع الخروج خرجوا، وإن وقع الجلوس جلسوا[4].

وطريقة الضرب بالقداح، إن الرجل منهم اذا أراد أن يخرج مسافراً، كتب في قدح هذا يأمرني بالمكث، وهذا يأمرني بالخروج، وجعل معهما أزلاماً مسحة، أي لم يكتب فيها شيئاً، ثم استقسم بها حين يريد الخروج، فإن خرج الذي يأمرِ بالمكث، مكث، وإن خرج الذي يأمر بالخروج خرج، وإن خرج الآخر أي المسح، أجالها ثانية حتى يخرج أحد القدحين[5]. وهكذا يفعلون في سائر أمور الاستقسام.

وقد جمع المفسرون ما تمكنوا من جمعه عما علق في أذهان الناس من الأزلام، لورود الإشارة إليها في موضعين من سورة (المائدة)[6]، وأورد علماء الحديث والأخبار ما وصل إلى علمهم أيضاً عن (الاستقسام بالأزلام). ويظهر مما ذكروه أن أهل الجاهلية كانوا يقيمون في أيامهم وزناً كبيراً للاستقسام بالأزلام لاعتقادهم أنه يحكي إرادة الأرباب ويتحدث عن مشيئتها. لذلك كانوا لا يفعلون فعلاً ولا يعملون عملاً إلاّ بعد أخذ رأيها بالاستقسام. فإن جاء أمر فعلوا، وإن جاء نهي امتنعوا.

---

1) تفسير الطبري (6/ 42 وما بعدها)، روح المعاني (6/ 59 وما بعدها).

2) اللسان (12/ 478 وما بعدها)، (قسم)، (صادر).

3) اللسان (12/ 479)، (قسم)، تاج العروس (6/ 417)، (قسم).

4) تفسير الطبري (6/ 42 وما بعدها).

5) تفسير الطبري (6/ 42 وما بعدها).

6) سورة المائدة، الآية 3، 90، تفسير الطبري (6/ 49)، روح المعاني (6/ 59 وما بعدها)، الطبري (2/ 240).

وجاء في سورة المائدة: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[1]، وذلك مع أمور نهى عنها الإسلام. منها تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذُكي، وما ذبح على النصب. وجاء ذكر الأزلام في موضع آخر مع ذكر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، حيث جعلت رجساً من عمل الشيطان، لذلك، على المسلم اجتنابها والابتعاد عنها[2]. فالاستقسام بالأزلام من الأمور التي نزل الأمر بالنهي عنها في الإسلام. وقد جاء الأمر بالنهي عنها في شريعة يهود كذلك إذ اعتبرت (رجساً)، ومن أعمال الوثنيين[3].

ويكون الاستقسام عند الأصنام في الغالب لاعتقادهم أن النتيجة تمثل ارادة الصنم ومشيئته، غير أن ذلك ليس بشرط، فقد كان أصحاب الأزلام يحملون أزلامهم معهم، ويستقسمون حيث يطلب ذلك منهم. فهم في ذلك مثل أصحاب (الفأل) والقارئون للرمل والسحرة في الوقت الحاضر، يتنقلون بين الناس عارضين فنهم عليهم في مقابل حلوان يقدم اليهم. وهذا النوع، من أصحاب الأزلام، هم من الطبقة المرتزقة على شاكلة هذه الجماعة المذكورة في هذه الأيام. وقد كان منهم من يستقسم لنفسه بنفسه، وذلك بأن يمستقسم بالأزلام التي عنده في بيته، والتي قد يحملها معه، تماماً كما يفعل أهل (الاستخارة) في الاستخارة بالمسبحة (السبحة) أو بوسائل الاستخارة الأخرى في الوقت الحاضر.

قال أهل الأخبار: «والأزلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهي وافعَلْ ولا تفعلْ، قد زُلمت وسويت ووضعت في الكعبة، يقوم بها سدنة البيت، فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى السادن فقال: اخرج لي زلماً، فيخرجه وينظر إليه، فاذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم عليه، وإن خرج قدح للنهي قعد عما أراده، وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابه، فاذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما».

---

1) الآية 4، تفسير البيضاوي (1/ 118)، تفسير الطبرسي (3/ 238 وما بعدها)، (3/ 156 وما بعدها)، (3/156 وما بعدها).

2) المائدة، الآية 93، تفسير البيضاوي (1/ 132).

3) Hastings, p. 567.

و«قالوا: كانوا اذا كانت مداراة أو نكاح أو أمر يريدونه، ولا يدرون ما الأمر فيه ولم يصح لهم أخذوا قداحاً لهم فيها: أفعل ولا أفعل لا يفعل، نعم لا خير، شر بطيء سريع، فأما المداراة فإن قداحاً لهم فيها بيضاً ليس لهم فيها شيء، فكانوا يجيلونها فمن خرج سهمه فالحق له، وللحضر والسفر سهمان، فيأتون السادن من سدنة الأوثان، فيقول السادن: اللهم أيهما كان خيراً فاخرجه لفلان، فيرضى بما يخرج له، فإذا شكوا في نسب الرجل أجالوا له القداح وفيها: صريح، وملصق، فإن خرج الصريح ألحقوه بهم، وإن خرج الملصق نفوه، وإن كان صريحاً، فهذه قداح الاستقسام»، «وإن كان بين اثنين اختلاف في حق، سمي كل منهما له سهماً وأجالوا القداح، فمن خرج سهمه فالحق له».

وذكر أن اقداح (هُبل) سبعة، وضعت قدامه. فان أراد آحدهم سفراً أو عملاً أو تجارة أو زواجاً أو بتّاً في نسب مشكوك فيه أو دفع دية أو أن يخرجوا ماءً، أتوا هُبَلَ، ومعهم مائة درهم ويجزور فأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم، وكانت أزلامهم سبعة قدّاح محفوظة عند سادن الكعبة وخادمها، وهي مستوية في المقدار عليها أعلام وكتابة قد كتب على واحد منها (أمرني ربي) وعلى واحد منها (نهاني ربي) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد (ملصق) وعلى واحد (العقل) وواحد غفل ليس عليه شيء، فاذا أرادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذي تصدوا له استقسم لهم صاحب القداح بقدحي الأمر والنهي، فإن نجح قدح الأمر ائتمروا وباشروا فيما تصدوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك مما يتفق لهم، وإن خرج قدح النهي أخروا ذلك العمل إلى سنة فاذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى.

ويروى أن السؤال إن كان يخص أقداماً أو أحجاماً، استعمل صاحب القداح قدحي (نعم) أو (لا) فاذا ظهر للمجيل قدح (نعم) عمل به، ومضى إلى ما قصد، وإن جاء (لا) أي النهي توقفوا سنة. أما اذا كان نزاعاً في نسب أحد منهم، استقسم بالأزلام الموسومة به (منكم) و(من غيركم) و(ملصق)، فإن ظهر (منكم)، اعتبر المتنازع على نسبه منهم، وإن خرج (من غيركم) اجتنبوه ونفروا منه، وإن

ظهر (ملصق)، بقي أمره على ما كان عليه قبل الاستقسام، وأما اذا كان السؤال نزاعاً في (العقل): أي دية القتيل، بأن اشتبه عليهم القاتل، أحضروا من اتهم بالقتل بالقدحين الموسومين بـ (العقل) وبـ (الغفل)، واستقسم بهما فمن خرج عليه العقل تحمل الدية، وإن خرج (الغفل) أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه.

ولما أراد (أبو سفيان) الخروج إلى (أُحد)، استخار هبل. بأن كتب على سهم نعم، وعلى آخر لا، وأجالهما عند هبل، فخرج سهم نعم، فخرج بقومه إلى (أحد). وقال يقول: أعلُ هبل. وقال عمر: الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان: أنعمت فعال عنها، أي اترك ذكرها، فقد صدقت في فتواها، وأنعمت، أي أجابت بنعم.

ولصاحب الأزلام وخازنها حق يتقاضاه سن الطالبين في مقابل عمله. فكان سادن (هبُل) يتقاضى مئة درهم أجراً عن الاستقسام، كما سبق ان ذكرت، فإن تكرر ذلك زيد أجره على ما يذكره الرواة. وقد كان غير العرب يدفعون حلواناً إلى صاحب الأزلام ليتنبأ لهم. فلما انطلق (شيوخ مديان) (مدين) و(مؤآب) إلى (بلعام) ليستقسم لهم، حملوا حلوانهم معه، فقدموه إليه مقابل ما قام به من عرافة إليهم.

وقيل للذين يضربون بالقداح (الضرباء). والواحد الضريب والضارب. وهو الموكل بالقداح، وقيل الذي يضرب بالقداح. يقال هو ضريب قداحٍ.

وقد أشير إلى الاستقسام في شعر الشعراء الجاهليين، وقد ذكرت في قصة الشاعر (امرىء القيس) الكندي حينما جاء إلى الصنم (ذي الخلصة)، ليستقسم عنده بشأن الأخذ بثأر أبيه. فلما خرج النهي عنه ثلاث مرات، غضب على صنمه، وكسر الأزلام ورماها في وجهه، كما يقول الرواة قائلاً: «لو كان أبوك المقتول لما نهيتني»، وأنشد:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا   لم تنه عن قتل العداة زورا

وأشار الحطيئة إلى ذلك بقوله:

لم يزجر الطير، إن مرت به سنحاً ولا يفيض على قسمٍ بأزلام

وقال طرفة:

أخـــــذ الأزلام مقتســـــماً فــأتى أغواهمــا زلمــه

وهناك طرق عدة عرفت عند الشعوب القديمة في التكهن بالسهام، ومنها رمي السهام في الهواء لمراقبة حركاتها وكيفية سقوطها، ومنها رمي حزمة من السهام أمام الصنم، فالسهم الأول الذي يقع قبل بقية الأزلام، يكون هو السهم الذي أمر به الصنم في زعمهم، فيعمل بموجب ما كتب عليه.

ولخص (الألوسي) الأزلام التي كانت عند العرب على ثلاثة أنحاء: أحدها: قداح الميسر العشرة، وثانيها: لكل أحد، وهي ثلاثة على أحدها مكتوب (افعل)، أي أمر، وعلى الثاني (لا تفعل) وعلى الثالث (غفل)، فاذا أراد أحدهم الأمر جعلها في خريطة، وهي (الربابة) وأدخل يده فيها وأخرج واحداً، فإن طلع الآمر فعل أو الناهي ترك أو الغفل أعاد. وثالثها: للأحكام وهي التي عند الكعبة. وكانوا يتحاكمون عند (هبل) في جوف الكعبة. وكان عند كل كاهن وحاكم للعرب مثل ذلك. وكانت سبعة مكتوب عليها ما سبق.

و(القرُعة) أي (السهمة)، نوع من أنواع التنبؤ بالغيب التابعة للاستقسام بالأزلام. و(السهمة) هي رضاء بحكم (السهم)، أي بحكم وقوع السهام على الأشياء. وهي جواب فصل يمثل إرادة الآلهة للسائل أو للمختصمين في أمر من الأمور. وقد قيل للسهم: الحظ والنصيب، لأنه يتكلم عن حظ الإنسان ونصيبه.

والتنبؤ بالتفرس في الأشباح التي تظهر على الماء، أو الزيت المصبوب في الأقداح، أو الحركات التي تظهر على سطح السائل بعد رمي شيء فيه، لمعرفة الأسرار والمغيبات والاجرام كالسرقات والقتل، والزنى، ودراسة سطح المرآة: هذه

وأمثالها كانت معروفة عند البابليين والعبرانيين، وعند غيرهم من الشعوب. وعقيدتهم أن الأرواح هي التي ترشد إلى إظهار المخفيات، وإن هناك مأمورين من بينهم واجبهم إخبار العراف والعائف والكاهن بما يطلب منهم معرفته ليقوله للسائل.

ومن ضروب التنبؤ (الطرقُ)، وهو الضرب بالحصى للكشف عن المستقبل، يقوم بذلك الرجال والنساء. ويقال للقائمين بذلك الطُرّاق والطوارق. وورد أن الطرق: الضرب بالحصى والخط في التراب، وهما ضربان من التكهن. وقيل أيضاً: الطوق: أن يخط الرجل في الأرض بإصبعين ثم باصبع، ويقول:

ابني عيان اسرعا البيان، وزعم بعضهم أن الطرق أن يخلط الكاهن القطن بالصوف فيتكهن. وقد نهى عنه في الإسلام. ورد في الحديث إنه قال: الطرق والعيافة من الجبت[1].

ويدخل في ضروب التنبؤ (الخط) «وهو الذي يخطه الحازي. يأتي صاحب الحاجة إلى الحازي فيعطيه حلواناً، فيقول له: اقعد حتى أخط لك، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل، ثم يأتى إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين، وغلامه يقول للتفاؤل: «ابني عيان، أسرعا البيان»، فان بقي خطان فهما علامة النجح، وإن بقي خط واحد فهو علامة الخيبة... وقيل: الخط هو أن يخط ثلاثة خطوط، ثم يضرب عليهن بشعير أو نوى، ويقول: يكون كذا وكذا. وهو ضرب من الكهانة»[2]. وكانت العرب تسمي ذلك الخط الذي يبقى من خطوط الحازي

---

1) اللسان (10/ 215)، (طرق)، تاج العروس (6/ 417)، (طرق)،

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى   ولا زاجرات الطير ما الله صانع

النهاية (3/ 40)، اللسان (84/17)، سنن أبي داوود (4/ 16).

2) النهاية (1/ 303، 338)، «خطط»، (3 40) «طرق»، تاج العروس (6/ 417)، اللسان (17/ 85).

الأسحم. وكان هذا الخط عندهم مشؤوماً، وقد كان الخط من علوم العرب القديمة[1].

وعلم الخط هو علم الرمل. وينسب إلى (ابن عباس) قوله: علم قديم تركه الناس. وخط الزاجر في الأرض، رسم خطاً بإصبعه، ثم زجر. وذكر أن (الخطيطة) الرملة التي يخط عليها الزاجر، وأن الأسحم اسم خط من خطوط الزاجر، وهو علامة الخيبة عندهم. وذلك أن يأتي إلى أرض رخوة وله غلام معه ميل، فيخط الأستاذ خطوطاً كثيرة على عجل لئلا يلحقها العدد، ثم يرجع فيمحو منها خطين خطين، فإن بقي من الخطوط خطان، فهما علامة النجح وقضاء الحاجة، ويمحو وغلامه يقول للتفاؤل: ابني عيان أسرعا البيان، وإذا محا الخطوط، فبقي منها خط، فهي علامة الخيبة[2].

الأحلام:

والأحلام (Dreams) و(الرؤيا) (Visions) باب من أبواب الكهانة كذلك، فهي تفسير لما سيقع في المستقبل من حوادث. وقد تخصص بذلك أناس تعاطوا تعبير الرؤيا والأحلام. وإذ كان اعتقاد الشعوب القديمة أن الأحلام حقيقة، لا كما نتصورها نحن، كان الاهتمام بها كبيراً، والاعتناء بها شديداً ولا يزال يخصها كثير من الناس بالعناية.

وقد فسرت بعض الشعوب القديمة الأحلام بأنها الآلهة أو الأرواح تتجلى في الإنسان في أثناء منامه، فتطلعه على أشياء كثيرة تتعلق بحياته وبمصيره، وتساعده بذلك على حلّ مشكلات عديدة عويصة لديه، أو تهديه إلى أمور لم يكن يعرف عنها شيئاً، أو تحذره بقرب حلول كارثة أو خطر به أو بغيره، أو بحصول خير له أو لغيره. وقد ترجع به إلى أيام ماضية وحوادث قديمة سالفة كان قد نسيها وذهبت من ذاكرته. ونجد في المؤلفات اليونانية واللاتينية والسريانية وفي

---

1) اللسان (7/ 287 وما بعدها)، (خطط).

2) تاج العروس (5/ 131)، (خطط).

الكتابات الهيروغليفية والمسمارية أشياء عديدة من القصص المتعلق بالأحلام. وفيها أن كثيراً من الملوك والخاصة كانوا يقيمون وزناً عظيماً لما يرونه، أو يراه الناس من أحلام. وقد نجح كثير منهم كما خسر كثير منهم أيضاً بسبب تأثير الأحلام فيهم، حتى إن بعضهم أتخذ له مفسراً للأحلام أو جملة مفسرين، ليكونوا في خدمته حتى اذا ما رأى حلماً فسروه له.

ولما كانت بعض الأحلام مزعجة، رجع الكهان المتخصصون بالأحلام أسبابها إلى فعل الأرواح الشريرة. أما الأحلام المريحة الطيبة، فقد جعلوها من إلهام الآلهة في الإنسان. ولأهمية الاعتقاد بالأحلام، وضعت قواعد وتعاليم للأشخاص الذين يريدون معرفة مستقبلهم بالرؤيا والأحلام. وقد نصح في بعضها باجتناب الأكل الثقيل، وبشرب بعض الأشربة المعينة وبالنوم في المعابد، للحصول على الرؤيا الصادقة، والابتعاد عن أضغاث الأحلام. وضع تلك القواعد أناس تخصصوا بهذا الفن، يلجأ إليهم من يرى حلماً ليجد تفسيره عندهم. فلكل شيء في الرؤيا والحلم معنى خاص، لا يمكن أن يعرفه إلا ذوو الخبرة والعلم[1].

وقد عثر على كتابة لحيانية في موضع (الخريبة)، تبين منها وجود صنم في معبد هذا الموضع تخصص بتفسير الأحلام[2].

وفي كتب التفسير والسير والأخبار والأدب أمثلة عديدة من الرؤيا، تشير إلى أن الاعتقاد بالأحلام كان معروفاً عند الجاهليين، وأن أثره كان عميقاً في حياتهم. وقد يكون لأهل الكتاب أثر عليهم في كيفية تفسير الأحلام وتوجيه تعبير الرؤيا، غير أن الاعتقاد بالأحلام هو اعتقاد عام، وكان يقوم به متخصصون بتفسير الأحلام. وقد عرف في الإسلام واشتهر به (ابن سيرين)[3].

---

1) مقدمة ابن خلدون (1/ 103).

2) Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 417, Euting 825, Arabien, S. 89.

3) (كتاب التعبير)، عمدة القارئ (24/ 126)، الفهرست (439)، (الكتب المؤلفة في تعبير الرؤيا).

وقد عرف بعض العلماء الإسلاميين الحلم بأنه عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء المزعجة، وخصصوا للرؤيا بما يراه الإنسان في منامه من الخير والشيء الحسن[1]. وهم بذلك على طريقة القدماء في جعل الأحلام نوعين: أحلام من فعل الشيطان والأرواح الخبيثة، وأحلام من إلهام الآلهة في الإنسان، وهي التي تنكشف من رؤية أشياء جميلة وعن أشياء يرغب صاحب الحلم في الحصول عليها وتحقيقها.

ويرجع العلماء الرؤيا إلى النفس، تطلع على الواقعات فتتذكرها، وتوحي بها إلى صاحبها. وهم يعتقدون بها، وجعلوها جزءاً من النبوة[2].

الطيرة:

وقد كان للطيرة شأن كبير في حياة الجاهليين. وهي معروفة عند جميع الشعوب، ويُقال لها في العبرانية: طيّر «Tayyar»، فهي من نفس الأصل الذي أخذ العرب منه التسمية[3]. ويقال لها في الإنكليزية «Augury»، ويرى بعض الباحثين أن الطيرة انتقلت إلى العبرانيين من العرب[4]. وهناك نوع آخر من التطير يقال «Haruspicy» في الإنكليزية، ويقصد به الطيرة من الحيوانات الميتة، أو مراقبة الحيوان في أثناء ذبحه لمعرفة المستقبل من حركاته وهو يرتجف رجفة الموت[5].

ويقول علماء الأخبار، إن الطيرة من زجر الطيور ومراقبة حركاتها، فإن تيامنت دل تيامنها على فأل، وان تياسرت دل على شؤم[6]. فهي إذن تشمل التيمن والتشاؤم، إلاّ أنها خصصت بالتشاؤم فيما بعد. فصارت تعني هذا المعنى عند

---

1) النهاية (1/ 289 وما بعدها)، تاج العروس (8/ 255)، (حلم).

2) مقدمة ابن خلدون (1/ 102 وما بعدها).

3) Ency. Religi., 4, p. 807.

4) Ency. Religi., 4, p. 778, 807, Hastings, p, 568.

5) Ency. Religi., 4,p. 778.

6) اللسان (4/ 512 وما بعدها)، مفردات، للأصفهاني (312)، صبح الأعشى (1/ 399).

الاستعمال. قال (الجاحظ): «وأصل التطير إنما كان من الطّير ومن جهة الطّير، إذا مرّ بارحاً أو سانحاً، أو رآه يتفلى وينتف، حتى صاروا اذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبتر، زجروا عند ذلك وتطيروا، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال. فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير ثم استعملوا ذلك في كل شيء»[1].

قال أحدهم:

عوى الذئب فاستأنستُ للذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

كأن الذي يرى ما يكره أو يسمع يطير.

وقد عد العلماء الطيرة والزجر في معنى واحد، لأن أصلهما أنهم كانوا اذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير، ثم يحكمون من حركاته على ما سيحدث ويقع، فالزجر والطيرة من ثم شيء واحد[2]. وقد قيل لمن يزجر الطير (زاجر) «لأنه اذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة»[3].

والطيور هي مادة التطير، وذلك بمراقبة حركاتها وسكناتها. وهو ما يقال له في العبرانية: (نيحوش) (نحوش)، «Nihush»، من أصل (نيحيش) (نحش). وتقابل لفظة (نحش) كلمة (حنش) في العربية وتعني (الثعبان). وقد ذهب بعض علماء التوراة. أن لكلمة (نحش)، صلة بالثعبان، ذلك لأن الثعبان كان من الآلهة القديمة، بينما يرى بعض آخر عدم وجود صلة ما للثعبان بهذا الموضوع، لأن العبرانيين لم يتعبدوا البتة للثعابين، فلا صلة للثعبان به[4].

---

1) الحيوان (1/ 438)، (هارون)، العمدة (2/ 259 وما بعدها).

2) صبح الأعشى (1/ 399).

3) تاج العروس (3/ 364)، اللسان (5/ 407)، (طير).

4) Ency. Religi., 4, p. 807, Hastings, p. 568.

ويدخل في باب الزجر، زجر الطير والوحش. ويذكر بعض العلماء أن الأصل في الطيرة، هو زجر الطير، ثم صار في الوحش، وقد يجوز أن يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه ويرادان جميعاً[1].

وقد يراد بالطيرة (التشاؤم) الذي هو خلاف التيامن، غير أن (التشاؤم) هو في الواقع أوسع مجالاً وأكثر ساحةً من الطيرة، لأن التشاؤم طيرة وزيادة، وأعني بالزيادة تشاؤم المتشائمين من أمور أخرى كثيرة مثل التشاؤم من ذوي العاهات أو القبح من البشر، والتشاؤم من سماع الكلام السيء أو الأخبار السيئة عند الصباح أو من رؤية ميت أو سماع نياحة أو مشاهدة مخلوق مشوه أو سماع اسم موضع يدعو التشاؤم أو اسم شخص فيه معنى التشاؤم وأمثال ذلك، فتكون كل هذه الأمور مدعاة للتشاؤم عند المتشائمين. «حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبتر، زجروا عند ذلك وتطيروا عندها كما تطيروا من الطير اذا رأوها على تلك الحال»[2].

ويقول علماء اللغة: الشؤم: خلاف اليمن. ورجل مشؤوم على قومه[3]. وأصل ذلك هو أن العرب تتفائل بالجهة اليمنى، وتتشاءم من الجهة اليسرى، ولذلك كانت اذا أرادت أن تعمل عملاً عمدت إلى (الزجر) وهو رمي الطير بحصاة، ثم يصيح الرامي، ليفزعها ويزجرها، وعندئذ يراقب حركة طيرانها، فإن تيامنت أي جرت يمنة تفاءل به، وإن تشاءمت أي تياسرت، تشاءم به. فالتيمن هو بالتيامن والتشاؤم هو بالتياسر. ولذلك قيل للكاهن (زاجر) أيضاً «لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي فى تلك الحاجة برفع صوت وشدة»[4]. ولاعتماد الزاجر على الطيور في الغالب في هذا النوع من التكهن قيل له: (الطيرة). قال علماء اللغة: «وقيل للشؤم طائر وطير وطيرة، لأن العرب كان من شأنها عيافة

---

1) العمدة (2/ 260).

2) الحيوان، للجاحظ (3/ 438) «تحقيق محمد عبد السلام هارون».

3) اللسان (12/ 314).

4) تاج العروس (3/ 364)، اللسان (5/ 407)، (12/ 314)، «شأم».

الطـير وزجرهـا والـتطير ببارحهـا ونعيـب غرابهـا وأخـذها ذات اليسـار إذا أثاروهـا، فسمّوا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة لتشاؤمهم بها»[1].

ولا بدّ أن يكون للتطير صلة بعقيدة استحالة الأرواح طيوراً بعد مفارقتها الأجساد، قد كان من المتعارف عليه عند كثير من الشعوب القديمة أن بعض فصائل الطيور هي أرواح الموتى بعد مفارقتها الأجساد، وأنها لذلك تعي وتفهم، وأن في استطاعة بعض الناس فهم منطقها وتكليمها، ومن هنا ظهرت فكرة (منطق الطير). وقد كان (سليمان) يحادث الطير[2]. فاذا كانت الطير على هذه الصفة، ففي حركاتها وسكناتها منطق لمن لا يحسن منطقها، يشير إلى ما يجب على الإنسان أن يفعله أو يتركه من أعمال.

وقد كان للتطير والتفاؤل شأن كبير في حياة الجاهليين. كما كان لهما مثله في حياة شعوب أخرى عديدة: ومن بينهم اليونان والرومان والفرس والتطير هو نظير التشاؤم في المعنى كما قلت. أما نظير التفاؤل، فهو التيامن. وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة الطيرة وقعت لبعض القبائل عند إقدامها على الحرب، فخسرت لتطيرها. ويحدث من التطير النحس، وأما من التفاؤل فيكون السعد.

وفي الأخبار: «كانت العرب اذا خرج أحدهم من بيته غادياً في بعض الحاجة، نظر: هل يرى طائراً يطير، فيزجر سنوحه أو بروحه، فاذا لم يرَ ذلك، عمد الى الطير الواقع على الشجر، فحرّكه ليطير، ثم نظر إلى أي جهة يأخذ، فزجره. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: اقروا الطير على مكناتها: لا تطيروها ولا تزجروها»[3]. وذكر «أنهم كانوا في الجاهلية اذا خرج أحدهم

---

1) تاج العروس (364/3)، (طير).

2) Ency. Religi., 4, p. 808.

3) جامع الأصول (8/ 458).

لحاجة، فإن رأى الطير طار عن يمينه تيمن به واستمر، وإن طار عن يساره تشاءم به ورجع، وربما كانوا يهيجون الطير، ليطير فيعيدون ذلك»[1].

وقد أبطل الرسول الطيرة. «وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يتفاءل ولا يتطير. وأصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليل، فيتأول منها ما يدل على برئه، كأن سمع منادياً نادى رجلاً اسمه سالم، وهو عليل، فأوهمه سلامته من علته، وكذلك المضل يسمع رجلاً يقول يا واجد، فيجد ضالته. والطيرة مضادة للفأل. وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد. فأثبت النبي الفأل واستحسنه وأبطل الطيرة ونهى عنها»[2].

وروي أن أهل الجاهلية كانوا يقولون: «إن الطيرة في المرأة والدار والدابة»[3].

و(الكدس) التطير، و(الكدسة) عطسة البهائم، وقد تستعمل للإنسان: ومنه الحديث: اذا بصق أحدكم في الصلاة، فليبصق عن يساره أو تحت رجله، فإن غلبته كدسة أو سعلة ففي ثوبه. والكادس ما يتطير به من الفال والعطاس وغيرهما. ومنه قيل للظبيّ وغيره إذا نزل من الجبل وغيره كادس[4].

ومن الألفاظ المستعملة في (الزجر) (سنح) و(برح). وللفظة (برح) معان عديدة، وهي من الكلمات السامية الواردة والباقية في عدد من لهجاتها. ومنها لفظة (البارح) وهي ضد (السانح). و«السانح ما مرّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمن به، لأنه أمكن للرمي والصيد. والبارح ما مرّ من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطير به، لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف»[5].

---

1) إرشاد الساري (8/ 396).

2) تاج العروس (3/ 364 وما بعدها).

3) أمالي المرتضى (2/ 202).

4) تاج العروس (4/ 230)، (كدس).

5) النهاية (1/ 85)، المعاني الكبير (3/ 1187).

وقد ذكر بعض اللغويين عكس المعنى، كما ذكر أن أهل نجد كانوا يتشائمون بالبوارح ويتيمنون بالسانح. أما غيرهم من العرب، فقد كانت تتيمن بالبارح، وأن بعضاً منهم لم يكن له رأي في شيء من هذا[1]. وذكر أن أهل (العالية) يتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح[2].

قال ذو الرمة وهو من نجد:

خليلي، لا لاقيتما ما حييتما من الطير إلا السانحات وأسوأ

وقال النابغة، وهو نجدي أيضاً، يتشاءم بالبارح:

زعم لالاقيتما البوارح ان رحلتنا غداً وبذاك تَنعاب الغراب الأسود

وقد عبر (كثير) عن رأي أهل الحجاز بقوله:

أقول إذا ما الطير مرت مخيفة سوانحها تجري ولا استثيرها[3]

وذكر أن هذيلاً كانت تتشاءم بالسنيح. أما غيرها، فكانت تتشاءم بالبارح[4].

ويقال للمتطيرين من الرجال (الخثارم)[5].

وذكر أن (بني لهب)، «هم أعيف العرب وأزجرهم للطير»[6]. وهم بطن من العرب يعرفون بالعيافة. ولأهل الأخبار قصص عن عيافتهم وعن زجرهم للطير[7].

---

1) الأغاني (9/ 157) «أخبار النابغة ونسبه»، .Reste, S. 202
2) العمدة (2/ 263).
3) البرقوقي (ص 19 وما بعدها).
4) المعاني (3/ 1186).
5) المعاني (3/ 1187).
6) الاشتقاق (ص 288)، صبح الأعشى (1/ 339 وما بعدها).
7) صبح الأعشى (1/ 399 وما بعدها).

ومن الطيور التي تطير منها أهل الجاهلية: الغراب وطيور الليل، وهي البومة، والصدى، والهامة، والضوّع، والوطواط، والخفاش، وغراب الليل[1].

وقاعدتهم في الطيرة، أنهم يشتقون من اسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون. من ذلك قول سوّار بن المضرب:

تغنّى الطائران ببين ليلى ... على غصنين من غَرْب وبان

فكان البان أن بانت سليمى ... وفي الغرب اغتراب غيرُ دانِ

فاشتق الاغتراب من الغرب، والبينونة من البان.

وقال عنترة:

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى بينهم الغراب الأبقع

حَرِق الجناح كأن لحيَيْ رأسه ... جلمان بالأخبار هُش مُولع

فزجرته ألا يفرخ بيضه ... أبداً ويصبح خائفاً يتفجع

إن الذين نَعَبْتَ لي بفراقهم ... هم اسهروا ليلى التمام فأوجعوا

فقال: وجرى بينهم الغراب، لأنه غريب، ولأنه غراب البين، ولأنه أبقع. ثم قال: حرق الجناح تطيراً أيضاً من ذلك. ثم جعل لحيي رأسه جلمين، والجلم يقطع. وجعله بالأخبار هشاً مولعاً، وجعل نعيبه وشحيجه كالخبر المفهوم[2].

وأشأم الطيور عند الجاهليين، (الغراب): «ليس في الأرض شيء يتشاءم به إلا والغراب أشأم منه»[3]، ولذلك قالوا إذا نعب: خيراً خيراً، وذلك من باب

1) الحيوان (2/ 298)، (هارون).

2) الحيوان (2/ 442 وما بعدها)، (هارون).

3) تاج العروس (1/ 407)، «عزب»، قال رؤبة:

فأزجر من الطير الغراب الغاربا

اللسان (2/ 428)، الحيوان للجاحظ (2/ 316).

التفـاؤل بالأضـداد[1]. «والعامـة تـتطير مـن الغـراب، إذا صـاح صـيحة واحـدة، فـإذا ثنـىء تفـاءلـت بـه»، «وإذا صـاح الغـراب مـرتين، فهـو شـرّ، وإذا صـاح ثـلاث مـرات، فهـو خـير»[2]. وورد (غـراب البين) و(الغـراب الأبقـع) و(الغـراب الأسـود)[3]. ويـراد بـذلك التشاؤم بفـراق الأحبة، ويقـال للغراب الأسود (حـاتم)، والحـتمة السواد، وهو مشـؤوم، لأنه يحتم بـالفـراق[4]. «والعـرب تتشـاءم مـن الغـراب، ولـذا اشـتقوا مـن اسمـه الغربـة والاغتراب والغريب»[5]. «فالغـراب أكثر مـن جميـع مـا يـتطير بـه في بـاب الشـؤم، ألا تـراهم كلمـا ذكـروا مـا يـتطيرون منـه شـيئاً ذكـروا الغـراب معـه؟ وقـد يـذكرون الغـراب ولا يـذكرون غيره، ثـم إذا ذكـروا كـل واحـد مـن هـذا البـاب لم يمكنهم أن يتطيروا منه إلاّ من وجه واحد، والغراب كثير المعاني في هـذا البـاب، فهـو المقدم في الشـؤم»[6]. وروي أن (ابـن عبـاس) كـان إذا صـاح الغـراب، قـال: اللـهم لا طـير إلاّ طيرك، ولا خير إلاّ خيرك، ولا إلهَ غيرك. قال الجاحظ: «ولـيس في الأرض بـارح ولا نطـيح، ولا قعيـد، ولا أعضـب ولا شـيء ممـا يتشـاءمون بـه إلاّ والغـراب عنـدهم أنكـد منـه، يرون أن صياحه أكثر أخباراً، وأن الزجر فيه أعم قال عنترة:

حَرِق الجنـاح كأنّ لحيي رأسـه   جلمـان، بالأخبـار هـش مولـع[7]

---

1) الحيوان، للجاحظ (3/457، 458) «طبعة عبد السلام محمد هارون».

2) الحيوان، للجاحظ (3/ 457 وما بعدها)، حياة الحيوان، للدميري (2/ 255).

3) قال عنترة:

ظعن الذين فراقهم أتوقع   وجرى بينهم الغراب الأبقع

خرق الجناح كأن لحى رأسه   جلمان بالأخبار هش مولع

اللسان (16/ 210)، القاموس (4/ 204)، «غراب البين»، الحيوان للجاحظ (3/ 431)، البيان والتبيين (1/ 83)، «لجنة»، قال النابغة:

زعم البوارح أن رحلتنا غداً   وبذاك خبرنا الغراب الأسود

الحيوان، للجاحظ (3/ 442).

4) إذا ما رأت عبس من الطير حائما   شديد سواد الزف ظلت تفزع

الاشتقاق (2/ 166)، اللسان (15/ 3)، الحيوان للجاحظ (3/ 436)، (هارون)، بلوغ الأرب (2/ 338 وما بعدها).

5) الحيوان للجاحظ (2/ 316)، حياة الحيوان، للدميري (2/ 190).

6) الحيوان للجاحظ (2/ 316)، حياة الحيوان (2/ 244).

7) الحيوان (2/ 316)، (هارون).

وفي الغراب وشؤمه يقول الأعشى:

ما تعيف اليوم في الطير الروح   من غراب البين أو تيس برح[1]

وقد كنّوا عنه بكنى عديدة، دلالة على مقدار اهتمامهم به. فقالوا له: أبو حاتم، وأبو جحادف، وأبو الجراح، وأبو المرقال، وأبو حذر، وأبو زيدان، وأبو زاجر، وأبو الشؤم، وأبو غياث. ووضعوا الأمثلة على لسانه وعنه. وقصوا عنه الحكايات. من ذلك، انه أراد ان يقلد القطاة في مشيها، فحاكاها لكنه لم يفلح في المشي مشيها، فلما أراد العود إلى مشيته الأولى، أضل مشيته، إذ نسيها، فنسي المشيتين: فلذلك سمّوه: أبا المرقال[2]. وضربوا المثل بالغراب الأعصم، فقالوا: أعز من الغراب الأعصم، للشيء القليل الوجود[3]. وأوردوا له قصصاً مع الديك ومع حيوانات أخرى. ورموه بالفسق والفجور[4].

وفي الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين إشارات إلى شؤم الغراب. جاء في شعر(حسان بن ثابت):

وبيّن في صوت الغراب اغترابهم   عشيةَ أو فى غصن بان فطربا

فصوت الغراب، يشير إلى الغربة والاغتراب، لذلك كره[5].

وهو من ألأم الطير وأخبثها، وهو من عبيد الطير، وليس من أحرارها، فهو دنيء النفس، إذا صادفته جيفة، نال منها، وهو لا يتعاطى الصيد. فهو حيوان خبيث الفعل وخبيث المطعم، لذلك عدّ العرب أكله عاراً يعير من يقدم عليه، وكانوا يتعايرون بأكل لحمه[6]. وليس ذلك «لأنه يأكل اللحوم ولأنه سبع»، لو

---

1) العمدة (2/ 260)، تاج العروس (6/ 207)، (عاف)، اللسان (9/ 261)، (عيف).

2) الحيوان، للجاحظ (3/ 129)، حياة الحيوان للدميري (2/ 172).

3) حياة الحيوان (2/ 172).

4) الحيوان (131/3)، حياة الحيوان (2/ 273 وما بعدها)، (3/ 317)، (هارون)، (فسق الغراب وتأويل رؤياه).

5) البرقوقي (ص 19)، بلوغ الأرب (2/ 324 وما بعدها).

6) فما بالعار ما عيرتمونا   شواء الناهضات مع الحبيص

فما لحم الغراب لنا بزاد   ولا سرطان أنهار البريص

الحيوان، للجاحظ (2/ 314 وما بعدها)، (2/ 313)، (هارون)، (لؤم الغراب وضعفه).

لـو كـان ذلـك مـنهم «لكانـت الضـواري والجـوارح أحـق بـذلـك عنـدهم»[1] إنمـا امتنعوا عـن أكلـه، لأنـه يأكـل الجيـف والقـاذورات، ولـذلـك عـدّه العبرانيـون مـن الحيوانـات النجسـة، والحيوانـات النجسـة، هـي في الغالـب الحيوانـات الـتي لا يجيـز أكل لحومها، والظاهر أنه كان على هذه النظرة عند أغلب الساميين.

ونعـت الغـراب بـ (الأعـور)، قيـل إنـه نعـت بـذلـك لحـدة نظـره[2]، وقيـل إنمـا سموه (الأعور) تفاؤلاً بالسلامة[3]. ووصف بالحذر، فقيل: أحذر من غراب، وقيل إنـه نعت بذلك على التشاؤم به، لأن الأعور عندهم مشؤوم، وقيل لخلاف حالـه، لأنهـم يقولون: أبصر مـن غـراب، ويقـال سمـي الغـراب أعـور، لأنـه إذا أراد أن يصيـح يغمـض عينيه[4].

ويـذكـر أهـل الأخبـار أن غـراب الـبين نوعـان: أحـدهما صـغار معروفـة بالضعف واللؤم. أما الآخر، فإنه ينزل في دور الناس، ويقع على مواضع إقامتهم اذا ارتحلوا عنها وبانوا منها، ولذلك سمي بغراب البين[5].

وللعـرب عـادات بالنسبة إلى الغـراب، تـرى أنـه اذا علـق منقـار الغـراب علـى إنسان، حفظ من العين. أمـا اذا علـق طحالـه علـى إنسـان، هيـج الشبـق. وأن دمـه اذا جفـف وحشـي بـه البواسـير، أبرأهـا. واذا أكـل مشـوياً، نفـع القـولنج. واذا غمـس الغراب الأسود بريشه في الخل، وطُلي به الشعر، سوّده. واذا طلي بها إنسان مسحور، بطل عنه السحر. واذا جفف لسان الغراب (الـزاغ)، ثـم أكلـه إنسـان عطشـان، ذهـب عطشه[6].

---

1) الحيوان للجاحظ (2/ 317)، (التعاير بأكل لحم الغراب).

2) المفردات، للراغب الأصفهاني (ص 258).

3) الحيوان، للجاحظ (2/ 314 وما بعدها).

4) تاج العروس (3/ 428)، (عور).

5) الحيوان، للجاحظ (2/ 315)، حياة الحيوان، للدميري (2/ 246).

6) حياة الحيوان، للدميري (2/ 245، 255).

ونُسب إلى المرقش السّدوسي، ذكر الغراب في شعره، إذ قيل إنه قال:

ولقد غدوت وكنت لا	أغدو على واق وحاتم
واذا الأشائم كالأيا	مِنِ، والأيامنُ كالأشائم[1]

ويبين هذان البيتان رأي هذا الشاعر في التيامن والتشاؤم.

وكان العرب اذا أرادوا ان يصفوا أرضاً بالخصب والسواد، قالوا: وقعوا في أرض لا يطير غرابها، فهذا يعني أن الأرض كلها خصبة مزروعة سوداء، لا ترى فيها قطعة بيضاء، ولا ترى إلاّ الزرع والخيرات والثمر. واذا أرادوا التعبير عن انتقال مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيخوخة، وعن التهام الشيب لسواد الرأس: قيل: طار غراب البين[2].

وقد يكون في جملة أسباب تشاؤم العرب من الغراب، أنه كان يضر بإبلهم. فهم يذكرون أنه اذا وجد دبرة في ظهر البعير، أو قرحة في عنقه، سقط عليها ونقره وعقره. ولذلك كانوا اذا رأوا دبرة بظهر البعير، غرزوا في سنامه إما قوادم ريش أسود، وإما خرقاً سوداً، لتفزع الغربان فلا تتقرب منه ولا تسقط عليه. وقد يضعون الريش في اسنمتها وتغرز فيها[3]. والعرب تسمي الغراب لذلك (ابن دأية)، لأنه ينقر دبرة البعير أو قرحة عنقه، حتى يبلغ إلى دايات العنق وما اتصل بها من خرزات الصلب، وفقار الظهر[4].

والغراب من الطيور التي ورد ذكرها في التوراة. والعبرانيون مثل العرب اعتقدوا بالطيرة منه، أي بتأثير حركاته وسكناته في احداث الفأل والشؤم[5].

---

1) المعاني (1187/3).

2) تاج العروس (1/ 407).

3) الحيوان، للجاحظ (3/ 416 وما بعدها)، (هارون).

4) الحيوان (3/ 415، 439)، (هارون).

5) الملوك الأول، الإصحاح السابع عشر، الآية 6، التكوين، الإصحاح الثامن، الآية 7، Ency. Religl., 4, p. 808.

وقد ذكر (الجاحظ) جريدة بأسماء الجهات التي يقف عليها (الغراب) فينعب، وما سيقع من وقفته تلك ومن نعيبه، وما يجب أن يفعله أو يتجنبه الإنسان في هذه الحالات. كما ذكر أموراً أخرى تخص التطير أو التفاؤل من أصوات الحيوانات أو من رؤيتها[1].

وكان (أمية بن أبي الصلت) ممن يتطير من الغراب، ويذكر أهل الأخبار أنه بينا كان يشرب مع إخوان له في قصر (عيلان) بالطائف، إذ سقط غراب على شرفة القصر، فنعب نعبةً، فقال أمية: «بفيك الكثكث»، أي التراب وتشاءم منه، وقد مات فعلاً في مكانه بعد نعيبه للمرة الثالثة[2].

وفي شعر أمية قوله:

بآية قام ينطق كل شيء ... وخان أمانة الديك الغرابُ

وذلك أن من أحاديث العرب، أن الديك كان نديماً للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمّار ولم يعطياه شيئاً، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب، ورهن الديك، فخاس به، فبقي محبوساً، وأن نوحاً حين بقي في اللجة أياماً بعث الغراب، فوقع على جيفة ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مرفأً، واستعجلت على نوح الطوق الذي في عقنها، فرشاها بذلك. وفي جميع ذلك وغيره قال (أمية) ذلك البيت وأبياتاً أخرى، تطرق فيها إلى قصص إسرائيلي آخر، أخذ علمه به من أهل الكتاب. «فقد كان داهية من دواهي ثقيفٍ، وثقيف من دهاة العرب، وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه قد كان همّ بادعاء النبوة، وهو يعلم كيف الخصال التي يكون الرجل بها نبياً أو متنبياً إذا

---

1) نهاية الأرب (3/ 134 وما بعدها).

2) نهاية الأرب (3/ 139)، حياة الحيوان (2/ 173)، الحيوان (3/ 131).

اجتمعت له، نعم وحتى ترشح لذلك بطلب الروايات، ودرس الكتب، وقد بان عند العرب علاّمة، ومعروفاً بالجولان في البلاد، رواية»[1].

ومن رأي العرب أن الغراب لا يشيب، وضربوا به المثل في ذلك، فقالوا: «حتى يشيب الغراب ويبيّض القار»، ضربوا به مثلاً في الاستمرار على العمل وعدم الملل من شيء[2]. ويقولون: ذهب الغراب يتعلم مشي العصفور أو القطاة، فلم يتعلمها، ونسي مشيته. فلذلك صار يحجل ولا يقفز قفزان العصفور، أو مشية القطاة[3].

والبوم من الطيور التي يتشاءم منها بعض الناس، ولعل ذلك بسبب منظرها الكئيب ولصوتها الحزين وظهورها في الليل، والليل هو رمز الشر. ويدل وصفها. (أم الخراب) و(أم الصبيان) على النظرة السيئة التي كان يراها العرب لها[4]. ويقال إن من أنواعها الصدى والهامة. ولعل اعتقادهم أن الصدى والهامة أو ذكر البوم منها، هي روح الميت المرفرفة على القبر هو التي حمل أولئك المتشائمين على التشاؤم منها.

والعاطوس، وهي سمكة في البحر أو دابة من الحيوانات التي كان العرب يتشاءمون منها[5]. وكذلك (الأخيل) وهو (الشقراق)، «تطيرون منه، ويسمونه مقطع الظهور: يقال اذا وقع على بعير، وان كان سالماً يئسوا منه، واذا لقي المسافر الأخيل تطير وأيقن بالعقر إن لم يكن موت في الظهر»[6]. وهم يتشاءمون من الثور الأعضب أي المكسور القرن[7]. ويتشاءمون من (العراقيب)، الشقراق. وتقول العرب:

---

1) الحيوان (2/ 320).

2) اللسان (11/ 629)، الحيوان (3/ 131)، حياة الحيوان (2/ 177).

3) الحيوان (4/ 325).

4) حياة الحيوان (1/ 181 وما بعدها).

5) قال طرفة بن العبد:

لعمري لقد مرت عواطيس جمة ... ومر قبيل الصبح ظبي مصمع

تاج العروس (4/ 192)، حياة الحيوان، للدميري (2/ 121، 221)، العمدة (2/ 260)، اللسان (6/ 142).

6) بلوغ الأرب (2/ 337)، البرقوقي (348)، ديوان حسان (ص 22)، «هرشفلد».

7) تاج العروس (2/ 338)، العمدة (2/ 262).

اذا وقع الأخيل على البعير ليكشفن عرقوباه. وقيل: كل طائر يتطير منه للإبل، فهو طير عرقوب لأنه يعرقبها[1].

ويتطيرون بالصرد، ومن أسمائه الأخطب، ويقال (الأخيل) كذلك. و(الواق) أيضاً الصرد[2]. ويتشاءمون من (الأفكل)، وهو الشقران، فإذا عرض لهم كرهوه وفزعوا منه وارتعدوا[3].

والثعلب والأرنب من الحيوانات التي استعان بها الزاجر، في الزجر[4]. والواقع أن أهل الزجر قد توسعوا في علمهم حتى شمل كل المخلوقات، فحركات الإبل والخيل وسكناتها كلها ذات معان ومفاهيم يعرفها المشتغلون بالطيرة، وكانوا يستعينون بغيرها من الحيوانات.

وقد ذكر بعض الأخباريين أن العرب تتشاءم من الأفراس بالأشقر[5]. وذكروا أيضاً أنها تطيرت من: «المرأة، والدار، والفرس». وفي الحديث: «إن كان الشؤم، ففي الدار والمرأة والفرس»[6]. وورد: «إنما للشؤم في ثلاثة: في الفرس والمرأة والدار». وذكر أن (عائشة)، قالت: «وإنما قال: إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك»، أي إن الرسول إنما قال ذلك حكاية عن أهل الجاهلية فقط[7].

وكما يتغلب الإنسان على الأمراض بالأدوية والعلاج، كذلك يمكن التغلب على النحس وشؤم ناصية المرأة وعتبة الدار بالذبائح في بعض الاحيان، ولهذا جرت العادة بذبح ذبيحة أو عدة ذبائح عند زفاف العروس إلى بعلها ووصولها عتبة بيته طرداً للأرواح الشريرة وإرضاءً لها، كما جرت العادة بذبح الذبائح حين

---

1) تاج العروس (1/ 378)، (عرقب).

2) العمدة (2/ 261).

3) تاج العروس (8/ 65)، (افتكل).

4) Reste, S. 202.

5) مجمع الأمثال (2/ 86).

6) «لا عدوى ولا طيرة، إنما الشؤم في ثلاث في الفرس والمرأة والدار»، جامع الأصول (8/ 396)، عمدة القارئ (21/ 289).

7) القسطلاني، إرشاد (5/ 73 وما بعدها).

الانتقال إلى دار جديدة، أو حين الشعور بوجود أرواح فيها، ويقال لهذه الذبائح (ذبائح الجان)[1].

وقد ابتدع الجاهليون طرقاً لإبعاد الطيرة من تفكيرهم، من ذلك أنهم تجاهلوا بقدر إمكانهم، المسمّيات التي تبعث على التشاؤم بتسميتها بضدها من الكلمات التي لا يتشاءم منها، فسمّوا اللديغ بالسليم، والبرية بالمفازة، وكنّوا الأعمى بالبصير والأعور ممتعاً، والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، وذلك لتشاؤمهم من الغراب[2]. والتسميه بالأضداد لدفع الطيرة عن الأذهان، ليست عادة جاهلية حسب، إنما هي معروفة في الإسلام كذلك. كما أنها معروفة عند غير العرب من الأمم قديماً وحديثا.

التثاؤب والعطاس:

ويدخل في الطيرة بعض ما يصدر من الإنسان والحيوان من حركات، مثل التثاؤب والعطاس، والتثاؤب عمل من أعمال الشيطان. وأما العطاس، فقد كان أثره في إيجاد الشؤم شديداً، وهو من العادات الجاهلية المذكورة في الشعر المنسوب إلى الجاهليين. ذكر أن امرأ القيس قال:

وقد اغتدي قبل العطاس بهيكل   شديد منبع الجنَب نعم المنطّق

وإنه أراد بذلك أنه كان يتنبه للصيد قبل أن ينتبه الناس من نومهم، لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم بعطاسه[3].

وقيل إن العرب كانت تتطير منه، فإذا عطس العاطس، قالوا: قد ألجمه، كأنها قد تلجمه عن حاجته[4].

1) تاج العروس (2/ 138).
2) الحيوان (3/ 439)، «عبد السلام هارون»، بلوغ الأرب (2/ 338 وما بعدها).
3) العمدة (2/ 260)، إرشاد الساري (9/ 125 وما بعدها).
4) المعاني الكبير (3/ 1185).

ويقال الكدسة لعطسة البهائم. وقد تقال لعطسة الإنسان. والكادس ما يتطير به من الفال والعطاس وغيرهما. وقيل الكادس: القعيد من الظباء، وهو الذي يجيء من خلفك، ويتشاءم به، كما يتشاءم بالبارح[1].

والعطاس فضلاً عن ذلك دواء في نظر أهل الجاهلية، لذلك كانوا يتجنبونه بقدر إمكانهم، ويحاولون جهدهم حبسه وكتمه. فإذا عطس أحدهم وكان وضيعاً مغموراً أسمعوه كلاماً مراً فيه رد للشؤم على صاحب العطاس، كأن يقولوا له: «ورياً وقحاباً». والوري هو داء يصيب الكبد فيفسدها، والقحاب هو السعال، أو: «بك لا بي: أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بي». أما إذا كان العاطس معروفاً محبوباً شريفاً، قالوا له: «عمراً وشباباً». وكلما كانت العطسة شديدة كان التشاؤم منها أشد[2]. ويقال للدعاء على العاطس (التشميت) و(التسميت)[3].

وقد نهى الإسلام عن التشاؤم بالعطاس، وعكسه، فجعله محبوباً، بحديث: «إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب»[4].

واذا مات رجل قالوا: عطس الرجل، و(عطست به اللُجم)، واللجمة ما تطيرت منه، ويقال للموت: لجم عطوس[5].

---

1) تاج العروس (4/ 230)، (كدس).

2) المعاني الكبير (2/ 1015)، بلوغ الأرب (2/ 332).

3) اللسان (2/ 357)، تاج العروس (1/ 559)، «شمت».

4) حامع الأصول (7/ 396 وما بعدها).

5) اللسان (6/ 142).

بعض من أنكر الطيرة:

وكان بين الجاهليين أناس أنكروا الطيرة، ولم يحفلوا بها. منهم المرقش من بني سدوس، حيث قال:

إنـي غـدوت وكنـت لا	أغـدو علـى واقٍ وحـاتم
فـإذا الأشـائم كالأيـا	مـن والأيـامن كالأشـائم
فكـذاك لا خيـر ولا	شـرّ علـى أحـد بـدائم[1]

وممن كان ينكر الطيرة ويوصي بذلك، سلامة بن جندل، والحارث بن حلزة. ونجد الشاعر (الخُثيم بن عدي) يمدح (مسعود بن بحر الزهري)، بقوله:

ولـيس بهيّـاب اذا شـد رحلـه	يقـول عـداني اليـومَ واق وحـاتم
ولكنه يمضي على ذاك مقدماً	إذا صدّ عن تلك الهنات الخثارم

فهو يمدحه، ويقول إن ممدوحه لم يكن من الخثارم، أي المتطيرين، بل كان إذا أراد أن يمضي أمراً، صد عن تلك الهنات، فلا يحفل بواق وحاتم[2].

وكان النابغة من المتطيرين، خرج مع (زبّان بن سيار) يريدان الغزو، فبينما هما يريدان الرحلة، إذ نظر النابغة وإذا على ثوبه جرادة تجرد ذات ألوان، فتطير وقال: غيري الذي خرج في هذا الوجه! فلما رجع زبّان من تلك الغزوة سالماً. أنشأ يذكر شأن النابغة، فقال:

تخبّـر طيـره فيهـا زيـادٌ	لتخبـره ومـا فيهـا خبـير
أقـام كـأن لقمـان بـن عـاد	أشـار لـه بحكمتـه مُشـير
تعـلم أنـه لا طيـر إلاّ	علـى متطيّـر وهـو الثـبور

---

1) الحيوان (3/ 436، 449)، (هارون).

2) الحيوان (3/437)، (هارون).

بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير[1]

واسم النابغة زياد[2].

وهناك نوع آخر من التنبؤ يقال له في الإنكليزية «Hepatscopy»، ويُراد به استخراج الغيب من دراسة كبد الأضاحي التي تقدم إلى الآلهة. وقد اشتهر به الكلدانيون على الأخص، وتوسعوا فيه فشمل أيضاً قراءة الرئة أو بقية الأحشاء. وكان معروفاً أيضاً عند العبرانيين واليونان والرومان والمصريين وغيرهم[3]. وللكبد أهمية خاصة عند العرب، وهو في نظرهم معدن العداوة ومقر الحقد، لذلك يقال للأعداء: سود الأكباد، لأن الحقد قد أحرق أكبادهم حتى اسودت[4].

وقد تشاءموا من بعض الأيام، مثل (الأيام النحسات). وهي كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر، مثل أربع خلون، وأربع وعشرين، وأربع بقين. كما تشاءموا من بعض الشهور، مثل شهر شوّال، ولذلك كرهت التزوج فيه[5]. وورد يوم نحس و(أيام نحسات)، وهي المشؤومات. والعرب تسمي الريح الباردة إذا دَبرت نحساً. والنحس: الجهد والضر، وخلاف السعد من النجوم وغيرها[6]. وقد كان أهل نجد يتيمنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح، ويخالفهم أهل العالية، فيتشاءمون بالسانح، ويتيمنون بالبارح[7].

ويدخل في هذه الأيام تشاؤم بعض الجاهليين من يوم معين وتفاؤلهم من يوم آخر. فيكون يوم التشاؤم يوم بؤس، يغضب فيه من يتشاءم منه على كل من

---

1) الحيوان (3/ 447)، (هارون).

2) الحيوان (5/ 555)، (هارون).

3) Ency. Religi., 4, p. 808, Hastings, p. 568, Diodorius Sici., II. p. 29.

4) اللسان (378/4).

5) مروج الذهب (4/ 378).

6) اللسان (227/6).

7) العمدة (2/ 263).

يراه أول مرة أو في ذلك النهار، وقد يلحق به سوءاً كالذي روي من قصة (يومي البؤس والنعيم) عند (المنذر بن ماء السماء) أو (النعمان بن المنذر)[1]. ويكون يوم التفاؤل (يوم نعيم) يفرح فيه صاحبه ويهش لكل من يراه ولا سيما لأول قادم عليه. وعبر عنهما بـ (يوم بؤس) و(يوم نُعم)[2].

وكانت العرب تتشاءم من كلبة يقال لها (براقش)[3].

الفأل:

والفال ضد التشاؤم والطيرة. ويكون برؤية شيء أو سماع أمر أو قول أو غير ذلك يُتفاءلُ منه، كأن يسمع مريض رجلاً يقول يا سالم فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه، أو يسمع طالب حاجة رجلاً يقول يا واجد فيخال أنه يجد ضالته، فيتوقع صحة هذه البشرى، ويقال لذلك في الإنكليزية Omen وهو معروف عند العبرانين وقد ذكر في التوراة[4].

وأصل كلمة (الفأل) على ما يظهر للتشاؤم والتفاؤل، أي أنها كالطيرة أريد بها الحالتان، ثم تخصصت بالحسن، كما تخصصت الطيرة بالشؤم[5]. وقد نهي في الحديث عن الطيرة. أما الفأل، فقد ورد أن الرسول كان يتفاءل ولا يتطير لما في التفاؤل من أثر طيب في أعمال الإنسان[6].

---

1) البلدان (6/ 283 وما بعدها)، الأغاني (5/ 213)، ابن قتيبة: الشعر (144)، القالي، الأمالي (3/ 195).

2) اللسان (12/ 579).

3) الحيوان (5/ 454)، (هارون).

4) جامع الأصول (8/ 467، «كتاب الطيرة»، اللسان (14/ 27)، إرشاد الساري (8/ 397)، Ency., II, p. 46, Reste, S. 203, ff.

5) في الحديث «أصدق الطيرة الفأل»، النهاية (3/ 195).

6) النهاية (3/ 195)، جامع الأصول (8/ 467).

وضد (الشؤم) (اليمن)، ومن معاني اليمن (البركة)، و(الميامين) على نقيض (المشائيم)، و(الميمون) ضد (المشؤوم)[1]. وورد (ميمون النقيبة)[2] و(ميمون الناصية). ويلاحظ ان للناصية علاقةً متينة بالشؤم والتيمن، فكما يقال (ميمون الناصية) قيل (شؤم الناصية) كذلك، وهي كناية عن الإنسان، فقد كان في رأيهم أن من الناس من هم شؤم، ويجلبون الشؤم على من يراهم،

وأن منهم من تجلب رؤيته الخير لمن يراه. ويكون للحسن وللقبح ولسيماء الوجه والجسم دخل كبير في تكوين رأي عن الشخص الذي يُتشاءم أو يُتفاءل منه. وقد قلت إن بعض العاهات التي تكون في بعض الناس، تجعل غيرهم يتشاءمون منهم عند وقوع نظرهم عليهم في الصباح.

وهناك كلمات عديدة في التشاؤم و(الشؤم)، مثل (شائم) و(شؤم) و(مشؤوم) و(مشوم) و(مشائيم) و(تشاءموا)، و(الأشأم) وأمثال ذلك[3].

ولا يقتصر استعمال هذه الألفاظ على جنسٍ معين، بل تقال لكل ما يجلب الشؤم على الإنسان. فمن البشر . كما قلت . من هم شؤم على غيرهم، يجلبون الشرّ لمن يتشاءم منهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال. ولما كان التشاؤم قضية اعتبارية تتعلق بالنفس والمزاج، كان بعض الأشخاص أو الحيوانات أو الأشياء شؤماً عند ناس، بينما هم ليسوا كذلك عند جماعة آخرين. ولكن الغالب أن التشاؤم من الأشياء القبيحة أو الناقصة أو الراعبة وما شابه ذلك، فهذه المزعجات تؤثر على النفس، فتجعلها تتشاءم منها، وتتوقع حدوث النحس من رؤيتها، ولا سيما في الصباح، وعند الهمّ بالشروع في عمل مهم.

---

1) تاج العروس (9/ 371).

2) تاج العروس (10/ 491).

3) تاج العروس (8/ 354).

وكانوا يحبون أن يأتوا أعداءهم من شق اليمين[1]. يتفاءلون بذلك. لأن في اليمين اليمن، وفي اليسار العسر.

وللاسماء والكلمات أثرها في الفأل وفي الطيرة، فالأسماء الحسنة الجميلة تبعث على التفاؤل، أما الأسماء الخبيثة والرديئة فإنها تولّد التشاؤم. وقد عرف هذا النوع من التفاؤل في الإسلام، ولم ينه عنه. بل قيل إن الرسول كان يتأثر من الأسماء، وكان يقول إذا أعجبته كلمة: «أخذنا فألك من فيك»، وإنه يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع: يا راشد، يا نجيح، وأنه قال: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل»[2].

وللطيرة سمت العربُ المنهوش السليم، والبرّية المفازة، وكنوّا الأعمى أبا بصير، والأسود أبا البيضاء، وسمّوا الغراب بحاتم، إذ كان يحتم الزجر به على الأمور[3].

وورد أن العرب اذا تطيروا من الإنسان وغيره قالوا: صباح الله لا صباحك[4].

ولإيمان العرب بباب الطيرة والفأل عقدوا الرتائم، وعشروا اذا دخلوا القرى تعشير الحمار، واستعملوا في القداح الآمر، والناهي، والمتربص، وهن غير قداح الأيسار[5].

ومن أبواب الفراسة النظر إلى خطوط الكف للاستدلال بها على طبيعة صاحب الكف وعلى ما سيحدث له من أحداث. وقد أشار إلى الكف والى أسرارها الأعشى في قوله:

أنظر إلى كفٍ وأسرارها   هل أنت، إن أوعدتني، ضائري[6]؟

---

1) الحيوان (5/ 516)، (هارون).
2) جامع الأصول (8/ 394).
3) الحيوان (2/ 429)، (هارون)، (4/ 253).
4) اللسان (502/2).
5) الحيوان (440/3)، (هارون).
6) المعاني الكبير (3/ 1185).

ولمراقبة الكلف الذي يظهر على وجه القمر ودراسة النجوم والظواهر الطبيعية التي تحدث للأجرام السماوية كالكسوف والخسوف، أهمية كبيرة في التكهن. وقد كان الجاهليون يعتقدون أن للكسوف والخسوف أثراً في حياة الإنسان، فاذا وقعا دلا على موت إنسان عظيم أو حياته، أو ولادة مولود صاحب حظ كبير[1]. وكذلك كان رأيهم في تساقط النجوم. وقد أشير إليه في أشعار القدماء من الجاهلية، منهم عوف بن الجزع وأوس بن حجر وبشر بن أبي خازم[2].

وقد كان في زعم الكهان من صنف المنجمين أن في استطاعتهم التأثير في الأجرام السماوية وفي احداث الضباب والأمطار والعواصف والرياح، وقد نهي عن التصديق بها في الإسلام، لتعارضها مع الايمان بسيطرة الله وهيمنته وحده على الكون.

وكان للجاهليين اعتقاد بأثر فعل النجوم في الإنسان، ولهذا كانوا يراقبون السماء لتفسير ما يرون فيه من تساقط نجوم، ومن أخبار الشياطين عما يستمعون إليه من وحي السماء. وذكر أنهم كانوا يفزعون إذا تساقطت الشهب بكثرة غير معهودة. وقد حدث أن تساقطت النجوم بكثرة ففزعوا وجزعوا وقالوا: «هلك من في السماء. فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً، وصاحب البقر يذبح كل يوم بقرة، وصاحب الغنم كل يوم شاة حتى أسرعوا في اتلاف أموالهم. فقالت ثقيف بعد سؤال كاهنهم.. امسكوا عن أموالكم، فإنه لم يمت من في السماء. ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هي. والشمس والقمر كذلك»[3]. فكأنهم تصوروا أن تساقط النجوم بكثرة معناه اختلال نظام السماء وموت من فيه، واحتمال فناء العالم تبعاً لذلك.

---

1) اللسان (11/ 208)، الروض الأنف (1/ 135).

2) الروض الأنف (1/ 135).

3) السيرة الحلبية (1/ 141 وما بعدها).

وكانوا إذا خافوا من شيء وأرادوا الاستعاذة، كأن يكون الإنسان مسافراً فرأى من يخافه قال: حجراً محجوراً، أي حرام عليك التعرض بي. وقد ترك هذا الاستعمال في الإسلام[1].

وقد ورد الحديث في النهي عن التطير. جاء: «الطيرة شرك. ولكن الله يذهبه بالتوكل»[2].

من عادات وأساطير الجاهليين:

ولأهل الجاهلية عادات وأساطير كثيرة، وقد اختص العرب بقسم منها، أما القسم الثاني فهو عام معروف، عرف عند الساميين والعجم، وهي مما يُقال له (الشعبيات) أو (الفولكلوريات) في مصطلح الافرنج لهذا العهد.

فمن ذلك ما كانوا يفعلونه في أسفارهم إذ كان أحدهم اذا خرج إلى سفر عمد إلى شجرة من (الرتم)، فعقد غصناً منها، فاذا عاد من سفره ووجده قد انحلّ، قال: قد خانتني امرأتي، وإن وجده على حاله قال لم تخني. ويقال لذلك العقد (الرتم) و(الرتمة). وذكر إن الرجل منهم كان اذا سافر عمد إلى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها، فاذا عاد نظر إلى ذلك الخيط، فإن وجده بحاله علم أن زوجته لم تخنه، وإن لم يجده أو وجده محلولاً قال: قد خانتني. ويقال: بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر.

وتستعمل (الرتمة) لتذكير الإنسان بشيء، يستعملها من يكثر نسيانه. وهي خيط يعقد في الأصبع للتذكير. وقد يعقد على الخاتم.

ومن اعتقادهم في السفر أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره. فان التفت تطير، وفسره بالعودة. فلذلك لا يلتفت إلا العاشق الذي يريد العود،

---

1) الصاحبي (93).

2) جامع الأصول (8/ 467)، «كتاب الطيرة»، سنن أبي داوود (4/ 17 وما بعدها)، «باب في الطيرة»، عمدة القارئ (21/ 273)، «باب الطيرة»، اللسان (10/ 450)، (شرك).

ومنها التصفيق: كانوا اذا ضل الرجل منهم في الفلاة، قلب ثيابه، وحبس ناقته، وصاح في أذنها كأنه يومىء إلى إنسان، وصفق بيديه: الوحا الوحا، النجا النجا، هيكل، الساعة الساعة، إليّ إليّ، عجّل، ثم يحرك الناقة فيهتدي. قال الشاعر:

وأذن بالتصفيق من ساء ظنه   فلم يدرِ من أي اليدين جوابها

وذكر أنه كان يقلب قميصه ويصفق بيديه كأنه يومىء بهما إلى إنسان فيهتدي.

وكان أحدهم اذا أراد دخول قرية، فخاف وباءها أو جنّها، وقف على بابها قبل أن يدخلها، فنهق نهيق الحمار، ثم علق عليه كعب أرنب، كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن. ويسمون هذا النهيق التعشير.

وروي أن (عروة بن الورد) خرج إلى (خيبر) ليمتار، فلما قربوا منها، عَشَّرَ من معه، وعاف (عروة) أن يفعل فعلهم فيقال: إن رفقته مرضوا، وماتَ بعضهم، ونجا (عروة) من الموت والمرض.

وكان مسافرهم إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل، عمد إلى واد ذي شجر، فأناخ راحلته في قرارته، وهي القاع المستديرة، وعقلها، وخطّ عليها خطاً، ثم قال: أعوذ بصاحب هذا الوادي. والى ذلك أشار القرآن (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً). وذكر أنهم كانوا إذا نزلوا الوادي، قالوا: نعوذ بسيّد هذا الوادي من شر ما فيه، فتقول الجن ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً.

ومن عادات بعض العرب أنهم إذا خافوا شر إنسان وأرادوا عدم عودته إليهم، أوقدوا خلفه ناراً، إذا تحول عنهم، ليتحول ضبعه معه، أي شره. وكانوا يقولون: أبعد الله دار فلان وأوقد ناراً أثره، والمعنى لا رجعه الله ولا رده.

وإذا غاب إنسان، فلم يقفوا على أثره، ففي الوسع الاهتداء إليه، وذلك بأن يذهبوا إلى بئر قديمة أو حفر قديم، ثم ينادوا في البئر أو الحفر اسم الغائب ثلاث مرات، فإن سمعوا صوتاً علموا أنه حي معافى، وإن لم يسمعوا شيئاً علموا أنه قد مات.

وإذا أرادوا ضمان عدم رجوع الثقلاء ومن لا يرغب في عودتهم، فإن الثقيل اذا غادر المحل، عمد صاحب البيت والمكان الى كسر شيء من الأواني أو رمى حجراً خلفه، وفي ذلك ظن بألا يعود.

ومن خرافاتهم أن أحدهم كان إذا اشترى داراً أو استخرج ماء عين أو بنى بنياناً وما أشبهه، ذبح ذبيحة للطيرة. وقد عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن). وكانوا يفعلون ذلك مخافة أن تصيبهم الجن وتؤذيهم. وقد نهي في الإسلام عن ذبائح الجن.

وأوجدوا لدوام الحب علاجاً، هو شق الرداء والبرقع. زعموا أن المرأة إذا أحبت رجلاً أو أحبها ثم لم تشق عليه رداءه، ويشق عليها برقعها، فسد حبهما، فإذا فُعل ذلك دام حبهما.

وإذا صعب على المرأة العثور على خاطب لها، فإن في الإمكان تيسير ذلك بنشر جانب من شعرها، وتكحيل إحدى عينيها، وتحجيل احدى رجليها، ويكون ذلك ليلاً، ثم تقول: «يا لكاح، أبغي النكاح، قبل الصباح»، فيسهل أمرها، وتتزوج عن قريب.

ومن آرائهم أن الرجل منهم إذا عشق ولم يسلَ وأفرط عليه العشق، حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبي، وقام آخر فأحمى حدَيدة أو ميلاً وكوى به بين إليتيه فيذهب عشقه.

ولدوام الحب بين الرجل والمرأة، يشق الرجل برقع من يحبّها وتشق المرأة رداءه، فيصلح حبهما ويدوم، فإن لم يفعلا ذلك فسد حبهما.

واذا غـاب عـن النسـاء مـن يحببنـه أخـذن تـرابـاً مـن موضـع قدمـه وموضـع رجله، ليرجع سريعاً.

واذا أرادت المقلاة أن يعيش ولدها، ففي امكانها ذلك اذا تخطت القتيل الشريف سبع مرات، وعندئذ يعيش ولدها. وانما كانوا يفعلون ذلك بالشريف يقتل غدراً. وقد ذكر ذلك في شعر لبشر بن أبي خازم.

ومن عقائدهم أن صاحب الفرس المهقوع إذا ركبه فعرق تحته اغتلمت امرأته، وطمحت إلى غيره. والهقعة: دائرة تكون بالفرس، وربما كانت على الكتف في الأكثر.

وكان الصبي اذا بترت شفته، حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحي: «الحلاء الحلاء، الطعام الطعام» فتلقي له النساء كسر الخبز والتمر واللحم في المنخل، ثم يلقى ذلك للكلاب، فتأكله فيبرأ من المرض فإن أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمرة أو لقمة، بترت شفته.

وتعالج (الخطفة) و(النظرة) عند الصبيان بتعليق سن ثعلب، أو سن هرة على الصبي، فإن تلك الأسنان تهرّب الجن. ويهربها كذلك تنقيط شيء من صمغ (السمرة) (حيض السمرة)، وهي شجرة من شجر الطلح، بين عيني النُّفَساء، وخط شيء منه على وجه الصبي خطاً، فلا تجرؤ الجنية على التقرب من الصبي، ويقال لذلك (النفرات). فإذا قال لها صواحباتها في ذلك، قالت:

كانت عليه نفرهْ ... ثعالب وهررهْ

والحيض حيض السمره

ومن عاداتهم في إبعاد الجن عن الصبيان، تنفير المولود، وذلك أن يسميه باسم غريب منفر، فينفر الجن منه، ولا يتقربون منه.

وعادة أخذ الغلام اذا ثغر، السن الساقط ووضعه إياه بين السبابة والإبهام، واستقبال الشمس، وقذف السن في عينها، لا تزال معروفة حتى الآن، وهم يقولون في ذلك: «ابدليني بسن أحسن منها، ولتجرِ في ظلمها إياتك»، أو «أبدليني أحسن منها، أمن على أسنانه العوج، والفلجَ، والثَّعَل»، قال طرفة:

بدلتـه الشمس من منبِته	برداً أبيضَ مصقولَ الأُشُر

واعتقد قوم منهم أن من ولد في القمراء، تقلصت غرلته، فكان كالمختون. واعتقدوا أن طول الغرلة من تمام الخلقة وأقرب ما يكون إلى السؤدد.

ومن عقائدهم، أن المولود إذا ولد يتناً، كان ذلك علامة سوءٍ، ودليلاً على الفساد. واليتن خروج رجل المولود قبلَ رأسه.

ومن عقائدهم آن الرجل كان اذا ظهرت فيه القوباء عالجها بالريق، واذا أصيب أو أصيبت دابته بالنملة، وخط عليها ابن المجوسي اذا كان من أخته تبرأ وتنصلح وترأب.

وزعموا أن من أصيب بـ (الهُدَبد)، وهو (العَشَا) يكون في العين، عمد إلى سنام فقطع منه قطعة، ومن الكبد قطعة، وقلاهما، وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبابته:

فيا سناماً وكَبِدْ	ألا اذْهَبا بالهُدَبدْ
ليس شفاء الهدبد	إلا السنام والكبدَ

ويزعمون أن ذلك يذهب بالعشا بذلك.

وقد زعم الجاهليون أن الطاعون الذي كان يقع كثيراً في الجاهلية فيحصد الناس حصداً، هو من وخز الجنّ، وأنه من فعلهم في الإنسان ودعوه (رماح الجن)، وذكر ذلك في الشعر فقال أحد الشعراء:

لعمـرك مـا خشـيت علـى عديّ رمـــاح بـــني مقيـدة الحمـــار

ولكـني خشـيت علـى (عــديّ) رمـــاح الجـــن أو إيـــاك جـــار

وكانوا يرون أن أكل لحوم السباع يزيد في الشجاعة والقوة.

وفي حركات الإنسان دليل ومعان تنبيء عن أشياء. فإذا اختلجت العين دل ذلك على توقع قدوم شخص غائب محبوب، ولا تزال هذه العادة باقية عند الناس اليوم.

ومن عاداتهم أن أحدهم اذا خدرت رجله، ذكر أحب الناس إليه، فتنبسط.

وكانوا يعقدون الرتم للحمى، ويرون أن من حلها انتقلت الحمى إليه. قال أحد الشعراء:

حللـــت رتيمـــة فمكثـــت شـــهراً أكابـد كـل مكـروه الـدواء

وقد زعموا أن في البطن حية، اذا جاع الإنسان، عضت على شرسوفه وكبده. وقيل: هو الجوع بعينه، ليس أنها تعض بعد حصول الجوع.

وكان من عادة الجاهليين حمل ملوكهم على الأعناق إذا اشتد بهم المرض. وهم يعتقدرن أنهم بذلك سيتغلبون على المرض، ويعللون ذلك بأنه أسهل على المريض، وأكثر راحة له من وضعه على الأرض.

واعتقدت العرب أن دمَ الملوك والرؤساء يشفي من عضة الكلب، وزعموا أن الكَلَب جنون الكلاب المعتري من أكل لحم الإنسان. وأجمعت العرب أن دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه، وقيل إن الرجلَ الكلِب يعض انساناً فيأتون رجلاً شريفاً، فيقطر لهم من دم إصبعه، فيسقون الكلبَ فيبرأ.

ومن عقائدهم أنهم كانوا اذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره، فيأخذون روثة، ويفتونها على رأسه، ويقولون: روثة راث ثائرك. وقد يذر على الحية المقتولة يسير رمادٍ، ويقال لها: قتلك العين فلا ثائر لك. وفي أمثالهم لمن ذهب العين دمه هدر: هو قتيل العين.

واعتقد الجاهليون بـ (السفعة)، و(السفعة) العين تصيب الإنسان: عين إنسية وعين جنية، و(السفعة) النظرة من الجن.

واذا طالت علة الواحد منهم، وظنوا أن به مساً من الجن، لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً، عملوا جمالاً من طين، وجعلوا عليها جوالق وملؤوها حنطة وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر الى جهة المغرب وقت غروب الشمس، وباتوا ليلتهم تلك، فاذا أصبحوا، نظروا إلى تلك الجمال الطين، فاذا رأوا أنها بحالها، قالوا: لم تقبل الهدية، فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية، واستدلوا على شفاء المريض، وفرحوا، وضربوا بالدف.

ومن أوابدهم تعليق الحلي والجلاجل على اللديغ، يرون أنه يفيق بذلك، ويقال إنه إنما يعلق عليه، لأنهم يرون أنه إن نام يسري السم فيه فيهلك، فشغلوه بالحلي والجلاجل وأصواتها عن النوم. وذهب بعضهم إلى أنه اذا علق عليه حلي الذهب برأ، وإن علق الرصاص أو حلي الرصاص مات.

ومن آرائهم في إطفاء نار الحرب أنهم كانوا ربما أخرجوا النساء فبلن بين الصفين، يرون أن ذلك يطفىء نار الحرب ويقودهم إلى السلم.

ومن وسائل إبعاد الجن عن الناس، وإبعاد عيونهم عنهم، تعليق كعب الأرنب. يقولون إن من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سحر، وذلك لأن الجن تهرب من الأرنب، لأنها ليست من مطايا الجن، لأنها تحيض. وذكر أيضاً أن من علق على نفسه كعب أرنب، لم يقربه (عمار الحي) (جنّان الحي) و(جنّان الدار)،

و(عمّار الدار) ولا (شيطان الحماطة) وجانّ العشرة (جار العشيرة) وغول العقر (غول القفر)، وكل الخراي في وإن الله يطفىء نار السعالي. و(الحماطة) شجرة شبيهة بالتين تأوي إليها الحيات.

وكانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له، نجسوه بتعليق الأقذار عليه، كخرقة الحيض وعظام الموتى. وذكروا أن انفع من ذلك أن تعلق طامث عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك. ويشفي التنجيس من كل شيء، إلا من العشق.

ومن مذاهبهم قولهم في الدعاء: «لا عشت إلا عيش القُراد». يضربونه مثلاً في الشدة والصبر على المشقة يزعمون أن القُراد يعيش ببطنه عاماً ويظهره عاماً.

وكانوا يتبركون بأشياء، منها المدمى من السهام، الدي ترمي به عدوك ثم يرميك به. وكان الرجل إذا رمى العدو بسهم فأصاب، ثم رماه به العدو وعليه دم، جعله في كنانته تبركاً به. ذكر أن (سعداً) قال: «رميت يوم أُحد رجلاً بسهم فقتلته، ثم رميت بذلك السهم أعرفه، حتى فعلت ذلك وفعلوه ثلاث مرات، فقلت:هذا سهم مبارك مدمى فجعلته في كنانتي، فكان عنده حتى مات».

كان أحدهم يلقى الرجل يخافه في الشهر الحرام، فيقول: حجراً محجوراً، أي حرام محرم عليك هذا الشهر، فلا يبدؤه بشر. وكانوا يقولون ذلك اذا نزلوا مكاناً وخافوا فيه من الجن.

وكان من عاداتهم أنهم كانوا إذا أرادوا أن تورد البقر الماء، فعافته قدموا ثوراً، فضربوه، فورد، فاذا فعلوا ذلك، وردت البقر. وفي ذلك قال الأعشى:

وما ذنبه إن عافت الماء باقر   وما أن تعاف الماء إلا لتضربا

ويقولون إن الجن تصد البقر عن الماء، وإن الشيطان يركب قرني الثور.

ويظهر أن هذا الاعتقاد من الاعتقادات التي كانت شائعة بين الجاهليين، بدليل وروده في أشعار عدد من الشعراء. وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصدّ الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الماء حتى تهلك.

ومن عاداتهم أيضاً أنهم كانوا اذا وقع العُرُّ في إبلهم، اعترضوا بعيراً صحيحاً لم يقع ذلك فيه، فكووا مشفره وعضده وفخذه. يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العر عن إبلهم

وذكر أن العرّ قروح مثل القوباء، تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها يسيل منها مثل الماء الأصفر، فتكوى الصحاح لئلا تعديها المِراض، تقول منه: عرت الإبل، فهي معرورة. قال النابغة الذبياني:

فحملتنى ذنب امرىء وتركته كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع

وفي المعنى المذكور قول الشاعر:

فألزمتني ذنباً وغيريّ جرّه حنانيَكْ لا تكوِ الصحيح بأجربا

وقول آخر:

كمن يكوي الصحيح يروم برءاً به من كل جرباء الإهاب

وذكر أن الفصيل كان اذا أصابه العر، عمدوا إلى أمه فكووها، فيبرأ فصيلها.

ومن ذلك أنهم كانوا يفقأون عين فحل الإبل، لئلا تصيبها العين. وكانوا اذا كثرت إبلهم فبلغت الألف، فقأوا عين الفحل، فإن زادت الإبل على الألف فقأوا العين الأخرى. وذلك المقفأ والمعمى.

وكانت العرب اذا أجدبت، وأمسكت الماء عنهم، وتضايقوا من انحباس المطر، وأرادوا أن يستمطروا، عمدوا إلى السلع والعُشَر، فحزموهما، وعقدوهما في أذناب البقر، وأضرموا فيها النيران، وأصعدوها في موضع وعر، واتبعوها، يدعون الله ويستسقون، وانما يضرمون النار في أذناب البقر تفاؤلاً للبرق بالنار. وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات. ويقال لهذا الفعل (التسليع). وذكر أن التسليع فى الجاهلية أنهم كانوا اذا أسنتوا، أي أجدبوا، علقوا السلع مع العشر بأذناب البقر وحدروها من الجبال وأشعلوا في ذلك السلع والعشر النار يستمطرون بذلك. ونجد من الرواة من يقول: حدروها من الجبال وأشعلوا في ذلك السلع والعشر النار، ومنهم من يقول: ثم يضرمون فيها النار، وهم يصعدونها في الجبل، فيمطرون.

وقد أشير إلى هذا الفعل في الشعر، قال أمية بن أبي الصلت:

سلَعُ ما، ومثلهُ عشرٌ ما   عائلٌ ما، وعالت البيقورا

وقال الورك الطائي (وداك الطائي):

لا درّ درّ رجال خاب سعيهم   يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعل أنت بيقوراً مسلعة   ذريعةً لك بين الله والمطر

ومن السلع «المُسَلَّعةُ، كانت العرب في جاهليتها تأخذ حطب السلع والعشر في المجاعات وقحوط القطر، فتوقر ظهر البقر منها، وقيل: يعلقون ذلك في أذنابها، ثم تلعج النار فيها يستمطرون بلهب النار المشبه بسنى البرق. وقيل:

«يضرمون فيها النار، وهم يصعدونها في الجبل، فيمطرون».

وقد تعرّض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع (البيقور)، فقال: «كانت العرب اذا أمسكت السماء قطرها، استمطروا، فعمدوا إلى شجرتيْن يقال لهما السلع والعشر، فعقدوهما في أذناب البقر فأضرموا فيها النار، وأصعدوها في جبلٍ وعر وتبعوا آثارها، يدعون الله عز وجلّ ويستسقونه. قال ابن الكلبي: وانما يضرمون النار تفاؤلاً للبرق» . «كانوا اذا فعلوا ذلك توجهوا نحو المغرب من بين الجهات كلها قصداً إلى العين، والعين قبلة العراق. قال العجاج:

سارٍ سَرى من قبل العين فجر   غُرٌّ السحاب والمرابيع البكر»

عقيدتهم في الحيوان:

وللجاهليين عقائد في الحيوان. فمنهم من كان يعتقد أن للجن بهذه الحبوانات تعلقاً، ومنهم من يرى أنها نوع من الجن، ومنهم من كان يرى أن لبعضها، مثل الورل والقنفذ والأرنب والظبي واليربوع والنعام، صلة بالجن، وأنها مراكب لها، يمتطونها كما يمتطي الإنسان الخيل والبغال والابل والحمير.

ومن مراكب الجن، (العضرفوط)، قال الشاعر:

وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد   ألذّ وأشهى من وخيد الثعالب
ومن فارة مزمومة شمرية   وخود بردفيها أمام الركائب
ومن عضرفوط حطّ بي من ثنية   يبادر سرباً من عظاء قوارب

والعضرفرط دويبة من دواب الجن، ويقال: العضرفوط ذكر العِظاء، وقيل: دويبة تسمى العِسودة، بيضاء، ناعمة.

واعتقدوا أن السموم لما فرقت على الحيوانات، احتبست العظاية (العظاءة) عند التفرقة حتى نفذ السم، وأخذ كل حيوان قسطاً منه على قدر السبق إليه، فلم تنل العظاية نصيباً منه، فخسرته. لذلك صارت تمشي مشياً سريعاً ثم تقف، لما يعرض لها من التذكر والأسف على ما فاتها من السم.

و(الظباء) ماشية الجن، في زعم بعضهم وهي تسمع وتكلم، ولهم قصص عنها.

وتزعم العرب أن (الهديل)، فرخ على عهد (نوح) مات عطشاً، وضبعه أو صاده جارح من جوارح الطير، فما من حمامة إلاّ وهي تبكي عليه.

وللخرز عند الجاهليين وعند الأعراب حتى اليوم، شأن كبير في السحر وفي دفع أذى الأرواح والعين، وفي النفع والحب، وأمثال ذلك. وسأتحدث عنها في المكان المخصص بالسحر.

وضرب المثل ببخل (أبي حباحب). من محارب خصفة، وكان بخيلاً، فكان لا يوقد ناره إلاّ بالحطب الشخت لئلا ترى، وقيل: اسمه (حباحب)، فضرب بناره المثل، لأنه كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة، مخافة الضيفان، فقالوا: نار الحباحب.

وأم حباحب: دويبة، مثل الجندب، تطير، صفراء خضراء، رقطاء برقط صفرة وخضرة، ويقولون إذا رأوها: أخرجي بُردى أبي حباحب، فتنشر جناحيها، وهما مزينان بأحمر وأصفر.

وللعرب أساطير عن الكواكب، من ذلك ما ذكروه من أن (الدَّبران) خطب (الثريا) وأراد القمر أن يزوجه منها، فامتنعت وأعرضت، وقالت للقمر: ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له؟ فجمع الدبران قلاصه، ووضعها قدامه، وأخذ يتبعها يريد إقناعها بالزواج منه. ومن ذلك قولهم في (المرزم)، وهو (الشِعْرى)، يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر. تقول العرب: إذا طلعت الشعرى جعل صاحب النحل يرى، وهما الشعريان: (العبور) التي في (الجوزاء) و(الشعرى الغميصاء) التي في الذراع. تزعم العرب أنهما أخت (سهيل). وقد عبدت طائفة من العرب (الشعرى العبور). قالوا: إنها عبرت السماء عرضاً، ولم يعبرها عرضاً غيرها، فأنزل اللَه: (وانه هو رب الشعرى)، وسميت الأخرى (الغميصاء)، لأن العرب قالت في حديثها إنها بكت على أثر العبور حتى غمصت.

وزعموا أن (سهيلاً) كان عشّاراً على طريق اليمن ظلوماً فمسخه الله كوكباً. وعرف بأنه نجم يماني عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ.

و(الشمس) إلهة عند كَثير من الجاهليين، فتعبدوا لها، وعدّت صنماً عندهم.

من أساطيرهم ما تحدثوا به عن (برد العجوز)، حدثوا أن عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في أواخر الشتاء وأوائل الربيع فيسوء أثره على المواشي، فلم يكترثوا يقولها، وجزوا أغنامهم: واثقين بإقبال الربيع، فلم يلبثوا إلاّ مديدة حتى وقع برد شديد، أهلك الزرع والضرع، فقالوا هذا برد العجوز. يعنون العجوز التي كانت تنُذر به.

وحدثوا: أن عجوزاً كانت بالجاهلية، ولها ثمانية بنين، فسألتهم أن يزوجوها وألحت عليهم، فتآمروا بينهم، وقالوا: إن قتلناها لم نأمن عشيرتها، ولكن نكلفها البروز للهواء ثماني ليال، لكل واحد منا ليلة. فقالوا لها: إن كنت تزعمين أنك شابة، فابرزي للهواء ثماني ليال، فإننا نزوّجك بعدها، فوعدت بذلك، وتعرت تلك الليلة والزمان شتاء كلب، وبرزت للهواء. وفعلت مثل ذلك في الليل الأخر، فلما كانت الليلة السابعة، ماتت.

ونسب العرب إليها برد الأيام الثمانية، وأسماؤها: الصنّ، والصنبر، والوبر، وآمر، ومؤتمر، ومعلل، ومطفئ الجمر، ومكفىء الظعن.

ومن الأمرر التي تداولوها قولهم في (زمن الفطحل). وضربهم المثل به، قالوا: أيام كانت الحجارة رطبة، وإذ كل شيء ينطق. وهو دهر لم يخلق فيه الناس بعد.

وكانوا يعتقدون بالمسخ. وهو تحويل صورة إلى أخرى أقبح منها، وتحويل إنسان الى حيوان أو حجر. ولهم اعتقادات في مسخ الأطفال، وتبديل (الجن) لهم بأولادهم من ذوي العاهات. وقد زعموا أن (اللات) صنم ثقيف، كان في الأصل يهودياً يلتّ السويق في (الطائف) فمسخ حجراً، عبد فصار (اللات).

وللعرب قصص وضعوه على ألسنة الحيوانات نجده في كتب الأدب. ولهم أمثلة وراءها قصص في سبب ضربها. ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك. وقد صوروا بعض الحيوانات ناطقة عاقلة، ونسبوا لها الحكمة والقول الحسن. وصوروا بعضها بليدة غبيّة. ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك.

واتخذوا من بعض الناس مثلاً على أمر من أمور الحياة. وضربوا بهم الأمثال. فضربوا المثل ببلاغة (سحبان وائل) وبقدرته على الخطابة. وبفصاحة (قس بن ساعدة الإيادي). وجعلوهما المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة عند العرب.

ووضعوا (باقل) مثلاً للعي والبلادة. فمما رووه عنه، أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فمرّ بقوم فقالوا: بكم أخذت الظبي فمدّ يديه، وأخرج لسانه، يريد بأصابعه عشرة دراهم وبلسانه درهماً فشرد الظبي حين مدّ يديه، وكان الظبي تحت إبطه، فجرى المثل بعيه، وقيل: أشد عياً من باقل، وأعيا من باقل، كما قبل أبلغ من سحبان وائل. وذكر أنه كان من ربيعة.

واتخذوا (بيهس) الفزَاري، الملقب بنعامة، مثلاً للحمق، فقالوا: أحمق من بيهس. وهو أحد الإخوة السبعة الذين قتلوا، وترك هو لحمقه. زعموا أنه هو القائل:

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

وإنما لقب بيهس بنعامة لأنه كان شديد الصمم، وإذا دعا الرجل من العرب على صاحبه بالصمم، قال: اللهم اصنجه صنجاً كصنج النعامة. والصنج أشد الصمم.

وضرب المثل بحمق (هبنقة)، واسمه (يزيد بن ثروان) أحد بني قيس بن ثعلبة، الملقب بـ(ذي الودعات). لقب به لأنه جعل من عنقه قلادة من ودع وعظام

وخـزف مـع طـول لحيتـه. فسـئل عـن ذلـك، فقـال: لـئلا أضـل، أعـرف بهـا نفسـي، فسرقها أخوه في ليلة وتقلدها، فأصبح هبنقة ورآها في عنقه، فقال: أخـي أنت أنـا، فمن أنا؟ فضرب بحمقه المثل. فقيل أحمق من هبنقة.

وضـربوا المثـل بحمـق دُغـة. وهـي بنـت مـنعج، زوّجـت وهـي صـغيرة في بـني العـنير، فحملـت، فلمـا ضـربها المخـاض ظنـت أنهـا تحتـاج إلى الخـلاء، فـبرزت إلى بعض الغيطـان ووضـعت ذا بطنهـا، فاسـتهل الوليـد، فجـاءت منصـرفة وهـي لا تظـن إلا إنها أحدثت. فقالت لأمها: يا أماه، هل يفتح الجعُر فاه؟ قالت: نعـم ويـدعو أبـاه، فسبّ بها بنو العَنْير، فسموا بني الجعراء.

وقيل هي امرأة من بني عجل بن لجيم. وقيل هـي: دغـة بنـت معـيج بـن إيـاد ين نزار. ولدت لعمرو بن جندب بن العنبر. وذكر أن اسمها: مارية بنت ربيعـة، مـن عجـل، وكانـت عنـد (جنـدب بـن العنـبر) فولـدت لـه (عـدي بـن جنـدب)، وكانـت حمقاء حسناء.

وضربوا المثل بـ (جوف حمار). وقالوا: هو أكفر من حمار، وأخلى من جوف حمار. وهو رجل من عاد، يقال له حمار بن مويلع، وجوفه واد له طويـل عـريض. لم يكـن بـبلاد العـرب أخصـب منـه، وفيـه مـن كـل الثمـرات، فخـرج بنـوه يتصـيدون: فأصابتهم صاعقة فهلكوا، فكفر. وقال: لا أعبد مـن فعـل هـذا ببـني، ودعـا قومـه إلى الكفر فمن عصاه قتله، فأهلكه الله تعالى وأخرب واديه، فضـرب العـرب بـه المثـل في الخراب والخلاء. قال الأفوه الأودي:

وبشـؤم البغـي والغشـم قـديماً	قد خـلا جـوف ولم يبـق حمـار

وذكر أنّ الجوف واد بأرض عاد، فيه ماء وشجر، حماه رجل اسمه حمار كان له بنون فأصابتهم صاعقة فماتوا، فكفر كفراً عظيماً وقتل كل من مر به من الناس. فأقبلت نار من أسفل الجوف فأحرقته ومن فيه وغاض ماؤه فضربت العرب به المثل. فقالوا: أكفر من حمار، ووادٍ كجوف الحمار وكجوف العبر وأخرب من جوف حمار.

وورد أنه (حمار بن مالك)، وهو رجل من عاد وقيل من العمالقة. كان مسلماً أربعين سنة في كرم وجود، فخرج بنوه عشرة للصيد، فأصابتهم صاعقة فهلكوا. فكفر كفراً عظيماً. وقال لا أعبد من فعل ببنيّ هذا. وكان لا يمر بأرضه أحد إلاّ دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلاّ قتله. فأهلكه الله وخرب واديه.

واذا وعد إنسان وعداً، فعليه الوفاء به، لأن من شمائل الكريم الوفاء بالوعود والعهود. قالت العرب: «خلاف الوعد من أخلاق الوغد». وكانت العرب تستعيبه وتستقبحه. وقد ضربوا المثل برجل من العرب في مخالفته المواعيد، فقالوا: «مواعيد عرقوب». وعرقوب صاحب المواعيد، قيل: إنه من الأوس، كان أكذب أهل زمانه. فضربت به العرب المثل في الخلف، فقالوا: مواعيد عرقوب. وذلك إنه أتاه سائل، وهو أخ له، يسأله شيئاً. فقال له عرقوب: اذا أطلع نخلي، «وفي رواية: اذا أطلعت هذه النخلة»، فلما أطلع، أتاه على العِدَة، قال: اذا أبلح، فلما أبلح أتاه؛ قال: اذا أزهى، فلما أزهى أتاه، قال: اذا أرطب، فلما أرطب أتاه؛ قال: اذا أتمر. فلما أتمر، عمد إليه عرقوب وجدّهُ ليلاً، ولم يعطه منه شيئاً. فصارت مثلاً في إخلاف الوعد. وورد:

وأكذب من عرقوب (يثربَ) لهجة وأبين شؤماً في الحوائج من زحل

وورد «مواعيد عرقوب أخاه بيترب» بالتاء وهي باليمامة. ويروى بالمثلثة، وهي مدينة الرسول نفسها. ويقال: هو أرض بني سعد. والأول أصح، وبه فسر قول كعب بن زهير:

كانت مواعيد (عرقوب) لها مثلاً   وما مواعيدها إلاّ الأباطيل

وورد: «هو أكذب من عرقوب يثرب»، وتقول: «فلان إذا مطل تعقرب وإذا وعد تعقرب». ومن أمثالهم: «الشرّ ألجأه الى مخ عرقوب» «وشر ما أجآك إلى مخة عرقوب»، أي: عرقوب الرجل لأنه لا مخَّ له. يضرب هذا عند طلبك من اللئيم أعطاك أو منعك، وهو لغة بني تميم. ومن المستعار: ما أكثر عراقيب هذا الجبل. العراقيب خياشيم الجبال وأطرافها وهي أبعد الطرق، لأنك تتبع أسهله أين كان. والعراقيب من الأمور كالعراقيل عظامها وصعابها.

وضَربوا المثل في الإقامة على الذل برجل من ضيّة، زعموا أنه عرف عندهم بـ (قضَيب) فقالوا: أصبر من قضيب. و(قضيب) رجل آخر تمار بالبحرين، كان يأتي تاجراً فيشتري منه التمر، ولم يكن يعامل غيره.

وضربوا المثل بـ (حديث خرافة). زعموا أنه كان رجلاً من (بني عذرة) أو من (بني جهينة) سبته الجن، فكان يكون معهم، فاذا استرقوا السمع أخبروه فيخبر أهل الأرض. فيجدونه كما قال. وقبل: «استهوته الجن واختطفته ثم رجع إلى قومه، فكان يحدث بما رأى، يعجب منها الناس، فكذبوه، فجرى على ألسن الناس وقالوا: هذة خرافة. ويقال آيضاً للخرافات الموضوعة من حديث الليل: حديث خرافة. وذكر أن (عائشة) قالت: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثيني: قلت ما أحدثك حديث خرافة. قال: اما إنه قد كان». وذكَر أيضاً أنه قال لها: «إن أصدق الأحاديث حديث خرافة».

المصادر والمراجع

1. علي عبد الواحد وافي: علم اللغة، شركة نهضة مصر، الطبعة الحادية عشر، 2006، ص229 – 234.
2. فندريس. ج، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، القاهرة، 1950م، ص 349 – 350.
3. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص232– 236.
4. المصدر نفسه، ص236.
5. حاتم صالح الضامن، علم اللغة، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، الموصل، 1989 م، 121– 122.
6. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1997 م، ص 175.
7. علي عبد الواحد، علم اللغة، ص 239، إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1965م، ص 20– 21.
8. علي عبد الواحد، علم اللغة، ص 230– 231.
9. المصدر نفسه، ص231– 232.
10. المصدر نفسه، ص 237– 239.
11. المصدر نفسه، ص 240.
12. عامر سليمان، التراث اللغوي في (موسوعة حضارة العراق)، بغداد، 1985م، ج 1ص282، ح.م، روبرتس، موجز تاريخ العالم، ترجمة فارس قطان، منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، سورية – دمشق، 2004، ج 1، ص97.
13. أختلف المؤرخون في أصل السومريون، إذ لم يتمكنوا من إرجاع لغتهم إلى أية عائلة من العائلات اللغوية الثلاث، وهي عائلة اللغات السامية، وعائلة اللغات الحامية، وعائلة اللغات الهندية أوربية، لذا فأن فريقاً من الباحثين يرى بأنهم جاءوا أصلاً من مكان في شرق بلاد النهرين أو جنوبها الشرقي، ويرى فريق آخر بأنهم جاءوا عن طريق البحر وأنهم من نفس الجنس الذي وصل إلى مصر في عصر ما قبل الأسرات، بينما يرى فريق ثالث أنهم نشأوا نشأة محلية وتطورت حضارتهم محلياً اي انهم لم يكونوا من الأجانب، وافترض رأي رابع أن السومريون هاجروا من منطقة تقع

فيما بين شمال الهند وبين أفغانستان وبلوجستان واستقروا بعض الزمن في غربي إيران ثم نزحوا إلى بلاد الرافدين عن طريق الخليج العربي وجزره البحرية، أحمد أمين، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، 2008 م، ص 158، أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، 2008م، ص 346.

14. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، شركة دار الوراق، الطبعة الأولى، بيروت، الحمرا، 2009م، ج 1، ص76، عبد الحكيم الذنون، الذاكرة الأولى، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القديم لبلاد الرافدين، دار المعرفة، الطبعة الثانية، دمشق، 1413 هـ – 1993م، ص41.

15. فاضل عبد الواحد، من ألواح سومر إلى التوراة، بغداد، 1989، ص39، عامر سليمان، من التراث اللغوي، مصدر سابق، ص 280.

16. فوزي رشيد، قواعد اللغة السومرية، دار صفحات للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، سورية – دمشق، 2009 م، ص 36– 37.

17. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، مصدر سابق، ج1، ص 77.

18. عامر سليمان، من التراث اللغوي، ص 281، فوزي رشيد، قواعد اللغة السومرية، ص 51– 53.

19. فوزي رشيد، قواعد اللغة السومرية، ص 27– 29.

20. Sabatino Moscati، Ancient Semitic Civilizations, London, 1955. p 69

21. أحمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1406هـ – 1986م. ج 2 ص15، حصن ظاظا الساميون ولغاتهم.

22. Von Saodden، W. Grundriss Der Akkadain Grammatik, Roma, 1969, P.33.

23. هنري س. عبودي، معجم الحضارات السامية، جرس برس، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، 1411 هـ – 1991م، ص114.

24. محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة، 1978م، ص68.

25. تصنف عائلة اللغات السامية إلى مجموعات أو كتل لغوية على أساس التوزيع الجغرافي والتشابه اللغوي إلى المجموعات اللغوية التالية:

أ. كتلة اللغات السامية الشرقية: وتتمثل باللغة الأكدية Akkadian language التي أنتشرت بلهجاتها البابلية Babylonian والآشورية Assyrian في بلاد وادي الرافدين.

ب. كتلة اللغات السامية الغربية: وموطن هذه الكتلة بالدرجة الأولى في بلاد الشام بمفهومها الجغرافي التأريخي العام، وتنقسم بعدها إلى مجموعتين كبيرتين هما، مجموعة اللغات الكنعانية وتضم اللغة المؤابية والفينيقية والعبرية والأوغارتية، ومجموعات اللغات الأرامية التي تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين وهما المجموعة الشرقية والمجموعة الغربية.

ج. كتلة اللغات السامية الجنوبية: وتضم العربية الجنوبية والعربية الشمالية والحبشية، ينظر: طه باقر، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، مصدر سابق، ج1، ص94، صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان، 2009، ص47، سباتينو موسكاني، مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن، ترجمة مهدي المخزومي وعبد الجبار المطلبي، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت، 1414هـ – 1993م، ص18.

26. نائل حنون، المعجم المسماري، بيت الحكمة، الطبعة الأولى، بغداد، 2001 م، ج1، ص123، أحمد أرحيم هبو، معالم حضارة الساميين وتاريخهم في سورية وبلاد الرافدين، دار القلم، الطبعة الأولى، سورية – حلب، 1423هـ – 2003م، ص32.

27. عامر سليمان، قواعد اللغة الأكدية (البابلية – الآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1412هـ – 1991 م، ص196–197.

28. سامي سعيد الأحمد، المدخل إلى دراسة تاريخ اللغات الجزرية، منشورات أتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1981، ص16.

29. عامر سليمان، قواعد اللغة الأكدية، مصدر سابق، ص200.

30. سامي سعيد الأحمد، المدخل، ص16.

31. فوزي رشيد، قواعد اللغة الأكدية، دار صفحات للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، سورية– دمشق، 2009م، ص17.

32. عامر سليمان، قواعد اللغة الأكدية، ص250 – 261، مصدر سابق.

33. عامر سليمان، من التراث اللغوي، ص 292.

34. احمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار مفيس للطباعة، الطبعة الثانية، القاهرة 1963، ص21، طه باقر، المقدمة، ص 386، عامر سليمان، اللغة الاكدية، ص 34، 38.

35. اندريه ايمار، تاريخ الحضارات العام، ترجمة: فريدم داغر، عويدات للنشر والطباعة، بيروت – لبنان، 2003م الجزء الأول، الشرق واليونان القديم، ص173.

36. طه الهاشمي، التاريخ والحضارة في الأزمنة الغابرة، مطبعة دنكور الحديثة، بغداد، 1936م، ص25، جان بوتيرو، بلاد الرافدين – الكتابة – العقل – الإلهة، ترجمة: الأب ألبير أبونا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990، ص96.

37. عامر سليمان، اللغة الاكدية، ص 31، 99، طه باقر، المقدمة، ص76.

38. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص235. c. t Von Soden .p24،

39. عامر سليمان، اللغة الاكدية، ص 38، طه باقر، المقدمة، ص103.

40. قامت سلالة اور الثالثة (2112 – 2004 ق. م) بعد فترة حكم الكوتيين، اللذين قضوا على الدولة الاكدية وقد اسس هذه السلاله السومريون ودام حكمها زهاء القرن الواحد وحكم منها خمسة ملوك كان اخرهم (ابي– سن) حيث هجم العيلاميون على البلاد واحتلوها وهكذا شهدت السنون الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد احتضار الشعب السومري في نهضته الثانية وانقرض حكم السومريون نهائيا. ينظر: طه باقر، المقدمة، ص413 – 423. احمد سوسة، حضارة وادي الرافدين ومراحل تطورها عبر العصور، وزارة الإعلام العراقية – بغداد 1979م، ص140

41. الاقوام الامورية هي من الاقوام السامية القديمة التي قدمت الى بلاد بابل سالكة الطريق المحاذي لنهر الفرات، وانتشرت في العراق في اعقاب سقوط سلالة اور الثالثة واسست لها عددا من الدويلات والممالك المهمة التي انضمت اخيرا تحت حكم سلالة بابل الاولى في عهد ملكها الشهير حمورابي، وقد اتسع استخدام اللغة الاكدية في عهد هذه الاقوام التي لم تستخدم لغتها التي تنتمي هي الأخرى إلى

عائلة اللغات السامية بل استخدمت اللغة الاكدية بلهجتها البابلية القديمة في جميع المكاتبات والمعاملات الرسمية والشخصية. ينظر: عامر سليمان من التراث اللغوي، ص290، احمد سوسه، حضارة وادي الرافدين، ص 142.

42. عامر سليمان، قواعد اللغة الاكدية، ص 38.

43. علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، شركة نهضة مصر، الطبعة الخامسة، 2007م، ص24. كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، 1397هـ – 1977م، ص 16.

44. عامر سليمان، قواعد اللغة الاكدية، ص53، طه باقر، المقدمة، ص76، محمود فهمي حجازي، علم اللغة، ص156.

45. عامر سلمان، قواعد اللغة الاكدية، ص53، فوزي رشيد، قواعد الغة الاكدية، ص11: ينظر ايضا: J. A grammar of Akkadian،Huehn ergard ، p157، 1996،Atlant

46. عامر سلمان، قواعد اللغة الاكدية، ص99.

47. استعمل الاكديون الخط المسماري السومري بكل مكوناته ودلالاته ف كتابة لغتهم وهو خط صوري – مقطعي – دلالي، تطور الى خط مقطعي بالدرجة الأولى نهاية الأمر وهو على عكس الخط العربي وباقي اللغات السامية حيث تكون الكتابة فيه من اليسار الى اليمين، ينظر:

أ. Chiago 1961. p 11, rammar Gelb، J، Old Akkadia Writing and G

ب. From pictop raph Alphabet، Oxford 1976. p 39. Semetic Writing

48. طه باقر المقدمة، ص 389، كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص16.

49. طه باقر، المقدمة، ص541.

50. احمد امين سليم، دراسات ف تاريخ الشرق القديم، ص 138 – 139.

51. احمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعه والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة، 1990 م، ص162.

52. طه باقر، المقدمة، ص546. احمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص 166.

53. تضم المجموعه الشرقية مجموعة من اللهجات وهي أ – آرامية التلمود البابلي، ب – أرامية الصابئة، ج– اللغة السريانية، د – آرامية الدولة، اما المجموعة الشرقية

فتضم أ – الارامية النبطية، ب – الارامية التدمرية، ج – الارامية اليهودية، د – الارامية الفلسطينية المسيحية. ينظر حسن ظاظا الساميون ولغاتهم، ص 93 – 99.

54. طه باقر، المقدمه، ص546، احمد امين سليم، دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم، ص140
55. حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص93
56. عامر سليمان، قواعد اللغة الاكديه، ص42
57. علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص28
58. ربحي كمال، قواعد اللغة العبريه، عالم الكتب، بيروت،1980، ص34
59. علي العناني واخرون، الاساس في الامم الساميه ولغاتها، الطبعة الاولى، القاهره، 1935 م، ص33
60. محمد بدر محمد، الكنز في قواعد اللغة العبريه، القاهره، 1926 م، ص 53– 54
61. علي العناني، المصدر السابق، ص59
62. علي عبد الواحد وافي،فقه اللغة، ص39
63. اسرائيل ولسنتن، تاريخ اللغات الساميه، دار القلم – بيروت، 1980 م، ص89
64. علي عبد الواحدوافي، فقه اللغه، ص42
65. ربحي كمال، قواعد اللغة العبريه، ص39
66. اسرائيل ولسنتن، تاريخ اللغات الساميه، دار القلم – بيروت، 1980 م، ص90
67. محمود فهمي حجازي، علم اللغه، ص180– 181
68. خالد اسماعيل ، فقه لغات العاريه المقارن، اربد، 2000 م، ص35
69. علي عبد الواحد وافي، فقه اللغه، ص78
70. السيد يعقوب بكر،دراسات في فقه اللغه، بيروت،1969 م، ص7
71. محمود فهمي حجازي، علم اللغه، ص219
72. كاصد الزيدي، فقه اللغة العربيه، الموصل، 1987 م، ص105
73. رمضان عبدالتواب، فصول في فقه اللغة العربيه، الطبعة الاولى، القاهره، 1977 م،ص28
74. السيد يعقوب بدر، مصدر سابق، ص15
75. علي عبد الواحد وافي، فقه اللغه،ص128

76. صبي الصالح،دراسات في فقه اللغة، ص117
77. السيد يعقوب بكر، دراسات في فقه اللغة، ص15
78. علي عبد الواحد وافي، فقه اللغه،ص55
79. المصدر نفسه، ص56
80. علي عبد الواحد وافي، علم اللغه،ص231– 232
81. محمود فهمي حجازي، المصدر السابق، ص381– 384
82. علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة ص58
83. خالد اسماعيل، فقه اللغات العاربه، ص65– 59
84. علي عبد الواخحد وافي، فقه اللغة،ص63– 64
85. المصدر نفسه، ص 64
86. المصدر نفسه ص65

تاريخ العرب قبل الإسلام







الأردن - عمان - وسط البلد - ش. الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
هاتف : 96264646208+ فاكس : 96264646470+

الأردن - عمان - مرج الحمام - شارع الكنيسة - مقابل كلية القدس
هاتف : 96265713906+ فاكس : 96265713907+
جوال : 00962-797896091

info@al-esar.com - www.al-esar.com



دار الاعصار العلمي